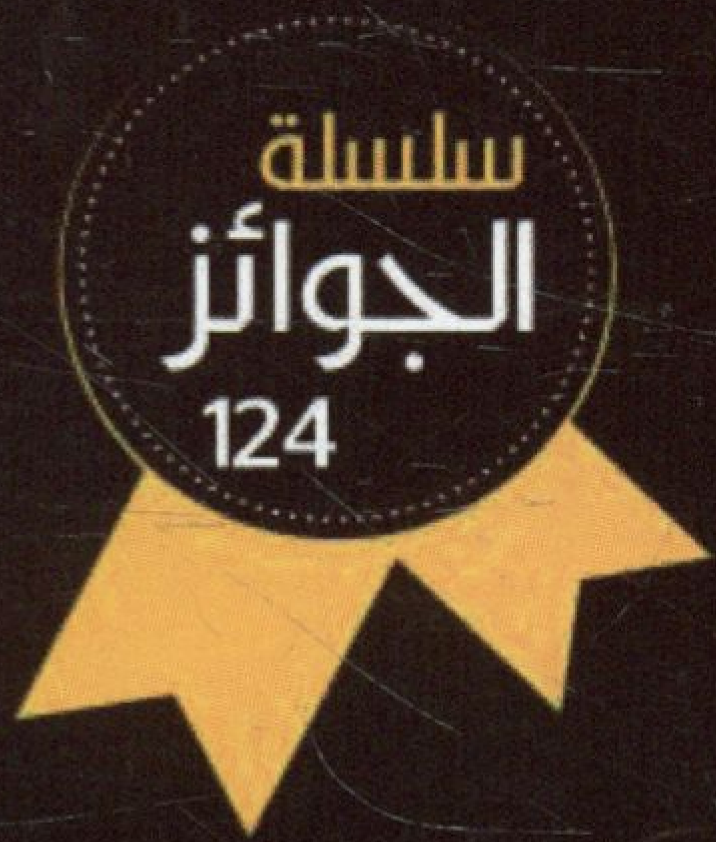




جوناثان فرانزن

التصحيحات

رواية

ترجمة : عمرو خيري



الهيئة المصرية العامة للكتاب

جوناثان فرانزن، كاتب أمريكي.

- ولد عام 1959 بولاية إلينويز.
- نشر روايته الأولى "المدينة السابعة والعشرون" في عام 1988 ولاقت استقبالا نقديا معقولا. ونشر روايته الثانية "حركة قوية" 1992، تليها روايته الأهم حتى الآن "التصحيحات" عام 2001 وذلك بالرغم من صدور روايته الأخيرة "الحرية" في عام 2010، وله ثلاثة كتب أخرى.
- حصل على العديد من الجوائز الأدبية من أهمها جائزة الكتاب الوطنية 2001 ورُشح لجائزة بوليتزر في الأدب2002 وجائزة فوكنر2002 .
- يعيش جوناثان فرانزن الآن في مدينة نيويورك ويكتب في مجلات ثقافية منها "نيويوركر" و"هاربر".

جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية

جائزة الكتاب الوطنية – فرع الأدب، تعتبر من أهم الجوائز الأدبية الأمريكية. تقدم سنويًا على عمل أدبي صدر على مدار العام، بناء على ترشيحات دور النشر المختلفة، على أن يكون كاتبها أمريكيًا. تقدم الجائزة "المؤسسة الوطنية للكتاب" ويُقال عنها إنها "جائزة الكتاب إلى الكتاب"، ويتم تشكيل لجنة الجائزة من خمسة كتاب معروفين بإسهاماتهم المهمة في مجالاتهم المختلفة.
يحصل الفائز على جائزة بقيمة عشرة آلاف دولار ودرع برونزي.
من الأدباء الذين حصلوا على هذه الجائزة، ويليام فوكنر، رالف إليسون، سول بيلو، برنارد مالامود، فيليب روث، جون أبدايك، جويس كارول أوتس، توماس بينشون، ويليام جاديس، أليس ووكر، دون ديليلو، كورماك مكارثي، سوزان سونتاج.

التصحيحات

فرانزن، چوناثان، ١٩٥٩ ـ ....

التصحيحات: رواية/ چوناثان فرانزن: ترجمة: عمرو خيرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

٨٤٨ص؛ ٢٣سم.

تدمك ٤ ٨٤٧ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ خيرى، عمرو (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٩٢/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 747 - 4

ديوى ٨٢٣

التصحيحات

«رواية»

جوناثان فرانزن

ترجمة: عمرو خيرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

• الكتاب: التصحيحات

The Corrections

• تأليف: چوناثان فرانزن

Jonathan Franzen

• ترجمة: عمرو خيرى

• الطبعة الأولى ٢٠١٤.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

إهداء

إلى ديفيد مينز وجينيف باترسن

سان جود

جنون برد البرارى الخريفى يتسرب عبر الباب. شىء مروع سيحدث، تكاد تستشعره. الشمس دانية من الأرض، نورها واهن، نجم بارد. موجة وراء موجة من الفوضى. الأشجار قلقة لا تهدأ، درجة الحرارة تنحسر. لا أطفال فى مداخل هذه البيوت. الظلال تستطيل على العشب الأصفر. شجرات البلوط الحمراء والبلوط الأبيض تنهمر ثمراتها كالمطر على أسطح منازل سُددت أقساطها. ثم أزيز وطنين الغسالة، الصوت الحاد لمروحة إزالة أوراق الخريف، نضوج التفاحات البلدية فى كيس من الورق، رائحة البنزين الذى نظف به ألفريد لامبرت الفرشاة بعد أن عمل على "مقعد الحب" فى الصباح.

الثالثة بعد الظهر هو وقت الخطر فى ضواحى العجائز هذه فى سان جود. أفاق ألفريد من غفلته على كرسيه الأزرق الكبير الذى ينام فيه منذ الغداء. انتهى من قيلولته، ولن تُذاع نشرة أخبار محلية جديدة حتى الخامسة. ساعتان من الفراغ كجيب مرضى تتوالد فيه الجراثيم. نهض بصعوبة إلى قدميه ووقف بجوار مائدة تنس الطاولة، يصيخ السمع محاولاً بلا فائدة تسمّع أصوات إنيد.

فى شتى أرجاء المنزل جرس إنذار لا يسمعه بشكل مباشر إلا ألفريد وإنيد. جرس إنذار القلق. كأحد تلك الأطباق الحديدية الكبيرة المعلقة بها كلابات ترن فيخرج أطفال المدارس إلى الشوارع، فى تدريبات الحريق. يرن الجرس منذ ساعات طويلة حتى إن ألفريد وإنيد لم يعودا يسمعان رسالة مباشرة مفادها "الجرس يرن"، لكن وكحال أى صوت يستمر طويلاً هكذا بحيث تُتاح لك رفاهية معرفة عناصره الصوتية (كما هو حال أية كلمة تحدق فيها بما يكفى لتفك لك شفرتها متحولة إلى سلسلة من الحروف الميتة)، أصبحا يسمعان بدلاً من الجرس كلابة تدق بهمة على قطعة معدن ذات دوىّ، ليست نغمة رائقة بل سلسلة من الخبطات تعلوها طبقة من النغمات، ترن منذ أيام حتى امتزجت بأصوات خلفية المكان، إلا أنه فى بعض الصباحات الباكرة عندما يفيق هو أو هى من النوم وهو غارق فى العرق ويدرك أن ثمة جرسًا يرن فى رأسه منذ زمن بعيد، يرن منذ شهور حتى إن الصوت تحول إلى موجات فوق صوتية انخفاضها وارتقائها ليس تحولات موجات صوتية بل انحناءات وتحولات بطيئة جدًا تداعب إدراكه بالصوت. هذا الإدراك يكون حادًا للغاية والطقس متقلب. وقتها يشعر كل من ألفريد وإنيد ـ هى على ركبتيها فى حجرة الطعام تفتح الأدراج وهو فى القبو يفحص مائدة تنس الطاولة فى حالتها المزرية ـ بالاقتراب من الانفجار بسبب القلق.

قلق الكوبونات، فى درج فيه شمع بألوان موسم الخريف. كوبونات فى حزم ملفوفة بأستك، تدرك إنيد أن تاريخ صلاحيتها انتهى (عادة ما تكون حول تاريخ الصلاحية دائرة حمراء) ترقد منذ شهور وسنوات فى الماضى، هذه الكوبونات المائة ونيف، قيمتها

الإجمالية تتعدى ستين دولارًا (ربما مائة وعشرين دولارًا من سوبرماركت شيلتسفيل الذى يضاعف أسعار الكوبونات)، انتهت صلاحيتها جميعًا. تيلكس، خصم ستين سنتًا، إكسدرين، خصم دولار. لم تكن تواريخ انتهاء الصلاحية قريبة حتى. هذه التواريخ تاريخية. وجرس الإنذار يرن منذ سنوات.

دفعت بالكوبونات بين الشموع وأغلقت الدرج. كانت تنظر فى رسالة جاءت بالبريد المُسجل قبل أيام. سمع ألفريد البوسطجى يطرق على الباب فصاح: "إنيد! إنيد!" بصوت عال بما يكفى لإجبارها على أن تصيح فيه: "آل، أنا فى طريقى للباب!" واستمر فى ترديد اسمها صائحًا وصوته يقترب مع كل صيحة، ولأن الرسالة كانت قادمة من شركة أكسون، ٢٤ شارع إيست إندستريال سرينتاين، شوينكسفيل، ولاية بنسلفانيا، ولأنه كان فى موضوع أكسون ما تتعلق به آمال إنيد وتأمل ألا يعرف به ألفريد، فسرعان ما ألقت بالرسالة على مسافة ١٥ قدمًا من الباب. خرج ألفريد من القبو يصيح كوابور الزلط: "هناك من يطرق الباب!" فصرخت: "إنه البوسطجى، البوسطجى!" وهز رأسه من الحيرة من هذا الموضوع المعقد.

أحست إنيد أنها سترتاح إذا لم تعد مضطرة للتفكير كل خمس دقائق فيما يفعله ألفريد. لكن وعلى محاولاتها لم تتمكن من حمله على الاهتمام بالحياة. عندما شجعته على العودة لتجاربه فى كيمياء الفلزات، نظر إليها وكأنها فقدت رشدها. عندما سألته إن كان هناك ما يمكن أن يعمله فى الحديقة الأمامية، قال إن ساقيه تؤلمانه. عندما ذكرته بأن أزواج صديقاتها لهم هوايات (ديف شومبرت يصبغ الزجاج، وكيربى رووت يبنى الأعشاش الرقيقة

للعصافير، وتشاك مايزنر يراقب استثماراته فى البورصة)، تصرف ألفريد وكأنها تحاول إلهاءه عن عمل عظيم يؤديه. لكن ما هذا العمل؟ إصلاح أثاث الشرفة الأمامية؟ إنه يعيد طلاء مقعد الحب منذ عيد العمال. تتذكر آخر مرة قام بطلاء الأثاث، وقتها طلى مقعد الحب فى ساعتين. والآن يذهب إلى ورشته فى القبو كل صباح، وبعد شهر دخلت لترى ما أنجزه لتجده لم يطل من المقعد إلا قوائمه.

يبدو أنه يرجو أن تبتعد عنه. قال إن الفرشاة جفت مرة أخرى، وأنه لهذا السبب يستغرق وقتًا طويلاً. قال إن تقشير الطلاء القديم أشبه بمحاولة تقشير التوت. قال إن هناك صراصير. أحسّت وقتها بضيق تنفس، لكن ربما كانت رائحة البنزين والرطوبة فى الورشة هى الشبيهة برائحة البول (لكن لا يمكن أن يكون بولاً). هربت للطابق العلوى بحثًا عن رسالة أكسون.

ستة أيام فى الأسبوع تمر عدة أرطال من الرسائل من فتحة بوسطة الباب الأمامى، وبما أنه لا توجد أحداث عارضة تسمح بتكوم الرسائل وراء الباب ـ بما أن أسطورة العيش فى هذا البيت أن لا أحد يعيش فيه حقًا ـ واجهت إنيد تحديًا كبيرًا. لم تر فى نفسها عنصرًا فى ميليشيا متمردة، لكنها كانت عنصرًا فى ميليشيا متمردين. فى النهار تنقل الأغراض من مكان إلى مكان وهى تسبق بخطوة واحدة السلطة الحاكمة فى البيت. وفى الليل وتحت إنارة ساحرة لكن واهنة للغاية، جالسة إلى مائدة صغيرة فى زاوية الإفطار، تؤدى عدة أعمال: تدفع الفواتير، تصفى الحسابات، تحاول فك شفرة السجلات الطبية وتحاول فهم تهديدات الإخطارات الثالثة من المعمل الطبى الذى يطالب بدفع مبلغ ٠,٢٢

دولارًا على الفور، بينما فى الوقت نفسه يظهر أن حساب المعمل ٠,٠٠ دولار مما يشير إلى أنها لا تدين بشىء للمعمل، والمعمل على أية حال لم يوفر عنوانًا لتلقى المبلغ. ربما كان الإخطاران الأول والثانى لم يصلاها، وبسبب كل الضغوط الثقيلة التى تباشر إنيد فى ظلها واجباتها المنزلية، فربما لم تلحظ وجود هذين الإخطارين. ربما كان الإخطاران فى دولاب حجرة المعيشة، لكن السلطة الحاكمة، ممثلة فى شخص ألفريد، يجلس يشاهد التليفزيون بصوت مرتفع بما يكفى كى يبقى مستيقظًا، وقد أضاء كل أنوار حجرة المعيشة، وهناك احتمال يعتد به أنها إذا فتحت باب الدولاب فسوف تسقط أكوام من الكتالوجات وأعداد مجلة "جمال منزلك" وعدد هائل من إشعارات بنك ميريل لينش، مما قد يثير غضب ألفريد. كما أن هناك احتمالاً ألا تجد الإخطارين، بما أن السلطة الحاكمة تشن مداهمات عشوائية على مخابئها، وتهدد بالـ"تخلص" من كل شىء إذا لم تعتن به، لكنها كانت مشغولة بتفادى هذه المداهمات بحيث لم يُتح لها الوقت لمحاولة الاعتناء، وفى مجموعة من الهجرات الجماعية والترحيلات كان أى شىء يشبه النظام قد اختفى، وكذلك فُقدت حقيبة التسوق التى كانت تتمركز وراء المقشة. وإحدى يديها البلاستيكية مقطوعة، وفيها كل عناء اللاجئين: أعداد غير متتالية من مجلة "اعتنى بمنزلك"، وصور أبيض وأسود لإنيد فى الأربعينيات، ووصفات طعام على ورق قديم مطلوب فيها "خس ذابل"، فاتورة التليفون وفاتورة الغاز لهذا الشهر، الإخطار التفصيلى الأول من المعمل الطبى يطالب العميل بتجاهل الفواتير الذى قد تأتيه بعد ذلك وفيها مطالبات بمبالغ أقل من خمسين سنتًا، صورة مجانية من رحلة بحرية لإنيد وألفريد يرتديان فيها عقود الورد

ويرشفان المشروبات من ثمرتى جوز هند مجوفتين، والنسخ الوحيدة المتوفرة من شهادات ميلاد الأولاد، على سبيل المثال لا الحصر.

ورغم أن خصم إنيد اللدود هو ألفريد، فإن ما جعل منها ميليشيا متمردة أن المنزل يحتله كلاهما. فأثاثه من النوع الذى لا يتمتع بأى وجه من أوجه التميز. هناك مقاعد وموائد من شركة "إيثان آلين". قطع أثاث من "سبود آند واترفورد" فى مدخل البيت. أشجار زينة فيكوس، شجرات صنوبر من نورفولك. نسخ من مجلة "التصميم المعمارى" على مائدة صغيرة بسطح زجاجى شفاف. غنائم تذكارات السائحين: صينى من الصين، صندوق موسيقى من فينيسيا تفتحه إنيد بدافع الإحساس بالواجب من الحين للآخر. وكان اللحن المنبعث من الصندوق لما يُفتح هو "غرباء فى الليل".

وللأسف لم تكن إنيد تتمتع بالصبر اللازم لإدارة منزل كهذا، ولا يتمتع ألفريد بالقدرات النفسية العصبية الكافية. صيحات غضب ألفريد لدى اكتشاف دلائل على تحركات الميليشيا ـ حقيبة نوردستروم فى وضح النهار على درجات سلم القبو، تنبئ بسقطة وشيكة يعانيها ـ هى فى حقيقتها صيحات حكومة لم تعد قادرة على الحُكم. بدأ مؤخرًا تعتريه الرغبة فى أن تبصق آلته الحاسبة لفافات من صفوف من ثمانية أرقام لا معنى لها. بعد أن كرس أغلب فترة ما بعد الظهر لحساب الضريبة المدفوعة عن عاملة التنظيف خمس مرات ليخرج منها بأربعة أرقام مختلفة، كى يقبل أخيرًا بالرقم الذى توصل إليه مرتين (٦٣٥,٧٨ دولارًا) (الرقم الصحيح هو ٧٠,٠٠ دولاراً)، شنت إنيد هجمة ليلية على خزانة أوراقه لتقوم بتصفية جميع ملفات الضرائب منها، مما قد يعنى تحسين كفاءة إدارة المنزل، لو لم تكن الملفات قد وجدت طريقها إلى

حقيبة نوردستروم برفقة بعض الأعداد القديمة من "التدبير المنزلى" مختفية داخلها بعض الوثائق الأخرى، وهى خسائر الحرب التى أسفرت عن تعبئة عاملة التنظيف لاستمارات الضرائب بنفسها، مع تحرير إنيد للشيكات وهز الفريد لرأسه من تعقيد هذه القضية الشائكة.

إن مصير أغلب موائد تنس الطاولة فى أقبية المنازل هو أن تخدم مصالح أخرى فى نهاية المطاف، أن تخدم فى ألعاب أخرى. بعد أن خرج ألفريد على المعاش، خصص الطرف الشرقى من المائدة لحساباته البنكية ومراسلاته. ولدى الطرف الغربى تم وضع تليفزيون ملون صغير محمول كان ينوى أن يشاهد عليه الأخبار المحلية وهو جالس فى مقعده الأزرق العظيم، لكن هذا الطرف من المائدة أصبح مغموراً بكميات هائلة من أعداد "التدبير المنزلى" وعبوات الحلوى الموسمية وشمعدانات رخيصة لم تجد إنيد الوقت الكافى مطلقاً لنقلها إلى مكان آخر. مائدة تنس الطاولة هى الميدان المفتوح الذى تستعر فيه الحرب الأهلية. لدى الطرف الشرقى آلة ألفريد الحاسبة تحاصرها زهريات صغيرة وتذكارات من مركز "إبكوت" وجهاز لعصر الكرز تملكه إنيد منذ ثلاثين عاماً ولم تستخدمه يومًا، بينما هو بدوره، لدى الطرف الغربى، ودون سبب واضح على الإطلاق يمكن لإنيد أن تستوعبه، مزق إلى قطع صغيرة إكليل زهور جافة من أقماع الصنوبر وزهرات صغيرة مرشوشة بالإسبراى وجوز برازيلى.

وإلى شرق مائدة تنس الطاولة الورشة التى وضع فيها ألفريد معمل كيمياء الفلزات. الورشة التى أصبحت مستعمرة لصراصير خرساء بلون التراب، والتى عندما يزعجها أحد تتفرق فى شتى

أنحاء الحجرة كحفنة من كرات البلى، بعضها ينطلق فى زوايا مجنونة، وبعضها الآخر ينقلب على ظهره تحت وزن غطاء البروتوبلازم الثقيل على الظهر. تموت جميعها بسهولة، ونزحها عن الأرض يتطلب أكثر من منديل ورق واحد. لدى إنيد وألفريد "ديفوهات" كثيرة يرونها غير طبيعية وكبيرة ـ مخزية فى الواقع ـ والصراصير أحدها.

التراب الرمادى، تراب تعاويذ الشر وبيوت العنكبوت التى تهيمن على فرن الكهرباء القديم، وقوارير الروديوم العجيب والكادميوم الكئيب والبزموت القوى، والأوراق الملصقة بالقوارير المكتوب عليها أسماء العناصر أصفرً لونها من أبخرة زجاجة مغلقة بسدادة فلين، وكراسة فيها أحدث ما دوّن ألفريد بيده من نتائج التجارب، قبل خمسة عشر عامًا، قبل بدء الخيانات. شىء يومى وودود كالقلم الرصاص ما زال يحتل بقعة عشوائية من الطاولة التى جهزها ألفريد فى عقد مختلف من الزمان، مرور سنوات كثيرة ملأ مظهر القلم الرصاص بشىء من العداء. قفاز أسبستوس معلق من مسمار تحت شهادتين ببراءتى اختراع، أُطر الشهادتين تضخما من الرطوبة والعطن. فوق الميكروسكوب ثنائى الأعين شرائح عريضة من الطلاء المقشر من السقف. الأشياء الوحيدة العارية من التراب فى الحجرة هى مقعد الحب، وعلبة من مزيل الصدأ وبعض الفرشات، وعلبتا قهوة "يوبان" واللتان رغم الأدلة الشمّية الدامغة، ترفض إنيد الاعتقاد بأنهما ممتلئتان ببول زوجها، إذ ما السبب المعقول ـ مع وجود نصف دورة مياه على مسافة أقل من عشرين ياردة -للتبول فى علبة يوبان؟

إلى غرب مائدة تنس الطاولة يقع مقعد ألفريد الأزرق العظيم. المقعد عملاق ممتلئ بالحشو، شبيه بمقاعد الملوك والحكام. مصنوع

من الجلد، لكن رائحته كرائحة صالون سيارة ليكساس. كشىء حديث وطبى من اليسير عليك أن تمسح عنه رائحة الموت، بقطعة قماش مبتلة، قبل أن يجلس عليه الشخص التالى ليحتضر فيه.

المقعد هو الشىء الغالى الوحيد الذى اشتراه ألفريد دون موافقة إنيد. عندما سافر إلى الصين لحضور اجتماع مع مهندسى السكة الحديد الصينيين، ذهبت إنيد معه وزارا مصنع سجاد لشراء سجادة لحجرة المعيشة. لم يكونا معتادين على إنفاق النقود على نفسيهما، من ثم اشتريا أرخص سجاد، عليه تصميم أزرق بسيط من "كتاب التغيرات" على خلفية من اللون البنى الفاتح. بعد سنوات قليلة، عندما تقاعد ألفريد من شركة ميدلاند باسيفيك للسكك الحديدية، أراد تغيير مقعد الجلد الأسود ذات رائحة الأبقار، الذى يشاهد فيه التليفزيون وينام ظهراً. أراد شيئًا مريحًا بحق، لكن بعد حياة طويلة من توفير احتياجات الآخرين كان يريد ما هو أكثر من الراحة: يريد نصبًا تذكاريًا لإشباع تلك الرغبة. فخرج وحده لمتجر أثاث غير مخفض واختار مقعد الأبد. مقعد لمهندس. مقعد كبير لدرجة أن أى رجل ضخم يضيع داخله. مقعد مصمم لتحمل الضغط العالى. ولأن جلده الأزرق يضاهى الأزرق فى سجادة حجرة المعيشة، فلم تتمكن إنيد من رفض وضعه فى الحجرة.

لكن بعد قليل بدأت أيدى ألفريد تسكب القهوة منزوعة الكافيين على مساحات السجادة البنية الشاسعة، وراح الأحفاد الأشقياء يسقطون التوت والحلوى حول المقعد، وبدأت إنيد تشعر بأن السجادة كانت غلطة. أحست أنها أثناء محاولة ادخار النقود طوال حياتها ارتكبت أخطاء من هذا النوع. وصلت إلى نقطة التفكير أنه من الأفضل عدم شراء سجادة غير هذه السجادة. أخيرًا، مع تحول

نوم قيلولة ألفريد إلى نوبات غياب سحرى عن الوعى، ازدادت جرأتها. تركت أمها لها ميراثاً صغيرًا قبل سنوات. الفائدة تُضاف إلى مبلغ الوديعة، وبعض الأسهم فى البورصة ارتفع سعرها كثيرًا، والآن أصبح لها دخلها الخاص. جددت حجرة المعيشة بألوان الأخضر والأصفر. اشترت الأقمشة، وجاءها ورق حائط عن طريق خدمة التوصيل للمنازل، أما ألفريد الذى أصبح ينام مؤقتًا فى حجرة الطعام، فقد هب إلى قدميه كرجل يفيق من كابوس.

"هل ستجددين مرة أخرى؟"

قالت إنيد: "إنها فلوسى، وأصرفها كما أشاء".

"طيب وفلوسى أنا؟ وما بذلته من جهد؟"

كانت هذه الحجة تجدى فى الماضى - كانت السند الدستورى لمشروعية الطاغية - لكنها لم تعد تنفع. أجابته إنيد: "هذه السجادة هنا منذ عشرة أعوام تقريبًا، ولن تخرج منها بقع القهوة".

أشار ألفريد إلى مقعده الأزرق، والذى تحت ورق الحائط بدا كأنه سلعة تُسلم لمحطة كهرباء على ظهر سيارة نقل مقطورة. راح يرتجف من الغضب لا يصدق ما تراه عيناه، لا يتصور أن إنيد نسيت حجته القوية التى كانت تقتل حججها، تلك العرقلة الغالبة لخططها. وكأن القيود التى عاشها طوال سنوات عمره التى تزيد على السبعين تتجسد فى هذا المقعد البالغ عمره ستة أعوام، والذى ما زال رغم هذا جديداً. راح يبتسم، وجهه يتوهج بقوة منطقه الذى لا يمكن أن يحيد عنه الحق.

"والكرسى؟ ماذا نفعل فى الكرسى؟"

نظرت إنيد إلى الكرسى. وجهها يرتسم عليه الألم الخفيف، لا أكثر: "لم أحبه عمرى".

لعل هذا أفظع رد كان يمكنها أن تقوله لألفريد. الكرسى هو البادرة الوحيدة على أن له رؤية شخصية للمستقبل. ملأته كلمات إنيد بالأسى - أحس بحزن بالغ على الكرسى، وتضامن تام معه، حزن المندهش من الخيانة - لدرجة أنه نزع عنه المفرش وغطس بين ذراعيه ونام.

(أسلوب للإقرار بأماكن السحر: عندما تنام الناس فيها هكذا).

عندما أصبح من الواضح أن السجادة وكرسى ألفريد يجب أن يرحلا، تم التخلص من السجادة بسهولة. أعلنت إنيد فى الإعلانات المبوبة المجانية فى صحيفة محلية عنها وأخذتها سيدة عصبية كالطائر فى حركته، كانت ما زالت ترتكب الأخطاء وفى الخمسينيات من عمرها، وجاءت ومعها كيس نقودها وأخرجت منها لفافة نقود أخذت منها القليل بأصابع ترتعش.

لكن الكرسى؟ الكرسى أثر تاريخى ورمز ولا يمكن إبعاده عن ألفريد. لا يمكن التعامل معه إلا بتغيير موقعه، وهكذا نزل إلى القبو وتبعه ألفريد. وهكذا، ففى بيت السيد والسيدة لامبرت، كما هو الحال فى سان جود عمومًا، والبلد بأسره، أصبحت الحياة تُعاش تحت الأرض.

* * *

إنيد تسمع ألفريد فى الطابق العلوى، يفتح ويقفل الأدراج. أصبح يعتريه الضيق كلما سافرا لزيارة أبنائهما. زيارة الأبناء هى الشىء الوحيد الذى يبدو أنه ما زال يهتم به.

من وراء نوافذ حجرة الطعام النظيفة الخالية من البقع فوضى عارمة. الرياح الحائرة، الظلال المراوغة. بحثت إنيد فى كل الأماكن عن الرسالة القادمة من شركة أكسون، ولم تجدها.

ألفريد واقف فى حجرة النوم يتساءل عن السبب أن أدراج دولابه مفتوحة، من فتحها، وهل فتحها هو. لم يجد بداً من لوم إنيد على ارتباكه. على أنها تشهد على وجود هذا الارتباك. لوجودها فى حد ذاته، كإنسانة ربما فتحت هذه الأدراج.

"آل؟ ماذا تفعل؟"

التفت إلى الباب الذى ظهرت من وراءه. بدأ فى جملة: "أنا.." لكن عندما تأخذه المفاجأة فإن كل جملة تصبح مغامرة فى الأدغال، ما إن يغيب عنه ضوء الفتحة التى دخل منها، يدرك أن الفتات التى سقطت منه أكلتها الطيور، أشياء صامتة جائلة لا يمكنه رؤيتها فى الظلام ولكنها كثيرة وتدور وتدور فى جوعها هائمة وكأنها هى الظلام، وكأن الظلام ليس شيئًا واحدًا، وكأنه ليس انعدام النور بل شيئًا هائمًا له جسد وكريات مادية، عندما كان فى سن المراهقة وجد كلمة "كريات" فى قاموس "كنز مكّاى للأمثال الإنجليزية"، كريات علم الأحياء تدخلت فى فهمه للكلمة، من ثم فطوال حياته كشخص بالغ كان يرى فى وهج الغسق حضور "كرياتى" متجسد، مثل الملمس الحبيبى لأفلام التصوير الفوتوغرافى فى الضوء الخافت، شىء من التحلل المؤلم، ومن ثم ذعر رجل تعرض للخيانة فى الأدغال، التى ظلامها هو ظلام النجوم يأتى مع غروب الشمس، أو نمل أسود يداهم فأراً ميتاً، ظلام ليس موجوداً فحسب، بل يستهلك بهمّة الموجودات التى بناها حول نفسه، وإلا ضاع، لكن لحظة إدراكه بالضياع، يبدأ الزمن يمر بطيئاً لأقصى حد، واكتشف موجودات يصعب التنبؤ بوجودها بين الكلمة والأخرى، أو يصبح محاصراً فى الفراغ بين الكلمات ولا يمكنه تحمل مرور الزمن

السريع من دونه، الصبى الأرعن داخله يغادره فيجرى ويبتعد فى الأدغال، بينما هو نفسه، آل البالغ الكبير المُحاصَر، يراقب فى ترقب غير ذاتى الصبى المذعور الذى ربما ورغم عدم معرفته بمكانه أو من أين دخل أدغال هذه الجملة، ما زال قادرًا على الجرى إلى مساحة خالية فى الغابة، تنتظره لديها إنيد، لا تعرف بوجود أية أدغال" أحزم حقائبى" ـ سمع نفسه يقول تلك الكلمات.

بدت له الجملة صحيحة وملائمة. فعل وفاعل ومفعول به. ها هى حقيبة أمامه، تأكيد هام على حقيقة ما يقول. لم يخنه الكلام.

لكن إنيد تكلمت من جديد. قال إخصائى السمع إنه مصاب باعتلال خفيف فى سمعه. قطب جبينه ولم يتابع كلامها.

قالت بصوت أعلى: "اليوم يوم الخميس، لن نغادر إلا يوم السبت".

ردد كلامها: "السبت!"

وبغتة، ولوهلة راحت الطيور "الكرياتية" تتراجع، لكن خارج النافذة أطفأت الريحُ الشمس، وأصبح الجو شديد البرودة.



الفشل

راحا يقتربان وسط الحشد فى حيرة. إنيد تربت على مؤخرتها التى تضررت، وألفريد يداعب الهواء بيديه ويصفع سجاد المطار بقدميه اللتين لا يكاد يقدر على التحكم بهما، وكل منهما يحمل على كتفه حقيبة "خطوط نورديك للرحلات البحرية" ويركز على الأرض أمامه، يقيس المسافة الخطيرة التى تفصله عن الوصول. بالنسبة لكل من حاد عنهما بعينيه، من بين أهالى نيويورك سود الشعر المارقون إلى جوارهما فى سرعة الساعى وراء عمله بهمّة، بالنسبة لأى شخص رأى قبعة ألفريد القش عريضة الحواف تناطح أكواز ذرة حقول ولاية أيوا يوم عيد العمال، أو صوف ثوب إنيد الأصفر الممتد فوق ظهرها، كان من الواضح أنهما من الغرب الأوسط ـ ميد ويست ـ ويشعران بالرهبة من المكان. لكن بالنسبة لـ شيب لامبرت، الذى وقف ينتظرهما وراء الحاجز الأمنى، فهما قتلة.

عقد شيب ذراعيه فى وقفة دفاعية ورفع يدًا إلى الحلق الحديد فى أذنه. يشعر ـ أنه يكاد يمزق الحلق من أذنه ـ أن أقصى ألم قد يتولد عن أعصاب أذنه سيكون أقل من الألم الذى يحتاجه الآن ليتماسك. من مركزه إلى جوار أجهزة كشف المعادن راقب فتاة لازوردية الشعر تحجب عنه رؤية والديه، فتاة لازوردية الشعر فى

سن الجامعة، غريبة يرغبها بشدة، تركب الحلقان فى شفتيها وحاجبيها. أحس أنه إذا نام مع البنت لثانية واحدة فسوف يقدر على مواجهة أبيه بثقة، وأنه إذا استمر فى النوم طوال وجود أبويه فى المدينة فسوف ينجو من الزيارة كاملة. كان شيب رجلاً طويلاً وجسده رياضى، نحيل الساقين كساقى الغراب وشعره أصفر أشعث بلون الزبد. إذا كانت الفتاة قد لاحظت وجوده، فربما حسبته كبير السن على الجلد الذى يرتديه. وهى تمرق إلى جواره سريعًا، جذب الحلق بقوة ليطلق ألم رحيلها عن حياته للأبد ويركز انتباهه على أبيه، الذى أشرق وجهه عندما اكتشف أن ابنه من بين الغرباء الكثيرين. بأسلوب رجل متلهف على النجاة من الغرق فى الماء، سقط ألفريد على شيب وأمسك يده ومعصمه وكأنه حبل ألقى إليه. قال: "يا سلام! يا سلام!"

اقتربت إنيد تعرج من خلفه وصاحت: "شيب. ماذا فعلت بأذنيك؟"

قال شيب ـ بصوت خافت من بين أسنانه ـ: "بابا، ماما" أملاً أن تكون البنت لازوردية الشعر قد ابتعدت عن مرمى السمع.. "تسرنى رؤيتكما".

أتيح له الوقت الكافى للتفكير فى فكرة خبيثة واحدة عن حقائب "خطوط نورديك للرحلات البحرية" التى يحملها أبواه على الأكتاف ـ إما أن الشركة أرسلت حقائب كهذه إلى كل من يحجز تذاكر على متن رحلاتها البحرية كأسلوب عملى لتحديد ركاب الرحلة لتيسير التعامل لدى نقاط إنزال الركاب وركوبهم، أو كطريقة لئيمة لتشكيل قوات موالية، أو أن إنيد وألفريد تعمدا

الحفاظ على الحقائب من رحلة سابقة مع شركة نورديك، وبدافع من إحساس خاطئ بالولاء، اختارا حمل هذه الحقائب فى الرحلة التالية أيضًا، على كل حال ذُهل شيب من قابلية أبويه لجعل نفسيهما حاملين لإعلان الشركة ـ قبل أن يرفع الحقائب بنفسه على كتفه ويكابد تعاسة احتمال رؤية مطار لوجارديا ومدينة نيويورك وحياته وثيابه وجسده من أعين أبويه المصابة بخيبة أمل.

لاحظ وكأنه يلاحظ للمرة الأولى، الأرض القذرة، وسائقى سيارات الليموزين الأشبه بالقتلة المحترفين يرفعون اللافتات عليها أسماء أشخاص آخرين، عقدة الأسلاك المدلاة من حفرة فى السقف. سمع من يقول "ابن القحبة" بصوت مرتفع. خارج النوافذ الكبيرة المطلة على طابق حقائب المسافرين، كان هناك رجلان من بنجلاديش يدفعان «تاكسى» معطلاً وسط الأمطار وأبواق السيارات الغاضبة.

قالت إنيد لـ شيب: "يجب أن نكون عند الميناء فى الرابعة. وأعتقد أن بابا يأمل فى زيارة مكتبك فى وول ستريت جورنال". رفعت صوتها: "آل؟ آل؟"

رغم أنه بحكم السن انحنت قامته من عند الرقبة، فإن ألفريد ما زال طويلاً شامخًا. شعره أبيض وسميك وأملس، كفراء الدب القطبى، وعضلات كتفيه القوية الطويلة، التى يتذكر شيب كيف راحت تعمل على ضرب طفل على مؤخرته بهمة، عادة ما كان شيب نفسه، ما زالت تملأ منطقة الكتف الرمادية من معطفه الرياضى.

صاحت إنيد: "آل، ألم تقل إنك تريد رؤية مكتب شيب؟"

هز ألفريد رأسه وقال: "ليس عندى وقت".

حزام الحقائب يدور وليس فوقه شيء.

قالت إنيد: "هل أخذت دواءك؟"

قال ألفريد: "نعم". أغمض عينيه وأضاف فى بطء: "أخذت الدواء. أخذت الدواء. أخذت الدواء".

أوضحت إنيد لـ شيب الذى كان متأكدًا أن أباه غير مهتم مطلقًا برؤية مكتبه: "دكتور هيدجبث كتب له دواء جديدًا". وبما أن شيب لا علاقة له بـ "وول ستريت جورنال" - المطبوعة التى أسهم فيها بموضوعات لم يتلق عليها أجرًا كانت "وارين ستريت جورنال: دورية شهرية لفنون كسر التابو"، وعكف مؤخرًا على إتمام نص مسرحى، ويعمل بصفة مؤقتة مراجعًا لغويًا فى مكتب محاماة براج كنوتر آند سبيغ منذ عامين تقريبًا، منذ فقد وظيفته كمدرس مساعد فى مادة الإبداعات النصية فى جامعة د، بولاية كونيتيكت، نتيجة لمشكلة تخص طالبة كادت تصل إلى القضاء، والتى رغم أن أبواه لم يسمعا بها مطلقًا، فقد وقفت عثرة فى طريق الإنجازات التى يمكن لأمه أن تتباهى بها، فى سان جود. قال لأبويه إنه تخلى عن مستقبله فى التدريس كى يتفرغ للكتابة، وعندما ضغطت عليه أمه مؤخرًا كى يخبرها ببعض التفاصيل، ذكر لها "وارين ستريت جورنال"، الاسم الذى لابد أن أمه سمعته بالخطأ وبدأت تتباهى أمام صديقاتها إيستر رووت وبيا ميزنر ومارى بيث شومبرت، ورغم مكالمات شيب الهاتفية الشهرية للبيت التى كانت فرصة لتصحيح خطأها فإنه بدلاً من التصحيح تبنى الخطأ وأصبحت الأمور معقدة، ليس فقط لأن وول ستريت جورنال متوفر فى سان جود وأمه لم تذكر مطلقًا أنها بحثت عن كتاباته فى الجريدة ولم تجدها (مما يعنى أن جزءًا منها يعرف تمامًا أنه لم يكتب فى الجريدة) بل أيضًا لأن كاتب

مقالات من قبيل "الزنا الخلاق" و"ما أجمل فنادق الدعارة" كان يتآمر ليحافظ لدى أمه على الوهم الذى يكرس "وارين ستريت جورنال" جهوده لوضع حد له، وبما أنه فى التاسعة والثلاثين من عمره، وأنه يلوم والداه على حاله وما آل إليه ـ فقد كان سعيداً عندما سكتت أمه عن هذا الموضوع.

أضافت إنيد بصوت لا يسمعه ألفريد: "تحسنت حالة ارتعاشاته. الأثر الجانبى الوحيد هو الهلاوس التى تأتيه أحيانًا".

قال شيب: "أثر جانبى قوى".

"يقول دكتور هيدجبث إن حالته ليست صعبة ويسهل السيطرة عليها بالأدوية".

راح ألفريد يمسح بعينيه حزام الحقائب بينما بدأ المسافرون شاحبى الأوجه يتمركزون فى مواقع استراتيجية أمام الحزام. كانت هناك أشكال محيرة على الأرضية، رمادية بالملوثات التى نزل بها المطر. النور بلون وجه شخص مصاب بدوار السيارات. قال ألفريد: "مدينة نيويورك!"

قطبت إنيد جبينها محتجة على بنطلون شيب: "هذا ليس من الجلد، صح؟"

"بل هو جلد".

"كيف تغسله؟"

"إنه جلد. كأنه جلد إضافى على جلدى".

قالت إنيد: "يجب أن نصل إلى الميناء قبل الرابعة".

لفظ الحزام بعض الحقائب.

قال أبوه: "شيب، ساعدنى".

سرعان ما خرج شيب مترنحًا إلى المطر والرياح ومعه حقائب أبويه الأربع. ألفريد يتقدم للأمام فى حركة رجل يعرف أنه سيقع فى مشكلة لو اضطر للتوقف والبدء فى السير من جديد. إنيد خلفهما، تتجرع مرارة ألم مؤخرتها. زاد وزنها وربما قصر طولها قليلاً منذ رآها شيب لآخر مرة. لطالما كانت امرأة جميلة، لكن بالنسبة لشيب فشخصيتها قوية بشكل زائد لا يبقى معها شىء، لدرجة أنه عندما ينظر إليها لا يمكنه الحُكم على شكلها.

سأله ألفريد وطابور سيارات التاكسى يقترب: "ما هذا؟ حديد مشغول؟"

قال شيب وهو يلامس أذنه: "نعم".

"وكأنه مسمار مبرشم مقاس ربع بوصة".

"هو كذلك".

"وكيف جهزته؟ طويته أم طرقته بمطرقة؟"

قال شيب: "إنه مطروق".

أجفل ألفريد وخرج معه صوت صفير خافت.

قالت إنيد عندما ركبوا تاكسى أصفر راح يجرى مسرعًا عبر شوارع كوينز: "حجزنا رحلة الخريف البحرية درجة أولى. سنبحر إلى كويبك ثم نستمتع بتغير الموسم إلى الخريف طوال طريق العودة. بابا أعجبته الرحلة الماضية كثيراً. أليس كذلك يا آل؟ ألم تستمتع كثيرًا فى تلك الرحلة؟"

أحجار سور إيست ريفر(*) تتلقى لسعات المطر الغاضب. لعل شيب كان يتمنى يومًا مشمسًا، يُيسِّر من الرؤية الصافية للمعالم الهامة والمياه الزرقاء، دون شيء مختف. الألوان الوحيدة على الطريق هذا الصباح كانت مصابيح السيارات الخلفية الحمراء التى تنير عند ضغط المكابح.

قال ألفريد بصوت مشحون بالعواطف: "هذه من مدن العالم العظيمة".

تمكن شيب من سؤاله: "كيف حالك هذه الأيام يا بابا؟"

قالت إنيد: "نحن سعيدان بوظيفتك الجديدة".

قال ألفريد: "من الجرائد العظيمة فى البلد. وول ستريت جورنال".

"هل يشم أى منكما رائحة السمك؟"

(*) ايست ريفر وهدسون ريفر (النهر الشرقى ونهر هدسون)، وهما الحدان الشرقى والغربى على التوالى لمنهاتن، بمدينة نيويورك. وتنقسم مدينة نيويورك إلى خمسة أحياء، وإن كان الأصوب اعتبارها مناطق وليست أحياء، لأن كل منها يشتمل على عدد كبير من الأحياء. مانهاتن هى تقريبًا العاصمة المالية للولايات المتحدة فيها. وول ستريت الشهير، كما تضم أهم مناطق السياحية فى نيويورك، وعددًا كبيرًا من المتاحف والمسارح ودور السينما، وفيها شارع برودواى الشهير وميدان تايم سكوير وبناية الإمباير ستيت وكرايسلر ومركز روكفلر، وحديقة سنترال بارك، إلخ، ويمكن تجاوزًا اعتبارها منطقة «وسط بلد» نيويورك، وإن كان لكل من المناطق الخمس «وسط بلد» خاص بها تليها فى الشهرة والأهمية بروكلين، ثم هناك «كوينز» و«برونكس» ومستوى المعيشة فيهما أقل. والمنطقة الإدارية الخامسة هى ستاتن إيلاند، وهى جزيرة صغيرة تدخل فى تقسيم مدينة نيويورك الإدارى ويقف بينها ومنهاتن تمثال الحرية على جزيرة صغيرة أخرى تكاد مساحتها تقتصر على قاعدة التمثال ومرفأ للمراكب السياحية، ولاية نيويورك نفسها تمتد فى الشمال الشرقى الأمريكى من مدينة نيويورك جنوبًا وحتى شلالات نياجرا شمالاً، والمسافة بين النقطتين قريبة من المسافة بين القاهرة وأسوان (المترجم).

قال شيب: "نحن قرب المحيط".

مالت إنيد ودفنت وجهها فى كُم معطف شيب الجلدى: "لا، إنها رائحة المعطف، رائحة سمك نفاذة".

تملص منها وقال: "لو سمحتِ يا ماما".

مشكلة شيب هى فقدان الثقة. ولّت أيام تحمله تكاليف "مظاهر الطبقة البرجوازية". باستثناء شقته فى منهاتن وحبيبته الجميلة جوليا فريس، فهو ليس لديه أى شىء آخر يقنع به نفسه بأنه رجل بالغ طبيعى، ولا إنجازات لديه يقارنها بإنجازات شقيقه، جارى، ويعمل موظفًا فى البنك وأب لثلاثة أطفال، أو شقيقته دينيس، والتى فى سن الثانية والثلاثين أصبحت الشيف المدير لمطعم ناجح فى فيلادلفيا. تمنى شيب لو كان قد باع مسرحيته بالفعل، لكنه لم ينته من المسودة إلا بعد منتصف ليلة الثلاثاء، ثم اضطر للعمل فى ورديات من أربع عشرة ساعة فى براج كنوتر آند سبيغ لجمع النقود اللازمة لتسديد إيجار أغسطس وليطمئن صاحب الشقة (شيب يستأجر من الباطن) على إيجار سبتمبر وأكتوبر، ثم هناك العشاء الذى يجب أن يشترى له الطعام وعنده شقة ينظفها، وأخيرًا قبل فجر اليوم، قرص زاناكس طال انتظاره. وفى الوقت نفسه مر أسبوع تقريبًا لم ير خلاله جوليا أو تحدث معها بشكل مباشر. ردًا على رسائل عصبية كثيرة تركها على بريدها الصوتى خلال الساعات الثمانى والأربعين الأخيرة، يطلب منها مقابلته وأبويه ودينيس فى شقته ظهر السبت، وأيضًا، رجاء لو أمكن، ألا تذكر لأبويه أنها متزوجة من شخص آخر؛ كان رد جوليا الصمت التليفونى والإيميلى التام، والذى ما كان أمام رجل فى حالة مستقرة عن حالة شيب، إلا أن يستنتج منه استنتاجات مقلقة.

كان المطر ينهمر بقوة على منهاتن حتى إن الماء راح يجرى على واجهات البنايات ويتناثر منه الزبد عند مداخل البلاعات. أمام بنايته، فى "إيست ناينث ستريت"(*)، أخذ شيب من إنيد نقوداً وناولها للسائق، وحتى رغم أن السائق الذى كان يرتدى عمّة شكره، فقد أدرك أن البقشيش قليل. ومن محفظته أخرج دولارين ودلاهما إلى جوار كتف السائق.

قالت إنيد بصوت مسرسع: "هذا يكفى، هذا يكفى"، ومدت يدها إلى معصم شيب وأضافت: "قال لك شكرًا خلاص".

لكن النقود اختفت. راح ألفريد يحاول فتح الباب عن طريق شد مقبض فتح النافذة. قال شيب وهو يميل عليه ليفتح الباب: "تفضل يا بابا، هذا هو المقبض الصحيح".

سألت إنيد شيب على الرصيف تحت مدخل بنايته والسائق يُخرج الحقائب الثقيلة من صندوق السيارة: "كم كان هذا البقشيش؟"

قال شيب: "حوالى ١٥ فى المائة".

قالت إنيد: "أعتقد عشرين أو نحو ذلك".

"هيا نتشاجر على البقشيش، ما رأيك؟"

(*) East Street ٩ فى حى «ايست فيلدج» فى منهاتن، وهو الحى المعروف بالطابع الفنى والحياة الليلية الصاخبة وبارات الشباب، ويشهد منذ الستينيات حركة فنية ثورية منتعشة. بدأ ينتقل إليه فى التسعينيات شبان يرون فى أنفسهم طليعة الثقافة المتمردة، مما رفع الإيجارات فيه كثيرًا، ومن علاماته «مقهى الشعراء» ومطاعم باكستانية ومسارح دور سينما مستقلة، وعاش فيه على مدار العقود القليلة الماضية شعراء وموسيقيون ومسرحيون وتشيكليون يساريون وخرجت منه مدارس فنية وأدبية كثيرة أبعد ما تكون عن المألوف. (المترجم).

قال ألفريد بصوت مرتفع: "عشرون فى المائة كثير يا شيب. مبلغ غير معقول".

قال سائق التاكسى دون أن تلوح فى صوته السخرية: "يوم سعيد عليكم جميعاً".

قالت إنيد: "البقشيش يُدفع مقابل جودة الخدمة والسلوك. إذا كان مستوى الخدمة والسلوك جيداً جداً قد أعطى ١٥ فى المائة. لكن إذا كنت تدفع بقشيشاً بشكل تلقائى بنسبة..."

قال ألفريد: "طول حياتى أعانى من الاكتئاب"، أو بدا أن هذا ما قاله.

قال شيب: "عفواً؟"

"سنوات الاكتئاب غيرتنى. غيرت معنى الدولار".

"يتحدث عن الكساد الاقتصادى"(*).

رجعت إنيد إلى موضوعها: "إذن عندما تكون الخدمة جيدة جداً أو سيئة جداً، فلا سبيل للتعبير عن رأيك فيها بالنقود".

قال ألفريد: "والدولار ما زال مبلغاً كبيراً".

" 15فى المائة لو كانت الخدمة جيدة جداً جداً".

قال شيب لأمه: "أتساءل عن سبب الكلام فى هذا الموضوع. لماذا اخترناه دون أى موضوع آخر؟"

ردت إنيد: "أنا وأبوك لا نكاد نطيق انتظار رؤية مكان عملك".

(*) اكتئابDepression والكساد الاقتصادى Economic depression. إنيد هى من قالت «نتحدث عن الكساد الاقتصادى». (المترجم).

بواب بناية شيب، زورواستر، هرع للمساعدة فى حمل الحقائب وإدخال السيد والسيدة لامبرت إلى مصعد البناية الضخم. قالت إنيد: "صادفت صديقك القديم دين دريبلت فى البنك منذ عدة أيام لم أصادف دين من قبل قط إلا وسألنى عنك. إنه منبهر بعملك الجديد".

قال شيب: "كان دين دريبلت زميلاً فى المدرسة وليس صديقًا".

"هو وزوجته رزقا بالطفل الرابع. قلت لك، أليس كذلك؟ بنيًا بيتًا فسيحاً فى بارادايس فالى... آل، أليس فى ذلك البيت ثمانى حجرات نوم على الأقل؟"

نظر إليها ألفريد نظرة ثابتة فلم تطرف عينه. مال شيب على زر إغلاق المصعد.

قالت إنيد: "ذهبت أنا وأبوك إليهم فى حفل بمناسبة الانتقال للبيت الجديد، فى يونيو، وكان حفلاً جميلاً. كان فيه خدمة فندقية، وقدموا أكوامًا من الجمبرى. جمبرى من الكبير، أكوام أكوام. لم أر شيئًا كهذا فى حياتى".

قال شيب: "أكوام أكوام". أخيرًا أغلق باب المصعد.

قالت إنيد: "عمومًا هو بيت جميل. هناك ست حجرات نوم على الأقل، تعرف؟ يظهر أنهما سيملآنه عيالاً. دين ناجح جدًا. فتح شركة للعناية بحدائق البيوت بعد أن أدرك أن تجارة الحانوتى لا تناسبه. كما تعرف فإن دال دريبلت هو زوج أمه، من كنيسة دريبلت، وإعلاناته ملأت الشوارع، وافتتح أيضًا شركة إدارة طبية. قرأت فى الجريدة أنها أسرع شركات الإدارة الطبية ازدهارًا فى سان جود. اسمها "ديدى كير"، على نفس اسم شركة العناية بحدائق البيوت،

وهناك إعلانات الآن أيضًا لشركة الإدارة الطبية. رجل أعمال ذكى، ولد!".

قال ألفريد: "مصعد بطيييىء".

قال شيب موضحًا بصوت محكم: "هذه بناية شيدت قبل الحرب. بناية عليها طلب كبير جدًا".

"لكن أتعرف ما هديته لأمه فى عيد ميلادها على حد كلامه معى؟ ستكون مفاجأة لها، لكن يمكننى إخبارك. سيأخذها إلى باريس فى رحلة ثمانية أيام. تذكرتان درجة أولى، ثمانى ليالى فى فندق ريتز! شفت دين وأحواله؟ يحب أسرته جدًا. لكن هل تصدق هذه الهدية؟ آل، ألم تقل أن البيت وحده ثمنه مليون دولار؟ آل؟"

قال ألفريد بحماس مفاجئ: "البيت كبير لكن تشطيبه رخيص. الجدران كالورق".

قالت إنيد: "كل البيوت الجديدة على هذه الحال".

"سألتينى إن كان البيت بهرنى. أنا رأيى أنه إحداث نعمة. الجمبرى إحداث نعمة. وكان طعمه سيئًا".

قالت إنيد: "ربما كان من المجمد".

قال ألفريد: "الناس تنبهر بسهولة بمثل هذه الأشياء. سيتكلمون شهورًا عن الجمبرى الأكوام أكوام. انظر.." وأضاف وهو يكلم شيب وكأنه شخصًا محايدًا مر عليهما وهما فى الشارع: "ما زالت أمك تتكلم عن الجمبرى".

للحظة بدا لشيب أن أباه أصبح عجوزًا غريبًا عنه محببًا، لكنه يعرف ألفريد، ما خفى منه أنه كثير الصياح، يحب إنزال العقاب.

آخر مرة زار شيب أبواه فى سان جود، قبل أربعة أعوام، أخذ معه صديقته فى ذلك الحين، روثى، شابة ماركسية مؤكسدة من شمال إنجلترا، والتى بعد أن ارتكبت مخالفات لا حصر لها بحق مشاعر إنيد (أشعلت سيجارة داخل البيت، وضحكت بصوت مسموع على لوحات إنيد المفضلة التى تصور قصر باكينجهام، وحضرت العشاء دون برا، ولم تأكل ملعقة واحدة من "سلاطة" الفاصوليا الخضراء بالكستناء ومكعبات جبن الشيدر فى المايونيز الثقيل والتى تعدها إنيد للمناسبات الخاصة)، راحت تستفز ألفريد حتى قال إن "السود" هم مفسدة هذا البلد ونهايته على أيديهم، "السود" غير قادرين على التعايش مع الرجل الأبيض، ويتوقعون من الحكومة الاعتناء بهم، ولا يعرفون معنى العمل الشاق، وأن كل ما ينقصهم هو "الانضباط"، وأن الموضوع سينتهى بمذابح فى الشوارع، مذابح فى الشوارع، ولا يعنيه رأى روثى فيه، فهى زائرة فى بيته وبلده ولا يحق لها انتقاد الأمور التى لا تفهم فيها، بينما شيب، الذى سبق وحذر روثى من أن أبواه هما أكثر شخصين تزمتًا فى أمريكا، راح يبتسم لها وكأنه يقول: "ألم أخبرك؟ المنتج مطابق للإعلان تماماً". عندما تركته روثى بعد أقل من ثلاثة أسابيع، علقت قائلة إنه يشبه أباه أكثر مما يدرك.

قالت إنيد والمصعد يتوقف أخيرًا: "آل. يجب أن تعترف أنه كان حفلاً جميلاً جدًا جدًا، وأن دين يُشكر لأنه دعانا".

وكأن ألفريد لم يسمعها.

أمام شقة شيب مظلة بلاستيكية شفافة تعرف عليها شيب متنفسًا الصعداء على مظلة جوليا فريس. كان ينقل حقائب أبيه

وأمه من المصعد عندما انفتح باب الشقة وخرجت جوليا نفسها. قالت: "يا خبر! جئتم مبكرًا!" وكأنها مرتبكة.

حسب ساعة شيب كانت الساعة ١١,٣٠. كانت جوليا ترتدى معطف مطر بنفسجيًا غير واضح المعالم، وحقيبة قماش عليها شعار شركة أفلام كارتون. شعرها - الطويل ولونه لون الشيكولاتة الداكنة - غزير تتناثر منه الرطوبة وقطرات المطر. بنبرة شخص يحاول ملاطفة حيوانات كبيرة قالت: "أهلا" لألفريد و"أهلاً" أخرى لإنيد. عرّفها ألفريد وإنيد باسميهما ومدّا لها يدًا للمصافحة، مما أعادها داخل الشقة، حيث بدأت إنيد تمطرها بالأسئلة، والتى تعرف فيها شيب عندما دخل بالحقائب، على معان خفية وأجندات سرّية.

قالت إنيد: "هل تعيشين فى المدينة؟" (أنت لا تسكنين مع ابننا، أليس كذلك؟) "وهل تعملين فى المدينة أيضًا؟" (عندك عمل؟ لست من أسرة متعالية غنية من الساحل الشرقى؟) "هل نشأت هنا؟" (أو هل جئت من ولاية على الجانب الآخر من جبال الأبلاش حيث الناس الطيبة البسيطة من غير اليهود؟) "وهل ما زال لك أقارب فى أوهايو؟" (هل اتخذ أبواك خطوات على طريق الطلاق، كعادة هذا الزمن الأغبر؟) "هل لك أخوة أو أخوات؟" (كل أنت طفلة وحيدة مدللة أو كاثوليكية عندك دشليون أخ وأخت؟)

بعد أن اجتازت جوليا هذا الاختبار الأولى، انتقل اهتمام إنيد إلى الشقة. شيب، فى أزمة ثقة تعرض لها مؤخرًا، حاول جعل الشقة مقبولة المظهر. جلب علبة إزالة البقع وأزال بقعة السائل المنوى عن المقعد الأحمر الكبير، وفك جدارية من سدادات زجاجات النبيذ الفلين كان قد وضعها فوق المدفأة بمعدل نصف دستة

زجاجات ميرلوت وبينو جريجيو فى الأسبوع، وأنزل عن جدار الحمام صورة فوتوغرافية للأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية، وكانت أجمل ما فى مجموعته الفنية، واستبدلها بشهادات الدبلومات الثلاث التى أصرت إنيد منذ زمن بعيد على أن تضعها له فى براويز.

هذا الصباح، بعد أن أحس بأنه تنازل عن الكثير من نفسه، عدّل من تقديمه لنفسه بارتداء الجلد وهو ذاهب إلى المطار.

قالت إنيد: "هذه الحجرة فى نفس مساحة دورة مياه دين دريبلت. صح يا آل؟"

راح ألفريد يداعب يديه وينظر إلى ظهر هذه اليد ثم الأخرى.

"لم أر فى حياتى حمامًا على هذه المساحة الهائلة".

قال ألفريد: "إنيد، أنت لا تتمتعين بأى ذوق".

ربما خطر على بال شيب أن هذه الكلمة بدورها تعوزها اللباقة، بما أنها تفيد بأن أباه يوافق على تعليق أمه على الشقة ولا يعترض إلا على طريقة كشفها عن رأيها. لكن شيب لم يكن قادرًا على التركيز على أى شىء إلا مجفف الشعر الذى يطل من حقيبة جوليا القماش. إنه مجفف الشعر الذى تضعه فى حمامه. ويبدو أنها تتأهب للخروج.

استرسلت إنيد: "دين وتريش عندهما جاكوزى ودُش بحوضه وبانيو، كل شىء فى مكان خاص به. الأحواض حوض له وحوض لها".

قالت جوليا: "أنا آسفة يا شيب".

رفع يدًا ليمنعها عن الكلام وأعلن لأبويه: "سوف نتناول الغداء هنا ما إن تحضر دينيس. سيكون غداءً بسيطًا جدًا. خذا راحتكما على الآخر".

قالت جوليا لإنيد وألفريد: "فرصة سعيدة جدًا". ولشيب بصوت منخفض: "سوف تأتى دينيس، ستكون بخير".

فتحت الباب.

قال شيب: "ماما، بابا، لحظة واحدة".

خرج وراء جوليا خارج الشقة وترك الباب يُغلق خلفه.

قال: "هذا توقيت سيئ جدًا. فعلاً فعلاً غير مناسب بالمرة".

أبعدت جوليا شعرها عن وجهها وقالت: "أشعر بارتياح بالغ لأن هذه أول مرة فى حياتى أتخذ قرارًا فى مصلحتى فى علاقة".

"كلام جميل، هذه خطوة مهمة". حاول شيب الابتسام.. "لكن والنص؟ هل تقرؤه إدين؟"

"ممكن، ربما نهاية هذا الأسبوع".

"وأنت؟"

"قرأت.. يعنى.." أبعدت جوليا عينيها عنه.. "أغلب النص".

قال شيب: "فكرتى تتعلق بالافتتاحية الدرامية التى يضطر لمشاهدتها رواد السينما. أن أضع شيئًا مملاً فى البداية، إنه أسلوب حداثى معروف. هناك الكثير من التشويق والإثارة عند قرب نهاية النص".

التفتت جوليا إلى المصعد ولم ترد.

سألها شيب: "هل وصلت إلى النهاية بعد؟"

انفجرت فيه فى تعاسة: "يا شيب، النص يبدأ بمحاضرة من ست صفحات عن بواعث القلق المتعلقة بالقضيب فى الدراما التودورية الكلاسيكية!"

كان على وعى بهذا. فمنذ أسابيع وهو يصحو من النوم قبل الفجر كل يوم، معدته تتقلب من التوتر، ويصارع فكرة يقينية كابوسية بأن المونولوج الأكاديمى عن الدراما التودورية لا علاقة له بالمشهد الأول من نص للمسرح التجارى. عادة ما استغرقه الأمر ساعات ـ الخروج من السرير والسير جيئة وذهابًا وشرب ميرلوت أو بينو جريجيو ـ لاستعادة قناعته بأن المونولوج النظرى ليس اختيارًا صحيحًا فحسب، بل أيضًا هو الافتتاحية التى ستبيع النص، والآن، بنظرة واحدة إلى جوليا، أدرك أنه كان مخطئًا.

راح يومئ فى اتفاق مع نقدها، وفتح باب شقته ونادى على والديه: "لحظة واحدة يا ماما ويا بابا، لحظة واحدة". لكن وهو يعاود غلق الباب عادت إليه حججه القديمة. قال: "لكن كما ترين، القصة بأكملها نهايتها معروفة من المونولوج. كل تيمة فى النص يوجد منها نسخة مصغرة فى المونولوج، قضية النوع الاجتماعى وقضايا السلطة والهوية والأصالة. المهم أن.. انتظرى، انتظرى. جوليا؟"

وبرأس منحن، وكأنها كانت تأمل ألا يراها وهى ترحل، التفتت جوليا عائدة من المصعد إليه.

قال: "المهم أن البنت تجلس فى الصف الأمامى فى قاعة المحاضرات تسمع المحاضرة. هذه صورة مهمة. حقيقة أنه يهيمن على الخطاب.."

قالت جوليا: "ومن المخيف إلى حد ما حديثك المتكرر عن ثدييها".

كان هذا بدوره حقيقيًا. لكن كونه حقيقة بدا ظلمًا وقسوة مع شيب، الذى لم تواته جرأة كتابة النص من الأساس لولا إغراء تخيل ثدى البطلة الشابة. قال: "ربما أنت محقة، رغم أن هناك تعمدًا لإظهار شىء من الجانب الجسدى. لأن هنا تكمن المفارقة، أنها منجذبة لعقله وهو منجذب إلى..."

قالت جوليا فى عناد: "لكن بالنسبة لامرأة تقرأ النص، فهذا الكلام يذكرها بمذبح دواجن. الثدى، الثدى، الثدى، الفخذ، الساق".

قال شيب بصوت منخفض: "ممكن أزيل بعض الإشارات. يمكننى تقصير المحاضرة الافتتاحية. لكن الموضوع أننى أريد الافتتاحية..."

"فهمت، الافتتاحية الدرامية التى يضطر لمشاهدتها رواد السينما. هذه فكرة جيدة".

"أرجوك تعالى وتناولى معنا الغداء. أرجوك، جوليا؟"

انفتح باب المصعد مع ضغطها الزر.

"أنا رأيى أن مثل هذا الأسلوب مهين للبعض".

"لكنك لست المقصودة. الشخصية لا تستند عليك حتى".

"عظيم. إذن هو ثدى آخر".

"أرجوك، لأجل ربنا، ثانية واحدة"، عاد شيب إلى باب الشقة وفتحه، وهذه المرة أفزعه أنه وجد نفسه فى مواجهة وجه والده تماماً. يدا ألفريد الكبيرتان ترتعشان فى عنف.

"بابا، أهلاً، دقيقة واحدة وأعود إليك".

قال ألفريد: "شيب، اطلب منها أن تبقى معنا! قل لها إننا نريدها معنا!"

أومأ شيب برأسه وأغلق الباب فى وجه الرجل العجوز، لكن فى الثوانى القليلة التى أدار ظهره خلالها للمصعد، كان قد ابتلع جوليا. ضغط زر المصعد، دون جدوى، ثم فتح سلم الحريق ونزل درجات السلم الحلزونية. بعد سلسلة من المحاضرات المتألقة التى احتفت بالسعى بلا كلل وراء المتعة كاستراتيجية للتخلص من بيروقراطية المنطق، يتعرض بيل كوينتنس، أستاذ الإبداعات النصية الشاب الجذاب، للإغراء على يد تلميذته الجميلة المحبوبة مونا. علاقتهما شديدة الإيروتيكية ما كادت تبدأ، عندما تكتشفهما زوجة بيل الدخيلة، هيلارى. فى مواجهة متوترة تمثل صدام المنظور التكيفى مع منظور "خرق التابو" ورؤية المنظورين للعالم، يتقاتل بيل وهيلارى على روح مونا الشابة، التى ترقد بينهما عارية على ملاءات السرير. تنجح هيلارى فى إغراء مونا بخطابها القمعى المتنكر، ومونا تنبذ بيل علنًا. يفقد بيل عمله لكن سرعان ما يكتشف رسائل إلكترونية قديمة تثبت أن هيلارى أعطت مونا النقود كى تدمر مستقبله. وفى طريق بيل إلى محاميه ومعه ديسك عليه دليل الإدانة، تحيد سيارته عن الطريق وتنزل إلى نهر "د"، ويطفو الديسك على وجه الماء مفارقًا السيارة الغارقة تحمله أمواج حائرة هائمة إلى البحر المفتوح متلاطم الأمواج، إيروتيكى فوضاوى الطابع، ويتم تسجيل الحادث "انتحار بالسيارة" وفى مشاهد الفيلم النهائية، يتم الاستعانة بهيلارى بديلة عن بيل فى الجامعة ويُعرض لها مشهد وهى تحاضر

عن شرور المتعة بلا ضوابط أمام قاعة تجلس فيها حبيبتها السحاقية الشيطانية مونا. هذا هو الملخص من صفحة واحدة الذى كتبه شيب بمساعدة كتب على غرار "كيف تكتب سيناريو" اشتراها من المكتبة، وأرسل الملخص بالفاكس ذات صباح شتوى إلى منتجة سينمائية فى منهاتن تُدعى "إدين بروكورو". بعد خمس دقائق عندما رن التليفون رد ليجد صوت شابة بارد خاو يقول: "برجاء الانتظار، ستكلمك إدين بروكورو"، ثم إدين بروكورو نفسها تهتف: "قصة تحفة، تحفة، تحفة، تحفة، تحفة!" لكن الآن، بعد مرور عام ونصف، بعد أن أصبح ملخص الصفحة نصًا من ١٢٤ صفحة بعنوان "الأكاديمية البنفسجية"، وبعد أن بدأت جوليا فريس ـ ذات الشعر بلون الشيكولاتة صاحبة صوت السكرتيرة البارد الخاوى - تهرب منه، وهو ينزل على السلم لاعتراضها، ويقفز درجات السلم أربع درجات فى الخطوة الواحدة، ويمسك بالدرابزين لدى كل دور ويعكس اتجاهه بحركة عنيفة، كان كل ما يمكنه التفكير فيه هو سلسلة مشئومة من كلمات تتكرر فى ذهنه كأنها صور فوتوغرافية، من الصفحات الـ ١٢٤:

ص ٣: شفتان منتفختان كأنما عضتهما نحلة، ثدى مكور شامخ، مؤخرة صغيرة و

ص ٣ : فوق المعطف الكاشمير الذى يحتضن ثدييها بنعومة.

ص ٤ : تتقدم مسرعة، نهدها الشاب البكر الرائع يتلهف علىّ..

ص ٨ : (ينظر إلى ثدييها).

ص٩ : (ينظر إلى ثدييها).

ص ٩ : (عيناه منجذبتان مسلوبتا الإرادة إلى ثدييها الرائعين).

ص :١١ (ينظر إلى ثدييها).

ص: (يداعب فى خياله نهدها الذى لا عيب فيه).

ص :١٢ (ينظر إلى ثدييها).

ص: ١٥ (ينظر إلى ثدييها البكر وينظر وينظر).

ص: ٢٣ (ثديها الذى لا عيب فيه يقترب من..

ص: ٢٤ (البرا القمعية لتحرير ثدييها المُدمِّرين).

ص : ٢٨ (لمداعبة النهد المبلل بالعرق بلسانه الـ..

ص: ٢٩ (الحلمة المشرعة للأمام كالقضيب من ثديها الغارق فى عرقه.

ص : ٢٩ أحب ثدييك.

ص :٣٠ أعشق نهديك الثقيلين المشبعين بالشهد.

ص ٣٣ : ثديا هيلارى، مثل رصاصتين من رصاص الجستابو، يمكن أن..

ص ٣٦: بنظرة كأنها ستخترق ثدييها وتفرغهما من الهواء

ص ٤٤ : ثديان عظيمان تكسوهما ملابس متزمتة و

ص ٤٥ : الخوف والخزى، والمنشفة عالقة على ثدييها).

ص ٧٦: ثدياها عديما الإحساس بالذنب مغطيان الآن فى ثوب عسكرى

ص ٨٣: افتقد جسدك، افتقدك ثدييك الرائعين، أنا..

ص : ١١٧ كشافا السيارة الغارقان تغمرهما المياه يخفت نورهما كثديين أبيضين كالحليب.

وربما هناك المزيد! أكثر مما يتذكر! والقارئتان الوحيدتان المهمتان بالنسبة إليه حاليًا هما سيدتان! خطر لشيب أن جوليا ستتركه بسبب "الأكاديمية البنفسجية" وكل ما فيها من إشارات إلى الثدى وافتتاحيتها المملة، وأنه إذا تمكن من تصحيح هذه المشكلات الظاهرة، فى نسخة جوليا والأهم فى النسخة التى طبعها بطابعة ليزر على ورق عاجى زنة ٢٤ رطلاً لأجل إدين بروكورو، فربما تعلو آماله، ليست فقط المالية، بل أيضًا الأمل فى ملامسة ومداعبة ثديى جوليا الأبيضين كالحليب، من جديد. واللذين كانا فى مثل هذه الفترة من اليوم أواخر الصباح من كل يوم تقريبًا طيلة الشهور السابقة، أحد الأنشطة القليلة المتبقية على وجه الأرض التى يتوقع أن يجد فيها السلوى على إخفاقاته.

مع خروجه من السلم إلى اللوبى، وجد المصعد ينتظر راكبه الجديد الذى سيعذبه ببطئه. ومن باب الشارع المفتوح رأى «تاكسى» يطفئ نوره العلوى ويبتعد. كان زورواستر يمسح المياه عن رخام اللوبى بلون الشطرنج. قال فى سخرية، وليست المرة الأولى على الإطلاق، مع خروج شيب: "مع السلامة يا مستر شيب!"

قطرات المطر الكبيرة تضرب الرصيف وتثير ضبابًا طازجًا باردًا هو المهانة المطلقة. عبر ستائر المياه السبحية الثقيلة رأى شيب تاكسى جوليا يتوقف أمام إشارة صفراء. عبر الشارع كان تاكسى آخر قد توقف لينزل منه راكب، وخطر لشيب أن بإمكانه أخذ التاكسى الآخر وأن يطلب من السائق تتبع جوليا. كانت الفكرة مغرية، لكن هناك صعوبات وعقبات.

من الصعوبات أنه بمطاردة جوليا فهو يرتكب أسوأ تهمة وجهها إليه المستشار القانونى العام لجامعة "د"، فى رسالة حادة اللهجة أخلاقية الطابع بأسلوب المحامين، وهُدد فيها منذ زمن بعيد برفع قضية مضادة عليه أو ملاحقته قضائيًا. الاتهامات المزعومة شملت التزوير وخرق العقد والاختطاف، والتحرش الجنسى وتقديم خمور لطالبة تحت سن تعاطى الخمور، وحيازة وبيع مادة مخدرة محظورة، لكن تهمة "المطاردة" ـ إجراء مكالمات هاتفية "تهديدية" و"مسيئة" والتعدى بنية الاعتداء على خصوصية شابة ـ هى التى أخافت شيب وما زالت تخيفه.

هناك عقبة أخرى أبسط هى أن معه أربعة دولارات فى محفظته، وأقل من عشرة دولارات فى دفتر شيكاته، ولا نقود فى بطاقاته الائتمانية الأساسية، ولا عمل متاحًا أمامه فى المراجعة اللغوية حتى بعد ظهر الاثنين. نظرًا لأن آخر مرة رأى فيها جوليا، قبل ستة أيام، اشتكت من أنه يريد "دائمًا" البقاء فى البيت وأكل الباستا و"دائمًا" ما يقبلها وينام معها (قالت إنه أحيانًا يستعين بالجنس كنوع من أنواع الاستشفاء، وأن السبب فى عدم إقدامه على العلاج بالهروين أو الكوكايين بدلاً من الجنس، أن الجنس مجانى، وأنه يتحول إلى شخص بخيل، وقالت إنها بدأت تتعاطى دواء اكتئاب لها، وتشعر أنها تأخذه لها وله وأن هذا ظلم مضاعف، لأنها هى من تدفع ثمن الدواء، ولأن الدواء يجعلها أقل اهتمامًا بالجنس عما اعتادت. قالت إنه إذا كان الأمر يعود لشيب، فربما لن يذهبا إلى السينما بعد الآن، ويقضيان إجازة نهاية الأسبوع كاملة فى السرير والستائر مغلقة ثم يعيدان تسخين الباستا)، اشتبه فى أن الحد الأدنى لسعر المناقشة القادمة معها سيكون غداءً غالياً من

خضراوات الخريف المشوية مع زجاجة نبيذ سانكيرى ولا سبيل مُتاحًا أمامه لسداد الثمن.

وهكذا فقد وقف بلا حول ولا قوة مع تحول ضوء الإشارة إلى الأخضر وابتعاد تاكسى جوليا عن ناظريه. الأمطار تجلد الرصيف فى قطراتها البيضاء المريضة. على الجانب الآخر من الشارع خرجت من تاكسى آخر امرأة بساقين بالغتى الطول، ترتدى جينزًا ضيقاً وحذاءً أسود برقبة طويلة بالغ الأناقة.

حقيقة أن هذه السيدة هى أخته الصغيرة -دينيس (بمعنى آخر، الشابة الجذابة الوحيدة على وجه الأرض غير المسموح له بالنظر إليها ولا هو راغب فى هذا أو يتخيل النوم معها من الأساس) - بدت له أحدث دفعة من دفعات الظلم التى يتعرض لها هذا الصباح الطويل الظالم.

كانت دينيس تمسك بمظلة سوداء، وباقة زهور، وعلبة مخبوزات ملفوفة بشريط. راحت تتقدم تنتقى خطواتها وسط برك المياه الصغيرة على الرصيف لتنضم إلى شيب تحت التندة أمام مدخل المبنى.

قال شيب وعلى وجهه ابتسامة متوترة دون لا ينظر إليها: "اسمعى، أريد منك خدمة كبيرة. أريدك أن تديرى الأمور هنا حتى أصل إلى إدين وأعيد نصى منها. هناك مجموعة تصحيحات مهمة وسريعة يجب أن أجريها".

وكأنه تابع أو خادم، ناولته دينيس مظلتها ونفضت الماء عن كاحلى بنطلونها الجينز. ورثت دينيس عن أمها شعرها الداكن والملامح الشاحبة، وعن أبيها كاريزما السلطة الأخلاقية القوية.

كانت من فكرت لشيب فكرة المرور على شقته وتناول الغداء فى نيويورك اليوم. وكأنها البنك الدولى يُملى شروطه على دولة لاتينية مدينة، لأنه، لسوء الطالع، شيب مدين لها ببعض النقود. يدين لها بمجموع عشرة آلاف دولار، وخمسة آلاف وخمسمائة، وأربعة آلاف، وألف دولار.

قال موضحًا: "إدين تريد قراءة النص بعد ظهر اليوم، وماليًا، كما هو واضح، من المهم أن..."

قالت دينيس: "لا يمكنك المغادرة الآن".

قال شيب: "لن أزيد على ساعة. ساعة ونصف على الأكثر".

"هل جوليا هنا؟"

"لا. مشت. سلمت عليهما ومشت".

"هل انفصلتما؟"

"لا أعرف. بدأت تتعاطى دواء ولا أثق حتى فى..."

"لحظة لحظة، هل تريد الذهاب إلى مكتب إدين، أم مطاردة جوليا؟"

لامس شيب حلق أذنه اليسرى. "ذاهب إلى إدين بنسبة تسعين فى المائة".

"يا شيب".

قال: "لا، اسمعينى، إنها تتعاطى كلمة "الصحة" كأن لها معنى سرمدى مطلق".

"تقصد جوليا؟"

"تتعاطى الدواء منذ ثلاثة شهور، والدواء جعلها حادة جداً، والحدة تصبح مرضًا نفسيًا! وكأنه العمى يقول عن نفسه الإبصار. بما أننى أصبحت أعمى أرى أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية".

تنهدت دينيس وتركت باقة الزهور تستلقى على الرصيف. "ماذا تقول؟ تريد ملاحقتها ومصادرة دوائها منها؟"

"أقول إن بنية ثقافتنا بأكملها مشوهة. أقول إن البيروقراطية كرست للحق فى تعريف بعض الحالات الذهنية على أنها حالات "مرضية". عدم الرغبة فى إنفاق النقود يصبح مظهرًا لمرض يحتاج لدواء غال. ثم يدمر الدواء الرغبة الجنسية، بمعنى آخر يدمر شهوة الإنسان فى الحياة المجانية، مما يعنى أن الإنسان يصبح مضطرًا لإنفاق نقود إضافية على المتع التعويضية. تعريف "الصحة" النفسية فى حد ذاته هو القدرة على المشاركة فى اقتصاد الاستهلاك. عندما تشترين الدواء فأنت تشترين حب الشراء. وأنا رأيى شخصيًا أننى أخسر معركة ثقافة الاستهلاك والحصار بالأدوية والحداثة الشمولية وأنا واقف هنا".

أغمضت دينيس عينًا وفتحت الأخرى على اتساعها. عينها المفتوحة كأنها لوحة سوداء منقوشة على طبق صينى أبيض. قالت: "لو وافقت على أن هذه تعتبر قضايا مهمة، فهل ستتوقف عن الكلام عنها وتصعد معى؟"

هز شيب رأسه: "هناك سمكة سلمون فى الثلاجة، وآيس كريم حمضى، وسلاطة فاصوليا خضراء ومكسرات. سوف ترين النبيذ والخبز الفرنسى والزبد. إنه زبد طازج من فيرمونت".

"ألم يخطر على بالك أن أباك مريض؟"

"ساعة هى كل ما أطلبه. ساعة ونصف على الأكثر".

"قلت ألم يخطر على بالك أن أباك مريض؟"

رأى شيب فى خياله أباه وهو يرتعش ويستجدى عند مدخل الباب. لإبعاد الصورة حاول استحضار صورة للجنس مع جوليا، مع الغريبة لازوردية الشعر، مع روثى، مع أى واحدة، لكن كل ما تخيله هو قطيع منتقم غاضب من الأثداء المقطوعة.

قال: "كلما أسرعت بالذهاب إلى إدين وعمل التصحيحات، رجعت أسرع. إذا كنت حقًا تريدين مساعدتى".

رأى تاكسى يقترب فى الشارع. ارتكب غلطة النظر إليه، وأخطأت دينيس فهمه.

قالت: "لا يمكننى إعطاءك أية نقود أخرى".

تراجع وكأنها بصقت عليه: "ما هذا الكلام يا دينيس.."

"كان بودى لكن لا أقدر".

"لم أطلب منك النقود!"

"لأنه متى تنتهى طلباتك؟"

دار على عقبيه ومضى إلى الأمطار الثقيلة نحو شارع يونفرستى بليس، يبتسم فى غضب. كان غارقًا حتى كاحليه فى بحيرة رمادية اتخذت هيئة الرصيف. يمسك بمظلة دينيس فى يده دون أن يفتحها، وما زال يشعر بالظلم، أن الخطأ ليس خطأه، أنه يغرق ويغرق.

* * *

حتى وقت قريب، ودون حتى التفكير كثيرًا فى الموضوع، كان شيب يعتقد أنه من الممكن النجاح فى أمريكا دون جنى نقود كثيرة. لطالما كان طالبًا نجيبًا، ومن سن مبكرة أثبت أنه غير نافع فى أى نشاط اقتصادى بخلاف شراء الأغراض، من ثم اختار السعى وراء حياة العقل.

منذ علّق ألفريد مرة تعليقًا خفيفًا لكنه لا يُنسى، بأنه لا يرى جدوى النظرية الأدبية، ومنذ راحت إنيد ـ فى رسائلها التى ترسلها مرتين فى الأسبوع وفيها تدخر دولارات كثيرة كانت ستنفقها على المكالمات التليفونية ـ ترجو شيب أن يتخلى عن سعيه وراء دكتوراه "لا فائدة عملية منها" فى الإنسانيات (كتبت قائلة: "إننى أرى جوائزك العلمية القديمة وأفكر فيما يمكن أن يقدمه شاب نافع مثلك لمجتمعه من رد الجميل إذا امتهن الطب، وكما ترى فأنا وأبوك ربيناكم حتى تفكروا فيمن حولكم، وليس أنفسكم فقط") أصبح لدى شيب محفزات كثيرة للعمل بهمة كى يثبت لأبويه خطأهما. بالخروج من سريره قبل زملائه فى الجامعة بكثير، الذين كانوا ينامون حتى الظهر بعد شرب الليلة الماضية، وراح يجنى المنح والمكافآت والهبات التى هى خبز الحياة الأكاديمية.

طوال السنوات الخمس عشرة الأولى من حياته كشخص بالغ، كانت تجربته الوحيدة مع الفشل تجربة غير مباشرة. صديقته فى الجامعة وبعد انتهاء الجامعة بكثير، تورى تيملمان، كانت مُنظّرة نسوية يعتريها الغضب الشديد من النظام الأبوى الذى يُنعم بالإحساس بالتحقق والإنجاز على هواه وكأنه مسطرة قضيبية، حتى إنها تخلت عن إتمام درجتها العلمية (أو لم تقدر). نشأ شيب وهو يسمع أباه يصول ويجول فى مسألة عمل الرجل وعمل المرأة

وأهمية التمييز بين الاثنين، وبدافع من الإحساس بالرغبة فى تصحيح ما سلف، لازم تورى قرابة عشر سنوات. كان يغسل ويطهو ويراعى القطة فى الشقة الصغيرة التى يشارك فيها تورى. درس النظرية الأدبية كتخصص ثانوى لتورى وساعدها على تحديد وإعادة تحديد وتأطير فصول أطروحتها البحثية التى لم تقدر على كتابتها من كمية الغضب الجاثمة على صدرها. ولم ينفد ما لديه من إحساس ذكورى بالذنب ولم يبدأ فى الانتقال لمرحلة أخرى إلا بعد أن عرضت عليه جامعة "د" وظيفة مدرس بعقد خمس سنوات (بينما تورى، التى ما زالت تنقصها درجة علمية لتوازيه، قبلت وظيفة بعقد سنتين قابل للتجديد فى مدرسة زراعية فى تكساس).

وصل إلى جامعة "د"، ثم ضمن له رئيس الجامعة جيم ليفيتون حياة وظيفية دائمة، بعد أن رأى فيه رجلاً فى الثالثة والثلاثين يستحق الوظيفة تمام الاستحقاق بمستقبل مُبشِّر. وبعد فصل دراسى واحد بدأ ينام مع المؤرخة الشابة روثى هاملتون وبدأ يلعب التنس مع ليفيتون وجلب لليفيتون كأس تنس الجامعات الذى تاه عنه عشرين عامًا.

جامعة "د"، بسمعتها كجامعة للنخبة وتمويلها الذى لا بأس بها، اعتمدت فى بقائها واستمرارها على الطلاب الذين يمكن لأهلهم دفع رسوم تعليم كاملة. ولجذب هؤلاء الطلاب شيدت الجامعة مركز ترفيه بكلفة ٣٠ مليون دولار، فيه بارات إسبرسو و"قاعتان سكنيتان" ضخمتان، أقرب إلى صورة الفنادق التى سيحجز فيها الطلاب لأنفسهم غرفًا فى مستقبلهم الزاهر، من كونها سكنًا طلابيًا. ثم هناك أسراب من الأرائك الجلدية وأجهزة كمبيوتر كافية لضمان أن الطلاب المقيمين أو الآباء الزائرين لن يدخلوا حجرة إلا

ويرون لوحة مفاتيح واحدة على الأقل، حتى فى حجرة الطعام أو فى الصالة الرياضية المغطاة.

المدرسون المساعدون ومن تحتهم يعيشون فى أماكن بائسة. شيب كان محظوظًا بأن حظى بوحدة سكنية من طابقين فى منطقة سكنية رطبة فى شارع تلتون ليدج، على الطرف الغربى للحرم الجامعى. شرفته الخلفية تطل على مجرى مائى معروف فى أوساط الإداريين فى الجامعة باسم "أخدود كوبير" وللآخرين باسم "أخدود قطع غيار السيارات". على الجانب البعيد من الأخدود ورشة تصليح سيارات تملكها مصلحة سجون كونيتيكت. والجامعة تقاضى حكومة الولاية والمحاكم الفيدرالية منذ عشرين عامًا حفاظًا على منطقة المستنقعات الطبيعية هذه من "كارثة بيئية" تتمثل فى استخدامها لأغراض الصرف وتطويرها إلى سجن متوسط الحراسة الأمنية.

كل شهر أو شهرين، طالما كان الحال على ما يرام مع روثى، يدعو شيب الزملاء والجيران وبعض الطلاب الحائرين المرتبكين إلى عشاء فى تلتون ليدج ويتحفهم بطبق إستاكوزا أو لحم بتلو مشوى أو شرائح لحم غزال مع التوت البرى، أو حلوى أشبه ما تكون بفوندو الشيكولاتة. أحيانًا فى وقت متأخر من الليل، وهو على رأس مائدة تعلوها زجاجات النبيذ الكاليفورنى كناطحات سحاب منهاتن، يشعر شيب بالأمان الكافى كى يضحك على نفسه، ويتبسط فى الكلام بعض الشىء، ويروى قصصًا محرجة عن طفولته فى الغرب الأوسط. مثل كيف لم يعمل أبوه فقط ساعات طويلة فى شركة سكك حديد ميدلاند ولم يكتف بقراءة القصص لأطفاله ورعاية النباتات فى حديقة البيت وأداء الصيانة المنزلية وأعمال مكتبية

ليلية، بل وجد الوقت أيضاً لإدارة معمل فلزات فى قبو البيت، وكان يبقى فيه حتى بعد منتصف الليل يجرى التجارب على سبائك المعدن الغريبة ويعرضها للضغوط الكهربية والكيميائية. ويروى كيف أنه فى سن الثالثة عشر لحقه الشغف بالفلزات القلوية التى يغمرها أبوه فى الكيروسين، على كوبالت كريستالى متوهج، ومكعب الزئبق الثقيل، وقوارير الزجاج المطحون والأحماض، وأعد لنفسه معملاً صغيرًا على هامش معمل والده. وكيف أن اهتمامه الجديد بالعلوم سر ألفريد وإنيد، وكيف أنه بتشجيع منهما، وطن نفسه على كسب جائزة فى معرض علوم سان جود الإقليمى. وكيف أنه فى مكتبة مدينة سان جود، كشف عن ورقة بحثية فى علم فسيولوجيا النبات غامضة بما يكفى وبسيطة بالدرجة الكافية فى الوقت نفسه كى تُرى على أنها من بنات أفكار طالب عبقرى فى الصف الثامن. وكيف جهز بيئة ملائمة لزراعة الشعير وصور النبتات الصغيرة بدقة ثم تجاهلها لأسابيع، ثم كيف مع ذهابه لوزن الشتلات ولمعرفة آثار حمض الجبريليك ممزوجًا بعامل كيميائى غير معروف، جفت الشتلات وذبلت. وكيف مضى قدمًا على أية حال وكتب أن التجربة "ناجحة" على ورقة الرسم البيانى، وفبرك قائمة من أوزان الشتلات مع بعض التنويع العشوائى المحسوب فى حسابات العينة، ثم حسب التاريخ المتخيل وتأكد أنه مطابق للنتائج "الصحيحة". وكيف وبعد أن فاز بالمركز الأول فى المعرض العلمى، ربح درعًا فضيًا وإعجاب والده. وكيف بعد عام، فى الوقت الذى حصل فيه أبوه على أول براءة اختراع أمريكى له (رغم الكثير من الأسى الذى عاناه من ألفريد، كان شيب حريصًا أمام ضيوف العشاء أن يصور هيبة وعظمة الرجل، بطريقته الخاصة)، تظاهر شيب بدراسة أسراب

الطيور المهاجرة فى حديقة بالقرب من بعض المتاجر ومكتبة ومنزل صديق مزود بلعبة "مينى فوتبول" ومائدة بلياردو. وكيف أنه كشف فى مكان ما فى الحديقة عن مجلة جنسية فاشلة لم يؤد على صفحاتها المنتفخة من رطوبة الجو - فى البيت فى معمل القبو، على عكس والده - أية تجربة حقيقية أو أحس بأقل فضول علمى ممكن، وكيف راح بلا توقف يكبس - على الجاف - على قضيبه المنتصب، دون أن يعرف أن هذا التدليك العمودى يؤخر المتعة (ضيوفه على العشاء، والكثير منهم خبراء فى نظرية المثلية الجنسية، سرتهم كثيرًا هذه التفصيلة)، وكيف وكمكافأة على نفاقه وإساءته لذاته وخموله العام، ربح جائزة معرض علمى أخرى.

وسط دخان سجائر حفل العشاء، وهو يسلى زملاءه المتعاطفين معه، كان شيب يشعر بالأمان فى حضن معرفته أن أبواه أبعد ما يكونان عن الصواب فى تخمينهما لمستقبله الأفضل. طوال عامين ونصف، إلى أن بدأت مشكلة عيد الشكر فى سان جود، لم يتعرض لأية مشكلة فى جامعة "د". ثم تخلت عنه روثى وهرعت إليه طالبة فى الفرقة الأولى، لتملأ الفراغ الذى خلفته روثى.

ميليسا باكويت كانت أنجب طالبة فى مادة "أقاصيص الاستهلاك"، التى يُدّرسها كمدخل إلى النظرية، والتى بدأ تدريسها فى ثالث فصل ربيع له فى "د". كانت ميليسيا شخصية فخيمة مسرحية الأداء يتفاداها الطلاب الآخرون لأنها دائمًا ما تجلس فى الصف الأول من المقاعد، أمام شيب تمامًا. كانت طويلة الرقبة عريضة الكتفين، ليست جميلة بالمعنى الصريح للكلمة، أقرب إلى كونها مثالية الجسد. شعرها مستقيم للغاية لونه لون زيت الموتور الجديد. ترتدى ثيابًا رخيصة لا تزيدها أناقة - سترة رجالية من

البوليستر، فستان قصير عريض الحواف من الصوف، بلوفر رجالى عليه كلمة "راندى" منقوشة على جيبه الأمامى.

لا تصبر ميليسا على الأشخاص الذين تعتبرهم أغبياء. فى الاجتماع الثانى لمادة أقاصيص الاستهلاك، عندما حاول فتى دمث يربط شعره فى ضفائر أفريقية يُدعى تشاد (فى كل قاعة درس فى "د" يوجد على الأقل فتى واحد دمث أفريقى الضفائر) أن يلخص نظريات ثورستين "ويبرن"، بدأت ميليسا تلقى لشيب نظرات توحى بالتآمر والتواطؤ ضد الفتى. حركت رموشها فى ملل وشكل فمها كلمة "فيبلن" صامتة وأمسكت بشعرها. سرعان ما بدأ شيب يهتم بضيقها أكثر من اهتمامه بما يقوله تشاد.

قاطعته أخيراً قائلة: "عذرًا يا تشاد. تقصد فيبلن؟"

"فيبيرن، فيلبرن، هذا ما قلته".

"لا. بل كنت تقول ويبرن. اسمه فيبلن".

"طيب، فيبليرن. شكراً جزيلاً يا ميليسا".

ألقت ميليسا شعرها وراء ظهرها وعادت تواجه شيب، مهمتها تمت بنجاح. لم تلتفت لنظرات الاحتقار التى سددها لها أصدقاء تشاد والمتعاطفون معه. لكن شيب تراجع إلى ركن بعيد من الحجرة كى يفصل نفسه عنها، وشجع تشاد على الاستمرار فى ملخصه.

ذلك المساء، أمام سينما الطلاب فى قاعة هيلارد روث، اقتربت ميليسا وهى تدفع بمنكبيها الحشد لتقول لشيب إنها تحب فالتر بنجامين. وقفت، فى رأيه، على مسافة قريبة جدًا منه. وقفت قريبة منه أيضًا فى حفل استقبال مرجورى جاربر، بعد أيام. هرعت إليه تجرى من الطرف البعيد لحديقة لوسينت تيكنولوجيز (الاسم

السابق، الحديقة الجنوبية) كى تدفس فى يده إحدى الورقات البحثية الأسبوعية المطلوبة فى مادة أقاصيص الاستهلاك. تجسدت إلى جواره فى ساحة انتظار سيارات مدفونة تحت أكوام من الثلج، وساعدته بيديها داخل القفاز ومنكبيها العريضين على إخراج سيارته. أفسحت له مسارًا للسيارة بحذائها طويل الرقبة المبطن بالفراء. لم تتوقف عن الحفر فى طبقات الجليد المتكومة على زجاج سيارته الأمامى إلى أن أمسك بمعصمها وأخذ من يدها مساحة الثلج.

شارك شيب فى لجنة صياغة سياسة الجامعة الجديدة الخاصة بالعلاقة بين الطلاب والأساتذة. لا شىء فى السياسة يمنع طالبًا من مساعدة أستاذه فى تنظيف سيارته من الثلج، وبما أنه أيضًا يمارس ضبط النفس، فلا شىء يخافه إذن. لكن، بعد فترة قصيرة، بدأ يبتعد عن مسار ميليسا كلما رآها فى الجامعة. لم يكن يريد أن تجرى نحوه وتقف على مقربة منه. وعندما اكتشف نفسه يفكر ذات مرة إن كان شعرها مصبوغًا، حمل نفسه على الكف عن التساؤل. لم يسألها أبدًا إن كانت هى من ترك الزهور أمام باب مكتبه يوم عيد الحب، أو تمثال مايكل جاكسون المصنوع من الشيكولاتة فى عيد الفصح.

فى القاعة بدأ يطالب ميليسا بالتعليق أقل من الطلاب الآخرين، وأنعم باهتمام بالغ على عدوها اللدود، تشاد. أحس دون أن ينظر أن ميليسا تومئ له دلالة على الفهم والتضامن عندما يحلل عبارة معقدة لماركوز أو بودريلارد. بشكل عام كانت تتجاهل زملاءها فى القاعة، باستثناء الالتفات إليهم فجأة فى عدم اتفاق بيّن أو لإخبارهم بتصحيح بارد، والزملاء من جانبهم كانوا يتثاءبون كلما رفعت يدها.

ذات ليلة جمعة دافئة قرب نهاية الفصل الدراسى، عاد شيب للبيت من جولة شراء بقالة الأسبوع واكتشف أن هناك من خرب بابه الأمامى. ثلاثة من مصابيح مدخل البيت الأربعة احترقت، والجامعة يبدو أنها تنتظر احتراق الرابع قبل أن تشترى مصابيح بديلة. وعلى هدى الضوء الخافت، رأى شيب من يخوض فى الزهور والنباتات... عبر فتحات الباب الخارجى المتعفنة. قال: "ما هذا؟ ما زلت تحت السن القانونية لممارسة الجنس يا ميليسا".

ربما قال أشياء أخرى قبل أن يدرك أن هناك زهرات تيوليب وفروع لبلاب متناثرة على عتبة البيت، عملية تخريب لم تنته بعد، وأنه ليس وحده. ظهر من وراء الأكمة المجاورة للباب شاب وشابة يضحكان. قالت ميليسا: "آسفة، آسفة. كنت تكلم نفسك!"

أراد شيب أن يعتقد أنها لم تسمع ما قاله، لكن مخبأها لم يكن أبعد من ثلاثة أقدام. وضع البقالة داخل البيت وأضاء النور. كان يقف إلى جوار ميليسا تشاد ذى الشعر المضفر على الطراز الأفريقى.

قال تشاد فى نبرة صادقة: "أهلاً يا دكتور لامبرت". كان يرتدى بلوفر ميليسا وميليسا ترتدى تى شيرت ربما يخص تشاد. كانت يدها حول رقبة تشاد ولفت ساقها حول إحدى ساقيه. كانت متوهجة الوجنتين عرقها غزير غائبة الوعى بفعل مخدر ما.

قالت: "كنا نزين بابك".

قال تشاد وهو يفحص الباب على هدى النور: "الحقيقة يا ميليسا أن شكله قبيح جداً". كانت زهرات التيوليب معلقة من كل الزوايا. وهناك بقع من الطين على فروع اللبلاب. "مبالغة أن نقول تزيين".

قالت: "لا يمكنك أن ترى من عندك. أين النور؟"

قال شيب: "لا يوجد نور. أنتما هنا فى جيتو وسط الأدغال. أساتذتكم يعيشون هنا".

"هذا اللبلاب حالته صعبة يا عمّ".

سأل شيب: "لبلاب من هذا؟"

قالت ميليسا: "لبلاب الجامعة".

"يا عمّ أنا لا أعرف حتى سبب ما عملناه". التفت تشاد ليسمح لميليسا بوضع فمها على أنفه، وهو ما يبدو أنه لم يزعجه، رغم أنه تراجع برأسه. "ألا توافقينى أنها فكرتك أكثر منها فكرتى؟"

قالت ميليسا وهى تتحضر للصق جسدها بتشاد أكثر: "مصروفات الجامعة تغطى ثمن هذا اللبلاب". لم تنظر إلى شيب منذ أضاء المصباح الخارجى.

"إذن جاء هانزل وجريتل واكتشفا باب بيتى".

قال تشاد: "سوف ننظفه".

قال شيب: "دعاه. أراكما يوم الثلاثاء". ثم دخل وأوصد الباب واستمع لموسيقى غاضبة من سنوات دراسته الجامعية.

فى اللقاء الأخير لمادة "أقاصيص الاستهلاك" كان الطقس قد أصبح حارًا. كانت الشمس ساطعة فى سماء ممتلئة باللقاح الطائر. أحس شيب بالهواء عدوانيًا، وكأنه بقعة دافئة فى حمام سباحة. كان قد شغل جهاز الفيديو وأغلق نوافذ القاعة عندما دخلت ميليسا ومعها تشاد وجلسا فى ركن خلفى من الحجرة. ذكر شيب الفصل بالجلوس معتدلين كنقاد نابهين وليس مستهلكين سلبيين،

واعتدل الطلاب فى جلستهم بما يكفى للإقرار بالاستماع لطلبه دون أن يلتزموا به فعليًا. ميليسا، وهى الناقدة المعتدلة فى جلستها عادة، جلست مسترخية فى مقعدها ولفت ذراعًا على ساقى تشاد.

لاختبار استيعاب طلابه للأفكار النقدية التى عرضها عليهم، كان شيب يعرض تسجيل فيديو لحملة إعلانية من ست إعلانات بعنوان "برافو عليكى". كانت الحملة من إعداد شركة "بيت سيكولوجى" وكانت قد أعدت أيضًا حملة "صرخة الغضب" لشركة "جى إلكتريك" و"ظبّطنى جامد" لشركة "سى للجينز" و"دين أم الفوضى!" لشبكة "دبليو"، و"دماغ ثورية سرية" لموقع "ى.كوم" و"الحب والعمل" لشركة "م للأدوية". تم بث الحلقة الأولى من "برافو عليكى" الخريف الماضى، وتلتها حلقة كل أسبوع، خلال مسلسل تليفزيونى ناجح تدور أحداثه فى مستشفى. أسلوب التصوير أبيض وأسود، المحتوى، طبقًا لتحليلات فى صحف "تايمز" و"وول ستريت جورنال" "ثورى الطابع وجديد".

فكرة الحملة الإعلانية كالتالى: أربع نساء فى مكتب صغير - أمريكية أفريقية حبوبة فى مقتبل العمر، شقراء فى منتصف العمر كارهة للتكنولوجيا، جميلة تبدو عليها الخبرة والمكر اسمها تشيلسى، ومديرة تطل من عينيها الطيبة والصلاح رمادية الشعر - يأكلن معًا ويمزحن معًا وهلم جرًا، ثم يبدأن النضال معاً عندما تعلن تشيلسى إعلانًا مروعًا، فى نهاية الحلقة الثانية، أنها منذ عام تقريبًا مصابة بورم فى ثديها تخشى كثيرًا أن يفحصه الطبيب. فى الحلقة الثالثة تُبهر المديرة والأفريقية الأمريكية الشابة الحبوبة تلك الشقراء التى تخشى التكنولوجيا، بأن تستخدمان كمبيوتر شركة "و" العالمية طراز ٥,٠ فى التوصل لمعلومات حديثة كل الحداثة عن

السرطان، ثم يساعدن تشيلسى على الاستعانة بخبرات شبكات الدعم وأفضل مقدمين للرعاية الصحية فى المنطقة. الشقراء، التى بدأت تتعلم حب التكنولوجيا بسرعة، تستعجب ولا تعترض: "لا يمكن أن تتحمل تشيلسى ثمن كل هذا"، فترد المديرة الملائكية: "سأدفع كل مليم أحمر من المبلغ". لكن فى منتصف الحلقة الخامسة - وهو الإلهام الثورى للحملة - يتضح أن تشيلسى لن تنجو من سرطان الثدى. مشاهد تستدر الدمع لمزحات شجاعة وأحضان متبادلة. وفى الحلقة الأخيرة يعود الأكشن للمكتب، فنرى المديرة تنظر إلى صورة للمرحومة تشيلسى، ونرى الشقراء التى أصبحت مقبلة بشدة على التكنولوجيا تتصفح بحماس كمبيوتر شركة "و" العالمية نسخة رقم ٥,٠ ثم مشاهد لنساء حول العالم من جميع الأعمار والأعراق يبتسمن ويذرفن الدموع على صورة تشيلسى الموضوعة على "ديسك توب" كمبيوتر "و" العالمى. وترجونا روح تشيلسى: "ساعدونا فى النضال من أجل التوصل لعلاج" وتنتهى الحلقة بمعلومة يتم عرضها برصانة واحترافية، بأن شركة "و" العالمية وهبت أكثر من عشرة ملايين دولار لجمعية السرطان الأمريكية للمساعدة على النضال من أجل التوصل لعلاج...

قيم الإنتاج المبتذلة فى حملة مثل "برافو عليكى"، يمكن أن تغرى طلاب السنة الأولى - قبل اكتسابهم مهارات النقد والتحليل الخاصة بثقافة المقاومة - بأن يدلوا بدلوهم. كان شيب يشعر بالفضول، وخائف إلى حد ما، لأن يرى إلى أى حد تقدم طلابه. باستثناء ميليسا، المكتوبة بحوثها بوضوح وقوة، فلم يقنعه أحد منهم بأن يفعل أكثر من ترديد الكلام السائد كالببغاء. كل عام، يبدو أن طلاب السنة الأولى الجدد أشد مقاومة للفكر النظرى، عن طلاب

العام السابق. كل عام، تأتى مرحلة تنوّر الطلاب بحجم يُعتدّ به متأخرة عن العام السابق. والآن وقد حانت نهاية الفصل الدراسى، ما زال شيب لا يعرف إن كان الجميع - بالإضافة إلى ميليسا - قد أدركوا كيفية انتقاد الثقافة الجماهيرية.

الطقس لم يكن فى صالحه. رفع النافذة وتدفقت أنوار العصرية إلى قاعة الدرس. شبق الصيف دخل يهاجم الأذرع والسيقان العارية، للفتيات والفتية على حد سواء.

شابة ضئيلة رشيقة تُدعى هيلتون، تشبه كلب الشيواوا، قالت إن من "الشجاعة" و"من المثير للاهتمام"، أن تشيلسى ماتت من السرطان ولم تنج منه كما قد تتوقع فى حملة إعلانية.

انتظر شيب أن يقول أحدهم إن هذه "الثورية" المتعمدة المبتذلة فى الإعلان هى التى خلّقت الاهتمام به. عادة ميليسا من مقعدها فى الصف الأمامى، هى التى قد تدلى بفكرة كهذه. لكن اليوم كانت جالسة مع تشاد ووجنتها على المكتب. عادة عندما ينام الطلاب فى الفصل، ينادى شيب عليهم على الفور. لكن اليوم تردد فى ذكر اسم ميليسا. كان يخشى أن يهتز صوته.

أخيرًا، وبابتسامة صفراء قال: "فى حالة كان أحدهم يزور كوكبًا مختلفًا الخريف الماضى، دعونا نراجع ما حدث مع هذه الإعلانات. تذكرون قيام مركز بحوث نيلسون للإعلام عندما اتخذ خطوته "الثورية" بأن كافأ الحلقة السادسة من الحملة بتقييمه لها. أول تقييم من هذا النوع يُمنح لإعلان. وما إن قام مركز نيلسون بتقييمه، حتى ضُمن للحملة حضور جماهيرى رهيب أثناء إعادة بثها فى نوفمبر. كما تذكرون أن تقييم نيلسون تلاه أسبوع من

التغطية الصحفية والتليفزيونية للسيناريو "الثورى" المتلخص فى وفاة تشيلسى، بالإضافة إلى شائعة ترددت على الإنترنت بأن تشيلسى إنسانة حقيقية ماتت بالفعل. وهو ما صدقه مئات الآلاف من الناس. ثم وكما تذكرون، فبركوا لها سجلات طبية وتاريخ شخصى ووضعوه على الإنترنت. لذا سؤالى الآن لهيلتون: ما درجة "شجاعة" التحضير بهذا الشكل للترويج لحملتك الإعلانية؟

قالت هيلتون: "فى الأمر مخاطرة. أعنى أن الوفاة فى الإعلان محبطة. كان من الممكن أن يكون للحملة نتيجة عكسية بسببها".

انتظر شيب من جديد أن ينبرى أحدهم، أى شخص، ليقف إلى جانبه فى النقاش. لم يفعل أحد. قال: "إذن فالخطة التى تستهزئ بالجمهور، لو لم تكن هناك مخاطرة مالية فى الموضوع، تصبح شجاعة فنية؟"

هجم على الحديقة خارج الفصل فريق من البستانيين بجزازات العشب، وغلّفوا النقاش بموجة من الضوضاء. الشمس نورها باهر.

مضى شيب فى هجومه. هل يبدو واقعيًا أن تنفق صاحبة شركة صغيرة من جيبها على الرعاية الصحية الخاصة لموظفة لديها؟

قالت طالبة إن صاحبة عملها الصيف الماضى كانت كريمة وعظيمة جدًا بشكل عام.

راح تشاد يكافح فى صمت يد ميليسا التى تداعبه، بينما وبيده الأخرى، صد هجوم بطنها العارية.

قال شيب: "تشاد؟"

تمكن تشاد من الإجابة على السؤال دون أن يكرره شيب. قال: "ما شاهدناه دارت أحداثه فى شركة واحدة. ربما فى مكان آخر، ما

كنا لنجد صاحب العمل بهذه الطيبة. لكن صاحبة العمل هذه كانت عظيمة. أعنى، لا أحد يتظاهر بأن ما حدث يحدث فى كل الشركات، صح؟"

هنا حاول شيب أن يثير مسألة مسئوليات الفن تجاه "المألوف"، لكن هذا النقاش كان بدوره بلا فائدة.

قال: "إذن الخلاصة، أننا نحب هذه الحملة الإعلانية. نعتقد أن الإعلانات جيدة للثقافة وجيدة لصالح البلد، صح؟"

رأى هزات رؤوس وإيماءات فى الحجرة المغسولة بالشمس.

قال شيب: "ميليسا. لم نسمع رأيك".

رفعت ميليسا رأسها عن مكتبها، وحوّلت انتباهها عن تشاد، ونظرت إلى شيب بعيون ضيقة. قالت: "نعم".

"ماذا تقصدين بنعم؟"

"نعم. هذه الإعلانات جيدة للثقافة وجيدة لصالح البلد".

أخذ شيب نفساً عميقًا لأن ما قيل آلمه. وقال: "طيب، عظيم. شكراً لك على رأيك".

قالت ميليسا: "وكأنك مهتم برأيى".

"عذراً؟"

"وكأنك مهتم بآرائنا ما لم تكن نفس آرائك".

قال شيب: "الموضوع ليس موضوع آراء واختلافها، بل تعلّم الأساليب التطبيقية لأدوات النقد النصى. وهو ما أنا هنا لأعلمكم إياه".

قالت ميليسا: "لا أعتقد أن هذه هى الحكاية. رأيى أنك هنا لتعلمنا كراهية الأشياء التى تكرهها. أعنى، أنك تكره هذه الإعلانات، صح؟ أسمع كراهيتك فى كل كلمة تنطقها. تكرهها بكل عنف".

راح الطلاب الآخرون يسمعون باهتمام. صلة ميليسا بتشاد خفضت من أسهم تشاد ولم ترفع من أسهمها، لكنها هاجمت شيب كأنه قرين لها، وليس كأنها طالبة وهو أستاذ، وراح الجميع يتابعون بكل اهتمام.

أقر شيب قائلاً: "أنا أكره هذه الإعلانات، لكن ليست هذه هى.."

"بل هى كذلك".

قال تشاد: "لماذا تكرهها؟"

نظر شيب إلى ساعة الحائط. بقيت ست دقائق على انتهاء الفصل الدراسى. مرر يداً فى شعره وجال بعينيه فى أرجاء الحجرة وكأنه سيجد له حليفًا، لكن الطلبة جميعًا فى مواجهته الآن، يتفرجون، وهو يعرف.

"شركة و... تدافع حاليًا عن نفسها فى ثلاث قضايا فى المحاكم بتهمة خيانة الثقة. أرباحها العام الماضى تجاوزت إجمالى الناتج المحلى لإيطاليا. والآن، كى تعتصر الفلوس من منطقة جغرافية لا تهيمن عليها بعد، تدير حملة إعلانية تستغل مخاوف النساء من سرطان الثدى وتعاطفها مع الضحايا. نعم يا ميليسا!"

. "ليست حملة مبتذلة".

"ما هى إذن إن لم تكن مبتذلة؟"

"إنها تحتفى بالمرأة العاملة. إنها تجمع النقود لبحوث السرطان. وتشجعنا على أن نعمل اختبارات السرطان وأن نبحث عن المساعدة المطلوبة. إنها تساعد النساء على أن يشعرن بأن التكنولوجيا فى صالحهن، وليست مقتصرة على الرجال".

قال شيب: "طيب، عظيم. لكن السؤال ليس إن كنّا مهتمين بسرطان الثدى، بل هو ما علاقة سرطان الثدى ببيع المعدات المكتبية؟"

أدلى تشاد بدلوه بالنيابة عن ميليسا: "هذا هو الهدف وراء الإعلان. أن تكون مطلعًا على التكنولوجيا، يمكن للتكنولوجيا أن تنقذ حياتك".

"إذن إذا وضعت بيتزا هات إعلانًا صغيرًا على موائدها فى المحلات، إلى جوار زجاجات الكاتشب، عن إجراء الرجال لفحوص الخصية بأنفسهم، فهل يمكنها إذن أن تروج لنفسها على أنها جزء من المعركة المجيدة والنضال المقدس ضد السرطان؟"

سأله تشاد: "ولم لا؟"

"هل يرى أى منكم ما يسوء فى هذا المنطق؟"

لم يتحدث طالب واحد. عقدت ميليسا ذراعيها وعلى وجهها نظرة كئيبة. عن حق أم لا: شيب يحس أنها دمرت فى خمس دقائق ما قدّمه من تعليم على مدار فصل دراسى كامل.

قال: "إذن لنفترض أن حملة "برافو عليكى" ما كانت لتُنتج وتُذاع لو لم يكن لدى شركة "و" منتجًا لتبيعه. ولنفترض أن هدف الناس فى "و" هو مجرد التلاعب بأسهم الشركة فى البورصة وأن يتقاعدوا عند سن ٣٢ عامًا، وأن هدف من يملكون أسهم "و" (شقيق

شيب وزوجة شقيقه، جارى وكارولين، يملكان نصيبًا كبيرًا من أسهم "و") هو بناء بيوت أكبر وشراء سيارات جيب أكبر واستهلاك المزيد والمزيد من موارد الكوكب المحدودة".

قالت ميليسا: "وما العيب فى أن يعيش الإنسان حياته؟ لماذا ترى شرًا متأصلاً فى حيازة النقود؟"

قال شيب: "قد يقول بودريلار لو كان معنا، أن الشر وراء حملة مثل "برافو عليكى" يتلخص فى الفصل بين المتلقى والراسل. أن المرأة الباكية لم تعد إشارة إلى الحزن. بل أيضًا قد يعنى بكاءها "الرغبة فى معدات مكتبية" و"أصحاب عملنا يهتمون بنا كثيرًا".

أصبحت الساعة فى ساعة الحائط الثانية والنصف. توقف شيب وانتظر أن يرن الجرس وأن ينتهى الفصل الدراسى.

قالت ميليسا: "عفوًا، لكن هذا الكلام خراء".

قال شيب: "ماذا تقصدين بخراء؟"

"هذا الفصل الدراسى بالكامل. كل أسبوع خراء وراء خراء. ناقد وراء آخر ينفقون حياتهم على نظرية النقد والمشهد النقدى. لا أحد يقول ما العيب فى أى شيء تحديدًا. لكنهم جميعًا يعرفون أن الموضوع فيه شر. كلهم يعرفون أن "عالم الشركات" كلمة قبيحة. وإذا رأوا أى شخص يمرح أو يغتنى.. يبقى شيء مقزز! شر! المسألة دائمًا موت "معرفش أيه" ونهاية "أبصر أيه". ومن يعتقدون أنهم "أحرار" ليسوا فى واقع الأمر أحرارًا، ومن يظن نفسه سعيدًا ليس فى الحقيقة سعيدًا. ومن المستحيل انتقاد المجتمع بشكل ثورى بعد الآن، رغم أنه من الخطأ ثوريًا أن يحتاج المجتمع للانتقاد الثورى، لا أحد يفهم أى شيء. لكن واضح إنه من طباعك وأنه مناسب لك

جدًا أن تكره هذه الحملة الإعلانية" انتهى كلامها لشيب مع انتهاء رنين جرس انتهاء الفترة. "ها هى الدنيا تزدهر وتزهزه للنساء والملونون والمثليون والمثليات، وأكثر تكاملاً وانفتاحًا، وكل ما تفكر فيه هو مشكلة غبية سخيفة عن المتلقى والراسل. وكأن الطريقة الوحيدة لتشويه حملة إعلانية عظيمة وفى صالح المرأة، هو أن تفعل ما تفعله، لأنه لابد أن يكون هناك ما يعيب أى شىء فى كل شىء.. وكأن من الشر أن يكون المرء غنيًا ومن الشر أن تعمل فى شركة كبرى، ونعم، أعرف أن الجرس رنّ". وأغلقت كراستها.

قال شيب: "طيب. عمومًا، لقد اجتزتم مادتى بنجاح، إجازة سعيدة".

لم يتمكن من إبعاد إحساسه بالمرارة عن صوته. انحنى على جهاز عرض الفيديو وأولى انتباهه لترجيع شريط "برافو عليكى"، وراح يضغط الأزرار لمجرد لمس الأزرار. أحس بطلاب قليلين يحيطون به، وكأنهم يريدون شكره على تعليمهم من أعماق قلبه، أو ليقولون له إنهم استفادوا من المادة واستمتعوا بالمحاضرات، لكنه لم يرفع عينيه عن جهاز الفيديو حتى خلت الحجرة. ثم عاد لبيته فى تيلتون ليدج وبدأ يشرب.

اتهامات ميليسا آلمته كثيرًا. لم يدرك أبدًا كم أخذ على محمل الجد مطالبة أباه له بأن يؤدى عملاً "مفيدًا" للمجتمع. انتقاد ثقافة مريضة، حتى إذا كان الانتقاد لن ينجز شيئًا، كان دائمًا عمله المفيد. لكن إذا كان مرض المجتمع المزعوم ليس مرضًا من الأساس - إذا كان المنظور المادى البحت العظيم للتكنولوجيا وثقافة الاستهلاك والعلم والتقدم الطبى هو ما يُحسّن فعلاً حياة من كانوا

مضطهدين قبل الآن، إذا كان الرجال البيض غير المثليين، من أمثال شيب، هم فقط من يرون العيب فى هذا النظام؛ إذن لم يعد هنالك أدنى نفع مجرد من نظريته النقدية. كل شىء، فى نظر ميليسا، خراء.

وهو يشعر بأن ليس لديه الطاقة ولا الإحساس الكافيين للعمل على كتابه الجديد، كما كان يخطط أن يعمل عليه طوال الصيف، اشترى شيب تذكرة طيران أغلى من العادة إلى لندن، ومنها ذهب إلى إيدنبرج وأقام لمدة طويلة مع فنانة حاضرت وأدت عروضًا فى جامعة "د" الشتاء الماضى. سرعان ما قال صديقها: "حان وقت خروجك من هنا يا بنى"، وانطلق شيب على الطريق ومعه حقيبة ظهر مليئة بكتب لهايدجر وفيتجنستاين، يحس بوحدة لا يمكنه معها قراءتها. كان يكره التفكير فى نفسه على أنه رجل لا يمكنه العيش بلا امرأة، لكنه لم ينم مع امرأة منذ تخلت عنه روثى. هو الأستاذ الرجل الوحيد فى جامعة "د" الذى قام بتدريس النظرية النسوية، ويفهم كم من المهم للنساء ألا يعتبرن "النجاح" موازيًا لـ "العيش مع رجل" و"الفشل" بـ "العيش دون رجل"، لكنه رجل سوىّ وحيد، الذكر السوىّ الوحيد ليست لديه "نظرية ذكورية" تغفر له بالمثل أنه لا يعيش مع امرأة، هذا المفتاح إلى كل مظاهر كراهية النساء:

- الإحساس بأن الرجل غير قادر على الحياة بلا امرأة يضعفه.
- لكن، دون امرأة فى حياته، يفقد الرجل الإحساس بالتمكن والاختلاف، الذى يعتبر أساس إحساسه بالرجولة، بغض النظر عن اعتبار هذا الأمر جيدًا أم سيئًا.

فى صباحات كثيرة، فى الأماكن الإسكتلندية الخضراء الملطخة بالأمطار، يشعر شيب بأنه قريب من الفرار من إحساسه الزائف

واكتساب إحساس بالذات والهدف من الحياة، ثم يجد نفسه فى الرابعة بعد الظهر يشرب البيرة فى محطة قطار، أو يأكل البطاطس والمايونيز، ويعاكس بنات الجامعة الأمريكيات. وهو يمارس دوره كرجل يحاول إغراء البنات، أحس بعدم التكافؤ، وبالتوتر من عدم تمكنه من اللهجة الإسكتلندية التى تضعف أمامها الأمريكيات. سجل هدفًا مرة واحدة، مع شابة صغيرة من ولاية أوريجون، كان على قميصها بقع الكاتشب ورائحة فروة رأسها نفاذة لدرجة أنه أمضى أغلب الليل يتنفس من فمه.

إخفاقاته بدت له طريفة أكثر منها مؤسفة، عندما عاد إلى كونيتيكت وأتحف أصدقاءه المشابهين له فى الطباع بقصص عن تجاربه. تساءل إن كان اكتئابه الإسكتلندى كان ثمرة تناول الطعام كثير الدهون. توترت أمعاءه عندما تذكر قطع الأسماك الغارقة فى الزيوت، وقطع البطاطس السمينة المقلية فى الزيت.

وفى سوق المزارعين الأسبوعى القريب من حرم جامعة "د"، عبأ أكياسًا كبيرة بالطماطم والقرنبيط والبرقوق الأصفر. راح يأكل الجرجير ("الصاروخ" على حد قول المزارعين المسنين) قوى النكهة حتى إن عينه تدمع ويمضغه، ثقيل كفقرة من رواية لثورو. وهو يتذكر "الجيد والصحى"، بدأ يستعيد نظامه المعيشى. بدأ يخف من شرب الكحول، وبدأ ينام أكثر، ويشرب قهوة أقل، وذهب إلى صالة الجامعة الرياضية مرتين فى الأسبوع. راح يقرأ كتب هايدجر الملعونة، ويلعب تمارين الصباح كل يوم. بدأت القطع الباقية من أحجية "احترام الذات" تتجمع وتأخذ أماكنها، ولمدة، مع عودة الطقس البارد اللطيف إلى وادى كاربرتس كريك، بدأ يحس بسلامة وصحة "ثوروفية" الطابع. بين المجموعات فى ملعب التنس، طمأنه

جيم ليفيتون إلى أن تقييمه الأكاديمى فى الجامعة لن يزيد على مجرد "إجراء رسمى"، وألا يقلق من المُنظّرة الشابة الأخرى التى تنافسه فى القسم، فيندلا أوفالون. وكان منهج مادة شيب فى فصل الخريف الدراسى يشتمل على شعر عصر النهضة وشكسبير، والموضوعان لا يتطلبان منه إعادة النظر فى قناعاته النقدية. وهو يحضر للمرحلة الأخيرة لاعتلائه قمة نجاحه المهنى، كان مسرورًا؛ لأنه خفيف، سعيد فى حقيقة الأمر، لأنه لا توجد امرأة فى حياته.

كان فى البيت ذات جمعة فى سبتمبر، يحضر لنفسه عشاء من البروكلى والجوز المهروس والسمك الطازج، يتطلع لليلة من تصحيح الأوراق، عندما مرقت أمام نافذة مطبخه ساقين. كان يعرف هذه الجوارب. يعرف طريقة ميليسا فى السير. لا يمكنها التسلل من فوق سور بيت دون أن تمرر أصابعها عليه. كانت تتوقف فى ردهات الجامعة تؤدى حركات راقصة. تسير إلى الخلف بعكس الاتجاه، أو تسير فى خطوات جانبية، أو تقفز، أو تتبختر.

الطرقة على بابه لم تكن على استحياء. من وراء الباب الشبك رآها تحمل طبقًا من الكعك عليه كريمة وردية.

قال: "نعم، من هناك؟"

رفعت ميليسا الطبق على أصابعها وقالت: "كعك. قلت ربما تحتاج فى حياتك حالياً لبعض الكعك".

ليست مسرحية الأداء. شيب يشعر بقلة الحيلة أمام أصحاب الأداء المسرحى. قال: "لماذا أحضرت لى الكعك؟"

مالت ميليسا إلى الأمام ووضعت الطبق على مدخل الباب وسط بقايا النباتات الميتة. قالت: "سأتركه لك هنا. ويمكنك أن تفعل به ما

تشاء. سلام!" فردت يديها وابتعدت عن مدخل الباب واجتازت المسافة الفاصلة إلى الباب الخارجى على أطراف أصابعها.

عاد شيب إلى نضاله مع السمك الفيليه، وفى وسطه شوكة بلون أحمر بنى اعتزم خلعها. لكن السمكة صلبة ووجد من الصعب الإمساك بها جيدًا. قال وهو يرمى السكين فى الحوض: "ملعون أبوكى بنت".

كانت الكعكات مليئة بالزبد، والكريمة طعمها طعم الزبد. وبعد أن غسل يديه فتح زجاجة نبيذ شاردونى. أكل أربع كعكات ووضع السمكة غير المطهية فى الثلاجة. فيلم "مائة عام من السينما الإيروتيكية"، فيلم ثقافى ظل على الرف لشهور دون أن يلقى عليه نظرة واحدة، فجأة أحس بإيلائه كامل اهتمامه. أنزل الستائر وشرب النبيذ، وراح يمتع نفسه بيديه مرة تلو الأخرى، وأكل كعكتين أخريين، وأحس فيهما بطعم الفلفل، فلفل زبدى المذاق، ناعم، قبل أن ينام.

الصباح التالى نهض فى السابعة من نومه، وأدى تمرين الضغط أربعمائة مرة. وضع "مائة عام من السينما الإيروتيكية" فى حوض المطبخ، وجعله بالمعنى الحرفى للكلمة، غير قابل للاحتراق. (فعل هذا من قبل فى العديد من علب السجائر وهو يحاول الإقلاع عن التدخين). ولم يعرف ماذا قصد بإلقاء السكين فى الحوض. كان صوته غير صوته المألوف على الإطلاق.

ذهب إلى مكتبه فى الجامعة وراح يعلّم الأوراق. كتب على أحد الهوامش "شخصية كريسيدا قد تنير اختيار تويوتا باسم المنتج، تنوير كريسيدا للنص الشكسبيرى يتطلب حجج ودلائل أكثر من التى

عرضتها هنا". أضاف علامة تعجب لتخفيف انتقاده أثناء التصحيح. أحيانًا، وهو يمزق إربًا الأوراق الطلابية الضعيفة بشكل استثنائى، كان يرسم مع تعليقاته وجوهًا مبتسمة.

"تحتاج تصحيحًا إملائيًا!" كتبها على ورقة لطالبة راحت تكتب اسم الشخصية "ترويلوس" بالخطأ: "تروليوس" فى بحثها على مدار ثمانى صفحات.

وعلامة استفهام أخف. إلى جانب جملة "هنا يثبت شكسبير صحة نظرية فوكو عن تاريخية الأعراف الأخلاقية"، كتب شيب: "برجاء التوضيح، ربما تقصد: "هنا النص الشكسبيرى يبدو وكأنه يتوقع نظرية فوكو؟ (وربما نيتشه؟)..."

كان ما زال يصحح الأوراق بعد خمسة أسابيع، أو ربما بعد خمسين ألف خطأ للطلاب، عندما وفى ليلة باردة بعد عيد الهالوين بقليل، سمع خبطًا على باب مكتبه. فتح الباب، وجد حقيبة حلوى جاهزة معلقة من مقبض الباب. تاركة الهدية، ميليسا باكويت، كانت تسير للخلف بشكل استعراضى فى الردهة الخارجية.

قال: "ماذا تفعلين؟"

قالت: "أحاول اكتساب صداقتك".

قال: "شكرًا. لا أفهمك".

عادت ميليسا إليه واقتربت منه. كانت ترتدى "أوفرول" أبيض شتويًا، وقميصًا حراريًا بكم طويل، وجورب وردى ضيق. قالت: "أصل أنا خرجت لجمع الحلوى فى العيد. وهذا نحو خُمس حصيلتى".

اقتربت من شيب وتراجع عنها. تبعته إلى مكتبه ودارت فيه على أطراف أصابعها، وراحت تقرأ عناوين الكتب على الأرفف. مال شيب على مكتبه وعقد ذراعيه أمامه فى توتر.

قالت ميليسا: "بالمناسبة أنا أدرس نظرية النسوية مع فيندلا".

"هذه هى الخطوة المنطقية التالية بالنسبة لك. بعد أن رفضت النظرية النقدية الذكورية الراغبة فى الارتماء فى أحضان الماضى".

قالت ميليسا: "هذا ما فكرت فيه تمامًا. للأسف مادتها سيئة جدًا. من درسوا مادتك العام الماضى قالوا إن محاضراتك كانت عظيمة. لكن فكرة فيندلا عن مادتها أن علينا الجلوس والتحدث عن مشاعرنا. لأن النظرية القديمة مرتبطة بالعقل، إذن فمن منطقها، أن النظرية الجديدة يجب أن ترتبط بالقلب. أنا لست مقتنعة بأنها قرأت حتى كل القراءات التى تطالبنا بها".

من بابه المفتوح رأى شيب باب مكتب فيندلا أوفالون. كان على باب الحجرة صور ولوحات - بيتى فريدان فى عام ١٩٦٥ فلاحة جواتيمالية مبتسمة، لاعبة كرة قدم يرتسم على وجهها النصر. بوستر لفيرجينيا وولف، شعار "تسقط النظرية المهيمنة" - تذكره بشكل ما بصديقته القديمة تورى تيملمان. إحساسه بالباب كان: ما نحن؟ تلاميذ ثانوية؟ هل هذه هى حجرات نومنا؟

قال: "إذن المهم، رغم أنك قلت عن مادتى خراء، فالآن ترينها خراء من النوع الفاخر لأنك دخلت مادتها".

تدرج وجه ميليسا بالحمرة. "صحيح! باستثناء أنك مدرس أفضل بكثير. أعنى، تعلمت الكثير منك. هذا ما أردت إخبارك به".

"اعتبرى الكلام وصل".

قالت ميليسا وهى تجلس على كنبة شيب الجلدية فى وضع المريضة النفسية: "أصل أمى وأبى انفصلا فى أبريل. لفترة كنت سعيدة بفكرة أنك ضد الشركات الكبرى، ثم فجأة تضايقت جدًا من هذا الموضوع. أهلى عندهم نقود كثيرة، وليسا أشرارًا، رغم أن أبى بدأ ينام مع شخصية تُدعى فيكى، أكبر منّى أنا بأربع سنوات. لكنه ما زال يحب أمى. أعرف هذا. ما إن خرجت من البيت، حتى تدهور الوضع بينهما، لكن أعرف أنه ما زال يحبها".

قال شيب، معقود الذراعين: "الجامعة توفر خدمات كثيرة للطلاب الذين يمرون بمشاكل من هذا النوع".

"شكرًا. على العموم أنا فى أفضل حال، باستثناء كونى وقحة معك فى المحاضرة تلك المرة". رفعت ميليسا كعبيها على ذراع الكنبة، وخلعت حذاءها، وتركته يسقط على الأرض. منحنياتها الناعمة تظهر من تحت الأوفرول، كما لاحظ شيب.

قالت: "مررت بطفولة ممتازة. من زمان وأبوى أفضل صديقين لى. علمونى فى مرحلة المدرسة بالبيت، حتى بلغت الصف السابع. أمى كانت فى مدرسة طبية فى نيو هافن، وأبى مع فرقة لموسيقى البانك، اسمها "نومادیکس"، كانت تجول البلاد، وفى أول حفل تحضره أمى لفرقة "بانك"، خرجت مع أبى وانتهى بها المطاف فى حجرته فى الفندق. تركت تعليمها، وهو ترك فريق النومادیکس، ولم يفترقا بعدها أبدًا. شىء رومانسى فعلاً، وأبى كانت معه نقود من وديعة فى البنك، وما فعلاه وقتها كان عبقريًا. كانت هنا كل براءات الاختراع تلك، فى تلك الفترة، وراحت أمى تقرأ مجلات علمية،

وتوم - أبى - كان قادرًا على تخمين الاستثمارات الصحيحة. ربحا كثيرًا من هذا الموضوع. كلير - أمى - ظلت معى فى البيت وكنا نقضى كل وقتنا معًا، وتعلمت منها جداول الضرب، إلى آخره، وكنا معًا نحن الثلاثة دائماً. كانا مغرمين جدًا ببعضهما. يستضيفان الحفلات كل أسبوع. ثم فكرنا فى فكرة، إننا نعرف كل الناس ونحن مستثمرون ممتازون، لم لا نبدأ مشروع صندوق استثمار مشترك؟ وفعلنا هذا. وكان ممتازًا. ما زال صندوقًا رائعًا. اسمه "ويست بورتفوليو بيوفاند فورتى"؟(*) بدأنا فى إنشاء صناديق استثمار أخرى أيضًا، عندما أصبح الجو أكثر تنافسية. المهم أن تعرض باقة كبيرة من الخدمات، هذا هو السر. هذا ما يقوله المستثمرون فى الشركات لتوم على أية حال. إذن بدأ تلك الصناديق الجديدة، والتى تراجع أداؤها للأسف. أعتقد أن هذا هو أصل المشكلة بينه وبين كلير. لأن صندوقها "بيوفاند فورتى"، الذى تديره، ما زال يكسب. والآن ها هى كسيرة الفؤاد مكتئبة. متخندقة فى البيت ولا تخرج أبدًا. فى الوقت نفسه، توم يريدنى أن أقابل تلك الشخصية، فيكى، ويقول إنها "لذيذة جدًا". الفكرة أننا جميعًا نعرف أن أمى وأبى خُلقا لأحدهما الآخر. يكملان بعضهما تمامًا. أعتقد لو كنت تعرف كم هو مثير أن تفتح شركة، وكم هو رائع أن تبدأ النقود فى التدفق، وكم هو رومانسى، ما كنت لتتحلى بهذه القسوة كلها".

قال شيب: "جائز".

(*) فى الآونة الأخيرة، بدأ الشباب والمراهقون فى الولايات المتحدة فى هذه الطريقة فى الكلام. يلقون جملاً تقريرية وكأنها جمل استفهامية. هذا الأسلوب فى الأصل كان مفيدًا فى مواقف، كأن تقول «أنا قابلت فلانًا هلى تعرفه؟» وبدلاً منها تقول «أنا قابلت فلانًا» (المترجم).

"المهم. خطر لى أنى سأرتاح فى الكلام معك. عموماً أنا أتكيف مع الوضع بشكل ممتاز، لكن أعتبرك صديق".

قال شيب: "كيف حال تشاد؟"

"ولد لطيف. مفيد لمدة ثلاثة أسابيع لا أكثر". نهضت ميليسا عن الكنبة ووطأت ساق شيب بقدمها المغلفة بالجورب، على مقربة من فخذه. "من الصعب تصور شخصين أقل ملاءمة لأحدهما الآخر مثلى ومثله".

من تحت بنطلونه الجينز، أحس شيب بمداعبة أصابعها المتعمدة لساقه. كان محاصراً ومن خلفه مكتبه، بمعنى أنه إذا أراد الفكاك، فعليه أن يمسك بساقها ويبعد قدمها معيداً إياها إلى الكنبة. قدماها الورديتان أمسكا بمعصمه بقوة وجذباه إليها. الموقف كله متهور، والباب مفتوح، والنور مضاء، وستائره مرفوعة تكشف الحجرة، وهناك شخص ما فى الردهة. قال وهو يبتعد عنها: "قواعد السلوك. هناك قواعد".

نزلت ميليسا عن الكنبة، ووقفت، ثم اقتربت: "قواعد غبية لو كنت أهمّك".

تراجع شيب إلى مدخل الباب. رأى على مسافة فى الممر، إلى جوار قاعة اجتماعات القسم، امرأة ضئيلة فى زى رسمى أزرق، وجهها متجهم متخشب، تنظف الأرض بالمكنسة الكهربية. قال: "هناك أسباب جيدة لوجود القواعد".

"إذن لا يمكن أن أحضنك الآن حتى".

"هذا صحيح".

قالت ميليسا "هذا غباء".. ثم وبعد أن ارتدت حذاءها وانضمت إلى شيب عند مدخل الباب، قبّلته على خده، قريبًا من أذنه.. "تفضل".

راقبها وهى تسير بطريقتها الاستعراضية وخطواتها الراقصة فى الممر حتى غابت عن عينيه. سمع باب طوارئ الحريق يُوصد بقوة. راح يتفحص بحرص كل كلمة قالها، وقيّم أداءه بـ "عشرة على عشرة". ثم عندما عاد إلى تليتون ليدج، حيث راحت تنطفئ آخر أضواء النهار، غمرته الوحدة. ولكى يُبعد عن ذهنه ذكرى قبلة ميليسا الناعمة، وقدميها الدافئتين المتلئتين بالحياة، اتصل بزميل دراسة قديمة من نيويورك، وضرب معه موعدًا على الغداء ظهر الغد. أخرج "مائة عام من السينما الإيروتيكية" من الدولاب، والذى كان إثر توقعه لليلة كهذه، قد أخرجه من الحوض وجففه بعد غرقه. كان الشريط ما زال قادرًا على العمل. الصور غائمة، وأثناء أول مشهد ساخن، مشهد من حجرة فى فندق فيه خادمة شبقة؛ زاد غيم الصورة ثم توقف الفيلم. صدر عن جهاز الفيديو صوتًا جافًا مختنقًا. وكأنه يقول: أريد هواء، هواء. كان الشريط قد خرج من البكر والتف حول أجزاء الفيديو الداخلية. أخرج شيب الشريط، لكن شىء ما فى الداخل انكسر وخرجت شظايا بلاستيكية. ولا بأس، هذه الأشياء تحدث. لكن رحلته إلى إسكتلندا كانت كارثة مالية، ولا يمكنه تحمل تكلفة جهاز فيديو جديد.

ولم تكن مدينة نيويورك، فى يوم سبت مطير بارد، هى العزاء المنشود. كل رصيف فى جنوب منهاتن تغطيه حِراب معدنية مُشرعة، هى حواجز مقامة على الأرصفة لإبعاد المتسكعين. الحِراب ملتصقة بالرصيف المبتل وكأن ما يربطهما أقوى صمغ فى العالم،

وبعد أن اشترى شيب جُبن مستوردة (يفعل هذا كل مرة يزور فيها نيويورك، ليضمن إنجاز شيء واحد على الأقل قبل العودة إلى كونيتيكت، لكن أحس بشيء من الأسى فى شراء نفس الأنواع الفرنسية من نفس المتجر: تعيد إليه نفس الإحساس العام بفشل ثقافة الاستهلاك كمدخل للسعادة الإنسانية)، وبعد أن تغدّى مع زميله (الذى استقال مؤخرًا من تدريس الأنثروبولوجى وبدأ العمل فى "حارة السيليكون" بصفة "إخصائى نفسانى للتسويق" وراح ينصح شيب وهما جالسان بأن يفعل مثله)، عاد إلى سيارته واكتشف أن كل عبوات الجبن محمية بملصق مقاوم للسرقة، وأن شظية من أحد تلك الملصقات قد التصقت بكعب حذائه الأيسر.

كانت تيلتون ليدج مغمورة فى الثلج والظلام الدامس. فى البريد وجد شيب مظروفًا فيه رسالة قصيرة من إنيد توبخ فيها ألفريد على إخفاقاته الأخلاقية ("إنه يجلس فى مقعده طوال اليوم، كل يوم") وبروفايل جيد لدينيس، مقصوص من مجلة "فيلادلفيا"، مصحوباً بمقال رائع عن مطعمها، مارى سكورو، وصورة بمقاس صفحة كاملة للطاهية الشابة. دينيس فى الصورة ترتدى "بنطلونًا" جينز وتى شيرت بسيطًا بكمين مقطوعين تبرز منه كتفيها مفتولى العضلات ("شابة جدًا وشاطرة جدًا: لامبرت فى مطبخها"، حسب التعليق تحت الصورة الصحفية)، نموذج حى على أفكار "الفتاة الشىء" الحقيرة، حسب ما خطر لشيب.. هذا النموذج هو ما وزّع عدد المجلة. قبل سنوات كانت رسائل إنيد تضم فقرة عن قلقها على دينيس وزواجها الفاشل، وفيه جمل من نوع "إنه كبير جدًا عليها!" تحتها خطين، وفقرة من التباهى والفخر بعمل شيب فى جامعة "د"، رغم أنه يعرف أن إنيد ماهرة فى التلاعب بأطفالها وجعلهم يغارون من أحدهم الآخر وأن مديحها له سلاح ذو حدين

فى أغلب الحالات. يحزنه أن امرأة ذكية وصاحبة مبادئ مثل دينيس استخدمت جسدها لأغراض التسويق. ألقى بالقصاصة فى القمامة. فتح نصف جريدة "صنداى تايمز" عدد السبت و.. نعم، إنه يناقض نفسه، نعم، وهو يعرف.. راح يتصفح المجلة بحثًا عن إعلانات لقمصان النوم أو أثواب السباحة، ليريح عينيه عليها. وبعدما لم يجد شيئاً، بدأ يقرأ ملحق الكتب، حيث وجد عرضًا لكتاب "ابنة أبيها" بقلم فيندلا أوفالون، يعلن فيه الصحفى فيه عن أن الكتاب "مدهش" و"شجاع" و"مرضٍ للغاية"، فى صفحة ١١ من الملحق. اسم فيندلا أوفالون اسم غير مألوف، لكن شيب لم يكن على دراية مطلقًا بأن فيندلا نشرت كتابًا، لدرجة أنه رفض تصديق أنها كتبت "ابنة أبيها" حتى، قرب نهاية العرض، قابل جملة تبدأ بـ "أوفالون، تُدرسّ بجامعة د..."

أغلق ملحق الكتب وفتح زجاجة.

نظريًا هو وفيندلا يعملان بنفس التخصص فى تدريس منهج "الإبداعات النصية"، لكن عملاً، فالقسم فيه مدرسون أكثر من المطلوب. أن تأت فيندلا للعمل كل يوم من نيويورك (لتلتف حول مطلب الجامعة غير الرسمى بأن يعيش أعضاء هيئة التدريس فى البلدة)، وألا تحضر اجتماعات هامة وتعلّم بكامل طاقتها، من مصادر الراحة الدائمة لشيب. ما زال متفوقًا عليها فى مطبوعاته الأكاديمية، وفى تقييمات الطُلاب، والدعم الذى يلقاه من جيم ليفيتون، لكنه وجد أن لا تأثير لكأسىّ النبيذ عليه.

كان يصب لنفسه الكأس الرابعة عندما رن التليفون. كانت جاكى، زوجة جيم ليفيتون. قالت جاكى: "كنت أريدك أن تعرف أن جيم سيتعافى".

قال شيب: "ما المشكلة؟"

"إنه نائم يرتاح، نحن فى سان مارى".

"ماذا حدث؟"

"شيب، سألته إن كان يظن أنه قادر على لعب التنس، وهل تعرف ماذا حدث؟ أومأ برأسه! قلت إننى سأتصل بك، وأومأ برأسه أن نعم، إنه قادر على لعب التنس. يبدو أن مهاراته الخاصة بالاتزان العصبى الحركى طبيعية تمامًا. طبيعية... تمامًا. وهو رائق وبخير، هذا أهم شىء. هذا هو الخبر الجيد فى الموضوع يا شيب. عيناه تبرقان. جيم القديم الذى أعرفه".

"جاكى، هل أصيب بجلطة؟"

قالت جاكى: "طبعًا سيمر بفترة من النقاهة. اليوم مثلاً هو موعد تقاعده الفعلى، والذى يا شيب، على حد علمى، يعتبر شيئًا رائعًا. يمكننا إجراء بعض التغييرات الآن، وفى ظرف ثلاثة أعوام.. ربما يستغرق ثلاثة أعوام فى الاستشفاء. عندما ينتهى كل الكلام وتهدأ الأمور، سوف نصبح بأحسن حال. عيناه تبرقان للغاية يا شيب. إنه جيم القديم!"

أراح شيب جبينه على نافذة المطبخ وأدار رأسه كى يفتح عينًا يطل بها على الزجاج البارد الرطب. كان يعرف ماذا سيفعل.

قالت جاكى: "هو نفسه جيم القديم الحبيب!"

الخميس التالى، حضّر شيب العشاء لميليسا ثم نام معها على الشيزلونج الأحمر. تخيّل فائدة الشيزلونج بهذه الطريقة يوم أنفق ثمانمائة دولار فى متجر الأثاث القديم على قطعة الأثاث هذه،

ورأى بعد تخيلاته تلك أن هذه خطوة غير انتحارية من الناحية المالية. ظهر الشيزلونج منحنى بطريقة مغرية، وكتفاه المحشوان منثنيين إلى الخلف، ومقعدته الدائرية، حمرة صدره وبطنه وكأنه سينفجر مرسلاً بأزرار التنجيد هنا وهناك. بعد أن تراجع عن عناقه الأول مع ميليسا، اعتذر شيب وقال إنه يحتاج لثانية كى يُطفئ النور فى المطبخ ويتوقف عند الحمام. عندما عاد لحجرة المعيشة، وجدها ممددة على الشيزلونج لا ترتدى إلا البنطلون، وهو نصف بذلتها الأنيقة. فى الضوء الكابى ربما كانت صلعاء، أو رجل بصدرين ممتلئين. شيب، الذى كان يحب نظرية المثلية أكثر من ممارسة المثلية فى حد ذاتها، كره شكل البذلة وتمنى لو لم تكن قد ارتدتها. حتى بعد أن خلعت البنطلون أحس ببقايا من الارتباك على جسدها، دعك من رائحة الألياف الصناعية الثقيلة التى غمرت المكان. لكن بدءاً من الكلوت، الذى سرّ لمّا وجده رقيقًا وشفيفًا - يعبر عن المرأة بشكل سليم، لا شك فى ذلك - أحس بأرنب دافئ جميل يقترب منه رامحًا، حيوانات صغيرة جميلة لطيفة. وجد الموضوع أكثر مما يحتاج. لم ينم ساعتين على بعضهما منذ ليلتين، ورأسه ممتلئ بالنبيذ ومعدته مليئة بالغازات (لا يذكر لماذا طهى اليخنة على العشاء، ربما دون سبب مقنع واضح)، وكان قلقًا أنه ربما لم يوصد الباب الخارجى جيداً، إذ ربما هناك شق فى الباب يمكن لأحد الجيران أن يمر عليه ويحاول فتح الباب فيجده مفتوحًا ويختلس النظر للداخل، أو يطل من النافذة ويراه يخرق خرقًا بيّنًا المواد ١و٢و٤ من قواعد السلوك التى شارك فى صياغتها بنفسه. بشكل عام كانت ليلة من القلق والتركيز المشتت، تتخللها طعنات صغيرة من المتعة الخالصة، لكن يبدو أن ميليسا على الأقل وجدت

المسألة مثيرة ورومانسية. ساعة وراء ساعة تطل على وجهها ابتسامة عريضة من الخد للخد.

كان العرض عرض شيب، الذى وبعد لقاء مقلق ثانٍ فى تيلتون ليدج، اقترح على ميليسا أن يخرجا من منطقة الجامعة طوال عطلة عيد الشكر ويمكثان فى كوخ أو حجرة صغيرة فى كيب كود حيث لن يشعرا بأن هناك من يحكم على أخلاقهما أو ينظر إليهما نظرة أو أخرى، وكان عرض ميليسا، وهما يخرجان من بوابة جامعة "د" الشرقية الصغيرة غير المستخدمة بكثرة، تحت حجب الظلام، أن يتوقفا فى ميدل تاون لشراء مخدرات من صديقة من أيام المدرسة الثانوية. انتظر شيب أمام معمل علم البيئة الخاص بمدرسة ويسليان، وراح يطرق على عجلة قيادة سيارته النيسان، يطرق بقوة لدرجة أن أصابعه آلمته، لأنه من المهم ألا يفكر فيما يفعله. لقد ترك أكواماً من الأوراق البحثية التى لم يقيّمها والاختبارات، ولم يتمكن بعد من زيارة جيم ليفيتون فى وحدة الاستشفاء. أن جيم فقد قدرته على الكلام وأصيب فكه وشفتاه بنوع من الشلل بحيث لم يعد قادرًا على تشكيل الكلمات ـ وأنه أصبح رجلاً غاضبًا، على حد تعبير الزملاء الذين زاروه ـ جعل شيب مترددًا أكثر وأكثر فى زيارته. مزاجه الآن أقرب لتفادى أى شىء قد يثير فيه أية عاطفة. طرق على عجلة القيادة حتى نشفت أصابعه واحترقت، ثم خرجت ميليسا من معمل علم البيئة. جلبت إلى السيارة رائحة الدخان والتربة الطينية المستخدمة لزراعة الورد، ورائحة علاقة عابرة من الخريف الماضى. وضعت فى كف شيب قرصًا بدا أنه الشعار القديم لشركة سكك حديد "ميدلاند باسيفيك"، على شكل دائرة تخرج منها أشعة، لكن دون كلمات "سكك حديد ميدلاند باسيفيك" منقوشة على القرص. قالت له: "خذ هذه"، وأغلقت الباب.

"وما هذا؟ نوع من أقراص الهلوسة؟"

"لا. الواحد المكسيكى".

أحس شيب بقلق عابر للثقافات. قبل مدة قصيرة، لم يكن هناك أى صنف من المخدرات لم يسمع به. "ما تأثيره؟"

"لا شىء وكل شىء"، ثم ابتلعت قرصًا.. "سترى".

"بكم أدين لك؟"

"ولا يهمك".

لوهلة بدا أن المخدر، حسب الوعد، لم يفعل شيئًا. لكن على مشارف منطقة نورويك الصناعية، وهما ما زالا على مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات من كيب كود، خفض صوت الكاسيت الذى شغلته ميليسا وقال: "لابد نتوقف الآن فورًا ونعملها".

ضحكت.. "رأيى من رأيك".

قال: "دعينا نوقف السيارة على جانب الطريق".

ضحكت مرة أخرى. "لا، لنبحث عن حجرة".

توقفا عند "كومفورت إن" التى فقدت اسمها التجارى وأصبحت "كومفورت فالى لودج". موظفة الفترة الليلية بدينة، وحاسبها الآلى مطفأ. سجلت شيب يدويًا وهى تتنفس أنفاسًا ثقيلة، وكأنها مصابة بفشل فى أكثر من عضو فى الجسم. وضع شيب يده على بطن ميليسا وكان على وشك مد يده إلى داخل بنطلونها، عندما خطر له أن وضع الإصبع داخل فرج سيدة فى مكان عام أمر غير لائق وقد يسبب مشاكل. ولأسباب منطقية تمامًا من النوع نفسه، افترض أن

رغبته فى إخراج قضيبه من البنطلون وعرضه على الموظفة البدينة أمر غير لائق. لكن خطر له أن ربما كانت الموظفة مهتمة برؤيته.

طرح ميليسا أرضًا على أبسطة تنبعث منها رائحة السجائر النفاذة، فى حجرة ٣٢ دون أن يغلق الباب.

قالت ميليسا وهى تركل الباب بقدمها: "هكذا أفضل كثيرًا!" خرجت من بنطلونها ثم تأوهت من المتعة وهى تكرر: "هكذا أفضل كثيراً!"

ظل عاريًا طوال العطلة. المنشفة التى يرتديها عندما يستلم البيتزا من عامل التوصيل للمنازل تنفتح وتسقط من عليه قبل أن يبعد العامل عينيه. "كيف حالك يا حبيبتى، هذه أنا".. ميليسا تتحدث فى التليفون المحمول بينما شيب راقد فوقها. أبقت يدها التى تستخدمها فى الإمساك بالهاتف بعيدة عنه، وراحت تُطلق أصوات الابنة المطيعة: "آه، صحيح.. تمام.. طبعًا طبعًا .. لا، هذا صعب يا ماما.. لا، أنت محقة، موضوع صعب فعلاً"، اضطربت كلماتها الأخيرة فيما كان شيب يحاول أن يسند نفسه عليها لكسب أرضية نصف بوصة جديدة داخلها وهو يقذف. يوما الأثنين والثلاثاء، أملى عليها أجزاء كبيرة من ورقة بحثية عن كارول جيليجان، إذ كانت ميليسا منزعجة من فيندلا أوفالون فلم تقو على كتابتها بنفسها. تذكره عن ظهر قلب لحجج جيليجان، وتمكنه الشديد من نظريتها، أثاره لدرجة أنه بدأ يداعب شعر ميليسا بقضيبه المنتصب. راح يحرك طرفه على لوحة مفاتيح حاسبها الآلى، وبقّع شاشته الكريستالية ببقعة من السائل. قالت: "حبيبى، لا تقذف على الكمبيوتر". قرص خديها وأذنيها وداعب إبطها، ثم

أخيرًا ألصقها بباب الحمام بينما غمرته هى بابتسامتها الحمراء كالكريز.

كل ليلة ساعة العشاء تقريبًا، طوال أربع ليالٍ، تلجأ إلى حقائبها وتحضر قرصين جديدين له. ثم وفى يوم الأربعاء، أخذها شيب إلى السينما، حيث تسللا إلى فيلم إضافى، ثم شاهدا نصف فيلم آخر، بسعر تذكرة المساء الرخيصة. وعندما عادا إلى كومفورت فالى لودج، بعد عشاء متأخر، اتصلت ميليسا بأمها وتحدثت إليها طويلاً، حتى أن شيب نام وهو يبتلع أحد الأقراص.

أفاق من نومه يوم عيد الشكر على الضوء الرمادى لذاته المُجهدة. لوهلة، رقد يستمع إلى السيارات القليلة العابرة فى يوم العيد، على طريق رقم ٢ غير قادر على التوصل لوجه الاختلاف بين الآن وما قبل. شىء ما فى الجسد الراقد إلى جواره أقلقه، لكن بدا له أنها ولابد ملّت منه. لا يكاد يصدق أنها لم تمانع فى هجماته عليها، بكل حركاته العنيفة فى السرير، بأنها لا تشعر كقطعة من اللحم كان يستغلها.

فى ظرف ثوانٍ، كسوق بورصة مُصاب بموجة من البيع بدافع من الذعر، اعتراه الخزى والإحساس بالذنب. لم يعد قادرًا على البقاء فى السرير لثانية واحدة. ارتدى الشورت وانتزع أدوات تجميل ميليسا وحبس نفسه فى الحمام.

مشكلته أساسها رغبة حارقة فى عدم فعل كل ما فعله من الأساس. وجسده، كيميائى، عنده فهم غريزى واضح لما عليه أن يفعله كى يُبعد عنه هذه الرغبة الحارقة. عليه ابتلاع قرص آخر من "الواحد المكسيكى".

راح يعبث فى علبة المكياج حتى أعياها بحثًا. لم يخطر له أنه سيشعر بكل هذا الاعتماد على عقار بلا آثار هلوسية، عقار بعد أن تناول منه جرعته الخامسة لم يكن يرغب فيه حتى. انتزع أحمر شفاه ميليسا وأبعد سدادات الأذن، وراح يعبث بإبرة صغيرة فى قلب الحقيبة. لا شىء.

أعاد الحقيبة إلى الحجرة، التى أصبحت مغسولة بالضوء، وهمس اسم ميليسا. عندما لم يجد إجابة، نزل على ركبتيه وراح يعبث فى حقيبتها، حقيبة السفر. عبث بأصابعه فى تجاويف الـ برا الفارغة، يكبس بأصابعه جواربها المكورة، يلامس مختلف الجيوب الصغيرة فى الحقيبة. هذا الانتهاك الجديد والمختلف لميليسا مؤلم له حسيًا. على الضوء البرتقالى لخزيه أحس كأنه يتلاعب بأعضائها الداخلية. كأنه جراح يلاعب رئتيها الشابتين فى قسوة، يقلّب كليتيها، يغرس إصبعه فى بنكرياسها السليم العفى الناعم. عذوبة جواربها الصغيرة، فكرة أن هذه جوارب لفتاة فارقت سن الطفولة منذ قليل، صورة فتاة رومانسية فى السنة قبل الأخيرة بالجامعة تحزم ملابسها فى حقيبة فى رحلة مع أستاذها الموقر.. كل تشبيه يتصوره يضيف إلى نيران خزيه، كل صورة تتداعى له تعيده إلى الملهاة المؤلمة التى فعلها بها. كل تلك الأفاعيل العجيبة على مدار تلك الأيام.

راح خزيه يغلى بلا هوادة وكأنه سيُفجر أشياء فى مخه. لكن فيما كانت إحدى عينيه، مغمضة، على ميليسا النائمة، تمكّن من تفتيش ملابسها للمرة الثانية. بعد أن انتهى من تقليب كل شىء فيها استنتج أن "الواحد المكسيكى" فى الجيب الخارجى لحقيبتها، الذى يُفتح بسوستة كبيرة. بدأ يفتح السوستة ببطء شديد، وهو

يصر على أسنانه خوفاً من الصوت الذى تُصدره السوستة. فتح الجيب بالقدر الكافى ليدفع بيده إلى داخله (ذكرى أخر اختراقاته لها أطلقت هبّات جديدة من الذكريات المشتعلة، أحس بالألم من كل حركة عربدة سمح لنفسه بها مع ميليسا، هنا فى حجرة رقم ٢٣ الخزى من أصابعه المجنونة التى تحركت على حريتها، تمنى لو كان قادرًا على تركها لحالها)، وهنا رن هاتفها المحمول من على المائدة المجاورة للسرير فأفاقت من نومها.

أبعد يده عن ذلك المكان المُحرّم، هرع إلى الحمام، وأخذ حمامًا طويلاً. عندما خرج، كانت ميليسا قد ارتدت ثيابها وحزمت حقيبتها. بدت غير مثيرة للشهوة على الإطلاق فى ضوء الصباح. كانت تُصفر لحنًا مبهجًا.

قالت: "حبيبى، تغيرت خططى. بابا، وهو رجل جميل فعلاً، ذهب إلى ويستبورت اليوم. أريد الذهاب إليهم".

تمنى شيب لو كان قادرًا على تجاهل إحساس الذنب الذى لا تشعر هى به، لكن أن يستجديها طلبًا لقرص آخر أمر محرج للغاية. قال: "طيب والعشاء؟"

"آسفة. مهم جدًا أن أذهب إليهم".

"إذن لا يكفى أن تكلميهم على التليفون ساعتين كل يوم".

"شيب، أنا آسفة. لكنك تتحدث عن أصدقائى المقرّبين".

لم يحب شيب يومًا صوت توم باكيت: مغنى روك هاو وطفل رأسمالى تخلى عن أسرته من أجل أوهام. وفى الأيام الأخيرة، كانت قدرة كلير على الثرثرة عن نفسها لمدة طويلة بينما ميليسا تنصت إليها، قد قلبت شيب ضدها هى الأخرى.

قال: "عظيم. سأقلك إلى ويستبورت".

داعبت ميليسا شعرها فتبعثر على ظهرها وقالت: "حبيبى؟ لا تغضب".

"لو كنت غير راغبة فى الذهاب إلى كيب، فلا بأس، سأقلك إلى ويستبورت".

"حلو. هل سترتدى ملابسك؟"

"المسألة يا ميليسا أن هناك شيئًا مقززًا فى تقرّبك لهذا الحد من أبويك".

بدا أنها لم تسمعه. ذهبت إلى المرآة ووضعت على عينيها المسكارا. أحمر الشفاه. وقف شيب فى وسط الحجرة والمنشفة ملفوفة على خصره. أحس كأنه دمّل، شىء غير مرغوب فيه. أحس أن ميليسا محقة فى قرفها منه. لكنه أراد أن يكون واضحًا.

"أتفهمين ما أقوله؟"

"شيب حبيبى".. وهى تضغط شفتيها بعد أن وضعت أحمر الشفاه.. "ارتد ملابسك".

"أقول يا ميليسا إن الأطفال لا يفترض فيهم التوافق مع الآباء. أبواك لا يفترض أن يكونا أقرب أصدقائك إليك. يُفترض أن يكون لديك بذرة للثورة. هكذا أعرّف نفسى كإنسان".

قالت: "ربما هكذا ترى نفسك. لكنك بصراحة لست النموذج المثالى للإنسان البالغ السعيد".

ابتسم وتحمل ما قالته.

قالت: "أحب نفسى. لكن يبدو أنك لا تحب نفسك كثيرًا".

قال: "يبدو أن أبويك يحبان نفسيهما كثيرًا، ويبدو أنكم تحبون أنفسكم كأسرة".

لم ير ميليسا بهذا الغضب من قبل.. "أنا أحب نفسى. ما العيب فى هذا؟"

لم يقدر على تحديد العيب فى هذا. لم يتمكن من قول العيب فى أى شىء يخص ميليسا.. أبواها المحبان لنفسيهما، مسرحية أدائها وثقتها بنفسها، افتتانها بالرأسمالية، عدم وجود أصدقاء مقربين لها من سنها. الإحساس الذى أحسه فى آخر أيام فصله الدراسى معها، الإحساس بأنه مخطئ فى تقدير كل شىء، أن لا شىء يعيب العالم ولا شىء يعيب الإحساس بالسعادة فيه، أن المشكلة فيه وتخصه وحده، عاوده ذلك الإحساس قويًا لدرجة أنه اضطر للجلوس على السرير.

"ما أخبار المخدر؟"

قالت ميليسا: "نفد".

"طيب".

"اشتريت ستة وأنت تعاطيت خمسة".

"ماذا؟"

"وكانت غلطة كبيرة، على ما يبدو، أننى لم أعطك الستة".

"ماذا كنت تتعاطين؟"

"أدفيل يا حبيبى"، تجاوزت نغمة الإعزاز فى كلامها عتبات السخرية.. "مسكن الألم لأوجاع ركوب الخيل، تعرفه؟"

قال: "لم أطلب منك مطلقًا شراء ذلك المخدر".

قالت: "ليس بشكل مباشر".

"ما قصدك؟"

"تخيل كل المتعة التى كانت ستصبح من نصيبنا بدون المخدر".

لم يطلب شيب منها التفسير. كان يخشى أنها تقصد أنه خائب فى السرير بدون "الواحد المكسيكى". كان بالطبع خائبًا وقلقًا فى السرير، لكنه كان يعول على أنها لن تلاحظ. تحت وطأة إحساس الذنب الجديد، ودون مخدر فى الحجرة لتخفيف الإحساس عنه، أحنى رأسه وأخفى وجهه بين يديه. الخزى يحط ثقيلاً عليه والغضب يغلى داخله.

قالت ميليسا: "هل ستقلنى إلى ويستبورت؟"

أومأ برأسه، لكن لابد أنها لم تكن تنظر إليه، لأنه سمعها تقلّب فى دليل التليفون. سمعها تقول لموظف شركة التاكسى أنها تريد سيارة إلى نيو لندن. سمعها تقول: "كومفورت فالى لودج، حجرة 23".

قال: "سأقلك إلى ويستبورت".

وضعت سماعة الهاتف: "لا، لا عليك".

"ميليسا، الغى طلب التاكسى، سآخذك أنا إلى هناك".

فتحت ستائر الحجرة الخلفية، لتكشف عن أكوام من الأشجار، والجانب الخلفى لمصنع إعادة تصنيع. ثمانى أو عشر نتف ثلج نزلت من السماء فى وحدة. فى السماء، نحو الشرق، دُفعة وحيدة من السحب تتفسخ، الشمس البيضاء تطل من ورائها. ارتدى شيب ثيابه

سريعًا فيما كانت ميليسا توليه ظهرها. إذا لم يكن مغموراً بالخزى هكذا، ربما كان ذهب إلى النافذة ووضع يديه عليها، وربما كانت لتلتفت إليه وتغفر له. لكن يداه كانتا متوترتين نهمتين. تخيلها تتراجع خائفة، ولم يكن واثقًا تمام الثقة خلو جزء منه من الرغبة فى اغتصابها، أن يجعلها تدفع ثمن حبها لنفسها بطريقة لا يحب بها نفسه. كم يكره وكم يحب نبرة صوتها، قفزاتها الرشيقة أثناء الخطو. وكان قادراً على رؤية نفسه المحطمة.. يشعر أنه لا يحبها لكنه سيفتقدها كثيرًا.

اتصلت برقم آخر: "أهلا يا حبيبتى. أنا فى طريقى إلى نيو لندن. سأستقل أول قطار.. لا، أريد أن أكون معكم يا جماعة لا أكثر.. طبعًا.. نعم، طبعًا.. طيب، قبلاتى قبلاتى، أراك قريبًا. نعم".

نفير سيارة فى الخارج.

قالت لأمها على التليفون: "ها هو التاكسى حضر. طيب، حبيبتى يا ماما، سلام".

ارتدت معطفها سريعًا، ورفعت حقيبتها وخرجت من الحجرة فى رشاقة. عند الباب أعلنت بشكل عام إنها ستغادر. قالت وهى تكاد تنظر إلى شيب: "مع السلامة".

لا يمكنه التحديد، إن كانت متكيفة مع الوضع أم مضطربة الأحاسيس حائرة لأقصى حد. سمع باب التاكسى يُغلق، والمحرّك يدور. مضى إلى النافذة الأمامية وألقى نظرة على شعرها الأحمر من النافذة الخلفية للتاكسى الأحمر والأبيض. قرر بعد خمس سنوات انقطع خلالها عن التدخين، أن وقت شراء السجائر قد حان.

ارتدى المعطف وعبر الأسفلت البارد لا يبالى بالمارة. دفع النقود فى فتحة فى الزجاج المضاد للرصاص فى المينى ماركت.

هذا هو صباح عيد الشكر. كفت السحب وطلعت الشمس على استحياء. أجنحة النوارس تخفق وتحلق. النسيم يهب فى هدوء ونعومة، وكأنه لا يلامس الأرض ويحرك التراب. جلس شيب على مقعد بارد ودخن ووجد راحته فى التفكير فى وضع الحالة التجارية الأمريكية المؤسفة، التفكير فى المعدات البلاستيكية والمعدنية المتناثرة على الأرصفة. صوت خرطوم ضخ البنزين فى البنزينة لحظة امتلاء خزان السيارة، تواضع وفورية الخدمة. إعلان "مشروبك الكبير بـ ٩٩ سنتًا" يخفق مع الرياح يُبحر إلى اللامكان. الأرقام السوداء المكتوبة بها أسعار الوقود، رقم ٩ المتكرر كثيرًا فى صفوف. سيارات أمريكية كبيرة تتحرك على الطرقات ببطء، لا تتجاوز الثلاثين ميلاً. رايات برتقالية وصفراء، بلاستيكية، تخفق فوق رؤوس الرجال.

* * *

قالت إنيد: "بابا سقط من على سلّم البدروم مرة أخرى"، كانت الأمطار تهطل غزيرة فى مدينة نيويورك.. "كان يحمل صندوقًا كبيرًا من الجوز، ولم يمسك بالدرابزين فسقط. سهل تتخيلين طبعًا كم حبّة جوز يسعها صندوق كبير سعة ١٢ رطلاً. تناثر الجوز فى أرجاء البدروم. دينيس، أنا قضيت نصف يوم على يدى وركبتىّ. وما زلت أتعثر فى الجوز من الحين للآخر. نفس لون تلك الصراصير التى لا أقدر على التخلص منها. أنزل لألتقط حبة جوز، فتقفز فى وجهى!"

راحت دينيس تشذب أوراق زهرات عباد الشمس التى أحضرتها: "ولماذا كان بابا يحمل اثنى عشر رطلاً من الجوز على درجات السلم؟"

قالت إنيد وهى تتحرك على مقربة من كتفى دينيس: "كان يريدها لإجراء مشروع يقدر على العمل عليه وهو جالس على كرسيه. كان سيقشرها. أهناك شىء أقدر أساعد فيه معك؟"

"أبحثى لى عن زهرية".

أول خزانة فتحتها إنيد كان فيها علبة كبيرة من سدادات زجاجات النبيذ، ولا شىء آخر. "لا أفهم لماذا دعانا شيب إلى هنا إذا لم يكن سيتناول الغداء معنا".

قالت دينيس: "الواضح أنه لم يكن يعرف أن صاحبته ستتركه هذا الصباح".

نبرة صوت دينيس تخبر إنيد طوال الوقت وبلا هوادة أنها غبية. لم تكن دينيس معطاءة أو دافئة الإحساس، على حد شعور إنيد. لكن دينيس ابنة، وقبل أسابيع فعلت إنيد شيئًا مخزيًا تحتاج حاليًا لمن تعترف لها به، وتمنت لو كانت دينيس تلك الإنسانة.

قالت: "يريد جارى أن نبيع البيت وننتقل إلى فيلادلفيا. جارى يعتقد أن فيلادلفيا مناسبة بما أنه هناك وأنت هناك وشيب فى نيويورك. قلت لجارى، أنا أحب أبنائى، لكن سان جود هو المكان الذى يريحنى. دينيس، أنا ابنة مخلصة لمنطقة الغرب الأوسط. من هى مثلى تتوه فى فيلادلفيا. جارى يريد أن نشترك فى مؤسسة لمساعدة المسنين. لا يفهم أن الوقت تأخر. هذه الأماكن لا تسمح بدخولك إذا تبينت أن لديك حالة كحالة أبيك".

"لكن إذا كان بابا يسقط على السلم".

"دينيس، إنه لم يمسك بالدرابزين! رفض قبول الامتناع عن النزول بالأغراض على السلم".

تحت الحوض وجدت إنيد زهرية وراء مجموعة من الصور الفوتوغرافية فى أطر، أربع صور لأشياء وردية مغطاة بالزغب، أعمال فنية عجيبة ربما أو صور طبية. حاولت تجاوزها سريعًا، لكنها أسقطت بيدها جهاز لغلى الأسبرجس كانت قد أهدته لشيب فى الكريسماس ذات مرة. ما إن نظرت دينيس إليها، لم يعد بإمكان إنيد التظاهر بأنها لم تر الصور. قالت: "ما هذا القرف؟ دينيس، ما هذه الأشياء؟"

"ماذا تقصدين بسؤالك؟"

"شكلها من أغراض شيب العجيبة".

أعربت دينيس عن دهشتها بكلمة أغضبت إنيد كثيرًا فقالت: "واضح أنك تعرفين ما هذه الأشياء".

"لا أعرف".

"لا تعرفين ما هذه؟"

أخرجت إنيد الزهرية وأغلقت الخزانة، وقالت: "لا أريد أن أعرف".

"هذا موضوع آخر إذن".

فى حجرة المعيشة، كان ألفريد يستجمع شجاعته كى يجلس على مقعد شيب الكبير. قبل عشر دقائق جلس عليه دون وقوع حوادث، لكن الآن، بدلاً من تكرار التجربة الناجحة ببساطة، توقف لحظة

ليفكر. أدرك أنه مؤخرًا، وفى وسط فعل الجلوس، تعرض لفقدان القدرة على السيطرة على نفسه، وأنه سقط سقطة حرة لا حُكم له عليها. كرسيه الأزرق الممتاز فى سان جود وكأنه قفّاز لاعب بيسبول محترف يستجمع فى راحته دائمًا أى شىء يتصادف أن يسقط فى محيطه، من أية زاوية، وبأى مقدار من العنف، له ذراعان عريضان يدعمانه أثناء إقدامه على عملية السقوط الحر العمياء. لكن مقعد شيب منخفض، قطعة أثرية غير عملية. وقف ألفريد وظهره للمقعد، ثم تردد، أحنى ركبتيه لأقصى درجة تسمح بها مفاصل ساقيه، وأمسك بيديه الهواء من خلفه. كان يخشى السقطة. لكن ثمة شىء مخجل فى الوقوف فى وضع نصف مقرفص، شىء يذكره بالحمام، شىء من الإحساس بالعرضة للمخاطر، أحس معه بالتوتر والمهانة، لدرجة أنه ولكى يتخلص من الإحساس، أغمض عينيه وترك نفسه يسقط. نزل بقوة على مؤخرته ثم لامس ظهره المقعد، واستقر وضعه بعد أن رأى ركبتيه فى الهواء.

نادت عليه إنيد: "آل، هل أنت بخير؟"

قال وهو يناضل من أجل النهوض ولكى يبدو صوته قويًا: "أنا لا أفهم هذا الأثاث. هل المقصود بهذا المقعد أن يكون كنبة؟"

خرجت دينيس ووضعت فى الزهرية ثلاث زهرات عباد شمس، ثم وضعتها على مائدة صغيرة مجاورة للمقعد. قالت: "هذه مثل الكنبة. يمكنك رفع قدميك والتظاهر بأنك فيلسوف فرنسى. يمكنك الحديث عن شوبنهاور".

هز ألفريد رأسه.

قالت إنيد من عند مدخل المطبخ: "دكتور هيدجبث يقول إن عليك الجلوس فى مقاعد عالية بظهر مستقيم".

بما أن ألفريد لم يُظهر أدنى اهتمام بهذه التوجيهات، كررتها إنيد على دينيس عندما عادت إلى المطبخ: "مقاعد عالية بظهر مستقيم فقط، لكن بابا لا يسمع الكلام. يصر على الجلوس على مقعده الجلدى. ثم ينادى علىّ كى آتى أساعده على النهوض. لكن إذا تأذى ظهرى، ماذا نفعل وقتها؟ وضعت أحد تلك الكراسى عالية الظهر الظريفة إلى جوار التليفزيون فى الدور الأرضى وقلت له أجلس هنا. لكنه يفضل الجلوس فى مقعده الجلد، ثم لكى يخرج منه، ينزلق على الكرسى حتى يجد نفسه على الأرض. ثم يزحف على الأرض إلى مائدة تنس الطاولة ويستخدم المائدة فى رفع نفسه والنهوض".

قالت دينيس وهى تُخرج كومة طعام من الثلاجة: "هذه سعة حيلة فى الحقيقة".

"دينيس، أقول لك إنه يزحف على الأرض. بدلاً من الجلوس فى مقعد عال مريح بظهر مستقيم، الذى قال الطبيب إنه مهم له أن يجلس فيه، بدلاً منه يزحف على الأرض. يجب ألا يجلس كثيرًا من الأساس. دكتور هيدجبث يقول إن حالته لن تتدهور إذا خرج من الحين للآخر وفعل شيئًا. استخدم أطرافك أو أخسرها، هذا هو ما يقوله الأطباء. ديف شومبرت عنده مشاكل عشر أضعاف مشاكل بابا، مصاب بالقولون منذ خمسين عامًا، يعيش برئة واحدة ومنظم لضربات القلب، ثم انظرى لكل ما يفعله هو ومارى بيث. عادا منذ أيام من رحلة غطس فى جزيرة فيجى! وديف لا يشتكى أبدًا، لا يشتكى. لابد أنك نسيت جين جريلو، صديق بابا القديم من هيفايستوس، كان مصابًا بداء باركنسن، وكانت حالته أسوأ من بابا بكثير. ما زال فى بيته فى فورت وين، لكنه على كرسى بعجل. حالته

صعبة جداً، لكنه يا دينيس، عنده اهتمامات. لم يعد قادراً على الكتابة، لكنه أرسل لنا "رسالة سمعية" على شريط كاسيت، شيء لطيف جداً منه، يتحدث فيه عن أحفاده بالتفصيل، وعن كيف بدأ يعلم نفسه اللغة الكمبودية، ويقول عنها لغة الخمير، بالاستماع إلى شرائط ومشاهدة القناة الكمبودية (أو الخميرية على ما أعتقد) فى فورت وين، لأن أصغر أبنائه تزوج من امرأة كمبودية (أو خميرية لا أعرف)، وأبويها لا يتكلمان الإنجليزية، وجين يريد أن يتكلم معهما قليلاً. هل تصدقين هذا؟ ها هو جين مشلول فى كرسى بعجل، وما زال يفكر فيما يمكنه أن يفعله من أجل الآخرين! بابا، القادر على المشى والكتابة وارتداء ثيابه بنفسه لا يفعل شيئًا طوال النهار، غير الجلوس فى كرسيه".

قالت دينيس فى صوت منخفض وهى تقطع الخبز: "أمى، إنه مريض بالاكتئاب".

"هذا ما يقوله جارى وكارولين بدورهما. يقولان إنه مكتئب وأنه يجب أن يُعالج. يقولان إنه مدمن عمل وأن العمل كان الدواء الذى لم يعد مُتاحًا له، فأصابه الاكتئاب".

"إذن أعطيه دواءً وأنسيه. نظرية مريحة".

"هذا ليس عدلاً لجارى".

"لا تسخنينى على جارى وكارولين".

"يا ربى يا دينيس، طريقة تعاملك مع تلك السكين أتعجب معها كيف لم تقطعين أصابعك".

من طرف رغيف الخبز الفرنسى الكبير صنعت دينيس ثلاث عربيات صغيرة. على واحدة منها وضعت الزبد على هيئة مثلث كأنه

شراع ممتلئ بالرياح، وفى أخرى حملت شرائح الجبن البارميزان الرفيعة، وفى الثالثة وضعت زيتونًا مفرومًا وزيت زيتون، مغطى بطبقة ثقيلة من الفلفل الأحمر.

قالت إنيد: "يا سلام على جمال هذا الطبق"، وهى تمد يدها بسرعة القطط إلى الطبق الذى وضعت عليه دينيس الأكوام الثلاثة. لكن الطبق كان بعيدًا عن إنيد.

"هذه لبابا".

"قطعة من أحدها".

"سأحضّر لك غيرها".

"لا، أريد قطعة من هذه فقط".

لكن دينيس غادرت المطبخ وأعطت الطبق لألفريد، الذى تلخصت مشكلة الوجود بالنسبة إليه فيما يلى: العالم يتحرك فى حيز الزمان وكأنه بذور القمح تخرج من الأرض، تتكوم لحظاته واحدة وراء الأخرى، وإدراك العالم حتى فى أكثر لحظاته طزاجة وشبابًا لا يستتبعه بالضرورة ضمان أنك قادر على إدراك العالم بنفس الطريقة مرة أخرى، بعد لحظة. بعد أن أدرك أن ابنته دينيس واقفة ممسكة بطبق من فواتح الشهية فى حجرة معيشة ابنه شيب، كانت اللحظة التالية فى نهر الزمن ترمى بنفسها إلى هوة وجود غير معروف لا يمكنه أن يؤكد لنفسه فيه بشكل نهائى أن زوجته إنيد على سبيل المثال، لن تناوله طبقًا من الفضلات البشرية داخل حانة. ثم وما إن تأكد له بالدليل القاطع لحظة حجرة معيشة شيب وفواتح الشهية فى يد ابنته دينيس، بدأت لحظة الزمن الجديدة تضيف طبقات من الخلايا الجديدة، فأصبح من جديد بصدد عالم

جديد لا يمكنه تحديد موجوداته، ولهذا، وبدلاً من إرهاق نفسه فى التفكير، كان يفضل أكثر وأكثر قضاء أيامه مع الجذور التاريخية غير المتغيرة للأشياء.

قالت دينيس: "اسند جوعك لغاية ما أنتهى من الغداء".

نظر ألفريد فى امتنان إلى فواتح الشهية، ورأى أنها بنسبة تسعين فى المائة طعام، وتتحول للحظات كل فترة إلى أشياء أخرى ذات نفس الشكل والحجم.

"ربما آتيك بكأس نبيذ؟"

قال: "ليس ضرورى". ومع انتشار الامتنان من قلبه، وهو يتحرك، بدأ ساعداه فى القفز بقدر أكبر من الحرية على حجره. حاول العثور على شىء فى الحجرة لا يحرك مشاعره، شىء يريح عليه عينيه فى أمان، لكن لأن الحجرة حجرة شيب، ولأن دينيس واقفة فيها، فإن كل ملمح وكل سطح، حتى زر المدفأة وحتى الجدار العريض، يذكره بعوالم الساحل الشرقى البعيدة، التى يعيش فيها أطفاله حياتهم، ومن ثم المسافات الواسعة التى تفصله عنهم، مما جعل يداه ترتجفان أكثر.

أن الابنة التى فاقم اهتمامها به من اضطرابه هى آخر شخص فى الدنيا يسعده أن تراه فى اضطرابه هذا، رأى فيه منطق شيطانى أكد له ضرورة تشاؤم الإنسان.

قالت دينيس: "سأتركك وحدك دقيقة، لأحضّر الغداء".

أغمض عينيه وشكرها. وكأنه ينتظر انقطاع المطر حتى يتمكن من الجرى من سيارته إلى دكان البقال، انتظر انحسار الاضطراب والارتعاش حتى يمد يده ويأكل فى أمان ما أحضرته له.

اضطرابه يهين إحساسه بالملكية. هذه الأيدى المرتعشة لا تخص غيره، لكنها تعصاه وترفض طاعته. كأنها أبناء عاقة. كطفلين يبلغان من العمر عامين، فى ثورة من الغضب الأنانى. كلما زادت صرامة أوامره التى يعطيها للأيدى، زاد عنادها وقل سماعها لكلامه وزادت تعاستها وخروجها عن السيطرة. لطالما كان ضعيفًا أمام شقاوة الأطفال ورفض التصرف كالكبار. انعدام الإحساس بالمسئولية وعدم الانضباط مشكلته فى الحياة، وها هى لحظة أخرى من هذا المنطق الشيطانى.. أن مشكلته الجوهرية تتلخص فى رفض جسده أن يطيعه.

إِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، هكذا قال يسوع.

وهو ينتظر مرور نوبة الارتجاف، وهو يراقب يديه تتحركان فى عصيان، وكأنه فى حضانة مع أطفال رُضع سيئى التربية وكأن صوته ذهب عنه فلم يعد قادرًا على تهدئتهم، كان ألفريد يستمتع بصورة تترأئى له، وهو يقطع يده بخنجر: أن يُعرّف ذلك الطرف العاصى كم هو غاضب منه، كم يكرهه إذا أصر على عدم طاعته. يشعر بشىء من النشوة عندما يتخيل أول قطع يُحدثه الخنجر فى منبت اليد، فى العظام والعضلات فى معصمه المجرم، لكن مع النشوة، إلى جانبها مباشرة، رغبة عارمة فى البكاء على هذه اليد التى هى يده، التى يحبها ويتمنى لها أفضل ما فى الوجود، التى يعرفها منذ مولده.

راح يفكر فى شيب من جديد، دون أن يلاحظ.

تساءل أين ذهب شيب. كيف أبعد شيب عنه مرة أخرى.

صوت دينيس وصوت إنيد فى المطبخ مثل طنين نحلة كبيرة ونحلة صغيرة محبوستان وراء النافذة، بين الزجاج والسلك. وجاءت لحظته المنتظرة، لحظة الهدنة التى كان ينتظرها. مال إلى الأمام وأمسكت يده بيده الأخرى، وقبض على مركب الزبد ورفعه عن الطبق، ورفعه لفوق دون أن يقلبه أو يغرق، ثم وهو يتهادى مقتربًا منه، فتح فمه وطارد المركب بفمه فقبض عليه. قبض عليه، قبض عليه. أصابته شريحة الخبز بجرح فى لثته، لكنه أبقى كل المركب بما يحمل فى فمه وراح يمضغ فى حرص، محركًا لسانه الكسول فى زوايا عريضة. الزبد العذب يسيل، نعومة القمح المخبوز الأنثوية. هناك فصول فى كتيبات هيدجبث، لا يمكن لألفريد ـ الرجل المصيرى المنضبط ـ أن يقرأها. فصول مكرسة لمشاكل الابتلاع، تخص عذابات اللسان، الانهيار الأخير لنظام الإشارات..

بدأت الخيانة من الإشارات.

سكة حديد ميدلاند باسيفيك، حيث كان طوال آخر عشر سنوات من حياته الوظيفية، مسئولاً عن القسم الهندسة (وحيث ولدى إعطائه الأمر كان يُنفذ. حاضر يا أستاذ لامبرت، أمرك يا سيدى)، خدم مئات البلدات الصغيرة فى غرب كنساس وغرب ووسط نبراسكا، بلدات من نوع البلدة التى نشأ فيها ألفريد هو ومن على شاكلته من المديرين، بلدات بدت على قدمها أشياء مريضة مقارنة بالصحة الممتازة لخطوط السكة الحديد التى تمر بها. رغم أن مسئولية شركة السكة الحديد الأولى كانت مصلحة حاملى أسهمها، فإن مكاتب الشركة فى كنساس وميسورى (ومنهم مارك جامبوريتس، مستشار الشركة) أقنعت مجلس الإدارة بأنه بما أن شركة السكة الحديد تحتكر احتكارًا تامًا خطوط النقل فى

العديد من البلدات الصغيرة، فعلى الشركة واجب مدنى يتمثل فى الحفاظ على مستوى الخدمة فى فروعها حتى الصغير منها. لم يكن ألفريد نفسه واهمًا بشأن المستقبل الاقتصادى لبلدات البرارى البعيدة، حيث كان متوسط سن السكان يتراوح حول الخمسين من العمر وما فوقه، لكنه كان يؤمن بالسكة الحديد ويكره الشاحنات، ويعرف عن يقين ما تعنيه الخدمة منضبطة المواعيد للقطارات، وكيف تُعلى من إحساس البلدة بالفخر، وكيف تقدر صافرة القطار المغادر على رفع الروح المعنوية أحد صباحات فبراير فى نقطة نائية ذات إحداثيات جغرافية معينة. ثم معاركه مع الإدارة ومختلف المشرّعين المحليين ونواب البرلمانات المحلية الذين تعلم احترامهم، هؤلاء المقدمون على الدفاع عنك عندما تحتاج للوقت لتنظيف خزانات الزيت فى ورش قطارات مدينة كنساس، أو عندما يصرّ موظف بيروقراطى ملعون على أن عليك دفع مقابل أربعين فى المائة من مشروع لا ضرورة له منفصل على طريق المقاطعة نمرة "إتش". بعد سنوات من تسبب مختلف خطوط السكة الحديد فى خنق بلدات تحتضر فى السهول الشمالية، استمرت شركة ميدلاند باسيفيك فى تسيير القطارات، مرتين أسبوعيًا، أو حتى مرة كل أسبوع، فى أماكن مثل قرى "ألفين" و"بيسجاه كريك" و"نيو شارتريس" و"ويست سنترفيل".

لكن للأسف، جذب هذا البرنامج المفترسين. فى مطلع الثمانينيات، مع اقتراب ألفريد من سن التقاعد، أصبحت ميدلاسيفيك معروفة بأنها شركة نقل إقليمية، رغم إدارتها الممتازة ومكاسبها الكبيرة المحصلة من خطوطها الطويلة، فإن أرباحها عادية جدًا. رفضت ميد باسيفيك عريسها، عندما فكرت شركة

الأخوان هيلارد آند شانسى روث فى شراء ميد باسيفيك، توأمان من أوك ريدج، تينيسى، حوّلا شركة تعبئة لحوم إلى إمبراطورية من الدولارات. شركتهم، أورفيك جروب، تضم سلسلة فنادق وبنكًا فى أطلانطا وشركة بترول وخطوط سكة حديد جنوب أركنساس. وجوههم مقلوبة وشعرهم داكن وليس لديهما أى رغبة واضحة أو مصلحة فى أى شىء بخلاف النقود: أطلقت عليهم الصحافة المالية، فرسان أوك ريدج. وفى اجتماع استكشافى مبكر حضره ألفريد، أصر شانسى روث على مخاطبة رئيس مجلس إدارة شركة ميد باسيفيك باسم "بابا": "أنا مدرك تمامًا أن الصفقة لا تبدو لك عادلة يا بابا.. طيب يا بابا، لم لا تتكلم مع محاميك الآن؟ يا ربى.. وها أنا وهيلارد تحت الانطباع، يا بابا، أنك تدير شركة، وليست مؤسسة خيرية." هذا الأسلوب من مناهضة السلطة الأبوية كان له دور عظيم فى جهود عمال السكة الحديد، والذين وبعد شهور من المفاوضات المتعبة صوتوا على أن يعرضوا على الأخوة وورث لائحة بالأجور وتعويضات عمل بقيمة ٢٠٠ مليون دولار. بهذه النقود، ومعها ٢٧ فى المائة من أسهم الشركة، بالإضافة إلى تمويل برامج كثيرة لا حصر لها، قدم الأخوة روث عرضًا واشتروا شركة السكة الحديد من بابها. تم تشغيل مقاول طرق سريعة من تينيسى، اسمه فينتون كريل، للمساعدة فى دمج خطوط الشركة بخطوط جنوب أركنساس. أغلق كريل مقر شركة ميد باسيفيك فى سان جود، وفصل عن العمل وأحال للتقاعد ثلث العاملين، ونقل الباقين إلى ليتل روك.

تقاعد ألفريد قبل شهرين من عيد ميلاده الخامس والستين. كان فى البيت يشاهد "صباح الخير يا أمريكا" من مقعده الأزرق

الجديد، عندما اتصل به مارك جامبوريتس ـ مستشار شركة ميد باسيفيك المتقاعد ـ حاملاً له أخبار عن القبض على مأمور بلدة نيو شارتريس (تُنطق "شارترس")، كنساس، بتهمة إطلاق النار على موظف فى أوزفيك ميدلاند. اسم المأمور هو برايس هالستروم، على حد قول جامبوريتس لألفريد: "جاءه بلاغ عن طريق التليفون بأن بلطجية يحطمون أبراج إشارة شركة ميد باسيفيك. ذهب إلى خط السكة الحديد وشاهد ثلاثة رجال يحطمون الخط الموازى لشريط السكة الحديد، ويحطمون صناديق الإشارات، وينزعون أى شيء فيه نحاس. تلقى أحدهم رصاصة حكومية فى مؤخرته قبل أن يوضح الأحران لهالستروم إنهم يعملون لصالح شركة ميد باسيفيك. تم استئجارهم لنزع وجمع النحاس بأجرة ستين سنتاً للرطل".

قال ألفريد: "لكنه نظام جديد وممتاز. لم تمر ثلاثة أعوام منذ جددنا خط نيو شارتريس هذا".

قال جامبوريتس: "الأخوة روث يبيعون كل شيء خردة، إلا خط السكة الحديد يبيعون كل شيء! ألا تعتقد أن شركة أتشيسون أو توبيكا لن يشتروا!!؟

قال ألفريد: "لا أعرف".

قال جامبوريتس: "أين الأخلاق والدين؟ الأخوة روث لا يلتزمان بإقرارنا بأى مبادئ بخلاف السعى المسعور وراء الأرباح. إنهم يكرهون ما لا يفهمونه. والآن ها هم يغرقون الحقول بالملح. أغلقوا مقر الشركة فى سان جود؟ بعد أن كان حجم الشركة ضعفىّ حجم جنوب أركنساس؟ إنهم يعاقبون سان جود لأنها كانت مقر شركة

ميدلاند باسيفيك. وكريل يعاقب القرى من نوع نيو شارتريس لأن قطارات الشركة كانت تمر عليها. إنه يرمى الملح فى الأرض التى لا تثمر مالاً".

قال ألفريد وعينيه على مقعده الأزرق الجديد وإمكانية استخدامه كمكان ممتاز للنوم: "لم أعد مهتمًا".

لكنه عمل ثلاثين عامًا ليجعل لشركة ميدلاند باسيفيك نظامًا قويًا، واستمر جامبوريتس فى الاتصال به وإطلاعه على التقارير الإخبارية الجديدة عن الكوارث فى كنساس، فكان أثر كل هذا الكلام تزايد رغبته فى النوم. سرعان ما توقفت كل القطارات التى كانت تديرها شركة ميد باسيفيك عن العمل، لم يبق منها عربة واحدة، لكن يبدو أن فينتون كريل كان مسرورًا بخلع أعمدة الإشارات وتعطيل الصناديق. بعد خمس سنوات من دمج الشركتين، كانت قضبان السكة الحديد ما زالت فى مكانها. لكن الجهاز العصبى المصنوع من النحاس للشبكة، فى عمل تخريبى داخلى، نُزع كاملاً.

قالت إنيد لدينيس: "والآن أنا قلقة على تأميننا الصحى. شركة أورفيك ميدلاند ستغيّر تأمين جميع موظفى ميد باسيفيك القدماء إلى نظام "إدارة الرعاية" فى موعد أقصاه أبريل القادم. يجب أن أجد شركة رعاية صحية على قوائمها بعض أطبائى وأطباء بابا. أنا غرقانة فى كتالوجات الشركات، والفروق بينها كلها مكتوبة بالخط الصغير أسفل الصفحات، وبصراحة يا دينيس، لا أعتقد أننى قادرة على تحمل هذا الموضوع".

وكأنها تعطل أية محاولة لطلب المساعدة منها، قالت دينيس بسرعة: "وما خطط التأمين التى يقبلها هيدجبث؟"

"باستثناء مرضاه القدامى بنظام "الخدمة مقابل الأتعاب" مثل بابا، فهو بشكل حصرى الآن على قائمة شركة دين دريبليت للرعاية الصحية. أخبرتك عن ذلك الحفل الكبير فى بيت دين الجميل الكبير. دين وتريش ألطف زوج وزوجة قابلتهم فى حياتى، لكن يا دينيس اتصلت بشركته السنة الماضية بعد أن سقط بابا على جزازة العشب، وتعرفين كم طلبوا مقابل قص العشب من الحديقة الصغيرة؟ ٥٥ دولارًا فى الأسبوع! أنا لست ضد الربحية، أعتقد أن نجاح دين رائع، أخبرتك برحلة باريس مع هونى، لست أقول أى شىء ضده، لكن ٥٥ دولارًا فى الأسبوع؟!"

تذوقت دينيس سلاطة الفاصوليا الخضراء التى أعدها شيب فمدت يدها إلى زجاجة زيت الزيتون: "وما التكلفة لو بقيت على نظام الخدمة مقابل الأتعاب؟"

"دينيس، مئات الدولارات الإضافية كل شهر. ليس من بين جميع أصحابنا ميسورى الحال من يستعين بنظام "إدارة الرعاية"، الجميع على نظام "الخدمة مقابل الأتعاب"، لكن لا أعرف كيف سنتحمل الثمن. بابا كان محافظًا جدًا فى استثماراته، حتى أننى أرانا محظوظين أن عندنا القليل لمواجهة حالات الطوارئ، وحالات الطوارئ موضوع آخر أنا قلقة منه جدًا جدًا جداً جداً". خفضت إنيد صوتها وهى تضيف: "أحد براءات اختراع بابا جاء بفائدة أخيرًا، وأنا بحاجة لنصيحتك".

خرجت من المطبخ واطمأنت إلى أن ألفريد لا يسمعهما، صاحت: "آل، كيف حالك؟"

كان يربت على ثانى أطباق المشهيات بيده، تحت ذقنه مباشرة. وكأنه أمسك بحيوان صغير قد يهرب منه من جديد، هز رأسه دون أن يرفع إليها عينيه.

عادت إنيد إلى المطبخ ومعها حقيبتها. "أخيرًا أتيحت لنا فرصة لجنى بعض النقود، لكنه غير مهتم. جارى تحدث معه على التليفون الشهر الماضى وحاول إقناعه بتوخى شىء من العدوانية، لكن بابا رفض".

توترت دينيس: "ماذا أراد جارى منكم؟"

"ليس أكثر من أن نكون أكثر عدوانية فى ردنا. اسمعى، سأريك الرسالة".

"أمى، براءات الاختراع تلك ملك لبابا. يجب أن تتركيه يتعامل فيها بالشكل الذى يريده".

تمنت إنيد لو أن المظروف فى قاع حقيبتها هو الرسالة المسجلة القادمة من شركة أكسون. فى حقيبتها، كما فى بيتها، أشياء مفقودة تظهر من جديد أحيانًا دون سبب واضح. لكن المظروف الذى وجدته كان الرسالة المسجلة التى لم تُفقد يومًا.

قالت: "اقرأى، ولترين إن كنت تتفقين مع جارى أم لا".

وضعت دينيس علبة الفلفل المبشور التى نثرت منها فوق طبق سلطة شيب. وقفت إنيد عند كتفها وراحت تقرأ الرسالة من جديد، لتتأكد أنها ما زالت تقول نفس الشىء الذى تذكره.

عزيزى السيد لامبرت،

بالنيابة عن شركة أكسون، عنوان ٢٤ إيست إندستريال

سرينتاين، شوينكسفيل، بنسلفانيا، أكتب إليكم لأعرض عليكم مبلغ ٥ آلاف دولار (٥٠٠٠ دولار) مخالصة نهائية مقابل الحق الكامل والحصرى والنهائى فى براءة الاختراع المسجلة تحت رقم ٤٩٣٤٤١٧ (البلمرة الكهربائية بجيل الفيروأسيتيت العلاجى)، الذى تُعتبرون الحائز الوحيد والأصلى لرخصته المُسجلة.

تعرب إدارة أكسون عن أسفها بما أنها لا تقدر على دفع مبلغ أكبر. مُنتج الشركة الأساسى فى مراحله الاختبارية الأولى، ولا توجد ضمانة بأن استثمارها فى براءة الاختراع ستأتى بثمار.

إذا قبلتم شروط ومواصفات اتفاق الترخيص المرفق طيه، برجاء التوقيع وتسجيل النسخ الثلاث فى مكتب السجل العقارى وأن تعيدوا إلينا النسخ فى موعد أقصاه ٣٠ سبتمبر.

وتفضلوا بقبول فائق الشكر

جوزيف ك. براجر

شريك أساسى

براج كنوتر آند سبيج

عندما وصلت تلك الرسالة بالبريد فى أغسطس وأيقظت إنيد ألفريد من نومه فى البدروم، هز رأسه وقال: "خمسة آلاف دولار لن تغير طريقتنا فى العيش". اقترحت إنيد أن يكتبوا إلى شركة أكسون ويطلبون مبلغًا أكبر، لكن ألفريد هز رأسه وقال: "سننفق خمسة آلاف دولار على محامٍ ثم كيف الحال بعد ذلك؟" قالت إنيد إن السؤال لن يضر، فرد ألفريد: "لن أسأل". قالت إنيد لكن إذا قمت بالرد وطلبت عشرة آلاف دولار... سكتت عندما ركز ألفريد عينيه عليها. وكأنها اقترحت عليه أن ينام معها.

أخرجت دينيس زجاجة نبيذ من الثلاجة، وكأنها تلقى الضوء على لامبالاتها بتبعات الموضوع على إنيد. أحياناً ترى إنيد أن دينيس تزدرى كل شيء تهتم هي به. جينز دينيس الأزرق الضيق المثير، وهى تغلق درجًا بمؤخرتها، ترسل هذه الرسالة. الثقة التي تفتح بها سدادة الزجاجة بالفتاحة. تبث هذه الرسالة. "تريدين كأس نبيذ؟"

هزت إنيد رأسها وقالت: "الوقت مبكر على هذا"

شربت دينيس النبيذ كالماء. قالت: "على معرفتى بجارى، أظن أنه قال لكما أن تحاولا استغلال الشركة لأقصى حد".

قالت إنيد وهى تمد يديها للزجاجة: "لا، اسمعى... قطرة صغيرة، رشفة واحدة، بجد، أنا لم أشرب من قبل فى هذه الساعة من النهار، أبدًا... جارى يتساءل لماذا تهتم الشركة ببراءة الاختراع إذا كانت فى مرحلة مبكرة من استثمارها فى الموضوع. أعتقد أن المُتبع فى هذه الحالة هو التعدى على براءة الاختراع.. هذا كثير يا دينيس! أنا لا أحب شرب الكثير من النبيذ! لأن، كما ترين، براءة الاختراع تنتهى صلاحيتها بعد ستة أعوام، إذن جارى يعتقد أن الشركة مستعدة لجنى نقود كثيرة قريبًا".

"هل وقّع بابا على الاتفاق؟"

"نعم، وذهب عند آل شومبرت وجعل ديف يُشهر الاتفاق".

"إذن لابد أن تحترمى قراره".

"دينيس، إنه عنيد وغير منطقى فى تفكيره. لا يمكن.."

"هل تتكلمين عن الأهلية؟"

"لا لا. هذا كثير على ما أقصده. أنا فقط لا يمكننى.."

"إذا كان قد وقّع الاتفاق، فما الذى يتخيل جارى أنك ستفعلينه؟"

"لا شىء".

"إذن ما الفائدة من هذا الكلام؟"

قالت إنيد: "لا شىء، أنت محقة. لا شىء فى وسعنا"، رغم أنه فى الحقيقة هناك ما يمكن عمله. إذا كانت دينيس أكثر حيادية فى دعمها لألفريد، ربما كانت إنيد لتعترف أنه بعد أن أعطاها ألفريد الاتفاق المُشهر كى ترسله بالبريد من مكتب البريد فى طريقها إلى البنك، أخفت الاتفاق فى صندوق السيارة، وتركت المظروف فى مكانه يشع بالذنب عدة أيام، ثم بعدها، بينما كان ألفريد نائمًا ظهرًا، أخفت المظروف فى حجرة الغسيل، فى خزانة تحتوى على علب مربية غير مرغوب فيها، ومفارش أصفر لونها من الزمن، وزهريات وسلال ومكعبات من طين زراعة البساتين، فى حالة جيدة لا يمكن رميه معها، لكن فى الوقت نفسه فى حالة لا تسمح باستخدامه.. ربما كانت لتعترف أنها نتيجة لعملية غير شريفة، ما زال بإمكانها هى وألفريد الحصول على رسوم براءة اختراع كبيرة من أكسون، وأنه من الضرورى أن تعثر على الرسالة المسجلة الأخرى الواردة من أكسون وأن تخبئها قبل أن يكتشف ألفريد أنها خدعته وعصته. قالت وهى تجهز على كأسها: "تذكرت، أحتاج مساعدتك فى موضوع".

ترددت دينيس قبل أن ترد بتهذيب: "وهو؟" هذا التردد أكد اعتقاد إنيد الذى تقر به منذ فترة طويلة، أنها وألفريد أخطأ على طريق تربية دينيس. فشلا فى بث روح الكرم والجود بالخدمات عن طيب خاطر، فى ابنتهما الصغيرة.

قالت إنيد: "كما تعرفين، ذهبنا إلى فيلادلفيا فى أعياد الكريسماس الثمانية السابقة، وأولاد جارى كبروا بما يكفي لنيل ذكرى قضاء العيد فى بيت الجد والجدة، ولهذا فكرت.."

سمعا صيحة من حجرة المعيشة.. "اللعنة"

وضعت إنيد كأسها على المائدة وخرجت من المطبخ مسرعة. كان ألفريد يجلس على طرف المقعد فى وضع متعب كأنه يعاقب نفسه، وركبتاه عاليتين وظهره محن بعض الشىء، ينظر إلى موقع حطام ثالث أطباق المشهيات الذى سقط على الأرض. تسلل مركب الخبز من بين أصابعه وهو يقترب من فمه ونزل على ركبته، ليتناثر حطامه وشظاياه على الأرض، وأخيرًا يستقر تحت المقعد. استقر على قماش المقعد خيط طويل من الفلفل الأحمر المهروس. بدأت تتكون بقع من الزيت حول قطع الزيتون المتناثرة على قماش المقعد. القارب الفارغ من محتوياته يرقد على جانبه.

مرت دينيس إلى جوار إنيد سريعًا ومعها قماشة مبتلة ومضت إلى ألفريد واتكأت على ركبتيها إلى جواره: "ولا يهمك يا بابا، أعرف أن التعامل معها صعب، كان لابد أن أنتبه".

"أحضرى لى قطعة قماش وسوف أنظفها".

قالت دينيس: "لا، تفضل"، كوّرت إحدى يديها على شكل طبق تستقبل فيه البقايا التى راحت تبعدها عن ركبتيه وفخذيه بالقطعة المبتلة. اهتزت يداه فى الهواء بالقرب من رأسها وكأنه سيدفعها بعيدًا عنه، لكنها انتهت من عملها سريعًا، وسرعان ما راحت تنظف بقع الزيتون من على الأرض ثم نقلت الطعام الملوث إلى المطبخ، حيث كانت إنيد تريد رشفة أخرى من النبيذ، وفى لهفتها على

الانتهاء من مهمتها حتى لا يبدو عليها اللهفة، صبت فى الكأس جرعة كبيرة، ثم تجرعتها بسرعة.

قالت: "على كل حال، قلت إذا كنت أنت وشيب مهتمين، لم لا نقضى كريسماس أخير معًا فى سان جود. ما رأيك فى هذه الفكرة؟"

قالت دينيس: "سأكون حيث ترغبين أنت وبابا فى التواجد".

"لا، أنا أسألك. أريد أن أعرف إن كنت مهتمة بشكل محدد بهذا الاقتراح. إذا كنت مهتمة بكريسماس أخير فى البيت الذى نشأت فيه. هل يبدو لك هذا أمرًا ممتعًا؟"

قالت دينيس: "من غير تفكير، أقدر أقول لك الآن أن كارولين لا يمكن تغادر فيلادلفيا. التفكير فى خلاف هذا ضرب من الأحلام. إذا رغبت فى رؤية أحفادك، يجب أن تسافرى إلى الشرق".

"دينيس، أنا أسألك عم ترغبين فيه. جارى يقول إنه وكارولين لم يرفضا الفكرة بشكل نهائى. أريد أن أعرف إذا كان الكريسماس فى سان جود شيئًا ترغبين فيه من داخلك فعلاً. لأن إذا اتفقنا جميعًا على أنه من المهم أن نجتمع كأسرة فى سان جود لمرة أخيرة.."

"ماما، ليس عندى مشكلة فى الموضوع، إذا كنت تعتقدين أنك قادرة على تحمل التعب".

"سأحتاج لبعض المساعدة فى المطبخ، هذا كل شىء".

"يمكننى مساعدتك فى المطبخ. لكن لا يمكننى البقاء إلا أيام قليلة".

"لا يمكنك أخذ أسبوع إجازة؟"

"لا".

"لماذا؟"

"أمى".

"اللعنة". ألفريد يصيح من جديد من حجرة المعيشة، مع سقوط شىء هش على الأرض، ربما الزهرية ذات زهرات عباد الشمس، جلبة شىء يتكسر إلى شظايا. "اللعنة، اللعنة".

كانت أعصاب إنيد متوترة لدرجة أنها كادت تُسقط كأس النبيذ من يدها، لكن جزء منها سرّه هذه المشكلة الثانية، لأنه سيعطى دينيس فكرة عما تضطر لتحمله كل يوم، طوال النهار، فى البيت فى سان جود.

* * *

قضى شيب ليلة عيد ميلاد ألفريد الخامس والسبعين وحيداً فى تيلتون ليدج فى مؤتمر جنسى مع الشيزلونج الأحمر.

كان الزمن مطلع يناير والغابات حول المنطقة محملة بالثلج الذائب. لا شىء يُلقى الضوء على نشاطه الشهوانى غير السماء الساطعة البياض والأرقام الديجيتال فى المنبهات والساعات فى منزله. كان جالساً عند أرجل الشيزلونج يتشمم رائحتها بوصة وراء بوصة، أملاً فى التوصل لرائحة مهبلية متبقية منذ ثمانية أسابيع، منذ نامت هنا ميليسا باكويت. الروائح العادية اليومية، التراب والعرق والبول وخنقة رائحة السجائر فى الحجرة، أصبحت مجردة وغير مميزة لا يمكن التوصل إليها فى هواء المكان، وكان يضطر للتوقف بين اللحظة والأخرى لتنقية أنفه. مرر شفتيه على أزرار الشيزلونج وقبّل بقايا الطعام والشعرات التى جمعها من بين أزرار

التنجيد. لم تكن أى من الأماكن الثلاث التى خُيل له أنه شم فيها رائحة ميليسا مبتلة أكثر من غيرها أو أنعم، لكن بعد مقارنات مرهقة أجراها تمكن من الاستقرار على البقعة الأقل مثاراً للجدل بين البقع الثلاث، بالقرب من زر جنوب المسند الخلفى للشيزلونج، فحوّل كل تركيزه إلى تلك البقعة. راح يداعب بأصابعه الأزرار الأخرى، بيديه، المخمل الناعم فى محاكاة فقيرة لملامسات ميليسا لجسده، جلدها، حتى دخل فى يقينه أخيراً أن الرائحة حقيقية، لدرجة كافية للاعتقاد بأن لديه أثر من ذكرى ميليسا. ثم نزل عن المقعد وتهاوى على الأرض ببنطلونه مفكوك الأزرار ورأسه على الوسادة، وقد مرّت ساعة أخرى فشل خلالها فى الاتصال بأبيه فى عيد ميلاده.

دخّن سيجارتين، أشعل الثانية من الأولى. شغّل التلفزيون على قناة تعرض حلقات متتالية من كرتون وارنر بروزرس. على هدى النور الخابى يرى البوسطة المتكومة على مدار أسبوع، حيث أسقطها على الأرض، دون أن يفتحها. ثلاث رسائل من الشخص الجديد القائم بأعمال رئيس الجامعة، كانت ضمن البوسطة ومعها شىء كئيب من صندوق تقاعد المدرسين، ورسالة من مكتب إسكان الجامعة عليه كلمات "إخطار بالإخلاء" على صدر المظروف.

فى وقت سابق من اليوم نفسه، فيما راح يقتل الساعات بإحاطة كل حرف "م" يراه فى عدد قديم من النيويورك تايمز بدائرة من قلم الحبر، خلص شيب إلى أنه يتصرف كشخص مكتئب. والآن، بعد أن بدأ تليفونه يرن، خطر له أن الشخص المكتئب المستمر فى التحديق فى التليفزيون ويتجاهل التليفون الذى يرن، عليه أن يشعل سيجارة أخرى، ودون أى بادرة للتأثر، يشاهد كرتون آخر بينما الرد الآلى فى التليفون يتلقى رسالة المتصل، أيا كان.

كون الإحساس الذى اعتراه بدلاً من ذلك، كان أن يهب إلى قدميه ويجيب على التليفون، ذلك الإحساس ألقى بظلال من الشك على مصداقية معاناته. أحس كأنه تعوزه القدرة على فقدان كل الإحساس والصلات التى تربطه بالواقع بنفس الطريقة التى يبدو عليها المكتئبون فى الأفلام والكتب. خطر له وهو يُسكت صوت التليفزيون ويهرع إلى المطبخ، أنه يفشل فى مهمة الانهيار بشكل صحيح.

ربط أزرار بنطلونه وأضاء النور ثم رفع السماعة: "آلو؟"

قالت دينيس دون مقدمات: "ما الموضوع يا شيب؟ كلّمت بابا وقال لى إنك لم تتصل به".

"دينيس، دينيس، لماذا تصيحين؟"

قالت: "أنا أصيح لأننى غاضبة لأن اليوم هو عيد ميلاد بابا الخامس والسبعين وأنت لم تتصل به ولم ترسل له كارت معايدة. أنا غاضبة لأننى أعمل منذ 12ساعة واتصلت ببابا منذ قليل فوجدته قلقًا عليك. ما الموضوع عندك؟"

أدهش شيب نفسه بعد أن بدرت منه ابتسامة، قال: "الموضوع عندى أننى خسرت شغلى".

"لم يتم تعيينك؟"

"لا، فصلونى من العمل. لم يدعونى حتى أدرّس آخر أسبوعين من المنهج. شخص غيرى سيحضر الامتحانات. ولا يمكننى طلب الطعن فى القرار دون استدعاء شاهد. وإذا حاولت الحديث إلى الشاهد، فهذا دليل أكبر على جريمتى".

"من الشاهد؟ شاهد على ماذا؟"

أخرج شيب زجاجة من سلة القمامة، وتحقق من خلوها ثم أعادها إلى السلة. "طالبة سابقة عندى تقول إننى مهووس بها. تقول إننى أقمت معها علاقة وأننى كتبت لها ورقة بحثية فى حجرة فى موتيل. ما لم أوكل محاميًا، ولا يمكننى تحمل أتعابه لأنهم قطعوا عنّى راتبى، فلن يُسمح لى بالحديث إلى تلك الطالبة. إذا حاولت رؤيتها، فهذا يعتبر تحرشًا".

قالت دينيس: "وهل هى تكذب؟"

"وهذا موضوع يجب ألا تسمع به ماما أو بابا".

"شيب، هل البنت تكذب؟"

على كاونتر المطبخ فى شقة شيب، كان ملحق التايمز الذى أحاط فيه بالدوائر كل حروف الـ "م" التى تبدأ بها الجمل. تذكر هذه العملية الآن، بعد ساعات من الانتهاء منها، مثل تذكر حلم، باستثناء أن تذكر الحلم لا تأتى معه القدرة على إعادة الشخص الواعى البعيد عن النوم، إلى الحلم، بينما رؤية خبر عليه دوائر كثيرة بين كل حرف والآخر عن اقتطاعات جديدة كبيرة من مزايا شركات ميدى كير وميدى سيد، أثارت فى شيب نفس الأحاسيس بالتوتر والقلق والشهوة غير المتحققة، نفس الاشتياق إلى اللاوعى، الذى أعاده إلى الشيزلونج ليشمه ويتحسسه. أصبح مضطرًا لبذل جهد شاق لتذكير نفسه بأنه ذهب بالفعل إلى الشيزلونج، وأنه سار بالفعل على ذلك الطريق، طريق النسيان والراحة.

طوى التايمز ورماها فوق كومة القمامة فى ركن المطبخ.

قال: "لم أدخل أى علاقة جنسية مع تلك المرأة".

قالت دينيس: "أنت تعرف قوة آرائى فى أمور كثيرة، لكن ليس من بينها الأشياء من هذا النوع".

"قلت لم أنم معها".

قالت دينيس: "لكننى أؤكد لك أن أى شىء تقوله فى هذا الموضوع سيجد آذانًا صاغية وتعاطفًا"، ثم سعلت فى حدة.

إذا كان شيب يريد أن يتملص من أى شخص فى أسرته، فهى أخته الصغيرة. بعد أن تسربت من التعليم الجامعى وخاضت فى زيجة انتهت نهاية مؤسفة، أصبحت دينيس لديها شىء من الألفة مع السواد والحسرة. لكن لا أحد غير إنيد رأى فى دينيس ما هو أكثر من الفشل. الكلية التى تسربت منها كانت أفضل من التى تخرج فيها شيب، وزيجتها المبكرة وطلاقها مؤخرًا أضفيا عليها شيئًا من عاطفة الأمومة كان شيب يدرك تمامًا أنها تنقصه، واشتبه فى أن حتى دينيس التى تعمل ثمانين ساعة فى الأسبوع، تجد الوقت الكافى كى تقرأ كتبًا أكثر مما يقرأ. منذ الشهر الماضى، منذ بدأ فى مشاريع من قبيل سحب صورة ميليسا باكويت بالسكانر من الكتاب السنوى للكلية ووضع رأسها على صور عارية من على الإنترنت (والساعات تمر عندما تلعب مع الكمبيوتر)، لم يقرأ أى كتب.

قال لدينيس فى بلادة: "هناك سوء تفاهم. ثم كان من الممكن أن ينتظروا علىّ قليلاً قبل طردى. وها أنا الآن محروم من إجراءات التقاضى السليمة".

قالت دينيس: "بصراحة، من الصعب أن ترى الطرد شىء سلبى. الجامعات شىء يقرف".

"هذا هو المكان الوحيد فى العالم الذى تخيلت أن لى موضع فيه".

"ما أقوله هو أنك أفضل من هذا المكان بكثير. لكن كيف تنفق على نفسك؟"

"من قال إننى أنفق؟"

"هل تحتاج لقرض؟"

"دينيس، ليس معك نقود".

"بل معى. أفكر أيضًا أن عليك الحديث إلى صديقتى جوليا، فهى تعمل فى مجال صناعة الأفلام. أخبرتها بفكرتك عن مسرحية فى الإيست فيلدج. قالت إن عليك الاتصال بها إذا كنت مهتمًا بالكتابة".

هز شيب رأسه وكأن دينيس معه فى المطبخ ويمكنها رؤيته. تحدثا على التليفون، قبل شهور، عن تحديث بعض مسرحيات شكسبير الأقل شهرة، ولم يتمكن من تخيل أن دينيس خاضت تلك المحادثة بجدية، أنها ما زالت تؤمن بقدراته.

قالت: "طيب وبابا؟ هل نسيت أن اليوم عيد ميلاده؟"

"أنا فقدت الإحساس بالزمن".

قالت دينيس: "لا أريد استعجالك، لكن لا تنس أننى من فتحت علبة الكريسماس الخاصة بك".

موضوع الكريسماس هذا كان شيئًا مؤسفًا".

فى الخارج، كانت رياح الجنوب قد بدأت تتحرك، فعجّلت بذوبان الثلج من على التراس الخلفى. الإحساس الذى كان يسيطر على شيب عندما رد على التليفون، بأن تعاسته اختيارية، غادره مجددًا.

قالت دينيس: "إذن هل ستتصل به؟"

أعاد السماعة إلى مكانها دون أن يجيبها، وأسكت صوت الرنين، ودفن وجهه فى باب الحجرة. حل مشكلة هدايا كريسماس الأسرة فى آخر لحظة، وفى حالة من الهلع، نزع الكتب الرخيصة ولفّها فى ورق الفويل ثم ربطها بشرائط حمراء ورفض أن يتخيل كيف سيتفاعل ابن شقيقه كاليب، على سبيل المثال، مع هدية عبارة عن نسخة من رواية إيفانهو طباعة أوكسفورد، مؤهلها الوحيد كهدية كان أنها ما زالت جديدة بحالتها. كانت أركان الكتاب تبرز إلى حد ما من تحت الفويل، ورقع الفويل التى وضعها لتغطى على الثقوب فى طبقة الفويل الأولى لم تلتصق بالطبقة الأولى جيدًا، والنتيجة كانت شيئًا ناعمًا من طبقات، مثل البصلة. حاول أن يصلح من حال كل هدية بلصق شعار "الاتحاد الوطنى للحق فى الإجهاض" الذى تلقاه بالبريد ضمن هدايا اشتراكه فى الاتحاد. نتاج عمله بدا أخرق وطفوليًا، غير متزن نفسيًا فى واقع الأمر، لدرجة أنه رمى بالهدايا فى كرتونة قديمة للفاكهة للتخلص من منظرها. ثم أرسلها بالبريد السريع إلى بيت جارى فى فيلادلفيا. أحس بفراغ مريح، وكأنه مهما كان ما فعله مزعجًا وغير مقبول، فهو على الأقل تخلص من هذا الموقف ولن يعود إليه قريبًا. لكن بعد ثلاثة أيام، مع عودته للبيت فى ساعة متأخرة من ليلة الكريسماس، بعد حفل استغرق

اثنتى عشرة ساعة فى دانكن دوناتس فى نورووك، كونيتيكت، واجه مشكلة فتح الهدايا التى أرسلتها إليه أسرته: صندوقان من سان جود، وعبوة أنيقة من دينيس، وصندوق من جارى. قرر أنه سيفتح الهدايا فى السرير وأن أفضل طريقة لنقل الهدايا إلى حجرة النوم هى ركل الصناديق بقدمه أعلى السلم. ثبت له صعوبة هذا الأمر، لأن تلك العبوات تصعد بعض الدرجات، ثم تنزل ما صعدته من جديد. كما أنه إذا كانت محتويات العبوة الأنيقة الرخوة الخاصة بدينيس خفيفة لدرجة أن مقاومتها للهواء ضعيفة، فمن الصعب تحريكها بالركلات. لكن شيب كان قد مر بعيد كريسماس محبط وكئيب، إذ ترك رسالة على البريد الصوتى لميليسا يطلب منها فيها أن تتصل به على رقم الهاتف العمومى أمام دانكن دونتس أو، أن تأتى شخصيًا من بيت أبويها فى ويستبورت القريبة، ولم يقعده التعب حتى منتصف الليل عن قبول أن ميليسا لن تتصل به ولن تحضر لتراه طبعًا، مما يعنى أنه الآن فى حالة بدنية لا يقدر معها على كسر قواعد اللعبة التى اخترعها، ولا أن يغادر اللعبة قبل أن يحقق أغراضها. وكان من الواضح له أن القواعد لا تسمح إلا بالركلات الصحيحة (وتحظر تحديدًا أن يتمكن بكف قدمه من رفع الصناديق ويعطيها أية قوة دفع أو أن يرفعها بأى شكل)، ومن ثم اضطر لركل هدية دينيس بوحشية متزايدة إلى أن انفتحت وانسكبت منها لفافة الهدية الداخلية وتمكن من الإمساك باللفافة بإصبع قدمه ليرفعها بعيدًا لتحط على بعد خطوة واحدة من الطابق الثانى. لكن من هناك، رفضت العبوة أن تصعد الدرجة الأخيرة من السلم. راح شيب يركل الهدية بقدميه، وداخلها كان ورق أحمر وشىء أخضر ناعم الملمس. كسر قاعدته وأمسك بالكتلة

ورفعها درجة السلم الأخيرة، ثم ركلها فبلغت آخر الممر، وتركها إلى جوار حجرة نومه، ثم عاد إلى الصناديق الأخرى. تلك بدورها كان واثقاً أنها ستُدمر تمامًا قبل أن يتوصل إلى طريقة تتلخص فى ركلها مسافة قصيرة، ثم وهى فى منتصف الهواء، يصفعها بقدمه فتصعد للطابق الثانى. عندما صفع صندوق جارى بقدمه انفجر فى سحابة من الشظايا البيضاء. سقطت زجاجة ملفوفة بالفوم وتدحرجت على درجات السلم. كانت زجاجة من نبيذ كاليفورنيا البرتغالى الأحمر. حملها شيب إلى سريره وبدأ فى حركة منتظمة، فيها يبتلع جرعة من النبيذ بعد الاطلاع على كل هدية يتمكن من فتحها. من أمه، التى كانت تتخيل أنه ما زال يعلق فردة الجورب فى المدفأة، تلقى صندوق "الأغراض المفيدة"، وفيه أغراض شخصية صغيرة: عبوة من قطرة السعال، صورة صغيرة له وهو فى المدرسة داخل إطار نحاسى لامع، عبوات شامبو بلاستيكية ومجفف شعر ومرطب لليد من فندق هونج كونج، حيث أقامت إنيد وألفريد وهما فى طريقهما إلى الصين قبل ١١ عامًا، وتمثالان صغيران لعفريتين، من الخشب، على وجهيهما ابتسامات مُبالغ فى فرحتها، وعليقة تتدلى من رأس كل منهما، لتعليقهما من شجرة. على سبيل الشجرة، أرسلت إنيد صندوقًا ثانيًا أكبر حجمًا، فيه هدايا ملفوفة فى ورقة حمراء كبيرة على هيئة وجه سانتا كلوز، وفيها: سخان أسبرجس، ثلاثة أزواج من الكيلوتات البيضاء، وعلبة حلوى كبيرة الحجم، وغطاءان لوسادات صغيرة الحجم. ومن جارى وزوجته، بالإضافة لزجاجة النبيذ، تلقى شيب جهازًا لمنع أكسدة بقايا النبيذ، وكأن بقايا النبيذ مشكلة عانى منها شيب يومًا. ومن دينيس، التى أعطاها "رسائل أندريه جيد" بعد أن نزع عن الكتاب ورقة تثبت أنه

اشتراه بدولار، تلك الترجمة الرديئة الخالية من الإحساس باللغة، منها تلقى قميصًا أخضر ليمونى من الحرير، ومن أبيه تلقى شيكًا بمائة دولار مرفقة به توجيهات بخط اليد خلاصتها أن يشترى بالنقود "ما يشاء".

باستثناء القميص، الذى ارتداه، والشيك، الذى صرفه، وزجاجة النبيذ، التى قتلها على السرير فى ليلة الكريسماس، فإن هدايا أسرته ظلت على أرض حجرة نومه. حشو عبوة هدية دينيس تهادى إلى المطبخ واختلط بمياه غسيل الأطباق المتناثرة على الأرض ليشكل بركة من الطين، وزعها شيب بقدميه فى أرجاء البيت. وتراكمت قطعان من الفوم الأبيض الشبيه بفراء الخرفان فى أماكن وأركان معزولة.

كانت الساعة حوالى العاشرة والنصف فى الغرب الأوسط.

أهلاً يا بابا، كل سنة وأنت طيب. أنا فى أفضل حال هنا، كيف الحال فى سان جود؟

أحس شيب بأنه غير قادر على إجراء المكالمة بدون تحفيز. منشط ما. لكن التليفزيون أصابه بحالة من الرغبة فى الانتقاد والألم السياسى، لم يعد معها قادرًا على مشاهدة أفلام الكرتون حتى دون تدخين السجائر، وأصابه ألم بحجم الرئة فى منطقة صدره، ولا يوجد أى نوع من أنواع مغيبات الوعى فى بيته، ولا حتى الشيرى المستخدم فى الطهى، ولا حتى دواء السعال، وبعد أن انشغل بمتعته مع الشيزلونج، تسرب الإندروفين فى جسده إلى أركان المخ الأربعة وكأنه جنود أنهكتها الحرب، أتلفتها المطالب التى طلبها منها على مدار الأسابيع الخمسة الأخيرة، لدرجة أنه لا

يوجد أى شىء، باستثناء ميليسا لو جاءت، ربما، قادر على إخراجها من مخابئها من جديد. كان بحاجة لشىء من رفع الروح المعنوية، شىء دافئ صغير، لكنه لم يكن عنده غير عدد التايمز الذى يعود تاريخه لشهر مضى، وأحس أنه وضع دوائر على حروف "م" كافية ليوم واحد، لم يعد قادراً على رسم الدوائر.

لجأ إلى مائدة الطعام وتأكد من غياب الرواسب من زجاجات النبيذ المتكومة على المائدة. استخدم آخر ٢٢٠ دولارًا فى بطاقته الائتمانية فى شراء ثمانى زجاجات من نبيذ فرونساك اللذيذ، وليلة السبت أقام حفل عشاء أخير من أجل حشد المتضامنين معه فى الجامعة. قبل أعوام قليلة، بعد أن قام قسم الدراما بجامعة "د" بفصل كالى لوبيز الأستاذة الشابة، التى ادّعت أنها حائزة على درجة علمية ما زيفًا، نظّم الطلاب الغاضبون والطاقم الإدارى بالجامعة مقاطعات ومظاهرات احتجاجية أجبرت الجامعة على إعادة لوبيز، بل وترقيتها إلى درجة الأستاذة. والأكيد أن شيب ليس سحاقيًا أو فلبينية، مثل لوبيز، لكنه يُدرّس نظرية النسوية، وكان يمنح صوته دائمًا لكتلة المثليين فى الجامعة، واعتاد على انتقاء الكُتاب غير الغربيين أثناء التدريس، وكل ما فعله فى حجرة رقم ٢٣ فى كومفورت فالى لودج كان ممارسة بعض النظريات عمليًا (أسطورة السلطة، ونظرية المقاومة الاستهلاكية للجنس الطليق)، وكانت الجامعة قد استعانت به لتدريس هذه النظريات. لكن للأسف بدت النظريات باهتة عندما بدأ تدريسها لأشخاص ليسوا فى نوع المراهقين القابلين للقولبة بسهولة. من الزملاء الثمانية الذين قبلوا دعوته للعشاء يوم السبت، لم يأت غير أربعة. ورغم جهوده لتحريك المحادثة نحو مصابه، إلا أن العمل الجماعى الوحيد

الذى اتفق عليه الزملاء كان الغناء له، وهم يقتلون زجاجة النبيذ الثامنة، وكانت الأغنية "لا، لست نادمة".

لم يجد القدرة على تنظيف المائدة خلال الأيام التالية. فكر فى أوراق الخس التالفة وبقع الشحم على قطع اللحم الباردة، وفوضى سدادات الزجاجات المبعثرة والتراب. بيته العَارٌ، غير المنظم وكأنه عار وعدم انتظام دماغه. كالى لوبيز الآن هى القائمة بأعمال رئيس الجامعة، بديلة لجيم ليفيتون.

كلمنى عن علاقتك مع طالبتك ميليسا باكويت.

طالبتى السابقة؟

طالبتك السابقة.

أنا على علاقة ودّية معها. تعشينا مع بعض. وأمضيت معها بعض الوقت فى بداية إجازة عيد الشكر. وهى طالبة ممتازة.

هل ساعدت ميليسا على الإطلاق فى ورقة كتبتها الأسبوع الماضى فى مادة فيندلا أوفالون؟

تحدثنا عن الورقة بشكل عام. كانت مرتبكة من بعض النقاط، فأوضحت لها الموضوع.

هل علاقتك بها جنسية؟

لا.

شيب، أعتقد أن ما سنفعله هو أن تدفع أنت مصروفاتك إلى أن نعقد جلسة. هذا ما سنفعله. سنعقد جلسة أول الأسبوع القادم، وفى هذه الأثناء وكّل لنفسك محامياً وتحدث مع ممثلك النقابى. كما أصرّ على ألا تكلّم ميليسا باكويت.

ماذا تقول؟ أننى كتبت لها الورقة؟

ميليسا خرقت ميثاق الشرف بتسليمها لورقة لا تخصها. وسوف يتم تجميدها عن الدراسة لمدة فصل دراسى، لكننا نتفهم وجود عوامل مُخففة. على سبيل المثال، علاقتك الجنسية غير الملائمة والفجة معها.

هذا ما قالته؟

نصيحتى الشخصية لك يا شيب أن تستقيل الآن.

هذا ما تقوله؟

ليست أمامك أدنى فرصة.

الثلج الذائب بدأ يتساقط بغزارة على شرفته الخلفية. أشعل سيجارة من شعلة البوتجاز الأمامية، وسحب نفسين مؤلمين، ثم كبس راحة يده على السيجارة المشتعلة. تألم من بين أسنانه ثم فتح الفريزر ووضع راحته على الثلج، ووقف لدقيقة يشم رائحة شياط اللحم المحترق. ثم وهو يضع مكعب ثلج على يده، ذهب إلى التليفون واتصل بذلك الرقم العتيق.

فيما كان التليفون يرن فى سان جود، وضع قدمًا على ملحق التايمز الراقد فى سلة القمامة وسحقه لأسفل، مبعدًا إياه عن ناظريه.

صاحت إنيد: "شيب، يا خسارة، لقد صعد لينام".

قال شيب: "لا توقظيه، قولى له.."

لكن إنيد كانت قد أبعدت السماعة وراحت تصيح: "آل، آل!" بصوت بدأ يخفت وهى تبتعد عن التليفون وتصعد السلم إلى

حجرات النوم. سمعها شيب تصيح "إنه شيب!" سمع السماعة تُرفع من حجرة النوم. سمع إنيد تعطى التوجيهات لألفريد: "لا تقل له ألو ثم تقفل الخط. تكلّم معه قليلاً".

سمع صوت خرشفة أثناء انتقال السماعة.

قال ألفريد: "نعم".

قال شيب: "أهلاً يا بابا، كل سنة وأنت طيب".

قال ألفريد مرة أخرى بنفس الصوت المسطح: "نعم".

"آسف أننى اتصلت فى وقت متأخر".

قال ألفريد: "لم أكن نائمًا".

"خشيت أن أكون قد أيقظتك من النوم".

"نعم".

"طيب، كل سنة وأنت طيب".

"نعم".

تمنى شيب لو كانت إنيد تتابع المكالمة من تليفون المطبخ، أن تكون قد هرعت إلى الأسفل، بعظامها التى تؤلمها وما إلى ذلك، لتنقذه من هذه الورطة: "أعتقد أنك متعب والوقت تأخر".. كان شيب هو المتحدث.. "ليس علينا الاستمرار فى الكلام".

قال ألفريد: "شكرًا لك على مكالمتك".

عادت إنيد إلى الخط، قالت: "سأنتهى من تنظيف هذه الأطباق. أقمنا حفلاً الليلة! آل، كلّم شيب عن الحفلة! سأقفل الخط من عندى الآن".

أقفلت الخط، قال شيب: "هل عملوا لك حفلة؟"

"نعم. آل رووت جاءوا لتناول العشاء ولعب الكوتشينة".

"هل قطعوا التورتة؟"

"أمك أعدت تورتة".

السيجارة حفرت حفرة فى جسد شيب، ومن خلالها، أحس وكأن الآلام تدخل وتخرج العوامل المؤثرة فى هذه الآلام من الجانب الآخر مصحوبة بالألم. راح الثلج الذائب يتسرب من بين أصابعه: "وكيف كانت الكوتشينة؟"

"حظى السيئ المعتاد فى اللعب".

"ليس هذا عدلاً، فى عيد ميلادك".

قال ألفريد: "أظن أنك تُحضّر لفصل دراسى جديد".

"نعم، نعم. لكن فى الحقيقة لا. فى الحقيقة قررت ألا أقوم بالتدريس فى هذا الفصل الدراسى".

"لم أسمعك".

رفع شيب صوته وقال: "قلت إننى قررت ألا أقوم بالتدريس فى هذا الفصل الدراسى. سآخذ إجازة وأركز على الكتابة".

"معلوماتى أنك على وشك التعيين".

"نعم، فى أبريل".

"يبدو لى أن أى شخص على وشك التعيين يستحق النصيحة بأن يبقى ويُدرّس".

"نعم".

"إذا رأوك تعمل بجد، فلن يجدوا سببًا لعدم عرض التعيين عليك".

"نعم نعم"، راح شيب يومىء برأسه.. "فى الوقت نفسه، يجب أن أستعد لاحتمال عدم الحصول على التعيين. وقد جاءنى.. آه.. عرض مغرٍ جدًا من منتجة فى هوليود. زميلة دراسة لدينيس، تنتج أفلامًا. العرض كما هو واضح مغر جدًا".

قال ألفريد: "العامل الممتاز يستحيل فصله من العمل".

"لكن ممكن يكون فى الموضوع اعتبارات أخرى. يجب أن أتيح لنفسى البدائل".

قال ألفريد: "كما تريد. لكننى اكتشفت أن الأفضل دائمًا أن تختار خطة واحدة وتخلص لها. إذا لم تنجح هنا يمكنك البدء فى شىء آخر. لكنك تعبت سنوات طويلة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. فصل دراسى آخر من العمل الجاد لن يضرك".

"صحيح".

"يمكنك أن تسترخى بعد التعيين. وقتها أنت فى أمان".

"صحيح".

"عموماً شكرًا لك على المكالمة".

"صح، كل سنة وأنت طيب يا بابا".

أعاد شيب سماعة التليفون، وغادر المطبخ، ثم أخذ زجاجة فرونساك من رقبتها وأنزلها بقوة على طرف مائدة الطعام. كسر

زجاجة ثانية. الزجاجات الست الباقية كسرها اثنين اثنين، فى كل يد من يديه رقبة زجاجة.

الغضب جعله يتحمل الأسابيع الصعبة التالية. اقترض عشرة آلاف دولار من دينيس واستعان بمحامٍ ليهدد من خلاله بمقاضاة جامعة "د" برفع قضية على فسخ العقد. كان الموضوع مضيعة للفلوس، لكنه أراحه. ذهب إلى نيويورك، وأنفق أربعة آلاف دولار على إيجار من الباطن لشقة فى الشارع التاسع. اشترى ملابس جلدية وثقب أذنيه. اقترض نقوداً إضافية من دينيس وتواصل مع صديق من الجامعة يدير مجلة "وارن ستريت جورنال". أعد للانتقام من خلال سيناريو، يكشف من خلاله نرجسية وخيانة ميليسا باكويت ونفاق زملائه له، أراد أن يشاهد من أذوه فى الفيلم، وأن يتعرفوا على أنفسهم ويعانوا. لاعب جوليا فريس بالكلام ودعاها للخروج معه، وسرعان ما بدأ ينفق مائتين وثلاثمائة دولار فى الأسبوع على طعامها وتسليتها. اقترض نقوداً إضافية من دينيس. علّق السيجارة على شفته السفلى ونقر نصًا على لوحة المفاتيح. جوليا فى المقاعد الخلفية لسيارات التاكسى تضغط وجهها فى صدره وتمسك بياقته. كان يعطى عمال المطعم وسائقى التاكسى بقشيش ثلاثين وأربعين فى المائة. يقتبس من شكسبير وبايرون فى سياقات مضحكة. اقترض نقوداً إضافية من دينيس وقرر أنها محقة، أن الفصل من العمل هو أفضل شىء حصل معه.

لم يكن ساذجاً بالطبع كى يصدق جمال تعليقات إدين بروكورو المهنية. لكن كلما رأى إدين فى وسط أشخاص آخرين، زادت ثقته فى أن السيناريو الذى يكتبه سيربح التعاطف لدى قراءته. لسبب واحد على الأقل، أن إدين كانت بمثابة الأم لجوليا. هى أكبر منها

بخمس سنوات فقط، لكنها اهتمت بشكل شخصى بتحسين مستوى حياة مساعدتها الشخصية. رغم أن شيب لم يتمكن مطلقًا من أن يبعد عن ذهنه أن إدين ترغب فى إقحام شخص آخر غيره كحبيب لجوليا (اعتادت أن تشير إليه بمصطلح "مرافق" وليس "حبيب" جوليا، ثم تتحدث عن "قدرات جوليا الحبيسة" و"انعدام ثقتها"، كان يشتبه أنها ترى ضرورة تغييرها لوليفها وتحسين ذوقها فى هذا الموضوع)، أكدت جوليا له أن إدين تراه."غالى فعلاً" و"ذكى جدًا". بالطبع فإن زوج إدين، دوج أوبراين، كان إلى جانبه. كان دوج أخصائى دمج شركات وبيع مؤسسات فى شركة براج كنوتر آند سبيج. دبر لشيب وظيفة مراجع نصوص حر وعمل على أن يتلقى شيب أعلى أجر مُتاح فى الساعة. كلما حاول شيب أن يشكره على صنيعه، كان دوج يحرك يديه فى دلالة على التواضع وأن الموضوع بسيط ويقول: "أنت صاحب شهادة الدكتوراه. كتابك هذا فيه كلام نبيه جدًا"، وسرعان ما أصبح شيب من الضيوف المتكررين فى حفلات عشاء أوبراين فى حى "ترايبيكا"، ومن ضيوف حفلات الإجازة الأسبوعية فى بيتهما فى بوجوى. وهو يشرب خمرهم ويأكل طعامهم الفندقى، تذوق نجاحًا يفوق مئات المرات طعم نجاح التعيين. أحس بأنه حى لأقصى درجة.

ثم ذات ليلة طلبت منه جوليا الجلوس وقالت إن هناك شيئًا مهمًا لم تذكره له من قبل، وأن عليه أن يعدها بألا يغضب منها كثيرًا. الحقيقة الغائبة والهامة هى أن لها زوج. نائب رئيس وزراء ليتوانيا دولة صغيرة من دول البلطيق -واسمه جيتاناس ميسيفيكيوس. يعنى، فى الحقيقة جوليا تزوجت منه قبل عامين، وكانت تأمل ألا يغضب شيب منها كثيرًا.

قالت إن مشكلتها مع الرجال إنها نشأت وتربت فى غيابهم. كان أبوها موظف مبيعات للمراكب اكتتابى الطابع، تذكر منه أنها التقته مرة وتمنت بعدها لو لم تكن قد قابلته مطلقًا. أمها، مديرة فى شركة تجميل، نقلت مسئولية جوليا إلى جدتها، التى ألحقتها بمدرسة كاثوليكية للبنات. تجربة جوليا الأولى مع الرجال كانت فى الجامعة. ثم انتقلت إلى نيويورك وبدأت فى عملية مرهقة طويلة، تتلخص فى النوم مع كل رجل نصاب سادى غير ملتزم بأى مسئولية جميل الوجه، تضع يدها عليه فى أى حى من أحياء منهاتن. مع بلوغها الثامنة والعشرين، لم يكن لديها ما يفرحها باستثناء شكلها، وشقتها، ووظيفتها الثابتة (والتى كان قوامها بالأساس، الرد على التليفون). لذا عندما قابلت جيتاناس فى ملهى ليلى وأخذها جيتاناس على محمل الجد، ثم وبعد فترة عرض عليها خاتم من الذهب الأبيض بفص ألماظ ليس بالصغير، وظهر على وجهه أنه يحبها (والأهم أن الرجل سفير محترم فى الأمم المتحدة، وذهبت وسمعته وهو يتكلم بلغته البلطيقية عالية النبرة فى الجمعية العامة)، مع كل هذا، ما كان أمامها إلا أن تبذل كل ما بوسعها ردًا على طيبته. كانت متساهلة معه لأقصى درجة تساهل مُتاحة للبشر. رفضت أن ترده خائبًا رغم أنه كان الأفضل أن ترده خائبًا. كان جيتاناس أكبر منها بكثير وحنون فى السرير (ليس مثل شيب، على حد قول جوليا المتسرع، لكن لم يكن، يعنى، ضعيف الأداء) وبدا أنه يعرف مخارج ومداخل موضوع الزواج، لذا فذات يوم ذهبت إلى مجلس المدينة معه. كانت لترضى بلقب "السيدة ميسيفيكيوس" لو كان قد بدا لها أقل بلاهة. ما إن تزوجت، حتى أدركت أن الأرضيات الرخام والأثاث الأسود الثمين وألواح الزجاج المودرن

القيمة فى شقة السفير على النهر الشرقى، لم تكن مريحة قدر ما تخيلت. جعلت جيتاناس يبيع المكان (سُرّ رئيس بعثة باراجواى الدبلوماسية كثيرًا لما أشتراه) وأن يشترى شقة أصغر وأجمل على نهر هدسون بالقرب من بعض الملاهى الليلية اللطيفة. وجدت مصفف شعر مناسب لجيتاناس وعلمته كيف يختار الملابس ذات الأقمشة الطبيعية. وبدا أن الأمور تسير من الجيد للأفضل. لكن لابد أن سوء تفاهم وقع بينها وجيتاناس، لأن عندما خسر حزبه "فيباكيرينب VIPPPAKJRINPB17" -انتخابات سبتمبر -وهو الحزب الوحيد المخلص للأفكار القومية الخاصة بالزعيم كازيميراس يارامينتيس(*) واستفتاء ١٧ أبريل العام - وتم استدعاؤه إلى فيلنيوس للانضمام إلى المعارضة البرلمانية، تخيل أن جوليا ستصاحبه. وجوليا كانت تفهم جيدًا أنهم كيان واحد وأن الزوجة مكانها مع زوجها وكل هذا الكلام، لكن جيتاناس فى وصفه لفيلنيوس فترة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى رسمت فى ذهنها صورة مدينة تعانى من قصور مزمن فى الفحم والكهرباء، ودرجات حرارة منخفضة بشكل مرعب، وقناصة يطلقون الرصاصات عشوائيًا، واعتماد ثقيل فى الغذاء على لحم الخيول. ومن ثم ارتكبت فعلة رديئة للغاية فى حق جيتاناس، أسوأ شئ فعلته لأى إنسان فى حياتها. وافقت على الذهاب إلى فيلنيوس معه، ثم ركبت الطائرة فى كرسيها بالدرجة الأولى، ثم تسللت من الطائرة وغيرت رقم التليفون وقالت لأدين أن تقول لجيتاناس، عندما اتصل، إنها قد اختفت. بعد ستة أشهر عاد جيتاناس إلى نيويورك لفترة عطلة نهاية الأسبوع، وجعل جوليا تشعر بالذنب البالغ. ونعم، بلا جدال،

(*) شخصية خيالية (المترجم).

لقد وصمت نفسها بالعار. لكن جيتاناس بدأ يسبّها وصفعها بقوة. والنتيجة أنهما لم يعودا قادرين على الاستمرار فى الحياة، لكنها استمرت فى استخدام شقتهما فى شارع هدسون مقابل البقاء متزوجة منه، فى حالة طلب جيتاناس اللجوء فى الولايات المتحدة، لأنه من الواضح أن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ فى ليتوانيا.

المهم، تلك كانت حكايتها مع جيتاناس، وتمنت ألا يغضب منها شيب كثيرًا.

ولم يكن شيب غاضبًا. فى البداية لم يمانع فى كون جوليا متزوجة، بل أحب تلك الفكرة كثيرًا. أبهرته خواتمها، وأقنعها بأن ترتديها وهى تضاجعه. وفى مقر مجلة "وارن ستريت جورنال"، حيث كان يشعر أحيانًا بأنه حقير، وكأن فى داخله ولد برىء من الغرب الأوسط، كان يسره أن يتخيل رجل الدولة الأوروبى وأنه "زوج مخدوع". فى رسالة الدكتوراه الخاصة به ("واقفة فى شك: بواعث قلق السياقات القضيبية فى الدراما التودورية") كتب كثيرًا عن الأزواج المخدوعين، وتحت عباءة أطروحته العلمية الحداثية كان مبهوراً بفكرة الزواج كحق ملكية وأن الزنا سرقة.

بعد فترة قصيرة، حل محل فرحة خداع الدبلوماسى، خيالات برجوازية يرى شيب فيها نفسه زوج جوليا، رب بيتها، سيدها. أصبح يغير بشكل غير عقلانى من جيتاناس ميسيفيكيوس، والذى رغم أنه ليتوانى وصافع نساء، إلا أنه سياسى ناجح، وكانت جوليا تنطق اسمه مصحوبًا بالإحساس بالذنب والأسى. ليلة رأس السنة سألها شيب بصراحة إذا كانت تفكر في الطلاق. ردت بأنها تحب

شقتها ("ولا أحتمل الإيجار!") ولا تريد أن تبحث عن شقة أخرى فى هذه الفترة.

بعد رأس السنة، عاد شيب إلى مسودة السيناريو "الأكاديمية البنفسجية"، التى أتمها فى عشرين صفحة مكتوبة على الكمبيوتر، واكتشف أن فيها مشاكل كثيرة. بدت له فى واقع الأمر كلامًا مترهلاً غير متماسك. أثناء الشهر الذى قضاه يحتفل بإتمام السيناريو، تخيل أن بإمكانه إزالة بعض العناصر المبتذلة - المؤامرة، حادث السيارة، السحاقيات الشريرات - وأنها ستبقى قصة جيدة بعد ذلك. لكن دون هذه المشاهد المبتذلة، هيئ له أنه لا توجد قصة.

ولكى يحقق طموحاته الفنية والثقافية، أضاف مونولوجًا افتتاحيًا مسرحيًا طويلاً. لكن هذا المونولوج كان غير قابل للقراءة، لدرجة أنه فى كل مرة يشغل الكمبيوتر، يضطر لفتح الملف والتلاعب بالمونولوج والتفكير فى تعديلاته. سرعان ما بدأ يكرس كل جلسات العمل لتعديلات المونولوج. وعندما يأس من تقصيره واختزاله بأى شكل دون التضحية بعبارات مهمة وأفكار ضرورية، بدأ يتلاعب بالخط وتقسيم الفقرات والمسافات بينها حتى ينتهى المونولوج فى صفحة ٦ وليس بداية صفحة ٧ وضع كلمة "أكمل" بدلاً من "استمر" ليوفر المساحة التى يشغلها الحرف الإضافى، فى ثلاث مواضع، ثم قرر أن كلمة "أكمل" مقحمة على العبارات، فبدأ يُخلّص النص من الكلمات الطويلة الأخرى مستبدلاً إياها بكلمات أقصر، وطوال الوقت يكافح ليتخيل أن النجوم والمنتجين فى معاطف البرادا الفخمة سيستمتعون بقراءة الصفحات الست (وليس السبع!) من هذا التنظير الأكاديمى المتورم.

ذات مرة وهو صبى، حدث كسوف كلى للشمس فى الغرب الأوسط، ويومها خرجت فتاة من البلدات الصغيرة على الجانب الآخر للنهر من سان جود إلى الشرفة، وفى تحد للتحذيرات الكثيرة، راحت تدرس هلال الشمس المتآكل حتى احترقت قرنية عينيها.

قالت الفتاة العمياء لصحيفة "سان جود كرونيكل": "هى مسألة غير مؤلمة بالمرة".

كل يوم يقضيه شيب فى تجميل جثة مونولوج ميت دراميًا هو يوم يدفع فيه ثمن سكنه وطعامه وترفيهه بالأساس من نقود أخته الصغيرة. اليوم يجر اليوم، نادرًا ما يخرج من فراشه قبل الظهر. يستمتع بطعامه ونبيذه، ويرتدى ثيابًا أنيقة بما يكفى لإقناع نفسه بأنه ليس فى حالة يُرثى لها، ويتمكن فى أربع أمسيات من كل خمس من إخفاء أصعب بواعث قلقه وخوفه ويستمتع بحياته مع جوليا. لأن المبلغ المدين به لدينيس كبير مقارنة بأجره من المراجعة اللغوية وقليل بمعايير أجور هوليود، راح يعمل أقل وأقل فى مكتب براج كنوتر آند سبيج. شكواه الوحيدة كانت فى صحته. فى الأيام الصيفية التى يكون عمله فيها هو إعادة قراءة الفصل الأول، يشعر بالخوف من رداءة هذا الفصل التى لا ينفع معها علاج، فربما يسارع بالخروج لاستنشاق بعض الهواء، وقد يتمشى فى شارع برودواى ويجلس على مقعد فى ممشى باترى بارك سيتى، ويدع نسيم نهر هدسون يتسرب تحت ياقته، وينصت إلى صوت السيارات والطريق الذى لا يكل، وصيحات شباب ترايبيكا البعيدة، أبناء المليونيرات، فيغلب عليه الذنب. أن يكون بهذه الصحة والقوة وليس لديه شىء.. لا هو يستغل نوم ليلة الأمس المريح ولا نجاحه فى

تفادى الإصابة بدور برد، فى أن ينتهى من عمل ما، ولا هو يشعر بشكل كامل بروح الإجازة فيغازل نساءً لا يعرفهن ويشرب كوكتيلات المارجريتا. يقول لنفسه: كان الأفضل أن أكون مريضًا أحتضر الآن، أثناء فترة الفشل هذه، مدخرًا صحتى وحيويتى لموعد بعيد، حين ينتهى الفشل ولا يعرف كيف. من بين كل الأشياء التى ضيعها - نقود دينيس، وطيبة جوليا، وقدراته وتعليمه، والفرص التى تغدق عليه بها أطول فترة ازدهار اقتصادى فى تاريخ أمريكا - كانت صحته وسلامته الوافرتين، هنا فى ضوء الشمس إلى جوار النهر، هى التى تؤلمه أكثر من أى شىء.

نفدت منه النقود ذات جمعة فى يوليو. فى مواجهة عطلة أسبوعية مع جوليا، القادرة على أن تكلفه ١٥ دولارًا فى كشك حلوى السينما، قام بإنزال كتب الماركسية عن أرفف مكتبته وأخذها إلى الإستراند(*) فى حقيبتين ثقيلتين للغاية. كانت أغلفة الكتب الورقية ما زالت بحالتها فوق الأغلفة المجلدة الداخلية، وسعرها مجمعة باهظ، هو ٣٩٠٠ دولار. قام موظف المكتبة بتقييمها باستخفاف ثم أطلق حُكمه: "خمس وستون".

ضحك شيب بطريقة متكلفة، عاقدًا العزم على ألا يفاصل، لكن الطبعة البريطانية من كتاب يورجن هابرماس "المنطق وعقلنة المجتمع" التى وجد قراءتها صعبة للغاية، دعك من أن يكتب عن أفكار الكتاب، كلفته ٩٥ دولارًا. لم يقدر على منع نفسه من أن يشير إلى هذه النقطة على سبيل ضرب المثال.

(*) مكتبة الاستراند، عند تقاطع شارع برودواى مع شارع ١٢ فى منهاتن. أكبر مكتبة كتب مستعملة فى نيويورك، ومن الأماكن التى يرتادها المثقفون. (المترجم).

قال الموظف ويداه تتراجعان عن درج النقود: "حاول أن تبيعها فى مكان آخر إذن".

قال شيب: "لا لا، أنت محق. خمس وستون سعر عظيم".

كان من الواضح تمامًا أنه اعتقد أن كتبه ستعود عليه بمئات الدولارات. ابتعد عن الكتب، متذكرًا كيف دعاه إليه كل كتاب من هذه الكتب وهو على رفّه فى المكتبة التى اشتراه منها، واعدًا إياه بنقد راديكالى للمجتمع الرأسمالى، وكم كان سعيدًا عندما عاد بكل كتاب منهم إلى البيت. لكن يورجن هابرماس ليست لديه أطراف جوليا الطويلة الندية الجميلة كشجرة الكمثرى. تيودور أدورنو لا يتمتع برائحة جوليا العنبيةُ المخلوطة بتلك الليونة العربيدة، وليس عند فريد جيمسون لسان جوليا المُبدع الفنان. مع بداية أكتوبر، بعد أن أرسل شيب نصه المنتهى إلى إدين بروكورو، كان قد باع مجموعة كتبه عن النظرية النسوية، ونظرية البنيوية وما بعد البنيوية والفرويدية، ونظرية المثلية الجنسية. لجمع النقود اللازمة للغداء مع والديه ودينيس، أصبح كل ما تبقى له هو كتب التاريخ الثقافى المحببة إلى قلبه، وسلسلة شكسبير الكاملة طبعة "أردين"؛ ولأن ثمة سحرًا ما فى كتب شكسبير ـ مجموعة الكتب الأنيقة فى أغلفتها الزرقاء الشاحبة يكمن فيها إحساس بالملاذ الآمن ـ حشر كتب فوكو وجرينبلات وهوكس وبوفى فى حقائب شحن وباعها جميعًا مقابل ١١٥ دولارًا.

أنفق ٦٠ دولارًا على حلق شعره وبعض الحلوى وعلبة مسحوق إزالة البقع وكأسين فى بار سيدار تافيرن. فى أغسطس عندما دعا أبواه، كان يأمل أن تكون إدين بروكورو قد قرأت نصه ودفعت له

مقدم قبل وصولهما، لكن الآن ليس متاحًا له إلا هدية واحدة يمكنه تقديمها، هى وجبة منزلية. ذهب إلى محل بقالة "إيست فيلادج" الذى يبيع التورتيلينى الممتاز والخبز المحمص. خطر له أن يعد غداءً إيطاليًا بسيطًا وأنيقًا يمكنه تحمل ثمنه. لكن يبدو أن محل البقالة أفلس، ولم يشعر بالقدرة على سير عشرة بلوكات إلى المخبز الذى كان متأكدًا أنه سيجد فيه الخبز الجيد، من ثم راح يجول فى إيست فيلادج على غير هدى، من محل الطعام الفخم هذا إلى ذاك. أخيرًا تخلى عن فكرة الغداء الإيطالى تمامًا وركز تفكيره على الغداء الوحيد الذى يعتقد أنه قادر على تحمل تكلفته، سلاطة بالخبز البرى والأفوكادو وصدور ديك رومى مدخنة. المشكلة الآن هى العثور على ثمرات الأفوكادو الجيدة. من متجر إلى آخر، إما لا يجد أفوكادو بالمرة أو أفوكادو صلب كالصخر. وجد أفوكادو ناضج، لكن بحجم الليمون، وسعره ٣,٨٩ دولارًا للثمرة الواحدة. وقف ممسكاً بخمس ثمرات يفكر ماذا يفعل. وضع الثمرات مكانها ثم التقطها مرة أخرى ثم وضعها غير قادر على اتخاذ قرار. أحس بموجة من الكراهية لدينيس تعتريه لأنها أثارت فيه الإحساس بالذنب مما دعاه لدعوة أبويه للغداء. أحس وكأنه لم يأكل شيئًا فى حياته غير الأرز البرى بالسلاطة والتورتيلينى.. خياله الغذائى غير خصب بالمرة.

حوالى الساعة الثامنة انتهى به المطاف أمام متجر "كابوس الاستهلاك" الجديد المعروف باسم ("لكل شىء.. ثمن!") فى شارع جراند. الرطوبة غلفت السماء، وراحت رياح كبريتية تهب من شارعى زاهواى وبايون. الشواشى العليا لبرجوازية سوهو وترايبيكا يتدفقون أسرابًا من بوابات المتجر المعدنية الفخمة. الرجال يدخلون

من مختلف الأحجام والأشكال، لكن النساء رشيقات فى السادسة والثلاثين، نحيفات وحوامل. كان شيب مصابًا بحساسية فى رقبته من الحلاقة، وغير مستعد لرؤية كل هؤلاء السيدات اللاتى ليس فيهن عيبًا. لكن فى الداخل، رأى عبوة خُضرة عليها علامة "سوريل، صنع فى بيليز" التجارية، بسعر ٠,٩٩ دولار.

دخل المتجر، وأمسك بسلة تسوق، ووضع فيها بعض عبوات الخضراوات الرخيصة. تسع وتسعون سنتًا. فوق بار القهوة فى المتجر شاشة عليها شريط أخبار... فواتير اليوم.. أرباح اليوم.. الأرباح ربع السنوية للأسهم.. تقديرات غير رسمية وغير ملزمة بناء على الأداء ربع السنوى الماضى/هذه المعلومات مقدمة لأغراض التسلية فقط.. و"أوكازيون القهوة اليوم". تحرك شيب بين عربات التسوق والهواتف المحمولة إلى كاونتر الأسماك، حيث وكأنه فى حلم، رأى "سلمون نرويجى، أوكازيون" بسعر معقول. أشار إلى قطعة فيليه متوسطة الحجم، وردًا على سؤال البائع: "ماذا أيضًا؟" رد باقتضاب، بما يقارب السماجة: "هذا يكفى".

السعر على قطعة الفيلية الملفوفة بأناقة كان ٤٨,٤٠ دولار. لحسن الحظ، أدى هول المفاجأة إلى تخديره تمامًا، وإلا ربما كان ليبدأ فى مظاهرة احتجاجًا على السعر، قبل أن يدرك ـ كما أدرك الآن ـ أن الأسعار فى هذا المتجر محسوبة بربع الرطل. قبل عامين، أو قبل شهرين، ربما ما كان ليقع فى خطأ كهذا.

قال: "ها ها"، وهو يرمى قطعة الفيلية ذات الثمانية وسبعين دولاراً إلى الأرض. نزل على ركبته وكأنه يربط رباط حذائه، فوضع قطعة السلمون داخل معطفه الجلدى وتحت السويتر، ثم أدخل حز السويتر السفلى فى بنطلونه، ثم نهض من جديد.

سمع صوتًا ضئيلاً يقول من خلفه: "بابا، أريد سمكة أبو سيف".

تراجع شيب خطوتين، فأفلتت قطعة السلمون - وكانت ثقيلة للغاية - من السويتر وانسابت إلى مفرق فخذيه، للحظة واحدة، وكأنها أداة لحماية القضيب.

"بابا، أريد سمكة أبو سيف!"

وضع شيب يده على مفرق فخذيه. أحس بقطعة الفيليه حفاظة باردة مُحملة بالأعباء. غيّر وضعها بحيث انحرفت إلى موضع مريح، ثم أمّن السويتر أكثر، ورفع سحاب المعطف حتى رقبته، ثم انتقل فى جدية إلى أرجاء المتجر الأخرى. وعند ركن منتجات الألبان، عثر على مجموعة من الجبن دوبل كريم الفرنسية بأسعار خيالية. الجبن الكريم المنزلية الصنع الأقل سعرًا كان يقف أمامها رجل على رأسه قبعة فريق اليانكيز للبيسبول، وكان يصرخ فى تليفونه المحمول بينما طفلة، يبدو أنها ابنته، تقشر بأصابعها ورقة علبة زبادى فرنسية. كانت قد قشرت خمس أو ست علب بالفعل. مال شيب للأمام ليصل إلى مبتغاه من وراء الرجل، لكن بطنه المعبأة بالسمكة أنذره بما لا يحمد عقباه. قال: "بعد إذنك".

كالسائرون نيامًا تنحى الرجل جانبًا.. "أقول يلعنه.. يلعنه! يلعنه ابن الوسخة! نحن لم نقفل بالمرة، ولا شىء من هذا القبيل. حبيبتى، لا تفتحى العلب، لو فتحتها فسوف نضطر لدفع ثمنها. قلت قرار البيع بالأمس عظيم، ولن نشترى شيئًا حتى تهدأ الأمور. ولا شىء! ولا شىء! إطلاقًا".

راح شيب يقترب من طابور الكاشير ومعه أربعة أشياء رخيصة فى سلته، ثم لمح رأسًا عليها شعر لامع لدرجة أنه ربما كان يخص

إدين بروكورو. وكانت بدورها، امرأة رشيقة فى السادسة والثلاثين. ابن إدين الصغير، أنطونى، كان جالسًا فى الجزء العلوى من عربة التسوق وظهره لكومة ضخمة فى عربة تسوق عامرة بالأصداف والجبن واللحوم والكافيار، لا يقل ثمنها عن الألف دولار. كانت إدين تميل على أنطونى، وقد تركته يداعب ورقة ماركة حقيبتها الإيطالية، ويلامس بلوزتها بلسانه، بينما وخلف ظهره، تقلب هى صفحات أوراق تمنى شيب لو لم تكن السيناريو الذى كتبه. كانت السمكة النرويجية تسرب مياهها من داخل الورقة الملفوفة فيها، وحرارة جسده تذيب الدهون التى كانت تمنح قطعة الفيليه درجة معينة من التماسك. أراد أن يهرب من هذا الكابوس، لكنه لم يكن مستعدًا لمناقشة "الأكاديمية البنفسجية" فى الظروف الراهنة. انحرف إلى حارة باردة فى المتجر، حيث المثلجات والآيس كريم فى ثلاجات بيضاء. رأى رجلاً يرتدى بدلة رسمية يجلس القرفصاء إلى جوار فتاة صغيرة شعرها كالنحاس فى ضوء الشمس. كانت الفتاة ابنة إدين، أبريل، والرجل هو زوج إدين، دوج أوبراين.

قال دوج: "كيف الأخبار يا شيب لامبرت؟"

يبدو أن لا سبيل هنالك لشيب لأن يُمسك بسلة البقالة بينما يصافح يد دوج المربعة سوى أن يقف وقفة الفتيات المهذبة.

قال دوج: "أبريل تختار حلوى ما بعد العشاء".

قالت أبريل: " ثلاث (تحليات)".

"نعم، (تحلياتها) الثلاث".

قالت أبريل وهى تشير بإصبعها: "ما هذا الصنف؟"

"هذا آيس كريم جريناداين-ناستورتيوم سوربيتو يا حبيبتى".

"هل أنا أحبه؟"

"لا أعرف بصراحة".

دوج، الذى كان أصغر وأقصر من شيب، دأب بإصرار على الزعم بأنه منبهر بثقافة شيب، من ثم لم يعد ممكنًا لشيب أن يعتبره فى أى وقت من الأوقات يسخر منه بأى شكل، بعد أن تيقن من أن دوج معجب به بإخلاص. كان الإعجاب مرهقًا.

قال دوج وهو يعيد بعض عبوات الآيس كريم إلى أماكنها: "إدين قالت لى إنك انتهيت من السيناريو. أنا منبهر يا رجل. يبدو أنه مشروع عبقرى".

كانت أبريل تكوم ثلاث عبوات آيس كريم بيدها على سترتها المُضلعة.

سألها شيب: "ماذا اخترتِ؟"

هزت أبريل كتفها بشكل مبالغ فيه، هزة كتف مبتدئة.

"حبيبتى، خذى هذه الحلوى إلى ماما. سأتكلم مع شيب قليلاً".

وهو يرى أبريل تجرى مسرعة فى المتجر، تساءل شيب عن إحساس الأب لطفلة، أن يكون المرء مطلوبًا دائمًا، بدلاً من أن يكون طالباً.

قال دوج: "أردت سؤالك عن شىء. هل عندك وقت؟ إذا عرض عليك شخص ما شخصية جديدة، فهل تقبلها؟ إذا قال لك أحدهم:

سأغير أسلاك مخك بأى شكل تريده. فهل ستدفع نقوداً مقابل عمل كهذا؟"

كانت ورقة السلمون ملتصقة بجلد شيب بعد أن غمرها العرق، وبدأت تنفتح من القاع. ليس هذا بالوقت المناسب لأن يكون نديم دوج المثقف، كما يبدو من سؤاله، لكن شيب يهمه أن يبقى رأى دوج فيه جيداً وأن يشجع إدين على شراء نصه. سأل دوج لماذا سأل هذا السؤال.

قال دوج: "هناك أمور جنونية كثيرة تمر بمكتبى. خصوصًا الآن، مع تدفق كل هذه النقود من البلاد الأخرى علينا. كل هذه الأشياء الإنترنتية، دوت كوم، إلخ، هذا الكلام. ما زلنا نحاول بكل قوة إقناع المواطن الأمريكى العادى بأن يهندس بسعادة مشاكله المالية الضخمة. لكن مجال التقنية الحيوية ممتاز ومدهش. قرأت دراسات عن القرع. الناس فى هذا البلد على ما يبدو يأكلون القرع أكثر مما كنت أتخيل، والقرع حامل للأمراض أكثر مما قد تتخيل من قشرته الصلبة. إما هذا أو الخيار الجنوبى الذى توفره شركة "كوكوم تيك"، سعر الرطل ٣٥ دولارًا. ما علينا. المهم يا شيب، مسألة العقل هذه يا رجل، لقد لفتت انتباهى. المدهش بالأساس هو أنه مسموح لى بالحديث عن الفكرة. إنها فى نطاق المعلومات العامة. أليس هذا غريباً؟"

راح شيب يحاول تركيز عينيه على دوج وكأنه مهتم ويركز فى الكلام، لكن أحس بعينيه كأعين الأطفال، تريدان الانزلاق إلى كل شىء عداه. كان على وشك الخروج من جلده، بالمعنى الحرفى للكلمة.. قال معلقًا: "صح، غريب فعلاً".

قال دوج: "الفكرة هى إعادة تأهيل لمنطقة الدماغ. دع الجدران الخارجية والسقف، واستبدل جدران المخ الداخلية والسباكة. صمم كما تشاء الديكور الداخلى، ثم ضع منظم دوائر كهربية حديث لمخك".

"أمممم".

قال دوج: "لابد أن تحافظ على واجهتك الوسيمة. لابد أن تبقى جادًا ومثقفًا، شبيه بأهل الشمال قليلاً، من على الأطراف. مفيقًا، محباً للكتب. لكن فى الداخل أنت أكثر حيوية وبساطة. حجرة معيشة كبيرة فيها كل معدات التسلية المطلوبة. مطبخ أدفأ وأكثر نفعًا. بالإضافة إلى فرن القناعات، وآلة مكعبات الثلج فى باب الثلاجة".

"هل ما زلت أعرف نفسى؟"

"هل تريد ذلك؟ الجميع سيعرفونك على كل حال، على الأقل سيعرفونك من الخارج".

توقفت شاشة "فواتير اليوم" الكبيرة اللامعة للحظة عند رقم ٤٤٤٤٧,٤١ دولار ثم زاد الرقم من جديد.

قال شيب: "أثاثى هو شخصيتى".

"قل إن الموضوع إعادة تأهيل تدريجى. قل إن عمال الصيانة نظيفون للغاية. ألمخ ينجلى كل ليلة بعد أن تعود لبيتك من العمل، ولا أحد يمكنه أن يزعجك فى الإجازات، من واقع إيقاع الحياة هنا ومن واقع القيود التقليدية المألوفة. المسألة برمتها تحدث على مراحل.. تستوعبك ببساطة. أو أنت تستوعبها ببساطة، لو شئنا الدقة. لا أحد يجبرك على شراء أثاث جديد".

"أنت تسأل سؤالاً افتراضياً".

رفع دوج إصبعه وقال: "الشيء الوحيد المهم هنا، أن الموضوع قد يشمل بعض المعدن. من الممكن أن يؤدى المعدن لانطلاق جرس الإنذار فى المطار. أتخيلك واسمك يمر عبر أثير موجة لاسلكية أمنية ما، غير مرغوبة. وربما تجد جاتوراد والمشروبات الأخرى ذات تركيز الإلكترولايتس العالى مشكلة. لكن ما قولك؟"

"أنت تمزح، صح؟"

"افتح الويب سايت. سأعطيك عنوانه. آثاره مزعجة ومقلقة لكن لا سبيل لوقف هذه التكنولوجيا الجديدة.. ربما سيصبح هذا شعار عصرنا، أليس كذلك؟"

قطعة فيلية السلمون انتشرت فى ملابس شيب الداخلية مثل دودة عملاقة عريضة دافئة، وكأنها هى شاغلة عقله الأولى، ومعها ـ كشاغل لعقله ـ بعض القرارات البائسة التى اتخذها عقله. منطقيًا، كان شيب يعرف أن دوج سيدعه يمضى لحاله قريبًا وأنه فى نهاية المطاف قد يهرب من "كابوس الاستهلاك" ويجد دورة مياه فى مطعم يمكنه فيها أن يُخرج الفيليه ويستعيد إمكانياته الخاصة بنظريات النقد كاملة، أن تأتى لحظة يصبح غير واقف فيها وسط علب الآيس كريم الباهظة وفى بنطلونه سمكة، وتلك اللحظة المستقبلية ستكون لحظة راحة لا تُقارن، لكنه الآن ما زال يسكن لحظة سابقة عليها، أقل راحة، من منظورها كانت مسألة "العقل الجديد" هى تذكرة الخلاص.

* * *

قالت إنيد: "كانت الحلوى مكومة عاليًا، على ارتفاع قدم".. قالت

لها غرائزها إن دينيس لا تهتم بأهرامات الجمبرى، "كانت أنيقة أناقة بالغة. هل رأيت من قبل شيئاً كهذا؟"

قالت دينيس: "أنا واثقة أنها كانت جميلة جدًا".

"آل دريبلت يفعلون كل شيء بأناقة، مستوى سوبر ديلوكس. لم أر حلوى بهذا الشكل من قبل. هل رأيت مثلها؟"

كانت الإشارات الخفية المنبعثة من دينيس لتعينها على صبرها – الأنفاس الأعمق قليلاً، وكيف تقلب شوكتها بلا صوت فى طبقها وتأخذ رشفة نبيذ من كأسها وتعيده لمكانه ـ أصعب على إنيد من أن تنفجر ابنتها فى وجهها بعنف.

قالت دينيس: "رأيت حلوى طويلة".

"هل عملها صعب للغاية؟"

طوت دينيس يديها فى حجرها وتنفست ببطء، "يبدو أنه كان حفلاً عظيمًا. يسعدنى أنك استمتعت".

استمتعت إنيد، فعلاً، فى حفل دين وتريش، حتى إنها تمنت أن تكون دينيس هناك لترى بنفسها كم كان حفلاً فخمًا أنيقًا. فى الوقت نفسه كانت تخاف ألا تجد دينيس الحفل أنيقًا بالمرة، أن تنتقد دينيس أناقته وتفرده حتى لا يبق منه أى شيء، غير كل ما هو عادى. ذوق ابنتها على حد علمها ثقب أسود، بقعة سوداء فى ذاكرتها، يمكن أن تتسرب منه متعها وتنفد.

قالت: "أعتقد أن الأذواق ليست واحدة".

قالت دينيس: "هذا صحيح. رغم أن بعض الأذواق أفضل من الأخرى".

كان ألفريد منكبًا على طبقه ليضمن أن تقع أى قطع سلمون أو فاصوليا خضراء تسقط من شوكته فى الطبق الصينى. كان ينصت للكلام. قال: "كفى".

قالت إنيد: "هذا ما يراه الجميع. الجميع يرون ذوقهم هو الأفضل".

قالت دينيس: "لكن أغلب الناس على خطأ".

قالت إنيد: "لكل شخص الحق فى ذوقه، الجميع يصوتون فى الانتخابات فى هذا البلد".

"للأسف!"

قال ألفريد لدينيس: "كفى. لن تريحين أبدًا".

قالت إنيد: "ما هذا التكبر؟!"

"أمى، لطالما قلت لى كم تحبين الطعام المنزلى. هذا ما أحبه بدورى. أعتقد أن مسألة الحلوى بارتفاع قدم فيها ابتذال من نوع ديزنى لاند. أنت أمهر فى الطهى من...".

هزت إنيد رأسها وهى تقول: "لا لا لا، لست طاهية بالمرة".

"هذا ليس صحيحًا بالمرة! من أين تظنين أننى...".

قاطعتها إنيد: "ليس منى. لا أعرف مصادر موهبة أبنائى. لكن ليس منى، أنا فى الطهى لا شىء، صفر كبير" (كم كان مريحًا هذا الكلام! كأن تصب ماءً مغليًا على طفح جلدى مزمن).

اعتدلت دينيس فى جلستها ورفعت كأسها. راحت إنيد ـ التى أمضت حياتها غير قادرة على مقاومة مراقبة ما يحدث فى أطباق

الآخرين - تراقب دينيس وهى تأخذ فى طبقها قطعة سلمون تكفى لثلاث قضمات، والقليل من السلاطة، وكسرة خبز. حجم كل من هذه المكونات يقارب حجم ما أخذته إنيد على شوكتها. فرغ طبق دينيس ولم تزد من أى صنف من الطعام.

قالت إنيد: "أهذا كل ما ستأكلينه؟"

"نعم، هذا غدائى".

"نقص وزنك".

"لا لم يحدث فى الواقع".

"لا تفقدى المزيد من الوزن إذن". قالتها إنيد وهى تضحك ضحكة خفيفة حاولت أن تخفى بها أحاسيس كبيرة.

راح ألفريد يحاول توجيه شوكة السلمون واللصوص إلى فمه. راح الطعام يتساقط من شوكته وينكسر إلى قطع صغيرة.

قالت إنيد: "أعتقد أن شيب أحسن الاختيار. أليس كذلك؟ السلمون لين وطيب المذاق".

قالت دينيس: "لطالما كان شيب طاهيًا ماهرًا. آل، هل تستمتع بطعامك؟ آل؟"

اهتزت مسكة ألفريد لشوكته. انسال الطعام السائل على شفته السفلى، وظهر ارتياب كئيب فى عينيه.

قالت إنيد: "هل تستمتع بغدائك؟"

* * *

أمسك يده اليسرى بيمناه وضغط عليها. استمرت اليدان المتعانقتان فى توحدهما فيما راح يحدق فى زهور عباد الشمس

وسط المائدة. بدا وكأنه يتجرع المرار من فمه، ليمنع خروج إحساسه بالاضطهاد من أعماقه.

قال: "شيب أعد كل هذا الطعام؟"

"نعم".

هز رأسه وكأن قيام شيب بالطهى، ثم تغيب شيب عنهم الآن، غلب على مشاعره. قال: "انزعاجى من مرضى يزيد".

هز رأسه: "قال هيدجبث إنه مرض لا يمكن التنبؤ بمساره".

قالت إنيد: "المهم أن تستمر فى عمل الأشياء. أن تستمر نشطًا، أن تتقدم دائمًا".

"لا. أنت لم تسمعى ما قلته. هيدجبث حريص كل الحرص على ألا يعدنى بأى شئ".

"طبقًا لما قرأته.."

"لا أهتم إطلاقًا بما قالته لك مقالة مجلتك. أنا لست بخير، وهيدجبث أقر بهذا".

أعادت دينيس كأسها إلى مكانه على المنضدة بحركة جامدة، بعد أن فردت ذراعها على امتداده.

سألتها إنيد بإشراق: "إذن ما رأيك فى وظيفة شيب الجديدة؟"

"وظيفته؟"

"قصدى عمله فى وول ستريت جورنال".

راحت دينيس تتأمل تفاصيل مفرش المائدة، "لا رأى لى فى هذا الأمر".

"شىء مثير، أليس كذلك؟"

"لا رأى لى فيه".

"هل تعتقدين أنه يعمل بوظيفة كاملة؟ دوام كامل؟"

"لا".

"لا أفهم ما هذه الوظيفة".

"أمى، لا أعرف شيئًا عنها".

"هل ما زال يمارس المحاماة؟"

"تقصدين المراجعة اللغوية؟ نعم".

"إذن ما زال فى ذلك المكتب".

"ليس محاميًا يا أمى".

"أعرف أنه ليس محام".

"عندما تقولين "يمارس المحاماة" و"ذلك المكتب"، هل تقولين هذا الكلام لصديقاتك؟"

"أقول إنه يعمل فى مكتب محاماة. هذا كل ما أقوله. شركة محاماة بمدينة نيويورك، وهذه هى الحقيقة. فهو يعمل فى شركة محاماة".

قال ألفريد: "هذا تضليل، وأنت تعرفين أنه تضليل".

"ربما الأفضل ألا أقول أى شىء إطلاقًا".

قالت دينيس: "قولى ما هو حقيقى فقط".

قالت إنيد: "أعتقد أن عليه أن يعمل بالمحاماة. أعتقد أن

المحاماة عمل نموذجى لشيب. فهو يحتاج لوظيفة مستقرة. يحتاج لوجود هيكل ما لحياته. كان أبى يرى أنه سيصبح محاميًا ممتازًا. وكنت أراه طبيبًا، لأنه كان مهتمًا بالعلوم، لكن بابا دائمًا ما قال إنه يراه محاميًا. أليس كذلك يا آل؟ ألا ترى أن شيب سيصبح محاميًا ممتازًا؟ إنه لبق جداً، سريع الكلام".

"إنيد، الوقت تأخر على هذا الكلام".

"حسبت أنه إذا عمل فى مكتب المحاماة فربما يهتم بالعودة للدراسة".

"فات الميعاد".

"الموضوع يا دينيس أن هناك أشياء كثيرة للغاية يمكن عملها بالقانون. يمكن أن يكون المرء رئيس شركة، أو قاضيًا، أو دكتور جامعى يدرس القانون، أو صحفى. هناك اتجاهات كثيرة متاحة لشيب".

قال ألفريد: "سيفعل شيب ما يريد أن يفعله. لم أفهم هذا يومًا، لكنه لن يتغير الآن".

* * *

سار مسافة بلوكين فى المطر قبل أن يرن الهاتف. عند أول تليفونين عموميين، كانت سماعة أحدهما قد تعرضت للخصى، وتدلت أسلاك ملونة من طرفها، وكل ما تبقى من العدّة الأخرى أربعة ثقوب فى جدار الكابينة. التليفون عند التقاطع التالى كان فى فتحة إدخال عملاته علكة، والخط فى العدّة الأخرى المجاورة لتلك العدّة بلا حرارة بالمرة. الطريقة التقليدية لرجل فى وضع شيب لإخراج غضبه هى تحطيم السماعة على الكابينة وترك بقايا

البلاستيك على الأرض، لكن شيب كان فى عجلة من أمره ليس عنده وقت لهذا الترف. عند تقاطع فيفث آيفينيو، جرب هاتفًا فيه حرارة لكن لم يستجب له عندما ضغط الأزرار اطلب الرقم، ولم يعد له الربع دولار بعد أن وضع السماعة مكانها، ولم يعدها له بعد أن رفعها مرة أخرى وصفقها بقوة. الهاتف الآخر كان فيه حرارة وأخذ نقوده، لكن سمع رسالة مسجلة مستفزة تقول إنها لم تفهم الرقم الذى طلبه، ولم تعد له نقوده. حاول مرة ثانية وخسر الربع دولار الأخير.

ابتسم للسيارات الملاكى الضخمة التى راحت تزحف إلى جواره، على أهبة الاستعداد لضغط الفرامل خوفًا من هذا الطقس السيئ. أمن البنايات فى هذا الحى يرشون الرصيف بالخرطوم مرتين يوميًا، وتمر عربات الرش الضخمة ذات المقشات كشوارب رجال شرطة المدينة، ثلاث مرات أسبوعيًا، لكن فى مدينة نيويورك لا تضطر أبدًا للمشى كثيرًا حتى تعثر على القذارة والغضب. رأى لافتة قريبة بدا أنها تقول "فيفث آفينيو". الهواتف المحمولة قتلت تليفونات الشوارع. لكن على النقيض من دينيس، التى اعتبرت التليفونات المحمولة إكسسوارات فجة لأشخاص (محدثين نعمة)، وعلى النقيض من جارى الذى لم يكن يكرهها بل اشترى واحدًا لكل من أولاده الثلاثة، كان شيب يكره الهواتف المحمولة بالأساس لأنه ليس عنده واحدًا.

فى حماية مظلة دينيس التى لا تغنى ولا تثمن من جوع، عاد إلى محل بقالة فى شارع "يونيفرستى بليس". تم وضع أوراق كرتون بنية فوق المشاية أمام الباب، لكن الكرتونة مشبعة بالماء وترتجف، شظاياها أشبه بعشب البحر المغسول. عناوين الصحف فى الأرفف

السلك إلى جوار الباب تنبئ بانهيار اقتصاد دولتين جديدتين فى أمريكا الجنوبية، والمزيد من الانهيار فى أسواق الشرق الأقصى. وراء الكاشير بوستر اليانصيب: "المسألة ليست مسألة فوز، بل مسألة استمتاع".

بدولارين من دولاراته الأربعة فى المحفظة، اشترى شيب بعض حلوى الريبسوس الطبيعى الذى يحبه. أعطاه البائع أربعة أرباع دولار وبالرابع، قال: "سآخذ ورقة يانصيب أيضًا".

لم يبد أن الرقم الذى كشطه رقم رابح، أو ممتع.

"هل يوجد تليفون عمومى هنا يعمل؟"

قال البائع: "لا يوجد تليفون عمومى".

"أقول: هل يوجد تليفون عمومى فى المنطقة يعمل؟"

"لا يوجد تليفون عمومى!" مد البائع يده تحت الكاونتر وأخرج هاتفًا محمولاً قائلاً: "هذا تليفون!"

"هل يمكن أن أتكلم منه مكالمة سريعة؟"

"تأخر الوقت على الاتصال بسمسار البورصة. كان يجب أن تتصل بالأمس. كان يجب أن تشترى أسهم شركة أميريكان".

ضحك البائع بطريقة مهينة أكثر منها مداعبة. لكن شيب عنده الأسباب الكافية ليشعر بالحساسية. منذ تم فصله من جامعة د، تضخم سوق البورصة الخاص بالشركات الأمريكية الحكومية بنسبة 35فى المائة. فى نفس فترة الاثنين وعشرين شهراً تلك، أجهز شيب على مكافأة التقاعد، وباع سيارة جيدة، وعمل بنصف دوام بأجر أقل من الحد الأدنى، وانتهى به المطاف على مشارف الفصل ١١ من

النص الذى يكتبه. هذه هى الأعوام التى كان من المستحيل ألا تحنى فيها فى أمريكا النقود، الأعوام التى حرر فيها موظفو الاستقبال فى الفنادق شيكات ماستركارد لسماسرتهم بنسبة عمولة تبلغ ١٣,٩ فى المائة، واستمروا فى جنى الأرباح رغم ذلك، أعوام الشراء، أعوام الاتصالات، وقد فاتت الفرصة على شيب. كان يعرف جيداً، بيقين تام أنه إذا باع "الأكاديمية البنفسجية" يوماً فسوف يحدث تضخم فى كل الأسواق قبل أسبوع من ضخه لاستثماراته فى السوق، وسوف يخسر كل شىء.

من رد فعل جوليا السلبى على نصه، يبدو أن الاقتصاد الأمريكى ما زال آمناً لفترة ليست بالقصيرة.

فى الشارع، عند بار "سيدار تافيرن" عثر على تليفون عمومى يعمل. يبدو أن سنوات مرت منذ شرب كأسين هنا ليلة الأمس. اتصل بمكتب إدين بروكورو ثم وضع السماعة عندما سمع صوت البريد الصوتى، لكن ربع الدولار كان قد رحل. وجد فى دليل التليفون عنواناً سكنياً لدوج أوبراين، وقد رد عليه دوج فى واقع الأمر، لكنه كان يغير الحفاظة للطفل. مرت دقائق قبل أن يتمكن شيب من سؤاله إن كانت إدين قد قرأت نصه بعد.

قال دوج: "مشروع مذهل، مدهش. أعتقد أنه كان معها عندما خرجت".

"هل تعرف أين ذهبت؟"

"شيب، أنت مُدرك أن ليس بإمكانى إخبار الناس بمكانها. أنت تعرف".

"أعتقد أنه يمكن تصنيف المسألة بصفتها عاجلة".

برجاء وضع ٨٠ سنتاً لتتحدث دقيقتين إضافيتين..

قال دوج: "يا ربى، تليفون عمومى. هل هذا تليفون عمومى؟"

غذى شيب التليفون بآخر ربعين معه وقال: "أحتاج لاستعادة السيناريو منها قبل أن تقرأه. هناك تصحيحات أريد.."

"ليست هذه مشكلة الأثداء، أليس كذلك؟ إدين قالت إن جوليا لم يعجبها كثرة الأثداء. لا تقلق. بشكل عام، لا يوجد ما يمكن اعتباره "كثير". مرت جوليا بأسبوع صعب".

برجاء وضع ٣٠ سنتًا.. الآن..

قال دوج: "ماذا قلت؟"

لتتحدث دقيقتين.. الآن..

"الأرجح أنك ستجدها فى.."

وإلا انقطعت مكالمتك.. الآن..

"دوج؟ دوج؟ لا أسمعك"

نعتذر لك..

"نعم أنا هنا، كنت أقول، لم لا تذهب.."

إلى اللقاء.. كان هذا صوت الشركة، ثم انقطعت الحرارة عن التليفون، وأرباع الدولارات الضائعة تغيب فى بطنه. كان المكتوب على العدّة: أورفيك تيليكوم، ٣ دقائق ٢٥ سنتًا، كل دقيقة إضافية ٤٠ سنتاً.

المكان الذي يرجح أن تجد فيه إدين هو مكتبها في ترايبيكا.
تقدم شيب من البار متسائلاً إن كانت بائعة البار الجديدة، وهي شقراء تبدو وكأنها من محبي الفرق الموسيقية التي تُحيي حفلات الثانوية، قد تتذكره بما يكفي منذ ليلة أمس لأن تأخذ رخصة قيادته رهنًا مقابل ٢٠ دولارًا على سبيل القرض. كانت ومعها اثنان من الزبائن يشاهدون مباراة كرة قدم ما في مكان ما. وبالقرب من ذراع شيب، آه، أقرب من مسافة ستين بوصة، عش من النقود فئة ١ دولار. مستلقية كما اتفق. خطر له أن عملية نظيفة للحصول على النقود (نشل النقود، مع عدم الظهور هنا مرة أخرى، ثم تعيد النقود بالبوسطة، من مجهول، إلى السيدة فيما بعد) ربما كانت أكثر أمانًا من طلب سلفة. ربما الانحطاط هو الذي يحميه من الجنون. كوّر بعض النقود في يده ثم اقترب من الساقية الجميلة، إلا أنها استمرت في النظر إلى الرجلين الجالسين أمامها، فدار على عقبيه وغادر البار.

وهو في المقعد الخلفي لتاكسي، يراقب مقار الشركات المبتلة تمرق إلى جواره، وضع حلوى الريسوس في فمه. إن لم يتمكن من استعادة جوليا، فهو يريد أن ينام مع الساقية بأي شكل. كانت تبدو في التاسعة والثلاثين من عمرها. يريد أن يملأ يديه بشعرها الدخاني، يتخيلها تعيش في مسكن بالإيجار قديم، تم تجديده، في شارع "فيفث إيست"، يتخيلها وهي تشرب زجاجة بيرة وقت النوم وتنام في تي شيرت بلا أكمام وشورت رياضي، وهي متعبة، صرّتها مثقوبة معلقة فيها فردة حلق، فرجها كقفاز بيسبول قديم ناعم، أظافر أصابع قدميها ملونة بمانيكير أحمر رخيص. اعترته رغبة في أن يشعر بساقيها حول ظهره، يريد أن يسمع قصة أعوامها

الأربعين. تساءل إن كانت فى الواقع مغنية روك، تغنى فى حفلات الزفاف والطهور.

من نافذة التاكسى قرأ لافتة عليها كلمة "رياضى"، قرأها: "مثير للشفقة"، وقرأ "عقارات إمباير": "عقارات فامباير".

هو نصف هائم بالحب بإنسانة لم يعرفها قط. سرق تسعة دولارات من امرأة تكد فى العمل، وكانت تستمتع بلعب كرة القدم الأمريكية وهى فى الجامعة. حتى إن عاد فيما بعد وعوضها عما أخذه وأعتذر، فسوف يظل دائمًا الرجل الذى سرقها وهى تدير له ظهرها. رحلت من حياته إلى الأبد، لا يمكنه أبدًا أن يمرر أصابعه فى شعرها، ولم تكن بادرة جيدة، أن خسارته العاطفية الأخيرة جعلت أنفاسه قصيرة. ليست بادرة جيدة أنه لم يعد قادرًا على مص المزيد من الريسوس لعلاج الألم الذى يعتصره.

قرأ "أقلام كروس" على أنها "قضيب غاضب"، وقرأ "تعديلات" على أنها "مشاجرات".

قرأ فى نافذة بائع نظارات: "فحص الرؤوس".

المشكلة هى النقود، ومهانة الحياة دونها. كل عربة طفل وكل تليفون محمول وكل قبعة يانكيز وكل سيارة عائلية تمر به: عذاب. لم يكن راغبًا فى هذه الأشياء، لم يكن حاقدًا، لكن دون النقود أين الرجولة أين.

لكم تغير منذ فصلته جامعة د من العمل! لم يعد راغبًا فى العيش فى عالم آخر، لا يريد إلا أن يصبح رجلاً بكرامة فى هذا العالم. وربما كان دوج محقًا، ربما الأثداء فى نصه لا تهم. لكن أخيرًا فهم.. أخيرًا عرف.. أنه يمكنه ببساطة شطب وتمزيق ذلك

المونولوج المسرحى الافتتاحى كاملاً. يمكنه عمل هذا التصحيح فى عشر دقائق فى مكتب إدين.

أمام مكتبها أعطى سائق التاكسى الدولارات التسعة التى سرقها جميعًا. عند الناصية، كان طاقم تصوير سينمائى يصور على الشارع المكونة أرضيته من أحجار البازلت، أنوار التصوير مبهرة، مولدات الكهرباء رديئة الرائحة تحت المطر. كان شيب يعرف قواعد الأمن فى بناية إدين، وأن المصعد مُتاح لغير السكان. دعا الله ألا تكون إدين قد قرأت النص بعد. النسخة المُصححة الجديدة فى رأسه هى النص الصحيح الوحيد لكن المونولوج الافتتاحى القديم ما زال موجودًا وسط أوراق النسخة التى مع إدين.

من وراء زجاج الباب الخارجى فى الطابق الخامس رأى أنوار مكتب إدين مضاءة. كان جوربه مبتلاً حتى النخاع ورائحة معطفه كرائحة بقرة مبتلة على شاطئ البحر، ولا سبيل أمامه لتجفيف يديه أو شعره، وهو بالطبع أمر غير سار، لكنه ما زال مستمتعًا أنه لا يوجد داخل بنطلونه قطعة سلمون فيليه تزن رطلين. بالمقارنة، أحس أنه فى حال جيدة.

طرق على الزجاج حتى خرجت إدين من مكتبها ونظرت إليه. كانت عظام وجنتى إدين عالية وعيناها زرقاواتين وشعرها رفيع شفيف. أى سعرات حرارية إضافية تستهلكها على الغداء فى لوس أنجلوس مثلاً أو تشربها فى كوكتيلات المارتينى فى منهاتن تحرقها فى حجرة الجيم فى بيتها، أو فى نادى السباحة الخاص، أو فى الجنون العام لكونها إدين بروكورو. كانت فى العادة مشتعلة بالحماس، ملتهبة، سلك من النحاس العارى الساخن، لكن تعبير

وجهها الآن، وهى تقترب من الباب، متردد وحائر. راحت تسترق النظرات إلى مكتبها من ورائها.

أشار لها شيب بيده بما يفيد أنه يريد الدخول.

قالت إدين من وراء الزجاج: "إنها ليست هنا".

أشار لها شيب ثانية أن تُدخله. فتحت إدين الباب ووضعت يدها على قلبها: "شيب، أنا فى منتهى الأسف لأنك أنت وجوليا..."

"أنا أبحث عن نصى. هل قرأته؟"

"أنا...؟ أحتاج لأن أقرأه مرة أخرى. أريد لتدوين بعض الملاحظات عليه!" رفعت إدين أصابعها إلى جوار وجنتها وحركتها وكأنها تكتب بقلم وضحكت.

قال شيب: "ذلك المونولوج الافتتاحى. لقد حذفته".

"جيد، يعجبنى استعدادك للحذف. يعجبنى جداً". نظرت مرة أخرى إلى مكتبها.

"هل تعتقدين أنه، دون المونولوج..."

"شيب، هل تحتاج إلى نقود؟"

ابتسمت إدين له بطريقة مرحة صريحة، فشعر وكأنه رآها وهى مخمورة، أو دون بنطلونها.

قال: "بصراحة، أنا على الحديدة".

"لا لا بالطبع، لكن يعنى".

"لماذا السؤال؟"

قالت: "وما علاقتك بالإنترنت؟ هل تعرف لغة الجافا؟ الإتش تى إم إل؟"

"لا طبعًا".

"طيب تعال إلى مكتبى للحظة، هلا دخلت؟ تفضل".

سار شيب وراء إدين إلى مكتب جوليا، حيث كان الأثر الوحيد من جوليا على المكتب دمية ضفدعة معلقة على إطار شاشة الكمبيوتر.

قالت إدين: "الآن بعد أن افترقتما، لا يوجد سبب يمنعك من.."

"إدين، ليس فراقًا".

"لا لا، صدقنى، الأمر انتهى. انتهى تمامًا. وأعتقد أن عليك تغيير الجو قليلاً، حتى تتجاوز الـ...".

"إدين، اسمعينى، جوليا وأنا نمر بمشكلة لحظية و..."

"لا يا شيب. آسفة، ليست لحظية، بل نهائية". ضحكت إدين مرة أخرى وقالت: "ربما جوليا ليست واضحة فى كلامها، لكنى كذلك. لذا عندما أفكر فى الأمر، لا يوجد سبب يمنعك من أن تقابل..." أخذت شيب إلى حجرتها.. "جيتاناس؟ يا لحسن الحظ، وجدت الرجل المناسب للوظيفة".

فى مقعد إلى جوار مكتب إدين كان يجلس رجل فى عمر شيب، يرتدى "جاكيت أحمر" جلدى و"جينز أبيض" ضيقًا. كان وجهه عريضاً أشبه بوجوه الأطفال، وشعره صدفة شقراء منحوتة.

كانت إدين فى قمة الحماس. "تخيل كم رحت أفكر يا جيتاناس، لا يخطر على بالى من يكون مساعدك، بينما أفضل شخصًا

للوظيفة فى مدينة نيويورك يطرق على بابى! شيب لامبرت.. هل تعرف مساعدتى جوليا؟" غمزت بعينها لشيب.. "هذا زوج جوليا، جيتاناس ميسيفيكيوس".

كان جيتاناس - من كل النواحى، درجة لون البشرة وشكل الرأس والطول والبنية، وخصوصًا الابتسامة المتعبة الخجولة المرتسمة على وجهه - هو الأقرب لشكل شيب عن أى شخص يتخيله شيب. كان مثل شيب بالإضافة إلى وضع قبيح فى الجلوس وأسنان معوجة. أومأ له برأسه فى عصبية دون أن ينهض أو يمد له يده ليصافحه. قال: "كيف الحال".

ضربت إدين بيدها على ظهر مقعد خال. قالت له: "اجلس اجلس اجلس".

كانت ابنتها أبريل جالسة على الكنبة الجلدية إلى جوار النوافذ، ومعها كمية من الألوان الشمع وورقة.

قال شيب: "أبريل، كيف كانت التحلية؟"

يبدو أن السؤال ليس على هوى أبريل.

قالت إدين: "سوف تتذوقها الليلة. بالأمس أكلت كثيرًا".

قالت أبريل: "لم آكل كثيراً".

كانت الورقة على حجر أبريل بيضاء عاجية وهناك كلام مكتوب على ظهرها.

قالت إدين بحماس بالغ: "اجلس! اجلس!" وهى تتراجع إلى مكتبها. كانت النافذة الكبيرة وراءها ينهمر عليها المطر. وهناك ضباب فوق نهر هدسون. ودخان مسود يوحى بأن تلك المنطقة التى

يسرى فيها هى نيوجيرسى. وعلى جدران إدين كان معلقًا إعلانات أفلام لكيفين كلاين وكلوى سيفيجنى ومات دامون ووينونا رايدر.

قالت لجيتاناس: "شيب لامبرت كاتب لامع، ومعه نص قيد الكتابة، هو معى الآن، ومعه دكتوراه، فى اللغة الإنجليزية، وعلى مدار العامين الأخيرين كان يعمل مع زوجى فى مجال دمج الشركات وبيعها وشرائها، وهو عبقرى فى موضوع الإنترنت، كنا نتحدث منذ لحظة أنا وهو عن لغات الجافا والإتش تى إم إل، وكما ترى، فهو أنيق و..." هنا للمرة الأولى انتبهت إدين لمظهر شيب، فاتسعت عيناها. "لابد أن السماء كانت تمطر كلابًا وقططًا. شيب فى العادة لا يبدو مبتلاً للغاية هكذا (عزيزى أنت مبتل جداً). بصراحة تامة يا جيتاناس، لن تجد من هو أفضل منه. و، شيب، يسرنى للغاية أنك جئت (رغم أنك مبتل جداً)".

يمكن لرجل وهو وحده مع إدين أن يتحمل حماس إدين ويضاهيه، لكن رجلين سيجلسان يحدقان فى الأرض للحفاظ على كرامتهما فى مواجهة هذا الكلام وفى مواجهة أحدهما الآخر.

قالت إدين: "للأسف وقتى قليل الآن. جيتاناس مرّ علىّ على غير ميعاد. لكم أود أن تذهبا إلى حجرة الاجتماعات وتتفقان على كل شىء، وخذا ما شئتما من الوقت".

عقد جيتاناس ذراعيه بطريقة أوروبية، وكور قبضتيه تحت إبطيه. لم ينظر إلى شيب لكنه سأله: "هل أنت ممثل؟"

"لا".

قالت إدين: "شيب، ليس هذا صحيحًا تمامًا".

"بل هو كذلك، لم أمثل فى حياتى قط".

"ها ها ها! شيب متواضع!"

هز جيتاناس رأسه ونظر إلى السقف.

المؤكد أن الورقة فى يد أبريل ورقة من سيناريو.

قال شيب: "عم نتحدث تحديداً؟"

"جيتاناس يبحث عن شخص يعمل معه فى..."

قال جيتاناس بقرف: "ممثل أمريكى".

"ليساعده فى... أعمال علاقات عامة. ومنذ أكثر من ساعة وأنا..." نظرت إدين إلى ساعتها وسمحت لعينيها وفمها باصطناع صدمة عارمة.. "أحاول أن أشرح أن الممثلين الذين أتعاون معهم مهتمون بالعمل السينمائى والمسرحى أكثر من، برامج الاستثمار الدولية. وهم بطبعهم يميلون للإحساس بتضخم الذات والتكبر. وما أحاول توضيحه لجيتاناس هو أنك يا شيب، لست متمكنًا فحسب من اللغة وكلام المثقفين، بل أيضًا ليس عليك التظاهر بأنك خبير فى الاستثمار. فأنت خبير فى الاستثمار أصلاً".

قال شيب: "أنا مراجع لغوى أعمل بدوام جزئى".

"خبير فى اللغة. كاتب سيناريو موهوب".

تبادل شيب وجيتاناس النظرات. هناك شىء ما فى شيب، ربما الخصال البدنية المشتركة، أثار اهتمام الرجل الليتوانى. قال جيتاناس: "هل تبحث عن وظيفة؟"

"ربما".

"هل أنت مدمن؟"

"لا".

قالت إدين: "لابد أن أذهب إلى الحمام. أبريل، عزيزتى، تعالٍ معى، هاتى رسوماتك".

قفزت أبريل عن الكنبة فى طاعة ومضت إلى إدين.

جمعت إدين الأوراق العاجية وأخذت أبريل وهى تقول: "هاتى أوراقك يا حبيبتى، هاتى. تحدثوا أنتم يا رجال".

وضع جيتاناس يدًا على وجهه وضغط بها وجنته المكورة، وراح يخدش شعر لحيته القصير الأشقر بإصبعه، ثم نظر إلى النافذة.

قال شيب: "أنت تعمل فى الحكومة".

أمال جيتاناس رأسه: "نعم ولا، كنت كذلك لسنوات. لكن حزبى انتهى أمره. أنا رجل أعمال الآن. رجل أعمال حكومى إن شئت القول".

سقطت إحدى رسومات أبريل على الأرض بين النافذة والكنبة. مد شيب إصبع قدمه وجذب الورقة إليه.

قال جيتاناس: "عندنا انتخابات كثيرة. لم يعد أحد يغطيها للإعلام الدولى. نعقد ثلاثة أو أربعة انتخابات فى العام الواحد. الانتخابات هى صناعتنا الكبرى. عندنا أعلى معدل سنوى من الانتخابات، أكثر من أى بلد فى العالم. أكثر من إيطاليا نفسها".

رسمت أبريل بورتريًا لرجل جسده عصى طفولية وأطرافه لطخ من ألوان الشمع، لكن الرأس كانت كتلة سوداء بنية، كتلة غير منتظمة. من وراء السطح العاجى للورقة رأى شيب ما يأخذ هيئة حوار على الجانب الآخر للصفحة.

قال جيتاناس: "هل تؤمن بأمريكا؟"

قال شيب: "يا ربى، من أين أبدأ؟"

"بلدك أنقذنا لكنه دمرنا أيضًا".

بإصبع قدمه رفع شيب أحد أركان ورقة رسم أبريل فتعرف على الكلمات...

مونا

(وهى تحتضن المسدس)

ما العيب فى أن أكون عاشقة لنفسى؟

لماذا تعتبر هذه مشكلة؟

... لكن الورقة أصبحت ثقيلة للغاية، أو بات إصبعه ضعيفًا للغاية. ترك الورقة ترقد على حالها ثانية. أبعدها إلى ما تحت الكنبة. بردت أطرافه وأحس بشىء من الخدر. دارت الدنيا فى عينيه.

قال جيتاناس: "روسيا أفلست فى أغسطس. ربما سمعت بهذا؟ على النقيض من انتخاباتنا، تمت تغطية هذه الأنباء جيدًا. هذه أنباء اقتصادية. هى مهمة للمستثمر، وهى مهمة أيضًا فى ليتوانيا. شريكنا التجارى الأساسى الآن أصبح مشلولاً مدينًا بالعملة الصعبة لا نفع منه ولا رجاء. نحاول أن نخمن، هل يدفعون بالدولار أم بالروبل، حتى يشتروا بيض دجاجنا. ولشراء "عفشة" عربات النقل من مصنع عفشة عربات النقل، وهو المصنع الجيد الوحيد لدينا. سوف يدفعون بالروبل. لكن باقى الشاحنة مصنوع فى فولجوجراد، ومصنع الشاحنات أقفل. فلن نحصل إذن على ما يكفى من الروبل".

وجد شيب صعوبة فى الإحساس بالحسرة على "الأكاديمية البنفسجية". لن ينظر إلى هذا السيناريو مرة أخرى أبدًا، لن يعرضه على بشر... ربما راحته الآن أكبر من راحته فى حمام الرجال بمطعم فانيلى، حيث أخرج السلمون من بنطلونه.

من أعماق أكوام الأثداء والفواصل والنقاط والهامش بقدر بوصة من طرف الصفحة، أحس بنفسه ينهض على عالم غنى متنوع، كان ميتًا بالنسبة له، منذ متى؟ سنوات.

قال لجيناتاس: "أنا مهتم بما تقوله لى".

وافقه جيناتاس قائلاً: "الأمر مدهش، مدهش"، وهو ما زال يحتضن نفسه بحماس: "قال برودسكى إن السمك الطازج قوى الرائحة دائمًا، والسمك المجمد لا تصدر عنه رائحة إلا عندما يذوب. إذن، بعد الذوبان الكبير، عندما يخرج السمك الصغير كله من المبرد، سوف نفرح بهذا وذاك. هذا جزء من الموضوع. جزء أصيل منه. لكن الاقتصاد إدارته سيئة. قضيت وقتى الطيب فى نيويورك، لكن فى بلدى، هناك كساد. ثم، فى عام ١٩٩٥ مثلاً عومنا عملتنا الوطنية مع الدولار وبدأنا فى الخصخصة، بسرعة بالغة. لم يكن قرارى، لكن ربما كنت لأتخذ نفس القرار. البنك الدولى معه النقود التى نحتاجها، والبنك الدولى يقول خصخصوا، فبعنا الميناء، وبعنا شركة الطيران، وبعنا شركة التليفون. دائمًا ما كان صاحب أعلى سعر أمريكى، وأحيانًا من غرب أوروبا. لم يكن من المفترض أن يحدث هذا، لكنه حدث. لم يكن مع أحد فى العاصمة فيلنيوس أى نقود. وقالت شركة التليفون لا بأس، سوف يصبح مُلاكنا أجانب بجيوب دافئة، لكن الميناء وخط الطيران ما زالا ليتوانيين مائة فى

المائة. الناس فى الميناء وخط الطيران فكروا بنفس الشكل. لكن ما زلنا بخير. العاصمة تزدهر، اللحم عند الجزار أفضل، والشحم الذى لا يريده أحد أقل. حتى الطقس يبدو ألطف. أغلب العملة الصعبة أخذها المجرمون، لكن هذا هو واقع ما بعد الاتحاد السوفيتى. بعد الذوبان، تشم رائحة العفن. برودسكى لم يعش ليرى ما حدث. لا بأس إذن، لكن اقتصاد دول العالم بدأ ينهار، تايلاند، البرازيل، كوريا، وهذه مشكلة، لأن كل رأس المال يركض ركضًا إلى وطنه، إلى الولايات المتحدة. اكتشفنا مثلاً أن الخط الجوى الوطنى الليتوانى تملك ٦٤ من أسهمه شركة "كواد سيتيس فاند"، وهى؟ صندوق استثمار يديره شاب صغير اسمه دال مايرز. لم تسمع أنت من قبل عن دال مايرز، لكن كل مواطن بالغ عاقل فى ليتوانيا يعرف اسمه".

يبدو أن حكاية الفشل هذه تثير اهتمام جيتاناس كثيرًا. مر وقت طويل منذ أحس شيب بهذا الإحساس القوى بالإعجاب بشخص ما. أصدقاؤه المثليون فى جامعة "د" والناس فى "وارين ستريت جورنال" كانوا صريحين للغاية ومباشرين فى ثقتهم به، فكانوا يشعرونه بألفة ودفء حقيقيين، وكان رد فعله إزاء الرجال غير المثليين ضمن فئة من اثنتين، منذ فترة طويلة: الخوف أو الحقد على النجاح، الهرب من حبائل الفشل. لكن ثمة شيئًا فى كلام جيتاناس أعجبه.

قال جيتاناس: "دال مايرز يعيش فى شرق ولاية أيوا، دال مايرز عنده اثنان من المساعدين وكمبيوتر كبير واستثمارات بقيمة ثلاثة مليارات دولار. دال مايرز يقول إنه لم يكن ينتوى حيازة نصيب كبير من خطنا الجوى الوطنى. دال يقول إنها كانت عملية شراء أسهم عادية. يقول إن أحد مساعديه أدخل بيانات بالخطأ أدت لأن يزيد

الكمبيوتر من نصيبه من الأسهم فى الخطوط الجوية الليتوانية دون أن يبلغه بإجمالى استثماراته المتراكمة فيها. اعتذر دال لجميع الليتوانيين على هذه الهفوة. دال يقول إنه يفهم أهمية الخط الجوى لاقتصاد الدولة واحترامها لذاتها. لكن بسبب الأزمة فى روسيا والبلطيق، لا أحد يريد تذاكر على الخطوط الجوية الليتوانية. من ثم، سحب المستثمرون الأمريكان نقودهم من صندوق استثمار كواد سيتيس. السبيل الوحيد المتاح لدال لكى يفى بالتزاماته هو أن يصفى أكبر فئة من فئات أصول شركة خطوط ليتوانيا الجوية، وهو أسطول طائراتها. سوف يبيع ست طائرات ليؤسس بها شركة طيران فى نوفا سكوتيا. فى الواقع فعل هذا بالفعل، أمس. وهكذا.. يا خسارة.. راحت شركة الطيران".

قال شيب: "أخ!".

أومأ جيتاناس برأسه بقوة: "نعم! نعم! نعم! من سوء الحظ أنه لا يمكنك أن تطير على جناح عفشة عربات النقل! ثم قامت مجموعة شركات أمريكية اسمها أورفيك ميدلاند ببيع ميناء كاوناس. وحدث هذا مرة أخرى بين ليلة وضحاها. هووب! أخ! ثم قام بنك من بنوك ضواحى مدينة أطلانطا فى جورجيا بالتهام ستين فى المائة من البنك الليتوانى الوطنى. قام بنك الضواحى، ضواحيكم، ببيع احتياطى العملة الصعبة فى بنكنا. بنككم ضاعف سعر الفائدة التجارية على العملة الصعبة بين ليلة وضحاها.. لماذا؟ لكى يغطى الخسائر التى تكبدها من مبيعات ماستركارد فى قرية ديلبرت. أخ! أخ! أخ! لكن مسألة مثيرة للاهتمام، أليست كذلك؟ ليست ليتوانيا باللاعب الناجح، أهى كذلك؟ ليتوانيا فشلت فشلاً ذريعًا!".

قالت إدين التى عادت إلى مكتبها وأبريل فى ذيلها: "كيف حالكم يا رجال؟ ربما تريدان استخدام حجرة الاجتماعات؟"

وضع جيتاناس حقيبة على حجره وفتحها وهو يقول: "أوضح لشيب مشكلتى مع أمريكا".

قالت إدين: "أبريل، حبيبتى، اجلسى هنا". كان معها كومة كبيرة من الأوراق المطبوعة عليها أخبار، ووزعتها على الأرض قرب الباب.. "هذه الأوراق أفضل لك. يمكنك أن ترسمى الآن رسمة كبيرة. مثلى، مثل ماما. ارسمى رسمة كبيرة".

جلست أبريل القرفصاء وسط الأوراق ورسمت دائرة خضراء حول نفسها.

قال جيتاناس: "طلبنا من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى المساعدة. بما أنهم شجعونا على الخصخصة، ربما يهمهم أن دولتنا المخصخصة أصبحت منطقة من الأناركية، وأمراء الحرب المجرمين، ومزارع لا توفر الكفاف. للأسف ينظر صندوق النقد الدولى فى شكاوى الدول العميلة لديه المفلسة من واقع إجمالى الدخل القومى للدولة. ليتوانيا كانت تحتل المرتبة السادسة والعشرين يوم الاثنين الماضى، فى القائمة. الآن نحن فى المرتبة الثامنة والعشرين. باراجواى سبقتنا. دائمًا ما تسبقنا باراجواى".

قال شيب: "أخ".

"باراجواى لسبب ما هى سبب شقائى".

قالت إدين: "قلت لك يا جيتاناس إن شيب مدهش. لكن اسمع..."

"صندوق النقد الدولى يقول إنه يتوقع أن تمر فترة ست وثلاثين شهرًا قبل أن تبدأ خطة إنقاذنا!"

جلست إدين بعنف على مقعدها: "هل يمكن أن ننهى المناقشة سريعًا؟"

أظهر جيتاناس لشيب ورقة من حقيبته. "أترى؟ هذه ورقة من الإنترنت، وثيقة من وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب الشئون الأوروبية والكندية.. مكتوب هنا: الاقتصاد الليتوانى مصاب بكساد ضخم، البطالة تبلغ عشرين فى المائة تقريبًا، الكهرباء والمياه تنقطع فى فيلنيوس، وهى نادرة فى الأماكن الأخرى. من هو المستثمر الذى سيضخ أموالاً فى بلد كهذا؟"

قال شيب: "رجل أعمال ليتوانى؟"

"نعم، أضحكتنى".. نظر إليه جيتاناس نظرة تقدير.. "لكن ماذا لو كنا بحاجة لشىء مختلف على صفحة الإنترنت هذه والصفحات الشبيهة بها؟ ماذا لو حذفنا المكتوب هنا ووضعنا مكانه، بلغة إنجليزية أمريكية سليمة، أن بلدنا هرب من الوباء المالى الروسى؟ كأن نقول مثلاً إن معدل التضخم الليتوانى يبلغ حاليًا ستة فى المائة، وأن نصيب الفرد الليتوانى من احتياطى الدولار يعادل نصيب الألمانى، وأن فائض التجارة يقارب المائة مليون دولار، بسبب استمرار الطلب القوى على الموارد الطبيعية الليتوانية!".

قالت إدين: "شيب، ستكون ممتازًا فى هذا الدور".

قرر شيب فى هدوء وثبات ألا ينظر إلى إدين أو يقول لها كلمة واحدة طالما هو حى.

سأله شيب: "ما هى الموارد الطبيعية الليتوانية؟"

قال جيتاناس: "الرمال والحصى بالأساس".

"احتياطيات مهولة من الرمال والحصى. حسن".

قال جيتاناس وهو يغلق الحقيبة: "الرمال والحصى بوفرة. لكن، ها هو اختبار صغير لك: لماذا هذا الطلب غير المسبوق على هذه الموارد العجيبة؟"

"ازدهار مفاجئ فى الإنشاءات فى لاتفيا وفنلندا القريبتين؟ فى لاتفيا الفقيرة فى الرمال؟ فى فنلندا التى يغيب عنها الحصى؟"

"وكيف أفلتت هاتان الدولتان من الانهيار الاقتصادى العالمى؟"

"لاتفيا عندها مؤسسات ديمقراطية قوية مستقرة. وهى عصب مالى قوى لدول البلطيق. فنلندا تضع قيودًا مشددة على رأس المال الأجنبى قصير الأجل، ونجحت فى إنقاذ صناعة الأثاث الفنلندية ذائعة الصيت على مستوى العالم".

أومأ الليتوانى برأسه، والسرور ظاهر على وجهه. ضربت إدين مكتبها بقبضتيها وقالت: "يا ربى يا جيتاناس، شيب عبقرى! إنه يستحق مكافأة إضافية عند توقيع العقد، وسكن درجة أولى فى فيلنيوس وبدل وجبات بالدولار".

قال شيب: "فيلنيوس؟"

قال جيتاناس: "نعم، نحن نبيع وطنًا. نريد زبونًا أمريكيًا راضيًا عن الأداء داخل الوطن. كما أن العمل على الإنترنت من هناك أكثر أماناً بكثير".

ضحك شيب: "هل تتوقع فعلاً أن يرسل لك مستثمرون أمريكان النقود؟ على أى أساس؟ بسبب نقص الرمال فى لاتفيا؟"

قال جيتاناس: "إنهم يرسلون النقود بالفعل على أساس مزحة صغيرة لعبتها عليهم. ولا حتى الرمل والحصى، بل مجرد مزحة صغيرة. عشرات الآلاف من الدولارات بالفعل. لكن أريد منهم إرسال الملايين".

قالت إدين: "جيتاناس يا عزيزى، هذه هى اللحظة المناسبة. لن تجد موقفًا أكثر ملاءمة لتصعد سريعًا. فى كل مرة يضاعف شيب لك أرباحك، لابد أن تعطيه علاوة إضافية. صح؟ صح؟"

"إذا رأيت زيادة بقدر مائة ضعف فى الأرباح، ثقى بىَ، سوف يصبح شيب رجلاً ثريًا".

"لكننى أقول: لم لا نجعل هذا الاتفاق كتابيًا؟"

نظر جيتاناس فى عين شيب، وأعلمه فى صمت برأيه فى مضيفتهما: "إدين، فى هذه الورقة، ماذا سنكتب على سبيل وظيفة شيب؟ استشارى تزوير تحويلات نقدية دولى؟ مساعد متآمر أول؟"

قال شيب: "نائب رئيس هيئة التحريف مع سبق الإصرار والترصد".

صرخت إدين فى استمتاع: "مسمى رائع!"

قالت أبريل: "انظرى يا ماما".

قال جيتاناس: "اتفاقنا شفهى بالأساس".

قالت إدين: "بالطبع، لا شىء غير قانونى بالمرة فيما تفعلونه".

أجاب جيتاناس سؤالها بأن نظر إلى النافذة طويلاً. كان يبدو بالجاكيت الأحمر الجلدى المضلع كسائق موتوسيكلات سباق. قال: "بالطبع لا".

قالت إدين: "إذن ليس هذا احتيالاً فى التحويلات النقدية".

"لا لا، احتيال وتحويلات؟ لا".

"لا أريد أن أبدو خائفة أو أى شىء، لكن ما سمعته هو الأقرب للاحتيال من أجل الحصول على تحويلات نقدية.

قال جيتاناس: "أصول بلدى جمعاء اختفت فى بلدكم بكل يسر وسرعة. هناك دولة قوية غنية وضعت القواعد التى يموت بها الليتوانيون. لماذا أحترم هذه القواعد؟"

قال شيب: "هذا سؤال جدير بأن يناقشه فوكو بالضرورة".

قالت إدين: "هو أيضًا سؤال جدير بروبن هود. وهو ما لا يطمئننى على الصعيد القانونى".

"أنا أعرض على شيب خمسمائة دولار أسبوعيًا، ومكافآت إضافية بالشكل الذى أراه. شيب، هل أنت مهتم؟"

قال شيب: "يمكننى جنى نقود أفضل هنا".

قالت إدين: "فلتكن ألف يوميًا على الأقل".

"الدولار يشترى الكثير فى فيلنيوس".

قالت إدين: "أنا واثقة من هذا، وهو يشترى أكثر بكثير على القمر أيضاً. ماذا هناك للشراء؟"

قال جيتاناس: "شيب، قل لإدين إن الدولارات قادرة على شراء الأوطان الفقيرة".

قال شيب: "أعتقد أنكم تأكلون وتشربون جيدًا".

"دولة نشأ جيلها الشاب فى حالة من الأناركية الأخلاقية، والجوع".

"ربما ليس صعبًا أن تجد فتاة رائعة تليق بك، إن كان هذا ما تقصده".

قال جيتاناس: "إن لم يفطر هذا فؤادك، أن ترى فتاة عذبة صغيرة من الضواحى تتكب على ركبتيها لـ..."

قالت إدين: "أخ! يا جيتاناس، هناك طفلة فى الحجرة".

قالت أبريل: "أنا فى جزيرة. ماما، انظرى إلى جزيرتى".

قال جيتاناس: "أنا أتحدث عن الأطفال. فى الخامسة عشرة من العمر. هل معك دولارات؟ قد يصل السن إلى ثلاثة عشرة أو اثنتى عشرة سنة".

قال شيب: "اثنتى عشرة سنة ليس من المغريات بالنسبة لى".

"تفضل تسعة عشرة؟ تسعة عشرة أرخص".

قالت إدين وهى تصفق بيديها: "هذا بصراحة، إمم".

"أريد أن يفهم شيب لماذا يعتبر الدولار نقوداً كثيرة. لماذا يعتبر عرضى الذى أقدمه له عرضًا جيدًا".

قال شيب: "مشكلتى أننى سأسدد ديونًا أمريكية بهذه الدولارات".

"صدقنى نحن نعرف هذه المشكلة جيدًا فى ليتوانيا".

قالت إدين: "شيب يريد راتبًا أساسيًا بمقدار ألف دولار يوميًا، بالإضافة إلى حوافز بحسب الأداء".

قال جيتاناس: "ألف دولار أسبوعيًا. حتى أثبت جدية مشروعى. مقابل العمل الإبداعى.. لطمأنة المتصلين".

قالت إدين: "واحد فى المائة من إجمالى الربح. بالإضافة إلى راتبه، عشرون ألف دولار شهريًا".

أمسك جيتاناس وهو يتجاهلها بمظروف سميك أخرجه من الجاكيت، وبدأ يعد بأصابعه طويلة الأظافر أوراق بنكنوت، كل ورقة بمائة دولار. جلست أبريل القرفصاء على رقعة الورق البيضاء، محاطة بوحوش خرافيين من شخبطات بعدة ألوان. ألقى جيتاناس كومة المئات على مكتب إدين. قال: "ثلاثة آلاف، الأسابيع الثلاثة الأولى".

قالت إدين: "ويحصل أيضًا على تذاكر طيران درجة أولى بالطبع".

"نعم، لا بأس".

"وإقامة درجة أولى فى فيلنيوس".

"هناك حجرة فى الفيلا، بسيطة".

"وتحميه من أمراء الحرب المجرمين أيضًا؟"

قال جيتاناس بابتسامة متعبة خجولة: "ربما كنت أمير حرب مجرم، إلى حد ما".

نظر شيب إلى كومة الورق الأخضر على مكتب إدين. شىء ما فى الموضوع أثاره جنسيًا، ربما البنكنوت، أو فكرة الفتيات، يانعات، فى التاسعة عشر من العمر، أو ربما فكرة ركوب طائرة وقطع مسافة خمسة آلاف ميل بينه وبين كابوس حياته فى مدينة

نيويورك. ما يجعل المخدرات مثيرة للغاية دائمًا هو الفرصة التى تتيحها لأن تتبدل وتصبح غيرك. بعد أعوام اكتشف أن الماريجوانا لا تُدخل عليه إلا البارانويا والأرق، وما زال يشعر بالإثارة الجنسية من فكرة تدخينها. ما زال ملهوفًا لهفة حسية على ذلك المهرب.

لامس أوراق المائة.

قالت إدين: "لم لا أدخل على الإنترنت وأحجز لكما تذاكر طائرة؟ يمكنكما السفر فورًا".

تساءل جيتاناس: "إذن هل ستؤدى هذه المهمة؟ العمل كثير لكنه ممتع. الخطر قليل لكن لا يوجد شىء بلا خطر. لا يغيب الخطر فى وجود النقود".

قال شيب وهو يلامس أوراق البنكنوت فئة المائة: "مفهوم".

* * *

فى رغد حفلات الزفاف تجتاح إنيد محبة "المكان" القوية.. للغرب الأوسط بشكل عام وسان جود بلدة الضواحى تحديدًا.. هذا بالنسبة لها هو الإحساس الوطنى الوحيد والمتنفس الروحانى الصادق وليس غيره شىء. الحياة فى كنف رؤساء فاسدين كنيكسون وأغبياء كريجان ومثيرين للاشمئزاز ككلينتون، جعلتها تفقد الاهتمام بالتلويح بالعلم الأمريكى، ولم تتحقق أى معجزة دعت الرب أن يحققها لها، لكن فى حفلات زفاف أيام السبت فى موسم الليلك، عند مذبح كنيسة بارادايس فالى البريسبيتارية، تطل حولها، لترى مائتين من الناس لطيفى المعشر، وليس بينهم إنسان فاسد واحد. كل أصدقائها رائعون وأصدقاؤهم رائعون، وبما أن الناس الرائعين يربون أبناء رائعين، فقد كان عالم إنيد وكأنه ممشى فى

حديقة ينمو فيها العشب الأزرق كثيفاً لدرجة أن الشر يختنق فيها بكل بساطة.. معجزة من الروعة. إذا - على سبيل المثال - كانت إحدى بنات إستر وكيربى رووت هى التى تتقدم إلى مذبح الكنيسة ويدها فى يد كيربى والدها، تتذكر إنيد عندما رأت ابنة رووت الصغيرة وهى ترتدى زى راقصة الباليه التنكرى يوم عيد الهالوين، ويوم راحت تبيع كعك زهور الكشافة، ويوم جالست دينيس وهى بعد طفلة رضيعة، وكيف بعد أن ذهبت كل بنات رووت إلى جامعات مرموقة فى الغرب الأوسط، كُن عندما يعدن إلى البيت فى الأعياد يطرقن على باب إنيد الخلفى ويطلعنها على أحوال آل رووت، بعد أن يجلسن معها ساعة أو أكثر (وليس هذا، وإنيد تعرف، لأن إستر تقول لهن أن يذهبن إليها، بل لأنهن من أبناء سان جود البررة، الذين يهتمون من حيث المبدأ بأحوال الآخرين)، وقلب إنيد يفرح عندما ترى فتاة أخرى خيّرة وعذبة من بنات رووت، تتلقى مكافأة لها على لطفها، قسم الزواج من شاب حلق شعره حلقة أنيقة، على غرار إعلانات ملابس الرجال، شاب صغير صغير رائع قويم السلوك مهذب مع الكبار ولا يؤمن بالجنس قبل الزواج، وله وظيفة تضيف القيمة إلى المجتمع، مهندس كهربائى مثلاً أو إخصائى بيولوجيا بيئية، ينحدر من أسرة محبة مستقرة تقليدية ويريد أن ينشئ أسرة محبة مستقرة تقليدية. ما لم تكن إنيد منخدعة كثيراً بالمظاهر، فالشباب من هذا الصنف مستمرون - حتى مع اقتراب نهاية القرن العشرين - فى كونهم النموذج، فى سان جود أرض الضواحى. جميع الشبان الذين عرفتهم من أيام الكشافة ومستخدمى حمامها فى الطابق السفلى، ونازحى الثلج عن عتبة بابها، صبية دريبليت الكثيرين، هؤلاء "الأشخاص"/النكرات

العديدين، توائم شومبرت اليانعين، كل هؤلاء الشبان المهندمين النظيفين (الذين كان رأى دينيس فيهم وهى فى سن المراهقة ـ لصدمة وغضب إنيد ـ مجرد "نماذج مسلية" لا أكثر)، ساروا، أو سوف يسيرون قريبًا، على مذابح كنائس البروتستانت مع فتيات لطيفات طبيعيات ويتبادلون معهن عهود الزواج ويستقرون، إن لم يكن فى سان جود نفسها، فسوف يستقرون فى نفس النطاق الزمنى على الأقل، على نفس خط الطول. الآن، ومن دواخل قلبها، حيث كانت أقل اختلافًا عن ابنتها، وعما تود أن تقر لنفسها، كانت إنيد تعرف إن بدلات التوكسيدو لها ألوان أفضل من اللون الأزرق الداكن، وأن فساتين العرائس الأفضل قماشها ليس هو الكريب دى شين البنفسجى، لكن، رغم أن الصراحة ألزمتها بأن تحجب وصف "أنيقة" عن حفلات العرس من هذا النوع، فهناك جزء أعلى صوتًا وأسعد فى قلبها يحب حفلات الزفاف هذه كثيرًا، لأن انعدام "التعقيد" فيها يطمئن الضيوف المتجمعين لوجود قيم مشتركة بين الأسرتين المتحدتين بالزواج، مهمة أكثر من المظهر والستايل. تؤمن إنيد بالزيجات المرتبة، وتكون فى أسعد حال فى حفلات الزفاف التى تقمع فيها العرائس نزواتهن الفردية الأنانية ويرتدين فساتين تتماشى مع ألوان باقات الزهور ومناشف مائدة الكوكتيل ولون كريمة التورتة وزينة الحفل. أعجبتها مراسم زواج فى كنيسة شيلتسفيل تلاها حفل زفاف فى شيراتون شيلتسفيل. أعجبها زفاف أكثر أناقة فى كنيسة بارادايس فالى تلاه حفل فى نادى ديبماير، حيث كانت دعوات الحفل (دين وتريش، ١٢ يونيو ١٩٨٧ لونها يتماشى مع اللون السائد فى مكان الحفل. الأهم هو التطابق بين العريس والعروس: من خلفيات واحدة وأعمار وتعليم متقارب.

أحيانًا فى حفلات الزفاف الخاصة بصديقات وأصدقاء إنيد الأبعد عنها، تكون العروس أثقل أو أكبر بكثير من العريس، أو أسرة العريس تنحدر من بلدة ريفية تقع شمال المركز تزرح تحت ضغط أناقة نادى ديبماير. تشعر إنيد بالتعاطف مع المضيفين فى مثل هذه الحفلات. تعرف أن الزواج سيكون جهادًا وقتالاً من أول يوم. لكن فى أغلب الحالات، يكون الحدث الناتئ الوحيد فى نادى ديبماير هو نخب قليل الذوق يتقدم به أحد أشابين العريس غير المقربين منه، ربما صديق من الجامعة، وهو عادة شاب بشارب، ودائماً ما يكون مخمورًا، ويبدو صوته وكأنه قادم من الغرب الأوسط، لكن من منطقة حضرية ما تقع إلى الطرف الشرقى، ويحاول أن يتباهى بأن يلمح مثلاً بمزاح إلى الجنس قبل الزواج، فتحمر وجوه العريس والعروس من الخجل أو يضحكان وأعينهما مغمضة (وإنيد تشعر أن هذا لا يحدث بسبب الإعجاب بالتعليق، بل لأنه رد الفعل المهذب الوحيد، فهما لا يريدان أن يدرك صاحب التعليق المسىء كم كان مسيئاً) بينما يميل ألفريد برأسه محاولاً أن يسمع ما قيل، وتجيل إنيد عينيها فى القاعة إلى أن تجد صديقة تتبادل معها تكشيرة مطمئنة.

ألفريد يحب حفلات الزفاف بدوره. هى بالنسبة له النوع الوحيد من الحفلات ذات أى هدف حقيقى. بسببها يصرح بمشتريات جديدة (فستان جديد لإنيد، وبدلة جديدة له، وطبق سلاطة فاخر كهدية للعروسين) وهى مشتريات كان ليستخدم ضدها حق الفيتو فى أى ظروف أخرى بما أنها غير عقلانية.

تطلعت إنيد ذات يوم عندما أصبحت دينيس أكبر سنًا وانتهت من دراستها الجامعية، لأن تستضيف حفل زفاف بالغ الأناقة (لكن

ليس فى نادى ديبماير، وياللحسرة، لأن أصدقاءهم الأقرب فقط، آل مايزنر، هم القادرون على تحمله تكلفته الفلكية) حفل لدينيس وشاب إسكندنافى فارع الطول عريض المنكبين، يغطى شعره الناعم المتهدل على عيوب شعر دينيس الأسمر المجعد الذى ورثته عن إنيد، وباستثناء مسألة الشعر ستكون نداً لذلك العريس فى كل شىء. وهكذا فقد تحطم قلب إنيد، عندما وذات ليلة فى أكتوبر، بعد ثلاثة أسابيع من حفل زفاف ابنة تشاك مايزنر الأسطورى، سيندى، فى ديبماير، بكل لوازم الفرح الأنيق، ونافورة الشمبانيا وطائرة هليكوبتر لنقل العروسين، وفرقة نحاسية لعزف الموسيقى، بعد ذلك الحفل العظيم اتصلت دينيس بالبيت تحمل أخباراً، أنها ومديرها ذهبا بالسيارة إلى أتلانتيك سيتى وتزوجا فى قاعة المحكمة. إنيد التى كانت قوية الأعصاب اضطرت لإعطاء السماعة لألفريد حتى تذهب وتركع على أرض الحمام وتعب أنفاساً عميقة.

الربيع السابق، فى فيلادلفيا، أكلت هى وألفريد الغداء فى مطعم "نويزى" حيث كانت دينيس تضيع شبابها وتحطم يديها. بعد الغداء، الذى كان جيداً، لكن زائد عن الحد، قدمتهم دينيس إلى "الشيف" الذى "تدرس معه وتعمل معه الآن". هذا "الشيف" هو إميل برجر، وهو يهودى قصير لا يبتسم فى أواسط العمر، من مونتريال، وفكرته عن أناقة ثياب العمل تتلخص فى ارتداء تى شيرت قديم (مثل الطباخ، وليس الشيف، هكذا فكرت إنيد، لا جاكيت ولا قبعة) وفكرته عن الحلاقة هى تجاهلها. كانت إنيد لتمقت إميل وتتجاهله حتى لو لم تكن قد عرفت من طريقة دينيس فى الاهتمام بكلامه، أن لديه تأثيراً واسعاً على ابنتها. قالت ملقية بسهام الاتهام فى المطبخ: "كعك السى فود هذا غنى بشكل زائد. قضمة واحدة

صدتنى عن الأكل". ردًا عليها وبدلاً من أن يعتذر ويبدى التواضع، كأى إنسان مهذب من سان جود، رد إميل موافقًا إياها، قال نعم، هذا هو الهدف، والمذاق طيب، وأكد أن الكعك "الخفيف" رائع وعظيم، لكن السؤال يا سيدة لامبرت، هو كيف ندير هذا الموقف؟ كيف؟ كيف نجعل كعك السى فود "خفيفًا"؟ راحت دينيس تتابع ذلك الحوار باهتمام بالغ، وكأنها تحاول حفظه عن ظهر قلب. خارج المطعم وقبل أن تعود إلى ورديه عملها التى تستغرقها ١٤ ساعة، قالت لها إنيد: "يا له من رجل قصير ضئيل! شكله يهودى جدًا!" كانت لهجتها لا تخضع لسيطرتها بالدرجة التى ودت أن تخضع لها، أحد وأرفع صوتًا من الأطراف، ورأت من نظرة دينيس المطولة إليها ومن الحدة المحيطة بفمها أنها جرحت مشاعر ابنتها. لكن كل ما فعلته هو قول الحق. وهى لا تتخيل أبدًا ـ ولا لثانية واحدة ـ أن دينيس، بغض النظر عن درجة تهورها ورومانسيتها، وبغض النظر عن عدم تعاملها بشكل عملى مع مستقبلها المهنى ـ وقد أصبحت فى الثالثة والعشرين لتوها وذات وجه جميل وقوام رائع وحياتها كلها أمامها ـ قد ترافق حقًا شخصًا مثل إميل. المسألة أنه لأى درجة يمكن للشابة أن تهدر سنوات شبابها وسحره فيما تنتظر مرور سنوات النضج، ولكن ومع موضة عدم زواج البنات فى سن صغيرة، أصبحت إنيد حقًا لا تعرف. بطريقة عامة هى تؤمن بالتواصل مع مجموعات من البشر من ثلاثة أشخاص فأكثر، تؤمن بالحفلات بمعنى آخر! هناك شىء واحد تعرفه عن يقين، وهو مبدأ اعتنقته بحماس كلما زادت السخرية منه فى وسائل الإعلام والتسلية الجماهيرية، وهو أن الجنس قبل الزواج مسألة غير أخلاقية.

لكن، فى تلك الليلة من شهر أكتوبر، وهى منكفئة على وجهها على أرضية الحمام، خطر لإنيد فكرة مُحرّمة، بأنه كان الأفضل والأكثر حكمة كأم ألا تعبأ كثيرًا بزواج الأبناء. خطر لها أن عمل دينيس المتسرع ربما كان الدافع إليه، جزئيًا على الأقل، رغبتها فى أن تتم تلك المسألة الأخلاقية فتتزوج لإرضاء أمها. مثل فرشاة الأسنان على الحوض، مثل الصرصار الميت فى السلاطة، مثل الحفاظة على مائدة العشاء، وجدت إنيد نفسها بصدد هذه المشكلة المزعجة: أنه ربما كان الأفضل لدينيس أن تستمر فى مسألة الزنا هذه، أن تنعم على نفسها بمتعة أنانية بنت لحظتها، على ألا تضيع نقاء ما يتوقعه الشبان المهذبون ولهم الحق فى توقعه، من العروس المحتملة.. خطر لها أن تستمر فى الزنا ولا تتزوج إميل. إلا أن دينيس ما كان يجب أن تنجذب إلى إميل فى المقام الأول! هى نفس المشكلة التى وجدت إنيد نفسها بصددها مع شيب، بل وحتى جارى: أبناؤها لا يطابقون المواصفات. لا يريدون الأشياء التى تريدها هى وصديقاتها وجميع أولاد صديقاتها. أبناؤها يريدون أشياءً أخرى بكل راديكالية وخزى.

فيما راحت تفكر من على أطراف وعيها فى أن سجادة الحمام مبقعة أكثر مما تخيلت ولابد من استبدالها قبل موسم الكريسماس، راحت إنيد تسمع ما يقوله ألفريد، الذى اقترح على دينيس إرسال تذكرتى طيران إليها. صدمها هدوء ألفريد فى تلقى الأنباء، معرفته أن ابنتهم الوحيدة اتخذت أكبر قرار فى حياتها دون مشاورته. لكن بعد أن وضع السماعة وعادت من الحمام قال ببساطة أن الحياة مليئة بالمفاجآت، فلاحظت كم كانت يداه ترتعشان. الارتعاشة أقوى وأكثف من تلك التى تصيبه أحياناً من شرب القهوة. وأثناء الأسبوع

التالى، فيما حاولت إنيد تحرّى أحسن النوايا إزاء دينيس عن طريق (١) الاتصال بصديقاتها المقربات وإعلانهن بكل حماس بأن دينيس ستتزوج قريبًا! بأنه رجل كندى لطيف جدًا، نعم، لكنها تريد أن يكون حفل الزفاف "على الضيق جدًا"، وسوف تقدم زوجها للجميع فى حفل استقبال بسيط فى الكريسماس (لم يصدق أى من أصدقاء إنيد أنها سعيدة، لكن أعجبتهم محاولتها إخفاء معاناتها) (٢) طبعت دون إذن دينيس مائتى بطاقة إعلان زواج، ليس فقط كى يبدو الزواج تقليديًا أكثر من حقيقته، بل أيضًا لتعود عليها بعض الهدايا من عشرات الهدايا التى قدمتها للأخريات، من أطباق السلاطة الفخمة وأطقم الأوانى التى أعطتها هى وألفريد للناس على مدار السنوات العشرين الأخيرة.. أثناء ذلك الأسبوع الطويل، كانت إنيد مدركة تمام الإدراك لارتجافة ألفريد الجديدة الغريبة، حتى إنه عندما وافق على الذهاب لطبيبه ثم أحيل إلى د. هيدجبث وشُخص بأنه مصاب بمرض باركنسن، أصر جزء يانع غر من ذكائها على ربط مرضه بإعلان دينيس زواجها للوم ابنتها بدلاً من لوم أسلوب حياتها المنحدر فى الآونة الأخيرة على مرضه، رغم إعلان الدكتور أن باركنسن مرض عضوى فى الأصل وتدريجى فى ظهور أعراضه. مع مجىء الكريسماس كان الدكتور قد أعطاها هى وزوجها منشورات وكتيبات عليها ألوان عيادة الدكتور، ورسومات خطية مؤسفة، وصور طبية مخيفة تصور لها مستقبل كئيب ومخيف، فقر فى يقين إنيد أن دينيس وإميل دمرا حياتها. كان ألفريد قد أعطاها أوامر مشددة بالترحيب بإميل فى الأسرة. وهكذا وفى حفل الاستقبال الصغير للعروسين رسمت ابتسامة على وجهها وقبلت مرة بعد المرة التهانى المخلصة من الأصدقاء القدامى

الذين يحبون دينيس ويرونها فتاة عذبة (لأن إنيد ربتها على أهمية تقدير الكبار والتعامل معهم بتهذيب) (ولكن ما تلك الزيجة إلا إصرار على العطف المفرط على الناس الأكبر؟) وإن كانت تفضل تلقى التعازى على التهانى. الجهد الذى بذلته لأن تظهر بروح رياضية وسعيدة، لأن تطيع ألفريد وتستقبل زوج ابنتها الكبير الذى بلغ من العمر أوسطه بذوق وألا تقول كلمة واحدة عن ديانته، لم يؤد بها هذا كله إلا لزيادة إحساسها بالعار والغضب، عندما وبعد خمس سنوات مع طلاق دينيس وإميل، اضطرت إنيد لنقل هذه الأنباء لصديقاتها. بعد أن حملت الزواج بمعان كثيرة، بعد أن كافحت لتقبله، أحست بأن أقل ما يمكن لدينيس أن تقدمه لها فى المقابل هو الاستمرار فى الزواج.

تساءلت إنيد: "ألا تعرفين أى شىء عن إميل؟ هل يتصل بك؟"

كانت دينيس تجفف الأطباق بعد غسلها فى مطبخ شيب. "من الحين للآخر".

ركنت إنيد إلى مائدة الطعام وراحت تقطع الكوبونات من مجلات أخرجتها من حقيبتها اليدوية العتيقة. راحت الأمطار تنهمر فى هبات قوية متفرقة تلطم زجاج النافذة. كان ألفريد جالساً على مقعد شيب الكبير مغمض العينين.

قالت إنيد: "أقول لنفسى، لو كانت الأمور سارت بشكل أفضل واستمر زواجك يا دينيس، كان إميل ليصبح عجوزاً بعد سنوات قليلة. وسوف يتطلب منك هذا عملاً شاقًا. لا تتخيلين كم المسئولية الضخمة".

قالت دينيس: "سيكون أصغر من بابا بعد خمسة وعشرين سنة من الآن".

قالت إنيد: "لا أعرف إن كنت قد كلمتك من قبل عن صديقتى من أيام المدرسة الثانوية، نورما جرين".

"تحكين لى عن نورما جرين فى كل مرة ترينني".

"إذن أنت تعرفين الحكاية. نورما قابلت ذلك الرجل، فلويد فينوفيتش، وكان جنتلمان رائع، أكبر منها بسنوات عديدة، ويعمل فى وظيفة براتب جيد، أبهرها بأدائه! دأب على اصطحابها إلى أماكن مثل موريلى وستيمر وقاعة بازيلون، والمشكلة الوحيدة كانت..."

"أمى".

أصرت إنيد ومضت قائلة: "المشكلة الوحيدة أنه كان متزوجًا. لكن نورما لم تقلق. قال فلويد إن هذا وضع مؤقت. قال إنه أخطأ خطأ كبيرًا، فقد وقع فى زيجة مؤلمة، وأنه لم يحب زوجته يومًا.."

"أمى".

أغمضت إنيد عينيها فى استمتاع: "وكان سيطلقها". كانت تعرف أن دينيس تعرف الحكاية، لكن هناك أشياء كثيرة فى حياة دينيس لا تعجب إنيد أيضًا، ومن ثم.. "استمر هذا الحال أعوامًا. كان فلويد ناعمًا وساحرًا، وقادرًا على عمل أشياء لنورما لا يمكن لرجل أقرب منها فى السن أن يفعلها. أصبحت نورما تحب الأشياء الغالية، ثم إنها قابلت فلويد فى سن يسهل فيه على الفتيات الوقوع فى الحب بكل قوة، وأقسم لها فلويد أنه سيطلق زوجته وسيتزوجها. فى ذلك الوقت كنت أنا وبابا قد تزوجنا ورزقنا بجارى. أذكر أن نورما جاءت إلينا ذات مرة عندما كان جارى صغيرًا، وكانت تريد أن تهدهده

كثيراً. كانت تحب الأطفال الصغار، وأحبت كثيراً جارى، وتعاطفت أنا معها جداً، لأنها وقتها كانت مع فلويد منذ سنوات، وما زال له يطلق. قلت يا نورما لا يمكنك أن تنتظرى إلى الأبد. قالت إنها حاولت التوقف عن مقابلة فلويد، وأنها خرجت مع رجال آخرين، لكنهم أصغر ولا تراهم ناضجين.. كان فلويد أكبر منها بخمسة عشر عاماً وناضجاً، وأتفهم تماماً النضج فى الرجال الأكبر سناً، الذى يجعلهم يبدون أكثر جاذبية من الشباب.."

"أمى".

"وبالطبع، هؤلاء الشبان لا يمكنهم دائماً تحمل ثمن الذهاب بنورما إلى أماكن فخمة أو شراء الزهور والهدايا لها كما كان يفعل فلويد (لأن، كما ترين، كان قادراً بهذه الأمور على بث السحر فى العلاقة كلما نفد صبرها منه) ثم إن الكثير من هؤلاء الشبان يريدون تأسيس أسرة، ونورما..."

"... لم تعد صغيرة. هل أجلب لك الحلوى يا ماما؟ هل أنت مستعدة للحلوى؟"

"أنت تعرفين ما حدث".

"نعم".

"حكاية توجع القلب، لأن نورما.."

"نعم، أعرف الحكاية".

"نورما وجدت نفسها..."

"أمى، أعرف الحكاية. يبدو أنك تعتقدين أن لها علاقة بحالى".

"دينيس، هذا غير صحيح. أنت لم تخبرينى يومًا عن حالك".

"إذن لماذا تحكين لى حكاية نورما جرين كلما رأيتنى؟"

"لا أعرف ما الذى يزعجك فيها إن لم تكن لها علاقة بحالك".

"ما يزعجنى أنك تعتقدين أن لها علاقة. هل تعتقدين أننى متورطة مع رجل متزوج؟"

لم تكن إنيد تعتقد هذا فحسب، بل إنها قد ثار غضبها من هذا التصور فجأة، اشتد حنقها لدرجة أنها لم وجدت صعوبة فى التقاط أنفاسها.

قالت وهى تقلب صفحات المجلة الناعمة: "أخيرًا، أخيرًا سأتخلص من بعض هذه المجلات".

"أمى؟"

"الأفضل ألا نتحدث فى هذا الموضوع. فى الجيش يقولون: لا تسأل ولن أجيب".

وقفت دينيس عند مدخل المطبخ وذراعاها معقودان على صدرها ومنشفة تجفيف الأطباق فى يدها، "لماذا تصورت أننى متورطة مع رجل متزوج؟"

قلبت إنيد صفحة أخرى فى حدة.

"هل أخبرك جارى بشىء أوحى إليك بهذا الموضوع؟"

بذلت إنيد جهدًا ضخمًا لكى تهز رأسها. ستغضب دينيس كثيرًا إذا عرفت أن جارى خان ثقتها، ورغم أن إنيد أمضت الكثير من فترات حياتها غاضبة من جارى على شىء أو غيره، فهى فخورة

بقدرتها على الاحتفاظ بالأسرار، ولا تريد أن توقعه فى مشكلة. الحق أنها تتأمل أحوال دينيس منذ شهور وتراكم غضبها كثيرًا. وهى تكوى الثياب على مائدة الكواء وهى تسوى الأسرّة وهى جالسة فى حالة من الأرق ليلاً تراجع أحكامها التى أطلقتها عليها: هذا سلوك أنانى بيّن لن أفهمه أبدًا ولن أغفره، من العار أننى أم لإنسانة تعيش على هذه الحال، فى وضع كهذا يا دينيس فأنا متعاطفة كل التعاطف مع الزوجة دونك، بنسبة ألف فى المائة، حتى إنها تاقت لإطلاق هذه الأحكام علناً أمام دينيس على أسلوب حياتها غير الأخلاقى. والآن حانت لها فرصة نطق الحُكم. ولكن إذا أنكرت دينيس الاتهامات فسوف يضيع هباء كل غضب إنيد، كل تدريبها على أحكامها التى ستعلنها. وإذا اعترفت دينيس بكل شىء، فربما يكون من الحكمة أن تسكت إنيد ولا تخاطر بشجار. إنيد تحتاج لدينيس كحليف فى معركة الكريسماس، ولا تريد أن تخرج فى رحلة بحرية فخمة وأحد أبنائها اختفى تمامًا على غير توقع، وابنها الآخر يلومها على إفشاء السر، وابنة أكدت لها أسوأ مخاوفها.

بجهد عظيم هزت رأسها إذن وقالت: "لا لا لا، جارى لم يخبرنى بأى شىء".

ضيقت دينيس عينيها: "لم يقل شيئًا عن ماذا؟"

قال ألفريد: "دينيس.. دعيها لحالها".

دينيس ـ التى لم تطع إنيد فى أى شىء من قبل ـ أولتها ظهرها وعادت إلى المطبخ.

عثرت إنيد على كوبون بعرض خصم ستين فى المائة على "لا أصدق أنها ليست زبدة!" فى حالة شراء أى شىء من محل "توماس إنجليش مفن". قطع مقصها الورقة ومعها ساد الصمت.

قالت: "لو كان هناك شيء واحد سأنجزه على ذلك المركب، فهو التعامل مع كل هذه المجلات".

قال ألفريد: "لم يأت شيب".

جلبت دينيس شرائح من التورتة في أطباق حلوى إلى مائدة الطعام. قالت: "أخشى أنكما لن تريان شيب مرة أخرى اليوم".

قالت إنيد: "شيء غريب جدًا. لا أفهم لماذا لا يتصل على الأقل".

قال ألفريد: "تحملت ما هو أسوأ من ذلك".

"أبي، ها هي الحلوى. شيف الفطائر عندي أعد تورتة كمثرى. هل تريد تناولها على المائدة؟"

قالت إنيد: "هذه القطعة كبيرة جدًا عليّ".

"بابا؟"

لم يجبها ألفريد. كان لسانه قد خمل وأحس بطعم المرارة في فمه مرة أخرى، على النحو الذي تشعر معه إنيد بأن شيئًا رهيبًا سيحدث. التفت إلى النوافذ الكابية المغمورة بالمطر وحدق فيها في جمود، وقد دلّى رأسه.

"بابا؟"

"آل؟ الحلوى".

وكأن شيئاً ما يذوب داخله. ما زال ينظر إلى النافذة، ثم رفع رأسه في فرحة مفاجئة، وكأنه أدرك وجود شيء ما في الخارج. شيء يحبه.

"آل، ما الحكاية؟"

"بابا؟"

قال وهو يعتدل فى جلسته: "هناك أطفال. هل ترونهم؟" رفع إصبعًا مرتجفًا وقال: "هناك". تحرك إصبعه جانبيًا، متابعًا حركة الأطفال الذين رآهم.. "وهناك، وهناك".

التفت إلى إنيد ودينيس وكأنه يتوقع منهما أن تغمرهما الفرحة بما أورده من أخبار، لكن إنيد لم تظهر عليها أية فرحة. كانت على وشك ركوب سفينة أنيقة للغاية، فى رحلة خريفية، من المهم على متنها ألا يرتكب ألفريد أخطاء من هذا النوع.

قالت وهى بين الغضب والتوسل: "آل، هذه زهور عباد الشمس. أنت ترى انعكاسها على النافذة".

هز رأسه وقال: "ما علينا! حسبت أننى رأيت أطفالاً".

قالت إنيد: "لا، زهور عباد الشمس، رأيت عباد الشمس".

***

قال جيتاناس إن بعد خروج حزبه من السلطة وبعد أن أجهزت أزمة العملة الروسية على الاقتصاد الليتوانى، مرت عليه أيام قضاها وحيدًا فى مكتبه القديم مكرسًا ساعات الوحدة لبناء موقع إلكترونى اسمه ليتوانيا دوت كوم، اشتراه من شخص من شرق بروسيا مقابل حمولة شاحنة من ماكينات تصوير، وطابعات ضخمة وأجهزة كمبيوتر سعة ٦٤ كيلوبايت، ومعدات مكتبية أخرى من عهد جورباتشوف.. وهى آخر المظاهر المادية لحزبه. للإعلان عن مصاب دولته الصغيرة المدينة المفلسة، أنشأ جيتاناس موقعًا ساخرًا على الإنترنت يقدم "الديمقراطية مقابل الربح: اشترى قطعة من التاريخ الأوروبى" ووضع روابط وإشارات لصفحته فى مجموعات

إخبارية أمريكية وحجرات شات "دردشة" للمستثمرين. دعا زوار الموقع لإرسال نقود على عنوان مكتبه "أحد أضعف الأحزاب السياسية الليتوانية" و"الركن الركين" لتحالف الدولة الحاكم "على مدار ثلاثة من الأعوام السبعة الأخيرة"، وصاحب أعلى نسبة أصوات فى انتخابات أبريل ١٩٩٣ العامة، وهو الآن "الحزب المائل للتواصل مع الغرب ورجال الأعمال" وهو معروف أيضًا بأنه "شركة حزب السوق الحرة". وعد موقع جيتاناس بأنه ما إن تجلب شركة حزب السوق الحرة ما يكفى من أصوات لربح الانتخابات الوطنية، فلن يصبح المستثمرون الأجانب فى الشركة "حملة أسهم" فقط فى شركة "ليتوانيا وشركاها ("دولة وأمة هادفة للربح") بل أيضًا سيكافئون بنصيب من أرباح الاستثمار، بنصب تذكارية شخصية مقابل "إسهامهم البطولى" فى "تحرير السوق" الليتوانية. بإرسال ١٠٠ دولار فقط على سبيل المثال، يستحق المستثمر الأمريكى أن يطلق اسمه على شارع فى فيلنيوس ("طوله لا يقل عن مائتى متر")، مقابل ٥٠٠٠ دولار، تعلق شركة حزب السوق الحرة بورتريه شخصى للمستثمر ("بحد أدنى ٦٠فى ٨٠سم، ويشمل المقاس الإطار الخارجى") فى صالة الأبطال القوميين بمتحف سلابيلياى. ومقابل ٢٥ ألف دولار يُكافأ المستثمر بإطلاق اسمه على بلدة "لا يقل عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة" ويُمنح حق "الإقطاع بشكل حداثى ونظيف" للمنطقة، مستوف لـ "أغلب" الشروط الواردة فى المؤتمر الدولى الثالث لحقوق الإنسان.

قال جيتاناس من ركن التاكسى الذى ركبه: "كانت مزحة شقية. لكن من ضحك؟ لم يضحك أحد. أرسلوا النقود ببساطة. عرضت على الموقع عنوانًا وبدأت الشيكات القابلة للصرف لحاملها فى

التوافد. وأسئلة على الإيميل بالمئات. ما المنتجات التى تقدمها شركة ليتوانيا وشركاها؟ ما أسماء المديرين فى شركة حزب السوق الحرة وهل لهم باع طويل كمديرين؟ هل عندى سجلات بالأرباح القديمة؟ هل يمكن أن يضع المستثمر اسم أحد أبنائه أو اسم شخصية البوكيمون المفضلة لابنه على الشارع أو القرية بدلاً من اسمه هو شخصياً؟ الجميع يريدون معلومات إضافية. الجميع يريدون منشورات ومطبوعات توضيحية، وشهادات بالأسهم، ومعلومات عن كيفية الاستثمار فى الأسهم، وهل نحن مدرجون ضمن قوائم بورصة كذا وكذا؟ وأشخاص يريدون المجىء للزيارة! ولم يضحك أحد".

راح شيب ينظر من النافذة متأملاً السيدات فى شارع سيكس آفينيو. الأمطار بدأت تهدأ والمظلات اختفت. "وهل تذهب النقود إليك أم للحزب؟"

قال جيتاناس: "فلسفتى فى هذه النقطة فى مرحلة انتقالية". وأخرج من حقيبته زجاجة أكفافيت(*) كان قد صب منها بعض الكؤوس الصغيرة فى مكتب إدين. مال إلى جواره وناول شيب الزجاجة، الذى تجرع منها جرعة ضخمة ثم أعادها إليه.

قال جيتاناس: "كنت مدرس لغة إنجليزية".

"كنت أعلم الطلبة فى الجامعة، نعم".

"ومن أين أهلك؟ إسكندنافيا؟"

قال شيب: "أبى إسكندنافى، وأمى من شرق أوروبا، مهجنة".

(*) مشروب كحولى نرويجى الأصل نسبة تركيز الكحول فيه ٤٠٪. (المترجم).

"سينظر إليك الناس فى فيلنيوس ويتصورون أنك واحد منا".

كان شيب فى عجلة من أمره، أن يذهب إلى شقته قبل أن يغادر والديه. الآن بعد أن أصبحت معه نقود فى جيبه - لفة من ثلاثين ورقة فئة المائة دولار - لم يعد يأبه لرأى أبويه فيه. فى الواقع يتذكر من بعيد أنه قبل ساعات رأى والده يتعثر فى مدخل أحد الأبواب فى المطار. وهو يشرب الأكفافيت وينظر إلى النساء على الرصيف، لم يعد يفهم لماذا أصبح شكل والده العجوز شكل قاتل أو سفاح هكذا.

صحيح أن ألفريد يرى أن الخطأ الوحيد فى عقوبة الإعدام أنها لا تُستخدم بما فيه الكفاية، صحيح كذلك أن الرجال الذين طالب بإعدامهم فى حجرة الغاز أو بالكرسى الكهربائى كانوا عادة رجال سود من أزقة الطرف الشمالى من سان جود (تقاطعه إنيد قائلة "آل!" لأن العشاء "عشاء عائلى"، ولا تفهم لماذا يمضى وقت طويل فى الحديث عن حجرات الغاز والذبح فى الشوارع). وذات صباح يوم أحد، بعد أن وقف عند النافذة يعد السناجب ويقيم الضرر اللاحق بأشجاره وشجيراته كالرجال البيض فى ضواحى المدن والمراكز الذين يتحسرون على عدد المنازل الكثيرة التى فُقدت بعد أن "راحت للسود"، جرب ألفريد تجربة إبادة جماعية. بعد أن ضايقته السناجب فى حديقته الأمامية الطويلة ولم تكف عن التناسل أو ترتيب مكان معيشتها، ذهب إلى القبو وعثر على مصيدة فئران هزت إنيد رأسها بعد أن رأتها معه لما صعد، فكان رد ألفريد: "هناك ١٩ سنجابًا، ١٩ ولم تكن الاستجداءات العاطفية كافية للنظام الذى يتبعه هذا الشخص الدقيق العلمى. وضع طُعمًا فى

المصيدة، هو خبز القمح الذى أكله شيب على الإفطار. ثم ذهبوا جميعًا إلى الكنيسة، وبين الترانيم دخل سنجاب يافع إلى المصيدة مدفوعًا بسلوك أشبه بسلوك شخص يائس اقتصاديًا، فتحطمت جمجمته. عادت الأسرة إلى البيت لتجد ذبابًا أخضر يشرب من دم ومخ السنجاب ويمضغ الخبز من فم السنجاب الشاب. انعقد فم ألفريد وذقنه باشمئزاز المقدم على أعمال تأديب، ضرب طفل، أو أكل حزمة لفت. (لم يكن واعيًا بالوقاحة التى تنبعث منه وقت قيامه بأعمال التأديب). جلب جاروفًا من الجراج وحمله بالمصيدة وجثة السنجاب، ووضع الاثنين فى حقيبة بقالة ورقية كانت إنيد قد ملأتها حتى نصفها بعشب جاف من قمامة الحديقة قبل يوم. راح شيب يتابع كل هذا من على مسافة عشرين خطوة ورائه، فرأى كيف أن ألفريد عندما دخل القبو من الجراج مالت قدماه قليلاً إلى الجانب، ثم مر إلى جوار مائدة تنس الطاولة (دائمًا ما كان شيب يخاف من مشهد والده وهو يجرى، فقد بدا كبيرًا على الجرى) واختفى فى دورة مياه القبو، ومن بعدها فعلت السناجب ما شاءت دون قلق.

كان التاكسى يقترب من شارع يونيفرستى بليس. فكر شيب فى العودة إلى بار سيدر تافرن وتعويض الساقية عمّا أخذه، وربما يعطيها مائة إضافية حتى تعتدل الكفة، وربما يأخذ منها اسمها وعنوانها ويراسلها من ليتوانيا. مال إلى الأمام ليقول للسائق أن يتجه إلى البار، عندما هاجمته فكرة متطرفة جديدة: سرقت تسعة دولارات، هذا ما فعلته، انتهى الموضوع، حظ سعيد لها.

عاد إلى وضعه السابق ومد يده إلى الزجاجة.

خارج بنايته أعاد إليه السائق ورقة المائة دولار قائلاً إنها كبيرة، كبيرة. أخرج جيتاناس ورقة أصغر من سترته الحمراء.

قال شيب: "لم لا أقابلك فى فندقك؟".

ابتسم جيتاناس. "أنت تمزح، أليس كذلك؟ أنا أثق بك وكل شىء، لكن الأفضل أن أنتظر هنا. أحزم أمتعتك، خذ ما تشاء من الوقت. وهات معك معطفًا ثقيلاً وقبعة، وبدلات وأربطة عنق. مطلوب مظهر مسئول مالى كبير".

لم ير البواب. اضطر شيب لاستخدام مفتاحه ليدخل إلى المبنى. وفى المصعد أخذ أنفاسًا عميقة ليهدئ حماسته. لم يشعر بالخوف، بل بالكرم، أحس بأنه على استعداد لمعانقة والده.

لكن شقته كانت خاوية. لابد أن أسرته غادرت قبل دقائق. دفء الأجساد عالق فى الهواء، روائح خفيفة لعطر إنيد، ورائحة من روائح الحمامات، رائحة العجائز. المطبخ أنظف من حاله عن أخر مرة رآه شيب. فى حجرة المعيشة رأى أرفف الكتب خاوية. جوليا أخذت الشامبو ومجفف الشعر من الحمام. وهو مخمور أكثر مما يعرف. ولا أحد ترك له ورقة أو رسالة. لا شىء على مائدة الطعام باستثناء قطعة تورتة وزهرية فيها عباد الشمس. عليه أن يحضر حقائبه، لكن كل شىء من حوله وداخله غريب غريب لدرجة أنه للحظة لم يقدر إلا على أن يقف ويتأمل. أوراق عباد الشمس اسودت فى بعض أجزائها، قلب الزهرات لحيم رائع، ثقيل كالكعك، سميك كراحة اليد. وسط الزهرة زر باهت داخل هالة أغمق منه لونًا. الطبيعة. ما أروع هذا الفراش الذى حضرته لحشرة صغيرة مجنحة كى تسقط فيه، لامس المخمل البنى للزهور فاعترته حالة من النشوة.

* * *

التاكسى الذى كان يقل الثلاثة وصل إلى مرفأ فى منطقة وسط منهاتن تقف عنده سفينة "جانر ميردال" البيضاء العالية، تحجب عن الرؤية النهر ونيوجيرسى ونصف السماء. هناك حشد من العجائز بالأساس متجمعون عند البوابة، وفى ممر طويل براق وراء البوابة. وهناك شىء ما جدير بالأهمية فى هجرتهم هذه، شىء مخيف فى العاملين بالمرفأ النهرى، سحب الأمطار تتباعد بعد الأوان لا ينفع معها الاستمتاع بجزء كافٍ من النهار، الصمت المحدق بكل شىء هنا. الحشد البشرى والشفق إلى جوار نهر الموتى ستايكس.

دفعت دينيس أجرة التاكسى وأخرجت الحقائب إلى الشيالين.

سألتها إنيد: "إذن، أين تذهبين الآن؟"

"أعود للعمل فى فيلادلفيا".

قالت إنيد بعفوية: "شكلك رائع. كم يعجبنى شعرك بهذا الطول".

أمسك ألفريد بيدى دينيس وشكرها.

قالت دينيس: "كنت أرجو فقط أن يكون يومًا أفضل لشيب".

قالت إنيد: "تحدثى مع جارى عن الكريسماس. وفكرى فى المجىء لمدة أسبوع، أسبوع كامل".

رفعت دينيس كم سترتها الجلدية ونظرت إلى الساعة. قالت: "سآتى لمدة خمسة أيام، لا أعتقد أن جارى سيقضى الأسبوع بدوره. ومن يعرف ماذا سيحدث مع شيب".

قال ألفريد بنفاد صبر وكأنها تقول كلام بلا معنى: "دينيس، تحدثى مع جارى أرجوك".

"حسنًا، سأفعل سأفعل".

ضربت يدا ألفريد الهواء: "لا أعرف ما الوقت المتاح لى! أنت وأمك عليكما التعايش. وأنت وجارى عليكما التعايش".

"آل..."

"يجب أن نتعايش جميعًا!"

لم تعتد دينيس البكاء أبداً، لكن وجهها تجعد، قالت: "بابا، لا بأس. سأتحدث معه".

"أمك تريد قضاء الكريسماس معكم فى سان جود".

"سأتحدث معه، أعدك".

التفت فجأة بحدة وقال: "إذن، يكفى هذا".

معطف المطر الأسود الذى يرتديه راح يتطاير مع الرياح، وما زالت إنيد تأمل أن يكون الطقس مناسبًا للرحلة، وأن يكون البحر هادئًا.

***

بثياب جافة ومعه حقيبة كبيرة وأخرى أصغر وسجائر ـ موراتيس القاتلة، سجائر رخيصة، ثمن العلبة خمسة دولارات ـ ذهب شيب إلى مطار كينيدى مع جيتاناس ميسيفيكيوس واستقلا طائرة متجهة إلى هيلسنكى (فنلندا) وعلى متنها وفى خرق لاتفاقه الشفوى، جلسا فى مقاعد الدرجة الثانية، وليس فى الدرجة الأولى. قال: "يمكننا أن نشرب الليلة وننام غداً".

كان مقعداهما مقعد على الممر وآخر إلى جوار النافذة. مع جلوس شيب، تذكر كيف هجرت جوليا جيتاناس. تخيلها تسير

مسرعة إلى خارج الطائرة ثم فى ممرات المطار، لترمى بنفسها أخيراً فى المقعد الخلفى لتاكسى أصفر. أحس برعشة من الحنين، الخوف من الآخر، حب المألوف، لكن على عكس جوليا، لا رغبة لديه فى النكوص. ما إن ربط حزام مقعده حتى سقط نائمًا. أفاق من النوم أثناء الإقلاع ثم نام مرة أخرى إلى أن قام جميع ركاب الطائرة، واحدًا وراء الآخر، بإشعال سجائر.

قال جيتاناس وهو يُخرج كمبيوتر من حقيبته ويشغله: "إذن.. جوليا".

من لحظة نوم هادئة ظن شيب منزعجًا أن جيتاناس يكلمه وكأن اسمه جوليا.

قال جيتاناس: "زوجتى".

"آه طبعًا".

"نعم. إنها تتعاطى مضادات اكتئاب. كانت تلك فكرة إدين أظن. إدين تدير لها حياتها الآن، على ما أعتقد. أرى أنها لم ترغب فى وجودى بمكتبها اليوم. لم ترغب فى وجودى بالمدينة! أصبحت مصدر قلق لها. المهم، بدأت جوليا تتعاطى ذلك الدواء، وفجأة أفاقت من النوم وأعلنت أنها لا تريد أن تلازم رجالاً محروقين بحروق من السجائر بعد اليوم. هذا ما قالته: يكفينى رجال محروقون بالسجائر. حان وقت التغيير، كفانى رجال محروقون بالسجائر". وضع جيتاناس سى دى فى الكمبيوتر. "لكنها تريد الشقة. على الأقل يريد محامى الطلاق أن تنال الشقة. إدين تدفع أتعاب محامى الطلاق. وقام شخص ما بتغيير أقفال الشقة، اضطررت لتقديم تنازلات للخادمة حتى تدخلنى".

ضم شيب يده اليسرى.. "حروق سجائر؟"

"نعم، عندى بعض الحروق". حرك جيتاناس رقبته ليرى إن كان أى من الركاب المجاورين يسمعونه، لكن جميع الركاب من حولهم، باستثناء طفلين بأعين مغمضة، كانوا مشغولين بالتدخين. قال "سجن عسكرى سوفيتى. سأريك تذكارًا على إقامتى اللطيفة هناك". شمر كم سترته الجلدية الحمراء عن ذراعه ورفع كم القميص الأصفر الذى يرتديه تحتها. مجموعة متلاصقة من الحروق تمتد من إبطه إلى منكبه. قال: "كان هذا فى عام ١٩٩٠. ثمانية أشهر فى ثكنات الجيش الأحمر فى دولة ليتوانيا ذات السيادة الوطنية المستقلة".

قال شيب: "كنت معارضًا؟"

"نعم، نعم، معارض!" أعاد كمه إلى موضعه.. "كان وضعًا رهيبًا. متعبًا للغاية، لكن لم نشعر بالتعب. التعب جاء بعد ذلك".

ذكريات شيب عن عام ١٩٩٠ هى ذكريات عن المسرحيات التودورية، وشجارات مع تورى تيملمان، وتورط سرى متعب مع بعض نصوص تورى فى نقد تجربة صناعة البورنو اللاإنسانية، وأشياء قليلة أخرى.

قال جيتاناس: "من ثم فأنا أخشى نوعًا النظر إلى هذا". على شاشة الكمبيوتر صورة أبيض وأسود معتمة لسرير، من أعلى، وجسد تحت البطانيات. "تقول الخادمة إن لها صديق، وقد استرجعت بعض البيانات. عندى كاميرا مراقبة فى الشقة من المالك السابق. كاميرا متابعة الحركة، وأشعة تحت الحمراء وصور رقمية. يمكنك أن تنظر إن شئت. ربما نجدها مسلية. ربما نجدها مثيرة".

تذكر شيب جهاز إنذار الحريق فى سقف حجرة نوم جوليا. حدق فيه كثيرًا حتى جفت حواف فمه وغاضت عيناه فى رأسه. لطالما اعتبرها جهازًا معقدًا أكثر من كونه مجرد جهاز إنذار حريق.

اعتدل فى مقعده: "ربما لا تريد أن ترى هذه الصور".

راح جيتاناس ينقر بالماوس.. "سأميل الشاشة باتجاهى، ليس عليك أن تنظر معى".

سحب ضخمة من دخان السجائر تتجمع فى ممر الطائرة. قرر شيب أنه بحاجة لإشعال سيجارة موراتى.

قال وهو يحجب شاشة الكمبيوتر بيده: "قصدى أنه ربما الأفضل أن تُخرج السى دى وألا تنظر بالمرة".

انزعج جيتاناس بشدة: "ولم قد أرغب فى عدم النظر؟"

"فلنفكر فى السبب".

"ربما الأفضل أن تقول".

"دعنا نفكر فى الموضوع".

للحظة تكهرب الجو. نظر جيتاناس إلى كتف شيب، إلى ركبتيه ومعصمه، وكأنه يفكر من أين يعضه. أخرج السى دى ورماه فى حجر شيب وقال: "يلعنك!"

"أعرف أعرف!".

"خذه، يلعنك. لا أريد أن أراه مرة أخرى. خذه".

وضع شيب السى دى فى جيب قميصه. تحسنت حالته. أحس أنه على ما يرام. الطائرة استوت على ارتفاع كبير عن الأرض،

والضوضاء الوحيدة هى الاحتراق الأبيض المستمر لتجاويف مجهولة، لون نوافذ الطائرة البيضاء، مذاق القهوة الباردة الباهتة فى أكواب فلين يمكن استخدامها أكثر من مرة. ليلة من ليالى شمال الأطلنطى، مظلمة وحيدة، لكن هنا فى الطائرة، هناك أنوار فى السماء. هنا الونس. هنا يسعده أنه يشعر بالانتباه والنشاط يعبئان الجو من حوله.

قال جيتاناس: "إذن هل عندك حروق سجائر بدورك؟"

فتح شيب يده وقال: "هى لا شىء".

"فعلتها بنفسك لنفسك أيها الأمريكى المثير للرثاء".

قال شيب: "قل شخصٌ مختلف".

كلما فكر فى الموضوع زاد غضبه

بدأ ارتباط جارى لامبرت المريح بشركة أكسون قبل ثلاثة أسابيع، بعد ظهر يوم أحد أمضاه فى حجرة معمل تحميض الصور التى أعدها مؤخرًا، محاولاً الاستمتاع بإعادة طبع صورتين قديمتين لوالديه، ومن خلال استمتاعه بعملية الطباعة هذه، كان يحاول طمأنه نفسه إلى صحته النفسية.

كان جارى قلقًا على صحته النفسية، لكن فى ذلك اليوم، وهو يخرج من بيته الضخم فى شارع سيمينول ومع عبوره إلى فنائه الخلفى الكبير ونزوله درجات سلم جراج البيت الكبير، كان الطقس فى عقله دافئًا ومشرقًا كالطقس فى شمال غرب فيلادلفيا. شمس سبتمبر تسطع من وراء سحب صغيرة رمادية وبيضاء مختلطة، وبقدر قدرة جارى على متابعة وتحليل كيمياء جسده العصبية (وهو نائب مدير فى بنك سين تراست، وليس طبيبًا نفسيًا، دعونا نتذكر هذا) كانت كل المؤشرات تؤكد أن صحته النفسية جيدة.

ورغم أن جارى بشكل عام يمجد التوجه الحداثى القائل بإدارة المرء لصندوق استثمار معاشه، والتعليم الذاتى، فهو أقل حماسًا لتحمل مسئولية كيمياء عقله، خصوصًا عندما يرفض بعض الناس

فى حياته ـ ومنهم أبوه ـ تحمل مثل هذه المسئولية. لكن جارى قادر على الإنجاز. وهو يدخل إلى حجرة التحميض، قدر أن مستويات النيوروفاكتور ٣ أى السيروتونين، وهو عامل مهم للغاية فى كيمياء المخ) وصلت إلى أعلى معدلاتها منذ سبعة أيام، أو ربما منذ ثلاثين يوماً، وأن الفاكتور ٢ والفاكتور ٧ فى معدلات تفوق التوقعات، وأن الفاكتور١ تراجع وارتد عن انخفاضه صباح اليوم جراء زجاجة الأرمانياك التى شربها قبل النوم ليلة أمس. خطوته قوية متحفزة، عنده وعى طيب بطوله فوق المتوسط و"السن تان" الصيفية. حقده على زوجته كارولين واحتقاره لها فى معدلات متوسطة يمكن احتواؤها بسهولة. هبوط بعض المؤشرات يؤدى إلى صعود مؤشرات أخرى متعلقة بالبارانويا (مثلاً ارتيابه الدائم فى أن كارولين وابنيه الأكبر سنًا يسخرون منه دوماً)، وتقييمه المُعدل لعبثية حياته والانكفاء على الذات متسق مع الصحة العامة لحالته العقلية. لا يعتبر نفسه مصابًا بأدنى درجة من الاكتئاب المرضى.

أسدل الستائر المخملية التى تحجب الضوء الخارجى، وأطفأ النور، وأخرج صندوقًا من الورق مقاس ١٠×٨ من الثلاجة الكبيرة الستانليس ووضع قطعتين من الورق فى منظف النيجاتيف الآلى؛ وهى أداة ثقيلة صغيرة جذابة.

كان يطبع صوراً منذ عهد السنوات العشر التى مارس فيها أبويه الجولف الزواجى. صورة منها فيها إنيد وهى محنية الظهر فى وهدة عميقة بالأرض، عابسة وترتدى نظارة سوداء فى حرارة النهار القوية، ويدها اليسرى تقبض على عنق مضربها ذى الطرف الخشبى الذى عانى معها طويلاً، ويدها اليمنى غائمة غير واضحة

فى الصورة فى أثناء حركة ضرب الكرة (هناك بقعة بيضاء على طرف الصورة). (لم تلعب هى وألفريد الجولف إلا فى ملاعب مسطحة ومستقيمة وقصيرة ورخيصة، متاحة لعموم الجمهور). فى الصورة الأخرى ألفريد يرتدى شورتًا ضيقًا وقبعة عليها شعار "ميدلاند باسيفيك"، وجوربًا أسود وحذاء جولف من عصور ما قبل التاريخ، وكان أمامه مضرب خشبى من عصور ما قبل التاريخ ويبتسم للكاميرا.

بعد أن انتهى جارى من التحميض وتكبير الصور، زاد درجة الإضاءة قليلاً، ليكتشف أن الصورتين مصابتان ببقع صفراء عجيبة.

سب ولعن قليلاً، ليس كثيرًا لأن منبع اهتمامه بالصورتين هو الاحتفاظ بحالته الذهنية الجيدة، بوضع عقله الغنى بالسيروتونين، ولكى يحافظ عليه لابد من الوصول لدرجة معينة من التعاون من عالم الموجودات المادية.

فى الخارج كان الطقس يتدهور. هناك جدول مياه يترقرق إلى البلاعات، قطرات ماء كبيرة تتساقط من الأشجار العالية. ومن وراء جدران الجراج، بينما هو يُحمض صورتين جديدتين، كان جارى يسمع كارولين والصبية يلعبون كرة القدم فى الفناء الخلفى. سمع وقع الأقدام وأصوات اللهاث، وهتافات، واصطدام الكرة بباب الجراج.

عندما خرجت الصورتان الجديدتان من الآلة وفيهما نفس البقع الصفراء، أدرك جارى أن عليه التوقف. لكن سمع طرقة على الباب الخارجى، ودخل ابنه الأصغر جوناه من وراء الستار.

قال جوناه: "هل تطبع صوراً؟" سارع جارى بطى الصور الفاشلة طيتين، ودفنها عميقاً فى القمامة. قال: "بدأت منذ قليل".

أعاد التفكير فى الحلول المتاحة، وفتح صندوقًا جديدًا من الورق. جلس جوناه إلى جوار مصباح وراح يهمس وهو يقلب أوراق كتاب من سلسلة كتب ملحمة نارنيا، "الأمير كاسبيان"، كانت دينيس، شقيقة جارى، قد أعطته له. كان جوناه فى الصف الثانى لكن بدأ يقرأ كتب الصف الخامس. كثيراً ما يقرأ الكلمات المكتوبة بصوت مسموع، فى همس. له عينان صغيرتان وصوت هادئ رائق وشعر بنى ناعم، ويبدو حتى لجارى وكأنه حيوان ما هادئ الطباع، عاطفى، أكثر من كونه صبيًا صغيراً.

لم توافق كارولين بلا تحفظات على نارنيا، فالكاتب سى إس لويس معروف بأنه من صناع الدعاية للمذهب الكاثوليكى، وبطل نارنيا، أسلان، هو أسد يرمز إلى المسيح، لكن جارى استمتع بقراءة "الأسد والساحرة والدولاب" وهو صغير، ثم لم يتحول إلى مهووس بالدين عندما كبر. (فى الواقع هو ملتزم تماماً بالمذهب المادى).

قال جوناه: "إذن فقد قتلوا دبًا، لكنه دب لا يتكلم، ويعود أسلان، لكن لوسى فقط هى التى تراه ولا يصدقها الآخرون".

قال جارى: "لماذا لا يصدقونها؟"

قال جوناه: "لأنها الأصغر".

فى الخارج فى المطر، كانت كارولين تضحك وتصيح. كانت قد اعتادت أن تهلك نفسها من التعب فى سبيل الاستمرار فى اللعب مع الصبية. فى السنوات الأولى للزواج كانت محامية مشغولة، لكن بعد مولد كاليب جاءها إرث من أسرتها فأصبحت تعمل نصف يوم

فقط، براتب متدنيًا كثيرًا، فى مؤسسة "صندوق الدفاع عن الأطفال". حياتها الحقيقية تنصب على الصبية. تقول إنهم أقرب أصدقائها.

قبل ستة شهور، عشية عيد ميلاد جارى الثالث والأربعين، بينما كان وجوناه فى زيارة لوالديه فى سان جود، جاء اثنان من المقاولين وقاما بتجهيز وتجديد الطابق الثانى من الجراج، على سبيل هدية عيد ميلاد مفاجئة من كارولين. كان جارى قد تحدث عدة مرات عن إعادة طباعة صور الأسرة القديمة وجمعها فى ألبوم مؤطر بالجلد، مائتان صورة لآل لامبرت، مانعة جامعة. لكن الطباعة التجارية تكفى، وفى الوقت نفسه فالأولاد يعلمونه كيفية طباعة الصور من خلال الكمبيوتر، وإن كان بحاجة لمعمل تحميض فيمكنه أن يؤجر معملاً بالساعة. من ثم كان رد فعله يوم عيد ميلاده ـ بعد أن أخذته كارولين إلى الجراج وعرضت عليه حجرة التحميض التى لم يرغب فيها أو كان يريدها ـ كان رد فعله الذى تبادر إلى ذهنه هو البكاء. لكن من خلال بعض كتب علم النفس للمبتدئين الخاصة بكارولين فى حجرة النوم، عرف كيف يمكنه إدراك بوادر الاكتئاب التحذيرية، وأحد البوادر التحذيرية، على حد وصف كل الكتب، هو النزوع إلى البكاء فى غير موضعه، من ثم تجاهل الموضوع وراح يتفحص معمل التحميض باهظ التكلفة وقال لكارولين متعجبًا (وكانت بدورها تحت تأثير ندم المشترى وقلق مانح الهدايا) كم سرته هذه الهدية! ثم، ولكى يطمئن نفسه إلى أنه غير مكتئب ولكى يضمن أن كارولين لن تشتبه فى أى شىء من هذا النوع، عقد العزم على العمل فى المعمل مرتين أسبوعيًا إلى أن يكتمل ألبوم آل لامبرت بصوره المائتين.

لكنه يشتبه أن كارولين - سواء بوعى منها أو دون وع - حاولت نفيه عن البيت بوضعه فى معمل تحميض فى الجراح، وهو أحد المؤشرات فى رأيه على البارانويا.

عندما انتهى وقت تحميض الصور، نقل مجموعة الصور الثالثة إلى مكان التثبيت وزاد درجة الإضاءة مرة أخرى.

قال جوناه وهو يحدق فى الصينية: "ما هذه اللطخ البيضاء؟"

"جوناه، لا أعرف!"

قال جوناه: "تبدو كالسحاب".

ضربت الكرة باب الجراج.

ترك جارى إنيد عابسة وألفريد مبتسمًا فى صينية تثبيت الألوان وفتح النافذة. كانت الأشجار إلى جوار النافذة محملة بماء المطر. وسط الفناء الخلفى، وقد اتسخت ملابسهم بالماء والطين، راحت كارولين وآرون يعبان الهواء فيما راح كاليب يربط حذاءه. كارولين فى الخامسة والأربعين من العمر، لها ساقا فتاة جامعية. شعرها أشقر كيوم قابلها جارى، قبل عشرين عامًا، فى حفل لبوب سيجر. كان جارى ما زال منجذبًا لزوجته، ما زالت تغريه نظراتها البسيطة. دون أن يدرك، مد يده إلى الكاميرا وعدّل وضع الزوم ليلتقط لها صورة.

نظرة عين كارولين أثارت شفقته. هناك عبوس فى جبينها، حفرة من التوتر حول فمها. كانت تعرج وهى تجرى وراء الكرة من جديد.

أدار جارى الكاميرا إلى ابنه الأكبر، آرون، الذى كانت أفضل صوره تُلتقط وهو لا يعرف أن هناك من يصوره، قبل أن يعدل وضع

رأسه ويتخذ الزاوية التى يعتقد أنها تُظهره فى أفضل حال. وجه آرون متوهج وملطخ بالطين من المطر، وجارى عدّل الزوم ليلتقط صورة جيدة له. لكن حالة الاستياء على وجه كارولين تخترق دفاعاته النفسية العصبية.

توقف لعب الكرة، واتجهت وهى تجرى وتعرج إلى البيت.

لوسى دفنت رأسها فى شعر الأسد لتخفى نفسها عن وجهه. جوناه يقرأ فى همس.

ثم سمع صراخًا من البيت.

كان رد فعل كاليب وآرون سريعًا؛ راحا يركضان عبر الفناء مثل أبطال أفلام الأكشن واختفيا داخل البيت. بعد لحظة ظهر آرون مرة أخرى وهو يصرخ: "بابا، بابا، بابا".

هستيريا الآخرين أصابت جارى بالمنهجية والهدوء. غادر حجرة التحميض ونزل السلم فى بطء. فى المساحة الخالية وراء الجراج كانت حالة النهار الذى حسنت الأمطار من ضيائه قد بدلت الهواء الرطيب.

"بابا، جدتى على التليفون!"

سار جارى متمهلاً عبر الفناء، متوقفًا لفحص الخسائر التى ألحقتها كرة القدم بحالة العشب فى الحديقة. الحى من حوله، حى شيستنات هيل، لم يكن مختلفًا كثيرًا عن أجواء ملحمة نارنيا. بيوت قديمة عمرها قرن من الزمان وأبعد، الكثير منها شوهت لإدخال خطوط الكهرباء إليها، تحتها وحولها شوارع المدينة المتغيرة دائمًا، حاملة أسماء قبائل منقرضة. سيمينولى وشيروكى ونافاهو

وشاونى. على مسافة أميال فى كل اتجاه، رغم الكثافة السكانية العالية وارتفاع متوسط الدخل فى المنطقة، لا توجد طرق سريعة، وهناك متاجر قليلة مفيدة. "الأرض التى نسيها الزمن" على حد تعبير جارى. أغلب البيوت هنا، وبينها بيته، مصنوعة من صخر متبلر يشبه الصفيح وهو بلون شعره تماماً.

"بابا!"

"شكرا يا آرون، سمعتك المرة الأولى".

"جدتى على التليفون!"

"أعرف يا آرون، قلت لى هذا منذ لحظة".

فى المطبخ عثر على كارولين مكومة فى مقعد ويداها على الجزء السفلى من ظهرها.

قالت كارولين: "اتصلت هذا الصباح. نسيت أن أخبرك. التليفون يرن كل خمس دقائق، وكنت أنا أجرى"

"شكراً يا كارولين".

"كنت أجرى و..."

"شكراً"، أمسك جارى بالسماعة التى بلا سلك ورفعها مبعداً إياها عنه، وكأنه يحاول إبعاد أمه عنه، بينما هو فى طريقه إلى حجرة الطعام. وفيها كاليب، الذى كان يضع إصبعاً من أصابعه فى كتالوج سميك الصفحات. "بابا، ممكن نتكلم دقيقة؟"

"ليس الآن يا كاليب، جدتك على التليفون".

"كنت فقط أريده"

"قلت ليس الآن".

هز كاليب رأسه وابتسم وكأنه لا يصدق، مثل لاعب كرة لا يصدق أن الحكم لم يعطه ضربة جزاء مستحقة.

عبر جارى الرواق المبلط بالرخام إلى حجرة المعيشة الضخمة وقال فى الهاتف الصغير ألو.

قالت إنيد: "قلت لكارولين أننى سأعاود الاتصال إن لم تكن إلى جوار التليفون".

قال جارى: "مكالماتك ثمنها سبعة سنتات فى الدقيقة".

"أو كان بإمكانك أن تتصل أنت بى".

"أمى، نحن نتكلم عن ٢٥ سنتًا تقريبًا".

"أحاول الوصول إليك منذ الصباح. وكيل السفر يريد إجابة صباح الغد على أبعد تقدير. وكما تعرف نأمل أن تزورونا على الكريسماس لمرة أخيرة، كما وعدت جوناه، حتى..."

قال جارى: "انتظرى دقيقة. سأسأل كارولين".

"جارى، أتيحت لك شهور لتناقش هذا الموضوع. لن أجلس هنا وأنتظر حتى..."

"لحظة واحدة".

كتم السماعة بيده وعاد إلى المطبخ، حيث كان جوناه واقفًا على مقعد ومعه كيس بسكويت كبير. كارولين التى ما زالت جالسة إلى المائدة، كانت تتنفس بصعوبة. قالت: "عملت عملاً أخرق عندما جريت لأرد على التليفون".

قال جارى: "أمضيت فى الخارج ساعتين تنزلقين على الوحل وسط الأمطار".

"لا، كنت بخير حتى جريت للرد على التليفون".

"كارولين، رأيتك تنزلقين قبل أن..."

قالت: "كنت بخير، حتى جريت لأرد على التليفون، وكان يرنّ للمرة الخامسة عشرة.."

قال جارى: "طيب، ما علينا، هذا خطأ أمى. الآن أخبرينى، بم أخبرها بخصوص موضوع الكريسماس؟"

"كما تريد. مرحبًا بهم هنا".

"كان الكلام عن ذهابنا نحن إلى هناك".

هزت كارولين رأسها بهدوء، وكأنها تمسح شيئًا ما: "لا، تكلمت أنت فى هذا الموضوع. لم أتكلم أنا عنه مطلقًا".

"كارولين..."

"لا يمكننى المناقشة والأخذ والرد وهى على التليفون. قل لها أن تتصل الأسبوع القادم".

أدرك جوناه أنه أخذ قدرًا ما يريد من البسكويت ولم يلاحظ والده ولا والدته.

قال جارى: "هى تريد الترتيب للموضوع بناء على ردنا الآن. إنهم يحاولون أن يعرفوا، هل يحضرون إلى هنا الشهر القادم، بعد رحلة السفينة. الموضوع متوقف على الكريسماس".

"وكأننى أصبت بانزلاق غضروفى".

قال: "إذا كنت لا تريدين الحديث فى هذا الموضوع، فسوف أقول لها أننا نفكر فى المجىء إلى سان جود".

"لا يمكن! لم يكن هذا هو الاتفاق".

"أنا أقترح استثناءً للاتفاق لمرة واحدة".

"لا لا" جدائل من الشعر الأشقر تتحرك لهذا الاتجاه وذاك بينما كارولين تعبر عن رفضها.. "لا يمكنك أن تغير القواعد هكذا".

"الاستثناء لمرة واحدة ليس تغييراً للقواعد".

قالت كارولين: "يا ربى، الظاهر أننى أحتاج لعمل أشعة".

أحس جارى بطنين صوت أمه على راحة يده التى تكتم السماعة. "نعم أم لا؟"

وهى تقف، مالت كارولين عليه ودفنت وجهها فى سترته. ضربت عظمة قفص صدره بقبضتها بخفة وقالت وهى تحك أنفها بياقته: "أرجوك، قل لها أنك ستتصل بها فيما بعد. أرجوك. لقد آذيت ظهرى".

أمسك جارى بالسماعة إلى جانبه، ويده جامدة، وهى لصقه. "كارولين، لقد حضروا إلى هنا ثمانى سنوات متتالية. ليس كثيرًا أن أقترح استثناءً وحيدًا. هل نقول على الأقل إننا نفكر فى الموضوع؟"

هزت كارولين رأسها فى ألم وجلست على المقعد.

قال جارى: "لا بأس. سوف أتخذ قرارى".

اتجه إلى حجرة الطعام، حيث راح آرون الذى تابع الحديث يحدق فيه وكأنه وحش من القسوة الزوجية.

قال كاليب: "بابا، إن لم تكن ستتحدث مع جدتى، هل أسألك سؤالاً؟"

"لا يا كاليب، أنا أكلم جدتك".

"إذن هل يمكن أن أكلمك بعد أن تنتهى المكالمة؟"

"يا ربى، يا ربى".. راحت كارولين تتألم.

فى حجرة المعيشة جلس جوناه على الكنبة الجلدية الكبيرة ومعه برج البسكويت وكتاب "الأمير كاسبيان".

"ماما؟"

قالت إنيد: "لا أفهم، إن لم يكن الوقت مناسبًا للحديث، فلا بأس، اتصل بى، لكن أن تجعلنى أنتظر عشر دقائق.."

"نعم، لكن ها أنا ذا".

"إذن، ما هو قراركم؟"

قبل أن يجيب جارى، سمع عويلاً قادمًا من المطبخ، ثم صرخة كتلك التى كانت كارولين تطلقها أثناء نومهما معًا قبل خمسة عشر عاماً، قبل أن يوجد أولاد يسمعونها.

"أمى، آسف، انتظرى ثانية واحدة".

قالت إنيد: "ماذا تفعل، هذه قلة ذوق".

هتف جارى إلى المطبخ: "كارولين، هل من الممكن أن نتصرف كالبالغين دقائق قليلة؟"

"آه آه آه آه".

"لم يمت أحد بوجع الظهر من قبل يا كارولين".

صرخت: "أرجوك، اتصل بها فيما بعد. سقطت على درجة السلم الأخيرة وأنا أجرى يا جارى، الألم فظيع".

ولّىّ المطبخ ظهره: "آسف يا ماما".

"ماذا يحدث؟"

"كارولين آذت ظهرها قبل قليل وهى تلعب الكرة".

قالت إنيد: "يؤسفنى أن أقول هذا، لكن الآلام والأوجاع جزء لا يتجزأ من التقدم فى العمر. يمكننى أن أتكلم عن الألم طوال النهار إن أردت. مؤخرتى تؤلمنى دائمًا. عندما يتقدم المرء فى العمر لابد أن ينضج قليلاً".

راحت كارولين تصرخ بصوت حيانى: "أوه! آآه! آآه!".

قال جارى: "نعم، لابد".

"عموماً، ما قرارك؟"

قال: "ما زال القرار ضد المجىء فى الكريسماس، لكن لم لا تمرون علينا...؟"

"أوو! أوو! أوو!"

قالت إنيد فى حدة: "الوقت تأخر كثيراً على عمل حجوزات الكريسماس اللازمة. آل شومبرت حجزوا رحلة هاواى منذ أبريل الماضى، لأن فى العام الماضى عندما انتظروا حتى سبتمبر لم يتمكنوا من حجز المقاعد التى..."

جاء آرون من المطبخ يجرى: "بابا!"

"أنا أتكلم فى التليفون يا آرون"

"بابا!"

"أنا على التليفون يا آرون كما ترى".

قالت إنيد: "ديف عمل عملية تفميم للقولون".

قال آرون: "لابد أن تفعل شيئاً الآن. ماما تتألم بشدة. تقول إن عليك نقلها للمستشفى!"

قال كاليب وهو يتقدم منه فى بطء ومعه الكتالوج: "فى الواقع يا بابا، هناك مكان أريدك أن تقلنى إليه بدورى".

"لا يا كاليب".

"لا، لكن هناك متجرًا أريد الذهاب إليه بشدة".

قالت إنيد: "المقاعد معقولة الثمن حُجزت كلها مبكرًا".

راحت كارولين تصرخ من المطبخ: "آرون؟ آرون! أين أنت؟ أين والدك؟ أين كاليب؟"

قال جوناه: "المكان هنا قطعاً صاخب على من يحاول التركيز".

قال جارى: "آسف يا أمى، سأذهب إلى مكان أهدأ".

قالت إنيد: "الوقت تأخر جدًا". صوتها على الهاتف صوت امرأة مذعورة على كل يوم يمر، على كل ساعة، فى إشارة إلى حجز مقاعد إضافية فى رحلات طيران أواخر ديسمبر وما يستتبعه هذا من تآكل لأى أمل فى أن يجلب جارى وكارولين الصبية إلى سان جود فى الكريسماس للمرة الأخيرة.

آرون يتوسل.. متابعًا جارى أعلى السلم إلى الطابق الثانى: "بابا! ماذا أقول لها؟"

"قل لها أن تتصل بـ ٩١١ .استخدم تليفونك المحمول، اتصلوا بالإسعاف". رفع جارى صوته: "كارولين؟ اتصلى بـ ٩١١"!

قبل تسعة أعوام، بعد رحلة إلى الغرب الأوسط، حيث وقعت عذابات منها عواصف ثلجية فى كل من فيلادلفيا وسان جود، ومنها تأخر إقلاع الطائرة أربع ساعات فى ظل وجود ولد بكّاء فى الخامسة وولدين صارخين فى الثانية من العمر، وليلة من القىء العنيف من كاليب كرد فعل (طبقًا لكارولين) على تناول الزبد ودهن الخنزير فى طبيخ إنيد الخاص بالكريسماس، وانزلاق كارولين المؤلم على ممشى حماها وحماتها المغمور بالجليد (بدأت مشاكل ظهرها منذ أيام لعب الهوكى، لكنها الآن تتكلم عن "إعادة تنشيط" الإصابة فى الممشى ذلك اليوم)، وعد جارى زوجته بأنه لن يطلب منها ثانية أبداً الذهاب إلى سان جود فى الكريسماس. لكن الآن يحضر والداه إلى فيلادلفيا كل عام منذ ثمانى سنوات، ورغم أنه لا يحب هوس أمه بالكريسماس - يبدو له عرض لمشكلة أكبر، فراغ مؤلم فى حياة إنيد -فلا يمكنه أن يلوم والداه على رغبتهما فى البقاء فى بيتهما هذا العام. خطر لجارى أيضًا أن إنيد ستكون أكثر استعدادًا للخروج من سان جود والانتقال شرقاً إذا نالت "الكريسماس الأخير" الذى تريده. بالأساس، هو مستعد لهذه الرحلة، ويتوقع حداً أدنى من التعاون من زوجته: استعداد ناضج لإعادة النظر بناء على هذه الظروف الاستثنائية.

حبس نفسه داخل حجرة مكتبه وأغلق الباب وفى الخارج صرخات وصيحات أسرته.. وابل أصوات حركة الأقدام فى الطابق الأعلى.. حالة الطوارئ الوهمية. رفع سماعة تليفون مكتبه وأغلق سماعة التليفون اللاسلكى فى يده الأخرى.

كانت إنيد تقول فى صوت مهزوم: "كفى سخفًا، لم لا تتصل أنت بى؟"

قال: "لم نقرر بعد ماذا سنفعل فى ديسمبر، لكن ربما نأتى إلى سان جود. فى هذه الحالة مروا علينا بعد الرحلة البحرية".

راحت إنيد تتنفس بصوت مسموع.. "نحن لن نذهب إلى فيلادلفيا مرتين هذا الخريف. وأريد أن أرى الأولاد فى الكريسماس، وعلى حد علمى، فهذا يعنى أن تزورونا فى سان جود".

"لا يا أمى، لا لا لا، لم نقرر أى شىء بعد".

"لقد وعدت جوناه..."

"جوناه لن يشترى التذاكر. جوناه ليس صاحب القرار هنا. من ثم حضرى أنت خططك لنفسك وسوف نحضر خططنا لأنفسنا، وآمل أن يمر كل شىء بسلام".

كان جارى قد سمع بوضوح غريب احتقان فتحتى أنف إنيد من الاستياء.. يسمع تكسر أمواج أنفاسها، وفجأة أدرك شيئًا آخر.

قال: "كارولين؟ كارولين؟ هل أنت معنا على الخط؟"

توقف التنفس.

"كارولين، هل تتسمعين علينا؟ هل أنت على الخط؟"

سمع صوتًا إلكترونيًا صغيرًا، ضوضاء إستاتيكية عابرة.

"أمى، آسف..."

إنيد: "كيف هذا؟"

لا يمكن! لا يمكن! وضع جارى السماعة على مكتبه وفتح الباب وركض إلى المدخل مارًا بحجرة النوم التى يقف آرون أمام مرآتها مقطب الجبين مائل الرأس، إلى جوار السلم الرئيسى الذى كان كاليب جالسًا عليه ممسكًا بالكتالوج كأحد شهود يهوه وهو يقرأ منشورًا، إلى حجرة النوم الرئيسية حيث كانت كارولين راقدة منكفئة على نفسها فى وضع جنينى على البساط الفارسى، فى ثيابها الموحلة، ممسكة بيدها لصق ظهرها كيسًا من الثلج.

"هل تتنصتين على؟"

هزت كارولين رأسها فى ضعف، ربما أملاً فى أن توحى له بأنها غير عاقدة العزم على شىء لدرجة أن تصل إلى الهاتف المجاور للسرير.

"هل قولك هذا لا؟ هل تقولين لا؟ ألم تتسمعين؟"

قالت فى صوت واهن: "لا يا جارى".

"سمعت صوت كليك.. سمعت تنفس..."

"لا".

"كارولين، هناك ثلاث سماعات مرفوعة فى المكالمة، وأنا معى اثنين منها فى حجرة المكتب، والثالث هنا. مفهوم؟"

"لم أكن أتنصت عليك. رفعت السماعة..." استنشقت الهواء من وراء أسنانها المنعقدة فى توتر: "لأرى إن كان الخط غير مشغول. هذا كل شىء".

"وجلست وسمعت! كنت تتنصتين! وكأننا لم نتكلم كثيرًا وكثيرًا على عدم تكرار هذا الفعل".

قالت فى صوت واهن ضعيف: "جارى. أقسم لك لم أكن أتنصت. ظهرى يقتلنى من الألم. لا يمكننى مد يدى لأضع السماعة، فوضعتها على الأرض. وضعتها على الأرض. لم أكن أتنصت. كن لطيفًا معى أرجوك".

وجهها الجميل والألم الذى يمكن اعتباره بالخطأ نشوة ووجد.. وضعها وهى منكفئة على نفسها مغمورة بالطين حمراء الوجنتين، مهزومة شعثاء الشعر على البساط الفارسى.. كل هذا أثار رغبته. جزء منه صدق إنكارها وامتلأ عطفاً عليها، لكن عميقًا كان يشعر بالخيانة. عاد سريعًا إلى حجرته وصفق الباب بقوة. "أمى، ألو، أنا أسف".

لكنها لم تكن على الخط. عليه الاتصال بسان جود الآن على حسابه. من النافذة المطلة على الفناء الخلفى يرى بصيصًا من الشمس، سحابات بنفسجية بلون أصداف البحر حبلى بالمطر، وبخار يتصاعد من الشجرة.

لأن إنيد لن تدفع ثمن المكالمة، كان صوتها أكثر سرورًا. سألت جارى إن كان قد سمع بشركة اسمها أكسون. قالت: "إنها فى شكوينسفيل، بنسلفانيا. يريدون شراء براءة اختراع بابا. انتظر سأقرأ عليك الرسالة، فأنا قلقة من هذا الموضوع قليلاً".

فى بنك سين-تراست حيث يدير جارى الآن إدارة صناديق الاستثمار، تخصص طويلاً فى صناديق الاستثمار الكبرى ولم يشغل نفسه مطلقاً بهذه الاستثمارات الصغيرة. اسم أكسون غريب عنه. لكنه وهو يستمع إلى أمه وهى تقرأ الرسالة القادمة من مستر جوزيف ك. براجر من براج كنوتير آند سبيج أحس بأنه يعرف لعبة

هؤلاء الناس. كان من الواضح أن المحامى أثناء صياغة الرسالة وإرسالها إلى عنوان فى منطقة الغرب الأوسط، يعرض على ألفريد ما لا يزيد على النذر اليسير من قيمة الاختراع الفعلية. أحس جارى بهذا، من واقع خبرته فى صياغات المحامين الملتوية. لو كان فى مكان شركة أكسون لفعل المثل.

قالت إنيد: "أشعر أن علينا طلب مبلغ عشرة آلاف دولار، وليس خمسة".

قال جارى: "متى تنتهى مدة صلاحية براءة الاختراع؟"

"بعد نحو ست سنوات".

"لابد أنهم يبحثون عن أموال طائلة من وراء الاختراع. وإلا لكانوا مضوا قدمًا فى الموضوع وفعلوا ما يريدون دون الشراء".

"الرسالة تقول إن الاختراع تجريبى وغير مؤكد النتائج".

"أمى، كلام سليم. هذا بالطبع ما يريدونك أن تصدقيه. لكن لو كان تجريبيًا، لماذا يشغلون أنفسهم بالموضوع من الأساس؟ لماذا لا ينتظرون ست سنوات؟"

"واضح".

"جميل أنك أخبرتنى بهذا الموضوع يا أمى. أريدك أن تكتبى لهم الآن وتقولى إننا نطلب ٢٠٠ ألف دولار حق منح ترخيص، مدفوعة مقدمًا".

شهقت إنيد كما كانت تشهق فى رحلات الأسرة الطويلة بالسيارة، عندما كان ألفريد يدخل إلى الاتجاه المعاكس للطريق ليمر من شاحنة. "مائتا ألف دولار، يا ربى يا جارى..."

"وعوائد بنسبة واحد بالمائة على الأرباح الإجمالية من وراء الاختراع. أخبريهم بأنك جاهزة تماماً للدفاع عن حقك المشروع فى الاختراع أمام المحكمة".

"لكن ماذا لو رفضوا؟"

"ثقى بى، هؤلاء الناس لا يريدون الذهاب للمحكمة. لا يوجد أدنى ضرر من توخى العدوانية هنا".

"لكنها براءة اختراع بابا، وأنت تعرف طريقة تفكيره".

قال جارى: "أعطيه السماعة".

أبواه يهابان السلطة بجميع أنواعها. عندما يريد جارى أن يطمئن نفسه لأنه هرب من مصيرهما، عندما يرغب فى أن يحسب المسافة التى تفصله عن سان جود، يتقدم بعدم تهيبه هذا فى مواجهة السلطة ـ بما فى ذلك سلطة والده.

قال ألفريد: "نعم".

"بابا. أرى أن عليك مطالبة هؤلاء الناس بما تشاء. إنهم فى موقف ضعيف ويمكنك أن تجنى مبلغاً ضخماً منهم".

وفى سان جود.. لم ينطق الرجل.

قال جارى: "لا تخبرنى بأنك قبلت عرضهم. لأن ليس هذا حتى خيارًا مطروحًا يا بابا. ليس حتى على قائمة الاختيارات".

قال ألفريد: "لقد اتخذت قرارى. ما أفعله لا يخصك".

"بل هو كذلك. أنا لى مصلحة مشروعة فى هذا الموضوع".

"لا يا جارى، ليس لك مصلحة".

قال جارى مصرًا: "بل لى مصلحة". إذا نفدت نقود إنيد وألفريد، فسوف يتحمل هو وكارولين - وليس شقيقته قليلة رأس المال وليس شقيقه العقيم - نفقات رعايتهما. لكن كانت لديه قدرة على السيطرة منعته من كشف هذه الحقيقة لألفريد: "هلا أخبرتنى على الأقل بما ستفعل؟ هلا أخبرتنى بدافع من اللياقة والكرم؟"

قال ألفريد: "بادرنى أنت بكرم ولياقة عدم السؤال. لكن بما أنك سألت، فسوف أخبرك. سوف أقبل العرض وأعطى نصف النقود لشركة أورفيك ميدلاند".

الكون ميكانيكى التكوين: تكلم الأب، فجاء رد فعل الابن.

قال جارى فى صوت بطىء خافت للغاية يحتفظ به لمثل هذه المواقف التى يكون غضبه فيها كبيرًا وعلى يقين تام من أنه على حق: "بابا، لا يمكنك أن تفعل هذا".

قال ألفريد: "بل يمكننى، وسأفعل".

"لا يا بابا. اسمع كلامى. لا يوجد أى سبب قانونى أو أخلاقى لأن تقتسم النقود مع أورفيك ميدلاند".

قال ألفريد: "لقد استخدمت مواد ومعدات خاصة بالشركة. كان مفهومًا أننى سأشاركهم فى أى دخل يأتينى من الاختراعات. ولقد عرّفنى مارك جامبوريتس بمحامى براءات الاختراع. وأعتقد أنه أكرمنى فى أتعابه التى تقاضاها منى".

"كان هذا قبل خمسة عشر عامًا! لم يعد هناك وجود للشركة! من تفاهمت معهم على هذا الكلام أصبحوا موتى".

"ليسوا جميعًا، مارك جامبوريتس لم يمت".

"بابا، هذه مشاعر لطيفة منك، أتفهم شعورك لكن..."

"أشك أنك تفهم".

"شركة السكة الحديد اغتصبتها وقضت عليها مجموعة الأخوان روث".

"لن أناقش معك هذا الموضوع، انتهينا".

"هذا أمر مقرز! مقرز! أنت مخلص لشركة سرقتك وسرقت سان جود بكل طريقة يمكن التفكير فيها. إنها تسرقك ثانية، الآن، فى تأمينك الصحى".

"لك آراؤك ولى آرائى".

"وأنا أقول أنك غير مسئول. أنت أنانى. إن كنت تريد أكل زبدة الفول السودانى وتكتفى بالقروش القليلة فهذا شأنك، لكن ليس عدلاً لماما وليس عدلاً لـ..."

"لا يهمنى بالمرة رأيك أو رأى أمك".

"ليس عدلاً لى! من سيدفع فواتيرك إذا وقعت فى مشكلة؟ من سيكون عونك وظهرك؟"

"سأتحمل ما على تحمله. نعم، وسوف آكل زبدة الفول السودانى إن اضطررت لهذا. أنا أحب زبدة الفول السودانى، هو طعام جيد".

"وإن اضطرت ماما لأكل هذا الطعام، فهل ستأكله بدورها؟ هه؟ يمكن أن تأكل أكل الكلاب لو اضطرت! من يهمه ما تريده هى؟"

"جارى، أعرف الصح والواجب. لا أتوقع منك أن تفهم... لا أفهم قراراتك.. لكن أعرف ما هو المنصف والعادل. انتهينا".

قال جاري: "قصدي، أعط شركة أورفيك ميدلاند ألفين وخمسمائة دولار لو كان هذا ضروريًا، لكن براءة هذا الاختراع تساوي..."

"انتهينا، قلت لك انتهينا. أمك تريدك".

صاحت إنيد: "جاري. أوركسترا سان جود السيمفوني سيعزف كسارة البندق في ديسمبر! عزفهم جميل في السيمفونيات، وتذاكرهم تنفد بسرعة، قل لي، هل أشتري تسع تذاكر لليلة الكريسماس؟ هناك حفل مسائي مبكر يبدأ في الثانية عصرًا، أم هل نذهب ليلة الثالث والعشرين إن كنت تعتقد أن هذا أفضل. القرار لك".

"أمي، اسمعيني. لا تدعي بابا يقبل بهذا العرض. لا تدعيه يفعل أي شيء حتى أرى الرسالة. أريدك أن ترسلي لي نسخة منها بالبريد، غدًا".

"طيب، سأفعل، لكن أعتقد أن المهم الآن هو كسارة البندق، أن أشتري تسع تذاكر، ونذهب معًا، لأنها تنفد سريعًا يا جاري، بسرعة جداً، لن تصدق سرعة نفاد التذاكر".

عندما انتهت المكالمة أخيرًا، وضع جاري يديه على عينيه ورأى بألوان كاذبة في الظلام، في شاشة عرضه السينمائية الذهنية، صورتين للجولف: إنيد تحسن مسكتها للمضرب، وألفريد يستخف بسوء إلمامه باللعبة.

العجوز أدى نفس المشاهد الانهزامية قبل أربعة عشر عامًا، بعد أن اشترت مجموعة الأخوان روث شركة ميدلاند باسيفيك. كان ألفريد على مسافة شهور قليلة من عيد ميلاده الستين عندما أخذه

فينتون كريل، رئيس ميدلاند الجديد إلى الغداء فى مطعم موريلى فى سان جود. كان كبار رؤساء الشركة وقتها يطاردون من الإخوة روث بقوة حتى يشتروا الشركة منهم، لكن ألفريد، بصفته كبير المهندسين، لم يكن ضمن هذه النخبة. فى فوضى إغلاق مقر سان جود ونقل العمليات إلى ليتل روك، كان الإخوة روث يحتاجون شخصًا للحفاظ على السكة الحديد عاملة حتى يتعلم فريق العمل الجديد، الذى يرأسه كريل، تفاصيل المهنة. عرض كريل على ألفريد علاوة 15فى المائة ونصيب يأخذه مرة واحدة من أرباح أورفيك إن مكث مع الشركة عامين إضافيين ليشرف على عملية النقل إلى ليتل روك لاستمرار العمل.

كان ألفريد يكره الإخوة روث، واضطر لأن يقول لا، لكن تلك الليلة، فى البيت، راحت إنيد تحاول إقناعه بتغيير رأيه. أوضحت له أن أسهم أورفيك وحدها ثمنها ٧٠ ألف دولار، وأن معاشه سيستند إلى راتبه لآخر ثلاث سنوات، وأن لديه فرصة أن يزيد معاشه بنسبة ١٥ فى المائة.

هذه الحجج المغرية التى لا يمكن مقاومتها بدا وكأنها ستقنع ألفريد بالعدول عن رأيه، لكن بعد ثلاث ليالٍ عاد إلى البيت وأعلن لإنيد أنه تقدم باستقالته ذلك اليوم وأن كريل قبل الاستقالة. وقتها كان ألفريد على مسافة سبعة أسابيع من عام كامل من راتبه الأخير الأكبر فى حياته، ولم يكن معقولاً بالمرة أن يستقيل. لكنه لم يبد أى تفسير، لا وقتها ولا بعدها، إطلاقًا، لا لإنيد أو لأى أحد. قال ببساطة: لقد اتخذت قرارى.

على مائدة الكريسماس فى سان جود ذلك العام، بعد لحظات من وضع إنيد بحركة مختلسة لقطعة إوز محشية بعين الجمل فى

طبق آرون الصغير، وبعد أن أمسكت كارولين بالقطعة من الطبق ودخلت إلى المطبخ وألقتها فى صفيحة القمامة قائلة: "هذا دهن صاف، يالـلقرف". فقد جارى أعصابه وهتف: "ألم تتمكن من الانتظار سبعة أسابيع؟ لم تنتظر حتى تتم خمس وستين عامًا؟"

جارى، لقد عملت بجد طيلة حياتى، ومسألة معاشى تخصنى أنا لا أنت.

كان الرجل حريصًا على التقاعد لدرجة أنه لم ينتظر هذه الأسابيع السبعة الأخيرة، ماذا فعل فى معاشه؟ جلس فى مقعده الأزرق.

لم يكن جارى يعرف شيئًا عن آكسون، لكن أورفيك ميدلاند كانت من الشركات التى يأخذ راتبه لكى يبقى على علم بتفاصيل عملها وإدارتها. كان يعرف أن الإخوة روث باعوا نصيبهم الذى يمنحهم حق السيطرة على الشركة لكى يغطوا خسارتهم من استثمار لهم فى منجم ذهب كندى. انضمت أورفيك ميدلاند إلى مصاف الشركات الضخمة العليلة التى تزخر أمريكا بمقارها، ومديريها تم استبدالهم كأنهم حروف فى لعبة تعتمد على اللعب بالحروف، سريعة التبديل، حتى إن جارى عندما وافق على آخر عملية شراء من أورفيك لصالح بورتفوليو بنك سين - تراست، لم يكن قد تبقى من البشر العاملين فى الشركة التى أغلقت ثالث أكبر مشغل للموظفين فى سان جود أى أحد، وكانت خدمات القطارات قد توقفت تمامًا فى مناطق كانساس الريفية. خرجت شركة أورفيك ميدلاند من صناعة النقل والمواصلات تماماً. ما تبقى منها هو خطوط الشاحنات التى بيعت لتمكين الشركة من التركيز على

صناعة بناء السجون وإدارة السجون ومحلات القهوة والخدمات المالية، ونظام جديد للألياف البصرية مدفون فى مسار السكة الحديد القديم.

هل هذه هى الشركة التى يشعر ألفريد نحوها بالولاء؟

كلما فكر جارى فى الموضوع.. زاد غضبه. جلس فى مكتبه غير قادر على وقف امتعاضه المتزايد أو من إبطاء وتيرة أنفاسه السريعة. لم ير الشمس الصفراء كقرع العسل التى بلغت أشجار التيوليب وراء النافذة. لم ير شيئاً إلا المبادئ المعرضة للخطر أمام ناظريه.

ربما كان ليجلس هكذا لأجل غير مسمى، فى جموده، يتقدم لنفسه بالأدلة المدينة لوالده، لولا أنه سمع حفيفًا خارج باب الحجرة. نهض إلى قدميه وفتح الباب.

كان كاليب جالسًا القرفصاء على الأرض، يدرس الكتالوج: "هل يمكننى أن أتكلم معك؟"

"هل كنت جالسًا هنا تتنصت علىَّ؟"

قال كاليب: "لا. قلت أن بإمكاننا الكلام بعد أن تنتهى من المكالمة. عندى سؤال، كنت أتساءل ما هى الحجرة التى يمكننى أن أخضعها للمراقبة".

حتى مع وضع الكتالوج المقلوب لناظريه، كان بإمكان جارى أن يدرك أن أسعار المعدات فى كتالوج كاليب ـ أشياء مثل حقائب ألمونيوم وشاشات إل سى دى ـ أثمانها تتعدى الثلاثة والأربعة أصفار.

قال كاليب: "هذه هوايتى الجديدة. أريد أن أخضع إحدى الحجرات للمراقبة. تقول أمى إن لا بأس بالمطبخ إن كنت لا تعارض".

"تريد أن تضع المطبخ تحت المراقبة على سبيل الهواية؟"

"آه!"

هزّ جارى رأسه. كانت لديه هوايات كثيرة وهو صبى، وراح يقول لنفسه لمدة طويلة إن ولديه ليس لديهما أية هواية بالمرة. لكن مع الوقت أدرك كاليب أنه إذا استخدم كلمة "هواية" فسوف يعطى جارى الضوء الأخضر للنفقات التى تستتبعها الهواية، وإلا فسوف يحظر على كارولين شراء أى شىء له. وهكذا كانت هواية كاليب هى الفوتوغرافيا حتى جلبت له كارولين كاميرا حديثة، ومجموعة عدسات من أجل زووم أفضل من زووم كاميرا جارى، وكاميرا ديجيتال أخرى. وأصبحت هوايته الكمبيوتر حتى اشترت له كارولين لاب توب صغيرًا ونوت بوك. لكن الآن كاليب بلغ الثانية عشرة من عمره تقريبًا، وقد أدرك جارى مرارًا وتكرارًا حقيقة أسلوب الفتى. أصبح منتبهًا لمسألة الهواية هذه. أخذ على كارولين عهدًا بألا تشترى لكاليب معدات أخرى من أى نوع دون أن تشاوره أولاً.

قال: "المراقبة ليست هواية".

"بابا، بل هى كذلك! أمى هى من اقترحتها. قالت إن بإمكانى أن أبدأ بالمطبخ".

طرأت فكرة على ذهن جارى، اعتبرها بادرة أخرى على الاكتئاب: دولاب الخمور فى المطبخ.

"الأفضل أن أتكلم مع أمك، اتفقنا؟"

"لكن المحل مفتوح حتى السادسة فقط".

"يمكنك الانتظار بضعة أيام. لا تقل لى إنه لا يمكنك".

"لكننى منتظر منذ الظهر. قلت إنك ستتكلم معى، والآن اقترب الليل".

مسألة أن الليل قد اقترب تعنى لجارى تصريحاً بالشرب. دولاب الخمور فى المطبخ. اتخذ خطوة فى ذلك الاتجاه: "ما هى المعدات التى تريدها بالضبط؟"

"مجرد كاميرا وميكروفون وجهاز تحكم". ألقى كاليب الكتالوج تجاه جارى.. "انظر، لا أحتاج حتى لهذا النوع باهظ الثمن. هذا ثمنه ٦٥ لا أكثر. أمى تقول إن لا بأس بشرائه".

مرة تلو الأخرى يشعر جارى بأن هناك شيئًا ما خطأ ترغب أسرته فى نسيانه، شىء لا يصر أحد غيره على تذكره، شىء يتطلب منه أو يومئ برأسه ببساطة موافقًا على كل شىء، بادرة منه على الرغبة فى النسيان. هذا الإحساس بدوره بادرة مقلقة.

قال: "كاليب، يبدو أنك ستمل من هذا الموضوع سريعًا. يبدو مكلفاً وأشعر أنه لن يهمك لمدة طويلة".

قال كاليب فى ألم: "لا لا، أنا مهتم به كثيرًا. بابا، هذه هواية".

"لقد مللت سريعًا من بعض الأشياء الأخرى التى اشتريناها لك. أشياء قلت عنها بدورها أنك مهتم بها كثيرًا قبل شرائها".

قال كاليب متوسلاً: "هذا مختلف. هذه المرة أنا مهتم جدًا جدًا".

من الواضح أن الولد مستعد لإنفاق أى عملة كلامية لشراء موافقة وإذعان والده.

قال جارى: "أتدرك ما أقوله عمومًا؟ هل ترى هذا النمط الذى تكرره؟ تبدو الأشياء مغرية هكذا قبل شرائها ثم تبدو على هيئة أخرى بعد الشراء؟ إحساسك بها يتغير بعد أن تشتريها. هل تدرك هذا؟"

فتح كاليب فمه، لكن قبل أن ينطق برجاء أو شكوى أخرى، ظهر الفهم على وجهه.

قال فى تواضع ظاهر: "أعتقد هذا، أعتقد أننى فهمت".

قال جارى: "إذن، هل تعتقد أن هذا الشىء سيتكرر مع المعدات الجديدة؟"

بدا على كاليب أنه يقلب السؤال من كافة أوجهه قبل أن يرد: "أعتقد أنه مختلف". كذا قال أخيرًا.

قال جارى: "طيب. لكن أريدك أن تتذكر هذا النقاش بيننا. لا أريد أن يتكرر هذا الكلام مرة أخرى مع لعبة باهظة الثمن تلعب بها أسبوعًا أو اثنين ثم تهملها. سوف تصبح مراهقًا قريبًا جداً، وأريد أن أرى منك فترات اهتمام أطول بالأشياء."

قالت كارولين فى حرارة: "جارى، ليس هذا عدلاً".. كانت تقترب قادمة من الصالة وهى تعرج، وكتفها معوج ويدها وراء ظهرها، فى محاولة للضغط على كيس الثلج الطبى.

"أهلاً يا كارولين. لم أدرك أنك تسمعيننا".

"كاليب لا يهمل الأشياء".

قال كاليب: "هذا صحيح، أنا لا أهمل".

قالت كارولين لجارى: "ما لا تفهمه أنت، أن كل شىء يُستخدم فى هذه الهواية الجديدة. هذا هو العبقرى فى الموضوع. سوف يستكشف كيف يستخدم كل تلك المعدات مع بعضها فى..."

"طيب، رائع، يسعدنى هذا الكلام".

"يفعل شيئًا مبتكرًا فتجعله أنت يشعر بالذنب؟"

ذات مرة، عندما تساءل جارى بصوت مسموع إن كان منح كاليب كل هذه الكماليات والأدوات قد يعرض خياله للخطر، ردت عليه كارولين بإجابات كادت تصل إلى اتهامه بذبح ابنه. من بين كتب تربية الأبناء المفضلة لها، كتاب "الخيال التكنولوجى: ما يمكن لأطفال اليوم أن يعلموه لآبائهم"، وفيه تتحدث الدكتور نانسى كلايمور عن "المنظور المُتعب" للطفل الموهوب بصفته عبقرية منعزلة اجتماعيًا فى مقابل "المنظور المربوط بالتكنولوجيا" للطفل الموهوب بصفته مستهلكًا متصلاً بالعالم بشكل مبتكر، قائلة بأن الألعاب الإلكترونية ستصبح قريبًا رخيصة ومنتشرة لدرجة أن خيال الطفل لن يستمر فى الاستفادة من الرسوم وحكى الحكايات، بل عليه أن يلجأ للتقنيات الحديثة ويستفيد منها، وهى فكرة وجدها جارى مقنعة ومثيرة للاكتئاب فى الوقت نفسه. عندما كان صبيًا، ليس أصغر من كاليب بكثير، كانت هوايته هى بناء النماذج المصغرة باستخدام أعواد المصاصات.

قال كاليب: "هل يعنى هذا أننا سنذهب إلى المحل الآن؟"

قالت كارولين: "لا يا كاليب، ليس الليلة، الساعة قاربت السادسة".

ضرب كاليب الأرض بقدمه: "هذا ما يحدث دائمًا! انتظار انتظار، ثم يتأخر الوقت".

قالت كارولين: "سوف أستأجر فيلمًا. سنحضر الفيلم الذى تريده".

"لا أريد فيلمًا، أريد المراقبة".

قال جارى: "هذا لن يحدث.. خلاصة الكلام".

ذهب كاليب إلى حجرته وصفق الباب بقوة. مضى جارى ورائه وفتح الباب: "هذا يكفى. نحن لا نصفق الأبواب فى هذا البيت".

"أنت تصفق الأبواب!".

"ولا كلمة واحدة أخرى منك".

"أنت تصفق الأبواب!".

"هل تريد قضاء الأسبوع كله فى حجرتك؟"

رد كاليب بأن عقد جبينه ومص شفتيه إلى داخل فمه... ولا كلمة أخرى.

تحولت نظرة جارى إلى أركان حجرة الصبى التى لا يحبذ دائمًا النظر إليها. أكوام مهملة، مثل غنائم السرقة فى شقة لص، معدات تصوير وكمبيوتر وفيديو حديثة باهظة الثمن، ربما تتجاوز الراتب السنوى لسكرتير جارى فى بنك سين - تراست. كل هذا البذخ فى عرين طفل يبلغ من العمر ١١ عامًا! المواد الكيميائية العديدة الممتنعة عن التدفق فى مسارات جارى العصبية طيلة فترة ما بعد الظهر تدفقت وأغرقت عقله. شلال من التفاعلات بدأت بإرخاء "الفاكتور رقم ٦ لمحابس الدموع وأرسلت موجة من الإحساس

بالغثيان فى العصب الرئوى المعوى: "إحساس" بأنه يستمر فى الحياة يومًا بعد يوم بأن يشتت انتباهه متعمدًا عن الحقائق التى تزيدها الأيام ثباتًا وإلزامًا. حقيقة أنه سيموت. أن تكويم الكنوز فوق قبرك لن ينقذك.

النور القادم من النوافذ يخبو سريعًا.

قال وهو يشعر بانقباض فى صدره: "هل ستستخدم كل هذه المعدات فعلاً؟"

هز كاليب رأسه وشفتيه ما زالت داخل فمه.

قال جارى: "يجب ألا يصفق أحد الأبواب، ولا أنا. اتفقنا؟"

"نعم يا بابا، ما علينا".

وهو يخرج من حجرة كاليب إلى الردهة المظلمة، كاد يصطدم بكارولين، التى كانت تسير مسرعة على أطراف أصابع قدميها - داخل الجورب - فى اتجاه حجرة نومهما.

"مرة أخرى؟ مرة أخرى؟ أقول لك لا تتنصتى وتفعلى فعلتك هذه؟"

"أنا لا أتنصت. يجب أن أذهب لأرقد". ثم أسرعت مبتعدة وهى تعرج إلى حجرة النوم.

قال جارى وهو يمشى ورائها: "أجرى لكن لن تختبئى. أريد أن أعرف لماذا تتنصتين علىّ".

"هذه بارانويا، أنا لا أتنصت".

"بارانويا؟"

حطت كارولين بقوة على السرير الكبير المصنوع من خشب البلوط. بعد أن تزوجت جارى خضعت لعلاج نفسى مرتين فى الأسبوع، استمر خمسة أعوام، ثم أعلن المُعالج فى الجلسة الأخيرة: "نجاحاً غير مسبوق للعلاج"، وهو ما أعطاها - فى رأيها - تفوقًا أبديًا على جارى فى سباق الصحة النفسية بينهما.

قالت: "تعتقد أن المشكلة مشكلة الجميع إلا نفسك. وهو ما تراه أمك بدورها. دون حتى أن..."

"كارولين، أجيبينى، هو سؤال واحد. انظرى فى عينى وأجيبى على سؤالى. هذا العصر، عندما كنا..."

"يا ربى يا جارى، كفى. اسمع نفسك وما تقوله".

"عندما كنتِ تلعبين فى المطر، تهلكين نفسك من التعب، تحاولين مجاراة ولد فى الحادية عشرة وآخر فى الرابعة عشرة".

"أنت مهووس، أنت مهووس بهذه الفكرة!"

"تجرين وتتزحلقين وتركلين فى المطر".

"تتكلم مع والديك ثم تنفس غضبك فينا".

"هل كنت تعرجين قبل أن تدخلى البيت؟" جارى يهز إصبعه فى وجه زوجته، "انظرى فى عينى يا كارولين. انظرى فى عينى. هيا! انظرى! انظرى فى عينى وأخبرينى أنك لم تكونى تعرجين وقتها".

راحت كارولين تهتز للأمام والخلف من الألم: "كنت على التليفون معهما لما يقارب الساعة".

هتف جارى فى إحساس لاذع بالانتصار: "لا يمكنك أن تفعلى هذا! تكذبين علىّ ولا تعترفين بالكذب!".

"بابا! بابا!" صوت هتاف من خارج الباب. التفت جارى ورأى آرون يهز رأسه بقوة، لا يتمالك نفسه، وجهه الجميل ملتو والدموع تنهمر عليه، "كفاك صياحًا فيها!".

العامل العصبى الخاص بالندم (الفاكتور ٢٦ يتدفق داخل مخ جارى المصمم خصيصًا للتعامل مع هذا العامل وكبته.

قال: "آرون، اهدأ".

التفت آرون وأولاه ظهره، ثم راح يخطو خطوات كبيرة فى مكانه، لا يتحرك، وكأنه يحاول إجبار الدموع التى تتدفق من عينيه على العودة إلى جسده، إلى ساقيه. "يا ربى، أرجوك يا بابا، لا تصرخ فيها".

قال جارى: "طيب يا آرون، انتهينا من الصراخ".

مد يده ليلامس كتف ابنه، لكن آرون راوغه وابتعد. ترك جارى كارولين وخرج وراءه، إحساسه بالعزلة يتعمق مع إحساسه أن لزوجته حلفاء أقوياء فى البيت. أبناؤه يحمونها من زوجها. زوجها كثير الصراخ. مثل والده من قبله. والده من قبله أصبح الآن مريضًا بالاكتئاب. لكن عندما كان (فى عزّه) كثير الصراخ، كان يخيف جارى الصغير كثيرًا لدرجة أنه خطر له أن يتدخل ليعين أمه عليه.

كان آرون راقدًا فى سريره ووجهه فى الوسادة. فى خضم فوضى الملابس المتسخة والمجلات على أرضية حجرته، كانت نقطتا النظام هما آلة الترومبيت ومجموعة الأسطوانات الموسيقية المرتبة أبجديًا ومعها مجموعة كاملة من أسطوانات ديزى وساتشمو ومايلز ديفيز، بالإضافة إلى كميات متنوعة من أسطوانات شيت باكر ووينتون

مارسيلس وتشاك مانيون وهيرب ألبرت وآل هيرت، وكلها مجموعات أعطاها جارى له لتشجيعه على اهتمامه بالموسيقى.

جثم جارى على طرف السرير. قال: "أنا آسف لأنى ضايقتك. كما تعرف، قد أتحول أحيانًا إلى شخص خبيث يحب إطلاق الأحكام على الناس. لكن أحيانًا ترفض أمك الاعتراف بأنها أخطأت. خصوصاً عندما..."

"ظهرها. يؤلمها"، صوت آرون المنبعث مكتومًا من تحت وسادة صغيرة من تصميم رالف لورين، "إنها لا تكذب".

"أعرف أن ظهرها يؤلمها يا آرون، وأنا أحب أمك كثيرًا".

"إذن لا تصرخ فيها".

"حاضر. انتهى الصراخ. هيا لنحضر العشاء". ربت جارى بخفة على كتف آرون، "ما رأيك؟"

لم يتحرك آرون. يبدو إذن أن المطلوب هو كلمات مبهجة أكثر، لكن جارى غير قادر على التفكير فى أى شىء. كان يعانى من قصور حاد فى العاملين الكيميائيين، فاكتو ١و٢ كان يتخيل قبل ثوان معدودة أن كارولين على وشك اتهامه بأنه "مكتئب" وكان يخشى إذا اكتسبت فكرة الاكتئاب تصديقًا من آخرين أن يتنازل عن حقه فى آرائه بخصوص الاكتئاب والإصابة به. سوف يتنازل عن مواطن يقينه الأخلاقية، كل كلمة يقولها ستصبح فى رأيه عرض من أعراض المرض، ولن يكسب أى جدال بعد ذلك أبدًا.

من ثم، كان من المهم أكثر الآن أن يقاوم الاكتئاب، أن يقاومه بالحقيقة.

قال: "اسمعنى. كنتم فى الخارج مع ماما تلعبون الكرة. قل لى إن كنت محقًا فيما سأقوله: هل كانت تعرج قبل أن تدخل البيت؟"

للحظة، مع مفارقة آرون للوسادة، تخيل جارى أن الحقيقة سوف تسود. لكنه رأى فى وجه آرون احتقانًا هو احتقان الازدراء وعدم التصديق.

قال: "أنت مرعب! أنت مرعب!" ثم هرب من الحجرة.

فى الظروف العادية ما كان جارى ليدع آرون يفلت بما قاله. فى الظروف العادية كان لينازل ابنه طيلة المساء إن كان هذا هو المطلوب لانتزاع اعتذار منه. لكن سوقه العقلى الحالى، بكل مواده الكيميائية، كان يتحطم وينهار. كان يشعر بالقبح، بأن المعركة مع آرون الآن لن تؤدى إلا لزيادة إحساسه بالقبح، وربما كان الإحساس بالقبح بادرة تحذير مهمة.

رأى أنه ارتكب غلطتين خطيرتين. ما كان يجب أن يعد كارولين أبداً بأنهم لن يذهبوا فى الكريسماس إلى سان جود. واليوم، عندما كانت تعرج وتتألم فى الفناء الخلفى، كان يجب أن يلتقط لها ولو صورة واحدة. ها هو الآن حزين على نقاط التفوق الأخلاقية التى كلفته إياها هذه الغلطات.

قال لانعكاسه فى نافذة مظلمة فى الحجرة: أنا لست مريضًا بالاكتئاب". وبضغط عظيم جبار من الإرادة الحديدية، وقف من جلسته على سرير آرون ثم تقدم إلى الأمام ليثبت لنفسه أنه قادر على الأمسيات العادية.

كان جوناه يصعد درجات السلم المظلمة ومعه كتاب "الأمير كاسبيان". قال: "انتهيت من الكتاب".

"هل أعجبك؟"

قال جوناه: "أعجبنى جدًا. هذا أدب أطفال مدهش، رائع. صنع أسلان بابًا فى الهواء يمر منه الناس فيختفون. خرجوا من نارنيا وعادوا إلى دنيا الواقع".

نزل جارى على ركبتيه وقال: "تعال عانقنى".

أحاطه جوناه بذراعيه، أحس جارى بخفة مفاصله اليانعة، الحرارة التى تشع من فروة رأسه ووجنتيه. كان ليقطع رقبته بيده إن كان الولد فى حاجة للدم، حبه كثيف وقوى لهذه الدرجة، لكنه يتساءل إن كان الحب فقط هو المطلوب الآن أم أنه يحتاج أيضًا إلى بناء التحالفات، أن يبحث لنفسه عن حليف تكتيكى يقف إلى جانبه.

ما يحتاجه هذا الاقتصاد الراكد هو ضخ جبار لخمور بومباى الياقوتية، هكذا فكر رئيس مجلس الاحتياطى الفيدرالى جارى ر. لامبرت.

كانت كارولين وكاليب فى المطبخ منكبان على المائدة يشربان كوكاكولا ويأكلان الشيبسى. كانت ساقا كارولين على مقعد آخر، ووسادتين تحت ركبتيها.

قال جارى: "ماذا سنتناول على العشاء؟"

تبادلت زوجته مع ابنه الأوسط النظرات وكأن هذا هو سؤاله المزعج الشهير. من وسط رقائق الشيبسى رأى أنهما ماضيان بهمة إلى طريق المزاج الغذائى الفاسد الليلة.

قالت كارولين: "ميكس جريل ربما".

قال كاليب بصوت لا هو سخرية ولا حماس: "أه يا بابا، ميكس جريل!"

سأل جارى إن كان يوجد لحم.

حشرت كارولين البطاطس فى فمها وهزت رأسها.

طلب جوناه الإذن بإشعال نار للطهى.

جارى ـ الذى كان يُخرج الثلج من الفريزر ـ منحه الإذن.

مساء عادى. مساء عادى.

قال كاليب: "إن وضعت الكاميرا على المائدة، سوف ترصد الكاميراً جزاءً من حجرة الطعام أيضًا".

قالت كارولين: "هكذا لن ترصد المشهد المطلوب. إذا وضعتها فوق الباب الخلفى، يمكن أن ترصد الاتجاهين".

حمى جارى نفسه بباب دولاب الخمور بينما راح يصب لنفسه كمية ضخمة من الجين على الثلج.

قال كاليب وهو يقرأ من الكتالوج: "الارتفاع: ٨٥ـ"

"هذا يعنى أن بإمكان الكاميرا أن ترصد المشهد حتى الأرض".

ما زال محميًا بباب الدولاب، تجرع جرعة مدفئة من الشراب. ثم وهو يغلق الباب، رفع الكأس فى حال كان هناك من يريد أن يعرف كم هو غير نهم فى الكأس الذى صبه لنفسه.

قال: "يؤسفنى أن أزعجكما، لكن المراقبة لا تصلح، ليست مناسبة كهواية".

"بابا، قلت إن لا بأس بها طالما استمر اهتمامى بهذه الهواية".

"قلت سأفكر فى الموضوع".

هز كاليب رأسه فى قوة: "لا! قلت إن بإمكانى الحصول على هذه المعدات طالما لن أمل منها".

أكدت كارولين كلامه بابتسامة صفراء: "هذا هو ما قلته بالضبط".

"نعم يا كارولين، أنا متأكد أنك سمعت كل كلمة. لكن لن نراقب هذا المطبخ. كاليب، لم أعطك إذنى بشراء هذه المعدات".

"بابا!"

"هذا قرارى وهو نهائى".

قالت كارولين: "لا يهم يا كاليب. جارى، المسألة ليست مهمة، لأن معه نقوده، يمكنه إنفاقها كما يشاء. صح يا كاليب؟"

بعيداً عن أعين جارى، من تحت المائدة، مدت يدها لكاليب لتنبهه ليصدق على كلامها.

"صح، عندى مدخراتى!" نبرة كاليب مرة أخرى لا هى ساخرة ولا هى متحمسة، أو هى الاثنين معًا.

قال جارى: "سوف نتحدث فى هذا الموضوع فيما بعد يا كارو". الدفء والحيرة والبلادة، مشاعر تنبعث من الجين، تحط عليه من وراء أذنيه، تتسلل إلى ذراعيه وجذعه.

عاد جوناه إلى المطبخ مبتسمًا ابتسامة عريضة.

فتحت كارولين كيساً ثانياً عملاقًا من الشيبسى.

قال جارى بصوت مأزوم وهو يُخرج الطعام من دواليب المطبخ: "لا تفسدوا شهيتكم يا جماعة".

تبادلت الأم والابن النظرات مرة أخرى.

قال كاليب: "نعم، صحيح، لابد أن نترك مساحة للميكس جريل!"

قطّع جارى اللحم إلى شرائح بحماس ووضع الخضراوات فى الأسياخ. جهز جوناه المائدة، مباعداً ما بين أدوات المائدة حسب رغبته. توقف المطر، لكن الأرض كانت زلقة عندما خرج جارى.

بدأ الأمر كمزحة عائلية... دائماً ما يطلب بابا الميكس جريل من المطعم، دائماً ما لا يريد بابا الذهاب إلا للمطاعم التى تقدم الميكس جريل. بالنسبة لجارى هناك شيء لذيذ لذاذة مطلقة، شيء لا يقاوم، فى قطع اللحم، كندوز أو خنزير أو بتلو، وقطعتين أو ثلاث من السجق، ميكس جريل تقليدى باختصار. كانت أكلة لذيذة بالنسبة له لدرجة أنه بدأ فى تحضير الميكس جريل فى البيت. بالإضافة إلى البيتزا والأكل الصينى والباستا، أصبح الميكس جريل من ثوابت البيت الغذائية. ساعدته كارولين بأن أصبحت تُحضر كل سبت أكياساً ثقيلة تقطر دماً من اللحم والسجق، وبعد قليل بدأ جارى يعد الميكس جريل مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، مقاوماً الطقس الردىء فى التراس، وكان يحب ما يفعله. أعد صدور وكبد وفيليه دجاج، وسجق ديك رومى ببهارات مكسيكية. كان يُعد الزوتشينى بالفلفل الأحمر، والباذنجان والفلفل الأصفر والبتلو الصغير والسجق الإيطالى. ثم إنه أعد وصفة ممتازة: كومبو لحم الضلوع بالضلوع. أحب هذا الأكل وأحبه وأخلص فى حبه، ثم أصبح لا يحبه فجأة.

عرف بالمصطلح الطبى "أنيدونيا" من كتاب مبسط من كتب كارولين عنوانه "صحة ممتازة" (الدكتورة آشلى ترالبيس). قرأ

تعريف القاموس للمصطلح فاعترته قشعريرة الإدراك، إحساس بـ "نعم، نعم، هو ذلك". هو حالة نفسية تتسم بعدم القدرة على إدراك المتعة فى الأعمال الممتعة بطبيعتها. "أنيدونيا" أكثر من بادرة تحذير، هى عرض واضح وصريح. جفاف يصيب إحساس متعة وراء آخر، فيروس يفسد المتعة والسرور فى المُتع التى غذت جارى على مدار السنين لمواجهة ضعف تفكير وقلة حيلة والديه.

فى مارس الماضى، فى سان جود، أشارت إنيد أنه على كونه نائب مدير بنك متزوج من سيدة تعمل نصف يوم بشكل تطوعى لصالح صندوق للدفاع عن مصالح الأطفال، يبدو أن جارى يطبخ كثيرًا جدًا. أسكت جارى أمه بسهولة تامة، فهى متزوجة من رجل لا يمكنه أن يقلى بيضة، ومن الواضح أنها تشعر بالغيرة. لكن فى عيد ميلاد جارى، بعد أن عاد طائرًا من سان جود مع جوناه ونال المفاجأة الباهظة، معمل تحميض الصور، بعد أن حشد القدرة على أن يقول متعجبًا مسرورًا: حجرة تحميض، يا للروعة، أعجبتنى جدًا جدًا، ناولته كارولين طبقًا من الجمبرى النيئ وشرائح ضخمة من السمك ليشويها، فتساءل إن كانت أمه محقة. فى التراس، وسط الحرارة المشعة من الشواء، وهو يقوم بشى الجمبرى حتى تفحم، ويطهو السمك جيدًا، اعتراه إحساس بالتعب. مشاهد حياته غير المتعلقة بالشواء الآن لا تزيد على لقطات سريعة بين لحظات متكررة يشعل فيها الشواية وهو واقف فى التراس، محاولاً تفادى استنشاق الدخان. وهو يغمض عينيه رأى قطعتين من اللحم المشوى فوق شبكة من الكروم وفحم لافح. الاحتراق الأبدى، احتراق المذنبين. عذابات التكرار الإلزامى القهرى. على الجدران الداخلية للشواية طبقة سميكة من الدهون المسودة المتراكمة. الأرض وراء

الجراح حيث يرمى تراب الفحم وكأنها قطعة من أرض القمر أو فناء لمصنع أسمنت. كان يشعر بتقزز بالغ من الميكس جريل، وفى الصباح التالى قال لكارولين: "أنا أطهو كثيرًا جدًا".

قالت: "إذن قلل من طهيك. سوف نأكل فى الخارج".

"أريد أن آكل فى البيت وأريد أن أقلل من الطهى".

قالت: "إذن أطلب من المطاعم".

"ليس هذا كذاك".

"أنت من تفضل دائمًا أن نأكل العشاء معًا على المائدة. الأولاد لا يهتمون".

"أنا مهتم بهذا الموضوع، هو مهم لى".

"لا بأس، لكن يا جارى، هو ليس مهمًا لى، ليس مهمًا للأولاد، وهل المطلوب أن نطبخ لك؟"

لا يمكنه أن يلقى اللوم كاملاً على كارولين. فى السنوات التى كانت تعمل فيها بدوام كامل، لم يكن يشتكى مطلقًا من العشاء المجمد أو المطلوب من المطاعم أو سابق التجهيز. الأرجح بالنسبة لكارولين أن إحساسه هو أنه يغير لها قواعدها المألوفة. لكن بالنسبة لجارى، بدا كأن طبيعة الحياة الأسرية ذاتها تغيرت، هذا التجمع والمحبة والترابط لا قيمة لها الآن، كحالها وهو صغير.

ها هو إذن مستمر فى الشواء. من وراء نوافذ المطبخ يرى كارولين تلاعب جوناه الريست. يراها تأخذ سماعات آرون لتستمع إلى موسيقاه، يراها تهز رأسها مع إيقاع الموسيقى. تبدو له حياة أسرية. هل هناك أى شىء خطأ فيما يراه سوى مرض الاكتئاب المنبعث من الرجل الذى يختلس النظر إليهم؟

يبدو أن كارولين نست كم يؤلمها ظهرها، لكنها سرعان ما تذكرت ما إن دخل ومعه طبق البروتين الحيوانى البركانى، يتصاعد منه الدخان. تجلس مائلة إلى المائدة، تداعب أكلها بالشوكة وهى تئن فى خفوت. راح كاليب وآرون ينظران إليها فى قلق عظيم.

قال جوناه: "أليس هناك من يريد أن يعرف كيف انتهت رواية الأمير كاسبيان؟ ألا يثير فضولكم بالمرة؟"

جفون كارولين ثقيلة، فمها مفتوح فى تعاسة ليدخل الهواء ويخرج إليها ومنها. ناضل جارى ليفكر فى شىء غير اكتئابى يقوله، شىء غير عدوانى بدرجة معقولة، لكنه كان مخموراً.

قال: "بريك يا كارولين. نعرف أن ظهرك يؤلمك، ونعرف أنك تعيسة، لكن إن كنت غير قادرة على الجلوس معتدلة".

نهضت من مقعدها دون كلمة واحدة، ومضت تعرج إلى الحوض بطبقها، فكبت عشاءها فى صفيحة القمامة، ومضت تعرج إلى الطابق العلوى. استأذن كاليب وآرون وفعلا مثلها بالعشاء ثم تبعاها. رغم سكب نحو ما قيمته ثلاثين دولارًا من اللحم فى القمامة، فإن جارى - وهو يحاول الحفاظ على معدلات الفاكتور ٣ بعيدة عن التدهور البالغ - نجح فى نسيان الحيوانات التى ماتت فى سبيل العشاء. جلس مستشعرًا خدر الخمر، وأكل دون أن يتذوق، مستمعًا إلى ثرثرة جوناه البراقة اللامبالية بالواقع.

"هذا اللحم ممتاز يا بابا، أريد قطعة من هذا الزوتشينى المشوى، لو سمحت".

أصوات اللعب والترفيه تنبعث من مائدة حجرة المعيشة فى الطابق العلوى. أحس جارى بالأسى على آرون وكاليب. عبء ثقيل

أن تكون لهما أم تحتاج لأبنائها بهذا الشكل، أن يكونوا مسئولين عن سعادتها، وجارى يعرف. كما يفهم أن كارولين تحس بالوحدة فى هذا العالم أكثر منه. كان والدها رجلاً وسيمًا، عنده كاريزما، هو أستاذ أنثروبولوجى مات فى حادث تحطم طائرة فى مالى وهى فى الحادية عشرة من عمرها. جدها وجدتها - أناس كلاسيكيون يفضلون استخدام اللغة الإنجليزية العتيقة من الحين للآخر - تركا لها نصف ثروتهما، ومعها لوحة جيدة لأندرو ويث، وثلاث لوحات ألوان مائية لوينسلو هومير، وأربعين فداناً قرب ميدان كينيث دفعت مقابلها شركة استثمار مبلغاً ضخماً. أم كارولين، وتبلغ من العمر سبعة وستين عاماً الآن، فى صحة جيدة بشكل مخيف، وتعيش مع زوجها الثانى فى لاجونا بيتش، وهى من أشد المؤيدين للحزب الديمقراطى فى كاليفورنيا، تأتى إلى الشرق كل ربيع، فى أبريل، لتتباهى بأنها "ليست من أولئك السيدات المسنات" المهووسات بالأحفاد. شقيق كارولين الوحيد اسمه فيليب، وهو أعزب محترف، مستور، وأخصائى فيزياء رأى من أمه شغف غير طبيعى به. جارى لا يعرف هذا النوع من الأسر فى سان جود. منذ البداية أحب كارولين وحن لها بسبب سوء حظها والإهمال الذى عانت منه وهى صغيرة. تحمل مسئولية إمدادها بأسرة أفضل.

لكن بعد العشاء، بينما كان يضع الأطباق مع جوناه فى غسالة الأطباق، بدأ يسمع ضحكات أنثوية فى الطابق العلوى، ضحكات مجلجلة، وقرر أن كارولين تسىء إليه كثيرًا. أحس بالرغبة فى الصعود وإنهاء الحفل. لكن مع تلاشى شىء من الجين من عقله، عاوده مصدر قلق أحسه فى وقت سابق من اليوم، قلق متعلق بشركة أكسون.

تساءل كيف لشركة صغيرة تتولى حاليًا أعمالاً تجريبية للغاية، أن تعرض على والده النقود.

كون الرسالة المرسلة لألفريد قادمة من مكتب محاماة براج كنوتر آند سبيج، المكتب الذى يتعامل كثيرًا مع بنوك استثمارية كبرى، أوحت له بأن الموضوع كبير ووراءه الكثير، شىء ضخم قيد التحضير.

قال جارى لجوناه: "هل تريد أن تذهب لتلعب مع أخويك؟ يبدو أنهم مستمتعون بوقتهم".

قال جوناه: "لا، شكرًا لك. سأذهب لقراءة الجزء التالى من نارنيا، وربما أذهب إلى القبو، حيث الهدوء. هل تأتى معى؟"

حجرة اللعب القديمة فى القبو ما زالت خالية من الرطوبة، يغطيها السجاد، ما زالت لطيفة، لكن ممتلئة بالركام الذى يقتل حجرات المعيشة: صناديق وكراتين ومعدات تزلج وأدوات بحر قديمة ملقاة هنا وهناك. لعب آرون وكاليب القديمة فى خمسة صناديق كبيرة وعشرة صناديق صغيرة. لا أحد إلا جوناه لامس هذه الأشياء، وفى مواجهة كل هذا الركام، فحتى جوناه ـ وحده أو مع صديق ـ يصبح بصدد عملية تنقيب أثرى صعبة. ربما يكرس مساءً بأكمله لفتح نصف كرتونة كبيرة، يرتب فى أناة الأشياء والأدوات وملحقاتها وكمالياتها: العربات، المكعبات، لعب نماذج البناء المصغرة (اللعب التى لا يجد كل أجزائها يرميها وراء الكنبة)، لكن نادرًا ما وصل إلى قعر صندوق من الصناديق قبل أن يحين موعد رحيل صديقه، أو يتم إعداد العشاء، فيعيد دفن كل شىء استخلصه من الصندوق، وهكذا فإن اللعب التى كان يمكن أن تكون جنة لفتى يبلغ من العمر

سبعة أعوام، انتهى بها المطاف دون أن يلعب بها أحد، ها هو درس آخر فى الأنيدونيا يجب أن يتجاهله جارى قدر الإمكان.

فيما جلس جوناه يقرأ، شغّل جارى لابتوب كاليب "القديم" ودخل على الإنترنت. كتب كلمات "أكسون" و"شوينكسفيل" فى محرك البحث. إحدى نتيجتا البحث تطابق الصفحة الرئيسية لموقع شركة "أكسون"، لكن هذا الموقع عندما حاول جارى بلوغه، تبين أنه "تحت التجديد". الرابط الآخر قاده إلى صفحة ضمن موقع "ويستبورتفوليو بيوفاندز". كانت أخر مرة تم فيها تحديث صفحة أكسون قبل عام.

شركة أكسون، ٢٤ إيست إندستريال سربنتاين، شوينكسفيل، ولاية بنسلفانيا، شركة مسئولية محدودة مسجلة فى ولاية ديلاوار، تحمل حقوق الملكية العالمية لعملية إيبريل بروسيس نيوروكيموتاكسيس. عملية إيبريل محمية بموجب قانون براءات الاختراع الأمريكى، رقم تسجيل ٥١٠١٢٣٩و٥١٠١٥٩٩ و٥١٠٣٦٢٨و٥١٠٣٩٩٦ وشركة أكسون هى مانح الترخيص الحصرى والوحيد لها. تشارك أكسون فى عمليات تسويق ومبيعات وتحديث إيبريل للمستشفيات والعيادات فى شتى أنحاء العالم، وفى بحوث وتنمية التقنيات ذات الصلة. مؤسسها ورئيس مجلس إدارتها هو د. إيرل إتش إيبريل، المحاضر السابق المرموق بتخصص الأعصاب التطبيقية فى مدرسة جونز هوبكنز للطب.

عملية إيبريل للنيوروكيموتاكسيس المباشر، المعروفة أيضًا بمسمى إيبريل - كيموثيرابى (علاج كيماوى) توموغرافيا معكوسة، قامت بتثوير علاج النيوروبلاستوماس غير القابل للتدخل الجراحى، ومجموعة من العيوب المورفولوجية الأخرى فى المُخ.

"عملية إيبريل" تستفيد من الإشعاع بالتوجيه الحاسوبى لتوجيه العوامل المسرطنة القوية وعوامل إحداث الطفرات وبعض المواد السامة غير المحددة، إلى أنسجة المخ المريضة وتنشطها محليًا دون إضرار بالأنسجة السليمة الصحية المحيطة بها.

فى الوقت الحالى وبسبب القصور فى القوى الحاسوبية، فإن عملية إيبريل تتطلب تخدير وتثبيت وضع المريض فى أسطوانة إيبريل، لمدة تصل إلى ٣٦ ساعة، فيما يتم إعمال إشعاعات وحوامل مواد اختبارية بالبحث عن الأنسجة المريضة. من المتوقع أن يقلل الجيل الجديد من أسطوانات إيبريل من مدة العلاج القصوى إلى أقل من ساعتين.

حصلت "عملية إيبريل" على موافقة كاملة من إدارة الغذاء والأدوية الأمريكية بصفتها "آمنة وفعالة" كعلاج، فى أكتوبر ١٩٩٦. الاستخدام الإكلينيكى المتوسع على مستوى العالم منذ ذلك العام، كما هو موصوف فى عدد من الدوريات المذكورة أدناه، لم يؤد إلا لتأكيد السلامة والفعالية لهذه العملية.

راحت آمال جارى بانتزاع مبالغ ضخمة وسريعة وسهلة من أكسون تتآكل مع عدم عثوره على احتفاء بالشركة وعملها. مع إحساسه بشىء من التعب وفى حرب مع الصداع الإلكترونى، جرب كلمة "إيرل إيبريل" فى البحث. كان بين مئات النتائج التى وجدها مقالات بعنوان "أمل ضئيل للنيوروبلاستوما" و"قفزة كبرى إلى الأمام" و"هذا الدواء قد يكون معجزة". كما ظهر "إيرل وآخرون" فى عدد من الدوريات العلمية بعناوين مثل "محفزات المستقبل ١٤ و١٦ أ و٢١ بالتحكم عن بُعد بالحاسوب: تجربة عملية" و"أربع معاملات

فيروآسيتات قليلة السمية تعبر غشاء الـ بى بى بى" "التحفيز الداخلى لمعجلات الميكروتوبيولز" وأكثر من عشرة أبحاث أخرى على هذه الشاكلة. إلا أن الرابط الأكثر لفتًا لانتباه جارى كان فى مجلة فوربس أيه إس أيه بى قبل ستة أشهر:

بعض هذه التطورات، مثل قسطرة فوجارتى البالونية وجراحة الليزك فى القرنية، تعتبر مدرة لدخل رهيب لأصحاب أسهم تلك الشركات. فيما توجد مؤسسات أخرى غريبة الأسماء، مثل "عملية إيبريل للنيوروكيموتاكسيس الموجه" التى تثرى مخترعيها بالطريقة القديمة التقليدية: رجل واحد وثروة واحدة. عملية إيبريل التى ترجع إلى عام ١٩٩٦ كانت تعوزها الموافقة المؤسسية عليها كممارسة لكنها حاليًا معروفة كمعيار من ذهب لمعالجة عدد كبير من أورام وإصابات المخ، ومن المقدر أنها تجنى لمخترعها، أستاذ إيرل إتش ("كيرلى") إيبريل، من كلية جونز هوبكينز، نحو ٤٠ مليون دولار سنويًا رسوم ترخيص وغيرها من العوائد فى شتى أنحاء العالم.

أربعون مليون دولار سنويًا كلام ظريف. الأربعون مليون دولار سنويًا أعادت لجارى آماله وأغضبته كثيرًا مرة أخرى. إيرل إيبريل يجنى أربعين مليون دولار سنويًا بينما ألفريد لامبرت، المخترع بدوره لكن (ولنواجه الحقيقة) إنسان فاشل ـ أحد الأفشل على وجه الأرض ـ عُرض عليه خمسة آلاف دولار على "شيلته". ويعتزم اقتسام هذا المبلغ مع شركة أورفيك ميدلاند!

قال جوناه: "أنا أحب هذا الكتاب. ربما أعتبره كتابى المفضل حتى الآن".

إذن لماذا، تساءل جارى، لماذا أنت حريص على الحصول على براءة اختراع بابا يا كيرلى؟ لماذا الضغط؟ حاسته المالية، التى اشتعلت فى أعماقه، أنه ربما بعد كل شىء، هناك قطعة من المعلومات التى من المفترض ألا يعرفها أحد، قد وصلت إليه دون جهد منه. قطعة معلومات مهمة من مصدر عارض (ومن ثم قانونى تماماً). قطعة معلومات ثمينة.

قال جوناه: "وكأنهم فى سفينة سياحية كبيرة، لكنهم يحاولون الإبحار إلى أطراف الأرض. انظر، هنا حيث يعيش أسلان، فى نهاية العالم".

فى قاعدة بيانات "سيك إدجار" وجد جارى عرضًا غير موافق عليه، بعرض مبدئى ببيع أسهم أكسون. العرض كان مقررًا له ١٥ ديسمبر، أى بعد أكثر من ثلاثة أشهر. الضامن الأساسى هو هيفى آند هوداب، بنك استثمارى نخبوى. بحث جارى عن بعض المؤشرات الحيوية ـ التدفق النقدى، حجم الموضوع، حجم السيولة، ثم سال لعاب حسه الاستثمارى، ونقر على رابط "للتحميل فيما بعد".

قال: "جوناه، الساعة التاسعة، اذهب وخذ حمامك".

قال جوناه وهو يصعد الدرجات: "كم أود الخروج فى رحلة بسفينة رحلات يا بابا، لو أمكن الترتيب لهذا الموضوع".

فى صفحة محرك بحث أخرى، بأيد مهتزة قليلاً، أدخل جارى كلمات "شقراء جميلة عارية".

"أوصد الباب من فضلك يا جوناه".

ظهرت على الشاشة صورة جميلة شقراء عارية. نقر جارى الماوس مرة أخرى فظهر رجل عارٍ، تم تصويره بالأساس من الخلف،

لكن صورة مقربة بين ركبتيه وصرته، ويظهر فى الصورة وهو يوجه انتباه هذه المنطقة بالكامل إلى الشقراء الجميلة العارية. هناك شىء ما فى هذه الصور. الشقراء الجميلة العارية وكأنها مادة خام طازجة يحرص الرجل العارى كثيرًا على أن يعالجها بأداته. مجموعة صور، فى الأولى يتم نزع الغلاف الملون للموضوع، ثم يوضع الموضوع على ركبتيه ويقوم عامل نصف ماهر بوضع أداته فى فم الموضوع، ثم يوضع الموضوع على ظهره بينما يعالجه العامل فمويأ، ثم يضع العامل الموضوع فى سلسلة من الأوضاع الأفقية والرأسية، ثم يتم ثنى ومد الموضوع حسب الضرورة، ويتم معالجة الموضوع بحماس وهمة شديدتين بأداة العامل المذكورة.

خففت الصور من حماسة جارى بدلاً من أن تزيدها. تساءل إن كان قد وصل إلى سن تثيره فيها النقود أكثر من الشقراء العارية الجميلة المنخرطة فى أعمال جنسية، أو إن كانت حالة الأنيدونيا - اكتئاب الأب الوحيد فى القبو - تداهمه وهو هنا حتى فى الطابق العلوى رن الجرس. جاءت أقدام مراهقة تضرب الأرض من الطابق الثانى ردًا على الجرس.

قام جارى سريعًا بتنظيف شاشة الكمبيوتر من الصور وصعد فى الوقت المناسب ليجد جارى عائدًا إلى الطابق الثانى ومعه علبة بيتزا كبيرة. تتبعه جارى ووقف للحظة خارج حجرة الألعاب، وقد شم البيبيرونى واستمع إلى صوت القضم من أبنائه وزوجته. هناك شىء عسكرى ما على شاشة التليفزيون، دبابة أو شاحنة، تزأر على خلفية موسيقى أفلام الحرب.

"سوف نزيد الضغط يا حضرة الملازم، وسوف تتكلم الآن! الآن!"

فى كتاب "التربية الحُرة: مهارات للألفية القادمة"، حذرت د. هاربيت ل. شاشتمان من: "فى أحيان كثيرة، يقوم آباء عصرنا هذا الذين يعانون من القلق بـ "حماية" أطفالهم مما يُسمى "تخريب" التليفزيون وألعاب الكمبيوتر للأبناء، فيكتشفون أن الأبناء خربوا أكثر بكثير من النبذ الاجتماعى الذى يعانونه ممن هم فى عمرهم".

بالنسبة لجارى الذى كان فى صباه لا يُسمح له بأكثر من نصف ساعة من التلفزيون يوميًا ولم يشعر بالنبذ الاجتماعى، بدت نظرية شاشتمان وصفة سهلة لترك الآباء الأكثر تساهلاً فى المجتمع يحددون المعايير المتبعة التى يُجبر الآباء الآخرين على التساهل للوفاء بها. لكن كارولين اعتنقت النظرية تمامًا، وبما أنها الأمينة الوحيدة على طموح جارى فى ألا يصبح كوالده، وبما أنها ترى أن الأطفال يتعلمون أكثر من التفاعل والتعامل مع أصدقائهم وزملائهم، من توجيهات الآباء التقليدية، فقد رضى جارى بحُكمها وترك الأولاد يشاهدون التليفزيون بلا حدود.

ما لم يتوقعه هو أن يتعرض هو نفسه للنبذ.

تراجع إلى حجرة مكتبه واتصل بسان جود ثانية. كان لاسلكى المطبخ على مكتبه، يذكره بالمتاعب التى وقعت وبالشجار المتوقع.

كان يرغب فى الكلام مع إنيد، لكن ألفريد رد على المكالمة وقال إنها فى بيت آل رووت "عندنا الليلة اجتماع لمجلس إدارة الشارع".

فكر جارى فى الاتصال فيما بعد، لكنه رفض الانصياع لوالده، قال: "بابا، أجريت بعض البحوث على أكسون. هذه الشركة فلوسها كثيرة".

قال ألفريد: "جارى، قلت إننى لا أريد الحديث فى هذا الموضوع، لا فائدة من الكلام".

"ماذا تعنى بـ لا فائدة؟"

"أعنى لا فائدة. انتهى الموضوع. تم توثيق الوثائق، وأعطيت للمحامى أتعابه والموضوع انتهى".

ضغط جارى على جبينه بأصبعين. "يا ربى يا بابا، وثقت الأوراق؟ يوم الأحد؟"

"سأقول لأمك أنك اتصلت".

"لا تضع هذه الأوراق فى البريد. هل تسمعنى؟"

"جارى، نلت كفايتى من هذا الكلام".

"خسارة، لأننى لم أبدأ فى الكلام بعد!"

"قلت لك لا تتكلم فى الموضوع. إذا لم تتأدب كأى شخص محترم ومتحضر، فليس أمامى خيار سوى".

"احترامك هراء، وتحضرك هراء. إنه ضعف! خوف! هراء!"

"لا أريد مناقشة هذا الموضوع".

"إذن انسه".

"سأنسى. لن نتحدث عنه مرة أخرى. أنا وأمك سنزوركم يومين الشهر المقبل، ونرجو أن نراكم هنا فى ديسمبر. أرجو أن نحافظ على تحضرنا".

"لا يهم ما يحدث فعلاً، طالما نحن متحضرون".

"هذا هو جوهر فلسفتى، فعلاً".

قال جاري: "لكنها ليست فلسفتي".

"أعرف هذا. ولهذا سنقضي ثماني وأربعين ساعة عندكم لا أكثر".

وضع جاري السماعة وهو أكثر غضبًا. كان يأمل أن يقضي معهم أبواه أسبوعًا في أكتوبر. كان يريدهما أن يذهبا معهم لأكل الفطير في مقاطعة لانكستر، ويشاهدوا مسرحية في مركز أنينبيرج، ويذهبوا إلى مطعم بوكونوس، ويشتروا التفاح من المزرعة في ويست شيستر، ويسمعوا آرون وهو يعزف الترومبيت، ويشاهدوا كاليب يلعب كرة القدم، ويفرحا بصحبة جوناه، ويريا بشكل عام لأي مدى حياة جاري جيدة، كم أن هذه الحياة تستحق إعجابهما واحترامهما... ثماني وأربعين ساعة لا تكفي.

خرج من حجرته وقبّل جوناه قبلة قبل النوم، ثم استحم ورقد على السرير البلوطي الكبير وحاول أن يتسلى بالعدد الأخير من مجلة "الشركات". لكنه لم يتمكن من التوقف عن الجدال مع ألفريد في رأسه.

أثناء زيارته لبيت العائلة في مارس أزعجه كثيرًا كم تدهور حال والده خلال الأسابيع التي مرت منذ الكريسماس. بدا ألفريد دومًا على وشك الانهيار وهو يتحرك بطيئًا في أنحاء البيت، يكاد ينزلق على السلالم، وهو يأكل الشطائر التي ينهمر منها ورق الخس واللحم كالمطر، ينظر إلى ساعته بلا توقف، عيناه تدوران في كل مكان كلما بدأ نقاش لا يخصه بشكل مباشر، الحصان الحديدي العجوز على وشك الانهيار، وجاري غير قادر على النظر إليه. فمن غيره هو، جاري، سيتحمل المسئولية؟ إنيد هيستيرية مهووسة

بمراعاة الآداب والأخلاق، دينيس تعيش فى أرض الأحلام، وشيب لم يطأ سان جود منذ ثلاثة أعوام. من غير جارى سيقول: "آن لهذا القطار أن يستريح ويتكهن بعيدًا عن هذه القضبان"؟

الأهم من وجهة نظر البيزنس، فى رأى جارى، هو بيع البيت. الحصول على مبلغ محترم مقابله، ونقل والديه إلى مكان أصغر وأكثر جدّة وأمانًا ورخصًا، واستثمار فارق السعر استثمارًا عنيفًا. البيت هو أكبر أصل من أصول إنيد وألفريد، استغرق جارى فترة الصباح فى فحص البيت فى بطء، داخله وخارجه. عثر على شقوق فى البلاط، وصدأ فى أحواض الحمام، ورخاوة فى سقف حجرة النوم الرئيسية. لاحظ بقعًا من مياه المطر على الجدار الداخلى للتراس الخلفى، وأكوام من رغاوى الصابون الجافة على حواف غسالة الأطباق القديمة، وانبعاجة مزعجة فى جهاز التنظيف بالنفخ بالهواء، وشقوق فى أسفلت ممشى الحديقة، ونمل أبيض فى كومة الخشب، ويد من خشب البلوط تتدلى من فوق أحد الأسطح، وشقوق بعرض الإصبع فى النافورة، وطلاء مُقشر هنا وهناك، وعناكب كبيرة جريئة فى القبو، وحقول من حشرات شقوق الخشب المجففة وبقايا صراصير، وروائح فطر وعفن لم يألفها من قبل، أينما ينظر يرى ارتخاء وعفن. حتى فى السوق العقارية الصاعدة، فالبيت بدأ يفقد ثمنه، وخطر لجارى أن: علينا بيع هذا الملعون الآن، لا يمكننا خسارة يوم واحد إضافى.

فى الصباح الأخير من زيارته، بينما جوناه كان يساعد إنيد فى خبز كعكة عيد الميلاد، أخذ جارى ألفريد إلى متجر الأدوات. ما إن أصبحا على الطريق، قال جارى إن الوقت قد حان للإعلان عن أن المنزل للبيع.

ألفريد الذى كان فى المقعد المجاور له فى السيارة الأولدس موبيل القديمة، حدّق أمامه وقال: "لماذا؟"

قال جارى: "إذا فاتك موسم الربيع، فسوف تنتظر عامًا آخر. لا يمكنك تحمل عام آخر. البيت يفقد قيمته بسرعة".

هز ألفريد رأسه: "تعبت من البيت. حجرة نوم واحدة ومطبخ تكفينا. مكان تطهو فيه أمك الطعام ومكان نجلس فيه. لكن لا فائدة. هى لا تريد أن تغادر".

"بابا، إن لم تنتقلا إلى مكان تسهل إدارته؛ فسوف تؤذى نفسك. سوف ينتهى بك الأمر فى بيت للمسنين".

"لا أنوى الانتقال إلى بيت مسنين".

"لمجرد أنك لا تنوى، فهذا لا يعنى أنه لن يحدث".

نظر ألفريد على الطريق إلى مدرسة جارى الابتدائية.. "أين نذهب؟"

"تسقط من على السلم، تنزلق على الثلج فتصاب بكسر فى الحوض، سوف ينتهى بك المطاف فى بيت مسنين. جدّة كارولين..."

"لم أسمع منك إلى أين نذهب".

"ذاهبان إلى متجر الأدوات. ماما تريد مفتاح تخفيف إضاءة فى المطبخ".

هزر ألفريد رأسه.. "تريد إضاءة رومانسية".

قال جارى: "هى تسعدها. ما الذى يسعدك؟"

"ماذا تقصد؟"

"أقصد أنك أتعبتها، كدت تجهز عليها".

يدا ألفريد تتحركان بنشاط على حجره، تمسكان بالهواء.. قال: "سأطلب منك مرة أخرى ألا تتدخل".

نور الصباح، ما قبل الظهر، فى موسم انحسار الثلج الشتوى، صمت منتصف النهار فى سان جود، تساءل جارى كيف يتحمل أبواه كل هذا. أشجار البلوط بنفس الملمس الزيتى الأسود، مثل العصافير الجاثمة فوقها. السماء بنفس اللون، والرصيف الأبيض كالملح المعلقة عليه لافتات الحد الأقصى للسرعة التى يطيعها سكان سان جود وهم فى طريقهم إلى مقاصدهم، إلى المول الذى تحف سطحه بِرك الثلج الذائب، إلى البيوت المتناثرة فى الشوارع المتشعبة كالشرايين المطلة على ساحات فولاذية يغمرها الطين، إلى مستشفى الأمراض النفسية وأبراج تقوية البث التليفزيونى التى تغذيهم بالمسلسلات النهائية الحلقات وبرامج المسابقات التى تملأ الأثير، إلى الطرق السريعة وبعدها ملايين الأفدنة من الأراضى التى يذوب فيها الثلج كالمعجون، حيث سيارات النقل الصغيرة المغروسة فى الطين وبنادق عيار ٢٢ مللى تطلق رصاصها فى الغابات، ولا تسمع على الراديو غير الإذاعات الإنجيلية والجيتار الكهربائى، إلى البلوكات السكنية ذوات العيون المحدقة من وراء النوافذ، إلى الحدائق الصغيرة الصفراء العامرة بالسناجب ذات اللعبة البلاستيكية المغروسة هنا وهناك فى التراب، والبوسطجى يصفر لحناً عتيقًا سلتيًا ويضرب صناديق البريد بيده بقوة أكبر من الضرورية، لأن موت هذه الشوارع، فى هذه اللاساعة، فى هذا اللاموسم، قد يقتلك حقًا وصدقًا.

قال جارى وهو ينتظر أن تفتح الإشارة المفضية إلى الشارع الواقع يساره: "هل أنت سعيد بحياتك؟ هل أنت قادر حتى على أن تقول إنك سعيد؟"

"جارى، أنا مريض بـ..."

"الكثير من الناس مصابون بأمراض. إذا كان هذا عُذرك فلا بأس، إن كنت تريد أن تأسف على نفسك فلا بأس، لكن لماذا تورط ماما معك؟"

"أنت ستغادر غداً".

قال جارى: "ما قصدك؟ أنك ستجلس فى مقعدك وسوف تطهو ماما وتنظف البيت لك؟"

"هناك أشياء فى الحياة لابد من تحملها ببساطة".

"لماذا حتى تتحمل عبء البقاء حيًا إن كانت هذه هى نظرتك للأمور؟ ما الذى تتطلع إليه؟"

"أسأل نفسى هذا السؤال كل يوم".

قال جارى: "وما إجابتك؟"

"ما إجابتك؟ ماذا فى رأيك يجب أن أتطلع إليه؟"

"الترحال".

"سافرت بما فيه الكفاية. أمضيت ثلاثين عامًا فى سفر".

"قضاء الوقت مع الأسرة. مع ناس تحبهم".

"لا تعليق".

"ما قصدك بـ لا تعليق؟"

"لا تعليق وكفى".

"ما زلت غاضبًا من الكريسماس".

"لك أن تفسر الأمر كما تشاء".

"أنت غاضب من الكريسماس، لم لا تتوخى اللباقة الكافية لقول هذا..."

"لا تعليق".

"بدلاً من التملق".

قال ألفريد: "كان لابد أن نأتى يومين متأخرين ونغادر يومين مبكرين. هذا كل ما عندى لأقوله عن الكريسماس. كان الأفضل أن نبقى عندكم ثمانى وأربعين ساعة".

"هذا لأنك مصاب بالاكتئاب يا بابا. أنت مريض بالاكتئاب..."

"وأنت أيضًا".

"والتصرف المسئول هو العلاج".

"هل تسمعنى؟ قلت وأنت أيضًا".

"عم تتكلم؟"

"أفهمها أنت".

"بابا، أتكلم بجدية، عم تتكلم؟ أنا لست الجالس على المقعد طوال النهار بين اليقظة والنوم".

قال ألفريد بوضوح: "من الأعماق أنت مكتئب".

"هذا كلام غير صحيح بكل بساطة".

"سوف تكتشف بنفسك ذات يوم".

قال جاري: "لن أفعل! حياتي قائمة على أساس مختلف بشكل جذري عن حياتك".

"تذكر كلامي. انظر إلى زواجك فأرى ما أراه. ذات يوم ستكتشف بدورك".

"هذا كلام فارغ وأنت تعرف أنه كلام فارغ. أنت غاضب مني لا أكثر، غير قادر على التعامل مع مشكلتك".

"قلت لك لا أريد مناقشة هذا الموضوع".

"وأنا لا أحترم عدم مناقشتك للموضوع".

"هناك أشياء فى الحياة لا أحترمها بدورى". ما كان يجب أن يكون مؤلماً أن ألفريد ـ المخطئ فى كل الأشياء تقريبًا ـ لا يحترم أشياء فى حياة جارى، لكنه أحس بالألم.

فى متجر الأدوات ترك ألفريد يدفع ثمن مفتاح تخفيف الإضاءة. إخراج الرجل العجوز بحرص وبطء للبنكنوت من محفظته الرفيعة وتردده الخفيف قبل أن يدفع النقود، كانت علامات على احترامه للدولار، على اعتقاده المثير للجنون بأن كل دولار مهم فى حد ذاته.

فى البيت، فيما راح جارى وجوناه يلعبان بكرة القدم، جمع ألفريد الأدوات وفصل الكهرباء عن المطبخ وبدأ فى توصيل مفتاح تخفيف الإضاءة. لم يخطر لجارى أن يمنع ألفريد من توصيل المفتاح بنفسه. لكن عندما دخل لتناول الغداء اكتشف أن والده لم

يفعل أكثر من إزالة واجهة المفتاح القديم. كان ممسكًا بمفتاح تخفيف الإضاءة وكأنه فتيل قنبلة يهزه من الخوف.

قال موضحًا: "مرضى يصعب علىّ هذا الموضوع".

قال جارى: "لابد أن تبيع هذا البيت".

بعد الغداء أخذ أمه وابنه إلى متحف مواصلات سان جود. فيما راح جوناه يتسلق القاطرات القديمة ويتفرج على غواصة وفيما جلست إنيد تربت على فخذها الموجوع، جمع جارى قائمة عقلية بمعروضات المتحف، آملاً أن تشعره القائمة بالإنجاز. لا يمكنه التعامل مع المعروضات نفسها، معلوماتيتها المرهقة، وقفتها المرحة أمام الجماهير، العصر الذهبى للطاقة البخارية، فجر الطيران، قرن من الأمان على الطريق. أكثر ما يكرهه جارى فى الغرب الأوسط هو كيف يشعر بعدم التدليل وعدم التمتع بامتيازات فى سان جود، فى تفاؤلها الدائم لا تمنحه الاحترام الذى يستحقه على مواهبه وامتيازاته. آه، يا لحزن هذا المكان! ريفيو سان جود الصادقون من حوله يبدو عليه الفضول وعدم الاكتئاب. يملئون رءوسهم المشوهة بسعادة بالحقائق. وكأن الحقائق ستنقذهم! ولا امرأة واحدة فى نصف جمال أو نصف أناقة كارولين، ولا رجل واحد بتصفيفة محترمة أو بطن مسطحة كجارى. لكن، مثل ألفريد ومثل إنيد، كانوا جميعاً مراعون للآخرين بقوة وحماس. لا يدفعون جارى بأكتافهم ولا يعترضون طريقه، بل ينتظرون حتى ينتقل إلى المعروض التالى. ثم يتجمعون حوله ويقرأون المكتوب على ورقته ويتعلمون. يا ربى، كم يكره الغرب الأوسط! يكاد لا يقدر على التنفس أو رفع رأسه عاليًا. خطر له أنه فى طريقه للمرض. وجد

الملاذ فى متجر هدايا المتحف، فاشترى حزامًا فضيًا وتمثالين صغيرين وكوبًا بلاستيكيًا يُربط بالحزام (كله لنفسه) ومحفظة جلدية (لآرون) ولعبة "الحرب الأهلية" على سى دى (لكاليب).

قال جوناه: "بابا. جدتى تقول إنها ستشترى لى كتابين ثمن كل منهما أقل من عشرة دولارات، أو كتاب أقل من عشرين دولارًا، ما رأيك؟"

إنيد وجوناه يربطهما وثاق الحب. إنيد دائمًا تفضل الأولاد الصغار على الأولاد الكبار، وكان وضع جوناه التكيفى فى النظام البيئى للأسرة يؤهله عن جدارة لأن يكون الحفيد المثالى، المتلهف للجلوس على الحجر، غير الخائف من الخضراوات اللاذعة المذاق، غير المتحمس كثيرًا للتلفزيون وألعاب الكمبيوتر، الماهر فى الإجابة بمرح على أسئلة من قبيل "هل تحب المدرسة؟" فى سان جود يتدلل ويتقلب على جدائل اهتمام ومحبة ثلاثة بالغين. أعلن أن سان جود هو أجمل مكان ذهب إليه. ومن الكنبة الخلفية للسيارة الأولدس موبيل، بعيون متسعة، راح ينظر فى عجب إلى كل شىء تريه له إنيد.

"من السهل أن تركن هنا!"

"لا توجد سيارات كثيرة!"

"متحف المواصلات أفضل من أى متاحف عندنا يا بابا، ما رأيك؟"

"أحب المساحة المتاحة لتمديد الأقدام فى هذه السيارة. أعتقد أنها أجمل سيارة ركبتها فى حياتى".

"كل المتاجر قريبة ومتاحة!"

تلك الليلة، بعد أن عادوا من المتحف ثم خرج جارى وقام بالمزيد من الشراء والتسوق، قدمت إنيد لحمًا وكعكة عيد الميلاد بالشيكولاته. كان جوناه يأكل الأيس كريم باستمتاع عندما سألته إن كان يريد أن يزور سان جود فى الكريسماس.

قال جوناه وجفونه تتهدل على عينيه من التخمة: "لكم أود هذا".

قالت إنيد: "سنخبز كعك السكر والبيض، وتساعدنا فى تزيين الشجرة. الأرجح أن الثلج سينهمر، يمكننا إذن التزلج على الثلج. وهناك عرض صوت وضوء رائع يا جوناه فى حديقة ويندل بارك، اسمه كريسماس لاند، يضيئون أنوار الحديقة بالكامل و..."

قال جارى: "أمى، نحن فى مارس".

سأله جوناه: "هل يمكن أن نأتى مرة أخرى فى الكريسماس؟"

قال جارى: "سوف نأتى مرة أخرى قريبًا. لا أعتقد أنه سيكون فى الكريسماس".

قالت إنيد: "أعتقد أن جوناه سيحب الكريسماس هنا".

قال جوناه وهو يبتلع ملعقة جديدة من الآيس كريم: "سأحب الكريسماس هنا جدًا. ربما سيكون أفضل كريسماس فى حياتى".

قالت إنيد: "أعتقد هذا أيضاً".

قال جارى: "نحن فى مارس. لا نتحدث عن الكريسماس فى مارس. أتذكران؟ لا نتحدث عنه فى يونيو أو أغسطس حتى. أتذكران؟"

قال ألفريد وهو ينهض عن المائدة: "أنا ذاهب للنوم".

قال جوناه: "صوتى فى موضوع الكريسماس يذهب لسان جود".

أحس جارى بأن ضم إنيد لجوناه بشكل مباشر فى حملتها للتأثير عليه، واستغلالها لصبى صغير للضغط، خدعة دنيئة من إنيد. بعد أن وضع جوناه فى الفراش، قال لأمه إن الكريسماس آخر شىء تقلق عليه الآن.

قال: "بابا غير قادر على توصيل مفتاح كهرباء. وعندك الآن تسرب ماء فى الطابق العلوى، الماء يدخل من حول المدخنة..."

قالت إنيد من عند حوض المطبخ حيث راحت تحك مقلاة اللحم: "أحب هذا البيت. بابا يحتاج للتدرب قليلاً على تحسين سلوكه لا أكثر".

قال جارى: "يحتاج للعلاج بالصدمات. وإذا كنت تريدين تكريس حياتك للخدمة، فهذا اختيارك. إن كنت تريدين العيش فى بيت قديم كثير المشاكل، وتحاولين الحفاظ على كل شىء كما تودين، فلا بأس أيضًا. إن كنت تريدين الهلاك وأنت تحاولين عمل الشيئين، فلا بأس. لكن لا تطلبى منى التحضير للكريسماس فى مارس، حتى تشعريا بأن كل شىء تمام".

وضعت إنيد مقلاة اللحم على ظهرها على الكاونتر إلى جوار المصفاة المثقلة بالأوانى. كان جارى يعرف أن عليه التقاط منشفة لمساعدتها، لكن كومة الأوانى المبتلة والأطباق من عشاء عيد ميلاده أشعرته بالتعب.. مهمة تجفيف كل هذا وكأنها محاولة سيزيفية لإصلاح عيوب ومشكلات فى بيت والديه. الطريقة الوحيدة لتفادى اليأس المطلق هى عدم توريط نفسه فى الموضوع من الأساس.

صب لنفسه كأساً صغيرة من البراندى، فيما راحت إنيد فى حركات طعن غير سعيدة، تنظف بقع الطعام عن قعر الحوض.

قالت: "ماذا أفعل فى رأيك؟"

قال جارى: "بيعوا البيت. اتصلوا بسمسار عقارات غدًا".

قالت إنيد وهى تهز البقع المبتلة المقرفة من على يديها لتسقط فى القمامة: "وننتقل إلى شقة عصرية ضيقة؟ عندما اضطر للخروج فى النهار، يدعو ديف ومارى بيث بابا على الغداء. هو يحب هذا، وأشعر أنا بالثقة لأننى أعرف أنه معهما. فى الخريف الماضى كان بالخارج يزرع زرعًا جديدًا، فلم يتمكن من نزع الجذور القديمة من الطين، فجاء جو بيرسون ومعه فأسه وعملا معًا طوال فترة بعد الظهر فى الحديقة".

قال جارى وقد ندم بالفعل على ضآلة مبادرته بالكلام فى هذا الموضوع: "ما كان يجب أن يزرع أصلاً. يجب أن يمتنع عن استخدام الفأس. الرجل غير قادر على الوقوف مستقيمًا".

"جارى، أعرف أننا لا يمكننا البقاء هنا إلى الأبد. لكن أريد كريسماس أسرى حقيقى أخير هنا. وأريد".

"هل ستفكرين فى الانتقال لو حضرنا الكريسماس هنا؟"

تألق أمل عذب جديد فى كلام إنيد: "هل ستفكر أنت وكارولين فى أمر الحضور على الكريسماس؟"

قال جارى: "لا يمكننى أن أعدك بشىء. لكن إذا كنت مستعدة لعرض البيت للبيع، فسوف نفكر طبعًا".

"سأكون سعيدة لو حضرتم، فى منتهى السعادة".

"أمى، لابد أن تكونى واقعية".

قالت إنيد: "دعنا ننتهى من هذا العام. لنفكر فى قضاء الكريسماس هنا، كما يريد جوناه، ثم سنرى".

تدهور حال الأنيدونيا عند جارى منذ عاد إلى شيستنات هيل. على سبيل الانشغال بمشروع للشتاء، انشغل بتحويل مئات الساعات من الفيديو المنزلى الخاص بالأسرة إلى ساعتين متصلتين من "أهم مقاطع فيديو لآل لامبرت"، يمكنه أن يحضر منها نسخًا عالية الجودة ويرسلها للآخرين على سبيل "كارت معايدة الكريسماس الفيديو". فى المونتاج النهائى، شاهد مرارًا وتكرارًا مشاهد أسرية وركب عليها أغنياته المفضلة "الخيول البرية" و"مرة بعد مرة" إلخ)، وانشغل بكراهية هذه المشاهد وكراهية هذه الأغانى. وعندما قام فى حجرة التحميض الجديد لتحويل انتباهه إلى أجمل مائتى مقطع لآل لامبرت، اكتشف أنه لم يعد يستمتع بالنظر إلى الصور الفوتوغرافية بدورها. منذ سنوات وهو يفكر فى البدء فى "المائتى صورة الأجمل"، كما ينشغل بالصناديق الاستثمارية المثالية المتوازنة، يفكر برضا فى الصور المتأكد أنها يجب أن تكون ضمن المجموعة. الآن يتساءل من غيره سينبهر بهذه الصور. من يحاول أن يقنعه ولماذا؟ واتته رغبة غريبة فى حرق الصور المفضلة. لكن حياته بأسرها قائمة كتصحيح لحياة والده، هو وكارولين متفقان منذ فترة طويلة على أن ألفريد مكتئب ومريض اكتئاب، وأن الاكتئاب المرضى معروف بأن له أسس جينية، ومن ثم فهو مرض وراثى، وهكذا لم يعد هنالك اختيار أمام جارى سوى الاستمرار فى مقاومة الأنيدونيا، أن يستمر فى طحن أسنانه ببعضها فى محاولة للاستمرار فى الاستمتاع.

أفاق من النوم وهو يشعر بانتصاب قوى، وكارولين إلى جواره وسط ملاءات السرير.

كان المصباح المجاور لجانبه من السرير ما زال مضاءً، والحجرة من حوله ظلام. كارولين راقدة فى وضع فاضح، ظهرها على المرتبة والوسادة تحت ركبتيها. من وراء حجب نوافذ الحجرة ينسال الهواء البارد الرطب، هواء الصيف الذى تعب وكل. لا رياح تحرك أوراق الشجر، التى تظهر فروعها الأدنى وراء النوافذ.

كان على كومودينو كارولين نسخة من كتاب "الحل الوسط: كيف تنقذين ابنك من فترة المراهقة التى مررت أنت بها" (كارين تامكين، دكتوراه، ١٩٩٨).

بدت نائمة. ذراعها الطويل تحافظ عليه من الارتخاء بالسباحة ثلاث مرات أسبوعيًا فى نادى كريكيت، ذراعها مرتاح إلى جوارها. حدق جارى فى أنفها الدقيق، وفمها الأحمر الرحيب، وشعرها الأشقر المنسدل ووميض العرق على شفتها العليا، وشريحة اللحم الأشقر العارية بين طرف التى شيرت وحزام الشورت الرياضى المكلل بشعار "كلية سوارتسمور" التى كانت ترتادها قديمًا. ثديها الأقرب عليه يضغط على الـ تى شيرت، حلمتها القرمزية محددة من وراء القماش المشدود.

عندما مد يده إليها ليربت على شعرها، انتفض جسدها وكأن يده مكهربة.

قال: "ما الذى يحدث؟"

"ظهرى يقتلنى من الألم".

"منذ ساعة كنت تضحكين ومزاجك رائق. عاودك الألم ثانية؟"

"مفعول مسكن الألم بدأ يزول".

"عودة الألم الغامضة".

"لم تقل كلمة تعاطف واحدة منذ أذيت ظهرى".

قال جارى: "لأنك تكذبين عن الألم".

"يا ربى. هل عدت لهذا الكلام؟"

"ساعتان من كرة القدم واللعب كالخيول فى المطر، ليست هذه هى المشكلة. المشكلة هى التليفون الذى رن".

قالت كارولين: "نعم، لأن أمك لن تضيع عشرة سنتات على ترك رسالة. تدعه يرن ثلاث مرات ثم تغلق الخط، ثلاث مرات ثم تغلق الخط".

قال جارى: "الموضوع لا علاقة له بأى شىء فعلته أنت. السبب هو أمى! طارت بمفعول السحر إلى هنا وركلتك فى ظهرك لأنها تريد أن تؤذيك!"

"بعد أن سمعته يرن ويتوقف ثم يرن ويتوقف طوال النهار، انهارت أعصابى".

"كارولين، رأيتك وأنت تعرجين قبل أن تركضى إلى الداخل. رأيت النظرة المرسومة على وجهك. لا تقولى لى إن ألمك لم يكن قد بدأ وقتها".

هزت رأسها.. "أتعرف ما الموضوع؟"

"ثم التصت على!"

"أتعرف ما الموضوع؟"

"تتنصتين فى التليفون الوحيد المُتاح فى البيت، وتواتيك الجرأة لأن تقولى..."

"جارى، أنت مكتئب. هل تدرك هذا؟"

ضحك، "لا أعتقد".

"أنا متأمل، كثير الشك والهوس. تسير بنظرة سوداء على وجهك. لا تنام جيداً، لا يبدو أنك تستمتع بأى شىء".

قال: "أنت تغيرين الموضوع. أمى اتصلت لأن عندها طلب معقول يخص الكريسماس".

ضحكت كارولين: "معقول؟ جارى، إنها مهووسة بموضوع الكريسماس. إنها مجنونة".

"كارولين".

"أنا جادة!".

"كارولين. سيبيعان البيت قريباً، ويريدان أن نزورهما مرة أخيرة قبل أن يموتا يا كارولين، قبل أن يموت والدىّ".

"لطالما اتفقنا على هذا الموضوع. اتفقنا على أن خمسة أشخاص بحيوات مزدحمة بالأحداث لا ينبغى أن يأخذوا الطائرات فى ذروة الموسم حتى لا يضطر شخصان لا يفعلان أى شىء فى حياتهما للمجىء إلى هنا. وأنا أكثر من سعيدة باستضافتهما".

"فعلاً، فعلاً".

"ثم تتغير القواعد فجأة!"

"لم تكونى سعيدة بوجودهما هنا يا كارولين. وصلا إلى درجة عدم الرغبة فى الإقامة عندنا أكثر من ثمانى وأربعين ساعة".

"وهذا خطأى؟" راحت توجه نظراتها وإيماءاتها إلى السقف.. "ما لا تفهمه يا جارى هو أن هذه أسرة تتمتع بصحة نفسية جيدة. أنا أم محبة ومهتمة بأبنائها للغاية. عندى ثلاثة أولاد أذكياء مبدعين صحتهم النفسية جيدة. وإذا كنت تظن أن هناك مشكلة فى هذا البيت، فانظر إلى نفسك".

قال جارى: "أنا أتقدم بعرض معقول، فتقولين أننى مصاب بالاكتئاب".

"ألم يخطر لك هذا مطلقًا؟"

"لحظة أن بدأت الكلام عن الكريسماس أصبحت مكتئبًا".

"بكل جدية، هل تقول إنه لم يخطر لك الاكتئاب مطلقًا فى الشهور الستة الأخيرة؟ أنك لست مصاباً بمشكلة مرضية؟"

"أنت عدوانية للغاية يا كارولين، عندما تقولين على شخص غيرك أنه مجنون".

"ليس إذا كان هناك احتمال قائم بأن هذا الشخص مصاب بمشكلة مرضية".

قال: "أقترح أن نذهب إلى سان جود. إن كنت لا تريدين الكلام كالبالغين، فسوف أتخذ قرارى بنفسى".

"فعلاً؟ ربما يذهب جوناه معك. لكن حاول أن تأخذ آرون وكاليب معك على الطائرة. اسألهما أين يفضلان قضاء الكريسماس".

اسألهما لأى فريق ينحازان.

قال جارى: "كنت أظن أننا أسرة، وأننا نفعل كل شىء معًا".

"أنت من يريد اتخاذ قرار فردى".

"أخبرينى بأن هذه ليست من مشكلات تحطم الزواج".

"أنت من تغير".

"لا يا كارولين، هذا كلام سخيف. هناك أسباب جيدة لعمل استثناء لمرة واحدة هذا العام".

قالت: "أنت مريض بالاكتئاب، وأريدك أن ترجع لى. تعبت من الحياة مع رجل عجوز مكتئب".

جارى من جانبه كان يريد لكارولين أن ترجع، والتى كانت قبل ليال معدودة قد تعلقت به فى السرير تحت تأثير الرعد الشديد فى الخارج. كارولين التى تميل إليه كلما دخل إلى حجرة هى فيها، الفتاة نصف اليتيمة التى كانت رغبتها الأهم هى أن تكون فى فريقه.

لكنه لطالما أحب خشونتها، واختلافها عن آل لامبرت، وعدم تعاطفها المطلق مع أسرته. على مدار الأعوام جمع عدة ملاحظات أدلت بها أمامه، واعتبرها كتالوج شخصى عن كارولين، الكلمات العشر لكارولين، التى تمنحه القوة والقدرة على الاستمرار:

١ ـ أنت لست مثل والدك بالمرة.

٢ ـ ليس عليك الاعتذار لأنك اشتريت البى إم دبليو.

٣ ـ أبوك يسىء إلى أمك عاطفيًا.

٤ ـ أحب مذاق منيك فى فمى.

٥ ـ العمل هو الأفيون الذى دمر حياة والدك.

٦ ـ لنشترى الاثنين!

٧ ـ أسرتك تربطها علاقة مرضية بالطعام.

٨ ـ أنت رجل وسيم للغاية.

٩ ـ دينيس تشعر بالغيرة مما لديك.

١٠ ـ لا شىء مفيد بالمرة فى المعاناة.

يعود إلى هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا على مدار السنوات، يشعر بالامتنان العميق لكارولين على كل كلمة منها، والآن يتساءل كم منها حقيقى. ربما لا شىء بالمرة.

قال: "سأتصل بشركة السياحة فى الصباح".

ردت كارولين على الفور: "ولتعرف أننى سأتصل بدكتور بيرس. يجب أن تتكلم مع أحد".

"أريد من يخبرنى الحقيقة".

"أتريد الحقيقة؟ تريدنى أن أخبرك لماذا لن أذهب؟" جلست كارولين ومالت إلى الأمام فى زاوية مضحكة أملاها عليها ألم ظهرها، "أتريد حقًا أن تعرف؟"

أغمض جارى عينيه. الصراصير فى الخارج تصدر صوتًا كالمياه المنسابة فى المواسير. من على بُعد كلب ينبح بصوت منتظم، مثل حركة المنشار فى الخشب.

قالت كارولين: "الحقيقة أن ثمانى وأربعين ساعة مناسبة جدًا لى. لا أريد أن يتذكر أبنائى عندما يكبرون الكريسماس بصفته

الوقت الذى يصرخ الجميع فيه فى وجوه بعضهم البعض. وهو الأمر الذى يبدو أن لا فكاك منه الآن. أمك لا يشغلها إلا الكريسماس طيلة الثلاثمائة وستين يومًا، مهووسة بالكريسماس منذ يناير الماضى، ثم بالطبع لا يوجد ما هو أهم من تمثال حيوان الرنة النمساوى الصغير، ألا تحبينه؟ ألا تستخدمينه؟ أين هو؟ أين هو؟ أين الرنة النمساوية؟ ثم هوسها بالطعام وهوسها بالنقود وهوسها بالملابس، لعبتها الرخيصة التى اعتاد زوجى أن يعتبرها مشكلة، ثم فجأة، بلا مقدمات، بدأ ينحاز إليها. نضطر لقلب البيت رأسًا على عقب حتى نعثر على لعبتها التى اشترتها بثلاثة عشر دولارًا، اشترتها من متجر الهدايا، لأنها ذات قيمة عاطفية لأمك".

"كارولين".

"وعندما يتبين أن كاليب..."

"هذه ليست النسخة الأمينة للأحداث".

"أرجوك يا جارى، لا تقاطعنى، عندما يتبين أن كاليب فعل الشىء الطبيعى لأى ولد أن يفعله بلعبة رخيصة من متجر الهدايا عثر عليها فى القبو".

"لا يمكننى الاستماع لهذا الكلام".

"لا لا، المشكلة ليست أن أمك مهووسة بلعبة رخيصة من القماش النمساوى، لا، ليست هذه هى المشكلة".

"كانت بمائة دولار ومصنوعة يدويًا".

"لا يهمنى إن كانت بألف دولار حتى! منذ متى تعاقبه، تعاقب ابنك، على جنون أمك؟ وكأنك تحاول فجأة أن تتصرف وكأننا فى

سنة ١٩٦٤. نظف طبقك، ارتد ربطة عنق، لن تشاهد التليفزيون اليوم... وتتساءل لماذا نتشاجر! تتساءل لماذا يعبر آرون عن استيائه عندما تدخل أمك الحجرة! وكأنك محرج من أن ترانا أمك. وكأنك طالما هى هنا تحاول التظاهر بأننا نعيش بطريقة تعجبها. لكن دعنى أخبرك يا جارى، أن ليس لدينا شىء نخجل منه. أمك هى التى يجب أن تشعر بالخجل. تلاحقنى فى المطبخ فلا تكف عن انتقادى، وكأننى أطهو ديك رومى كل أسبوع، وإذا أدرت ظهرى لها لحظة تسكب دلوًا من الزيت فى أى شىء أطهوه، وما إن أخرج من الحجرة حتى تفتش فى القمامة وكأنها شرطى طعام، تريد أن تأخذ الطعام من القمامة لتطعمه لأولادى".

"البطاطس كانت فى الحوض وليس فى القمامة يا كارولين".

"وها أنت تدافع عنها! تخرج إلى براميل القمامة لترى ما القاذورات التى يمكنها إخراجها، وتعبر عن الاستياء، وتسألنى كل عشر دقائق: كيف حال ظهرك؟ كيف حال ظهرك؟ كيف حال ظهرك؟ هل تحسن ظهرك؟ هل يؤلمك؟ هل تحسن ظهرك؟ هل يؤلمك؟ وتستمر فى البحث عن أشياء تشعرها بالاستياء، ثم تحاول أن تعطى التعليمات لأولادى عن ماذا يرتدون على العشاء من ملابس فى بيتى، وتنحاز أنت إليها! لا تنحاز لى يا جارى. تبدأ فى الاعتذار، وأنا لا أفهم، ولن أفعل هذا. بالأساس أعتقد أن شقيقك عنده الفكرة الصحيحة عنهم. إنها عذب وذكى ولطيف وصريح بما يكفى ليقول ما يمكنه تحمله وما لا يمكنه تحمله فيما يخص التجمعات الأسرية. وأمك تتصرف وكأنه مصدر خزى وعار وفشل! أنت من أراد الحقيقة. الحقيقة أننى لا يمكننى تحمل كريسماس

آخر على هذه الشاكلة. إن اضطررنا للقاء والديك، فلنلتقى بهما فى بيتنا. مثلما وعدتنى من قبل".

وسادة من السواد الأزرق تجثم على مخ جارى. وصل إلى نقطة ما بعد الثمالة بالمارتينى فى المساء، عندما يجثم على صدره إحساس بالتعقيد، جبينه وجفونه وفمه. يفهم كم تغضب أمه كارولين، وفى الوقت نفسه يرى أن كل كلمة قالتها كارولين تدينها. حيوان الرنة الخشبى الجميل على سبيل المثال كان مخزناً فى صندوق معروف، كسر كاليب ساقين من سيقان التمثال وغرس فى رأسه بالمطرقة مسماراً، وكانت إنيد قد أخرجت قطعة بطاطس لم يأكلها أحد من الحوض وقطعتها وقلتها فى الزيت لجوناه، ولم تنتظر كارولين حتى يغادر حماها وحماتها البيت فتخلصت من روب الحمام البوليستر الوردى الذى أهدته لها إنيد على سبيل هدية الكريسماس، فى صفيحة القمامة.

قال دون أن يفتح عينيه: "عندما قلت أريد الحقيقة، كنت أقصد حقيقة عرجك قبل أن تركضى إلى داخل البيت".

قالت كارولين: "يا ربى".

"أمى لم تؤذ ظهرك، أنت من آذيت ظهرك".

"أرجوك يا جارى، أرجوك، راعى خاطرى واتصل بدكتور بيرس".

"اعترفى أنك تكذبين، وسوف أتحدث لمن تشائين. لكن لن يتغير شىء حتى تعترفى".

"لم أعد أعرف صوتك".

"خمسة أيام فى سان جود. لا يمكنك أن تفعلى هذا بسيدة، هى على حد قولك، ليس لديها أى شىء آخر فى الحياة؟"

"ارجع لى أرجوك".

موجة من الغضب أجبرت جارى على فتح عينيه. ركل الملاءة وقفز من السرير.. "هذا الكلام يحدث فى نهاية الزيجات! لا أصدق!"

"جارى، أرجوك..."

"سننفصل بسبب رحلة إلى سان جود!"

***

ثم إن رجلاً رؤيويًا فى معطف بوليستر كان يُحاضر طلبة جامعيين وسيمين. وراء الرجل الرؤيوى على مسافة بسيطة، أجهزة تعقيم ومعدات طبية وكيماوية، وصنابير علمية طبية طويلة العنق وكرموسومات مفرودة على مائدة تشريح ورسومات توضيحية لشرائح حمراء كالتونة من أنسجة المُخ. الرجل الرؤيوى هو إيرل "كيرلى" إبيرل، رجل فى الخمسين من عمره دقيق الفم يرتدى نظارة رخيصة، بذل صُناع فيديو شركة أكسون الإعلانى قصارى جهدهم لتبدو أنيقة. حركة الكاميرا عصبية، وأرضية المعمل سوداء. حركات زووم مزعجة على وجوه الطالبات المتألقة بالدهشة. اهتمام مهووس متعب بحركة رأس الرجل الرؤيوى (وهو مجعد الشعر (كيرلى) قطعاً).

كان إبيرل يقول: "بالطبع الكيمياء أيضًا، كيمياء المخ حتى، هى مجرد تلاعب بالإلكترونات داخل نواتها. لكن قارنوا هذا إذا تفضلتم بالإلكترونات المكونة من محولات ثنائية وثلاثية الأقطاب. الثنائى والثلاثى. المخ، على النقيض، فيه العشرات من المحولات. العقدة العصبية إما تُطلق الشحنات أو لا تطلقها، لكن هذا القرار

تنظمه مواقع المستقبلات العصبية المميزة عادة بقدرة على الخمول أو الانطلاق، ما بين التشغيل والانطفاء. حتى إذا بنيت عقدة عصبية صناعية من محولات جزيئية، فإن المنطق يقول إنك لن تترجم كل هذه الكيمياء إلى لغة نعم/لا دون أن تنفد مساحة التخزين لديك. إذا قدرنا تقديرًا محافظًا أن ثمة عشرين جديلة من جدائل العقد العصبية النشطة، ويمكن لثمانية منها العمل فى نفس الوقت، وكل من هذه المحولات الثمانية فيها خمسة إعدادات مختلفة - دعونى لا أزعجكم بحسابات التوافقات، لكن ما لم تكونوا تعيشون فى عالم الطفولة البريئة، فسوف تندهشون دهشة بالغة".

على مسافة قريبة، ضحك الطلاب الذكور.

قال إبيرل: "الآن، هذه هى الحقائق الأساسية التى لا نزعج أنفسنا عادة بذكرها وتعدادها. هذه هى طبيعة الأمور. الصلة الوحيدة المجدية بين إلكتروسيكولوجية الإدراك والإرادة هى علاقة كيميائية. هذه هى الحكمة المصفاة المتاحة لنا، جزء من إنجيل علمنا. لا أحد يتمتع بالتفكير المنطقى سيحاول ربط عالم العقد العصبية بعالم الدوائر الإلكترونية".

توقف إبيرل عن الكلام لإضفاء لمسة درامية.

"لا أحد، إلا شركة أكسون".

غمرت القاعة ب فى فندق الفور سيزون فى وسط فيلادلفيا موجة من التهامس، وسط المستثمرين المؤسسين الذين حضروا العرض السريع للإعلان عن عرض شركة أكسون الترويجى العلنى الأول. تم تجهيز شاشة فيديو عملاقة على المنصة. على كل من الموائد العشرين المتناثرة فى أرجاء القاعة أطباق من المشهيات والسوشى والصوص.

كان جارى جالسًا مع أخته دينيس على المائدة المجاورة للباب. كان يأمل فى إجراء هذا العمل وحده، فى هذا العرض، ويتمنى لو كان قد جاء وحده، لكن دينيس أصرت على تناول الغداء، اليوم الاثنين، والاثنين هو يوم إجازتها، ودعت نفسها للمجىء معه. تبين جارى أنها ستجد أسبابًا سياسية أو أخلاقية أو جمالية لانتقاد الكلام الدائر، فها هى تشاهد الفيديو بعيون ضيقة من الريبة وذراعاها منعقدان بتوتر. ترتدى قميصًا أصفر عليه رسمة وردة حمراء، وصندلاً أسود ونظارة تروتسكاوية بلاستيكية مستديرة، لكن ما يميزها عن النساء الأخريات فى القاعة بـ حقًا هو عرى ساقيها. لا توجد سيدات تتعامل فى عالم البيزنس والنقود لا ترتدى جوارب.

ما عملية الكوريكتول؟

قالت صورة كيرلى إبيرل الذى تحول جمهوره الديجيتال فى عرض الفيديو أمامهم إلى خلفية متجانسة لنسيج المخ الأحمر كالتونة: "الكوريكتول هو علاج عصبى بيولوجى ثورى!".

إبيرل جالس على مقعد ضخم يبدو الآن أنه قادر على التحرك فيه فى الفضاء الجرافيكى المحيط به فى الفيديو، فى عالم البحر الداخلى للمخ من الداخل. بدأت تحلق حوله عقد عصبية كثيرة وشرايين كثعابين الماء.

قال إبيرل: "الكوريكتول الذى تم إعداده فى البداية كعلاج لمن يعانون من البى دى والأيه دى وغيرها من أمراض تلف الأعصاب، ثبت أنه قوى وعنيد لدرجة أنه تبين أنه ليس مجرد علاج، بل هو الشفاء، الشفاء لأمراض تلف الأعصاب وأيضًا لمجموعة من

الأمراض العصبية والنفسية الأخرى. ببساطة الكوريكتول يقدم الفرصة للمرة الأولى لتجديد وتحسين تربيطات المُخ البشرى فى الأشخاص البالغين".

قالت دينيس وأنفها يتجعد: "يا للقرف".

كان جارى أثناء العرض قد أصبح بالفعل يعرف عملية الكوريكتول جيدًا. كان قد درس ملف أكسون جيدًا وقرأ كل تحليل عن الشركة يعثر عليه على الإنترنت ومن خلال خدمات خاصة يشترك فيها بنك سين ـ تراست. تحليلات جافة، تتحدث عن التصحيحات المكثفة فى قطاع البيو ـ تيك، تحذر من الاستثمار فى تقنيات طبية غير مجربة متواجدة فى الأسواق منذ ستة أعوام على الأقل. بالطبع فإن بنك مثل سين ـ تراست بواجبه الصارم لأن يكون محافظًا، لن يقترب من هذا الكلام. لكن أصول أكسون أكثر سلامة بكثير من أغلب شركات البيو ـ تيك الجديدة، وبالنسبة لجارى فإن كون الشركة قد اهتمت بشراء براءة اختراع والده فى هذه المرحلة المبكرة من تطوير الكوريكتول، فهذه علامة على أنها شركة محل ثقة. رأى فرصة هنا فى جنى بعض النقود والانتقام من تلاعب أكسون بوالده، وبشكل عام أن يكون جريئًا بينما كان ألفريد خائفًا.

حدث أنه فى شهر يونيو، مع بدايات أزمات العملة الأجنبية الأولى، قام جارى بإبعاد استثماراته عن اليورو وصناديق استثمار الشرق الأقصى سريعة النمو. هذه النقود أصبحت متوفرة الآن لاستثمارها فى أكسون، لكن بما أن الاكتتاب فى أكسون ما زال على مسافة ثلاثة أشهر، وبما أن زيادة الطلب على أسهم الشركة لم تبدأ بعد، فما المشكلة إذن فى أن يشترى جارى خمسة آلاف سهم؟ لكن المشاكل كثيرة.

سمساره (بتخفيض) فى البورصة، الذى لم يسمع الكثير عن أكسون، أجرى بحوثه مؤخرًا واتصل بجارى ليخبره أن شركة وساطة البورصة التى يتبعها السمسار قد خصصت لجارى ٢٥٠٠ سهم. فى العادة يعطى سمسار البورصة للعميل الواحد أكثر من خمسة فى المائة من مخصصات شركة الوساطة من أسهم الشركات فى هذه المرحلة المبكرة من الاكتتاب، لكن بما أن جارى هو أول المتصلين، كان سمساره مستعدًا لأن يخصص له ٥٠٠ سهم إضافى. طالب جارى بالمزيد، لكن الحقيقة المؤسفة أنه ليس عميلاً كثير التعاملات. فى العادة يستثمر فى مائة سهم ومضاعفات المائة، ولتوفير العمولات كان ينفذ بعض التعاملات المالية الصغيرة على الأسهم بنفسه على الإنترنت.

أصبحت كارولين مستثمرة كبيرة. بإرشاد وتوجيه من جارى راحت تشترى آلاف الأسهم. سمسارها يعمل لصالح شركة أكبر فى فيلادلفيا، ولا شك أنه يمكن العثور على ٤٥٠٠ سهم من شركة أكسون الناشئة لهذه العميلة القيمة، هكذا تُلعب اللعبة. لكن للأسف بما أن اليوم هو الأحد الذى أذت فيه ظهرها، كان جارى وكارولين على خلاف، صامتان، يؤديان مهامهما كأبوين. كان جارى حريصًا على الحصول على الخمسة آلاف سهم من أكسون، لكنه رفض التضحية بمبادئه والتوسل لزوجته ليرجوها أن تستثمر بالنيابة عنه فى هذا السهم.

بدلاً من ذلك اتصل بشخص يعرفه فى شركة وساطة هيفى آند هوداب، رجل يُدعى بادج بورتلى، وطلب منه أن يحجز له خمسة آلاف سهم على حسابه. على مدار السنوات، من خلال عمله فى سين ـ تراست، اشترى جارى الكثير من الأسهم لصالح بورتلى، بما

فى ذلك بعض الأسهم مؤكدة النجاح. ألمح جارى الآن لبورتلى أن سين ـ تراست قد تعطيه نصيبًا أكبر من عملها فى المستقبل. لكن بورتلى وبجمود غريب، وافق على تمرير طلب جارى إلى دافى أندرسن، وهو مدير التعاملات الخاصة بالاكتتابات الجديدة فى هيفى آند هوداب.

ثم مر أسبوعان من القلق، إذ لم يتصل بادج بورتلى بجارى ليؤكد له تخصيص الأسهم. زاد الكلام على الإنترنت عن أكسون، وتحول الكلام من الهمس إلى الزئير. تم نشر مقالين من قِبل فريق إيرل إبيرل البحثى فى مجلة "الطبيعة ومجلة "دورية نيوإنجلاند للطب" ويفصل بين نشر هذه وتلك أيام قليلة. تلقت المجلتان تغطية ضخمة فى الصحافة المالية، بما فى ذلك خبر صغير فى وول ستريت جورنال. بدأ محلل وراء الآخر فى الإشارة إلى قوة سهم أكسون لدى انطلاقه، وما زال بورتلى لم يرد على رسائل جارى، وجارى يزيد قلقه ساعة وراء ساعة...

١ ـ تناول كوكتيل

"... من سيتريت الحديدوز وأسيتات الحديدوز، المصمم خصيصًا لعبور حاجز مجرى الدم فى المخ والتراكم فى مكان واحد!".

هكذا أعلن رجل الإعلان الذى انضم صوته إلى صوت إيرل إبيرل فى الفيديو.

"كما نُقلب مع الخليط مادة مهدئة خفيفة لا يمكن إدمانها، وكمية كبيرة من الموكاتشينو، إهداء من أكبر سلسلة محلات للقهوة فى البلاد".

ممثلة فى الإعلان ظهرت فى مشهد المحاضرة السابق، فتاة يبدو أن وظائفها العصبية ليس فيها أدنى عيب، راحت تشرب بسخاء فتتحرك عضلات حلقها المثيرة، تشرب من كوب طويل مثلج محلول إلكترولايت الكوريكتول.

همست دينيس لجارى: "ماذا كانت براءة اختراع بابا؟ حديدوز أيه؟"

هز جارى رأسه فى تجهم: "التبلمر الكهربى".

من ملفات مراسلاته فى البيت، التى تضم من بين أشياء كثيرة رسالة تلقاها من أمه، أخرج جارى نسخة قديمة من براءة اختراع ألفريد. لم يكن متأكداً أنه قد طالع هذه الورقة من قبل حتى، لكنه أحس بالفخر برواية والده لمسألة "التأين الكهربائى" فى "بعض محاليل الحديدوز العضوية" وفرضيته بأن هذه المحاليل يمكن استخدامها فى أنسجة بشرية حية لتهيئة "اتصال كهربائى مباشر" مع "بنى مورفولوجية دقيقة". بمقارنة منطوق براءة الاختراع بوصف الكوريكتول على موقع أكسون الإلكترونى بعد تجديده، اندهش جارى للغاية من درجة التطابق بين الصياغتين. من الواضح أن حكاية الخمسة آلاف دولار الخاصة بألفريد تقع فى صميم العملية التى تريد أكسون أن تجمع منها نحو ٢٠٠ مليون دولار، وكأن الرجل ليس فى حياته شىء بالفعل يجعله يقضى الليل نائمًا فى السرير يتقلب على جمر الغضب!

"ألو يا كيلسى، كيلسى، اسمعنى، احجز لى عشرين ألف سهم من إكسون بحد أقصى واحد إلى أربعة". هكذا تكلم الشاب الجالس إلى يسار جارى فجأة بصوت مرتفع.. الفتى معه جهاز إلكترونى فى

يده وسلك فى أذنه، وعيناه المنفصلتان عن العالم. "عشرون ألف سهم إكسون، حد أقصى أربعة إلى واحد".

إكسون، أكسون، انتبه لكلامك.. كذا خطر لجارى.

٢ ـ ضع سماعة على رأسك وشغل الراديو!

"لن تسمع شيئًا ـ ما لم يكن حشو أسنانك وضروسك قادر على التقاط أثير بث مباريات الكرة على موجات الأيه إم". هكذا مزح ممثل الإعلان فيما أنزلت الفتاة المبتسمة على رأسها قبة معدنية تشبه مجفف الشعر.. "لكن موجات الراديو تخترق ثنايا جمجمتك. تخيلى نظام جى بى إس فى مخك.. إشعاع لتحديد المواقع والتحفيز الانتقائى للمسارات العصبية الخاصة بجماجم بعينها. مثل غناء اسمك. صعود السلم. تذكر عيد ميلادك. التفكير الإيجابى! الاختبار الإكلينيكى فى عشرات المستشفيات فى شتى أنحاء أمريكا، أساليب د. إبيرل الضد-توموجرافية أصبحت أفضل وأفضل لجعل هذه المرحلة من الكوريكتول بسيطة وغير مؤلمة كزيارة إلى مصفف شعرك".

تدخل إبيرل فى الكلام، وما زال شعره المرسل يتموج وسط بحر من الدماء وأنسجة المُخ الجرافيكية: "حتى وقت قريب كانت عملية الكوريكتول تتطلب دخول المستشفى وربط حلقة معدنية بجمجمة المريض. وجد الكثير من المرضى هذه العملية مرهقة، وبعضهم أعربوا عن الضيق منها. لكن الآن مع الزيادة الكبيرة فى الطاقة الحاسوبية وسعة أجهزة الكمبيوتر، أصبح من الممكن إجراء عملية تصحيح فورية للتوصل بشكل دقيق إلى موقع المسارات العصبية المطلوب تحفيزها".

"كيلسى، أنت حبيبى، شكرًا" كذا قال الشاب صاحب العشرين ألف سهما من إكسون بصوت مرتفع.

فى الساعات والأيام الأولى بعد مشاجرة جارى الضخمة يوم الأحد مع كارولين، قبل ثلاثة أسابيع، تعهد هو وهى بعهود سلام. فى ساعة متأخرة من ليلة الأحد مدت يدها عبر المسافة الحدودية الفاصلة على المرتبة ولامست فخذه. فى الليلة التالية عرض عليها اعتذار شبه كامل، وفيه ورغم أنه رفض التصديق على المشكلة الرئيسية، أعرب عن ندمه وأسفه على الضرر الجانبى الذى تسبب فيه لها، وعن إيذاء مشاعرها وسوء التفسير المتعمد والكلام الجارح، مما أعطى كارولين لمحة عن شلال العطاء الذى ينتظرها إذا اعترفت فحسب فيما يخص القضية المركزية بأنه محق. صباح الثلاثاء أعدت له فطورًا، توست بالقرفة وسجق وطبق من الشوفان باللبن عليه زبيب مرتب ومنمق على شكل وجه مبتسم. صباح الأربعاء أثنى عليها مقرًا بحقيقة بسيطة ("أنت جميلة")، وهو الأمر الذى رغم أنه أقل بكثير من قول أحبك، ذكرها بقاعدة موضوعية بينهما (الانجذاب البدنى) التى يمكن إعادة بناء الحب عليها إذا هى أقرت فحسب فيما يخص المشكلة المركزية بأنه محق.

لكن كل التفاتة منطوية على الأمل، وكل بادرة استكشافية تنطلق، لا تصل إلى شىء. عندما ضغط على يدها التى مدتها إليه وهمس بأنه آسف على ألم ظهرها، لم تتمكن هى من اتخاذ الخطوة التالية فتقول أنها ربما ("ربما" بسيطة كافية!) أدى لعبها الكرة لساعتين فى المطر للإصابة. وعندما شكرته على كلامه عن جمالها وسألته كيف كان نومه، لم يجد الطاقة لأن يتجاهل الملمس الانتقادى فى صوتها، وتخيلها تقول: "النوم المضطرب لفترة طويلة عرض من

أعراض الاكتئاب الإكلينيكى، وبالمناسبة، كيف كان نومك يا حبيبى؟ من ثم لم يجرؤ على الاعتراف بأنه فى واقع الأمر كان نومه صعبًا، فقال إنه نام جيداً، وشكراً لك يا كارولين، أجمل نوم، أجمل نوم.

كل مبادرة سلام غير مكتملة تجعل المبادرة التالية أقل عرضة للنجاح. بعد قليل، اتضح لجارى أن ما بدا فى النظرة الأولى احتمال بعيد للغاية ـ أن زواجهما لم يعد فيه ما يكفى من رصيد من الحب وحسن النية لتغطية أية تكاليف عاطفية ستدفعها كارولين بالذهاب إلى سان جود أو تكاليف يدفعها هو مع عدم الذهاب إلى سان جود ـ اتضح له أن الموضوع جاد وحقيقى. بدأ يكره كارولين لأنها مستمرة فى الشجار معه. أصبح يكره مستودعات الاستقلالية التى اكتشفتها داخلها مؤخرًا وتلجأ إليها لتقاومه. وكره خصيصًا كل الكراهية، كراهيتها له. كان من الممكن أن ينهى الأزمة فى دقيقة إن كان كل ما عليه هو أن يغفر لها، لكن أن يرى فى عينيها كم هى بعيدة عنه ممتلئة بالكراهية له، فقد أثار هذا جنونه، وسمم أماله.

لحسن الحظ، لم تمتد ظلال اتهامها له بالاكتئاب ـ وهى ظلال طويلة ومظلمة من البداية -لم تمتد إلى ركن مكتبه فى سين - تراست وإلى المتعة التى يجدها فى إدارة مديرينه ومحلليه وسماسرته. أصبحت ساعات جارى الأربعين أسبوعيًا فى البنك هى الساعات الوحيدة الممتعة خلال الأسبوع. بل إنه بدأ يفكر فى العمل خمسين ساعة أسبوعيًا، إلا أن هذا قول أسهل من الفعل، لأن فى نهاية ساعات عمله الثمانية لا يبقى على مكتبه عمل يؤديه، كما أنه كان يعرف جيداً أن قضاء الساعات الطويلة فى العمل للهرب من التعاسة فى البيت هو الفخ الذى سقط فيه والده، فهكذا بدأ ألفريد يعالج نفسه بنفسه.

عندما تزوج كارولين، تعهد جارى فى صمت ألا يعمل بعد الساعة الخامسة وألا يجلب حقيبة العمل معه إلى البيت ليلاً. بعد أن وقع مع بنك إقليمى متوسط الحجم، اختار المسار الوظيفى الأقل طموحًا الذى تؤهله له مدرسة وارتون للأعمال. فى البداية كانت نيته هى تفادى الوقوع فى أخطاء والده، أن يمتع نفسه بالحياة وأن يحب زوجته ويلعب مع أولاده، لكن بعد قليل، حتى بعد أن ثبت أنه مدير استثمارات ناجح للغاية، أصبح حساسًا بشكل زائد للطموح. هناك زملاء أقل قدرة ومواهب منه بدأوا ينتقلوا للعمل فى مواقع أكبر، وأصبحوا مديرين ماليين مستقلين، وبدأوا فى إنشاء صناديق استثمارهم الخاصة بهم، لكنهم يعملون ١٢و١٤ ساعة يوميًا، وفى كل منهم طمع وشراهة غريبة للطموح والارتقاء. أما جارى، الذى طمأنه ميراث كارولين، فهو حر لأن يستثمر فى عدم الطموح، وأن يكون كرئيس فى العمل أبًا محبًا كما هو فى البيت. طالب من مرؤوسيه الصدق والامتياز. فى المقابل عرض عليهم التعليمات الصبورة والإخلاص المطلق والطمأنة لأنه لن يلومهم يومًا على أخطائه. إذا أوصت مديرته هو، فرجينيا لين، بزيادة نسبة أسهم الطاقة فى صندوق استثمار البنك من ستة فى المائة إلى تسعة فإن جارى يقرر ألا ينفذ قرارها، وإذا ربح قطاع الطاقة قرشين فى أى وقت، يعرب عن أسفه بابتسامة "أنا أحمق" ويعتذر علناً للين. لحسن الطالع، على كل من قراراته السيئة التى اتخذها، يتخذ قرارين أو ثلاثة قرارات جيدة، وفى تاريخ الكون لم يحدث أن مر بنك سين ـ تراست بست سنوات جيدة فى عالم الاستثمار كتلك التى مر بها أثناء توليه القسم. ليس من الممكن فى ظروف مالية منتعشة كهذه أن يفشل إلا أحمق أو نصاب. مع النجاح المضمون، يمكن لجارى أن

يستهين بعدم انبهار مديره به، مارفين كوستر، ومدير كوستر، مارتى بريتنفيلد، رئيس مجلس إدارة سين - تراست. لم يحدث أن نافق جارى رؤساءه أو أثنى عليهم. إلا أن كل من كوستر وبريتنفيلد أصبحا يلجآن إليه فى أمور متعلقة بالذوق والبروتوكول. كوستر يسأل جارى إن كان الأفضل أن يُلحق ابنته الكبرى فى مدرسة أبينجتون الثانوية بدلاً من مدرستها الحالية، وبريتنفيلد يلاحق جارى أمام حجرة اجتماعات كبار المديرين ليسأله إن كان يخطط هو وكارولين لحضور حفل فرى لايبرارى الخيرى أو إن كان جارى قد أعطى تذاكره للسكرتارية...

٣ - استرخ - الموضوع كله فى رأسك!

عاد كيرلى إبيرل للظهور على مقعده العائم داخل سوائل الدماغ ومعه نموذج بلاستيكى لإلكترولايت جزيئى، واحد فى كل يد، يقول: "من خصائص حديدوز السيتريت وحديدوز السيترات أنه تحت تحفيز موجات الراديو المنخفضة على أطوال موجية معينة للجزيئات، يمكن أن يتبلر. المدهش أكثر أن هذه المتبلرات موصلة جيدة للنبضات الكهربائية".

إبيرل على الشاشة بابتسامة عذبة، فى المحاليل الدموية التى تهيم من حوله. بدأت جزيئات الحديدوز تتجمع فى أزواج وترتب نفسها فى خطوط طولية متزاوجة.

قال إبيرل: "هذه الأنابيب الميكروسكوبية الموصلة للتيار تجعل ما لم يكن ممكناً ممكن: التوصيل المباشر الديجيتال الكيميائى".

همست دينيس لجارى: "لكن هذا الكلام جيد، هذا هو ما كان يريده بابا دومًا".

"ماذا أراد؟ أن يحرم نفسه من ثروة؟"

"أن يساعد الآخرين. أن يحدث فارقًا".

كان من الممكن لجارى أن يشعر بكلامها هذا عنه لو كان الرجل يبدو عليه الإحساس بالرغبة فى مساعدة الآخرين، لو كان هذا إحساسه فلماذا لم يبدأ بزوجته. لكن دينيس لديها أفكار غريبة لا تلين عن ألفريد. لا فائدة من جدالها.

٤ ـ الأثرياء يزيدون ثراءً

رجل الإعلان يقول: "نعم، قد يتحول ركن متواضع من أركان المخ إلى ورشة عمل رائعة، لكن كل مسار عصبى هادئ موجود تتجاهله عملية الكوريكتول. حيث توجد الحركة والنشاط، يزيد الكوريكتول من النشاط والحركة! يساعد الأثرياء على زيادة ثرائهم!".

من جميع أنحاء القاعة ب تدفقت الضحكات والتصفيق وصيحات التقدير. أحس جارى بأن جاره المبتسم المصفق الجالس إلى يساره، الأستاذ عشرين ألف سهم من إكسون، ينظر إليه. ربما الرجل يتساءل لماذا لم يصفق جارى. أو ربما أرهبته أناقة ملابس جارى.

بالنسبة لجارى، من أهم عناصر عدم الظهور بمظهر المتلهف زائد الطموح، هو أن يرتدى ثيابًا يبدو أن لا علاقة لها بالعمل، وكأنه رجل مهذب تصادف أنه يستمتع بالذهاب إلى المكتب ويساعد الآخرين.

اليوم يرتدى سترة رياضية خضراء نصف حريرية، وقميص كتان وبنطلونًا أسود بلا كسرات، وتليفونه المحمول مغلق، متجاهلاً كل المكالمات الواردة. أمال مقعده إلى الخلف وتفحص الحجرة بعينيه

ليؤكد لنفسه أنه الضيف الذكر الوحيد فى المكان الذى لا يرتدى ربطة عنق، لكن التناقض بينه وبين الحشد جعله يرغب فى الكثير. قبل أعوام قليلة كان ليرى الحجرة غابة من الثياب الرسمية الشبيهة بملابس رجال المافيا الأنيقة. لكن الآن، فى سنوات الازدهار الاقتصادى الطويلة التى أشرفت على نهايتها، حتى شباب ضواحى نيوجيرسى أصبحوا يشترون السترات الإيطالية المصنوعة يدوياً والنظارات الشمسية الغالية. نقود كثيرة تدفقت على النظام حتى إن أبناء الست وعشرين عامًا الذين يعتقدون أن أندرو ويث هى شركة أثاث وأن وينسلو هومير شخصية كرتونية، أصبحوا قادرين على ارتداء ثياب تحاكى طبقة هوليود الأرستقراطية.

يا للمرار. جارى يريد الاستمتاع بكونه رجلا ثريًا يعيش حياة الدعة والخمول، لكن البلد لا تسهل الأمر عليه. من حوله ملايين المليونيرات الأمريكان الجدد، يحاولون مثله الإحساس بالتفرد النابع من شراء الملابس المناسبة، ومن التزلج على منحدرات فيرجن، ومن معرفة الشيف فى المطعم شخصيًا، ومن تحديد مكان على الشاطئ لا آثار فيه للأقدام. هناك عشرات الملايين من الشبان الأمريكان غيرهم ليست معهم نقود لكنهم يطاردون شخصية الإنسان "الكول" بلا هوادة. بينما الحقيقة المحزنة هى أنه لا يمكن للجميع أن يكونوا متفردين، وأنه لا يمكن للجميع أن يكونوا "كول"، لأن لو حدث هذا، فمن سيبقى عاديًا؟ من سيرضى بملل أن يكون غير "كول"؟

ما زال هناك مواطنو قلب أمريكا: سائقو سيارات المينى فان فى سان جود، الزائد وزنهم ثلاثون وأربعون رطلاً عن الطبيعى، الذين يرتدون السترات الرياضية البسيطة، ويعلقون ملصقات على سياراتهم، وشعرهم قصير دائمًا. لكن جارى فى السنوات الأخيرة

لاحظ بقلق متراكم تراكم الطبقات التكتونية للأرض، أن الشعب مستمر فى الخروج من الغرب الأوسط نحو السواحل الأكثر أناقة. (هو جزء من هذه الهجرة الجماعية، لكنه هرب مبكرًا، وبصراحة كان سباقًا). وفى الوقت نفسه فإن جميع المطاعم فى سان جود بدأت فجأة تحاكى المطاعم الأوروبية فى أطباقها، والمتسوقون فى المول القريب من بيت والديه يتعاملون مع السلع بدعة واسترخاء، كما يفعل هو، والسلع الكهربائية المعمرة المعروضة فى الأوكازيون فى سان جود قوية و"كول" ولا تختلف بالمرة عن تلك المعروضة فى شيستنات هيل. تمنى جارى حظر جميع الهجرات من الداخل إلى الساحل، مع تشجيع أبناء الغرب الأوسط على العودة لأكل طعامهم العجينى وارتداء ملابسهم قليلة الذوق ولعب ألعاب المائدة التقليدية، على مسار الاحتفاظ بمخزون استراتيجى وطنى من السذاجة، مخزون من انعدام الذوق يمكن الناس من الإحساس بالامتياز، مثله، من الإحساس بدرجة عالية للغاية من التحضر إلى ما شاء الله.

لكن هذا يكفى، كذا قال لنفسه. رغبة طاغية للتفرد، رغبة فى الاحتفاظ بوضع خاص داخل وضعه الخاص، هذا الإحساس بادرة أخرى مقلقة على اكتئابه المرضى.

والأستاذ عشرين ألف سهم من إكسون لم يكن ينظر إليه، بل ينظر إلى ساقى دينيس العارية.

قال إبيرل موضحاً: "خيوط البلمرة المرتبطة كيميائيًا وكهربائيًا بالمسارات العصبية النشطة تسهل من صرف الطاقة الكهربائية. لا نفهم تمام الفهم بعد الآلية التى تحدث، لكن الأثر هو تيسير أى عمل على المريض وجعل أى شىء يؤديه أكثر متعة فى تكراره

والاحتفاظ به كعادة. إحداث هذا الأثر تجربة طبية مثيرة. إلا أننا فى أكسون، اكتشفنا طريقة لجعل هذا الأثر أبدى".

قال رجل الإعلان فى إغراء: "شاهدوا معنا".

٥ ـ والآن حان دورك لأن تتعب قليلاً!

فيما راحت شخصية كرتونية على الشاشة ترفع فنجان شاى إلى فمها، راحت بعض المسارات العصبية المهتزة تضىء وتومض داخل رأس شخصية الكارتون. ثم شريت الشخصية الكرتونية إلكترولايتس الكوريكتول، مرتدية خوذة من خوذات إبيرل، ثم رفعت الشخصية الفنجان مرة أخرى. راحت أنابيب صغيرة ميكروسكوبية تتجمع فى المسارات الدماغية النشطة، وبدأت تبرق بنور قوى.

همست دينيس: "لابد أن نحمل بابًا على إجراء هذا الاختبار".

قال جارى: "ماذا تقصدين؟"

"هذه العملية تصلح لمرض باركنسن، قد تفيده".

تنهد جارى كإطار سيارة يتسرب منه الهواء. كيف لم تخطر له فكرة بسيطة تمامًا كهذه من قبل؟ أحس بالخجل من نفسه وفى الوقت نفسه أحس بالضيق من دينيس. وجه ابتسامة صفراء للشاشة وكأنه لم يسمعها.

قال إبيرل: "ما إن يتم التعرف على المسارات العصبية وتحفيزها، لا تنقصنا إلا خطوة واحدة على التحول الفعلى الذى يؤدى إلى التصحيح. وهنا، كما هو الأمر بالنسبة لكل شىء فى عالم الطب اليوم، السر هو الجينات".

٦ ـ هل تذكر أقراص الدواء التى أخذتها الشهر الماضى؟

قبل ثلاثة أيام، عصر يوم الجمعة، وصل جارى أخيرًا إلى بادج بورتلى فى هيفى آند هوداب. أحس ببورتلى مستعجلاً للغاية.

قال بورتلى: "آسف يا جارى، أنا مشغول للغاية، اسمع يا صديقى، تحدثت مع دافى أندرسن بناء على طلبك. يقول دافى لا بأس، سوف نخصص خمسمائة سهم لعميلنا الجيد فى سين ـ تراست. اتفقنا يا صاحبى؟ كله تمام؟"

قال جارى: "لا، قلنا خمسة آلاف وليس خمسمائة".

صمت بورتلى للحظة: "اللعنة يا جارى. اختلط علىّ الأمر، حسبتك قلت خمسمائة".

"بل كررت ما قلته لك وقتها، قلت خمسة آلاف. قلت إنك تكتب ورائى ما أقوله".

"ذكرنى.. هل أضيف الأسهم على حسابك أم على حساب سين تراست؟"

"على حسابى".

"انظر يا جارى، إليك ما سنفعله. اتصل بدافى بنفسك واشرح له الموقف، اشرح له كيف اختلط الأمر وربما يأتيك بخمسمائة سهم إضافية. يمكننى أن أساعدك فى طلبك هذا، بحد أقصى خمسمائة. كان هذا خطأ، لم أتخيل لأى درجة هذه الشركة مهمة. لكن عليك أن تدرك أن دافى سيأخذ اللقمة من فم غيرك ليطعمك. كل العصافير الصغيرة فتحت أفواهها لتأكل. هات! هات! هات! يمكننى أن أدعم طلبك بخمسمائة إضافية، لكن عليك أن تطالب بها بنفسك، مفهوم يا صديقى؟ اتفقنا؟"

"كلا يا بادج، لم نتفق. هل تذكر عندما خففت عنك واشتريت منك عشرين ألف سهم خاسر من أنديلسون لي؟ كما أننا أخذنا..."

"جاري، جاري، لا تعاملني هكذا. أنا مدرك لما حدث. هل نسيت أنديلسون لي؟ طبعًا لا، هذه الذكرى تطاردني في صحوي ونومي. كل ما أحاول أن أقوله هو أن خمسمائة سهم من أكسون قد تبدو لك قليلة، لكنها ليست قليلة ولا هينة. صدقني هذا أكبر عدد من الأسهم يمكن لدافي أن يحجزه لك".

قال جاري: "لنتكلم بصراحة. أخبرني إن كنت قد نسيت الخمسة آلاف سهم المطلوبة".

"طيب، أنا حيوان. شكرًا لأنك عرفتني. لكن لا يمكنني أن آتيك بأكثر من ألف سهم ولو انطبقت السماء على الأرض. إن كنت تريد خمسة آلاف، يحتاج دافي لأمر مباشر من ديك هيفي. وبما أنك ذكرت أنديلسون لي، قال لي ديك إن شركة كور ستيتس أخذت أربعين ألف سهم، وبنك فيرست ديلاوار أخذ ثلاثين ألفًا، وتيا كريف أخذوا خمسين ألفًا، إلى آخره. المسألة بهذه البساطة يا جاري، ساعدتنا بشراء عشرين ألف منّا في الأزمة، نساعدكم بحجز خمسمائة، على المقاس. قد أحاول الكلام مع ديك لو أردت. يمكنني أيضًا وببساطة أعتقد الحصول على خمسمائة إضافية من دافي. لكن دافي يعرف كل شيء، ويعرف لصالح من تعمل. بصراحة، الخدمة الكبيرة التي تطلبها لا تحتاج لأقل من مضاعفة حجم بنكك ثلاث مرات على الأقل ليستوعب ما نطلب من خدمات".

الحجم، نعم هذا مهم. ليس أمامه إلا أن يعد بشراء أسهم خاسرة بنقود سين - تراست فيما بعد، أسهم كثيرة خاسرة (ويمكن

أن يفقد عمله بسبب هذا الأمر)، وإلا فليس له قدرة تأثير تُذكر على بادج بورتلى. إلا أنه ما زالت عنده قدرة تأثير أخلاقية على هيئة عدم دفع أكسون ما يكفى مقابل براءة اختراع ألفريد. وهو راقد يعانى من الأرق ليلة الأمس، راح يتأمل كلمات المحاضرة الواضحة المكتوبة على المقاس التى يعتزم إلقاؤها على أكسون هذا العصر: أريدكم أن تنظروا فى عينى وتخبرونى بأن عرضكم لوالدى معقول وعادل. والدى عنده أسباب شخصية لقبول هذا العرض، لكن أعرف ما فعلتموه به. هل تفهموننى؟ أنا لست عجوزًا من الغرب الأوسط. أعرف ما فعلتم. وأعتقد أن عليكم أن تعرفوا أنه ليس أمامى من خيارات سوى أن أغادر هذه الحجرة ومعى خمسة آلاف سهم من الشركة. كما يمكننى الإصرار على الحصول على اعتذار منكم. لكننى أقترح ببساطة مبادلة مباشرة وواضحة. وهى بالمناسبة لن تكلفكم شيئًا، ولا مليم، ولا شىء.

"سينابتوجينيسيس!" كذا قال رجل إعلان أكسون فى ظفر.

٧ ـ لا، ليس هذا فصلاً من فصول الإنجيل!

ضحك المستثمرون المحترفون فى القاعة ب وضحكوا وضحكوا.

سألت دينيس جارى: "هل فى الموضوع شبهة احتيال؟"

قال جارى: "لماذا يشترون براءة اختراع بابا لو كان احتيالاً؟"

هزت رأسها: "هذا الكلام يثير فى الرغبة فى العودة إلى النوم".

جارى يفهم الإحساس. لم ينم جيداً على مدار الأسابيع الثلاثة الأخيرة. يهذى طوال الليل وحده ويعانى من قلة النوم فى النهار، ووجد من الأصعب الاعتقاد بأن مشكلته شخصية ولا علاقة لها بالأعصاب وكيمياء المخ.

كم كان محقًا طوال تلك الشهور، أن يخفى الكثير من بوادر القلق من الاكتئاب عن كارولين! كم كان دقيقًا وصائبًا حدسه بأن النقص فى الفاكتور ٣ سيسحب المشروعية من حججه الأخلاقية! كارولين الآن قادرة على إخفاء عدوانيتها تجاهه فى صيغة "اهتمام" و"قلق" على "صحته". قواه الخائرة للحرب المنزلية التقليدية لا تضاهى هذا السلاح البيولوجى الفتاك. هاجم "شخصيتها" بضراوة، فتهاجم هى "مرضه" كرد فعل.

بناء على هذه الميزة الاستراتيجية، اتخذت كارولين عدة تحركات تكتيكية عبقرية. عندما انتهى جارى من تجهيز خططه الحربية لأول عطلة أسبوعية من الأعمال العدائية، افترض أن كارولين ستلف وتدور حول أسلحته كما فعلت فى العطلة الماضية، أنها ستلعب كالمراهقين مع آرون وكاليب وتحضرهما على السخرية من بابا العجوز الذى لا يفهم شيئًا عن عالمهم المشترك. وهكذا نصب لها كمينًا ليلة الخميس. اقترح عليها فجأة أن يذهب هو وآرون وكاليب فى رحلة بالدراجات الجبلية إلى جبل البوكونوس يوم الأحد، أن يغادروا فى الفجر ليوم طويل من توثيق الروابط الذكورية فيما بينهم، ولا يمكن لكارولين أن تشارك لأن ظهرها يؤلمها.

كان هجوم كارولين المضاد يتمثل فى التصديق على عرضه بحماس. دعت كاليب وآرون إلى الذهاب والاستمتاع بوقتهما مع بابا. شددت على كلمات هذه الجملة الأخيرة، مما أدى بآرون وكاليب للتفاعل معها وكأنهما فهما كلمة السر.. "دراجات فى الجبل، هيه، نعم يا بابا، رائع!" وفجأة أدرك جارى حقيقة ما يحدث. أدرك لماذا جاء آرون وحده ليلة الاثنين ليعتذر بمبادرة منه لأنه قال عن والده أنه "فظيع" ولماذا جاء كاليب يوم الثلاثاء للمرة

الأولى منذ شهور، ودعاه للعب كرة القدم معه، ولماذا جاءه جوناه يوم الأربعاء دون دعوة منه، وعلى صينية بكأس مارتينى ثانى أعدته له كارولين. اكتشف لماذا تحولت مشاعر أولاده معه إلى التضامن والتعاطف: لأن كارولين قالت لهم إن والدهم يعانى من الاكتئاب المرضى. يا لها من لعبة عبقرية! لم يشك للحظة فى حقيقة لعبتها، أن "قلق" كارولين مصطنع تمامًا لا أساس له ولا سند، تكتيك حربى، طريقة لتفادى قضاء الكريسماس فى سان جود، لأنه لم يعد يرى فى عينيها أدنى قدر من الدفء أو المحبة له.

سألها جارى فى الظلام، من جانبه البعيد من السرير الضخم بمساحة ربع فدان: "هل قلت للأولاد إننى مكتئب؟ كارولين؟ هل كذبت عليهم بشأن حالتى الذهنية؟ هل لهذا أصبح الجميع محبين فجأة؟"

قالت: "جارى، هم لطيفون معك لأنهم يريدونك أن تأخذهم إلى هذه الرحلة بالدراجات".

"الموضوع مريب".

"بدأ إحساسك بالبارانويا يزيد على الحد".

"أحه، أحه، أحه!"

"جارى، أنت مخيف"

"أنت تتلاعبين برأسى! ولا توجد خدعة أدنى ولا أسفل من هذه. لا توجد خدعة أسفل فى كتب الخداع".

"أرجوك أرجوك، اسمع ماذا تقول".

"أجيبى سؤالى: هل قلت لهم إننى مكتئب؟ أننى أمر بفترة عصيبة؟"

"ألست كذلك؟"

"أجيبى سؤالى!"

لم تجب سؤاله. لم تقل شيئًا تلك الليلة، رغم أنه كرر سؤاله عليها لمدة نصف ساعة، متوقفًا لدقيقة أو دقيقتين كل مرة وكأنها ستجيب، لكنها لا ترد.

بحلول صباح رحلة الدراجات، كان محطماً من الحرمان من النوم لدرجة أن طموحه تلخص فى مجرد القدرة على الأداء البدنى الطبيعى. حمّل ثلاث دراجات فى سيارة كارولين الضخمة الآمنة وراح يقود لمدة ساعتين، ثم قام بتنزيل الدراجات وركب الدراجة ميلاً وراء ميل، على مسارات جبلية صعبة. سبقه الصبية. عندما وصل إليهم، كانوا قد ارتاحوا وأصبحوا على استعداد للسير مرة أخرى. لم تأخذهم به رأفة لكن كانت تعبيرات الوجوه هى التوقع الودود، وكأن جارى قد يعترف بشىء. موقفه صعب إلى حد ما من الناحية العصبية الكيماوية، إلا أن ليس عنده شىء يقوله غير: "هيا نأكل السندويتشات" و"منحدر آخر ثم نعود". مع حلول الغروب، قام بربط الدراجات بالسيارة، وقاد لمدة ساعتين، ثم أنزل الدراجات مع إحساسه بتدفق الأنيدونيا.

خرجت كارولين من البيت وقالت للولدين الأكبر كم استمتعت بوقتها مع جوناه. أعلنت أنها بدأت تحب سلسلة كتب نارنيا. وعلى مدار المساء راحت تثرثر مع جوناه عن "أسلان" و"كاير برافيل" و"ريبشيب" وصفحة دردشة نارنيا للصغار فقط على الإنترنت التى وجدتها، وعن موقع سى إس لويس وفيه ألعاب جميلة والكثير من منتجات نارنيا التى يمكن شراؤها.

قال جوناه لجارى: "توجد لعبة "الأمير كاسبيان" على سى دى. أنتظر بلهفة أن ألعبها".

قالت كارولين: "تبدو لعبة مثيرة حقًا وجيدة التصميم. أوضحت لجوناه كيف يطلبها من الموقع".

قال جوناه: "هناك دولاب، تشير إليه بالماوس وتمر من الدولاب إلى نارنيا، وتوجد أشياء جميلة هناك".

كانت راحة جارى عميقة فى الصباح التالى وهو يمضى متخبطًا فى لهفة، مثل يخت دمرته العاصفة، إلى مرفأ أسبوع العمل الأمن. لا شىء أمامه سوى أن يضمد جراحه قدر الإمكان. منذ شجاره الأول مع كارولين، قبل عشرين عامًا، عندما جلس وحده فى شقته يشاهد برنامج مسابقات ويستمع إلى تليفونه يرن كل عشر دقائق، كل خمس دقائق، كل دقيقتين، فهم أن فى قلب كارولين النابض بالحب إحساس يائس بافتقاد الأمان. عاجلاً أو آجلاً - إن حافظ على حبه - سوف تأتى تضرب على صدره بقبضتها الصغيرة وتدعه ينال ما يريد.

لكن لم يظهر على كارولين أدنى بادرة للضعف. فى ساعة متأخرة من الليل، عندما كان جارى يشعر بالخوف والغضب لدرجة تمنعه من إغماض عينيه، ناهيك عن النوم، كانت ترفض بتهذيب وحسم الشجار معه. كانت عنيدة كالصخر فى رفضها مناقشة موضوع الكريسماس، وقالت إن سماع جارى يتكلم فى الموضوع كمشاهدة مشروب كحولى.

سألها جارى: "ماذا تريدين منى؟ أخبرينى ماذا يجب أن أقول".

"أريدك أن تتحمل مسئولية صحتك النفسية".

"يا ربى يا كارولين. إجابة خاطئة خاطئة خاطئة".

وفى الوقت نفسه، فإن ديسكورديا، ربة الشجارات الزوجية، تدخلت فى الموضوع من خلال شركات الطيران. رأى فى مجلة إنكوايرر إعلان من صفحة كاملة عن تخفيضات هائلة على تذاكر طيران الغرب الأوسط، تشمل تذكرة ذهاب وعودة بـ ١٩٨ دولارًا بين فيلادلفيا وسان جود. هناك أربعة مواعيد لا أكثر لهذه الرحلة فى ديسمبر. بالإقامة ليوم إضافى واحد هناك أثناء الكريسماس، يمكن لجارى أن يأخذ أسرته ويعود بها من سان جود (طيران مباشر بلا ترانزيت!) بأقل من ألف دولار. طلب من شركة السياحة أن تحجز له خمس تذاكر مع تجديد الحجز يوميًا. أخيرًا، صباح الجمعة، وكان من المقرر أن ينتهى الحجز فى منتصف الليل إن لم يتم دفع ثمن التذاكر، أعلن لكارولين أنه سيشترى التذاكر. وبناء على سياسة "لا كريسماس" الحاسمة التى تبنتها، التفتت كارولين إلى آرون وسألته إن كان قد ذاكر مادة الأسبانى التى سيمتحن فيها قريبًا. ومن مكتبه فى سين - تراست، فى حالة من حالات صمود حروب الخنادق، اتصل جارى بشركة السياحة وصرح لها بشراء التذاكر. ثم اتصل بطبيبه وطلب اسم دواء للنوم، روشتة قصيرة الأجل، شىء أقوى من العلاجات المتوفرة بلا روشتات. رد دكتور بيرس قائلاً إن موضوع المنوم لا يبدو له فكرة جيدة. قال بيرس إن كارولين ذكرت أن جارى ربما كان مكتئبًا، والمنوم لن يساعد فى التخلص من الاكتئاب. ربما بدلاً من الدواء، هل يود جارى المجىء للعيادة والكلام عن مشاعره؟

للحظة، بعد أن وضع السماعة، ترك جارى العنان لخياله ليتخيل الطلاق. لكن ثلاثة بورتريهات ذهنية مقدسة لأبنائه، مظللة بقطيع من المخاوف المالية، طارد هذه الفكرة وأبعدها عن رأسه.

فى حفل العشاء يوم السبت فتش خزانة الدواء فى بيت صديقيه درو وجامى أملاً فى العثور على دواء من عائلة الفاليوم، لكن لم يحالفه الحظ.

بالأمس اتصلت به دينيس وأصرت بجمود غريب على أن يتناول معها الغداء. قالت إنها قابلت إنيد وألفريد فى نيويورك يوم السبت. قالت إن شيب وصديقته تركاها واختفيا.

جارى الذى لم ينم ليلة الأمس، تساءل إن كانت مغامرات كهذه هى ما قصدته كارولين عندما وصفت شيب بأنه رجل "صادق بما يكفى" لأن يجاهر بما يمكنه تحمله وما لا يمكنه تحمله.

فيديو إيرل إبيرل يقول فى بهجة: "الخلايا تُبرمج جينيًا فتُطلق عوامل لحث الأعصاب على النمو لدى تنشيطها محليًا".

موديل شابة، جمجمتها داخل خوذة إبيرل، مربوطة إلى آلة تأمر مخها بتوجيه الأوامر لقدميها لكى تسير.

موديل يبدو عليها إحساس شتوى، حالة من الألم والتعاسة على وجهها، ترفع أطراف فمها بأصابعها بينما تكشف صورة كرتونية داخل مخها، نمو العقد العصبية، وظهور روابط جديدة بين الخلايا العصبية. فى لحظة أصبحت قادرة على الابتسام فى تردد. وبعد لحظة، ابتسامتها براقة مشرقة.

الكوريكتول: إنه المستقبل!

قال إيرل إبيرل للكاميرا: "شركة أكسون محظوظة بحق ملكية خمس براءات اختراع أمريكية لحماية هذه التكنولوجيا القوية. براءات الاختراع هذه، وثمانية براءات اختراع أخرى فى الطريق، تعتبر جدار صد منيع لا يمكن اختراقه يحمى المائة وخمسين مليون دولار التى أنفقناها حتى الآن على البحوث والتطوير. أكسون شركة رائدة على مستوى العالم فى هذا المجال. لدينا خبرة ست سنوات من التدفق النقدى الإيجابى وتدفق الأرباح التى نتوقع أن تزيد على ثمانية ملايين دولار فى العام القادم. ليطمئن المستثمرون المحتملون لأن كل سنت من كل دولار سنجمعه فى ١٥ ديسمبر سوف يُنفق على تطوير هذا المنتج الرائع وربما التاريخى أيضًا".

* * *

"الكوريكتول: إنه المستقبل!" كذا قال إبيرل.

رد عليه رجل الإعلان: "إنه المستقبل!"

رد عليه حشد الطلاب الأنيقين ذوى النظارات التى تعطيهم مظهر الجهابذة: "إنه المستقبل!".

"وأنا أحب الماضى"، كذا قالت دينيس، وهى ترفع إلى شفتيها زجاجة النصف لتر من المياه المستوردة المجانية على سبيل الترحيب بالضيوف.

فى رأى جارى، فإن عدد الحضور فى القاعة كبير للغاية. هناك مشكلة فى نظام التهوية. مع زيادة درجة الإضاءة، راح عدد من عمال القاعة الصامتين يتحركون بين الموائد، ومعهم أطباق مشهيات مغطاة.

قالت دينيس: "تخمينى الأول إنه السلمون، لا بل هو تخمينى الوحيد".

من بين المقاعد وإلى المنصة يتقدم ثلاثة أشخاص ذكروا جارى، وياللعجب بشهر العسل الذى قضاه فى إيطاليا. زار مع كارولين كاتدرائية فى مكان ما فى توسكانى، ربما فى سيينا، فى متحف فيه تماثيل كبيرة للقديسين تعود إلى العصور الوسطى، كانت فيما سبق مرتكزة على سطح الكاتدرائية، ولكل تمثال ذراع مرفوع وكأنه مرشح رئاسى يلوح بيده، وكل تمثال عليه ابتسامة "يقين" قديسية الطابع.

قام الرجل الأكبر بين المرحبين الثلاثة القادمين ـ وكان متورد الوجه ويرتدى نظارة بلا إطارات ـ قام بمد يده وكأنه يبارك الحضور.

قال: "حسنًا حسنًا، أيها السادة، اسمى جو براجر، وأنا محامى الصفقات الأول فى براغ كنوتر. إلى يسارى ميريلى فينش، المدير التنفيذى لأكسون، وإلى يمينى دافى أندرسون، مدير الصفقات فى هيفى آند هوداب. كنا نأمل أن يجد كيرلى بنفسه الوقت للحضور اليوم، لكنه رجل الساعة، فهو يجرى مقابلة مع السى إن إن الآن. دعونى إذن ألقى كلمة قصيرة ثم أعطى الميكروفون لدافى وميريلى".

"ألو يا كيلسى، أين أنت يا صديقى، كلمنى، فهمنى"... صوت الشاب المجاور لجارى وهو يهتف.

قال براجر: "النقطة الأولى، رجاء أن تلاحظوا جميعًا كم أنا قلق من أن نتائج بحوث كيرلى أولية للغاية. نحن فى المرحلة الأولى من

البحوث يا قوم. هل سمعتمونى جميعًا؟ أنتم يا من تجلسون فى الخلف؟" مد براجر عنقه ولوح بيديه باتجاه الموائد الأبعد، ومنها مائدة جارى. "الحقيقة الكاملة: هذه هى المرحلة رقم واحد من البحوث. أكسون لم تحصل بعد ولم تعلن بأى شكل من الأشكال عن حصولها على تصريح حكومى رسمى بإجراء المرحلة الثانية من البحوث. وماذا بعد المرحلة الثانية؟ المرحلة رقم ثلاثة! وبعد المرحلة رقم ثلاثة؟ عدة مراحل من المراجعة التى قد تؤخر إصدار المنتج نحو ثلاثة أعوام إضافية. يا قوم، اسمعونى، نحن نتحدث عن النتائج الإكلينيكية، وهى أمر مهم للغاية لكن مبدئى وأولى للغاية. اتفقنا؟ واضح؟ كله تمام؟"

براجر يناضل للحفاظ على تعبير وجهه مستقرًا. وكانت ميريلى فينش ودافى أندرسون يجاهدان للاحتفاظ بابتسامة، وكأنهما بدورهما لديهما أسرار مثيرة للإحساس بالذنب، أو يعتنقان ديانة سرية.

قال براجر: "النقطة الثانية، عرض الفيديو الملهم هذا ليس نشرة مالية للشركة. وكلمة دافى هنا اليوم وميريلى كلمات مرتجلة، وأؤكد أنها بدورها ليست نشرة مالية".

مال عامل القاعة على مائدة جارى وأعطاه طبقًا فيه قطعة سلمون تحتها بعض العدس. رفضت دينيس أخذ طبقها.

همس جارى: "ألن تأكلى؟"

هزت رأسها.

أحس بجرح كبير: "دينيس، ما الأمر؟ أنت مؤكد قادرة على أكل لقمتين معى".

نظرت إليه دينيس نظرة مباشرة فى وجهه لا يظهر منها إحساسها: "معدتى تؤلمنى قليلاً".

"هل تريدين المغادرة؟"

"لا، أنا فقط لا أريد أن آكل".

كانت دينيس التى بلغت الثانية والثلاثين ما زالت جميلة، لكن بعد قضاء ساعات طويلة أمام الموقد بدأ جلدها الشاب يتحول إلى قناع من الأرض المحروقة، مما جعل جارى يقلق أكثر وأكثر كلما رآها. إنها أخته الصغيرة. سنوات خصوبتها والسن المناسبة للزواج بدأت تولى بسرعة وهو منتبه إليها، وهى كما يعتقد ليست منتبهة لهذا. يبدو له عملها تعويذة شريرة تعمل تحت تأثيرها ست عشرة ساعة يومياً ولا تتمتع بأى حياة اجتماعية. كان جارى يخشى - كما يزعم، بصفته الشقيق الأكبر، وله الحق فى القلق - أن حينما تفيق دينيس أخيرًا من أثر التعويذة، ستكون قد كبرت على أن تؤسس أسرة.

أكل السلمون بسرعة فيما شربت هى المياه المستوردة.

على المنصة كانت المديرة التنفيذية لأكسون، ميريلى فينش، شقراء أربعينية ذكية كعميدة كلية، كانت تتحدث عن الآثار الجانبية: "بالإضافة إلى الصداع والإحساس بالغثيان، وهما متوقعان، لم نسجل وجود أى عرض جانبى آخر. تذكروا أيضًا أن التقنية التى نستخدمها استخدمت على نطاق واسع منذ سنوات، دون آثار جانبية ضخمة". أشارت فينش إلى القاعة: "تفضل يا صاحب البدلة الأرمانى الرمادية"

"أليس كوريكتول اسم دواء تليين؟"

قالت فينش وهى تومئ برأسها بقوة: "النطق مختلف، لكن نعم. كيرلى وأنا فكرنا فى نحو عشرة آلاف اسم قبل أن ندرك أن الأسماء التجارية ليست من نقاط قوة مرضى الزهايمر، أو مرضى باركنسن، أو المكتئبين اكتئابًا حادًا. كان بإمكاننا تسمية المنتج كورسينو- أسبيستو، وسوف يطرقون الباب ويطلبونه. لكن رؤية كيرلى الهامة هنا، والسبب لاستعداده للمخاطرة بإطلاق نكات معوية عن المنتج وما إلى ذلك، هى أن بعد عشرين عامًا من الآن لن يبقى سجناً واحداً مفتوحًا فى الولايات المتحدة بفضل هذه العملية. قصدى، وبواقعية، أننا نعيش فى عصر الاكتشافات الطبية الكبرى. لا شك أن عندنا أدوية وتقنيات طبية منافسة لمنتجنا. بعض هذه الأساليب العلاجية ستظهر فى الأسواق قبل كوريكتول. ومن ثم، بالنسبة لأغلب أمراض العقل، فإن منتجنا سيكون سلاحًا وحيداً ضمن ترسانة أسلحة. الواضح أنه السلاح الأفضل، لكنه فى النهاية سلاح بين عدة أسلحة. على الجانب الآخر، فيما يتعلق بالأمراض الاجتماعية، فليس هناك خيار آخر متاح فى عقل المجرم. إنه الكوريكتول أو السجن. هو إذن اسم صريح ومباشر. نحن سنطلق يدنا فى عالم جديد. سوف نغرس العلم الإسبانى على الشاطئ هنا"(*).

حدثت جلبة عند مائدة بعيدة، يجلس إليها عدد من الأشخاص ساذجى المظهر، ربما كانوا مديرين لصندوق استثمار لنقابة ما. نهضت سيدة شبيهة بالبجعة من المائدة وصاحت: "إذن، ما الفكرة؟

(*) المقصود، أن الكوريكتول اكتشاف طبي يحاكى فى أهميته رحلة كريستوفر كولمبس التى اكتشف فيها أمريكا. ومعنى كوريكتول: «تصحيح كل شئ» (المترجم).

أنكم ستعيدون برمجة مسجلى الخطر بحيث يستمتعون بأعمال التنظيف البسيطة مثلاً كوظيفة؟"

قالت فينش: "هذا فى إطار الممكن، نعم. هذا من التصحيحات المتوقعة، رغم أنه ليس التصحيح الأفضل".

لم تصدق السيدة الكلام: "ليس الأفضل؟ هذا كابوس أخلاقى".

قالت فينش على سبيل الدعابة وهى تعلم أن أغلب الضيوف منحازون لها: "أيتها الأمة الحُرة، اذهبى واستثمرى فى الطاقة البديلة. اشتروا أسهم الطاقة الشمسية. مستقبلنا فى الطاقة الشمسية، طاقة رخيصة، سليمة أخلاقيًا. المهم، السؤال التالى؟ نعم أنت يا صاحب القميص الوردى".

استمرت السيدة فى هتافها: "أنتم تحلمون إن كنتم تظنون أن الشعب الأمريكى.."

قاطعتها فينش ومعها ميزة الميكروفون وصوته العالى: "حبيبتى. الشعب الأمريكى يدعم عقوبة الإعدام. هل تعتقدين أنهم سيجدون غضاضة فى البدائل البناءة اجتماعيًا كهذا البديل؟ بعد عشر سنوات من الآن سوف نرى من منّا تحلم. نعم، الأستاذ صاحب القميص الوردى على مائدة ٢ تفضل".

استرسلت السيدة: "عفواً. أنا أحاول أن أُذكر مستثمرينك المحتملين بالتعديل الثامن للدستور الذى..."

ابتسامة فينش تضيق: "شكرًا، شكرًا جزيلاً. بما أنك ستتحدثين عن عقوبة قاسية وغير معتادة، دعينى أقترح عليك أن تسيرى عدة بلوكات من هنا إلى شارع فيرمونت آفينيو. اذهبى والق نظرة على

سجن الولاية الشرقى. السجن المعاصر الأول فى العالم، افتتح عام ١٨٢٩ الحبس الانفرادى بحد أقصى عشرين عامًا، معدل انتحار مذهل، ولا توجد أية فوائد تأهيلية تُرجى منه، وتذكرى أنه ما زال النموذج الأساسى للإصلاح والتهذيب فى الولايات المتحدة حتى يومنا هذا. كيرلى لن يتحدث عن هذا الموضوع على السى إن إن يا قوم. بل يتحدث إلى المليون أمريكى المصابين بمرض باركنسن، والأربعة ملايين المصابين بالزهايمر. ما أقوله لكم الآن ليس للعامة. لكن الحقيقة أن البديل الطوعى مائة بالمائة للحبس والسجن هو نقيض القسوة. من بين تطبيقات كوريكتول المحتملة، فهذا هو التطبيق الأكثر إنسانية. هذه هى الرؤية الحُرة للموضوع، الإصلاح والتهذيب الذاتى الحقيقى والدائم والطوعى".

راحت السيدة تهز رأسها لتؤكد على أنها غير مقتنعة، ثم اتجهت إلى باب القاعة. تابعها الأستاذ عشرين ألف سهم من إكسون، إلى يسار جارى، بأن ضم يديه إلى فمه وقال "بيبى".

فعل مثله شبان يجلسون على موائد أخرى، فعرضوا رغبتهم فى الاستمتاع بشكل يعطى المصداقية لاحتقار دينيس للعالم الذى يقحم نفسه فيه. مالت دينيس إلى الأمام وراحت تحدق فى الأستاذ عشرين ألف سهم من إكسون بذهول واضح.

تقدم دافى أندرسون، صاحب مظهر "السنيد" الجيد، والسوالف الثقيلة اللامعة، تقدم إلى الأمام ليجيب على الأسئلة المالية. تحدث عن أن الإقبال على حجز أسهم الشركة منقطع النظير. قارن الإقبال على الاكتتاب فى هذا السهم بالطعام التايلاندى الحار وولاية دالاس فى شهر يوليو. رفض الكشف عن السعر الذى تعتزم

هيفى آند هوداب أن تطلبه مع فتح أسهم أكسون للاكتتاب. تحدث عن أن "السعر عادل" و"دعوا السوق يقوم بعمله".

لامست دينيس كتف جارى وأشارت إلى المائدة قبالة المنصة، حيث تقف ميريلى فينش وحدها تضع السلمون فى فمها. قالت: "الفريسة تأكل. دعنا ننقض".

قال جاري: "ننقض على ماذا؟"

"لإدراج اسم بابا بين من سيجرون عليهم الاختبارات".

لا شىء فى فكرة مشاركة ألفريد فى المرحلة رقم ٢ من الدراسة يعجب جارى، لكن خطر له أنه إذا ترك دينيس تفكر فى مشكلة مصاب ألفريد، وإذا تركها تثير حالة من التعاطف بشأن آل لامبرت، وإذا تمكنت من تهيئة حالة من التعاطف الأخلاقى أمام شركة أكسون، فربما تزيد فرصه بالحصول على الخمسة آلاف سهم التى يريد حجزها.

قال وهو ينهض: "تول أنت الحديث. ثم سأسألها بعض الأسئلة بدورى".

تقدم هو ودينيس من المنصة، فالتفتت الأعين إلى دينيس معجبة بساقيها.

كان دافى أندرسون يقول لصاحب أحد الأسئلة وهو يضحك: "ما الذى لم تفهمه فى جملة "لا تعليق" تحديداً؟"

كان خد المديرة التنفيذية لشركة أكسون منتفخًا بالطعام كالسناجب. وضعت ميريلى فينش منديلاً على فمها ونظرت إلى الشقيقين لامبرت المقتربين فى قلق. قالت: "أنا جائعة للغاية". هو

اعتذار سيدة نحيفة على إقبالها على المتع المادية للحياة، "سوف يجهز الطعام خلال دقائق، إن كنتما لا تمانعان فى الانتظار".

قالت دينيس: "عندنا سؤال شبه شخصى".

ابتلعت فينش الطعام بصعوبة، وربما لم تمضغه جيدًا: "ما هو؟"

قدمت دينيس وجارى نفسيهما وذكرت دينيس الرسالة التى أرسلها ألفريد.

قالت فينش موضحة وهى تبتلع العدس: "أنا جائعة، يجب أن آكل، أعتقد أن جو هو من كتب الرسالة لوالدك. أفترض أننا انتهينا من هذا الموضوع. يسره أن يتحدث معكما إن كانت لديكما أسئلة".

قالت دينيس: "سؤالنا يخصك أنت أكثر".

مضغت فينش السلمون بحركات قوية نشطة من فكيها، ثم ابتلعت ثانية ووضعت المنديل على الطبق ثم قالت: "آسفة. قضمة أخرى وأنتهى. فيما يخص براءات الاختراع، وبصراحة، لم يقلقنا غير احتمالات خرق براءات الاختراع المشابهة. هذا ما يفعله الجميع. لكن كيرلى هو المخترع، وإن أراد أداء الأمور تبعًا للأصول".

قال جارى: "بصراحة، الأصول كانت أن تعرضوا مبلغًا أكبر".

راح لسان فينش يلعق شفتها السفلى وكأنها قطة تحت البطانية. قالت: "ربما لديك فكرة متضخمة نوعًا عن إنجاز والدك. الكثير من الباحثين درسوا هذه المحاليل فى الستينيات. اكتشاف التماثل الكهربائى أمر يُعزى كما أعتقد لفريق من الباحثين فى جامعة كورنيل. بالإضافة إلى أننى فهمت من جو أن صياغة براءة الاختراع غير محددة. فهى لا تشير إلى المخ، بل إلى "الأنسجة البشرية".

العدالة حق الطرف الأقوى، عندما يتعلق الأمر بقانون براءات الاختراع. أعتقد أن عرضنا كان سخيًا".

رسم جارى على وجهه تعبير "أنا - أحمق" ثم نظر إلى المنصة، حيث كان دافى أندرسون يرد على الأسئلة.

طمأنت دينيس فينش بقولها: "والدنا راضٍ بالعرض، وهو مسرور بما تفعلونه".

التواصل بين الإناث أصاب جارى بشىء من الغثيان.

قالت فينش: "نسيت فى أى مستشفى يعمل".

قالت دينيس: "لا يعمل فى مستشفى. بل هو مهندس سكة حديد، وعنده معمل فى القبو".

ظهرت الدهشة على فينش: "أدى عمله هذا وهو هاوٍ؟"

لا يعرف جارى أى نسخة من ألفريد تصيبه بقدر أكبر من الغضب، الطاغية العجوز الكاره للناس الذى اكتشف اكتشافًا عبقرياً فى القبو ثم حرم نفسه من ثروة، أم هاوى القبو الساذج الذى كرر عمل كيميائيين حقيقيين، وأنفق الكثير من نقود الأسرة على تسجيل براءة اختراع غامضة الصياغة، ثم ألقيت إليه فتات من مائدة إيرل إيبيرل. النسختان تثيران جنونه.

ربما كان من الأفضل على كل حال، أن العجوز تجاهل نصيحة جارى وأخذ النقود.

قالت دينيس: "والدى مريض بمرض باركنسن".

"أنا آسفة للغاية".

"كنا نتساءل، إن كنتم تودون إضافته للاختبارات الخاصة بمنتجكم".

قالت فينش: "هذا ممكن. سوف نسأل كيرلى. أحب البُعد الإنسانى لهذا الموضوع. هل يعيش والدك قريبًا من هنا؟"

"إنه فى سان جود".

قطبت فينش جبينها: "لن يقدر على دخول الاختبارات إلا إذا تمكنت من جلبه إلى شوينكسفيل مرتين أسبوعيًا لمدة ستة أشهر على الأقل".

قالت دينيس وهى تلتفت إلى جارى: "ليست مشكلة. أليس كذلك؟"

جارى يكره كل شىء فى هذه المحادثة. الصحة الصحة، الأنثى الأنثى، حلوة جميلة، سهلة سهلة، لم يجب.

قالت فينش: كيف حاله عقليًا؟"

فتحت دينيس فمها لكن فى البداية لم تخرج كلمات.

قالت: "إنه بخير، بخير".

"لا يعانى من النسيان؟"

زمت دينيس شفتيها وهزت رأسها: "لا، يرتبك من الحين للآخر قليلاً، لكن لا".

قالت فينش: "الارتباك قد يكون بسبب الأدوية، وفى هذه الحالة العلاج بسيط. لكن أعراض النسيان تتجاوز متطلبات اختبارات المرحلة رقم ٢ والأمر نفسه ينسحب على الزهايمر".

قالت دينيس: "عقله حاضر بقوة".

"إن كان قادرًا على طاعة الأوامر البسيطة، ومستعد للسفر إلى الشرق فى يناير، فربما يحاول كيرلى ضمه إلى الاختبارات. ستكون قصة جيدة للغاية".

أعطتها فينش كارت العمل، وصافحت دينيس بدفء، وصافحت جارى بدفء أقل، ثم انتقلت إلى الحشد المحيط بدافى أندرسون.

سار جارى وراءها وأمسكها من مرفقها. التفت إليه مضطربة.

قال بصوت خفيض: "اسمعينى يا ميريلى"، وكأنه يقول دعينا نكون واقعيين، نحن الكبار قادرون على الاستغناء عن اللطف المتبادل فى الكلام، أضاف: "يسرنى أنك ترين فى أبى "قصة جيدة"، وحصولنا على خمسة آلاف دولار منكم كرم زائد، لكن أعتقد أنكم تحتاجوننا أكثر مما نحتاجكم".

لوحت فينش لشخص ما ورفعت إصبعًا، إشارة لأنها ستكون معه بعد ثانية. قالت لجارى: "فى الحقيقة، نحن لا نحتاجكم بالمرة. لذا فأنا لست متأكدة مما تشير إليه".

"أسرتى تريد شراء خمسة آلاف سهم من أسهم شركتك".

ضحكت فينش كما يليق بمديرة تعمل ثمانى وأربعين ساعة فى الأسبوع. قالت: "وكذلك جميع من فى هذه الحجرة. لهذا نحن نعمل بالاستثمار، لو سمحت لى".

أبعدت مرفقها عن يده وابتعدت. أحس جارى بصعوبة التنفس وسط كل هذه الأجساد. كان غاضبًا من نفسه لأنها يتسول، غاضب لأنه ترك دينيس تحضر هذا العرض معه، غاضب لأنه من آل

لامبرت. تقدم من أقرب مخرج دون أن ينتظر دينيس، التى هرعت إليه.

بين فندق فور سيزونس والبرج المجاور فناء خرسانى مزروع بأناقة شديدة. كان جارى ودينيس يعبران الفناء عندما اكتشف غضب جارى ثغرة ينفس فيها عن نفسه. قال: "لا أعرف أين تحسبين أن بابا سيقيم إذا جاء إلى هنا".

قالت دينيس: "معك بعض الوقت، ومعى بعض الوقت".

قال: "أنت لا تقضى فى البيت أى وقت، وبابا ذكر أنه لا يريد الإقامة فى بيتى أكثر من ثمان وأربعين ساعة".

قالت دينيس: "لن يكون الأمر مثل الكريسماس الماضى. ثق بى، الانطباع الذى وصلنى يوم السبت".

"ثم من سيذهب به إلى شوينكسفيل مرتين أسبوعيًا؟"

"جارى، ماذا تقول؟ ألا تريد أن يتحقق هذا الموضوع؟"

كان اثنان من العاملين بشركة فى البرج يجلسان على مقعد رخامى فى الفناء.. رأيا المشاجرة فنهضا لإخلاء المقعد. جلست دينيس وعقدت ساعديها فى جمود. راح جارى يسير ذهابًا وإيابًا أمامها فى دائرة ضيقة، ويديه على خصره.

قال: "على مدار السنوات العشر الأخيرة، لم يفعل بابا شيئًا يوحى بقدرته على رعاية نفسه. إنه يجلس فى ذلك المقعد الأزرق اللعين وإحساسه بالرثاء على نفسه يأكله. لا أعرف لماذا تعتقدين فجأة أنه سيبدأ فى..."

"لكن إذا عرف أنه ربما يوجد علاج".

"ماذا؟ حتى يكتئب خمس سنوات إضافية ويموت تعيسًا فى الخامسة والثمانين بدلاً من أن يموت فى الثمانين؟ هل سيحدث هذا أى فرق؟"

"ربما هو مكتئب لأنه مريض".

"أنا آسف. هذا كلام فارغ يا دينيس. الرجل مكتئب منذ قبل خروجه على المعاش. كان مكتئبًا عندما كانت صحته سليمة تمامًا".

نافورة صغيرة تغمغم مياهها إلى جوارهما، مولدة قدرًا متوسطًا من الخصوصية. سحابة صغيرة هائمة تجول فى قطعة السماء التى تحددها أسطح البنايات المحيطة، النور ساحلى متناثر غير مُركز.

قالت دينيس: "ماذا ستفعل إذا كانت ماما تلاحقك فى أيام الأسبوع السبعة، وتقول لك أخرج من البيت، وتراقب كل حركة تؤديها، وتتصرف وكأن المقعد الذى تجلس عليه مشكلة أخلاقية؟ كلما قالت له أن ينهض، زاد جلوسه. وكلما زاد جلوسه، زاد إصرارها على..."

"دينيس، أنت تعيشين فى عالم الخيال".

نظرت إلى جارى بكراهية وقالت: "لا تجاملنى. الإغراق فى الخيال هو تصور أن بابا آلة قديمة عفى عليها الزمن. إنه إنسان يا جارى، وله حياته الداخلية، كما أنه لطيف معى على الأقل".

قال جارى: "وليس لطيفًا معى. وهو شخص عنيد وأنانى ومؤذى لماما. وأقول لو أراد الجلوس على ذلك المقعد والنوم حتى تنتهى حياته، فلا بأس. أحب هذه الفكرة. أنا معجب ألف فى المائة بهذه الفكرة. لكن دعينا أولاً نُخرج ذلك المقعد من ذلك البيت الكبير

المتداعى الذى يقل ثمنه باستمرار. دعينا نمنح ماما شيئًا من الراحة فى حياتها. وليجلس هو على مقعده وليأسف على نفسه حتى تغرب شمس حياته".

"لكنها تحب البيت. هذا البيت هو حياتها المريحة".

"إنها فى عالم الخيال بدورها! ما فائدة حبها للبيت إن كانت مضطرة لرعاية العجوز أربع وعشرين ساعة يوميًا".

عقدت دينيس عينيها مصطنعة الحوَل، ونفخت هبة من الهواء فى شعرها وقالت: "أنت من تعيش فى الخيال. يبدو أنك تظن أنهما سيعيشان فى سعادة فى شقة من حجرتين فى المدينة حيث لا يعرفان غير أنا وأنت. هل تعرف من الذى تناسبه هذه الحياة؟ أنت".

رفع يديه إلى الهواء وقال: "هو مناسب لى إذن! تعبت من القلق على ذلك البيت فى سان جود. تعبت من رحلاتى إلى هناك. تعبت من سماع كم تعيش أمى فى تعاسة. الوضع المناسب لى ولك هو أفضل من وضع لا يناسب أحدًا. أمى تعيش مع رجل منهار بدنيًا، انتهى أمره، انتهى، نهاية القصة. وما زالت تعتقد أنه لو بذل جهدًا أكبر فسوف يصبح كل شىء على ما يرام وستعود المياه إلى مجاريها. فلتعرفوا جميعًا إذن أن الزمن لن يرجع إلى الوراء أبدًا".

"أنت لا تريده حتى أن يتحسن".

قال جارى وهو يغمض عينيه: "دينيس. مرت خمس سنوات عليهما قبل أن يمرض، وماذا فعل؟ راح يشاهد نشرة الأخبار المحلية وينتظر ماما التى تطهو له وجباته. هذا هو العالم الحقيقى الذى نعيش فيه، وأنا أريدهما أن يخرجا من ذلك البيت".

"جارى".

"أريدهما أن يعيشا فى بيت للمسنين هنا، ولا أخشى من قول هذا الكلام".

مالت دينيس إلى الأمام فى حركة لإبداء النية الحسنة، مما أثار امتعاضه أكثر: "جارى، اسمعنى، يمكن أن يأتى بابا ويقيم معى ستة أشهر. يمكن أن يحضرا معًا ويقيما هنا، ويمكننى أن آتيهما بالوجبات إلى البيت، ليست مشكلة. إذا تحسن حاله، فسوف يعودان، وإذا لم يتحسن، فسوف يُتاح لهما ستة أشهر يقرران فيها إن كانا يريدان العيش فى فيلادلفيا. ما المشكلة فى هذا؟"

جارى لا يعرف ما المشكلة. لكنه يكاد يسمع انتقادات إنيد لأخطاء دينيس الكثيرة. وبما أنه من المستحيل تخيل كارولين وإنيد يتشاركان البيت وديًا ستة أيام (ناهيك عن ستة أسابيع أو ستة أشهر) فلم يتخيل جارى ولو حتى على سبيل التسرية عن النفس، أن يقترح استضافة والديه. رفع عينيه إلى البياض الكثيف عند ركن من أركان البرج المواجه له تسطع عليه الشمس. أحواض الزهور الكثيرة من حوله وكأنها ممثلات كومبارس يرتدين البكينى فى فيديو كليب، معتنى بها جيدًا وسوف تُنزع وتغير بزهور أخرى قبل أن تفقد بعض أوراقها وقبل أن تظهر فيها بُقع بنية جرداء. لطالما استمتع جارى بحدائق الشركات ويعتبرها خلفية جيدة للامتيازات والتدليل المحيط بعالمه، لكن من الضرورى ألا يطلب من الزهور الكثير. من الضرورى ألا يأتيها طالبًا لأى راحة منها.

قال: "لا يهمنى. إنها خطة عظيمة، وإن كنت تريدين تولى العمل الشاق فى هذا الموضوع، فهذا كلام عظيم".

قالت دينيس بسرعة: "طيب، سأؤدى العمل الشاق. والآن ما أخبار الكريسماس؟ بابا يحتاج وجودكم جدًا".

ضحك جارى: "هو أيضًا يحتاجنا الآن".

"يريد أن تأتون لأجل ماما. وهى تريد وجودكم جدًا جدًا ".

"بالطبع تريد وجودنا. إنها إنيد لامبرت. ما الذى تريده إنيد لامبرت إن لم يكن الكريسماس فى سان جود؟"

قالت دينيس: "أنا ذاهبة، وسوف أحاول أن أقنع شيب بالذهاب، وأعتقد أن عليكم الذهاب بدوركم. لابد أن نجتمع لأجل خاطرهم".

أصابت لمسة الفضيلة الخفيفة فى صوتها جارى بالتوتر. كانت المحاضرة عن الكريسماس آخر شىء يحتاجه فى هذا اليوم الخريفى، مع صعود معدلات فاكتور ٣ العصبى لمعدلات غير طبيعية داخل رأسه.

استرسلت دينيس قائلة: "قال بابا شيئًا غريبًا يوم السبت. قال: لا أعرف كم تبقى من الوقت... يتحدثان عن هذا الموضوع وكأنه أخر فرصة لهما فى الكريسماس. الموضوع مهم جدًا ".

قال جارى: "إذن انتظرى أن تأخذ ماما هذا الموضوع إلى أقصى درجات "الهيبرة"".

"فعلاً. لكن أعتقد أنها صادقة فى مشاعرها".

قال جارى: "أنا واثق أنها صادقة. وسوف أفكر فى الموضوع، لكن يا دينيس، الموضوع ليس سهلاً، أن نذهب نحن الخمسة إلى هناك. ليس سهلاً! ليس سهلاً بينما المنطقى أن نجتمع كلنا هنا. صح؟ صح؟"

"أعرف، وأوافقك فى رأيك. لكن تذكر أن هذا الموضوع لن يحدث إلا مرة واحدة لا أكثر".

"قلت سأفكر فى الموضوع. هذا كل ما عندى، اتفقنا؟ سأفكر فى الموضوع! سأفكر فى الموضوع! خلصنا؟"

بدا العجب على وجه دينيس من انفجاره هكذا، "اتفقنا. شكرًا، لكن المهم أن..."

"نعم، هذا هو المهم".. اتخذ جارى ثلاث خطوات بعيدًا عنها ثم التفت إليها فجأة، "أخبرينى ما هو المهم".

"كنت أفكر فى..."

"أنا متأخر نصف ساعة بالفعل. أريد أن أعود إلى عملى بسرعة".

رفعت دينيس عينيها إليه وتركت فمها مفتوحًا فى منتصف جملتها التى لم تتمها.

قال جارى: "دعينا ننتهى من هذا الحوار أرجوك".

"لا أريد أن أبدو مثل ماما، لكن".

"تأخر الوقت على هذا الكلام! صح؟ صح؟" اكتشف أنه يصرخ فى وجهها فى جذل مجنون، وكانت يداه مشرعتان فى الهواء.

"لا أريد أن أبدو مثل ماما، لكن، أنت لن يفيدك أن تنتظر كثيراً على شراء التذاكر، ها قد قلت ما عندى".

بدأ جارى يضحك لكنه سيطر على الضحكة قبل أن تفلت منه. قال: "خطة جيدة! أنت محقة! سوف أقرر قريبًا! ويجب أن أشترى تلك التذاكر! خطة جيدة!" صفق بيديه وكأنه مدرب رياضى.

"هل هناك مشكلة؟"

"لا. أنت محقة. يجب أن نذهب جميعًا إلى سان جود هذا الكريسماس الأخير قبل أن يبيعوا البيت أو قبل أن ينهار بابا أو قبل أن يموت أحد. الموضوع لا يحتاج تفكير. لابد أن نذهب جميعًا، هذا واضح، أنت محقة تمامًا".

"طيب أنا لا أفهم إذن ما الذى يزعجك".

"لا شىء! لست منزعجًا من أى شىء!"

حدقت فيه دينيس: "ممتاز. دعنى إذن أطلب منك طلبًا أخيرًا. أريد أن أعرف لماذا تتخيل ماما أننى على علاقة برجل متزوج".

نبضة من الإحساس بالذنب، موجة عالية مرت بجارى: "لا أعرف إطلاقًا".

"هل أخبرتها بأننى فى علاقة مع رجل متزوج؟"

"كيف أخبرها بهذا؟ لا أعرف أى شىء عن حياتك الشخصية".

"هل أوحيت لها بهذا الكلام؟ هل ألمحت لها؟"

قال جارى محاولاً استعادة أسلوبه الأبوى فى الكلام، هالة الأخ الأكبر وكبريائه: "دينيس، كفاك. أنت أكثر الذين أعرفهم قدرة على الاحتفاظ بالأسرار. على أى أساس أخبرها بأى شىء؟"

قالت: "هل ألمحت لها بشىء؟ لأن هناك من فعل هذا. هناك من وضع هذه الفكرة فى رأسها. وأتخيل أننى قلت لك شيئًا عن هذا الموضوع، ذات مرة، وربما أسأت أنت تفسير الموضوع وأخبرتها به. وبينى وبينها يا جارى كما تعلم مشاكل تكفينا دون أن تلمح لها أنت بأمور جديدة".

"أتعرفين؟ إن لم تكونى بهذا الغموض".

"أنا لست غامضة".

قال جارى: "إن لم تكونى كتومة هكذا، ربما ما كنت وقعت فى هذه المشكلة. وكأنك تريدين أن يتهامس الناس عنك وعن أخبارك".

"المدهش أنك لا تجيب عن سؤالى".

قال ببطء: "لا أعرف إطلاقاً من أين جاءت ماما هذه الفكرة. لم أخبرها بأى شيء".

قالت دينيس وهى تنهض: "طيب. سأتولى أنا العمل الشاق، وأنت فكر فى الكريسماس، وسوف أراك عندما يحضر ماما وبابا إلى هنا. إلى اللقاء".

بتصميم غريب اتجهت إلى أقرب مخرج، ولم تكن تتحرك بسرعة لتكشف غضبها، لكن بسرعة تكفى لأن لا يلاحقها جارى دون أن يجرى. انتظر دقيقة ليرى إن كانت ستعود. عندما لم تعد، غادر الفناء وسارع الخطى نحو مكتبه.

فرح جارى عندما اختارت أخته الصغيرة جامعة فى المدينة التى اشترى فيها هو وكارولين "بيت العُمر" مؤخرًا. كان يتطلع لتقديم دينيس (للتباهى بها) لجميع أصدقائه ومعارفه. تخيل أنها ستأتى إلى العشاء فى بيته كل شهر وأنها ستصبح كالأخت لكارولين. تخيل أن أسرته بالكامل، حتى شيب، ستستقر أخيرًا فى فيلادلفيا. تخيل أبناء أخته وأخيه وحفلات منزلية وألعاب أسرية وحفلات كريسماس طويلة يغمرها الثلج فى بيته بشارع سيمينول. والآن ها هو ودينيس يعيشان فى نفس المدينة منذ خمسة عشر عامًا، ويشعر

وكأنه لا يعرفها. لم تطلب منه شيئًا مطلقًا، مهما كانت متعبة، ولم تذهب إلى شارع سيمينول مطلقًا دون زهور أو حلوى لكارولين، وأسنان أسماك القرش والقصص المصورة للأولاد، ومزحة عن المحامين لجارى. لياقتها صلبة لا تلين، ولا سبيل لأن يكشف لها عن مقدار إحساسه بالإحباط لأن أحلام المستقبل الخاصة بالأسرة الغنية التى تخيلها لم يتحقق منها شىء.

قبل عام أثناء الغداء أخبرها جارى بشأن "صديق" متزوج (هو فى الحقيقة زميل، اسمه جاى باسكو) على علاقة بمدرسة البيانو التى تعطى الدروس لابنته. قال جارى إنه يتفهم اهتمام صديقه التفاعلى فى هذه العلاقة (باسكو لم تكن لديه أية نية لهجر زوجته) وأضاف أنه على ذلك لا يرى لماذا تهتم مدرسة البيانو بهذه العلاقة.

قالت دينيس: "إذن لا تتخيل لماذا قد تريد سيدة دخول علاقة معك؟"

قال جارى: "أنا لا أتكلم عن نفسى".

"كلاكما متزوجان وعندكما أولاد".

"أقول إننى لا أفهم ما الذى تراه امرأة فى رجل تعرف أنه كاذب وغشاش".

قالت دينيس: "ربما هى لا تحب الكذابين والغشاشين بشكل عام، لكنها عملت استثناء لهذا الرجل الذى أحبته".

"الموضوع خداع للنفس إذن".

"لا يا جارى، الحب ليس هكذا".

"وأعتقد أن هناك فرصة لأن يحالفها الحظ وتتزوج ثروة جاهزة".

هذه المشاكسة لليبرالية دينيس البريئة بالحقائق الاقتصادية الحادة أحزنتها على ما يبدو.

قالت: "أنت ترى رجلاً عنده أولاد، وترى كم هم سعداء هؤلاء الرجال لأنهم آباء. الاستحالة جذابة، وفيها سلامة المواضيع المنتهية والمحسومة".

"يبدو من كلامك أن عندك فكرة عن هذا الموضوع".

قالت: "إميل هو الرجل الوحيد الذى انجذبت إليه فى حياتى ولم يكن عنده أطفال".

أثار هذا الكلام اهتمام جارى. تحت غطاء الأخوة خاطر بأن يسألها: "إذن، أنت مع من الآن؟"

"لا أحد".

قال مازحاً: "لست مع رجل متزوج مثلاً، صح؟"

شحب وجه دينيس أكثر من شحوبه، واحتقن، وهى تمد يدها إلى كوب الماء. قالت: "أنا لا أقابل أحداً، وأعمل بجدية".

قال جارى: "تذكرى أن الحياة فيها ما هو أكثر من الطهى. أنت فى مرحلة تحتاجين معها لبدء التفكير فيما تريدين فعلاً وكيف تحصلين عليه".

دارت دينيس فى مقعدها وأشارت للنادل أن يأتى بالحساب. قالت: "ربما سأتزوج ثروة جاهزة إذن".

كلما فكر جارى فى تورط أخته مع رجل متزوج، زاد غضبه. إلا أنه لم يتمكن من إخبار إنيد بهذا الموضوع أبداً. كشف عن هذا

الموضوع بعد أن شرب كأسًا من الجين على بطن خاوية وهو يستمع إلى أمه تشيد بدينيس فى الكريسماس، بعد ساعات من انكشاف حيوان الرنة النمساوى المشوه وبعد أن تم اكتشاف هدية إنيد لكارولين فى القمامة وكأنها طفل مقتول. راحت إنيد تمجد فى "المالتى مليونير" الذى يمول مطعم دينيس الجديد والذى أرسلها فى رحلة تعليمية إلى فرنسا ووسط أوروبا لمدة شهرين من تمويله، وراحت تمجد عمل دينيس الجاد لساعات طويلة وإخلاصها لعملها ودأبها، وراحت تقارن بينها وبين "مادية" جارى و"هوسه بالنقود"، وكأنها ليست عبدة للدولار! وكأنها، إن أتيحت لها الفرصة، لكن تشترى بيتاً مثل بيت جارى ولن تؤثثه بنفس الطريقة التى أثثه بها! كان يريد أن يقول لها: "من بين أولادك الثلاثة، حياتى هى الأقرب إلى حياتك! تعلمت ما علمتينى أن أريده! والآن ها قد نلته، فلا يعجبك!".

لكن ما قاله فعلاً عندما وصل الكأس إلى رأسه كان: "لم لا تسألين دينيس مع من تنام الآن؟ اسأليها إن كان الرجل متزوجًا وإن كان عنده أى أولاد".

قالت إنيد: "لا أعتقد أنها مع أحد".

قال مخموراً: "صدقينى، اسأليها إن كانت قد تورطت من قبل مع رجل متزوج. أعتقد أن الأمانة تُملى عليك أن تسأليها هذا السؤال قبل أن تحوليها إلى إلهة لقيم ومُثل الغرب الأوسط".

غطت إنيد أذنيها.. "لا أريد أن أعرف!"

قال مخمورًا: "على راحتك، ادفنى رأسك فى الرمال! لا أريد أن أسمع أى شىء ولا أى كلام فارغ عن دينيس الملاك البرىء".

كان جارى يعرف أنه خالف مبدأ من مبادئ الأخوة. لكنه سعيد لأنه حطمه. سرّه أن دينيس ستنال اللوم مرةٍ أخرى من إنيد. أحس بالحصار، بالحبس، من نسوة لا يعجبهن ما يفعله.

كان هناك بالطبع أسلوب سهل للانعتاق: أن يقول "نعم" بدلاً من "لا" لعشرات السكرتيرات والسيدات فى الشوارع والبائعات اللاتى يبدين إعجابهن بطوله الفارع وشعره الرمادى البراق وسترته الأنيقة وبنطلونه الفرنسى، وأن ينظر إليهن نظرة وكأنه يقول: "المفتاح تحت عقب الباب". لكن لا يوجد فرج على وجه الأرض يود لحسه كفرجها، ولا شعر يود إمساكه بين يديه كشلالها الذهبى الحريرى، ولا نظرة يود تبادلها مع إنسانة وقت النشوة، إلا هى، كارولين. النتيجة الوحيدة المضمونة للدخول فى علاقة هى أن يضيف امرأة أخرى لا يعجبها حاله إلى حياته.

فى بهو بُرج بنك سين-تراست، فى شارع "ماركت"، انضم إلى حشد من البشر إلى جوار المصاعد. موظفون ومحاسبون ومتخصصون فى السوفت وير، مراجعون ومهندسون كثيرو النقر على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، عائدون من ساعة الغداء وقد تأخروا فى العودة.

قالت سيدة تقف قريبًا من جارى: "برج الأسد فى صعود. التسوق الآن مناسب جدًا. برج الأسد مناسب فى أوقات الشراء فى الأوكازيون".

سألتها المرأة التى تكلمها: "وأين مُخلصنا من هذا؟"

قالت السيدة الأولى بهدوء: "هذا وقت مناسب أيضًا لأن نتذكر مُخلصنا. زمن الأسد مناسب لهذا أيضًا".

قال شخص ثالث إلى جوارهما: "المكملات الغذائية الممزوجة بكميات كبيرة من فيتامين "إى" المهدرج جزئيًا".

"قام ببرمجة ساعة الراديو، برمجها لتوقظه فى الدقيقة 11من كل ساعة، طوال الليل".. شخص رابع.

أخيرًا جاء المصعد. مع تقدم هذا الحشد البشرى منه، فكر جارى فى انتظار مصعد أقل ازدحامًا من هذا، رحلة إلى أعلى أقل تلوثاً بالناس العادية والروائح الجسدية. لكن ها هى تقترب، شابة تعمل بالتخطيط العقارى أنعمت عليه فى الشهور الأخيرة بابتسامات من نوع "كلمنى" و"المسنى". لتفادى أى اتصال معها، تقدم إلى أبواب المصعد قبل أن تغلق. لكن الأبواب ضغطت على قدمه المقتحمة ثم انفتحت. دخلت ورائه الشابة التى تعمل بالتخطيط العقارى ووقفت إلى جواره.

"النبى أرميا يا فتاة تكلم عن الأسد. هذا مكتوب فى هذا المنشور".

"الساعة ٣,١١ فجراً وأخونا ينتظر مثلاً أن يحرز فريق جريزليز الهدف ٤٦ ليتفوق على أهداف الفريق الآخر الـ ١٤٥ فى الثوانى الاثنتى عشرة الأخيرة".

لا يوجد أى صدى صوت فى المصعد الممتلئ. أى صوت تحاصره الملابس واللحم البشرى وتسريحات الشعر. الهواء المُعاد تنفسه، الدفء، دفء المهد.

"هذا المنشور من عمل الشيطان".

"اقرئيه فى وقت استراحة القهوة يا حبيبتى، ما الضرر؟"

"الفريقان المحتلان لقاع الدورى يريدان تحسين فرصهما بعد أن خسرا تلك المباراة التى لا معنى لها".

"الـ ليتيتيوم عنصر نادر على الأرض، نادر جدًا وهو طبيعى، من الأرض، وهو نقى لأنه عنصر!"

"وكأنه عندما يدق المنبه فى الساعة ٤,١١ سيصحو ليرى كل نتائج المباريات المتأخرة وسيصحو من النوم مرة واحدة فى الليل. لكن هناك دورى كأس ديفيس فى سيدنى وهو يُحدث كل ساعة. لا يمكنه أن يفوته".

كانت مخططة العقارات قصيرة مليحة ذات شعر مُحنّ. ابتسمت لجارى وكأنها تدعوه للكلام. على وجهها نظرة غرب ـ أوسطية، سعيدة لأنها واقفة إلى جواره.

نظر جارى إلى اللاشىء وحاول ألا يتنفس. كان عنده انزعاج مزمن من حرف الـ "تـ" المائل وسط شعار "سين ـ تراست". كان يريد الإمساك بهذا الحرف بقوة وإنزاله، وكأنه حلمة.

"يا حبيبتى ليس هذا الكلام بديلاً للإيمان، إنه مُكمل له. النبى أشعيا ذكر الأسد أيضًا. قال أسد يهودا".

"وهناك مباريات فى ماليزيا تُلعب فجرًا بتوقيتنا، لكن قد تتغير تلك النتائج بين الساعة ٢,١١ و٣,١١ لا يمكنه أن يفوتها".

"إيمانى لا يحتاج بديلاً".

"شيرى يا حبيبتى، هل الصمغ يحجب عن أذنك السمع؟ اسمعينى. هذا ليس بديلاً للإيمان. إنه مُكمل".

"تضمن لك جلدًا ناعمًا حريريًا بالإضافة إلى خفض ١٨ فى المائة فى الإحساس بالذعر فى أوقات الذعر!"

"ترى ما إحساس سامنثا بالمنبه الذى يرن كل ساعة إلى جوار وسادتها ثمانى مرات فى الليلة الواحدة".

"كل ما أقوله أن الوقت الآن مناسب للتسوق، هذا كل شىء".

خطر لجارى أن من أسباب وفاته لكارولين - بينما المخططة العقارية الشابة تميل عليه مع خروج كتلة بشرية من المصعد، ومع ضغط شعرها المُحنّى بضلوعه بشكل أكثر حميمية من المطلوب - أن من أسباب الوفاء بعد عشرين عامًا من الزواج هو كراهيته المتزايدة بثبات للاتصال البدنى مع البشر الآخرين. بالطبع هو مُحب للإخلاص، ويشعر بشىء من الإثارة لالتزامه بالمبدأ، لكن هناك شيئًا بين عقله وخصيتيه، شعرة، ربما بدأت تنهار، لأنه عندما تخيل الشابة حمراء الشعر عارية تحت طوعه كانت الفكرة الأساسية التى خطرت له هى إلى أى مدى سيكون موقع خيانته غير ممتع أو طاهر، دولاب للمطهرات المضادة للبكتيريا، حجرة نائية فى الماريوت عامر بالحيوانات المنوية الجافة على الجدران والملاءات، المقعد الخلفى لسيارتها البلايموث بلا شك، جدران شقتها الضيقة فى حى مونتجومريفيل أو فى كونشوهوكين، وهى جميعًا أماكن دافئة بشكل زائد غير جيدة التهوية وتوحى بالعدوى فى الأعضاء التناسلية وغيرها من الأمراض غير الباعثة على السرور، كم سيكون التنفس صعبًا، وكم سيكون لحمها كالنار، وجهوده الصارمة المقدر لها الفشل ألا ينهار.

خرج من المصعد فى الطابق السادس عشر، ثم استنشق دفقات كبيرة من الهواء المُكيف بالتكييف المركزى.

قالت ماجى سكرتيرته: "زوجتك تتصل. تريدك أن تتصل بها فورًا".

أخرج جارى مجموعة من الرسائل من صندوقه الموضوع على مكتب ماجى وقال: "هل قالت ما الموضوع؟"

"لا، لكن يبدو عليها الضيق. حتى بعدما قلت لها أنك لست هنا، راحت تتصل".

حبس جارى نفسه فى مكتبه وراح يتفحص رسائله. اتصلت كارولين الساعة ١,٣٥ و١,٤٠ و١,٥٠ و١,٥٥ و٢,١٠ والساعة الآن ٢,٢٥ لوح بقبضته فى ظفر. أخيرًا أخيرًا دليل على انهيارها.

اتصل بالبيت وقال: "ما الموضوع؟"

كان صوت كارولين مرتعشًا. قالت: "جارى، تليفونك المحمول به مشكلة. أحاول الاتصال به وأنت لا ترد. ما الموضوع؟"

"أغلقته".

"منذ متى وهو مغلق؟ أحاول الاتصال بك منذ ساعة، والآن لابد أن أذهب لأوصل الأولاد لكن لا أريد الخروج من البيت! ولا أعرف ماذا أفعل".

"كارو، أخبرينى ما الموضوع".

"هناك شخص على الجانب الآخر من الشارع".

"من هو؟"

"لا أعرف. شخص ما فى سيارة، لا أعرف. يجلس هكذا منذ ساعة".

طرف قضيب جارى يذوب كشعلة فى طرف شمعة. قال: "طيب، هل خرجت لتعرفى من هو؟"

قالت كارولين: "أخاف أن أفعل هذا. والشرطة تقول إنه شارع فى المدينة فليقف فيه أى أحد".

"إنهم محقون، هو شارع فى المدينة".

قالت وهى تبكى: "جارى، هناك من سرق لافتة "نيفريست" مرة أخرى! عدت إلى البيت ساعة الظهر ووجدتها اختفت. ثم نظرت من النافذة فوجدت السيارة متوقفة، وهناك شخص داخلها، فى المقعد الأمامى الآن".

"ما نوع السيارة؟"

"ستيشن كبيرة.. إنها قديمة، لم أر مثلها من قبل".

"هل كانت موجودة عندما عدت إلى البيت؟"

"لا أعرف! لكن لابد أن أذهب الآن لأوصل جوناه ولا أريد الخروج من البيت، مع اختفاء ذلك الملصق وفى وجود هذه السيارة بالخارج".

"نظام الإنذار يعمل، أليس كذلك؟"

"لكن إن عدت إلى البيت بعد قليل فكانوا ما زالوا فى البيت وفاجأتهم، فربما..."

"كارولين يا حبيبتى، اهدأى سوف تسمعين جرس الإنذار".

"زجاج مكسور، صوت الإنذار، يشعرون بالحصار، هؤلاء الناس تكون معهم أسلحة".

"اسمعينى اسمعينى، كارولين؟ سأخبرك بما تفعلين يا كارولين، اتفقنا؟" الخوف فى صوتها والرغبة التى ولدها فيه الخوف

اضطرته لأن يقرص ما بين ساقيه، ليعود إلى الواقع.. قال: "اتصلى بى على تليفونك المحمول، ابقينى معك على الخط، اخرجى واركبى السيارة الستومبر واخرجى من حديقة البيت إلى الشارع. يمكنك أن تكلمى من شئت على المحمول من وراء الزجاج الفيميه، سأبقى معك طول الوقت. اتفقنا؟"

"خلاص، خلاص، سأتصل بك مرة أخرى".

فيما كان جارى ينتظر، فكر فى الحرارة والملوحة والنعومة على وجه كارولين وهى تبكى، صوت امتلاء أنفها بالمخاط، وفمها المفتوح فى استعداد، وفى انتظار فمه. ألا يشعر بأى شىء، ولا حتى نبضة فى ذلك الفأر الميت الذى يتبول منه، على مدار ثلاثة أسابيع، أن يعتقد أنها لن تحتاجه ثانية أبدًا وأنه لن يحتاجها مرة أخرى، ثم فجأة، فى لحظة، يدير الشبق رأسه، هذا هو الزواج كما يعرفه. رن هاتفه.

قالت كارولين وصوتها القادم فى التليفون المحمول وكأنها فى كابينة قيادة الطائرة: "أنا فى السيارة، وأرجع للخلف".

"يمكنك أخذ رقم السيارة أيضًا. اكتبيه قبل أن تصبحى إلى جواره. دعيه يراك وأنت تكتبيه".

"حاضر، حاضر".

سمع من بعيد صوت تنفس سيارتها الضخمة، وصوت النقلة الأوتوماتيك إلى الأمام".

قالت منتحبة: "اللعنة يا جارى، لقد اختفى! لا أراه! لابد أنه رآنى أخرج فابتعد!"

"جيد، هذا جيد، هذا ما كنت تريدينه".

"لا، لأنه سوف يدور دورة حول البلوك ثم يعود إلى هنا وأنا فى الخارج!"

هدأها جارى وقال لها كيف تقترب من البيت بأمان وهى عائدة مع الأولاد. وعدها بأن يُبقى تليفونه المحمول مفتوحًا وأن يعود إلى البيت مبكرًا. أمتنع عن مقارنة صحتها النفسية بصحته النفسية.

مكتئب؟ إنه ليس مكتئبًا. الإشارات الحيوية للاقتصاد الأمريكى المزدهر تمر سريعًا عبر شاشة تلفزيونه. أورفيك ميدلاند ارتفعت فى البورصة نقطة وثلاثة أثمان النقطة اليوم. الدولار الأمريكى يستهزئ باليورو، وسحق الين. فرجينيا لين عرضت بيع مجموعة كبيرة من أسهم أكسون بمبلغ ١٠٤ دولارات. يرى جارى عبر النهر أمامه مساحات كامدين الخضراء، فى نيوجيرسى. الشمس مالت إلى الجنوب، شىء مريح، لم يتحمل جارى عندما جاء والداه إلى الشرق وكان طقس الساحل الشرقى سيئًا. نفس الشمس تلمع فوق سفينة رحلتهما الآن، فى مكان ما شمالى ولاية ماين. فى ركن شاشته الرأس المتكلمة لكيرلى إبيرل. كبّر جارى صورته ورفع الصوت فيما كان إبيرل يختتم كلامه قائلاً: "هى آلة كمال أجسام للمخ يا سيندى". مذيعو "آل بيزنس آل ذا تايم" الذين يعتبرون المخاطر المالية مجرد رفيق درب لهم محتمل الظهور فى أى وقت، راحوا يهزون رؤوسهم ردًا على كلامه، قالت المذيعة: "آلة كمال أجسام للمخ، أوكيه، فى الفقرة التالية، لعبة أبهرت بلجيكا (!) ويقول صناعها إن هذا المنتج يمكن أن يصبح أكبر من منتج "بينى بيبى"". دخل جاى باسكو ليتكلم عن سوق السندات المالية. فتيات

جاى الصغيرات أصبح عندهن مدرسة بيانو جديدة ونفس الأم. كان جارى يفهم كلمة واحدة من بين كل ثلاث كلمات ينطقها جاى. أعصابه مهتزة كما فى عصر يوم بعيد، قبل موعده الخامس مع كارولين، عندما كانا مستعدان لإنهاء حالة العفاف القائمة بينهما فأحس بتلك الساعة قبل الموعد بلوك من الجرانيت لابد أن يحطمه السجين ليهرب.

غادر المكتب فى الرابعة والنصف. مضى فى سيارته السويدية إلى شارع كيلى درايف ولينكلوين درايف، بعيدًا عن وادى شويلكيل وضجيجه وطريقه السريع، وشققه السكنية قليلة الأدوار، منطلقًا فى أنفاق ظليلة وتحت بوابات أشجار الخريف القوطية المظهر، على شارع ويساهيتشكون كريك، عائدًا إلى شيستنات هيل المشرق الساحر.

بغض النظر عن خيالات كارولين المحمومة، بدا له البيت سليمًا. أوقف جارى السيارة على الممشى وراء أحواض زهور الهوستاس واليونيموس، التى وعلى حد قولها، سُرق مُلصق آخر مكتوب عليه "هذا البيت مؤمن بنظام نيفريست". منذ بداية العام، وضع جارى وفقد خمسة ملصقات لـ "هذا البيت مؤمن بنظام نيفريست". أزعجه أن هذا النظام أغرق السوق فخفف من قيمة وهيبة "هذا البيت مؤمن بنظام نيفريست" كرادع للصوص. هنا فى قلب شيستنات هيل، يدعم ملصقات "نيفريست" و"ويسترن سيفيل ديفينس" و"بروفيلاتيكس" فى كل واجهة بيت وكل فناء أمامى، أضواء قوية وماسحات ضوئية وبطاريات طوارئ وخطوط ساخنة مدفونة فى الأرض مختبئة، وأبواب تؤمن بالريموت كنترول، لكن فى أنحاء فيلادلفيا إلى الشمال الغربى، على طريق ماونت إيرى وإلى

جيمان تاون ونايستاون، حيث المرضى الاجتماعيون يعيشون ويتعاملون، هناك طبقة من مُلاك البيوت ذوى القلوب الدامية، لا يريدون شراء نُظم لتأمين البيوت، لكن لا مشكلة عندهم فى سرقة ملصقات "هذا البيت مؤمن بنظام نيفريست" بشكل أسبوعى تقريبًا، ولصقها فى حدائق بيوتهم الأمامية.

فى الجراج غلبت عليه رغبة شبيهة برغبات ألفريد بالجلوس فى مقعد السيارة والاسترخاء وإغماض عينيه. أوقف محرك السيارة، وبدا وكأنه يطفئ شيئًا ما فى عقله أيضًا. أين ذهب شبقه وطاقته؟ هذا بدوره، هو الزواج كما يعرفه.

حمل نفسه على الخروج من السيارة. رباط قوى من التعب يتهدل على عينيه وأعصابه إلى جذع المخ. حتى إذا كانت كارولين على استعداد لأن تسامحه، حتى إن تمكن هو وهى من الهروب من الأولاد والاستمتاع (وواقعيًا، لا سبيل لذلك إطلاقًا)، فلعله أصبح متعباً لدرجة لا تمكنه من الأداء الآن على كل حال. كانت تمتد أمامه خمس ساعات يملأها الأولاد، قبل أن يصبح وحده معها فى السرير. لكى يستعيد الطاقة التى كانت لديه حتى خمس دقائق مضت، فهو بحاجة لثمانى ساعات من النوم.. ربما عشر ساعات.

كان الباب الخلفى موصدًا ومحاطًا بالسلاسل. طرق على الباب أقوى وأمرح طرقة ممكنة. من وراء النافذة رأى جوناه يقترب مرتدياً الشبشب ومايوه السباحة، فأدخل رقم السر فى القفل الإلكترونى وفتح مصراع الباب وخلع عنه السلاسل.

قال جوناه وهو يبتعد: "أهلاً يا بابا، سآخذ ساونا فى الحمام".

كانت موضوع رغبة جارى، الشقراء الجميلة التى نعّمتها الدموع

والتى طمأنها على الهاتف، كانت جالسة إلى جوار كاليب تشاهد حلقات برنامج "المطبخ" القديمة فى التليفزيون. أشكال بشرية صادقة المشاعر فى بيجامات تصلح للرجال والنساء على حد سواء.

قال جارى: "أهلاً! يبدو أن كل شىء على ما يرام هنا".

هزت كارولين وكاليب رأسيهما، وأعينهما على كوكب آخر.

قال جارى: "سأخرج إذن لأضع لافتة جديدةً".

قالت كارولين: "الأفضل أن تثبت الملصق بالمسمار إلى شجرة. أخلع الملصق عن عصاه وأطرقه بالمسمار فى شجرة".

جارى الذى أحس بتوقعاته تُحبط، ملأ صدره بالهواء وسعل. "الفكرة يا كارولين، أن تكون هناك درجة من الرقى والتحضر فى الرسالة التى نعرضها على المارة. عندما نسلسل اللافتة بالشجرة حتى لا تُسرق فهذا..."

"قلت ثبتها بالمسمار".

"وكأننا نعلن للمرضى الاجتماعيين أننا ضحايا! تعالوا اسرقونا! تعالوا اسرقونا!"

"لم أقل سلسلة، قلت مسماراً".

مد كاليب يده إلى الريموت كنترول ورفع صوت التلفزيون.

ذهب جارى إلى القبو وأخرج من كرتونة أخر ست لافتات من نيفريست. على تكلفة نظام تأمين البيوت نيفريست العالية، كانت اللافتات رديئة. كان دهان اللوح المثبت به الملصق غير متساوى ومن معدن ردىء ورفيع يصعب تثبيته فى الأرض بالمطرقة (لابد أن تحفر حفرة فى الأرض ثم تهيل عليها التراب).

لم ترفع كارولين عينيها عندما عاد إلى المطبخ. ربما كان ليتساءل إن كان يهلوس فتخيل مكالماتها المذعورة، لولا إحساسه بما تبقى من رطوبة وسخونة فى ملابسه الداخلية، ولولا أنها أثناء وجوده فى القبو ثلاثين ثانية، ذهبت لإغلاق مصراع الباب الخلفى، ووضعت السلسلة وأعادت تشغيل جهاز الإنذار.

هو طبعاً مريض نفسيًا، بينما هى! هى! لا يمكن!

قال وهو يكتب تاريخ عيد زواجهما فى القفل الإلكترونى: "يا ربى".

ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه وذهب إلى الفناء الأمامى ووضع لافتة نيفريست الجديدة فى الحفرة القديمة العقيمة. عندما عاد بعد دقيقة، كان الباب قد أغلق ثانية. أخرج مفاتيحه وفتح المصراع وفتح الباب بالدرجة التى تسمح بها السلاسل، فتسبب فى انطلاق جهاز الإنذار فى الداخل. دفع الباب. فكر فى وضع كتفه وتمزيق السلسلة. نهضت كارولين مذعورة ممسكة بظهرها وتعثرت وهى تضغط الكود قبل انتهاء الثلاثين ثانية المسموح بها. قالت: "جارى، كان يكفى أن تطرق على الباب".

قال: "كنت فى الفناء، على مسافة ٥٠ قدمًا. لماذا شغلت جهاز الإنذار؟"

قالت فى صوت غير مسموع وهى تعود إلى مساحتها الكوكبية أمام التليفزيون: "أنت لا تفهم كيف كان الوضع هنا اليوم. أشعر بوحدة شديدة هنا يا جارى. وحدى تمامًا".

"لكن ها أنا ذا، لقد عدت، أليس كذلك؟"

"نعم، عدت".

قال كاليب: "بابا، ماذا سنأكل على العشاء؟ ممكن ميكس جريل؟"

قال جارى: "نعم. سنحضر العشاء وسوف أغسل الأطباق وربما أشذب الأشجار فى الحديقة، لأننى أشعر بتحسن! اتفقنا يا كارولين؟ حلو هذا الكلام؟"

غمغمت وهى تحدق فى الشاشة: "نعم، من فضلك، طبعًا، حضر العشاء".

صفق جارى يديه وسعل: "جيد، سوف أحضر العشاء". أحس وكأنه فى صدره وعقله، توجد تروس قديمة تتساقط من أماكنها المثبتة فيها، تأكل أجزاء أخرى من آلته الداخلية، وكأنه يطالب جسده بطاقة متجددة لا مثيل لها، وجسده غير مجهز لأن يقدم أكثر.

كان بحاجة لأن ينام الليلة جيدًا، لمدة ست ساعات على الأقل. ليحدث هذا، فهو يعتزم أن يشرب كأسى مارتينى فودكا وأن يصعد لينام فى العاشرة. صبّ من زجاجة الفودكا فى كوب الخلط وفيه ثلج، وأخذ يهز بقوة، لأنه، بصفته شخصًا مهمًا فى بنك سين تراست، ليس لديه ما يخجل منه إذا حاول الاسترخاء بعد يوم عمل شاق. جهز الفحم والنار وشرب المارتينى. عاد إلى المطبخ وتمكن من تجهيز الطعام، لكنه أحس بتعب يمنعه من طهى اللحم. ولأن كارولين وكاليب لم ينتبها له عندما جهّز المارتينى الأول، أعد كأسًا ثانية، من أجل دفقة من الطاقة والانتعاش، واعتبره رسميًا الكأس الأولى. وهو يكافح آثار الفودكا، خرج وألقى اللحم على الشواية. مرة أخرى التعب، مرة أخرى النقص فى كل العوامل العصبية الجيدة فى مخه.

على مرأى من عائلته كلها، جهز مارتينى ثالث (الثانى رسميًا) وشربه. من وراء النافذة رأى الشواية مشتعلة.

ملأ دورقًا بالماء وسكب بعضه فقط على الأرض وهو يخرج ليصبه على النار. تصاعدت سحابة من البخار والدخان والدهن. قلب كل قطع اللحم وعرض جانبها المحترق المتفحم للهواء. هناك رائحة احتراق مبتل كالتى يخلفها رجال المطافئ خلفهم. لم تعد هنالك حياة كافية فى قطع الفحم لما هو أكثر من تلوين الجانب النيئ من قطع اللحم، ورغم ذلك تركها على الشواية عشر دقائق إضافية.

فى تلك الأثناء كان ابنه المراعى للمشاعر لأقصى حد، جوناه، قد جهز المائدة ووضع عليها الخبز والزبد. قدّم جارى قطع اللحم الأقل احتراقًا لزوجته والأطفال. أمسك بشوكته وسكينه، وملأ فمه بقطع لحم متفحمة ولحم دجاج نيئ بدمه، وكان متعبًا لدرجة تمنعه من المضغ والابتلاع، ومتعب لدرجة تحول دون نهوضه وبصق ما فى فمه. جلس ولحم الدجاج غير الممضوغ فى فمه، حتى أدرك أن اللعاب يسيل على ذقنه، وهى قطعًا طريقة غير مناسبة لإظهار أن صحته النفسية جيدة. ابتلع اللقمة كاملة. أحس بها ككرة تنس تمر بحلقه. كانت أسرته تنظر إليه.

قال آرون: "بابا، هل أنت بخير؟"

مسح جارى ذقنه وقال: "بخير يا آرون، شكرًا. الدجاج نيئ قليلاً، نيئ قليلاً". سعل، أحس بحلقه ملتهبًا.

قالت كارولين وكأنها تكلم طفلاً: "هل تريد أن تصعد لتنام قليلاً؟"

قال جارى: "سأخرج لأشذب الأشجار".

قالت كارولين: "تبدو متعباً للغاية. ربما الأفضل أن ترقد قليلاً".

"لست متعبًا يا كارولين. دخل دخان فى عينى لا أكثر".

"جارى".

"أعرف أنك تقولين للجميع أننى مكتئب، لكننى ببساطة لست كذلك".

"جارى".

"صح يا آرون؟ ألست محقًا؟ قالت لك أننى مريض اكتئاب، صح؟"

آرون الذى فاجأه والده، نظر إلى كارولين التى هزت له رأسها ببطء وحزم.

قال جارى: "ألم تفعل؟ ألم تقل ذلك؟"

وضع آرون عينيه فى طبقه وأحمرّ وجهه. دفقة الحب التى أحسها جارى لابنه الأكبر، ابنه الصادق العذب، كانت متصلة بقوة وبشكل مباشر بالغضب الذى يحركه الآن، والذى حمله قبل ما يفهم ما يحدث، على أن يبتعد عن المائدة. راح يسب أمام أولاده" يلعنك يا كارولين، يلعن همسك! يلعن يحرق، أنا ذاهب لتشذيب أم الشجرة!"

أطرق جوناه وكاليب فى الأرض، وكأنهما يتفاديان الرصاص فوق الرؤوس. بدا آرون وكأنه يقرأ قصة حياته، مستقبله خاصة، فى طبق العشاء الملطخ بالدهن.

تكلمت كارولين فى صوت هادئ منخفض مرتعش، هو صوت من تعرض لأذى معنوى ضخم. قالت: "طيب يا جارى، كما تشاء. أرجوك دعنا نستمتع بالعشاء. اذهب، تفضل".

خرج جارى. هرع إلى الخارج وعبر الفناء الخلفى. كل النباتات القريبة من البيت لونها أبيض على أثر ضوء البيت المنسكب إلى الخارج، لكن ما زال هناك القليل من ضوء الشفق، عند الشجرات الغربية. فى الجراج أخرج سلم من ثمانى درجات وراح يتعثر فيه، فكاد يكسر زجاج سيارة زوجته الأمامى قبل أن يتمكن من الإمساك به جيداً. راح يدور بالسلم حتى وصل إلى مدخل البيت الأمامى، فأشعل الأضواء وعاد للبيت ليأخذ المقص الكهربائى ووصلة سلك الكهرباء المائة قدم. ولإبعاد السلك المتسخ عن قميصه الكتان الغالى، الذى أدرك بعد فوات الأوان أنه ما زال يرتديه، ترك السلك يتدلى على الأرض خلفه فعلق فى الزهور وحطمها. خلع القميص فلم يبق غير التى شيرت، لكنه لم يتوقف لتغيير بنطلونه خشية أن يفقد الزخم ويرقد على الممشى الذى تشع منه حرارة النهار ويستمع فى هدوء إلى صراصير الليل وينام. أشعره الإرهاق البدنى بصفاء ذهنى إلى حد ما. صعد السلم ومال قدر الإمكان إلى الأمام على السياج الشجرى المحيط بحديقة البيت، فوجد أنه على مسافة ١٢ بوصة من الشجرة، من ثم فعليه إطفاء المقص الكهربائى والنزول وتقريب السلم أكثر، لكن بما أن الموضوع لا يزيد على١٢ بوصة، وبما أنه لم يكن لديه ما يكفى من احتياطى الطاقة والصبر، حاول أن يحرك السلم دون أن يرفعه، نحو البيت، أن يؤرجح قائمتيه وهو فوقه ويقفز معه، مع إمساكه بيده اليسرى بالمقص الكهربائى وهو ما زال يعمل.

ثبت أن الإصابة الخفيفة، تلك اللسعة أو الضربة غير المؤلمة التى أصابت باطن إبهامه الأيمن، ثبت أنها لدى فحصها، إصابة عميقة، خلفت حفرة تنزف بغزارة، والتى تستحق فى أفضل الظروف الممكنة، أن يسعفها طبيب طوارئ. لكن جارى كان حى الضمير للغاية. كان يعرف أنه مخمور لدرجة لا تسمح له بقيادة السيارة إلى مستشفى شيستنات هيل، ولا يمكنه أن يطلب من كارولين أن تذهب به إلى هناك مما سيثير أسئلة مزعجة عن قراره بتسلق السلم والعمل بأداة كهربائية وهو مخمور، وهو ما يعنى ضمنيًا الاعتراف بعدد كؤوس الفودكا التى تناولها قبل العشاء، وبشكل عام يصب هذا فيما هو ضد صورة الصحة النفسية الجيدة التى أراد رسمها عندما خرج إلى هنا لتشذيب سياج الأشجار. ولهذا وبينما جذبت أضواء التراس سحابة من الحشرات العضاضة فدخلت إلى البيت من الباب الأمامى أثناء مرور جارى منه مسرعًا إلى الداخل وهناك ملء قدح من الدم البارد متجمع فى كفيه فنسى أن يغلق الباب بقدمه خلفه، دخل حمام الطابق السفلى وأفرغ الدماء فى الحوض، فرأى عصير الرمان، أو مشروب الشيكولاتة، أو زيت الموتور القذر، فى دوامات الماء أمامه. أجرى المياه الباردة على الجرح. من خارج باب الحمام غير الموصد، سأله جوناه إن كان قد أذى نفسه. وضع جارى فى يده اليسرى كتلة من ورق التواليت وضغط به الجرح ووضع شريط جراحى لاصق على المناديل فتسبب الدم والمياه بسرعة فى إلغاء أثر المادة اللاصقة فى الشريط الجراحى. كانت هناك دماء على المرحاض، ودماء على الأرض، ودماء على الباب.

قال جوناه: "بابا، الحشرات تدخل".

"نعم يا جوناه، لم لا تغلق الباب ثم تصعد وتستحم؟ سأصعد بعد قليل وسنلعب دومينو".

"ممكن نلعب شطرنج؟"

"نعم".

"لكن يجب أن تميت لى وزيرك وفيل وحصان ورُخ".

"حاضر، اذهب لتستحم!"

"هل ستصعد قريبًا؟"

"نعم!"

مزق جارى قطعة شريط لاصق جديدة وضحك على نفسه فى المرآة ليؤكد لنفسه أنه ما زال قادرًا على حل هذه المشكلة. تدفق الدم من وراء ورق التواليت، وراح يتقاطر حول معصمه، وحول الشريط الجراحى المفكوك. لف اليد المجروحة فى منشفة من مناشف الضيوف، وبمنشفة ضيوف أخرى بللها جيدًا، مسح أرض الحمام من الدم. فتح الباب قليلاً واستمع إلى صوت كارولين فى الطابق الأعلى، واستمع لصوت غسالة الأطباق فى المطبخ، ومياه استحمام جوناه. هناك قطرات من الدم على الأرض، فى الصالة، أولها عند مدخل الباب الأمامى. جلس القرفصاء وراح يتحرك متمايلاً على الأرض بينما يده المجروحة على بطنه، ومسح جارى الدماء بالمنشفة. رأى دماء إضافية تلوث الأرض الخشبية أمام التراس. تحرك جارى بهدوء حتى لا يحدث صوتًا. مضى إلى المطبخ ليأخذ دلوًا وممسحة، وهناك فى المطبخ، رأى دولاب الخمور.

فتحها. أمسك زجاجة الفودكا تحت إبطه الأيمن وتمكن من فتح غطائها بيده اليسرى. كان يرفع الزجاجة، ويميل رأسه إلى الخلف ليشرب، عندما راحت عيناه من فوق الدولاب إلى الكاميرا.

كانت الكاميرا بحجم أوراق الكوتشينة. كانت مُعلقة فوق الباب الخلفى. كان غطاؤها من الألمونيوم المطلى، لونها بنفسجى براق.

أعاد جارى الزجاجة إلى الدولاب وتحرك إلى الحوض، وملأ الدلو بالمياه. تحركت الكاميرا قليلاً لتتابعه.

كان يريد تمزيق الكاميرا من موضعها فى السقف، لكنه بما أنه لا يمكنه هذا، فكر فى الصعود وأن يشرح لكاليب سوء الأخلاق المنطوى عليه التجسس، وبما أن هذا بدوره غير متاح، فكر إلى متى ستبقى الكاميرا فى مكانها هذا، وبما أن لديه شيئًا يخفيه الآن، فإن أى إجراء يتخذه ضد الكاميرا، وأى اعتراض على وجودها فى المطبخ، سيراه كاليب أنانية منه.

وضع المنشفة الدامية المغبرة فى الدلو واقترب من الباب الخلفى. ارتفعت الكاميرا لتتابعه. وقف تحتها مباشرة ونظر إليها نظرة مباشرة. هز رأسه وقال بشفتيه دون صوت "لا يا كاليب". بطبيعة الحال لم تتخذ الكاميرا أى رد فعل. أدرك جارى أن الحجرة لابد أصبحت مجهزة بأجهزة تصنت أيضًا. يمكنه الكلام مع كاليب مباشرة، لكنه خائف أنه إذا نظر إلى عين كاليب الإلكترونية وسمع صوته وسمح لكاليب أن يسمعه فى غرفته، فربما تكون النتيجة زيادة كبيرة فى معدلات "حقيقية" ما يحدث ليده اليسرى. ثم أخذ الدلو من الحوض ومسح التراس الأمامى.

ولأنه كان مخموراً، كانت مشكلة الكاميرا وشهادة كاليب على إصابته وتورطه المثير للريبة مع دولاب الخمور، بعيدة عن رأس

جارى كمشكلة حاضرة، إلا أنها تحولت لتصبح شيئًا ذات حضور مادى داخله، كتلة من الورم تهبط على معدته وتستقر فى أمعائه. لم تكن المشكلة ستختفى طبعًا. لكن للآن، فمن غير المهم التفكير فيها.

جاءه صوت جوناه من نافذة الطابق الأعلى: "بابا؟ أنا مستعد للعب الشطرنج الآن".

لكن مع صعود جارى، إذ ترك المقص والسلم فى حوض الزهور، كان دمه قد تسرب عبر ثلاث طبقات من المناشف ولوّن سطح اللفافات المحيطة بيده بلون وردى. كان يخشى لقاء أحد فى الصالة، كاليب أو كارولين طبعًا، لكن الأهم ألا يصادفه آرون، لأن آرون سيسأله إن كان بخير، وآرون لن يتمكن من الكذب عليه، وقد كانت دلائل محبة آرون الصغيرة إلى حد ما أكثر ما يخيف فى هذه الأمسية.

سأله جوناه وهو ينزع نصف قطعه من على لوحة الشطرنج: "لماذا هذه المنشفة حول يدك؟"

"جرحت نفسى يا جوناه. أضع بعض الثلج على الجرح".

"رائحتك كحول"... صوت جوناه مرح.

قال جارى: "الكحول مادة مطهرة قوية".

حرّك جوناه الرُخ إلى المربع ك ٤" أتكلم عن الكحول الذى تشربه".

بحلول العاشرة كان جارى فى فراشه، بما يعنى أنه ما زال ملتزمًا بخطته الأصلية، ما زال نظريًا فى طريقه إلى، ماذا؟ لا يعرف تحديدًا. لكن إذا نام قليلاً ربما يتمكن من معرفة ما ينتظره

وما عليه عمله. ولكى لا ينزف على الملاءات، ضع يده المصابة بالمنشفة وكل شىء داخل حقيبة خبز من المطبخ. أطفأ المصباح المجاور لجانبه من السرير ونام وجهه للحائط، ويده المصابة مائلة على صدره، والملاءة والبطانية الصيفية فوق كتفه. نام نومًا ثقيلاً لوهلة ثم أفاق من النوم فى الحجرة المظلمة على ألم يده الشديد. كان لحم إبهامه على جانبى الجرح ينبض وكأن داخله دود، والألم يتسرب قويًا. نفس كارولين منتظم، وهى نائمة. نهض جارى ليتبول وليأخذ أربعة أقراص من المسكن. عندما عاد إلى السرير تهاوت خطته المثيرة للشفقة، لأنه لم يتمكن من العودة للنوم. أحس بأن الدم يتسرب إلى الحقيبة. فكر فى النهوض والتسلل إلى الجراح وأخذ السيارة إلى قسم الطوارئ فى المستشفى. حسب الساعات التى سيستغرقها فى هذا الموضوع وما يحتاجه من صحو لدى عودته وخصم إجمالى الساعات من ساعات الليل المتبقية حتى يصحو ويذهب إلى العمل، فأدرك أن الأفضل أن ينام حتى السادسة صباحًا ثم إن احتاج، يذهب إلى المستشفى فى طريقه إلى العمل، لكن كل هذا مرتبط بقدرته على العودة للنوم، وبما أنه لم يتمكن من هذا، فأعاد حساباته لكن الآن أصبحت الدقائق المتبقية من الليل أقل. الحسابات قاسية مع مرور الوقت. نهض مرة أخرى ليتبول. مشكلة نظام مراقبة كاليب ترقد غير مهضومة فى جوفه. كان يشعر برغبة عارمة فى أن يوقظ كارولين وينام معها. يده المجروحة تنبض بالألم. شعر بها ضخمة كالفيل، عنده يد فى حجم ووزن كرسى بمسندين. ثم إن دينيس كانت تنظر إليه بكراهية. وأمه ترجوه أن يذهبوا إليها فى الكريسماس، ثم دخل فترة وجيزة إلى حجرة أبوه مربوط فيها إلى كرسى كهربائى وعلى رأسه خوذة

معدنية مربوطة، ويد جارى هى قطعة الرأس فى مقبض تشغيل الكهرباء، الذى لابد أنه قد بدأ فى العمل، لأن ألفريد اقترب منه قافزًا من الكرسى يبتسم ابتسامة مرعبة، سحابة جبارة من الحماس، يرقص فى دوائر فى الحجرة بسرعة زائدة ثم يسقط بقوة على وجهه، كالسلم بعد أن تم ضم قائمتيه، راقد هناك على أرضية حجرة الإعدام وكل عضلة فى جسده تتقبض وتغلى.

كان النور يتسلل من النافذة عندما نهض جارى للتبول للمرة الرابعة أو الخامسة. رطوبة الصباح ودفئه جعلاه يشعر أن الشهر يوليو وليس أكتوبر. هناك سحابة من الضباب فى شارع سيمينول تُربك أصوات العصافير وهى تطير وتحلق فى طريقها أعلى التل، فوق طريق نافاخو وشارع شاونى، مثل المراهقين أبناء المنطقة المتجهين إلى ساحة انتظار متجر واوا للطعام (يسمونه "نادى وا" حسب قول آرون) ليدخنوا سجائرهم.

رقد مرة أخرى ينتظر النوم.

قال راديو منبه كارولين قبل أن تضربه ليصمت: "، يوم الخامس من أكتوبر، من بين الأخبار الأهم التى نتابعها هذا الصباح، مع اقتراب إعدامه، الذى تبقى عليه أقل من ٢٤ ساعة، يحاول محامو كيلى أن".

على مدار الساعة التالية، فيما راح ينصت لأصوات أبنائه وصوت إفطارهم، تجسدت فى عقل جارى خطة جديدة. رقد على جانبه، ما زال فى مواجهة الحائط، ويده داخل كيس الخبز على صدره. خطته الجديدة الراديكالية المختلفة هى ألا يفعل أى شىء.

"جارى، هل استيقظت؟" صوت كارولين من مسافة غير بعيدة، من عند باب الحجرة على ما يبدو، "جارى؟"

لم يفعل شيئًا، لم يرد.

"جارى؟"

تساءل إن كانت ستشعر بالفضول عن سبب عدم فعله لأى شىء، لكن بالفعل تراجع صوت خطواتها إلى الصالة وراحت تنادى: "جوناه، تعال، ستتأخر على المدرسة".

قال جوناه: "أين بابا؟"

"ما زال نائمًا، هيا نذهب".

سمع جلبة الأقدام الصغيرة، والآن للمرة الأولى حدث التحدى الأول الحقيقى لخطة جارى الراديكالية. من مكان ما أقرب من مدخل الباب جوناه يتكلم: "بابا؟ نحن ذاهبون الآن يا بابا". ثم لم يفعل جارى شيئًا. عليه التظاهر بأنه لا يمكنه السماع أو لا يريد أن يسمع، عليه أن يعلن إضرابه الشامل، اكتئابه المرضى، على المخلوق الوحيد الذى كان يريد إعفاءه من هذا الموضوع. مثلاً إذا اقترب جوناه أكثر، إذا اقترب واحتضنه، يخشى جارى أنه لن يتمكن من التزام الصمت أو أنه لن يتأثر. لكن كارولين راحت تناديه من الطابق السفلى، فهرع جوناه إلى الخارج.

جارى يسمع من بعيد صوت يذكره بموعد عيد زواجه. ثم البيت برائحة التوستر صامت، فشكّل وجهه على هيئة المعاناة بلا قرار والشفقة على الذات التى رآها على وجه كارولين عندما كان ظهرها يؤلمها. أصبح يفهم، كما لم يفهم من قبل، كم هى مريحة هذه الهيئة التعيسة.

فكر فى النهوض، لكنه لا يريد أى شىء. لا يعرف متى تعود كارولين، أو إن كانت ذاهبة إلى العمل التطوعى اليوم، وربما لن تعود حتى الثالثة. لا يهم. سيبقى هنا.

عادت كارولين بعد نصف ساعة. أصوات مغادرتها معكوسة. سمع السيارة الضخمة المقتربة، وصوت نقر الأرقام فى القفل الإلكترونى، وخطواتها على السلم. أحس بزوجته فى مدخل الباب، صامتة، تراقبه.

قالت بصوت خفيض أكثر تعاطفًا: "جارى؟"

لم يفعل شيئًا. رقد. اقتربت منه ومالت على السرير: "ما الأمر؟ هل أنت مريض؟"

لم يجبها.

"ما الذى فى الكيس؟ يا ربى. ماذا فعلت؟"

لم يقل شيئًا.

"جارى، قل شيئًا. هل أنت مكتئب؟"

"آه".

تنهدت. أسابيع التوتر المتراكم تنسحب من هواء الحجرة.

قال جارى: "أنا أستسلم".

"ماذا تقصد؟"

قال: "ليس عليك الذهاب إلى سان جود. ليس على أحد لا يريد الذهاب أن يذهب".

كلفه قول ما قاله الكثير، لكن هناك مكافأة. أحس بدفء كارولين المقترب، إشعاع الدفء، قبل أن تلامسه. الشمس تصعد فى

السماء، أول خصلة من شعرها تلامس عنقه وهى تميل عليه، أنفاسها تقترب، شفتاها تلامس خده. قالت: "شكرًا".

"قد اضطر للذهاب ليلة الكريسماس لكن سأعود فى الصباح التالى".

"شكرًا".

"أنا مكتئب للغاية".

"أشكرك".

"أنا أستسلم"... كذا قال جارى.

المدهش طبعًا أنه ما إن أستسلم - ربما ما إن اعترف بأنه مكتئب، وبالتأكيد عندما أراها يده ووضعت عليها رباط طبى جيد، وطبعًا ليس بعد اللحظة التى أولج فيها القاطرة الطويلة الصلبة الثقيلة إلى المنحنيات الناعمة المبتلة الندية والتى بعد عشرين عامًا من الترحال فيها ما زال يشعر بها أرضًا لم تستكشف (كان وضعه المفضل هو الملعقة، من الخلف، حتى تتمكن كارولين من ضغط ظهرها به ويمكنه بلا أى أضرار أن يلف خصرها بيده الجريحة، هو نكاح الجرحى، المجروحان) - المدهش أنه ما إن استسلم واعترف بأنه مكتئب، حتى غاب عنه الإحساس بالاكتئاب، بل شعر بانتعاش غريب.

واتته الفكرة - فى غير وقتها ربما نظرًا للفعل الزواجى اللطيف المنخرط فيه الآن، لكن الفكرة جاءت، أنه هو، جارى لامبرت، صاحب بعض الأفكار غير الملائمة والذى ملّ من الاعتذار - أنه يمكنه الآن أن يطلب بأمان من كارولين أن تشترى له ٤٥٠٠ سهم فى أكسون، وسوف تشتريها له بكل سرور.

تصعد وتهبط على نقطة الاتصال الصغيرة بينهما، كيانها الجنسى كاملاً خفيف كالريشة على طرفه الرطب الناعم.

استهلك نفسه بكل روعة، استهلك واستهلك واستهلك.

كانا يرقدان عاريين فى الساعة التاسعة والنصف، ساعة لعب الهوكى، من يوم الثلاثاء، عندما رن التليفون إلى جانب السرير من ناحية كارولين. أجاب جارى، وأحس بالصدمة عندما سمع صوته أمه. كان مصدومًا من حقيقة وجودها فى الحياة.

قالت إنيد: "أتصل بك من السفينة".

للحظة أحس فيها بالذنب، قبل أن يدرك أن الاتصال من السفينة مُكلف وأن أنباء أمه التى ستخبره بها من ثم لن تكون سارة، تصور جارى أنها اتصلت به لأنها عرفت أنه خانها.

■■■

فى البحر

□مائتا ساعة، الظلام، سفينة جانر ميردال: حول الرجل العجوز من كل الجهات المياه تسرى تغنى فى غموض داخل المواسير الحديد. مع خروج السفينة إلى البحر المفتوح شرقىّ نوفا سكوتيا، الأفق مسود قليلاً، من طرف السفينة الأمامى إلى الخلفى، وكأن ورغم قدرات السفينة الحديدية العالية، فهى غير مرتاحة ولا يمكنها حل مشكلة الموجات العالية إلا بأن تمر بها سريعًا، وكأن استقرار السفينة يعتمد على المرور سريعًا برهاب ركوب السفن هذا. هناك عالم آخر فى الأسفل، وهذه هى المشكلة. عالم آخر بالأسفل له كتلة وليس له شكل. فى النهار البحر أزرق، سطحه أزرق، فيه زبد أبيض هنا وهناك، تحدى ملاحى واقعى، والمشكلة يمكن تجاوزها. لكن فى الليل، العقل ينزل ويغطس تحت قاع السفينة، الوحدة العنيفة، العدم الذى ترتحل فوقه السفينة الحديدية الثقيلة، ومع كل انعطافة أو حركة مفاجئة من السفينة ترى العين شباك متقاطعة من العدم، ترى كيف يصبح الإنسان حقًا وأبدًا مفقودًا تائهًا على مسافة ستة عقد بحرية من السطح. الأرض الصلبة ليس فيها هذا المحور الثالث، هذا البُعد المكانى الثالث، البُعد السفلى. الأرض الصلبة مثل أن تكون صاحيًا. حتى فى

الصحراء المترامية يمكنك أن تخر على ركبتيك وتضرب الأرض بيديك ولن تختفى الأرض من تحتك. بالطبع للمحيط(*) أيضًا طبقة من اليقظة. لكن كل نقطة على هذه الطبقة هى نقطة يمكنك أن تغطس وتغطس فيها وتختفى.

مع اهتزاز الأشياء، مع ارتعادها، هناك رعشة فى إطار سفينة جانر ميردال بشكل عام، رجفة لا نهائية فى الأرض والسرير والجدران الفخمة. رعشة بسيطة مرتبطة ارتباطًا جذريًا بالسفينة، وهى مماثلة لمرض باركنسن فى رعشتها الأبدية التى لا تبدو لها نهاية، لدرجة أن ألفريد اعتبر هذه مشكلة داخلية تخصه هو، حتى سمع الرُكاب الأصغر سنًا والأفضل صحة يعلقون على هذا الموضوع بدورهم.

هو راقد فى حالة شبه يقظة فى الكابينة بـ ١١ يقظ فى صندوق معدنى يهتز ويرتعد، صندوق معدنى مظلم يتحرك إلى مكان ما فى الليل.

لا توجد نافذة تطل على البحر. الحجرة ذات النافذة على البحر تُكلف مئات الدولارات أكثر، وقالت إنيد أنه بما أن الكابينة لن تُستخدم إلا للنوم، فمن يحتاج لنافذة بهذا السعر؟ ربما لن تطل منها إلا ست مرات على مدار الرحلة، فيصبح ثمن الإطلالة الواحدة خمسين دولارًا.

هى نائمة الآن، فى صمت، كشخص يتصنع النوم. نوم ألفريد عبارة عن سيمفونية من الشخير والصفير وأصوات الاختناق،

(*) الكلام عن اليقظة والمحيط هنا، مقارنة بين حالة وعى مرضى باركنسن والغرق فى المحيط، على النقيض من الوعى الكامل، أو الاستقرار على أرض صلبة. (المترجم).

ملحمة من حرف الـ "خ". وهى ترقد جامدة لساعات ثم تصحو فجأة وكأنها مصباح أنار بعد رفع مفتاحه. أحيانًا ساعة الفجر فى سان جود، فى الدقيقة الطويلة التى يستغرقها المنبه/الراديو ليتغير رقم الدقيقة المرسوم عليه، فإن الشىء الوحيد الذى يتحرك فى البيت هو عين إنيد.

صباح حملت فى شيب، كانت تبدو وكأنها تتصنع النوم، لكن صباح حملها فى دينيس بعد سبع سنوات، كانت حقًا تتصنع النوم. ألفريد فى زمن منتصف العمر كان يرحب بحركات الخداع البيضاء هذه. عشر سنوات وأكثر من الزواج حولته إلى أحد تلك الكواسر المتحضرة التى يسمع بوجودها فى حدائق الحيوان، النمر البنغالى الذى نسى كيف يقتل، الأسد الكسول المريض بالاكتئاب. لكى تمارس إنيد جاذبيتها، كان عليها أن تتحول إلى جثة هامدة لا دماء فيها. إذا تفاعلت معه بشكل إيجابى، إذا وضعت فخذًا فوق فخذه، كان يخفى وجهه فيها ويحتضنها. إذا خرجت من الحمام عارية يشيح عنها بعينيه، فهذه قاعدة ذهبية للرجل الذى يكره أن يرى نفسه حتى عاريًا. فى الصباح الباكر فقط، عندما يستيقظ على مشهد كتفها الأبيض الصغير، يخرج من عرينه. سكونها واحتواؤها لذاتها، دفقات الهواء البطيئة التى تستنشقها، وجودها المستضعف تمامًا، هى أمور تحرك الدم فى عروقه. مخلبه المبطن غير الجارح على ضلوعها وأنفاسه الشرهة على رقبتها تجعلها ترقد فى استكانة وجمود، وكأنها بغريزة الفريسة تعرف ("هيا لننتهى من موضوع الموت والالتهام هذا بسرعة")، رغم أن سكونها فى الحقيقة كان محسوبًا، لأنها تعرف أن الاستكانة والجمود تلهبانه. كان ينام معها كالحيوان، وهى إلى درجة ما تحب هذا أيضًا، فى خصوصية

عنف متبادل أخرس. هى بدورها تبقى عينيها مغمضتين. فى مرات كثيرة كانت حتى لا تتقلب من الجنب الذى تنام عليه، بل تمكّنه ببساطة من خصرها، ترفع ركبتها قليلاً. ثم ودون أن يريها وجهه يذهب إلى الحمام، حيث يغتسل ويحلق ذقنه ويخرج ليرى السرير قد أصبح مُرتبًا، ويسمع فى الطابق السفلى أصوات ابتلاع القهوة. من منظور إنيد فى المطبخ ربما قام أسد، وليس زوجها، بدقها، أو ربما رجل فى زى رسمى كان عليها أن تتزوجه، تسلل إلى سريرها. لم تكن حياة ساحرة، لكن يمكن للمرأة أن تعيش على دفقات من خداع النفس كتلك، وعلى ذكرياتها (وهى بدورها دفقات من خداع النفس وياللدهشة) من السنوات الماضية، عندما كان يُجن عليها وينظر إلى عينيها. المهم أن يستمر الوضع ضمنيًا وليس صريحًا. إذا لم يتحدثوا عن هذا الموضوع مطلقًا؛ فليس هناك من سبب لإيقافه إلى أن تصبح حبلى بشكل مؤكد مرة أخرى، وحتى بعد الحمل، لا يوجد سبب لوقفه، طالما أنه لا يُذكر بشكل صريح أبدًا.

كانت تريد ثلاثة أطفال. كلما طال حرمان الطبيعة لها من الطفل الثالث، قلّ إحساسها بالرضا مقارنة بجاراتها. بيا مايزنر، الأكثر بدانة وغباءً من إنيد، كانت تقبل زوجها تشاك علنًا. وقامت وزوجها مرتين بالاستعانة بمربية وخرجا للرقص. كل شهر أكتوبر يأخذ دال دريبلت زوجته هونى إلى مكان بعيد خارج الولاية فى عيد زواجهما، فيحل موعد عيد ميلاد كل أبنائهما فى يوليو. حتى إستر وكيربى رووت، تراهما فى حفلات الشواء تربت على مؤخرته ويربت على مؤخرتها. كانت إنيد تشعر بالخوف والعار من حب وعطف الأزواج والزوجات الآخرين. كانت فتاة ذكية عندها مهارات عملية جيدة، انتقلت مباشرة من كى الملاءات والمفارش فى بيت أمها إلى

كى الملاءات والمفارش فى بيت لامبرت. فى عيون كل امرأة فى الحى ترى السؤال الخفى: هل يُشعرها آل على الأقل بأنها مهمة له بتلك الطريقة الخاصة؟

ما إن ظهر عليها الحمل مرة أخرى، حتى أتاها سؤال خفى. التغيرات فى جسدها لا تقبل الجدال، وقد تخيلت ما ستكتشفه بيا وإستر وهونى عن حياتها الحميمة مع زوجها، بعد رؤية هذه التغيرات، لدرجة أنها أعلنت هذه الاستنتاجات بنفسها بعد قليل.

بعد أن أصابتها السعادة على هذه الشاكلة بسبب الحمل، بدأت تتكلم عن الموضوع المُحرم مع ألفريد. غنى عن القول أنها لم تتكلم عن الجنس أو الإحساس بالرضا أو العدالة فى هذا الموضوع، لكنها تكلمت عن موضوعات أخرى أقل حرمانية، وتجاوزت إنيد الحد ذات صباح. اقترحت عليه أن يشترى سهمًا معينًا. قال ألفريد إن سوق الأسهم موضوع خطير غير مفهوم والأفضل تركه للرجال الأثرياء والمغامرين. اقترحت إنيد أن يشترى رغم ذلك سهمًا معينًا. قال ألفريد إنه يتذكر الثلاثاء الأسود وكأنه كان بالأمس. اقترحت إنيد أن يشترى الأسهم رغم ذلك. قال ألفريد إن من غير المعقول شراء ذلك السهم. اقترحت إنيد أن يشترى الأسهم رغم ذلك. قال ألفريد إنه ليس لديهم نقود ينفقونها على أى شىء بخلاف مصاريفهم، ومع وجود طفل ثالث قادم. اقترحت إنيد اقتراض نقود. قال ألفريد لا. قال لا بصوت أعلى بكثير ونهض من على مائدة الإفطار. قال لا بصوت مرتفع لدرجة أن الطبق النحاسى المعلق على سبيل الزينة على جدار المطبخ اهتز فى مكانه، ودون أن يقبلها قبلة الصباح غادر البيت وغاب ١١ يومًا و١٠ ليال.

فى أغسطس، أصبح ألفريد مساعد كبير المهندسين فى ميدلاند باسيفيك، المسئول عن خط السكة الحديد والمنشآت، وها هو يسافر إلى الشرق ليفتش على كل ميل من أميال سكة حديد إيرى بيلت. مديرو مناطق خط إيرى بيلت يتنقلون به فى شوارع مناطقهم فى سيارات عتيقة، يركنون السيارات إلى جوار خط السكة الحديد هنا وهناك بينما قطار إيرى بيلت الكبير يمر إلى جوارهم بصوت كالرعد. كان خط إيرى بيلت خطًا إقليميًا تضررت قطارات البضائع عليه كثيرًا وكثر تنقل الناس بالسيارات فى تلك المنطقة فقل استخدامهم لقطارات الركاب. رغم أن خطوطه وقضبانه كانت ما زالت جيدة بشكل عام، فالخطوط الفرعية فيه تآكلت وتحللت بشكل لا يُصدق. كانت القطارات تتحرك بسرعة ١٠ أميال فى الساعة على قضبان سيئة. ميل وراء ميل من القضبان الميؤوس منها. رأى ألفريد أن الأفضل استخدام القضبان كحديد خردة. مسامير تثبيت الألواح الخشبية بين القضبان فقدت رؤوسها وأصابها الصدأ، وتآكلت داخل الخشب الذى أكلته الشمس فأصبحت الألواح الممدودة بين القضبان معلقة من القضبان، بدلاً من أن تدعمها وتقويها.

موضوع غير مكلف مقارنة بالقاطرات الضخمة الغاضبة، لكن دون هذه القضبان يصبح القطار عشرة آلاف طن من اللاشىء. الأصل هو القضبان.

كلما ذهب ألفريد لأى مكان على مسار إيرى بيلت يسمع موظفى إيرى بيلت الشبان يخبرونه واحدًا تلو الآخر: "هوّن عليك!"

"إلى اللقاء يا سام. لا ترهق نفسك كثيرًا فى العمل".

"هون عليك".

"وأنت أيضًا يا صاحبى. هون عليك".

الجملة تبدو لألفريد آفة من آفات الساحل الشرقى، تذكار من ولاية كانت عظيمة فيما مضى، ولاية أوهايو، تذكار تغذى عليه هؤلاء الطفيليون فأجهزوا عليه. لا أحد فى سان جود يجرؤ على أن يقول له "هون عليك". فى البرارى حيث نشأ، من "يهون على نفسه" لا يُعتبر رجلا حقيقيًا. ها قد جاء جيل الخنافس الذى يعتبر "التهوين" إطراء ومجاملة. سمع ألفريد موظفى إيرى بيلت يتهاونون فى وقت العمل، رأى موظفين يأخذون استراحة عشر دقائق للقهوة، راقب عمال الصيانة يدخنون السجائر باستمتاع بينما خط السكة الحديد ينهار من حولهم. "هون عليك" هى كلمة السر لهؤلاء الشبان الودودين بشكل زائد، مفتاح الود الذى لا لزوم له، المدخل المزيف لتمكينهم من تجاهل القذارة التى يعملون وسطها.

على النقيض، كان خط ميدلاند باسيفيك مكان عمل من حديد وخرسانة. مسامير ربط القضبان جديدة دائمًا لدرجة تناثر المسامير القديمة من حولها فى تجمعات صدئة. ميدلاند باسيفيك مقرها سان جود تخدم منطقة تعمل أكثر، وأقل "شرقية" من البلاد. على النقيض من خط إيرى بيلت، كانت الشركة تزهو وتفخر بتوفير خدمات جيدة على خطوطها الفرعية. ألف بلدة ومدينة صغيرة ممددة على محاور الولايات الرئيسية تعتمد على ميدلاند باسيفيك.

كلما شاهد ألفريد أكثر من أحوال إيرى بيلت، زاد إحساسه بتفوق وقوة وأخلاقية ميدلاند باسيفيك داخل عظامه. فى قميصه

وربطة عنقه خرج للتمشية على جسر السكة الحديد فوق نهر ماومى، فوق المياه العكرة بأربعين قدمًا، فأمسك بالسور ومال للخارج وطرق على القائم الرئيسى للجسر بمطرقته المفضلة، التى يأخذها معه فى حقيبته أينما ذهب، تطايرت لطخ من الدهان والصدأ، كبيرة كأوراق الشجر، ونزلت إلى النهر. بدأت قاطرة أطلقت صفيرها تقترب من الجسر، وألفريد الذى لم يكن يخشى الأماكن المرتفعة، انتقل إلى طرف القائم خارج سور الجسر. بينما قوائم الجسر تهتز وتتقافز من تحته راح يقيّم فى عقله مدى كفاءة الجسر فوجدها فى غاية السوء.

ربما رأته بعض السيدات العابرات لنهر ماومى من على جسر شارع شيرى بالأسفل جاثمًا هكذا، مسطح البطن عريض المنكبين، الرياح تُطيّر أطراف بنطلونه حول كاحليه، وربما شعرن، كما شعرت إنيد فى أول مرة رأته، بأن هذا رجل حقيقى. رغم أنه لم يعبأ بنظراتهن، فقد شعر ألفريد داخله بما رأينه من الخارج. فى النهار يشعر بالرجولة، ويُظهر شعوره هذا، ولك أن تقول أنه كان يتباهى كالطاووس بهذا الشعور، بالوقوف على دعامات قضبان جسور السكة الحديد المرتفعة، والعمل ١٠ و١٢ ساعة دون استراحة، وبتوثيق عيوب ومشكلات خط السكة الحديد الواقع شرقى البلاد.

فى الليل الموضوع مختلف. فى الليل يصحو من النوم على المراتب التى يشعر بها مصنوعة من الكرتون، فيوثق عيوب الإنسانية. يشعر فى كل فندق صغير يقيم فيه، أنه مُحاط بجيران يتناكحون وكأن لا غد لهم، رجال سيئو الأخلاق منحطى الأصل، نساء ضاحكات صارخات. فى الواحدة صباحًا فى إيرى بولاية بنسلفانيا، راحت فتاة فى الحجرة المجاورة تتغنج وتلهث كالمومس.

شخص ما أنيق لا قيمة حقيقية له، عرف كيف ينالها. لام ألفريد الفتاة على أنها "هونت على نفسها". لام الرجل على ثقته الهينة البسيطة. لام كلاهما على قلة الذوق وانعدام الإحساس مع عدم خفض أصواتهما. كيف لم يتوقفا لحظة ليفكرا فى الجار، الراقد يعانى من الأرق فى الحجرة المجاورة؟ لام الرب على أنه يسمح لمثل هؤلاء بالوجود. لام الديمقراطية على أنها ابتلته بأمثالهم. لام معمار الفندق على أنه اكتفى بفاصل خشبى واحد بين الحجرات، على سبيل الحفاظ على خصوصية النزلاء. لام إدارة الفندق لأنها لم تحتفظ بحجرة احتياطية للنزلاء الذين يعانون مثله الآن. لام أبناء واشنطن، بنسلفانيا الذين "يهونون على أنفسهم"، الذين يقودون السيارات بسرعة ١٥٠ ميلا ذهابًا وإيابًا إلى ومن بطولات كرة القدم، يملأون كل حجرة من حجرات فنادق طُرق شمال غرب بنسلفانيا السريعة. لام النزلاء الآخرين من حوله على لامبالاتهم بالفجور الذى يُمارس على مسمع منهم، لام الإنسانية على بلادتها، ولأن الموضوع غير عادل بالمرة. من غير العدل ألا يراعى العالم رجلاً يراعى العالم. لا أحد يعمل أكثر منه، لا يوجد رجل أهدأ منه وهو نزيل فى الفندق، لا يوجد رجل أكثر رجولة منه، ورغم ذلك يُسمح لمزيفى العالم بسرقته من النوم بتعاملاتهم الفاجرة.

رفض البكاء. كان يعتقد أنه إذا سمع نفسه يبكى فى الثانية صباحًا فى حجرة فندق على الطريق تفوح منها رائحة التبغ، فسوف ينتهى العالم. كان يتمتع بالانضباط، كله إلا الانضباط. القدرة على الرفض.

لكن ممارسته للانضباط لا يشكره عليها أحد. السرير فى الحجرة المجاورة يهتز فيضرب الحائط، والرجل يتأوه كالخنزير،

والفتاة تشهق تعب الهواء وسط نباحها. وكل عاملة مطاعم فى كل بلدة تتمتع بثديين مكورين، داخل بلوزة بيضاء على تنورة سوداء، تميل عليه وهو جالس بطريقة مريبة.

"مزيد من القهوة أيها الوسيم؟"

"نعم، أشكرك".

"هل أحمّر وجهك يا عسل؟ أم أن الشمس أشرقت؟"

"الشيك الآن لو سمحتى".

فى فندق أولمستيد فى كليفلاند فاجأ بوابًا وخادمة كانا يقبلان أحدهما الآخر فى فجور فى بئر السلم. والآثار التى رآها عندما أغمض كانت "سوستة" مفتوحة إلى الأبد، والإشارات من خلفه تتحول من الأحمر/قف إلى الأخضر/سر لحظة مروره بها، والسرير القديم فى فندق بفورت واين تنهمر عليه الأحلام الرهيبة، نساء أجسادهن بالكامل - ملابسهن وابتساماتهن ووضعهن سيقانهن تلك فوق الأخرى -دعوة صريحة كالفرج، وعلى مسافة قريبة من سطح وعيه (لا تلوث الفراش!) يفتح عينيه على فورت واين مع شروق الشمس فلا يرى ذلك السائل المتسلل إلى بنطلون البيجاما: يا له من نصر، فقد حرم على نفسه أن يرضى تلك الأحلام الفاجرة. لكن فى بافالو كان مُلاحظ الخط يعلق فى مكتبه صورة لبريجيت بارد، وفى يونجستاون عثر ألفريد على مجلة نجسة تحت دليل التليفون فى الفندق، وفى هاموند بولاية إنديانا اضطر للانتظار على الرصيف بينما قطار بضاعة يمر أمامه، فرأى منتخبًا من مُشجعات فريق رياضى محلى يؤدين حركات أكروباتية فى ملعب إلى يساره مباشرة، وكانت الفتاة الأجمل بينهن تؤدى الحركات بحماس أكبر،

فتنحنى برأسها على بطنها وكأنها ستقبل فرجها. وقاحتها مستمرة حتى مر القطار أخيرًا وأخلى القضبان، كم هو عالم مصمم على تعذيب رجل عاقد العزم على الفضيلة.

عاد إلى سان جود فى عربة قطار مخصصة للركاب ملحقة بقطار بضاعة، ومن محطة يونيون أخذ أتوبيس إلى الضواحى. وفى البلوكات بين المحطة وبيته رأى آخر أوراق الخريف تسقط. كان موسم السعى الحثيث إلى الشتاء. أوراق الأشجار تدور فى دوامات على مداخل حدائق البيوت الصغيرة. توقف فى الشارع ونظر إلى البيت الذى يملكه ويملكه معه البنك. البلاعات مسدودة بأغصان الأشجار وثمرات شجر الصنوبر، وأحواض الزهور فى حالة صعبة. خطر له أن زوجته حملت مرة أخرى. الشهور تمر عليه مسرعة فى مسارها الذى لا يحيد، تقربه من اليوم الذى سيصبح فيه أبًا لثلاثة، ومن العام الذى سينتهى فيه من أقساط البيت، موسم موته.

قال تشاك مايزنر من وراء نافذة السيارة الذى توقفت فى الشارع إلى جواره: "تعجبنى حقيبتك. للحظة حسبتك مندوب المبيعات".

قال ألفريد وقد خرج فجأة من تأمله: "تشاك، أهلاً".

"تخطط لحملة وغزو. الزوج بعيد عن البيت إلى الأبد".

ضحك ألفريد لأن لا شىء آخر يفعله. هو وتشاك يتقابلان فى الشارع كثيرًا، المهندس يقف قلقًا وموظف البنك مسترخٍ. ألفريد يرتدى بدلة وتشاك يرتدى ملابس لعب الجولف. ألفريد رشيق ونحيل، تشاك بدين مرخى الصدر. تشاك يعمل ثمانى ساعات فى الفرع الذى يديره، لكن ألفريد يعتبره رغم ذلك صديقه. كان تشاك

يستمع فعلاً إلى ما يقوله، ويبدو عليه الانبهار من عمله، فاعترف به كشخص لديه قدرات خاصة.

قال تشاك: "رأيت إنيد فى الكنيسة يوم الأحد. قالت لى إنه قد مر على غيابك أسبوع".

"على الطريق منذ ١١ يومًا".

"حالة طوارئ هنا أو هناك؟"

قال ألفريد بزهو: "ليس بالضبط. كنت أفتش على كل متر من خط سكة حديد إيرى بيلت".

نقر تشاك بأصابعه على عجلة القيادة، ثم أراح يديه على حجره وقال: "إيرى بيلت". هو أكثر السائقين الذين يعرفهم ألفريد تهاونًا، لكنه الأكثر يقظة أيضًا. "أنت جيد فى عملك يا آل. أنت مهندس لن يتكرر. لابد إذن من وجود سبب لموضوع إيرى بيلت هذا".

قال ألفريد: "هناك سبب بالطبع. ميدلاند باسيفيك ستشتريه".

أطلق محرك السيارة صوتًا كلبيًا. تشاك نشأ فى مزرعة قرب سيدر رابيدز، والتفاؤل يجرى عميقًا فى دمه، قادم من أرض شرق إيوا الطيبة شديدة الخصوبة. المزارعون فى شرق أيوا لم يتعلموا أبدًا ألا يثقوا فى العالم. بينما أى تربة صالحة لأن ينمو فيها الأمل داخل ألفريد تحطمت فى أى من مواسم جفاف غرب كانساس الكثيرة.

قال تشاك: "إذن، أتخيل أنه تم إعلان الموضوع".

"لا، بلا إعلان".

هز تشاك رأسه ونظر إلى جوار ألفريد إلى بيت آل لامبرت وقال: "ستسر إنيد كثيرًا عندما تراك. أعتقد أن الأسبوع كان صعبًا عليها. الولدان كانا مريضين".

"احتفظ بسرية هذه المعلومة".

"آل، عيب عليك".

"لم أذكر هذا الموضوع لأحد غيرك".

"أقدر لك هذا. أنت صديق ابن حلال ومسيحى مؤمن. سيتبقى لى الوقت الكافى لألعب الجولف لو تمكنت من تشذيب ذلك السياج سريعًا".

تحركت سيارته، وانعطف بها تشاك إلى ممشى بيته وهو يضع إصبعًا واحدًا على عجلة القيادة باستهانة.

أمسك ألفريد بحقيبة ملابسه وحقيبة الأوراق. كان كشفه عن موضوع شراء خط السكة الحديد تلقائيًا وضد - تلقائى. عرفانًا وامتنانًا لتشاك، ودفقة محسوبة من الغضب التى راحت تحتشد داخله على مدار الأحد عشر يومًا. يسافر ألفى ميل لكن لا يحتمل مشى الخطوات العشرين الأخيرة دون أن يفعل شيئًا.

ومن غير المرجح أن تشاك سيستخدم هذه المعلومات.

وهو يدخل البيت من باب المطبخ، رأى ألفريد أكوام من اللفت الأصفر فى حلة يغلى فيها الماء، والقليل من البنجر، ولحم شىء ما داخل ورق الجزار البنى على الحوض. ثم بصلة يبدو أنه من المقدر لها تحميرها وتقديمها مع الكبدة؟!

رأى على الأرض إلى جوار سلم القبو عش من المجلات وأكواب الجيلى.

نادت إنيد من القبو: "آل؟"

وضع حقيبة ملابسه وحقيبة الأوراق على الأرض، وجمع المجلات وأكواب الجيلى ونزل بها السلم.

وضعت إنيد المكواة على لوح الكى وخرجت من حجرة الغسيل والفراشات تطير داخل بطنها... إما من الشبق أو خوفًا من غضب آل أو خوفًا من أن تغضب، لا تعرف.

أجلسها بسرعة وقال: "ما الذى طلبته منك قبل أن أغادر؟"

قالت: "أنت عدت مبكرًا، وما زال الأولاد فى الخارج".

"ما الشىء الوحيد الذى طلبت أن تفعليه وأنا لست هنا؟"

"أحاول الانتهاء من الغسيل، والولدان كانا مريضين".

قال: "هل تذكرين أننى طلبت منك ترتيب كومة الفوضى تلك أعلى السلم؟ كان ذلك هو الشىء الوحيد، الشىء الوحيد الذى طلبته قبل أن أغادر".

دون أن ينتظر إجابة، مضى إلى معمل الفلزات الخاص به وألقى المجلات وأكواب الجيلى فى صفيحة القمامة الثقيلة. من رف المطارق أخرج مطرقة غير متزنة جديرة بإنسان نيندرثال كان يكرهها فخصصها لغرض وحيد هو الهدم والإزالة، وقام بتكسير أكواب الجيلى بهمة. أصابت شظية خده فراح يضرب الأكواب بغضب أكبر، فحولها إلى شظايا زجاج صغيرة، لكن لم يتمكن شىء من القضاء على الإثم الذى ارتكبه أمام تشاك مايزنر، أو مثلثات ملابس فريق المشجعات الداخلية، مهما ضرب بالمطرقة.

راحت إنيد تستمع من مكانها إليه، من عند مائدة الكواء. لم تهتم كثيرًا بواقعية هذه اللحظة. أن زوجها غادر البلدة قبل أحد

عشر يومًا دون أن يقبلها قبلة الصباح، فهذا شيء تمكنت إلى حد ما من نسيانه. مع غياب آل، حوّلت أحقادها الدفينة نحوه إلى شعور بالاشتياق والندم. رحمها المنتفخ، مسرّات شهر الحمل الرابع، الوقت الذى أمضته وحدها مع الصبيين الوسيمين، حسد جاراتها لها، كلها مسرّات ملونة تحرك عليها وعبرها عصا خيالها السحرية. حتى مع نزول آل السلم كانت ما زالت تتخيل الاعتذارات وقبلات الاشتياق بعد العودة، ومأدبة من الزهو ربما. والآن تسمع صخب تحطيم الزجاج وضربات المطرقة السريعة، صرخات المواد الصلبة المُحبَطة فى صراعها مع بعضها. لم يتغير شيء.

صحيح أن آل طلب منها أن تنقل البرطمانات والمجلات من مكانها، وربما هناك كلمة تصف كيف راحت تتحرك حول البرطمانات والمجلات على مدار الأيام الإحدى عشر الأخيرة، تكاد تتعثر فيها كل مرة، ربما هناك كلمة نفسية ما مليئة بمقاطع لاتينية أو ربما كلمة بسيطة مثل "الضغينة". لكن يبدو لها أنه طلب منها عمل ما هو أكثر من "شيء واحد" وهو غائب. طلب منها أيضًا أن تُعد للولدين ثلاث وجبات يومية، وأن تلبسهم وتقرأ لهم وتعالجهم وتمسح أرض المطبخ وتغسل الملاءات وتكوى قمصانه وتفعل كل هذا دون قبلاته الزوجية أو كلماته العطوف. إن حاولت أن تنال الاعتراف بفضلها فى هذه الأعمال التى تقوم بها، فسوف يسألها آل ببساطة: ومن الذى دفع ثمن البيت والطعام والملاءات؟ ناهيك عن أن عمله كان يرضيه للغاية لدرجة أنه لا يحتاج إلى حبها، بينما أعمالها المنزلية تثير فيها الضجر لدرجة أنها تحتاج إلى قدر مضاعف من حبه. بأى منطق عمله يلغى عملها.

ربما وبعدالة تامة، بما أنه طلب منها عمل "شيء واحد" إضافى، فربما تطلب منه عمل "شيء واحد" إضافى أيضًا. ربما كانت لتطلب منه أن يتصل بها مرة واحدة على الأقل وهو غائب على سبيل المثال. لكنه قادر على أن يقول "هناك من سيتعثر فى هذه المجلات ويجرح نفسه" بينما لن يتعثر أحد فى عدم اتصاله بها وهو غائب، ولن يؤذى أحد نفسه بسبب تقصيره فى هذا الموضوع. كما أن المكالمات من خارج الولاية على حساب الشركة إساءة لاستخدام حساب نفقاته كموظف فى الشركة ("معك رقم مكتبى لو حصل أى شيء طارئ")، وهكذا فإن مكالمة هاتفية للبيت ستكلفهم مبلغًا ضخمًا، بينما حمل الأشياء القديمة للقبو لن تكلف أى نقود، ومن ثم فهى دائمًا على خطأ، ومن مفاسد الأخلاق أن يتجمد المرء إلى الأبد فى قبو أخطائه، فى انتظار أبدى لأن يتعطف عليه أحد وسط أخطائه، وهكذا لا عجب إذن، حقًا، أنها خرجت لتشترى ما ستُحضّر به "عشاء الانتقام".

فى منتصف الطريق من القبو، على درجات السلم، فى طريقها لتحضير العشاء، توقفت وتنهدت.

سمع ألفريد التنهيدة وارتاب فى أنها على صلة بموضوع "الغسيل" و"حامل فى أربعة شهور". إلا أن أمه كانت تقود بيديها مجموعة من الخيول المربوطة بمحراث، لتحرث حقلاً قوامه عشرين فدانًا، وهى حامل فى الشهر الثامن، فلم يكن متعاطفًا معها حقًا. وضع على خده النازف القليل من أمونيوم ألمونيوم الكربيتيك على سبيل المادة المطهرة.

ومن الباب الأمامى للبيت جاء وقع أقدام صغيرة وطرقات مكتومة على الباب، بيا مايزنر جاءت تُسلم عهدتها البشرية، عائدة

من النادى. هرعت إنيد على الدرجات لتتولى عملية تسلم العهدة. جارى وشيبر، أبناها فى الصف الخامس والصف الأول بالمدرسة مبتلان عليهما رائحة الكلور. شعرهما المبتل يعطيهما طبيعة نهرية ما، وكأنهما قنافذ أو فئران نهرية.

بأسرع ما بإمكانهما، ودون الجرى (ممنوع داخل البيت)، تقدم الولدان من القبو، ودخلا حجرة الغسيل، وعثرا على والدهما فى معمله. كان من طبيعتهما أن يحتضناه، لكن من طبيعته أن يصحح لهما هذا السلوك. وقفا وانتظرا، مثل مرءوسين فى الشركة، حتى يتكلم الرئيس.

قال: "إذن، كنتما تسبحان؟"

صاح جارى: "أنا دولفين!" كان ولداً مرحًا إلى أقصى درجة: "أنا دولفين، لبست العوامة".

"دولفين؟ تمام" وإلى شيبر الذى لم تمنحه الحياة إلا المآسى منذ كان فى الثانية من عمره: "وأنت يا ولد؟"

قال شيبر: "كان معنا ألواح سباحة".

قال جارى: "إنه ضفدع".

"إذن، دولفين وضفدع. وما هى المهارات المميزة التى تقدمها للعمل بعد أن أصبحت دولفينا؟"

"قفزة المقص!".

قال الرئيس: "أتمنى لو كان عندنا حمام سباحة كبير وجميل كهذا وأنا صغير" رغم أنه يعرف أن حمام السباحة فى النادى لم يكن كبيرًا ولا جميلا. "باستثناء بركة المياه الموحلة وراء الزريبة لا

أذكر رؤية مياه أعمق من ثلاثة أقدام حتى رأيت نهر بلات. لابد أننى كنت يومها فى العاشرة".

مرءوساه الصغيران لا يتابعان كلامه ولا يفهمان. راحا يحركان أقدامهما فى تململ، ما زال جارى يبتسم على استحياء وكأنه يأمل فى تحسن مستوى هذا الحوار، وشيبر ينظر بفم مفتوح مذهول إلى المعمل، وهو أرض محرمة عليهما باستثناء أوقات وجود المدير فيه. الهواء هنا رائحته حديد.

تأمل ألفريد مرؤوسيه فى اهتمام. أن يكون صديقًا للأولاد مسألة فيها صراع نفسى وصعبة عليه. قال: "هل ساعدتما ماما فى المطبخ؟"

عندما لا يهتم شيبر بموضوع ما، كما لا يهمه هذا الموضوع، يفكر فى الفتيات، وعندما يفكر فى الفتيات يشعر بدفقة من الأمل. على جناح هذا الأمل حلّق مبتعدًا عن المعمل إلى الطابق الأعلى.

قال جارى للرئيس: "أسألنى ما هو حاصل ضرب تسعة فى ثلاثة وعشرين".

قال ألفريد: "طيب. ما حاصل ضرب تسعة فى ثلاثة وعشرين".

"مائتان وسبعة. سؤال آخر".

"ما هو تربيع ثلاثة وعشرين؟"

فى المطبخ تفرك إنيد الكبد البروميثيوسى بالدقيق وتضعه فى مقلاة ويستينجهاوس الكهربائية الكبيرة بما يكفى لطهى تسع بيضات. غلت المياه فجأة فصدر عن الألمونيوم صوت صليل. فى ساعة سابقة من اليوم أوحت لها ورقة لحم الخنزير فى الثلاجة

بطهى الكبدة، مع الكثير من اللفت الأصفر، وهكذا اكتملت فكرة العشاء. للأسف عندما شرعت فى طهى لحم الخنزير مع الكبدة اكتشفت وجود ثلاث قطع فقط، ليس ست أو ثمانى قطع كما تخيلت. ها هى تناضل الآن لتطمئن نفسها أن القطع الثلاث ستكفى الأسرة بأكملها.

قال شيبر منزعجًا: "ما هذا؟"

"كبدة ولحم خنزير!"

خرج شيبر من المطبخ وهو يهز رأسه فى إنكار عنيف. بعض الأيام سوداء من أولها، الإفطار، الشوفان، كان ممتلئًا بقطع ضخمة من البلح شبيهة بالصراصير المقطعة، وأشياء زرقاء تعوم فى الحليب، ثم موعد الطبيب بعد الإفطار. هناك أيام أخرى، كهذا اليوم، لا تتكشف عن قبحها الكامل إلا عندما تقارب نهايتها.

راح يجرى فى أنحاء البيت وهو يقول: "أيه القرف ده، يع، أيه القرف ده، يع، أيه القرف ده، يع".

صاحت إنيد: "العشاء بعد خمس دقائق، أغسلوا أيديكم".

فى الكبدة رائحة معدنية، رائحة أصابع كانت تُمسك بعملات معدنية قذرة.

ذهب شيبر ليرتاح فى حجرة المعيشة وضغط وجهه بالنافذة، أملاً فى أن يرى سيندى مايزنر فى حجرة الطعام فى بيتها. جَلس إلى جوار سيندى وهم عائدون من النادى وشم رائحة الكلور فيها. كانت على ركبتها ضمادة.

صوت قرقعة المغرفة فى يد إنيد وهى تهرس الفجل الأصفر اللاذع المسكر المائى فى الحلة.

غسل ألفريد يديه فى الحمام، وأعطى الصابونة لجارى، واستخدم منشفة صغيرة.

قال لجارى: "تخيل مربعًا".

كانت إنيد تعرف أن ألفريد يكره الكبدة، لكنه لحم ممتلئ بالحديد الصحى، ومهما كانت عيوب ألفريد كزوج، فهو مُلتزم بالقواعد. المطبخ أرضها، مملكتها، وهو لا يتدخل فيها.

"شيبر، هل غسلت يديك؟"

شيبر يعتقد أنه لو رأى سيندى مرة أخرى للحظة واحدة فرُبما يُنقذ من العشاء. تخيل أنه معها فى بيتها يمشى وراءها إلى حجرتها. تخيل حجرتها ملاذًا أمنًا من المخاطر والمسؤوليات.

"شيبر؟"

"عندك المربع أيه، ثم المربع إى، أضف إليهما ضعف نتاج أيه وإى"... كان ألفريد يُكلم جارى وهما يجلسان إلى المائدة.

قال جارى محذرًا: "شيبر، الأفضل أن تغسل يديك".

تخيل ألفريد مربعًا:

EA	E
	AE

الشكل ١ . مربع كبير ومربعات أصغر

قالت إنيد: "آسفة، لحم الخنزير قليل اليوم، حسبت أن عندى أكثر".

فى الحمام شيبر متردد فى أن يبلل يديه لأنه خائف من ألا تجف بعد ذلك أبدًا. ترك المياه تجرى، صوتها مسموع لمن فى الخارج، فيما حك يديه بمنشفة. فشله فى رؤية سيندى من وراء النافذة قضى على رباطة جأشه.

قال جارى: "أصبنا بالحُمى، وأصيب شيبر بوجع فى الأذن أيضًا".

الدقيق بعد القلى بنى اللون، مُحمل بالدهون، عالق بقطع الكبدة كالصدأ. لحم الخنزير أيضًا كان بلون الصدأ.

ارتجف شيبر وهو على مدخل باب الحمام. صادفته التعاسة بالقرب من نهاية يومه واستغرق منه الأمر فترة حتى أدرك جسامة الموضوع. بعض التعاسات بسيطة ويمكن التفاوض معها ببساطة. بعض التعاسات الأخرى لا تساوم بالمرة وكان يعرف أنه سيمضى ساعات طويلة معها. تعاسات ضخمة بحجم الكواكب. عشاء الانتقام أحد هذه التعاسات.

سألت إنيد ألفريد لأن عليها أن تقول شيئًا ما: "كيف كانت رحلتك".

"مرهقة".

"شيبر حبيبى، لقد جلسنا جميعًا".

قال ألفريد: "سأعد حتى خمسة".

قالت إنيد فى صوت منغوم: "ها هو لحم الخنزير، أنت تحب لحم الخنزير". هذا كذب وافتراء واستهزاء، أحد إخفاقاتها اليومية المائة كأم.

قال ألفريد: "واحد، اثنان، ثلاثة".

ركض شيبر ليأخذ مكانه على المائدة. ماذا سيجنى من الضرب على مؤخرته.

قال جارى فى كلمات متلاحقة سريعة: "بارك لنا يا رب فى هذا الطعام وليتمجد اسم يسوع، آمين".

كومة من الفجل المهروس على طبق، سائل أصفر يشابه البلازما. بنجر مغلى يُسرب شيئًا ما بلون صدأ النحاس الأخضر. الشعيرات الدموية فى الكبدة وطبقة الدقيق المتجمدة على سطحها، تسرب السائل تحت قطع الكبدة. عندما تُرفع الكبدة من الطبق، تسمع الأذن صوت شفط خفيف. الطبقة السفلى للدقيق الرطبة المشبعة بالسوائل.. بشعة.

فكر شيبر فى حياة الفتيات. أن تمر بالحياة فى نعومة، أن يكون ابنة لآل مايزنر، أن يلعب فى ذلك البيت ويحبه الناس بصفته فتاة.

قال جارى: "أتود أن ترى زنزانة السجن التى صنعتها بعصى المصاصات؟"

قال ألفريد: "زنزانة؟ تمام تمام".

لم يأكل ذلك الشخص الصغير الحكيم ثاقب البصيرة لحمه على الفور ولا هو تركه يتشبع بسوائل الخضراوات. الشخص الصغير الحكيم ثاقب البصيرة أخرج قطعة اللحم ووضعها على مستوى أعلى، على حافة الطبق، وخزنها هناك وكأنها مُحفز على الأكل. الشخص الصغير الحكيم ثاقب البصيرة كان يأكل بصلاً مقليًا، ولم يكن جيدًا لكنه ليس سيئًا، على سبيل المشهيات.

قالت إنيد: "عملنا اجتماع أشبال الكشافة بالأمس. جارى يا حبيبى، ممكن نرى زنزانتك بعد العشاء".

قال شيبر: "كما صنع مقعد إعدام بالكهرباء، ليضعه فى الزنزانة. وقد ساعدته".

"حقًا؟ تمام تمام".

قال جارى: "ماما أحضرت لنا تلك الصناديق الضخمة من عصى المصاصات".

قالت إنيد مصححة: "اسمها عبوات. العبوات عليها تخفيض".

لم يكن ألفريد يحب العبوات. هناك آباء "يهونون على أنفسهم" يحبون العبوات. الأنشطة التى يتم عملها بما تتيحه العبوات أشياء تافهة: طائرات مصنوعة من خشب البلزا، أو سيارات لعبة من خشب الصنوبر، أو قطارات من الورق عرباتها أغلفة كتب قُرئت بالفعل.

(شوبنهاور: "إن كنت تريد بوصلة آمنة لتدلك عبر الحياة... فليس أفضل من أن تعوّد نفسك على أن ترى هذا العالم مكانًا لقضاء العقوبة، مستعمرة عقابية").

قال شيبر الذى يرى فى جارى الشاب المِخلّص المعبر عن آخر خطوط الموضة: "جارى، قل لى ثانية ماذا تكون، هل أنت ذئب؟"

"إنجاز آخر وأصبح دبًا".

"ماذا أنت الآن، ذئب؟"

"أنا ذئب لكن أنا أصلاً دُب. ليس علىّ الآن إلا أن أتحول".

قالت إنيد مصححة: "تتكلم، تقصد تتكلم وليس تتحول".

"ألم أقل أتكلم؟"

قال شيبر: "ستيف دريبليت صنع جيلاتين لكنه لا يعمل".

"دريبليت ذئب".

"برينت بيرسون صنع طائرة لكنها اتفشخت نصفين".

"بيرسون دب".

"قُل انكسرت يا حبيبى، وليس اتفشخت".

قال شيبر: "جارى، ما هى أكبر الألعاب النارية؟"

"الإم ٨٠ ثم بُمب الشيرى".

"ألن يكون رائعًا أن نُحضر صاروخًا إم ٨٠ ونضعه فى زنزانتك ونفجرها؟"

قال ألفريد: "ولد! لا أراك تأكل عشاءك".

شيبر على راحته لأقصى درجة فى الكلام. لا وجود للعشاء بالنسبة إليه الآن. قال: "أو سبعة إم ٨٠ وتشعلها كلها معًا، أو واحدة بعد الأخرى، جامدة، صح؟"

قال جارى: "أضع واحدة فى كل ركن من الأركان ثم أربطها بفتيل. أربط الفتيل وأفجرها كلها مرة واحدة. هذه أفضل طريقة، يا سلام، أليس كذلك يا بابا؟ نفصل بين الصواريخ ونربطها بفتيل واحد، صح يا بابا؟"

صاح شيبر: "سبعة آلاف مائة مليون إم ٨٠." راح يُقلد أصوات الانفجارات موحيًا بالانفجار العظيم الذى يتخيله.

قالت إنيد لتحاول تغيير دفة الحديث بنعومة: "شيبر، قل لبابا أين سنذهب جميعًا الأسبوع القادم".

قال شيبر وكأنه يقرأ من كتاب: "أشبال الكشافة ذاهبون إلى متحف النقل والمواصلات ولابد أن أذهب معهم".

قال ألفريد فى امتعاض: "إنيد، لماذا تأخذينهما إلى هناك؟"

"بيا تقول إنه مكان مهم ومسل للأطفال".

هز ألفريد رأسه فى قرف: "ما الذى تعرفه بيا مايزنر عن وسائل النقل والمواصلات؟"

قالت إنيد: "مكان ممتاز لاجتماع أشبال الكشافة. هناك قاطرة بخارية حقيقية يمكن للأولاد أن يجلسوا داخلها".

قال ألفريد: "ما لديهم هو قاطرة موهوك عمرها ثلاثين عامًا من محطة وسط نيويورك. ليست عتيقة، وليست قطعة نادرة، بل قطعة خردة. إن كان الأولاد يريدون رؤية القطارات الحقيقية".

قال جارى: "نضع بطارية وسلكين على المقعد الكهربائى".

"نضع إم ٨٠"

"شيبر، لا، إذا مرّ التيار فى السلك سيقتل التيار السجين".

"ما هو التيار؟"

التيار هو ما يسرى عندما تضع قضيبى زنك ونحاس فى عصير ليمون وتوصلهما ببعضهما.

يا له من عالم ردىء ذلك الذى يعيش فيه ألفريد. عندما يرى نفسه فى المرآة يشعر بالصدمة من مظهره الذى ما زال شابًا. يشعر

أحياناً فى فمه بتعبيرات مثل وجه المدرسين المقبوض، أو انقباض شفتى المصابين بالروماتيزم، رغم أنه فى زهوة شبابه، فالحياة رديئة.

من ثم يستمتع بالحلوى الغنية بالسُكر. الفطائر، الكعك. بعض المذاق السكرى فى هذا العالم.

قالت إنيد: "عندهم قاطرتان وجرار بخارى قديم حقيقى!"

ألفريد يعتقد أن الحقيقيين والصادقين قلة فى هذا العالم المصمم على الإبادة. يذهله أن الحالمين مثل إنيد لا يمكنهم تمييز المزيف من الأصلى، الرداءة فى "المتحف" العاكف على الريح، والسكة الحديد الحقيقية الصادقة الأصلية.

"يجب على الأقل أن تكون سمكة".

"الأولاد جميعًا ينتظرون المتحف بفارغ الصبر".

"ممكن أكون سمكة".

قاطرة الموهوك الموجودة فى المتحف حاليًا، درة تاجه، رمز رومانسى بكل وضوح. الناس هذه الأيام يبدو أنهم لا تعجبهم السكة الحديد التى تخلت عن الطاقة البخارية الرومانسية لصالح الديزل. الناس لا يفهمون أدنى شىء عن كيفية تشغيل خطوط السكة الحديد. القاطرة الديزل تعمل بكل كفاءة وقوة وتحتاج للقليل من الصيانة لا أكثر. الناس يعتقدون أن السكة الحديد مدينة لهم بالخدمات الرومانسية، ثم تؤلمهم بطنهم لو ركبوا قطارًا بطيئًا. هكذا حال أغلب الناس... أغبياء.

(شوبنهاور: "من بين شرور المستعمرة العقابية، هى تلك المجموعة المحبوسة فيها").

فى الوقت نفسه، كان صعبًا على ألفريد أن يرى انتهاء استخدام القاطرات البخارية القديمة. هى حصان جميل من الحديد، ووضع قاطرة الموهوك فى المتحف يسمح للساعين لقضاء أوقات الفراغ فى الضواحى، فى سان جود، بالرقص على قبرها. أبناء المدن لا يحق لهم تمجيد الحصان الحديد. هم لا يعرفوه بشكل حميمى كما يعرفه ألفريد. لم يقعوا فى حبائل حبه من أركان كنساس القصية حيث كان هو صلتهم الوحيدة بالعالم الخارجى، كما حدث مع ألفريد. كان يحتقر المتحف ومرتاديه على كل ما لا يعرفونه.

قالت إنيد بتوتر: "عندهم نموذج مصغر لخط السكة الحديد، على مساحة حجرة كاملة!"

نعم، ونماذج خطوط السكة الحديد الملعونة، الملاعين الهواة أصحاب هواية صناعة النماذج. إنيد تعرف جيدًا إحساسه بهذه الأشياء كونها نماذج لا فائدة منها ولا رجاء.

قال جارى متشككًا: "حجرة كاملة؟ ما حجمها؟"

"ألن يكون رائعًا أن نضع بعض صواريخ الإم ٨٠ على، الـ... الـ... نموذج كوبرى السكة الحديد؟ بروووووم، طراااخ!"

قال ألفريد: "شيبر، كل العشاء، الآن!".

قالت إنيد: "كبيرة كبيرة كبيرة، النموذج أكبر بكثير جدًا جدًا جدًا من الذى اشتراه والدك لك".

قال ألفريد: "الآن، هل سمعت؟ الآن".

جانبان من المائدة المربعة سعيدان وجانبان ليسا كذلك. جارى يروى قصة لا فائدة منها عن صبى فى فصله عنده ثلاثة أرانب بينما شيبر وألفريد، المتماثلان كالتوأم فى التجهم، عينيهما فى الأطباق. انتقلت إنيد إلى المطبخ لتحضر المزيد من اللفت الأصفر.

قالت وهى عائدة: "أعرف مَن الذين لن أسألهم إن كانوا يريدون المزيد من الطعام".

رماها ألفريد بنظرة تحذيرية. كانا قد اتفقا من أجل الأولاد ألا تتحدث أمامهما عن كراهيته للخضراوات وبعض أنواع اللحوم.

قال جارى: "سأتناول المزيد".

شيبر يبلع قضمة من الطعام بصعوبة. لكن عندما رأى شقيقه يلتهم بسعادة طبقًا ثانيًا، أحس بالغضب وفهم كيف يمكن التضحية بعشاءه كاملاً فى لحظة، وكيف يتخلص من واجباته ويستعيد حريته، فقام بالتقاط شوكته وأشار بها إلى قطع اللفت فى طبقه، تتهدل منها أطرافها، قربها من فمه. لكن اللفت رائحته كريهة، وكان قد برد بالفعل، له ملمس وحرارة خراء كلب مبتل فى صباح بارد، أحس بأمعائه تتقلص وكأنه على وشك أن يتقيأ.

قال جارى كلامًا لا يصدقه عقل: "أنا أعشق اللفت الأصفر".

قالت إنيد مؤكدة: "يمكننى أن أعيش على الخضراوات ولا شىء غيرها".

قال شيبر وهو يتنفس بصعوبة: "المزيد من الحليب".

قال جارى: "شيبر، أبعد أنفك عنه كى لا تشمه إن كان لا يعجبك".

وضع ألفريد لقمة وراء لقمة فى فمه من هذا الانتقام الحقير، يمضغ أسرع وأسرع ويبتلع كأنه آلة، قائلاً لنفسه أنه تحمل ما هو أسوأ من هذا.

قال: "شيب، كُل على مهلك، قضمة واحدة من كل صنف. لن تنهض عن هذه المائدة حتى تنتهى من أكلك".

"حليب".

"سوف تأكل بعض عشاءك أولاً. هل فهمت؟"

"حليب".

قال جارى: "ممكن يمسك أنفه بيده؟"

"المزيد من الحليب من فضلك".

قال ألفريد: "هذا يكفى".

التزم شيبر الصمت. راحت عيناه تدوران فى أنحاء طبقه، لكنه لم يكن حكيمًا بعيد النظر، فلم يجد فى طبقه غير الأهوال. رفع كوبه فنزلت منه قطرة صغيرة للغاية إلى فمه. مد لسانه للأمام مرحبًا بالقطرة.

"شيب، ضع هذا الكوب على المائدة".

"ربما يمكنه أن يمسك أنفه، لكن عليه بعد ذلك أن يأكل بسرعة".

"جارى، التليفون يرن، اذهب لترد".

قال شيبر: "بم سنُحلى؟"

"عندى أناناس جميل طازج".

"إنيد، بريك".

"ماذا؟" سألته ببراءة.

"يمكنك على الأقل أن تعطيه كعكة، أو فطيرة صغيرة، إن أكل عشاءه".

"إنها أناناسة جميلة، تذوب فى الفم".

"بابا، إنه عمو مايزنر".

مال ألفريد على طبق شيبر وبحركة واحدة من الشوكة أزال عنه كل شىء إلا قضمة واحدة من الفجل. كان يحب الولد، فوضع كومة الطعام الباردة السامة فى فمه وابتلعها وهو يرتجف. قال: كُل القضمة الأخيرة، وقضمة من الصنف الآخر، وسوف تأكل الحلوى". نهض وأضاف: "سوف أشترى حلوى لو لزم الأمر".

وهو يمر بإنيد فى طريقه إلى المطبخ، أجفلت وابتعدت عن متناول يده.

قال للتليفون: "نعم".

من السماعة صوت ضجيج رطب منزلى، دفء وعشوائية بيت آل مايزنر.

قال تشاك: "آل، وأنا أنظر فى الجريدة، وجدت سهم إيرى بيلت بخمسة وخمسة أثمان، السهم منخفض جدًا. هل أنت متأكد من موضوع شراء ميدلاند باسيفيك هذا؟"

"مستر ريبلوجلى ركب القاطرة معى وهى تخرج من كليفلاند. أوضح لى أن مجلس الإدارة ينتظر ببساطة التقرير الأخير عن حالة خط السكة الحديد ومرافقه. سوف أعطيهم التقرير يوم الاثنين".

"ميدلاند باسيفيك متكتمة على هذا الموضوع جدًا".

تشاك، لا يمكننى أن أوصى بأى قرار، وأنت محق، هناك بعض الأسئلة بلا إجابات فى هذا الموضوع و..."

قال تشاك" آل، آل، أنت ضميرك حى جدًا، ونقدر لك ذلك. سأتركك لتعود إلى طعامك".

وضع ألفريد السماعة وهو يشعر بكراهية لتشاك ككراهيته للفتاة التى كانت غير مهذبة بما يكفى لأن تدخل مع تشاك فى علاقة. تشاك موظف فى البنك وطماع. يود المرء لو ينفق براءته على شخص يستحقها، ومن أفضل من الجار؟ لكن لابد أن يكون الجار مستحقًا للبراءة. يداه ملوثة بالنجس.

قالت إنيد: "أناناس يا جارى؟"

"نعم، من فضلك".

اختفاء خضراوات شيبر واقعة أصابته بحماسة عظيمة. الحال يتحسن كثيرًا كثيرًا! قام بحنكة وخبرة بوضع ما تبقى من طعامه مع لقمة اللفت المتبقية، وراح يصف السائل الأصفر اللزج بشوكته إلى جوار الكومة. لماذا يضيع المرء عمره على واقع الكبدة والفول الأخضر الحقير بينما هناك مستقبل مزدهر حيث يأكل الأب هذا الأكل نيابة عنك؟ هاتوا الكعك لشيبر! هاتوا الفطيرة!

أخذت إنيد معها ثلاثة أطباق خالية إلى المطبخ.

كان ألفريد عند التليفون يتفحص الساعة فوق الحوض. الساعة تدور حول الخامسة، تلك الساعة الخبيثة، التى يستيقظ فيها مرضى الانفلونزا بعد أحلام ساعة العصر المحمومة. هى بعد

الخامسة بقليل، وكأنها الخامسة. انتظام عقارب الساعات، العقرب فوق العقرب فى شكل منتظم محترم، لا يحدث إلا مرة كل ساعة. كل لحظة بخلاف تلك اللحظة هى لحظة فاشلة غير منتظمة، من ثم فإن كل لحظة موضع لاحتمالات التعاسة.

كيف يعانى المرء هكذا بلا سبب! أن تعرف أنه لا يوجد نظام أخلاقى هنالك فى الانفلونزا، ولا عدالة فى الألم الذى يعتصر عقلك. ليس العالم شيئًا إلا تجسيد للإرادة العمياء الأبدية.

(شوبنهاور: "من عناصر تعاسة الوجود الأساسية أن الزمن مستمر أبدًا فى مداهمتنا والضغط علينا، لا يتركنا أبدًا نلتقط أنفاسنا، بل يلاحقنا دائمًا، وكأنه مُشرف فى مكان عمل ومعه سوط يضرب به العمال").

قالت إنيد: "أعتقد أنك لا تريد أناناس، وسوف تشترى حلواك".

"إنيد، انسى هذا الموضوع. أتمنى لو تكبرى دماغك مرة واحدة فى حياتك".

سألت وهى تقطع الأناناس لماذا اتصل تشاك.

قال ألفريد: "سنتحدث فى هذا الموضوع فيما بعد"، ثم عاد إلى حجرة الطعام.

قال شيبر: "بابا؟"

"يا ولد، ساعدتك منذ قليل، ساعدنى أنت الآن بدورك وكف عن اللعب بأكلك وانته من عشائك. الآن. هل فهمتنى؟ سوف تنتهى من طعامك الآن، وإلا فلن تأكل حلوى ولا أى امتيازات أخرى الليلة أو ليلة الغد، وسوف تجلس هنا حتى تنتهى من أكلك".

"بابا، هل يمكن؟"

"قلت الآن، فهمنا؟ أم ستفهم عندما أضربك على مؤخرتك؟"

الأنف يفرز مخاطًا عندما تحتشد الدموع قوية. التوى فم شيبر إلى اليمين وإلى اليسار. رأى الطبق أمامه على ضوء جديد، وكأن الطعام رفيق لا يُحتمل كان يعتقد أن رفقته تعنى أن عنده واسطة يُعتمد عليها، وأن هناك من يساعده ويعفيه من الألم. والآن أدرك أنه والطعام فى أزمة ستطول.

أحس بالأسى على قطعة لحم الخنزير التى لم يأكلها، على رداءتها، إحساس بالأسى عميق وحقيقى.

ورغم ذلك لم ينفجر فى البكاء.

نزل ألفريد إلى القبو بخطوات عنيفة ثم صفق الباب خلفه.

جلس جارى هادئًا يضرب أرقامًا صغيرة فى أرقام صغيرة فى رأسه.

طعنت إنيد قلب الأناناس بالسكين. قررت أن شيبر مثل والده تمامًا، جائع ويستحيل إطعامه فى نفس الوقت. حوّل الطعام إلى عار وخزى. أن تحضر وجبة متكاملة ثم ترى استقبالها بالاشمئزاز المتعمد، أن ترى الصبى يكاد يتقيأ شوفان الإفطار، كم يصيبها هذا بالمرار. كل ما يريده شيبر هو الحليب والكعك، الحليب والكعك. يقول أطباء الأطفال: "لا تستسلمى. سوف يجوع فى النهاية وسيأكل أى شىء آخر". وهكذا حاولت إنيد أن تتحلى بالصبر، لكن شيبر جلس على الغداء وأعلن: "هذا الأكل رائحته كالترجيع!" يمكنك أن تضربه على يده على قوله هذا، لكنه قال ما قاله بوجهه، ويمكنك

أن تضربه على مؤخرته لأنه اصطنع بوجهه الاشمئزاز، لكنه قالها بعينيه، وهناك حدود للتصحيح والإصلاح، لا يمكن فى النهاية أن تخترق ما وراء الحدقات الزرقاء وتقضى على إحساس الولد بالقرف.

فى الفترة الأخيرة اعتادت أن تطعمه سندوتشات الجبن المقلى طوال النهار، وتحفظ للعشاء الخضراوات الصفراء والخضراء المورقة المطلوبة لتوازن الغذاء، ولتدع ألفريد يخوض معاركه.

هناك شىء طيب المذاق، شىء جنسى فى ترك الولد المزعج يُعاقب على يد زوجها. فى أن تقف على جنب لا ذنب عليها بينما الولد يعانى بعد أن آذاها.

ما تكتشفه فى نفسك وأنت تربى الأطفال ليس دائمًا مقبولاً أو جذابًا.

حملت طبقى الأناناس إلى حجرة الطعام. رأس شيبر محنى، لكن الولد الذى يحب الأكل، مد يده فى لهفة إلى طبقه..

جارى يحدث أصواتًا وهو يتلمظ مبتلعًا الأناناس.

حقل اللفت الأصفر الشبيه بخراء الكلب، قطعة الكبد المقلية غير القادرة على الرقاد متساوية الأطراف على الطبق، كرة الأوراق الخضراء المنهارة والمشوهة لكن ما زالت سليمة، مثل طائر مبتل خرج لتوه من البيضة، أو جثة عفى عليها الزمن مطوية على بعضها فوق مياه المستنقع، العلاقة بين هذه الأطعمة لم تعد توحى بالخطر لشيبر، لكنها تقترب من درجة الديمومة، الأبدية.

انحسرت الأطعمة، وقد طغى عليها إحساس جديد بالسخرية المريرة. أصبح شيبر أقل إحساسًا بالقرف، كف حتى عن التفكير فى الأكل. مصادر أعمق للرفض بدأت تلعب.

سرعان ما تم إخلاء المائدة من كل شىء إلا مفرشه وطبقه. الضوء أقوى حوله. سمع جارى وأمه يتحدثان فى موضوعات تافهة بينما تغسل الأطباق وجارى يجففها. ثم وقع أقدام جارى على درجات سلم القبو. صوت كرة تنس الطاولة، المزيد من أصوات الأطباق والأوانى أثناء غسلها وشطفها.

عاودت أمه الظهور: "شيبر، كل طعامك، اخلص. فلتكن ولدًا كبيرًا".

وصل إلى منطقة لا يمكنها أن تلمسه فيها. أحس وكأنه مسرور، دون مشاعر. حتى مؤخرته مخدرة من الجلوس طويلاً على الكرسى.

"بابا ينوى أن تجلس هكذا حتى تأكل طعامك. انته منه. ثم تصبح حرًا كما تشاء ما بقى من المساء".

إذا كان مساءه حرًا حقًا ربما أنفقه عند النافذة يراقب سيندى مايزنر.

قالت أمه: "اسم - صفة - اسم - صفة - اسم. كلمة ربط، ربط، اسم، فعل، صفة، لو مكانك لكنت أكلت كل هذا بسرعة وانتهيت، فعل، صفة، اسم، كلمة ربط، حرف عطف، صفة".

من المدهش كم يشعر بعدم التوتر عندما لا يفهم الكلمات التى يوجهها له الآخرون. من الغريب إحساسه بالحرية من حتى أقل عبء، عبء فهم اللغة.

كفت عن تعذيبه، لكنها ذهبت إلى القبو، حيث أغلق ألفريد الباب على نفسه داخل معمله، وحيث راح جارى يحصى ("سبع وثلاثون، ثمانى وثلاثون") عدد مرات تنطيط كرة تنس الطاولة.

"طاك طاك"، كذا قالت، وهى تُدخل رأسها فى انتظار.

الحمل عبء عليها، أو على الأقل فكرة الحمل نفسها عبء، ويمكن لجارى أن يهزمها شر هزيمة، لكن متعتها فى اللعب واضحة للغاية، لدرجة أنه ببساطة كان يفصل نفسه عنها، ويضرب نقاط كل منهما فى بعضها، أو يفكر لنفسه فى تحديات صغيرة، مثل أن يعيد الكرة فى كل مرة يضربها إلى جانب مختلف من المائدة. كل ليلة بعد العشاء يحسن مهاراته بتحمل هذا الشىء البليد الذى يُشعر أحد أبويه بالمتعة. يبدو له الأمر وكأنها مهارة قادرة على إنقاذ الأرواح. يعتقد أنه قد يحدث ضرر لا يمكن إصلاحه له إذا كف عن الحفاظ على أوهام أمه فى اللعب.

وهى تبدو ضعيفة الليلة، سهلة الاختراق. عملية العشاء وغسيل الأطباق هدأت من التفافات شعرها المجعد. هناك بقع صغيرة من العرق تلوح من تحت فستانها القطنى. يداها التى كانت داخل قفاز مطاطى لونها أحمر كاللسان.

ألقى إليها بكرة فائزة، مرت بالكاد من فوق الشبكة، ومرت إلى جوارها، جرت الكرة حتى باب المعمل. ارتدت الكرة وطرقت الباب قبل أن تهدأ حركتها. راحت إنيد تتابعها فى حرص. يا للصمت، ياللظلام، وراء ذلك الباب. يبدو أن آل لم يشعل النور.

هناك أطعمة يكرهها جارى نفسه - الكرنب الصغير والبامية المغلية - وكان شيبر يراقب شقيقه البراجماتى وهو يلاعبها ويحركها

بشوكته ثم يحولها إلى كومة كثيفة مفرية، من وراء الباب، إذا كانوا فى الصيف، أو يخفيها داخل ملابسه ثم يتخلص منها فى المرحاض إذا كانوا فى الشتاء. الآن ها هو شيبر جالس وحده فى الطابق الأول، ويمكنه بسهولة أن يخفى قطعة الكبدة والخضراوات. لكن الصعوبة تكمن فى أن والده سيظن أنه أكلها، وأكلها هو الشىء الذى يرفضه الآن. الطعام على الطبق ضرورى لإثبات الرفض.

راح يقشر بحرص وهدوء طبقة الدقيق المقلى من فوق قطعة الكبد ويأكلها. استغرقه هذا الموضوع عشر دقائق. السطح العارى لقطعة الكبدة شىء لا يسر الناظرين.

راح يطوى الخضراوات ويرتبها ويصفها فى صفوف.

راح ينصت إلى صوت الكرة، وآهات أمه المبالغ فيها وصيحاتها المثيرة للأعصاب وتشجيعاتها (آه يا جارى، حلوة، حلوة!"). الأسوأ من الضرب على المؤخرة، بل والأسوأ من الكبدة، هو صوت لعب الآخرين لتنس الطاولة. الصمت وحده مقبول من حيث قدرته على أن يكون أبديًا. بدأت نقاط مباراة تنس الطاولة تقترب من ١٢ ثم انتهت المباراة، ثم انتهت مباراة أخرى ثم أخرى، ثم انتهت المباريات الثلاث، وبالنسبة لمن يلعبون فلا بأس فى هذا لأن الموضوع ممتع، لكن الصبى الجالس على المائدة فى الطابق العلوى فوقهم، ليس الموضوع بالنسبة له بسيط. أشرك نفسه فى أصوات اللعب، واستثمرها لدرجة الأمل فى ألا تتوقف أبدًا. لكنها توقفت، وكان ما زال جالسًا إلى المائدة، وذلك بعد نصف ساعة من بداية اللعب. المساء يلتهم نفسه فى عبث. حتى فى سن السابعة كان شيبر يدرك أن إحساس العبث هذا سيلازمه طيلة حياته. الانتظار الممل ثم الوعود غير المتحققة، إدراك مثير للذعر لأن الوقت تأخر كثيرًا.

لهذا العبث مذاق، نكهة.

بعد أن يهرش رأسه أو يدعك أنفه، يصبح هناك على أصابعه شيء ما. رائحة الذات.

أو، مذاق بشارات الدموع.

تخيل أعصاب الدموع تهيئ نفسها، ومستقبلات الأعصاب تؤدى دورها الذى أعدت خصيصًا له.

مذاق المعاناة التى يلحقها المرء بنفسه، مذاق المساء الذى راح هدرًا، هذه أشياء تؤدى إلى إحساس غريب بالرضا. هناك أشخاص آخرون يكفون عن التعامل مع الواقع بالدرجة الكافية للإحساس بالذنب على شعورك. أنت فقط ورفضك تبقيان. ومثل الإحساس بالرثاء للذات، أو مثل الدم الذى يملأ فمك عند خلع إحدى أسنانك، والعصائر الملحية التى تبتلعها وتدع نفسك تتذوقها مستمتعًا، فالرفض له نكهة يمكن اكتساب قدرة على تذوقها.

فى المعمل فى القبو، تحت حجرة الطعام، جلس ألفريد ورأسه منكب فى الظلام وعيناه مغمضتان. من المدهش كم يشعر باللهفة على البقاء وحيدًا، كم أوضح هذا بكل بغض وكل وضوح لكل من حوله، والآن بعد أن أغلق الباب على نفسه، جلس أملاً فى أن يأتى أحدهم ليزعجه. كان يريد لهذا الشخص أن يعرف كم يشعر بالأذى. رغم أنه بارد معها يبدو من غير الإنصاف أن تشعر بالبرود معه بدورها، من غير العدل أن تلعب تنس الطاولة باستمتاع وسعادة هكذا، وتتحرك خارج بابه، ولا تطرق على الباب فتسأل عليه.

هناك ثلاث خصائص مشتركة ضمن خصائص المواد، هى المقاومة للضغط وللتوتر وللتمزيق.

كلما اقتربت خطوات زوجته من باب المعمل يجهز نفسه لقبول ما ستمنحه له من راحة. ثم سمع اللعب ينتهى، وقال لنفسه أن من المؤكد أنها ستعطف عليه الآن. هناك شىء واحد يطلبه منها، الشىء الوحيد...

(شوبنهاور: المرأة تدفع دين الحياة، ليس بما تفعله، بل بما تعانيه، بآلام المخاض ورعاية الأطفال، بالتسليم لزوجها، الذى يجب أن تكون له رفيقة صبورة ومبهجة).

لكن لا إنقاذ متجهًا إليه. من وراء الباب الموصد سمع تراجعها وانسحابها إلى حجرة الغسيل. سمع صوت محول الكهرباء وقد بدأ فى العمل، وجارى يلعب بالقطار تحت مائدة تنس الطاولة.

هناك خصيصة رابعة للمواد، مهمة لصُناع السكة الحديد وقطع غيار الآلات، وهى الصلابة.

بقوة إرادة رهيبة، أشعل ألفريد الضوء وفتح كراسة معمله.

حتى الضجر المتطرف لأقصى حد له حدود رحيمة. على سبيل المثال، فإن مائدة الطعام لها جانب سفلى راح شيبر يستكشفه بأن أراح ذقنه على سطح المائدة ومد ذراعيه تحته. عند أبعد نقطة وصلت إليها يداه أسلاك قوية تؤدى إلى حلقات يمكن جذبها. تقاطعات معقدة من بلوكات وزوايا تعترضها وتتخللها الأسلاك والحلقات، هنا وهناك، وفيها مسامير قوية، وآبار أسطوانية صغيرة وانعطافات لمسار نسيج الخشب حول المسامير، لا يمكن للأصابع المتطفلة أن تقاوم ملامستها. بل والأكثر إثارة هى بقع المخاط التى

تركها منذ لياليه السابقة في هذه المنطقة. للبقع الجافة ملمس ورق الأرز أو أجنحة الذباب. يشعر بالمتعة من تفكيكها وتقشيرها.

كلما أحس شيبر بمملكته الصغيرة تحت المائدة، زاد تردده فى أن ينظر إليها بعينيه. بدافع غريزى يعرف أن الواقع المرئى سيكون مملًا. من شأنه أن يرى مناطق جديدة لم يستكشفها بأصابعه، وسوف ينفض سر المناطق التى لا تصلها يداه، وسوف تفقد حُفر المسامير إثارتها المجردة وسوف يشعر من المخاط بالخزى، وذات مساء، بعد ألا يعود هناك شىء يستكشفه أو يقضى معه وقته، فربما يموت من الملل.

الجهل الاختيارى تقنية عظيمة للبقاء حيًا، ربما هى التقنية الأعظم.

معمل إنيد تحت المطبخ يحتوى على غسالة فوقها عصارة، ومعدات غسيل، ومبيضات ومياه مقطرة ونشا. محرك ضخم من الحديد، وكابل الكهرباء يقبع داخل غلاف من القماش. وتلال من القمصان البيضاء من ثلاثة مقاسات مختلفة.

لتحضير قميص للكى ترش عليه الماء أولاً وتتركه ملفوفًا فى منشفة. عندما يصبح رطبًا تمامًا تكوى الياقة أولاً ثم الأكتاف ثم باقى أجزاء القميص.

أثناء وبعد فترة الكساد تعلمت مهارات كثيرة للحياة. كانت أمها تدير نزلاً فى فناء بين شارع وسط المدينة وشارع الجامعة. كانت إنيد موهوبة فى الحساب، فلم تكتف بغسيل الملاءات وتنظيف المراحيض وتقديم الوجبات، بل أيضًا تعمل على حسابات أمها. مع انتهاء مدرستها الثانوية وانتهاء الحرب، كانت تؤدى حسابات النزل

جميعها، وتقدم الفواتير للضيوف وتخصم الضرائب. بأرباع الدولارات والدولارات التى جنبتها لنفسها - أجور لمجالسة الأطفال، والبقشيش من الصبية الجامعيين وغيرهم من النزلاء لمدد طويلة - بهذه النقود دفعت لنفسها رسوم مدرسة ليلية، وراحت تقترب من الحصول على شهادة فى المحاسبة كانت تأمل ألا تضطر يومًا لاستخدامها. قام بالفعل رجلان فى ثوب رسمى بعرض الزواج عليها، وكل منهما راقص جيد، لكن لا يبدو أن هذا أو ذاك قادران على كسب الدخل، ويبدو من هيئتهما أن حياتهما خطر، يسهل إطلاق النار عليهما. كانت أمها متزوجة من رجل لا يريح دخله بنفسه، ومات صغيرًا. تفادى الزوج من هذا النوع من أولويات إنيد. كانت تعتزم الحصول على حياة مريحة وسعيدة.

جاء إلى النزل بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب مهندس معادن شاب نُقل مؤخرًا إلى سان جود لإدارة مسبك معادن. كان ممتلئ الشفتين، غزير الشعر، صبى مفتول العضلات فى هيئة رجل وفى بدلة رجل. البدلة فى حد ذاتها من الصوف الجميل الفخم. تقوم إنيد مرة أو مرتين كل مساء، وهى تقدم العشاء على المائدة المستديرة الكبيرة فى النزل، بسرقة نظرة إليه فتراه ينظر إليها، فيحمر وجهه. آل من كانساس. بعد شهرين وجد فى نفسه الشجاعة الكافية لأن يدعوها للتزلج. رقصا رقصة الكوكوا وقال لها فيما بعد أن البشر ولدوا ليُعانوا. أخذها إلى حفل الكريسماس الذى تنظمه شركة الفولاذ وقال لها إن الأذكياء مقدر لهم العذاب على يد الأغبياء. بعد ذلك بقليل تمت خطبتهما وأخذا قطار الليل، وقد التزما العفاف، إلى ماكوك فى نبراسكا، لزيارة والديه المسنين. كان لدى والده عبدة متزوج منها.

وهى تنظف حجرة آل فى سان جود عثرت على كتاب قديم عفى عليه الزمن لشوبنهاور، بعض مقاطعه تحتها خطوط. على سبيل المثال: "قيل إن متع هذا العالم تفوق آلامه، أو على كل حال، أن هناك توازنًا بين الأمرين. إذا أراد القارئ أن يختبر صحة هذه العبارة، فليقارن مشاعر حيوانين، أحدهما منخرط فى أكل الآخر".

ما الصحيح بشأن آل لامبرت؟ هناك أشياء يقولها العجائز يقولها عن نفسه، ومظهر شاب هو مظهره. اختارت إنيد أن تصدق وعد مظهره. ثم أصبحت الحياة مسألة انتظار تغير شخصيته.

فيما كانت تنتظر، كانت تكوى عشرين قميصًا فى الأسبوع، بالإضافة إلى ملابسها.

تناور بطرف المكواة المدبب حول الأزرار، تفرد التجعيدات، وتسوى ما يحتاج التسوية.

كانت حياتها لتصبح أسهل لو كانت لا تحبه كثيرًا هكذا، لكن ليس بوسعها أن تقاوم حبه. النظر إليه فى حد ذاته حب له.

كل يوم تعمل على تهذيب الولدين، تقوم سلوكهما، تبيض أخلاقهما، تبث الأناقة فى طريقتهما فى الحياة، وكل يوم تواجه كومة جديدة من الغسيل المجعد القذر.

حتى جارى يصبح فوضويًا أحيانًا. يحب أن يدع القطار اللعبة يمضى إلى منحنى فيقلبه عن مساره، أن يرى كتلة القطار المعدنية السوداء تنقلب فى حسرة وإحباط. ثم إنه يحب وضع البقرات البلاستيكية والسيارات اللعبة على مسار القطار ويهندس لنفسه مآسى صغيرة بالقطار الذى يمر عليها.

إلا أن أكثر شيء يسره، هو سيارة لعبة تتحرك باللاسلكي، كثر الإعلان عنها في التليفزيون مؤخرًا، وأصبحت لدى الجميع. لتفادي الغموض والالتباس اعتزم أن تكون هي البند الوحيد على قائمة أمنيات هدايا الكريسماس التي سيعدها.

لو أحسنت الانتباه سترى من الشارع الضوء يخف في النوافذ مع اقتراب قطار جاري أو مكواة إنيد أو تجارب ألفريد من مراحلها الأخيرة، وقد شارفت على الانتهاء. لكن باقي المنزل يبدو بلا حياة. في بيوت آل مايزنر وآل شومبرت وآل بيرسونس المضاءة، وعند آل رووت، الناس يبدون بوضوح في البيت، عائلات بأكملها مجتمعة حول الموائد، رؤوس صغيرة محنية تؤدي الواجب، شاشات التليفزيون تجمعهم، صغار يحبون، جد أو جدة يتذوقون الشاي باستمتاع. هذه بيوت فيها روح، غير واعية بذاتها.

وجود البشر في البيوت أهم شيء للبيوت. المسألة أكبر من مجرد حقيقة ضخمة: إنها الحقيقة الوحيدة.

الأسرة روح البيت.

العقل اليقظ هو نور البيت.

الروح كالقندس الذي يدفئ حفرته.

الوعي للعقل كالأسرة للبيت.

أرسطو: لنفترض أن العين حيوان - ستكون الرؤية هي روح الحيوان.

لفهم العقل تتخيل نشاطًا منزليًا، غمغمة الحيوات المتصلة على مسارات متباينة، وهج الفرن، تتحدث عن "الحضور" و"الصخب" و"الانشغال"، أو عن "الفراغ" و"الانغلاق" و"الاضطراب".

ربما الضوء الكليل فى بيت فيه ثلاثة أشخاص منعزلين عن بعضهم فى القبو وشخص رابع فى الطابق العلوى، فتى صغير يجلس يحدق فى طبق فيه طعام بارد، ربما كان هذا الضوء الكليل كعقل شخص مكتئب.

كان جارى هو أول من ملّ من القبو. صعد ومر إلى جانب حجرة الطعام قوية الإضاءة، وكأن فيها ضحية عملية تشويه مقرفة، ومضى إلى الطابق الثانى ليغسل أسنانه.

تبعته إنيد بعد قليل ومعها سبعة قمصان بيضاء دافئة. هى بدورها تفادت المضى إلى حجرة الطعام. قالت لنفسها إن كانت المشكلة فى حجرة الطعام هى مسئوليتها، إذن فهى مهملة للغاية فى عدم حلها لها، والأم المحبة لا يمكن أن تكون مهملة هكذا، وهى أم محبة، إذن فلابد أن المسئولية القابعة هناك لا تخصها. فى النهاية سيصعد ألفريد وسيرى كم كان قاسيًا وسوف يشعر بأسف بالغ بالغ، وإذا واتته الجرأة للومها على المشكلة، فسوف تقول: "أنت من قال أن يجلس حتى يأكل طعامه".

بعد أن بدأت تحضر الحمام، وضعت جارى فى الفراش وقالت: "ستبقى دائمًا أسدى الصغير".

"طيب".

"هل أسدى متوحش؟ أهو متوحش؟ الأسد الصغنن المتوحش؟"

لم يجب جارى هذه التساؤلات. قال: "ماما، شيبر ما زال جالس على المائدة، والساعة تسعة تقريبًا".

"الموضوع بين شيبر وبابا".

"ماما؟ هو لا يحب هذا الأكل فعلاً. إنه لا يتظاهر بكرهه له".

"أنا سعيدة أنك تأكل جيدًا".

"ماما، ليس هذا عدلاً".

"حبيبى، هذه مرحلة يمر بها أخوك لا أكثر. لكن لطيف أنك مهتم. مدهش أنك حنون هكذا. كُن حنونًا دائمًا".

ثم هرعت لتوقف تدفق الماء ولتغمر نفسها فى الماء.

فى حجرة نوم باردة فى البيت المجاور، راح تشاك مايزنر يتخيل أن بيا هى إنيد، وكان يلج فيها. ومع اقترابه من القذف انتقل عقله إلى التجارة.

راح يتساءل حول موضوع إيرى بيلت. أن يشترى خمسمائة سهم مباشرة، أو الأفضل إن عرض عليه أحدهم سعرًا خاصًا، أن يشترى مائة إضافية.

كانت حبلى وغيرت مقاس السوتيان، من أ إلى ب ثم إلى ج، خمن تشاك أن المقاس سيصبح ج مع موعد الولادة.

واحدًا وراء آخر، راحت أنوار سان جود تنطفئ.

وإذا كنت جالسًا إلى مائدة عشاء متأخرًا هكذا، بسبب عقاب أو للرفض أو من واقع الضجر لا أكثر، فلا يمكنك أن تكف عن الجلوس هكذا. جزء منك يجلس هناك طيلة حياتك.

وكأن الاتصال المستمر والمباشر للغاية مع مرور الزمن الخام يؤذى الأعصاب بشكل لا رجعة فيه، مثل التحديق طويلاً فى قرص الشمس.

وكأن المعرفة الحميمة بأى دواخل معرفة ضارة بالضرورة، فهى معرفة لا يمكن نسيانها قط.

(كم هو متعب وكم هو مُتعب، ذلك البيت الذى تُعاش فيه الحياة بشكل مفرط).

سمع شيبر أشياء ورأى أشياء فى رأسه فقط وليس خارجه. بعد ثلاث ساعات أصبحت الأشياء المحيطة به خالية من النكهة وكأنها علكة طال وجودها فى الفم. حالاته النفسية قوية بالمقارنة وتغلب على ما يحيطه. الموضوع يحتاج لإرادة قوية، إلى يقظة جديدة، إلى استدعاء كلمة "مفرش الطبق" ثم تطبيق المصطلح على المجال البصرى الذى يرصده بقوة وكثافة هكذا، حتى تنطبق الكلمة على الشىء المقصود بها، أو أن يطبق كلمة "فرن" على تلك الكومة من أنابيب نقل الغاز التى اتخذت طابع حالة مزاجية أو شخص خيالى يتصوره لا أكثر، تجسيد للزمن الردىء. التغيرات والتبدلات الخفيفة فى الإضاءة مع قيام شخص ما بالكى وشخص آخر باللعب وشخص ثالث بإجراء التجارب، والثلاجة مستمرة فى تبريدها بلا توقف، تعمل وتفصل، وهى جزء من الحلم. هذا التبدل، الذى لا تكاد تلاحظه، عذاب، لكنه توقف.

الآن بعد أن لم يعد فى القبو غير ألفريد، أمسك كتلة من الحديدوز بأقطاب جهاز قياس التيار الكهربى.

عالم جديد من دنيا الفلزات، تكوينات جديدة للمعادن فى درجة حرارة الحجرة. المنشود هو مادة يمكن صبها أو تشكيلها لكن بعد المعالجة (ربما بالتيار الكهربائى) تصبح ذات صلابة أعلى وقدرة توصيل ومقاومة قوية. مادة سهلة التشكيل كالبلاستيك وصلبة كالحديد.

لكن المشكلة حاضرة. هناك حرب ثقافية تُشن، وقوى البلاستيك تربح. رأى ألفريد دوارق المربى والجيلى بأغطية بلاستيكية، وسيارات بأسقف بلاستيكية.

للأسف فإن المعدن فى حالته الحرة - وتد معدنى جميل أو شمعدان نحاسى صلب -يعد درجة أعلى من النظام، بينما الطبيعة تفضل العشوائية. مشكلة الصدأ، عشوائية الأشياء الدافئة. حالات انعدام النظام أكثر بكثير وتظهر بشكل تلقائى فى حالة المعادن. طبقًا لقانون الديناميكا الحرارية الثانى، فهناك عمل كثير مطلوب لمقاومة طغيان ما هو مقدر له أن يحدث، لإجبار ذرات المعدن على أن تحترم نفسها.

ألفريد كان واثقًا أن الكهرباء تشابه للغاية طبيعة عمله. التيار الكهربائى يأتى من شبكة، وكأنه اقتراض للنظام من على بُعد. من محطات الكهرباء تتحول قطعة فحم منتظمة إلى غازات دافئة لا نفع منها، ثم يمر تيار من الماء عليها، فى طريقه إلى دلتا ومصب نهر. مثل هذه التضحيات بالنظام تنتج شحنات كهربية مفيدة يدير بها عمله فى البيت.

كان يسعى إلى مادة يمكنها فى النهاية أن تتعامل مع الكهرباء بنفسها. كان يُربى كريستالات من المواد التى لا نفع منها فى حضور تيارات كهربية.

ليس علمًا صعبًا لكن مجهود مضن من التجربة والخطأ، مراحل من التجارب والصدف قد يستفيد منها. هناك زميل له جنى بالفعل أول مليون دولار له من نتائج اكتشاف توصل إليه بالصدفة.

مسألة ألا يضطر يومًا للقلق بشأن النقود، هذا حلم يوازى حلم أن تدفئه امرأة، أن تريحه حقًا، عندما تغلب عليه التعاسة.

حلم التحول الراديكالى أن يصحو من اليوم ذات يوم فيكتشف أنه شخص مختلف تمامًا (ربما أكثر ثقة وأكثر هدوءًا)، أن يهرب من الشخصية المعطاة له، الإحساس بقدرة ربانية.

لديه أنواع عديدة من الصلصال وجيل من أملاح السيليكا. لديه معجون سيليكون. لديه أملاح حديد تؤدى عملها بمهارة فى الذوبان. مواد كيماوية ذات نقاط ذوبان منخفضة، وقطعة من الجاليوم بحجم برقوقة ضخمة.

رئيس قسم الكيماويات فى شركة ميدلاند باسيفيك، الحاصل على دكتوراه من سويسرا، يعمل بدأب على تجارب لقياس لزوجة زيت الموتور وصلابة المواد، فيمد ألفريد دائمًا بالمواد التى يحتاجها. كان المشرفون فى الشركة يعرفون بهذا الموضوع، فما كان ألفريد ليخاطر مطلقًا بأن يكتشف أحد أنه يفعل شيئًا فى الخفاء، ومن المفهوم بشكل غير رسمى أنه إذا توصل إلى براءة اختراع، فسوف يكون للشركة نصيب من أى عوائد.

الليلة ثمة شىء غير طبيعى يحدث فى جيل الحديدوز الحمضى. خواص التوصيل فيه تتباين بشدة، بناء على أين يضع أقطاب جهاز قياس التيار الكهربى. فكر أن أقطاب الجهاز ربما متسخة، فتحول إلى إبرة رفيعة وخز بها الجيل. وجد قراءة خواص التوصيل صفر. ثم وضع الجيل فى موضع آخر فوجد قراءة عالية.

ماذا يحدث؟

السؤال يمتصه ويريحه، حتى بلغت الساعة العاشرة. أطفأ مصباح إضاءة الميكروسكوب وكتب فى كراسته: كرومات أزرق ٢٪ موضوع مدهش جدًا جدًا.

لحظة أن خرج من المعمل نال منه التعب تمامًا. راح يجاهد ليضع القفل فى الباب، وقد أصبحت أصابعه فجأة ثقيلة وغبية. لديه طاقة لا تنتهى للعمل، لكن ما إن ينتهى حتى يشعر بأنه غير قادر على الوقوف حتى.

إحساسه بالتعب كان عميقًا عندما صعد للطابق العلوى. المطبخ وحجرة الطعام مشتعلتان بالضوء، وهناك صبى صغير منكب على مائدة الطعام، وجهه على مفرش الطبق. المشهد خطأ للغاية، مثير للرغبة فى الانتقام، لدرجة أن ألفريد أحس للحظة صدقًا بأن الصبى على المائدة هو شبح لطفولته هو شخصيًا.

راح يبحث بأصابعه عن مفتاح النور وكأن النور غاز سام عليه أن يوقف تدفقه.

فى الإضاءة الخافتة الأقل خطورة أخذ الصبى فى يده وصعد به للطابق الثانى. كانت نقشة مفرش الطبق محفورة على خد الولد. كان يغمغم كلامًا غير مفهوم. كان نصف يقظًا لكنه يقاوم الوعى الكامل، ورأسه مدلى للأسفل بينما ألفريد ينزع عنه ثيابه ويُخرج له البيجاما من الدولاب.

ما إن أصبح الولد فى السرير، فى وضع يسمح بأن توضع على خده قبلة، وقد غرق فى النوم تمامًا، مر كم لا يمكن تخمينه من الزمن بين رجلى الكرسى المجاور للسرير، الذى جلس عليه ألفريد لا يعى إلا بالتعاسة بين صدغيه. تعبه يؤلمه لدرجة أنه أبقاه يقظًا.

أو ربما نام، إذ نهض فجأة وهو يشعر بشىء من الانتعاش. غادر حجرة شيبر ومضى ليرى حال جارى.

بعد أن تجاوز باب حجرة جارى مباشرة، التى تفوح منها رائحة صمغ قوية، وجد أمامه نموذج لسجن مصنوع من عصى المصاصات. لا علاقة للسجن بدار التهذيب والإصلاح التى تخيلها ألفريد. كان مربعًا فجًا لا سقف له.

وهنا، ها هى أكبر حجرة فى السجن. داخل هذه العقدة من الصمغ المختلط بعصى المصاصات، ما هذا؟ مقعد عروسة؟ مقعد لعبة صغير؟

كرسى الإعدام بالكهرباء.

فى حالة الإرهاق التامة التى يعانى منها ألفريد مال على النموذج وراح يفحص المقعد. وجد نفسه يشعر بفرحة تصميم الكرسى، برغبة جارى فى عمل شىء يلتمس به استحسان والده، والمزعج أكثر استحالة الربط بين هذا الشىء المبتذل والصورة الذهنية الدقيقة للمقعد الكهربائى الذى شكله على مائدة العشاء. مثل امرأة لا عقلانية فى حلم هى إنيد وليست بإنيد، كان المقعد الذى تخيله مقعدًا كهربائيًا كاملاً ومصنوعًا بالكامل من عصى المصاصات. خطر له بقوة شديدة، أقوى من أى وقت، أن ربما كل شىء "حقيقى" فى العالم هو نموذج فج فى الحقيقة من حيث الجوهر، مثل هذا المقعد الكهربائى. ربما عقله الآن يفعل بالأرض الصلبة التى مال عليها ما فعله قبل ساعات بالمقعد الذى لم يره. ربما الأرض أصبحت أرضًا حقًا فى عقله فقط بعد أن تصورها. طبيعة الأرض إلى حد ما لا يمكن الجدال فيها بالطبع، فالخشب

موجود حقًا وله خصائص قابلة للقياس. لكن هناك أرضية ثانية، أرضية يراها فى عقله وأحس بالقلق من أن "الواقعية" التى يتصورها للأرض ليست فى الواقع هى الأرض نفسها فى حجرة نوم حقيقية، بل واقعية أرضية فى عقله يتصورها ولا تزيد إذن على خيالات إنيد السخيفة من حيث الجدية.

الشك فى أن كل شىء نسبى. أن "الحقيقى" و"الأصيل" ربما ليس مقدرًا حقًا بل خيالى من البداية. أن إحساسه بالصلاح والاستقامة، بتبنى ما هو حقيقى بكل تفرد، هو مجرد إحساس. هناك بواعث الريبة التى تنصب له الكمائن فى حجرات الفنادق. هذه بواعث رعب عميق تحت الأسرّة النجسة.

وإذا رفض العالم أن يتطابق مع تصوره للواقع، فهو ولابد إذن عالم لا يراعى أحدًا، عالم مرير مريض، هو إذن سجنٍ للتهذيب والإصلاح، وهو مقدر له أن يبقى فيه وحيدًا.

أمال رأسه موافقًا على فكرة طرأت عليه، أن كم هى ضخمة القوة التى يحتاجها الرجل حتى ينجو من حياة كاملة وحيدة منعزلة هكذا.

أعاد المقعد الكهربائى المثير للرثاء، غير المتوازن، إلى أرضية حجرة السجن الأكبر. ما إن ترك الكرسى يغادر أصابعه، حتى سقط على جانبه. صور تكسير السجن إلى قطع صغيرة مرت فى عقله، وصور تنانير مرفوعة وسراويل نسائية مقطعة، صور سوتيانات مقطعة وأرداف متباعدة، لكن الصور انتهت إلى لا شىء.

كان جارى نائمًا فى صمت تام، كما تفعل أمه. لا أمل فى أنه نسى وعد والده الضمنى بأن يفحص السجن بعد العشاء. جارى لا ينسى أى شىء مطلقًا.

لكننى أبذل قصارى جهدى، كذا خطر لألفريد.

وهو عائد إلى حجرة الطعام لاحظ التغير فى طبق طعام شيبر. الأطراف البنية للكبدة خُلعت وأُكلت كلها. هناك دليل كذلك على أنه قد تم ابتلاع اللفت الأصفر، وهناك بعض قطع الخضراوات قُطعت، وأوراق خضراء نُزعت منها وأُكلت. يبدو أن شيبر تناول قضمة واحدة من كل صنف، حسب الاتفاق، ولابد أن هذا قد حدث بتكلفة باهظة، وتم وضعه فى السرير دون أن يتناول الحلوى التى ربحها بعرقه.

ذات صباح فى شهر نوفمبر، قبل خمس وثلاثين عامًا، عثر ألفريد على قدم ابن آوى دامية فى فخ حديدى، دليل على ساعات من اليأس والعذاب فى الليلة الماضية.

أحس بالألم يحتشد ويتصاعد بقوة لدرجة أنه أحال نفسه إلى فلسفته حتى لا يتحول الألم إلى دموع.

(شوبنهاور: هناك تفسير واحد قد يفسر معاناة الحيوانات: أن إرادة الحياة التى تكمن تحت عالم الظواهر أجمع، لابد أنها فيما يخص الحيوانات، ترضى نزعاتها بأن تتغذى على نفسها).

أطفأ أنوار الطابق السفلى الأخيرة، وذهب إلى الحمام، ثم ارتدى بيجاما نظيفة. اضطر لفتح حقيبته لإخراج فرشاة أسنانه منها.

تقدم من السرير، متحف المواصلات القديمة، إلى جوار إنيد، وقد مال قدر إمكانه إلى الطرف البعيد عنها. كانت نائمة بطريقة اصطناع النوم خاصتها. نظر مرة واحدة إلى المنبه، إلى الفسفور

المتوهج فى عقربيه، فوجد الساعة أقرب إلى الثانية عشرة من الحادية عشرة، ثم أغمض عينيه.

جاءه السؤال بصوت كساعة الظُهر: "فيم كنت تتحدث مع تشاك؟"

تضاعف إحساسه بالإجهاد. بعينيه المغمضتين رأى الأقطاب وإبرة جهاز قياس الكهرباء المرتعشة.

قالت إنيد: "سمعت كلامًا عن إيرى بيلت. هل يعرف تشاك هذا الموضوع؟ هل أخبرته؟"

"إنيد، أنا متعب جدًا".

"أنا مندهشة، لا أكثر".

"كانت حادثة وأنا نادم على ما قلته".

قالت إنيد: "من المدهش أن من المسموح لتشاك بالاستثمار فى موضوع ليس مسموحًا لنا به".

"إذا اختار تشاك أن يستفيد بشكل غير عادل من مستثمرين آخرين، فهذا شأنه".

"سوف يسر الكثير من أصحاب أسهم إيرى بيلت بالحصول على سعر خمسة وثلاثة أرباع دولار غدًا مقابل السهم. ما هو غير العادل فى الموضوع؟"

أحس بكلماتها حجة تتدرب عليها منذ ساعات، مظلمة تعلن عنها فى الظلام.

قال ألفريد: "هذه الأسهم سيصبح ثمنها تسعة ونصف دولارات للسهم بعد ثلاثة أسابيع من الآن. أعرف هذا وأغلب الناس لا يعرفون. هذا ليس عدلاً".

قالت إنيد: "أنت أذكى من الناس الآخرين، وكان أداؤك فى المدرسة أفضل وأنت الآن فى وظيفة أفضل. ليس هذا عدلاً أيضًا، صحيح؟ أليس الأفضل أن تجعل نفسك غبيًا حتى تصبح عادلاً تمامًا؟"

أن يمضغ المرء قدمه ليس عملاً سهلا أو من الممكن التوقف أثناء أدائه. عند أى نقطة وبأية طريقة اتخذ ابن آوى قرارًا أن يعض بأسنانه فى لحمه؟ المفترض أنه قد مرت فى البداية فترة من الانتظار والتفكير. لكن متى؟

قال ألفريد: "لن أجادلك. لكن بما أنك مستيقظة، أريد أن أعرف لماذا لم تضعى شيب فى السرير".

"أنت من قال..."

"صعدت قبلى بفترة طويلة. لم أكن أقصد أن يجلس هكذا خمس ساعات. أنت تستخدمينه ضدى، ولا يهمنى هذا بالمرة. كان من الواجب أخذه إلى الفراش فى الثامنة".

اضطربت إنيد بسبب غلطتها.

قال ألفريد: "هل يمكن أن نتفق ألا يحدث هذا ثانية؟"

"ممكن".

"طيب، هيا ننام".

عندما يصبح الظلام ثقيلا ثقيلاً فى البيت، ترى الطفلة غير المولودة بنفس قدرة إبصار الآخرين. لها أذنان وعينان، وأصابع وفص أمامى للمخ ومخيخ، وهى تسبح فى مكان مركزى. كانت قد عرفت بالفعل مواطن الاشتياق الأساسية. يوم بعد يوم تتجول الأم فى البيت فى حومة من الرغبة والذنب، والآن فإن موضوع رغبة الأم راقد على مسافة ثلاثة أقدام منها. كل شىء فى الأم مستعد للذوبان والسكينة ما إن تصلها ملامسة محبة على أى مكان فى جسدها.

هناك الكثير من التنفس. الكثير من التنفس لكن لا ملامسة.

النوم صعب على ألفريد. كل شهقة من إنيد تخترق أذنه فى اللحظة التى تستعد فيها أعصابه للاسترخاء والنوم.

بعد فترة قدر أنها دامت عشرين دقيقة، بدأ السرير يهتز بالبكاء الذى لم تقدر على التحكم فيه.

كسر صمته فى صوت كالعويل: "ما الموضوع الآن؟"

"لا شىء".

"إنيد، الوقت تأخر جدًا جدًا، والمنبه مضبوط على السادسة، وأنا مرهق حتى العظام".

بكت كالعاصفة: "لم تقبلنى قبلة الوداع قبل أن تغادر!"

"أعرف هذا".

"أليس لى حق؟ زوج يترك زوجته وحدها فى البيت لأسبوعين؟"

"هذا موضوع بسيط. وبصراحة تحملت ما هو أسوأ مما تحملته أنت بكثير".

"ثم يعود للبيت ولا يقول لها أهلاً حتى؟ يهاجمنى فحسب؟"

"إنيد، مررت بأسبوع فظيع".

"ويقوم من على مائدة العشاء بعد انتهاء العشاء؟"

"أسبوع فظيع وأنا متعب جدًا.."

"ويحبس نفسه فى القبو خمس ساعات؟ رغم أنه المفترض به أنه متعب جدًا؟"

"لو كنت مررت بالأسبوع الذى مررت به.."

"أنت لم تقبلنى قبلة الوداع".

"اكبرى! بريك اكبرى!"

"أخفض صوتك!"

(اخفض صوتك وإلا سمعت الطفلة).

(بالطبع سمعت وتمتص منهما كل كلمة تقال).

سألها ألفريد هامسًا: "هل تعتقدين أننى كنت فى رحلة بحرية ممتعة؟ كل ما أفعله فهو لك وللأولاد. مر أسبوعان لم أقض فيهما لحظة مع نفسى. أعتقد أن من حقى قضاء خمس ساعات فى المعمل. لن تفهمى، ولن تصدقينى إن فهمت، لكننى اكتشفت شيئًا بالغ الأهمية".

قالت إنيد: "آه، بالغ الأهمية"، ليست المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام.

"إنه بالغ الأهمية فعلا".

"اكتشاف له تطبيقات تجارية؟"

"لا أحد يعرف. انظرى ماذا حدث لجاك كالاهان. قد ينتهى الموضوع بالحصول على نقود تكفى لتعليم الأولاد".

"حسبتك قلت إن اكتشاف جاك كالاهان كان صدفة".

"يا ربى، ماذا تقولين؟ تقولين أننى سلبى، لكن عندما يكون الموضوع عمل يهمنى، فمن السلبى؟"

"أنا لا أفهم لماذا لا تفكر حتى فى..."

"كفى".

"إذا كان الهدف هو كسب النقود".

"كفى، كفى! لا يهمنى إطلاقًا ما يفعله الآخرون. أنا لست من هذا النوع من الناس".

مرتان فى الكنيسة يوم الأحد الماضى، التفتت إنيد إلى الوراء لتجد تشاك مايزنر يحدق فيها. كانت ممتلئة قليلاً يومها أكثر من المعتاد، ربما هذا كل شىء. لكن تشاك احمرّت وجنتاه فى المرتين.

قالت: "لماذا أنت بارد هكذا معى؟"

قال ألفريد: "هناك أسباب، لكن لن أخبرك".

"لماذا أنت تعيس؟ لماذا لا تخبرنى؟"

"سوف أذهب إلى قبرى قبل أن أخبرك، إلى قبرى".

"آه، آه، آه!"

هذا زوج ردىء، وهو حظها، زوج ردىء ردىء ردىء لم يمنحها يومًا ما تحتاجه. أى شىء قد يسعدها يجد سببًا لمنعه عنها.

وهكذا رقدت، إلى جوار وهم خامل بالمتعة. أقل إصبع على أى مكان كان سيكفى. دعك من الشفاه. لكن لا نفع منه. هو ليس أكثر من كومة نقود تحت المرتبة. هناك اكتئاب أصيب به من كنساس أقعده كما أقعد أمها، التى لم تكن تفهم أن الحسابات البنكية ذات الفوائد أصبحت مؤمن عليها فيدراليًا الآن، أو أن الأسهم التى يتم الاستثمار فيها لفترة طويلة قد تساعدها عندما تطعن فى السن. كان مستثمرًا سيئًا.

لكنها ليست مثله. كانت معروفة مثلاً - عندما تصبح الحجرة مظلمة للغاية - بأن تخاطر بأمر أو اثنين، وقد خاطرت بأمر ما الآن. تدحرجت مقتربة منه ولامست فخذه بثديين أعجب بهما الجار. أراحت وجنتها على ضلوع زوجها. كانت تشعر به ينتظر منها أن تبتعد عنه، لكنها أولاً اضطرت لمداعبة بطنه قوية العضلات، تلامس بطرف أصابعها شعر بطنه وليس الجلد. لدهشتها أحست به يعود إلى الحياة مع ملامسة أصابعها. حاول بخصره تفاديها لكن الأصابع خدرته. تشعر برجولته تصعد وتطفو إلى السطح من تحت بنطلون البيجاما، وفى حالة من الجوع والاشتياق الشديد فعلت شيئًا لم يسمح لها بفعله من قبل. مالت إلى الجانب وأخذته فى فمها. ذلك الشىء، الولد الذى يكبر سريعًا، التسرب البولى الخفيف. بمهارة يديها وانتفاخ ثدييها أحست بأنها مرغوبة وقادرة على أى شىء.

اهتز الرجل تحتها مقاومًا. أبعدت فمها للحظة: "آل؟ حبيبى؟"

"إنيد، ماذا تفعل..؟"

مرة أخرى مال فمها المفتوح عليه. توقفت دون حركة للحظة، لوقت كافى للشعور باللحم يتصلب، ينبض نبضة وراء نبضة داخل

فمها. ثم رفعت رأسها: "ممكن أن نحصل على بعض النقود الإضافية من البنك، ما رأيك؟ نأخذ الأولاد إلى ديزنى لاند، ما رأيك؟"

عادت مرة أخرى. اللسان والقضيب يقتربان من التوصل لتفاهم معين، ومذاقه مثل داخل فمها الآن. الموضوع كالأعمال المنزلية النهارية، بكل معنى للكلمة. ربما ركلها دون أن يقصد بشكل غير طوعى فى ضلوعها، فتحركت. ما زالت تشعر بأنها مرغوبة. ملأت فمها وطرف حلقها من الداخل، خرجت لاستنشاق الهواء ثم قضمة أخرى كبيرة.

همست: "نستثمر ألفين حتى، آى!"

عاد ألفريد إلى رشده وأجبر الشيطانة على الابتعاد عنه.

(شوبنهاور: من يجنون النقود هم الرجال وليس النساء، ومن هذه الحقيقة نتيجة مفادها أنه لا يوجد مبرر لحيازة النساء للنقود بشكل غير مشروط، ولا يليق بأى إنسان أن يأتمن امرأة على إدارة النقود).

مالت عليه الشيطانة مرة أخرى لكنه أمسك بمعصمها وبيده الأخرى رفع قميص نومها.

ربما مُتع الرقص، مثل القفز بالباراشوت والغطس تحت الماء، هى متع تعود إلى زمن كان الرحم يحميك فيها من مشاكل الجاذبية. من زمن خال من المهارات الميكانيكية، وأنت ما زلت بعد فى بحر داخلى دافئ.

إلا أن هذه اللعبة مخيفة، هذه اللعبة تأتى مصحوبة بدفقات قوية من أدرينالين الأم المتدفق فى العروق، وكأن الأم فى مأزق ما.

"آل، لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة، لا أعتقد أن..."

"الكتاب يقول أن لا مشكلة فى هذا."

"لست مرتاحة لهذا الموضوع. آه. آل؟"

كان رجلاً فى جماع جنسى مشروع مع زوجته المشروعة.

"آل، ربما لا، أعتقد..."

يكافح صورة المراهق المشتاق. كل الفروج والأثداء والمؤخرات التى قد يريد الرجل مضاجعتها، يكافح تلك الصور رغم أن الحجرة مظلمة للغاية وفى الظلام هناك أمور كثيرة مسموح بها.

إنيد تنتحب فى هدوء: "أنا لست سعيدة بهذا الموضوع!"

الأسوأ هى صورة الفتاة الصغيرة داخلها، فتاة ليست أكبر من حشرة ضخمة، وتشهد على هذا الضرر. تشهد على ذلك المُخ المنتفخ الصغير الذى يدخل ويخرج، ثم ارتعاشة سريعة لم يسبقها ما يكفى من التحذير، تبصق شبكات قلوية سميكة من المخاط داخل حجرتها. لم تولد بعد وها هى مغمورة وغارقة بالمعرفة اللزجة.

رقد ألفريد يلتقط أنفاسه نادمًا على تلويث الطفلة. الطفل الأخير فرصة أخيرة للتعلم من الأخطاء وإجراء التصحيحات، وكان عاقد العزم على انتهاز هذه الفرصة. من يوم ولادتها سوف يعاملها برفق أكثر مما عامل جارى أو شيبر. سوف يرخى لها القواعد والقوانين، ويدلعها بوضوح، بل ولن يجبرها أبدًا على الجلوس إلى المائدة بعد نهوض الجميع.

لكنه قذف نجاسة عليها وهى لا حيلة لها. شهدت على مشاهد الزواج هذه، ومن ثم طبعًا فعندما كبرت خانته.

ما يجعل التصحيحات ممكنة هو أيضًا مبعث هلاكها.

المجس الحساس الذى وصل إلى أقصى قراءة له، فاشتعلت اللمبة الحمراء، أصبحت قراءته الآن صفر. ابتعدت فأصبح كتفه لصق زوجته. تحت سحر الغريزة الجنسية (هكذا أسماها أرثر شوبنهاور) فقد البصيرة، ولم يدرك كيف أن عليه بعد فترة قصيرة لدرجة قاسية، أن ينهض ليحلق ذقنه ويلحق القطار، لكن الآن الغريزة أفرغت شحنتها وأصبح ما تبقى من الليل القصير جاثمًا على صدره كالقطار، وإنيد بدأت تبكى مرة أخرى، كما تبكى الزوجات فى الساعة المتأخرة من الليل فى الأيام التى لا يمكن فيها تأخير لحظة رنين المنبه. قبل أعوام، عندما تزوجا، كانت تبكى أحيانًا فى ساعات الفجر، لكن ألفريد كان يشعر بالامتنان للمتعة التى يسرقها، والطعن الذى تحملته منه لدرجة أنه لم يفته أن يسألها مرة واحدة لماذا تبكى.

الليلة لم يشعر بالامتنان ولا بأقل درجة من الالتزام بسؤالها. أحس بالنعاس.

لماذا تختار الزوجات البكاء ليلاً؟ البكاء فى الليل لا بأس به إطلاقًا إن لم تكن مضطرًا للحاق بقطار للذهاب للعمل بعد أربع ساعات، وإن لم تكن قبل لحظات، قد ارتكبت عملا نجسًا لإرضاء نفسك، ثم أصبحت الآن لا تعرف إطلاقًا ما أهمية هذا العمل.

ربما هذه هى الوصفة المطلوبة للتوصل للنتيجة التالية: عشر ليالٍ فى فنادق رديئة إثر أمسيات مفعمة بالمشاعر المهيجة وأخيرًا أن تهرع خارج البيت وتضع رصاصة فى حلقك إثر ضوضاء بكاء وعويل زوجة تحاول أن تبكى لتنام فى الثانية صباحًا، حتى تكتشف

أن: (أ) النوم أنثى (ب) إراحة هذه الأنثى له ليس عليه أى التزام برفضها.

كرجل كافح طيلة حياته ضد النوم نهارًا بعيدًا عن نوم الليل المنهج، كما يكافح كل المتع غير الصحية، فقد رأى أن هذا الاكتشاف من شأنه تغيير مجرى حياته، ليس أقل قيمة من اكتشافه قبل ساعات لموضوع المعادن والكهرباء والحديدوز. سوف تمر أكثر من ثلاثين عامًا قبل أن يصبح لاكتشاف القبو قيمة مالية.. إلا أن اكتشاف حجرة النوم جعل الوجود فى بيت آل لامبرت مقبولاً ويمكن تحمله على الفور.

ران على البيت سلام "نومى". حبيبة ألفريد الجديدة روضت ذلك الوحش داخله. كم أصبح من الأسهل، بدلاً من الغضب والسخط، أن يغمض عينيه بكل بساطة. سرعان ما فهم الجميع أن لديه حبيبة خفية يداعبها فى حجرة المعيشة بعد ظهر السبت عندما ينتهى أسبوع عمله فى ميدلاند باسيفيك، عشيقة يأخذها معه فى كل رحلة عمل ويسقط بين ذراعيها فى الأسرّة التى لم يعد يراها غير مريحة فى حجرات الفنادق التى لم يعد يراها مليئة بالضوضاء، عشيقة لم يفشل يومًا فى زيارتها على مدار أعمال المساء المكتبية، عشيقة يشاركها وسادة السفر الصغيرة بعد الغداء فى رحلات الأسرة الصيفية بينما إنيد تقود السيارة والأولاد فى المقعد الخلفى مجبرون على الصمت. النوم هو الفتاة المثالية المتسقة مع العمل، تلك التى كان يجب أن يتزوجها. مطيعة وهادئة تمامًا، متسامحة لأقصى حد، ومحترمة جدًا لدرجة أنه قادر على أن يأخذها معه إلى الكنيسة وإلى حفل العزف السيمفونى فى مسرح سان جود. لا تبتليه أبدًا بالأرق بدموعها، ولا تطلب شيئًا

وفى المقابل وبلا أى شىء تأخذه تعطيه كل شىء يحتاجه بعد يوم طويل من العمل. لا توجد مشاكل فى علاقتهما، ولا تعقيدات رومانسية، ولا تسريبات ولا إفرازات ولا إحساس بالخزى. يمكنه أن يخون إنيد وفى سرير إنيد دون أن يعطيها دليلاً قانونيًا واحدًا على خيانته، وهكذا فطالما استمرت العلاقة بينهما لا تصل إلى درجة النوم فى حفلات العشاء فإنيد تتحمل العلاقة، كما تتحمل الزوجات المراعيات للأزواج ذلك الموضوع دائمًا، ومن ثم استمرت هذه الخيانة لعشرات السنين، تمر السنوات ولا يبدو أن هناك من يعرف بوجودها...

***

"بسسس! أنت يا حمار!"

نهض ألفريد من النوم مفزوعًا على اهتزاز سفينة "جانر ميردال" الخفيف البطىء. هناك شخص آخر معه فى الحجرة؟

"يا حمار!"

سأل فى تحدى وفى خوف: "من هناك؟"

البطانيات الإسكندنافية الخفيفة سقطت عنه وهو ينهض يحدق فى الظلام الخفيف، يحاول أن يسمع الأصوات خارج حدود نفسه. المصابون بصمم جزئى يعرفون الترددات التى تدوى داخل رؤوسهم. يعرف هذا التردد بمختلف درجاته منذ ثلاثين عامًا، له سمات الأشياء الأبدية اللامحدودة. هو حقيقى كنبضة قلب لكن لا يعادل أى شىء حقيقى خارج ذاته. صوت لا ينبعث من أى شىء.

تحته ترددات أخرى أخف وأكثر هيامًا. أصوات صخب كصخب السيرك ذات ترددات عالية للغاية داخل مجال الستراتوسفير

العميق وراء أذنيه، ونغمات ذات حفيف كحفيف الأشباح، وكأنها من مكان بعيد، ونغمات متوسطة الطول الموجى كأصوات الصراصير وسط جمجمته. صوت مستمر خفيض كهدير محرك ديزل يغمر كل شيء، صوت لم يصدق يومًا أنه حقيقى، بمعنى أنه غير حقيقى، حتى تقاعد من ميدلاند باسيفيك وكف عن التعامل مع القاطرات. هذه أصوات عقله، يستمع إليها عقله، وهو يعرفها جيدًا وبينهم مودة.

خارج ذاته كان يسمع أصوات، فسس، فسس، صوت يدين تتحركان تحت ملاءة.

ثم تدفق الماء الغامض من حوله، فى شرايين جانر ميردال السرية.

وهناك شىء ما يسير متسكعًا فى المسافة المريبة تحت أفق سريره.

وعقارب المنبه تحدث صوتًا مع كل حركة لعقرب الثوانى. كان الوقت الثالثة صباحًا وعشيقته هجرته. الآن، عندما يحتاج متعها أكثر من أى وقت، خرجت تدعر مع النائمين الشبان. منذ ثلاثين عامًا وهى ملتزمة بعلاقتها به، تفتح له ذراعيها وتفتح له ساقيها كل ليلة فى العاشرة والربع. هى الزاوية المنعزلة التى يشتهيها، الرحم. ما زال قادرًا على العثور عليها فى العصارى أو ساعات المساء الأولى، لكن ليس فى السرير ليلاً. ما إن يرقد يبحث عنها فى الملاءات وأحيانًا وبعد ساعات قليلة يجد شيئًا منها يمسكه. لكن دائمًا فى الواحدة أو الثانية أو الثالثة تختفى دون أن تتظاهر إطلاقًا بأنها تخصه.

حدق فى خوف عبر السجادة البرتقالية بلون الصدأ إلى خطوط فراش إنيد المؤطر بالخشب الإسكندنافى الأشقر. يبدو أن إنيد ميتة.

المياه المتدفقة فى مليون أنبوب.

والارتعاشة، وهو عنده فكرة عن الارتعاشة. أنها تأتى من المحركات، أنك عندما تشيد سفينة رحلات تغطى على كل صوت ينبعث من المحركات، صوت وراء صوت، حتى ترددات الأصوات الخافتة والأقل منها، لكن لا يمكنك أن تخبئ كل ترددات الصوت حتى المستوى صفر. يبقى لك تردد بمقدار اثنين هرتز، هو اهتزاز، الفتات التى لا يمكن القضاء عليها وفتات صمت مفروض فرضًا على شىء ما قوى.

حيوان صغير، فأر، يجرى فى ظلال قوائم سرير إنيد. للحظة بدا لألفريد أن الأرض بأكملها عبارة عن قوارض وسحالى صغيرة تجرى. ثم قررت الفئران الكثيرة أن تتحول إلى فأر واحد صريح، فأر فظيع، يخلف كرات يمكن أن تطأها القدم من الخراء، محب للتبول بلا مراعاة لأحد.

"يا حمار، يا حمار!" الزائر يعذبه، يخرج من الظلام إلى غسق المنطقة المجاورة للسرير.

بكل أسف وحسرة أدرك ألفريد من هو الزائر. فى البداية رأى الخط الخارجى للإفرازات ثم شم رائحة التحلل البكتيرى. ليس هذا فأرًا، إنه كومة خراء.

كومة الخراء قالت: "عندك مشاكل تبول الآن، ها ها!"

إنها كومة خراء سيكوباتية، قطعة خراء مارقة. قدمت نفسها لألفريد فى الليلة السابقة وأزعجته وأثارت استياءه لدرجة أن شيئًا لم ينقذ ليلته غير سرعة إنيد الضوئية وملامستها المتعاطفة لكتفه.

قال ألفريد فى تصميم: "ارحلى!"

لكن كومة الخراء جرت على امتداد السرير الإسكندنافى النظيف واضجعت مرتاحة كقطعة جبن على الأغطية: "لا يمكن يا صديقى".. ثم تحللت، متحولة حرفيًا إلى سيمفونية من أصوات الفساء المضحكة.

أن يخاف من مصادفة كومة خراء على وسادته هو استدعاء لكومة الخراء إلى الوسادة، حيث تتراقص فى أوضاع تعبر عن الصحة والقوة.

قال ألفريد وهو يضع مرفقه على السجادة بعد أن هبط بجذعه من السرير أولاً: "ابتعدى، ابتعدى".

قالت كومة الخراء: "ليس الآن يا حلو. أولًا سأدخل إلى ملابسك".

"لا!"

"بالطبع سأفعل يا صديقى. سأدخل إلى ملابسك وسألامس التجيد. سوف أصنع بقعة وأترك لى ذيلًا. وستكون رائحتى مقرفة جدًا".

"لماذا؟ لماذا تفعلين شيئًا كهذا؟"

قالت كومة الخراء بلا خجل: "لأنى أحب هذا. هكذا أنا. هل أفضل راحة غيرى على راحتى؟ هل أقفز فى مرحاض لأراعى مشاعر غيرى؟ هذا ما تفعله أنت يا صاحبى".

"لابد أن يراعى الناس مشاعر الآخرين".

"لابد أن تكون المشاعر أقل. أنا عن نفسى أعارض كل القيود. إذا أحسست بالموضوع فدعه يحدث. إذا أردت شيئًا فخذه. على الرجل أن يعلى مصالحه أولاً".

قال ألفريد: "الحضارة تقوم على ضبط النفس".

"الحضارة؟ موضوع مبالغ فيه. أسألك ما الذى فعلته من أجلى؟ شددت علىّ السيفون فهبطت فى المرحاض! عاملتنى كالخراء!".

"لكنك أنت فعلاً خراء!" ألفريد يتوسل، أملًا فى أن يكون عند كومة الخراء شىء من المنطق.. "ولهذا صُنع المرحاض".

"على من تقول خراء يا حمار؟ لى نفس حقوق كل الآخرين، أليس كذلك؟ الحياة، الحرية، التماس السعادة الفرجية؟ هذا الكلام مذكور فى الدستور يا جحش".

قال ألفريد: "ليس هذا صحيحًا، أنت تتكلمين عن إعلان الاستقلال".

"ورقة صفراء قديمة فى مكان ما، فيم أهتم بخراء الفئران هذا؟ إن كانت دستورًا أو إعلانًا؟ المتزمتون من أمثالك يصححون كل كلمة تخرج من فمى منذ كنت بهذا الحجم. أنت وجميع المدرسين الفاشيين والضباط النازيين. بالنسبة لى فلا تزيد أهمية هذه الكلمات على كلام مطبوع على ورق تواليت وسخ. أقول أن هذا بلد حر، وأنا ضمن الأغلبية، وأنت يا صاحبى أقلية، يبقى طظ فيك".

لكومة الخراء أسلوب معين فى الكلام، نغمة صوت معينة، وجد ألفريد الأسلوب مألوفًا له لكن لم يتوصل لحقيقته بعد. بدأت تتدحرج وتتحرك على وسادته، تنثر خيطًا أخضر براقًا فيه كومات

صغيرة وألياف، تترك مساحات بيضاء وفراغات حيث نسيج الوسادة ناتئ. ألفريد على الأرض إلى جوار السرير، أمسك بأصابعه أنفه لتخفيف آثار الرائحة والرعب.

ثم صعدت كومة الخراء فى بنطلون بيجامته. أحس بأقدامها المداعبة كأقدام الفأر.

"إنيد!" ناداها بكل ما أوتى من قوة.

كومة الخراء فى مكان ما فى الجزء العلوى من فخذيه. تجاهد لثنى ساقيه المتصلبتين لتضع أصابعها الرخوة على خصره، أنزل بنطلون البيجاما لمحاصرة كومة الخراء داخل القماش. فجأة فهم أن كومة الخراء مجرم مُدان هارب، قطعة من النبذ البشرى مكانها السجن. لهذا خُلق السجن: للناس الذين يعتقدون أنهم وليس المجتمع، من يصنعون القواعد. وإذا لم يردعهم السجن، فهم يستحقون الموت! الموت! يستحلب القوة من غضبه.. نجح ألفريد فى إخراج بنطلون البيجاما من قدميه، وبذراعين مرتعشين صارع الكرة حتى سقطت على السجادة، ضربها بساعديه، ثم وضعها بقوة عميقاً بين المرتبة الإسكندنافية والمُلل الإسكندنافية.

مال إلى الأمام، ملتقطًا أنفاسه، وكان يرتدى الجزء العلوى من البيجاما وحفاظة للكبار.

استمرت إنيد فى النوم. هناك شىء يذكره بالحكايات الخرافية المكتوبة للأطفال فى سلوكها الليلة.

"هففف!" كومة الخراء تتنهد. عاودت الظهور على الحائط فوق سرير ألفريد معلقة فى وضع خطر قد تسقط فى أى وقت، إلى جوار لوحة لشاطئ أوسلو.

قال ألفريد: "الله يلعنك! أنت مكانك السجن!"

كومة الخراء تضحك بقوة وهى تنزلق ببطء على الجدار، ممصاتها تهدد بالسقوط على أغطية السرير. قالت: "يبدو لى أنكم يا معشر الحابسين للخراء داخلكم، تريدون كل شىء فى السجن. مثل الأطفال الصغار والأخبار السيئة، يا ساتر، يسقطون الأشياء من على الرف، يسقط منهم الطعام على السجادة، يبكون فى السينما، يتناثر خراؤهم حول المرحاض. يا ساتر، يتقاطر منهم الرمل داخل البيت، يسقطون عصارة السمك على الأثاث. اسجنوهم! وما رأيك فى السجن عشرة إلى عشرين سنة لكل مراهق مهتاج؟ أتحدث عن النجاسة، أتحدث عن غياب القيود. والزنوج (موضوع مرير يا فريد؟)، أسمعهم يهينون القواعد النحوية بطريقتهم فى الكلام، أشم الخمر والعرق الغزير، وكل ذلك الرقص والمطربون المتراقصون أجسادهم مترعة باللعاب والزيوت، لمن خلق السجن إن لم يكن لرمى الزنوج فيه؟ ومرتادى البحر الكاريبى، بأطفالهم الصغار وحفلات الشواء اليومية والفيروسات والمشروبات السكرية ودم الخنزير؟ أغلق باب الزنزانة يا جدع وارمِ المفتاح. الصينيون يا عمى، هؤلاء الناس أصحاب الأسماء العجيبة، قصار القامة مثل الديلدو الذى تنسى غسيله، وان دولار، وان دولار، يأكلون الفتيات الرضع، هى أكلة وطنية مهمة، وأكلة البورك بونج، أى مؤخرة الخنزير، المفترض أنها أكلة حلوة، مؤخرة الخنزير، أكلة يدفع فيها الصينى نقوداً ليأكلها؟ ما رأيك أن نطلق قنابل نووية على هؤلاء المليار فاصل اثنين من عشرة من البشر؟ ننظف هذا الجزء من العالم، أمر حان وقته. ودعنا لا ننسى النساء بشكل عام، يخلفن فى أى مكان يذهبن إليه آثاراً من الكلينكس والفوط الصحية. ثم

هناك أبناء البحر المتوسط ذوات الشوارب والثوم الكثير، والفرنسيون بأحزمة شد الخصر والجبن كريه الرائحة، ذوات الياقات الزرقاء المنشاة الحاملون للحديد الساخن، يتجشأون من البيرة الكثيرة، واليهود بقضيبهم المتطاهر. ما رأيك؟ من ليسوا فى سجنك يا فريد هم الرجال أبناء الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة المنحدرين من شمال أوروبا. وأنت غاضب منى لأننى أريد شيئاً لى؟"

قال ألفريد: "ما المطلوب حتى تغادرى الحجرة؟"

"خف، هون على نفسك يا عجوز، دعها تفلت".

"لن يحدث أبدًا".

"فى هذه الحالة ربما أضطر لزيارة أدوات حلاقتك. قد أترك العنان لإسهالى على فرشاة أسنانك. أو أسقط دمعتين على كريم الحلاقة وفى صباح الغد يمكنك أن تغرى ذقنك بكريمة بنية غنية،".

قال ألفريد بصوت مضطرب: "إنيد، أنا أعانى. أقدر مساعدتك"، لم يرفع عينيه عن كومة الخراء الماكرة.

كان صوته كفيلاً بأن تستيقظ من النوم، لكن نومها هو نوم سنووايت.

"إنيد يا حبيبتى" كومة الخراء تسخر منه، "أقدر لك كثيراً بعض المساعدة فى أقرب فرصة مناسبة لك".

هناك تقارير غير مؤكدة من أعصاب فى أسفل ظهر ألفريد ووراء ركبتيه تشير إلى تدفق وحدات إضافية من كومات الخراء فى

المنطقة. متمردون خرائيون تسللوا للاستطلاع، يتقدمون على مسارات من الرائحة الكريهة.

قال قائد كومات الخراء وهو يتعلق بأطرافه إلى الجدار بذراع رخوية واحدة من المخاط: "الطعام والفرج يا صاحبى.. هذا هو خلاصة الموضوع. أى شىء آخر هو محض خراء فى رأيى".

ثم تقدم قائد الكومات، مخلفًا ورائه جدارًا من البقايا الصغيرة، إلى السرير المنقوشة على ملاءته "شركة نورديك بليجرلاينز للرحلات البحرية" المفترض أن ترتبه بعد ساعات شابة فنلندية عذبة. فكرة أن تعثر هذه العاملة النظيفة العذبة فى بقايا من الفضلات الشخصية متناثرة على الملاءة أكثر من أن يحتملها ألفريد.

على أطراف مجال الرؤية الآن بقع من الخراء. عليه أن يرتب الأمور، أن يتعامل مع الوضع. بعد أن شك فى أن الموضوع سببه تسرب فى المرحاض، تقدم من الحمام على يديه وركبتيه وأغلق الباب وراءه. دار حول نفسه بسهولة نسبية على البلاط الناعم. وضع ظهره لصق الباب وضغط قدميه فى الحوض المواجه له. ضحك للحظة من غرابة وضعه. ها هو هنا، مدير أمريكى يجلس بحفاظاته على الأرض فى دورة مياه عائمة تحت حصار فرقة من كومات الفضلات. الإنسان تأتيه أغرب الأفكار ليلاً.

كانت الإضاءة أفضل فى الحمام. علم من النظافة، علم من الترتيب، علم من الفضلات أيضًا والدليل عليه المرحاض السويسرى البورسالين على شكل كوب البيضة، شىء أنيق عليه أزرار ومقابض للتحكم. فى هذه الموجودات الأكثر تجانسًا كان ألفريد قادرًا على

جمع شتات نفسه لدرجة أن يفهم أن كومات الخراء المتمردة شىء من الخيال، وأنه كان يحلم إلى حد ما، وأن مصدر توتره هو محض تسرب بسيط.

للأسف لا يمكنه التعامل مع الموضوع فى الليل. لا سبيل أمامه لأن ينظر بنفسه إلى المزق، ولا سبيل لأن يفحص تلك المنطقة عند الحفاظة بمجس السباك أو كاميرا فيديو. من غير المرجح أن يأتى المقاول بمعداته فى ظروف كهذه. ألفريد ليس متأكدًا من أنه قادر على تحديد موقعه على الخريطة حتى.

لا شىء أمامه سوى أن ينتظر حتى الصباح. فى غياب حل كامل، هناك نصف حلين أفضل من لا حل بالمرة. يمكن التعامل مع المشكلة بما هو فى متناول اليد.

حفاظتان إضافيتان.. هذا كفيل بردع المشكلة لعدة ساعات. وها هى الحفاظات، إلى جوار المرحاض فى حقيبة.

كانت الساعة الرابعة تمامًا. ستتفاقم المشكلة كثيرًا إن لم يصل مدير المنطقة إلى مكتبه فى السابعة. لا يتذكر ألفريد اسم الرجل كاملاً، وليس هذا مهمًا. اتصل بالمكتب وليرد أى أحد على التليفون.

هذا من سمات العالم المعاصر، أليس كلك؟ أنهم جعلوا شريط الحفاظة اللاصق زلقًا هكذا.

قال "ما هذا؟ انظر!" أملًا فى أن يتجاوز الأزمة بتحويل غضبه بتعاطى حداثى مع الموضوع، إلى تأمل فلسفى. بين جلده الجاف وارتعاشاته، كانت محاولة رفع الشريط اللاصق للحفاظة صعبة للغاية.

"هف، يا ربى".

صمم على محاولاته لخمس دقائق، ثم خمس دقائق أخرى. لا يمكنه ببساطة أن يفك شريط الحفاظة اللاصق.

يبتسم من عجزه، وهو يبتسم من الإحباط والإحساس الغالب بأن هناك من يراقبه.

قال مرة أخرى: "يا ربى". الجملة مفيدة فى العادة فى التخلص من آثار الإخفاقات الصغيرة.

كم يتغير شكل الغرف فى الليل! مع مرور الوقت، بعد أن تمكن ألفريد من فض شريط الحفاظة اللاصق وبعد أن فض لصق حفاظة ثالثة وارتداها ببساطة لتصل لأعلى نقطة ممكنة، ولم تكن نقطة بعيدة، اكتشف أنه ليس فى الحمام نفسه. الضوء كثيف كثافة العيادات الطبية، أحس بيد ساعة الليل المتأخرة للغاية الثقيلة تجسم عليه.

هتف: "إنيد، هل يمكن أن تساعدينى؟"

بسنوات خبرته الخمسين كمهندس رأى من النظرة الأولى أن مقاول الطوارئ لم يتقن عمله. إحدى الحفاظات كانت ملتوية، والثانية فيها مشكلة امتصاص، وشريطها اللاصق لا يلتصق بشىء. هز ألفريد رأسه. لا يمكنه أن يلوم المقاول. الخطأ خطأه هو. ما كان يجب أن يتولى مهمة كهذه فى ظل ظروف كهذه. هو قرار ردىء منه. ها هو يحاول إصلاح الأضرار فى الظلام، بعد أن أدى القرار لمشكلات أكثر من المشكلات التى حلها.

قال بابتسامة مريرة: "طيب، أصبحنا فى ورطة فعلا".

وهل هذا الشيء على الأرض سائل؟ يا ربى، يبدو أن هناك سائلاً ما على الأرض.

والسوائل تجرى فى مواسير جانر ميردال التى لا تُعد ولا تحصى.

"إنيد، أرجوكِ، بربك، أطلب منك المساعدة".

لا رد من مكتب مدير المنطقة. هناك عطلة ما حصل عليها جميع الموظفين. شيء ما بلون الخريف.

السائل على الأرض! السائل على الأرض!

لا بأس إذن، دفعوا له راتبه ليتحمل المسئولية. دفعوا له راتبه لاتخاذ القرارات الصعبة.

أخذ نفسًا عميقًا قويًا.

فى أزمة كهذه فأول قرار هو بوضوح إخلاء مسار للخروج من الأزمة وإخفاء آثارها. انسى مهمة الحفاظة، عليك أولاً التعامل مع التسرب وإلا كبرت المشكلة.

كيف علق هنا على كل حال؟ ربما لم تصل الساعة إلى الخامسة صباحًا بعد.

قال: "مما يذكرنى بأن أتصل بمدير المنطقة فى السابعة".

فى مكان ما طبعًا لابد من وجود نبطشى. لكن المشكلة هى العثور على التليفون، وهناك تردد مزعج أصابه، تردد فى أن يرفع عينيه إلى مستوى المرحاض. ظروف العمل فى هذه المنطقة مستحيلة. قد تصل الساعة إلى منتصف النهار قبل أن يجد التليفون. ووقتها.

قال: "آه. عمل كثير للغاية".

يبدو أن هناك انبعاجًا خفيفًا للأسفل فى حوض الأقدام تحت الدُش. نعم، فى الواقع ربما كان مشروع تمهيد طريق قديم لم يكتمل، ربما شاركت القوات المسلحة فى هذا المشروع أيضًا. هذه مشكلة هندسية ضخمة، أن يغير مكان العملية ليستفيد من ذلك المشروع غير المكتمل.

"ليس أمامى خيارات كثيرة".

لم لا يبدأ فى العمل؟ لم يقل إحساسه بالإرهاق. فكر فى الهولنديين ومشروع الدلتا. أربعون عامًا من العراك مع البحر. ضع الأمور فى نصابها الصحيح، هى ليلة سيئة واحدة، وقد تعرض لما هو أسوأ.

ربما كان الموضوع ليصبح أسوأ بكثير فى الواقع. إنهم محظوظون لوجود مهندس فى الموقع وقت تسرب المياه. تخيل إن لم يكن موجودًا، يا للفوضى.

"كانت لتصبح كارثة حقيقية".

أول هام هو سد التسرب بشكل مؤقت بسدادة ما، ثم التعامل مع ذلك الكابوس اللوجيستى، أن يغير مسار العملية بأكملها ليصل إلى حوض الدُش، ثم تمنى أن يستمر متماسكًا حتى تطلع الشمس.

على الضوء الليلى المصطنع رأى سائلاً يتسرب فى مسار وحيد على الأرض ثم يعكس مساره فى بطء، وكأن الأفق فقد صوابه.

"إنيد!" ينادى ولديه شىء من الأمل فى أن يبدأ فى عملية وقف التسرب والعودة إلى المسار الصحيح.. ومضت السفينة فى طريقها تشق الماء.

* * *

بفضل دواء "أسلان"، ودكتور هيبارد الشاب، وهو شاب رائع متفوق، نامت إنيد ليلتها الأولى منذ شهور بلا قلق.

هناك ألف شيء تريده من الحياة، وبما أن قلة من هذه الأشياء متوفرة فى البيت مع ألفريد فى سان جود، فقد اضطرت لتحويل مسار ما تريده إلى الأيام المعدودة، ذلك الزمن القصير الذى ستقضيه فى الرحلة البحرية. على مدار شهور كانت الرحلة البحرية هى المرفأ الآمن لعقلها، المستقبل الذى يجعل الحاضر مقبولًا، وبعد اليوم الذى قضته فى نيويورك والذى ثبت أنه لم يتضمن الكثير من المرح، ركبت سفينة جانر ميردال وقد تضاعف جوعها واشتياقها.

المتعة والمرح هى التوقف عند كل ميناء قليلًا، على هذا السطح العائم، وحولها المسنون يستمتعون بخروجهم على المعاش كما كانت تتمنى أن يستمتع ألفريد بخروجه على المعاش. رغم أن شركة نورديك بليجرلاينز لا تقدم رحلات مخفضة، فهذه الرحلة تم حجزها كلها تقريبًا من قبل مجموعات كبيرة، مثل نقابة جامعة رود أيلاند، وجمعية الحاساداه الأمريكية تشيفى تشيس (طبية) وجمعية الفرقة ٨٥ مظلات ("شيطان السماء") من أجل اجتماع لأعضاء الفرقة، واتحاد سكان مقاطعة ديد (فلوريدا) ورابطة الكتيبة الاحتياطية. أرامل فى صحة ممتازة يقدن إحداهن الأخرى من المناكب إلى أماكن خاصة توزع عليهن فيها بطاقات أسماء وأوراق فيها معلومات عن الرحلة، وهو مشهد مزعج. ها هم المسنون العاقدون العزم على الاستمتاع بكل لحظة من زمن الرحلة البحرية يرتشفون "كوكتيل اليوم"، فرابيه، من كؤوس كبيرة لابد من إمساكها بكلتا اليدين حتى لا تقع. هناك أشخاص آخرون منكبون على سياج

السفينة فى الطوابق الأدنى، وهناك آخرون يحتمون من الأمطار، ينظرون إلى شاطئ منهاتن بحثًا عن وجه يلوحون له مودعين. وهناك فرقة موسيقية فى الداخل تعزف موسيقى هيفى ميتل وبولكا.

بينما دخل ألفريد الحمام قبل العشاء، فإن جلسته الثالثة داخل الحمام استغرقت ساعة، فيما جلست إنيد فى تراس الطابق (ب) تتصت إلى وقع عكاز شخص ما يسير فوقها فى تراس الطابق (أ).

يبدو أن زى طاقم السفينة هو تى شيرت مطبوع عليه كلمات "لاعبو البريدج القدامى لا يموتون أبدًا، بل يفقدون لمستهم". أحست إنيد بالدعابة غير مضحكة.

قالت فى غمغمة خافتة وهى تتأمل كل من حولها من الناس: "بالطبع، يبدو أنه لا أحد غير هؤلاء يمكنه تحمل تكلفة رحلة كهذه".

رأت من بعيد رجلاً يجر كلبًا، ثم تبين لها أن الكلب أسطوانة أوكسجين مُركبة على عجلات، وقد تم وضع سويتر حيوان أليف فوق الأسطوانة.

رجل بدين للغاية مر إلى جوارها، يرتدى تى شيرت مكتوب عليه: "تيتانك: الجسم".

أمضيت حياة كاملة فى انتظار قلق، وها هو الآن زوجك سريع الملل يقضى ما لا يقل عن ربع الساعة كلما دخل الحمام.

حتى فى المساء، بالأزياء الكاجوال، كالليلة، كانت التى شيرتات غير محبذة رسميًا. ارتدت إنيد كنزة صوفية وطلبت من ألفريد أن يرتدى ربطة عنق، رغم أنه نظرًا لصعوبة تعامله مع ملعقة الشوربة

مؤخرًا عانت ربطات عنقه كثيرًا. جعلته يأخذ معه في الرحلة اثنتى عشرة ربطة عنق. كانت مدركة تمامًا أن مستوى السفينة ديلوكس. تتوقع ـ ودفعت النقود لذلك، وجزء منها نقودها ـ الأناقة. كل تى شيرت تراه يرمى خيالاتها عن الرحلة بحجر، ومعها استمتاعها.

يحيرها أسن الناس الأكثر منها ثراءً هم فى العادة أقل أناقة. يمكن أن تجد الراحة فى التفكير فى أنها أفقر من ناس أذكياء وسيمين. لكن أن تكون أقل ثراء من مرتدى التى شيرت هؤلاء.

قال ألفريد وقد ظهر إلى جوارها فى التراس: "أنا مستعد". أمسك بيد إنيد لينتقلا بالمصعد إلى حجرة طعام سورين كيركجارد. وهى تمسك بيده أحست بأنها متزوجة، وأن لها مكان فى الكون ومتصالحة مع التقدم فى العمر، لكنها لم تتمكن من منع نفسها من التفكير فى كم كانت ستقدر كثيرًا أن تمسك بيده فى العقود الماضية، عندما كان يمشى أمامها بخطوة أو خطوتين فى أى مكان يذهبان إليه. كانت يده الآن خاضعة، فيها إحساس بالحاجة. حتى ارتعاشاته التى تبدو من بعيد عنيفة، بدت خفيفة وناعمة عندما تمسك بديه. لكن تشعر باستعداد اليد لاستئناف الارتعاش العنيف ما إن تطلقها.

المسافرون غير المنتمين إلى جهة أو جمعية معينة كانوا يجلسون على مقاعد خاصة "للأفراد". لفرحة إنيد، التى تحب الصحبة اللطيفة للأفراد غير المبالغين فى التعالى، كان اثنان من "الأفراد" على مائدتها ومائدة ألفريد من النرويج، واثنين آخرين من السويد. إنيد تحب البلدان الأوروبية الصغيرة. يمكن للمرء أن يتعلم عادة سويدية أو نرويجية أو معلومة عن هذه الدولة أو تلك دون أن يشعر

بأنه جاهل مثلا فى الموسيقى الألمانية، أو الأدب الفرنسى، أو الفن الإيطالى. معلومة مثل أن كون النرويج أكبر مصدر فى أوروبا للنفط، كما قال السيد والسيدة نيجرين من أوسلو على المائدة عندما جلست هى وألفريد على آخر مقعدين شاغرين على المائدة.

تحدثت إنيد أولاً إلى الشخص الجالس إلى يسارها، السيد سودربلاد، سويدى أزرق العينين أكبر منها سنًا كما يليق به أن يكون. سألته: "ما انطباعك عن السفينة حتى الآن؟ هل هى أصيلة حقًا؟"

قال السيد سودربلاد مبتسمًا: "يبدو أنها قادرة على الطفو، رغم أننا فى عرض البحر".

رفعت إنيد صوتها لتساعده على فهم كلامها: "قصدى هو، هل هى إسكندنافية أصيلة؟"

قال السيد سودربلاد: "بالطبع، فى الوقت نفسه فكل شىء فى العالم يتجه إلى أن يكون أمريكيًا، أليس كذلك؟"

قالت إنيد: "لكن هل تعتقد أن السفينة أصيلة جدًا جدًا، فيها نكهة السفينة الإسكندنافية الأصيلة الحقيقية؟"

"فى الواقع هى حتى الآن أفضل من أغلب السفن فى إسكندنافيا. أنا وزوجتى سعيدان بها حتى الآن".

كفت إنيد عن سؤاله، غير مقتنعة بأن السيد سودربلاد قد فهم ما تقصده. يهمها أن تكون أوروبا أوروبية. زارت القارة خمس مرات فى عطلات ومرتين فى رحلات عمل مع ألفريد، هى إذن مرات كثيرة، فأصبحت تحب أن تقول لصديقاتها اللاتى يخططن لزيارة إسبانيا أو فرنسا، متنهدة فى ضجر، أنها نالت كفايتها من ذلك

المكان. لكن أثار استياءها أن تسمع صديقتها بيا مايزنر توحى لها بنفس اللامبالاة بأوروبا وهى تقول: "مللت من السفر إلى سان موريتز فى أعياد ميلاد أحفادى" إلى آخره. سيندى ابنة بيا محدودة الذكاء والجميلة لدرجة غير عادلة، تزوجت من طبيب رياضى نمساوى، اسمه فون شىء ما، ولديه ميدالية برونزية فى مسابقة كبرى للتزلج. كون بيا استمرت فى التزاور والتواصل مع إنيد هو انتصار للولاء على تباين الحظوظ المالية. لكن إنيد لم تنس أبدًا أن الموضوع بدأ باستثمار تشاك مايزنر الكبير فى سهم إيرى بيلت، عشية شراء ميدلاند باسيفيك للشركة، وأن هذا ساعد فى تمويل شرائهم للقصر فى باراديس فالى. أصبح تشاك رئيس مجلس إدارة بنكه بينما تعثر ألفريد فى شركته ووضع مدخراتهم فى صناديق استثمار معرضة لتأثير التضخم، ولهذا فحتى الآن لا يتحملان ثمن رحلة كهذه دون أن تشارك إنيد فى ثمنها، وهو ما فعلته حتى تفلت من إحساس الحسد المرير.

صاحت فى اتجاه زوجة السيد سودربلاد الجميلة: "صديقتى فى سان جود تقضى إجازاتها فى سان موريتز. زوج ابنتها النمساوى رجل ناجح جدًا وعنده شاليه هناك!".

السيدة سودربلاد تشبه قطعة إكسسوار ثمينة من المعدن، بلى حالها قليلًا وتلوثت من كثرة استخدام السيد سودربلاد. شفتاها لامعة، لون شعرها، طلاء أظافرها، مظهرها كله تنويعة على نكهة البلاتينيوم، فستانها الذى ترتديه على العشاء بلون الفضة، يكشف عن كتفها الذى تعرض كثيرًا للشمس وعن عمليات تجميل السيليكون. قالت: "سان موريتز جميلة للغاية. أديت استعراضات عدة مرات فى سان موريتز".

صاحت إنيد: "أنت ممثلة استعراضية؟"

قال السيد سودريلاد فى عجلة: "سيجنى كانت ممثلة استعراضات مميزة".

قالت المرأة النرويجية، السيدة نيجرين، وهى ترتعش: "هذه المنتجعات الثلجية غالية جدًا". كانت ترتدى نظارة مستديرة كبيرة، وعلى وجهها نمش كثير. من حيث المظهر كانت هى والسيدة سودريلاد وجهين لعملة واحدة.. استرسلت قائلة: "لكن على الجانب الآخر، من السهل علينا فى السويد أن نختار ما نشاء. حتى فى بعض ساحات انتظار المدينة يمكن أن يكون ثمن تذكرة التزلج باهظًا للغاية".

قال السيد نيجرين، وهو رجل طويل للغاية وأذناه مثل قطع لحم البتلو: "لابد من تحديد الفارق بين التزلج فى المنتجعات الجبلية، والمنتجعات النوردية. النرويج خرج منها لاعبو تزلج جبلى مدهشون، منهم مثلاً كيتيل أندرى أمودت، لابد أنك تتذكرين اسمه، لكن لابد أن نعترف ألا سبيل للمنافسة على أعلى مستوى بهذا المجال. لكن سباقات التزلج الطويلة أو النوردية، فهذا موضوع آخر. من العدل أن نقول إننا مستمرون فى التمتع بقدر عادل من التميز فى موضوع التزلج".

قال السيد سودريلاد بصوت خافت فى أذن إنيد: "النرويجيون مملون للغاية".

الرجل والمرأة المتبقيان على المائدة، كانا أكبر سنًا، هما آل روث من شادس فورد بولاية بنسلفانيا، وقد استجابا لرغبة إنيد القلبية وبدآ الحديث مع ألفريد. كان وجه ألفريد محمرًا من حرارة

الشوربة، ومن مشكلة الملعقة، وربما أيضًا من أثر رفضه النظر ولو مرة واحدة إلى سودربلاد الأنيقة، بينما كان يشرح لآل روث آلية بث الاستقرار فى حركة السفن الضخمة فى المحيط. السيد روث، رجل يبدو أنه مثقف يرتدى ربطة عنق صغيرة ونظارة، راح يمطره بالأسئلة التوضيحية وينتظر الإجابات وعلى وجهه يبدو ما يشبه الدهشة البالغة.

كانت السيدة روث أقل اهتمامًا بكلام ألفريد من إنيد حتى. السيدة روث سيدة ضئيلة، طفلة جميلة فى منتصف الستينيات. مرفقاها لا يكادان يفارقان مفرش المائدة. خدان ورديان وعيون زرقاء كبيرة تحدق بهما فى إنيد دون مواربة، كما يفعل الأذكياء للغاية والأغبياء للغاية. هذه النظرة القوية توحى بالجوع. أحست إنيد فورًا أن السيدة روث ستصبح صديقتها العظيمة فى هذه الرحلة، أو منافستها اللدودة، وهكذا وبدلال رفضت أن تتكلم إليها أو تقر بانتباهها إليها. مع ظهور شرائح اللحم على المائدة وإبعاد بقايا الجمبرى المحطم، راحت توجه أسئلة واحدًا تلو الآخر إلى السيد سودربلاد، والأخير يتجنب الحديث عن عمله، الذى يبدو أنه تجارة الأسلحة. امتصت نظرات السيدة روث زرقاء العينين وامتصت الحسد الذى ترى أن "الأفراد" على الموائد الأخرى يثيرونه فيها. رأت أنه نظرًا لكثرة التى شيرتات فى أوساط "الأفراد"، كانت مائدتها تبدو بالمقارنة أنيقة. شيء من التميز هنا، جمال، ربطات عنق، شيء من التميز.

قال السيد سودربلاد: "أحيانًا أتحمس كثيرًا وأنا أفكر فى قهوة الصباح. لا يمكننى النوم ليلا".

آمال إنيد أن يأخذها ألفريد للرقص فى قاعة الاحتفالات تحطمت عندما نهض وأعلن أنه ذاهب لينام. لم تكن الساعة قد بلغت السابعة بعد. من سمع بشخص بالغ ينهض لينام فى السابعة مساءً؟

قالت: "اجلس وانتظر الحلوى. المفترض أن الحلوى ستكون رائعة".

سقط منديل مائدة ألفريد من على فخذيه إلى الأرض. بدا أنه لا يعرف إطلاقًا ما الذى يحرجها ويحبطها هكذا. قال: "ابقِ أنت نلت كفايتى".

ثم نهض متجهًا إلى خارج قاعة سورين كيركجارد، يناضل اهتزاز الأفق الذى أحس به يزيد بعد أن خرجت السفينة من ميناء نيويورك.

موجات مألوفة من الأسى على الاستمتاع الذى لن تناله مع زوج كهذا، سقطت على إنيد وأطبقت عليها حتى خطر لها أنها الآن أمامها أمسية طويلة وحدها دون ألفريد الذى سيفسد عليها متعتها.

أشرق وجهها، وزاد إشراقًا عندما غادر السيد روث فى طريقه إلى حجرة قراءة "كنوت هامسون"، تاركًا زوجته على المائدة. بدلت السيدة روث المقاعد لتقترب من إنيد.

قالت السيدة نيجرين وقد وجدت فرصة لتتكلم: "نحن النرويجيين نحب القراءة للغاية".

همس السيد سودربلاد: "ولا تكفون عن الثرثرة".

قالت السيدة نيجرين للجلوس على المائدة: "المكتبات العامة ومكتبات بيع الكتب فى أوسلو مزدهرة للغاية. أعتقد أن الحال ليس هكذا فى كل مكان. القراءة بدأت تنحسر من العالم. لكن ليس فى النرويج. زوجى يقرأ الأعمال الكاملة لجون جالسورثى للمرة الثانية هذا الخريف، بالإنجليزية".

قال بير نيجرين مشتكيًا: "لاااا يا إنجا، لاااا، المرة الثالثة!"

قال السيد سودربلاد: "يا ربى".

قالت السيدة نيجرين وهى تنظر إلى إنيد والسيدة روث وكأنها تنتظر منهما الدهشة والإعجاب: "هذا صحيح. كل عام يقرأ بير عملاً واحدًا لكل ممن فازوا بجائزة نوبل فى الآداب، وكذلك الأعمال الكاملة للفائز المفضل لديه بالجائزة ممن قرأهم العام الماضى. وكما ترون، كل عام تصبح المهمة أكثر صعوبة بقليل، لأن فى كل عام فائز جديد".

أوضح بير: "مثل زيادة ارتفاع العصا فى لعبة القفز العالى. كل عام تحدى أكبر قليلاً".

السيد سودربلاد، الذى كما تقدر إنيد كان يشرب فنجان قهوته الثامن تقريبًا، مال عليها وقال: "يا ربى هؤلاء الناس مملون".

قال بير نيجرين: "أقدر أننى قرأت أعمال هنرك بونتوبيضان بعمق أكبر من أغلب الناس".

مالت السيدة سودربلاد برأسها وهى تبتسم ابتسامة حالمة. قالت ربما لإنيد وربما للسيدة روث: "هل تعرفين أن حتى مائة عام فقط كانت النرويج مستعمرة سويدية؟"

اعتدل النرويجيان فى جلستهما فجأة.

"مستعمرة؟! مستعمرة؟!"

قال إنجا نيجرين فى صوت كالفحيح: "آه، آه، أعتقد أن هناك درس تاريخ لابد أن يعرفه أصدقاءنا الأمريكان".

قال بير: "هذه حكاية تحالفات استراتيجية!".

"بكلمة مستعمرة، ماذا تقصدين بالسويدية تحديداً يا سيدة سودربلاد؟ بما أن إنجليزيتى أفضل منك بكثير، ربما يمكن أن أساعد أصدقاءنا الأمريكان بترجمة أكثر دقة، كلمة مثل: شركاء متساوون فى مملكة موحدة تشمل شبه الجزيرة؟"

قال السيد سودربلاد وهو ينظر نظرة ماكرة لزوجته: "سيجنى. أعتقد أنك فتحت موضوعاً حساساً".. رفع يده وقال: "أيها النادل، املأ الفنجان لو سمحت".

قال بير نيجرين: "لو تحدثنا عن نهايات القرن التاسع الميلادى، وأعتقد أنه حتى أصدقاءنا السويديين هنا يتفقون معى فى أن صعود نجم هرالد الأشقر نقطة غير ذات تأثير على موضوع العلاقة اللدودة بين قوتين متماثلتين فى القوة، أو ربما ثلاث قوى متقاربة، بما أن الدنمارك بدورها لعبت دوراً مهماً للغاية فى قصتنا".

قاطعتهم السيدة روث وهى تميل لتلامس يد إنيد: "نود سماع هذه الحكاية، لكن ربما فرصة أخرى. أتذكرين أننا قلنا السابعة؟"

أحست إنيد بالدهشة للحظة، ثم أعلنت أنها ستنهض وسارت وراء السيدة روث إلى القاعة الرئيسية، حيث وجدا أسراباً من المسنين والروائح المعوية، وروائح المطهرات.

قالت السيدة روث: "إنيد، أنا سيلفيا. ما رأيك فى أن نجرب حظنا فى لعبة السلوت ماشين؟ أنا مشتاقة إليها منذ الصباح".

قالت إنيد: "وأنا أيضًا. أعتقد أنها فى قاعة سترينجبيرد".

"سترينجبرج، نعم".

إنيد تحب سرعة البديهة لكن نادرًا ما رأت أنها تتمتع بها. قالت وهى تتبع سيلفيا روث وسط الحشود: "شكرًا على أنت تعرفين".

"إنقاذك. لا عليك".

قاعة سترينجبرج ممتلئة بالناس، مقامرون يلعبون بلاك جاك بمبالغ زهيدة، ومحبو لعبة السلوت ماشين. لا تتذكر إنيد متى حظت بكل هذا الاستمتاع آخر مرة. خامس ربع دولار تضعه فى الآلة عاد عليها بتوافق ثلاث برقوقات، تدفقت العملات المعدنية من الآلة. وضعت النقود فى دلو بلاستيكى. الربع الحادى عشر بعد ذلك ربحت به مرة أخرى: ثلاث ثمرات كريز، تدفقت عليها عملات فضية. اللاعبون المسنون الذين يخسرون بثبات فى الآلات المجاورة لها حدجوها بنظرات حقد. قالت لنفسها، أنا محرجة، ولم تكن محرجة.

عشرات السنوات من الثراء غير الكافى جعلتها مستثمرة ملتزمة. من أرباحها نحت جانبًا استثمارها الأولى. كما نحت جانبًا نصف كل ربح ربحته.

إلا أنه يبدو أن صندوق تمويل لعبها لا ينفد.

قالت سيلفيا روث بعد ساعة تقريبًا وهى تربت على كتف إنيد لتنبهها: "نلت كفايتى. هل نذهب لنسمع عزف الموسيقى الكلاسيكية؟"

"نعم، نعم، فى حجرة جريد".

قالت سيلفيا ضاحكة: "جريج".

"شىء طريف فعلاً. جريج، أنا غبية جدًا الليلة".

"كم جنيت من نقود؟ يبدو أنك ربحت جيدًا".

"لست متأكدة، لم أحص النقود".

ابتسمت سيلفيا لها باهتمام: "حسبتك فعلت، حسبتك أحصيت المبلغ".

قالت إنيد وقد تورد وجهها لأنها تحب سيلفيا كثيرًا: "طيب. مائة وثلاثون دولارًا".

بورتريه لإدوارد جريج معلق فى حجرة أنيقة على طراز حجرات البلاط الملكى السويدى فى القرن الثامن عشر. عدد المقاعد الشاغرة الكبير أكد لإنيد شكها فى أن رفاقها فى الرحلة من طبقة متدنية. خرجت فى رحلات بحرية سابقة وكانت قاعات الموسيقى الكلاسيكية مكتظة عن آخرها.

رغم أن سيلفيا لم تبد منبهرة لأقصى حد بالعزف، فقد رأت إنيد أن مستوى العزف رائع. عزفوا "من الذاكرة"، وألحان كلاسيكية شهيرة مثل "الرابسودى السويدى" ومقتطفات من "فنلندا" و"بير جينت". وسط "بير جينت" ظهر على وجه عازف الفيولين الثانى الدوار وغادر الحجرة لدقيقة (البحر عاصف الليلة قليلاً، لكن إنيد قوية المعدة وسيلفيا أخذت دواء) ثم عاد إلى مقعده وتمكن من بدء العزف مرة أخرى مع الباقين دون صعوبة، بكل احتراف. صاح العشرون شخصًا، المتفرجون: "برافو!".

على مدار حفل الاستقبال الأنيق بعد ذلك أنفقت إنيد ٧,٧ فى المائة من مكتسباتها فى اللعب على شريط كاسيت للفرقة الموسيقية. جربت كأسًا مجانية من شراب سبوج، وهو خمر سويدى يتم حاليًا عمل حملة دعاية له بمبلغ ١٥ مليون دولار. السبوج مذاقه كالفودكا، سكرى ولاذع. مع ظهور الدهشة على المحيطين بهما من أثر مذاق السبوج، والتقدير، بدأت إنيد وسيلفيا فى الضحك.

قالت سيلفيا: "يا سلام، سبوج مجانى، جربيه!"

قالت إنيد: "يم يم، سبوج!"

ثم خرجتا إلى ممشى إبسن فى موعد حفل الآيس كريم الساعة العاشرة. فى المصعد أحست إنيد أن السفينة لا تعانى فحسب من حركة تمايل جانبية، بل أيضًا من حركة ارتدادية، للأمام والخلف. مع الخروج من المصعد كادت تسقط على ساقى ويدى رجل. كان على التى شيرت الذى يرتديه من الخلف كلمات: "لم يحسنوا التصويب".

قبلت إنيد كوب أيس كريم بالصودا من الجرسون الذى يرتدى قبعة الطاهى. ثم تبادلت مع سيلفيا بيانات الأسرة، وتلى ذلك تبادل لأسئلة وإجابات أخرى. كانت هذه من عادات إنيد، عندما تشعر بأن الأسرة ليس موضوع الشخص المفضل، أن تستقصى عن موضوع أسرته بلا كلل أو ملل. كانت لتفضل الموت على أن تعترف بأن أولادها خيبوا آمالها، لكن سماع إحباطات الآخرين فى الأولاد، والطلاق والتعرض للإهانات والاستثمارات الغبية، هى أمور تشعرها بأنها فى حال أفضل.

يبدو أن ليس لدى سيلفيا روث شيئًا تخجل منه. أبناؤها فى كاليفورنيا، أحدهما فى مجال الطب والآخر فى الكمبيوتر، وهما

متزوجان. لكن يبدو أن فى الموضوع جوانب ساخنة تفضل تجنبها أو المرور عليها مرور الكرام. قالت: "ابنتك ذهبت إلى كلية سواثمور؟"

قالت إنيد: "نعم، لمدة قصيرة. وعندك خمسة أحفاد. يا ربى. ما عمر الأصغر؟"

قالت سيلفيا: "كان يبلغ من العمر عامين الشهر الماضى، وماذا عندك؟ أى أحفاد؟"

"ابننا الأكبر جارى عنده ثلاثة أبناء. لكن هذا موضوع غريب: بين الأصغر والسابق عليه فجوة عمرية خمس سنوات؟"

"تقريبًا ستة، وابنك فى نيويورك؟ أخبرينى عنه هو الآخر. هل مررتم عليه اليوم؟"

"نعم، أعد لنا غداءً جميلا، لكن لم نر مكتبه فى جريدة وول ستريت حيث حصل على وظيفة جديدة، بسبب حالة الطقس السيئة، وهل تذهبين كثيرًا إلى كاليفورنيا؟ لترين أحفادك؟"

هناك شىء من الحماس ـ استعداد للعب هذه اللعبة ـ تسرب من سيلفيا. جلست تحدق فى كأس الصودا الفارغ. قالت أخيرًا: "إنيد، هلا أسديتنى خدمة؟ تعالى نصعد ونشرب كأس قبل النوم".

بدأ يوم إنيد فى سان جود فى الخامسة صباحًا، لكن لا يمكن أن ترفض دعوة جذابة كهذه. فى الطابق العلوى، فى قاعة لاجركفيست يخدم عليها هى وسيلفيا قزم يرتدى خوذة بقرون، أقنعهما بطلب مشروب كلاودبيرى أكفافيت.

قالت سيلفيا: "أريد أن أخبرك بشىء، لأن علىّ أن أخبر أحدًا على متن السفينة، لكن لا تخبرى أحدًا. هل تجيدين الاحتفاظ بالأسرار؟"

"هو الشيء الوحيد الذى أجيده".

قالت سيلفيا: "جيد. بعد ثلاثة أيام من الآن ستحدث عملية إعدام فى بنسلفانيا. وبعدها بيومين، يوم الخميس، الذكرى الأربعون لزواجى أنا وتيد. وإذا سألت تيد، سيخبرك أننا على متن هذه الرحلة لهذا السبب، للذكرى السنوية. سيقول لك هذا، لكنها ليست الحقيقة. أو هى حقيقة تخص تيد ولا تخصنى".

أحست إنيد بالخوف.

قالت سيلفيا روث: "الرجل الذى سيُعدم، قتل ابنتنا".

"لا".

صفاء نظرة سيلفيا الزرقاء جعلها تبدو كحيوان جميل عذب، ليس بشرًا تمامًا. قالت: "أنا وتيد فى هذه الرحلة لأن عندنا مشكلة فى موضوع الإعدام هذا. وعندنا مشاكل فيما بيننا".

قالت إنيد مرتجفة: "لا، ماذا تقولين؟ لا يمكننى التحمل! لا يمكننى التحمل!".

ربطت سيلفيا بهدوء رد الفعل هذا بالسر الذى كشفته: "آسفة. ليس عدلاً أن أنصب لك هذا الفخ. ربما ننهى ليلتنا".

لكن سرعان ما استعادت إنيد هدوءها. كانت مصممة على ألا تفوت فرصة أن تصبح موضع ثقة سيلفيا. قالت: "أخبرينى بكل شىء تريدين إخبارى به. وسوف أنصت". وضعت يديها على حجرها كمستمع جيد، "هيا تفضلى، أنا أسمعك".

قالت سيلفيا: "الشىء الآخر الذى يجب أن أخبرك به، هو أننى فنانة مسدسات. أنا أرسم المسدسات. هل تريدين سماع هذا الموضوع؟"

أومأت إنيد برأسها فى لهفة وغموض قائلة: "نعم". لاحظت أن القزم استخدم سلمًا صغيرًا لإحضار الزجاجات.. "مهتمة".

قالت سيلفيا إنها على مدار سنوات كانت رسامة هـاوية. عندها استوديو تملأه الشمس فى بيتها فى شادس فورد، وعندما أدوات رسم بالفحم ممتازة، وأنها تنتمى إلى مجموعة فنية فى ويلمنجتون تعقد معرضًا نصف سنوى، بينما ابنتها الأصغر جوردن كانت تكبر فى طريقها من فتاة أشبه بالأولاد الأشقياء، إلى شابة مستقلة، وقالت إنها كانت تبيع لوحاتها الديكورية بأسعار من قبيل أربعين دولارًا. ثم قُتلت جوردن فلم ترسم سيلفيا على مدار خمسة أعوام شيئًا غير المسدسات. عام بعد عام مسدسات ولا شىء غيرها.

قالت إنيد فى ضيق ظاهر: "شىء فظيع، فظيع".

جذع شجرة التيوليب أمام مرسم سيلفيا أوحى لها بخزائن ومواسير المسدسات. كل شكل إنسانى يتحول فى عينيها إلى زناد أو أسطوانة أو مقبض مسدس. لا يوجد تجريد فى ذهنها لا يمكنه أن يتحول إلى نار انطلاق الرصاصة، أو دخان البارود الأسود. الجسد عالمى شامل فى احتمالاته المسدسية التى لا تنتهى، ولا يوجد موضع صغير واحد فى العالم آمن من اختراق الرصاصة، لا يوجد شكل ما فى العالم الكبير لا يذكرها بمسدس. حتى حبات الفول شبيهة بمسدسات الجيب الصغيرة، ونتفة الثلج كمسدس كبير على قوائمه الثلاثية. لم تكن سيلفيا مجنونة، كان بإمكانها إجبار نفسها على رسم دائرة أو وردة. لكن ما تجوع إليه هو رسم الأسلحة النارية. بنادق، مسدسات، مقذوفات صاروخية، مخلفات قنابل. تمضى

الساعات ترسم بالقلم الرصاص لمعة الضوء على المسدس النيكل. أحيانًا ترسم أيضًا يديها ومعصميها وساعديها فيما تخمن أنه يشبه مقبض مسدس ديزرت إيجل عيار الخمسين ملليمتر، أو مسدس إم١٦ أوتوماتيكى، أو غيرها من الأسلحة العجيبة التى تراها فى الكتالوجات التى تحتفظ بها فى مظاريف بنية فى مرسمها الذى تغمره الشمس. أغرقت نفسها فى هوايتها كروح شاردة مشغولة بحياتها فى الجحيم، رغم مقاومة شادس فورد، والأشجار وروائح الدفء فى رياح أكتوبر لأن تتحول إلى جحيم. إنها "سيزيفة" تحطم كل ليلة نتاج عملها، تمزق لوحاتها وتمحوها، توقد نارًا منها فى حجرة المعيشة.

غمغمت إنيد مرة أخرى: "شىء فظيع. لا أتخيل إمكانية حدوث شىء أسوأ من هذا لأم". أشارت للقزم أن يأتيها بالمزيد من الأكفافيت.

قالت سيلفيا إن بعض غوامض هوسها المذكور أنها عُرف عنها الجنون لكن استمرت فى الذهاب إلى الاجتماعات فى ميدان كينيت، وأن أدوات تعذيب وقتل جوردن كانت فى كيس نايلون "مغلق"، منشفة واحدة صغيرة، مشجبين لتعليق المعاطف، مكواة كهربية جنرال إلكتريك سهلة الاستخدام، سكين للخبز بطول ١٢ بوصة، أى لم تكن هنالك مسدسات ولا أسلحة نارية ذهب بها القاتل - كيلى ويزرس البالغ من العمر ٢١ عامًا - إلى قسم شرطة فيلادلفيا، وكانت مهمتها الوحيدة مع زوجها الذى يتقاضى راتبًا ضخمًا بصفته رئيس شركة كبرى، بسيارة رياضية عملاقة لدرجة أن أى صدام مع أية سيارة رياضية سريعة ما كان ليخدشها، وبيت من ست حجرات نوم يمكن وضع شقة جوردن فى فيلادلفيا بسهولة

فى مطبخه، كانت مهمتها الوحيدة إلى جانب الطهى لزوجها هى أن تتعافى من موت جوردن، فكانت بوقت فراغها الطويل تنشغل مهووسة بالرغبة فى رسم المسدس بسرعة حتى تلحق بجلساتها ثلاث مرات فى الأسبوع مع الطبيبة النفسية الكبيرة فى ويلمينجتون، وبحديثها إليه وبحضورها جلسات ليلة الأربعاء مع مجموعة "آباء ضحايا العنف" للدعم النفسى واجتماعات ليلة الخميس مع مجموعة النساء المسنات، وبقراءة الشعر والروايات والمذكرات والكتب الملهمة التى توصيها بها صديقاتها، وبالاسترخاء فى جلسات اليوجا وركوب الخيل، وبالتطوع كمساعدة لأخصائى علاج طبيعى فى مستشفى للأطفال، بكل ذلك تمكنت من تجاوز أحزانها برغم استمرار وتزايد رغبتها فى رسم المسدسات، فلم تذكر هذا الهوس لأحد، ولا حتى للطبيبة النفسية الكبيرة فى ويلمنجتون، برغم تكالب أصدقائها وناصحيها عليها لأن "تشفى" نفسها من خلال "فنها"، وبالفن يعنون الأشغال الفنية الديكورية، برغم أنها عندما ترى أعمالاً فنية خشبية صنعتها فى حجرة نوم أو حجرة ضيوف صديقة يلتوى جسدها خزيًا من الإحساس بالزيف، برغم أنها عندما ترى مسدسات فى التليفزيون أو فى السينما تتلوى بشكل مشابه وللأسباب نفسها، حتى إنها اقتنعت سرًا ـ بمعنى آخر ـ بأنها أصبحت فنانة حقيقية، فنانة جيدة حقًا ترسم المسدسات، وأن إثبات فنيتها أنها تدمر بنهاية كل يوم أعمالها لليوم، وكانت مقتنعة أن جوردن رغم أنها حصلت على درجة عالية فى الفن والرسم والعلاج بالفن، ورغم التشجيع والتعليم مدفوع الأجر على مدار عشرين عامًا، لم تكن فنانة جيدة. بعد أن توصلت إلى هذه الفكرة الموضوعية عن ابنتها الميتة استمرت فى رسم

المسدسات والذخائر، ورغم غضبها وتعطشها للانتقام لم ترسم يومًا على مدار السنوات الخمس بورتريهًا لوجه كيلى ويزرس.

"فى ذلك الصباح الأكتوبرى عندما تكالبت عليها هذه الاكتشافات جماعة، صعدت سيلفيا السلم إلى مرسمها بعد الإفطار وهى تجرى. وعلى ورقة كانسون عاجية، وباستخدام مرآة بدت لها وكأنها يدها اليمنى، رسمت بيسراها، بسبابتها المرفوعة وأصابعها المتوترة بروفايل خلفيًا كاملاً، بروفايل خلفى كامل تقريبًا ليد، ثم عبأت هذه اليد بمسدس عيار ٣٨ ملليمتر، تمسك به اليد الخبيرة، ومقبضه يخترق شفتين مبتسمتين رسمتهما بمهارة من الذاكرة، وفوقهما عينى كيلى ويزرس، التى زرفت الدموع القليلة على إحساسها بالإجهاد من إجراءات الطعن والنقض فى قضيته. ومع الانتهاء من الشفتين والعينين نحت سيلفيا جانبًا قلمها الرصاص.

قالت سيلفيا لإنيد: "كان الوقت قد حان لأتجاوز ما حدث. اكتشفت ذلك بشكل مفاجئ. سواء أعجبنى أم لم تعجبنى الحقيقة، فإن من نجت من الموت والفنانة هى أنا، وليس هى. نحن جميعًا مغلوبون على أن نرى أولادنا أهم منا، وأن نعيش من خلالهم. فجأة مللت هذا التفكير. ربما أموت غدًا، كذا قلت لنفسى، لكننى حية الآن. ويمكننى أن أتعمد الحياة. دفعت الثمن، وأديت ما علىّ وليس هناك ما أخجل منه.

"وعندما يكون الحدث، التغيير الكبير فى حياتك، هو مجرد فكرة طارئة مدهشة، أليس ذلك أمرًا عجيبًا؟ ألا يتغير أى شىء إطلاقًا غير أن تتغير نظرتك للأشياء وتصبحين أقل خوفًا وأقل قلقًا وتوترًا وأقوى بشكل عام نتيجة لتغير الرؤية؟ أليس شيئًا رائعًا

أن يصبح شيئًا خفيًا داخل رأسك أكثر تحققًا وواقعية من أى شىء تعرضت له من قبل؟ أن نرى الأشياء بقدر أكبر من الوضوح ونعرف أننا نراها بقدر أكبر من الوضوح. ويخطر لك أن هذا هو معنى وجوهر حب الحياة، إن هذا هو الموضوع الذى لا يتحدث عنه أى إنسان يتكلم عن الله. لحظات كتلك".

قالت إنيد للقزم وهى ترفع كأسها: "كأس أخرى من فضلك؟"، كانت تكاد لا تستمع إطلاقًا لسيلفيا، لكنها راحت تهز رأسها وتغمغم "آه" و"آوه" بينما وعيها يتعثر فى سحابات الكحول إلى مجالات عجائبية مثل ما هو إحساسها يا ترى لو لامس القزم شفتيها وبطنها وهو يعانقها. تبين أن سيلفيا مثقفة للغاية، وأحست إنيد أنها تصادقها فى ظل مقدمات صداقة زائفة، لكن بينما لم تكن تستمع إليها كانت مضطرة للإنصات، لأنها لم تفهم بعض الحقائق الأساسية فى الكلام، مثلاً إن كان كيلى ويزرس أسود أو إن كانت جوردن قد تعرضت لعملية اغتصاب قاسية.

ومن مرسمها ذهبت سيلفيا مباشرة إلى موضوع سوق طعام "واوا" وكيف أنها اشترت من هناك واحدة من كل المجلات الفاضحة التى وجدتها. لكن لم تجد شيئًا فى المجلات قويًا بما يكفى. كانت تحتاج لأن تعاين العملية نفسها، فعل المضاجعة ذاته. عادت إلى شادس فورد وفتحت الكمبيوتر الذى أهداه لها ابنها الأصغر لزيادة التواصل بينهما فى زمن الأسى هذا. كان فى بريدها الإلكترونى رسائل منذ شهر، من التحيات والاستفسارات عن الحال من ابنها، وقد تجاهلتها. فى أقل من خمس دقائق توصلت إلى الأشياء التى تبتغيها ـ كل المطلوب هو بطاقة ائتمان ـ وراحت تمتع نفسها بالصور الفوتوغرافية الكثيرة حتى عثرت على الزاوية المنشودة للفعل

بالفاعلين المطلوبين.. رجل أسود يؤدى جنسًا فمويًا لرجل أبيض، والكاميرا تصور من وراء الساق اليسرى بزاوية ستين درجة. حمّلت الصورة واطلعت عليها.

كانت تبلغ من العمر خمس وستين عامًا ولم تر مشهدًا كهذا مطلقًا. كانت تعاين الصور طيلة حياتها ولا تثمن غموضها إطلاقًا. ها هى الآن، كل هذه التجارة التى تتم بالبايت والبيت، الآحاد والأصفار التى تتدفق عبر الأسلاك قادمة من سيرفر ما بجامعة ما فى منطقة الغرب الأوسط. اتجار واضح فى اللاشىء. جمهور جامع من الناس ملتصقون بالشاشات والمجلات.

تتساءل كيف يستجيب الناس لهذه الصور إن كانت الصور تتمتع سرًا بنفس ظروف الأشياء الحقيقية؟ ليس لأن الصور قوية للغاية، بل لأن العالم ضعيف واهن لأقصى حد. يمكن أن يكون العالم براقًا طبعًا فى ضعفه، كما فى الأيام التى تتسلط الشمس فيها قوية على التفاحات المتساقطة من الأشجار، وعندما تكون رائحة الوادى هى رائحة عصير التفاح، والليالى الباردة عندما كانت تحضر جوردن إلى البيت لتناول العشاء فتسمع صوت عجلات سيارتها على الممشى المنثور عليه الحصى، لكن العالم يسهل استبداله بالصور. لا شىء يدخل رأسك قبل أن يتحول إلى صور.

وقد أحست سيلفيا بدهشة بالغة من التناقض بين الصور الجنسية على الإنترنت ورسوماتها غير المنتهية لكيلى ويزرس. على النقيض من الشبق العادى، الذى تهدئه الصور والخيال المحض، فإن الشبق على الانتقام لا شىء يشبعه. أكثر الصور عريًا وفجورًا لا تشبعه. هذا الشبق يحتاج إلى موت شخص بعينه، إلى انتهاء تاريخ

محدد. يمكنها أن ترسم رغبتها لكن ليس طريقة إشباع رغبتها. وهكذا قالت لنفسها الحقيقة أخيرًا: إنها تريد الموت لكيلى ويزرس.

تريده ميتًا رغم مقابلتها الأخيرة على صفحات "فيلادلفيا إنكويرير" التى أعلنت فيها أن قتل ابن غيرها من الناس لن يعيد لها ابنتها. تريده ميتًا رغم قوة معارضة الطبيبة النفسية الكبيرة؛ لأنها تفسر لها موت جوردن دينيًا، على سبيل المثال، إنه انتقام إلهى من آرائها السياسية الليبرالية أو طريقتها الليبرالية فى التربية. تريده ميتًا رغم إيمانها بأن موت جوردن كان مأساة عشوائية وأن الخلاص ليس فى الانتقام بل فى تقليص عدد المآسى العشوائية على مستوى البلاد. تريده ميتًا رغم تخيلها لمجتمع يوفر الوظائف بأجور جيدة لشبان مثله (حتى لا يضطر لربط معصمى وكاحلى معالجته السابقة بالفن ويهددها حتى تعطيه الأرقام السرية الخاصة ببطاقتها الائتمانية)، مجتمع يقاوم تدفق المخدرات إلى الأحياء الحضرية (حتى لا ينفق ويزرس نقوده المسروقة على الكوكايين، وأن يكون أصفى ذهنًا عندما يعود إلى شقة معالجته السابقة بالفن، وألا يقوم بتعاطى المخدرات ويعذبها لمدة ثلاثين ساعة)، مجتمع مُتاح فيه للشباب أشياء أكثر ليؤمن بها، أكثر من السلع الاستهلاكية ذات الأسماء التجارية البراقة (حتى يقلّ تركيز ويزرس المجنون على سيارة معالجته النفسية بالفن، السيارة الكابورليه، وأن يصدقها عندما أصرت أمامه على أنها أعطت السيارة لصديقة عدة أيام وأن يتجاوز حقيقة وجود مفتاحى السيارة فى حيازتها وقتها مما يعنى كذب كلامها عن إقراض السيارة فى رأيه).. أوضح فى اعترافه المنتزع بشىء من الإكراه، والمقبول رغم ذلك أمام المحكمة: "لم أتجاوز ذلك الموضوع، جميع

المفاتيح كانت هناك على مائدة المطبخ، فهمتنى؟ لم أتمكن من تجاوز هذه المعلومة"، وما كان ليضع المكواة سهلة الاستخدام مرارًا وتكرارًا.على جلد ضحيته ويرفع حرارة المكواة من "الحرير" إلى "القطن" وهو يسألها أين ركنت الكابورليه، وما كان ليقطع رقبتها فى ذعر عندما جاءت صديقها مساء الأحد لتعيد السيارة ومعها المفتاح الثالث، مجتمع ينهى إلى الأبد الإساءات البدنية للأطفال (حتى يصبح من الغريب أن يزعم قاتل مع سبق الإصرار، أثناء مرحلة إنزال الحكم به فى المحاكمة، أن زوج أمه أحرقه بالمكواة وهو صغير، غير أن فى حالة ويزرس الذى لم تكن على جسده علامات أو آثار حروق، كان هذا الادعاء ليس له أى أثر أكثر من إلقاء الضوء على نقص الخيال عنده كشخص كاذب). كانت تريده ميتًا غم حتى إدراكها أثناء علاجها النفسى، أن ابتسامته الساخرة كانت قناعًا لحمايته، قناع فتى وحيد يحيط به ناس يكرهونه، وأنها إذا ابتسمت له كأم غفورة، كان لينحى ذلك القناع جانبًا ربما ويبكى وينتحب فى إحساس حقيقى بالندم. كانت تريده ميتًا رغم أنها تعرف أن رغبتها سترضى المحافظين الذين تعفيهم عبارة "المسئولية الشخصية" من مراعاة أوجه الظلم والإجحاف فى المجتمع. تريده ميتًا رغم أنها غير قادرة لهذه الأسباب السياسية على حضور إعدامه وأن ترى بعينيها الشىء الذى لن تعوضه لها الصور أبدًا.

قالت: "لكننى لم آت لهذه الرحلة لأى من هذه الأسباب".

قالت إنيد وكأنها تفيق من النوم: "لا؟"

"لا، نحن هنا لأن تيد لا يريد أن يعترف بأن جوردن قُتلت".

"ألا يعرف؟".

قالت سيلفيا: "بل يعرف، لكنه لا يريد الحديث فى الموضوع. كان مقربًا للغاية من جوردن، أقرب إليها بكثير من قربه منى حتى. وقد حزن كثيرًا، أعترف له بهذا. حزن بقوة. بكى بقدر ما يمكنه. لكنه تجاوز الموضوع ذات صباح. قال إن جوردن رحلت وأنه لن يعيش فى الماضى. قال إن بداية من عيد العمال سينسى أنها ضحية. وكل يوم، مع اقتراب شهر أغسطس من نهايته، يذكرنى بأنه بداية من يوم عيد العمال(*) لن يعترف بأنها قتلت. تيد رجل عقلانى للغاية. آراؤه أن البشر يفقدون أطفالهم منذ الأبد وأن الكثير من الحزن والأسى على هذا الموضوع حماقة وتقوقع داخل الذات. لا يعنيه ما يحدث لويزرس أيضًا. قال إن متابعة المحاكمة طريقة أخرى لعدم تجاوز موضوع القتل.

"وهكذا، فى عيد العمال قال لى: ربما يبدو لك هذا غريبًا، لكننى لن أتحدث عن موتها مرة أخرى، وأريدك أن تتذكرى ما أقوله. هل ستتذكرين يا سيلفيا؟ حتى لا تعتقدين أننى مجنون فيما بعد؟ وقلت له: لا يعجبنى هذا الكلام يا تيد، لا أقبله، فقال إنه آسف لكن عليه أن يفعل هذا. وفى الليلة التالية عندما عاد من البيت قلت له، على ما أتذكر، إن محامى ويزرس يدّعى أن اعترافه انتزع بالإكراه وأن القاتل الحقيقى ما زال طليقًا. ابتسم تيد لى نوعًا، وقال: لا أعرف عم تتحدثين. فقلت له: أتحدث عن الشخص الذى قتل ابنتنا. قال: لم يقتل أحد ابنتنا، لا أريد أن أسمعك تقولين هذا الكلام مرة أخرى. فقلت: تيد، لن يجدى هذا الأسلوب، فقال: ما الذى لن يجدى؟ وقلت: تظاهرك بأن جوردن لم تمت، فقال: كان

(*) عيد العمال فى الولايات المتحدة هو يوم الاثنين الأول من شهر سبتمبر، وليس الأول من مايو كباقي العالم (المترجم).

عندنا ابنة وهى ليست عندنا الآن فأعتقد أنها ميتة، لكننى أحذرك يا سيلفيا، لا تخبرينى أنها قتلت، هل فهمت؟ ومنذ ذلك الحين يا إنيد مهما ضغطت عليه لا يتراجع عن موقفه أبدًا. دعينى أخبرك، أنا على مسافة بوصة من طلاقى منه. حالى هكذا دائمًا، إلا أنه عزيز علىّ للغاية. لا يغضب أبدًا عندما أتحدث عن ويزرس، بل يستهين بالموضوع ويضحك لإنهائه، وكأن هذا الموضوع فكرة مهووسة ما عندى. تيد يريدنى أن أكون عقلانية مثله، يعتقد أنه يسدينى خدمة، فيأخذنى إلى كل هذه الرحلات البرية والبحرية، وكل شىء رائع باستثناء أن بالنسبة إليه فالشىء الأكثر فظاعة فى حياتنا لم يحدث، وقد حدث هذا الشىء بالنسبة لى".

قالت إنيد: "إذن، فهل حدث؟"

تراجعت سيلفيا وهى تشعر بالصدمة: "شكرًا لك". رغم أن إنيد طرحت السؤال لأنها أحست للحظة بالارتباك، وليس لأنها تريد أن تسدى سيلفيا خدمة. قالت سيلفيا: "شكرًا لك لأنك صادقة بما يكفى لتسألينى هذا السؤال. أشعر أننى مجنونة أحيانًا، وكأن كل شىء لا يحدث إلا فى عقلى. إننى أجول وسط مليون قطعة صغيرة من اللاشىء، مليون فكرة وإحساس وذكرى داخل رأسى، يومًا وراء يوم، وسنة وراء سنة، وهناك كل هذا التخطيط والتفكير، وكأننى أشيد كاتدرائية من خلّة الأسنان داخل رأسى. ولا يساعدنى حتى أن أكتب مذكرات، لأننى لا يمكننى أن أجعل للكلام المرصوص على الصفحات أى تأثير على عقلى. ما إن أكتب شيئًا حتى أهجره. وكأننى أساقط القروش من على حاجز السفينة. وهكذا أبذل هذا المجهود الذهنى دون أى احتمال لوجود دعم خارجى، باستثناء الناس فى أيام الأربعاء والخميس، فى مجموعات الدعم، وفى

الوقت نفسه يتظاهر زوجى بأن جوهر هذا التفكير الداخلى العميق الذى أمارسه - أن ابنتى قُتلت - ليس حقيقيًا. وهكذا، وبشكل متزايد، فالمنارات الوحيدة المتبقية فى حياتى، شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، هى مشاعرى".

"كما أن تيد على ذلك، يعتقد أن ثقافتنا مرتبطة بشكل زائد بالمشاعر، يقول إن الموضوع خرج عن السيطرة، وأن ليس الكمبيوتر هو الذى يجعل كل شىء افتراضى، بل الصحة النفسية. الجميع يحاولون تصحيح أفكارهم وتحسين مشاعرهم ويبذلون الجهد للحفاظ على العلاقات وتحسين مهارات الرعاية الأبوية بدلاً من الاكتفاء ببساطة بالزواج وتربية الأطفال كما كنا نفعل فى الماضى، وما يقوله تيد هو رأيه الذى يلازمه بعناد. يريد أن يأكل طعامًا "حقيقيًا" وأن يذهب إلى أماكن "حقيقية" ويتحدث عن أشياء "حقيقية" مثل البيزنس والعلوم. وهكذا لم يعد بيننا مشتركات بشأن ما هو المهم فى الحياة".

"وقد خدع طبيبتى النفسية يا إنيد. دعوتها على العشاء حتى تفحصه. أتعرفين مآدب العشاء الكبيرة تلك التى تقضين فيها ثلث ساعة قبل كل طبق تقدمينه، من مشهيات وطبق رئيسى وحلو؟ أعددت عشاءً من هذا النوع، وكانت طبيبتى النفسية طوال الوقت معه فى حجرة الطعام تستجوبه. وعندما قابلتها فى اليوم التالى قالت إن حالته طبيعية للغاية فى الرجال، ويبدو أنه تعامل مع أحزانه بالقدر الكافى لأن يستمر فى الحياة، وتعتقد أنه لن يتغير وأن علىّ الآن أن أتقبل حالته".

"أتعرفين؟ ليس من المفترض أن أدع نفسى أفكر فى أفكار سحرية أو دينية، لكن هناك فكرة لا يمكننى الفكاك منها، أن هذا

العطش المجنون للانتقام على مدار هذه السنوات ليس حقًا عطشى أنا، بل تيد. أنه لا يريد أن يتعامل مع الموضوع بنفسه، وأن على أحدهم أن يتعامل فيه بالنيابة عنه، وقد فعلت، وكأننى أم تلد طفلة لأبوين سيتبنيان الطفلة، لكننى لست حبلى حقًا، بل حبلى بالمشاعر. ربما إذا تحمل تيد مسئولية أكبر عن مشاعره، وكان أقل تسرعًا فى العودة للعمل، كنت لأبقى كما كنت دائمًا، أبيع مشغولاتى الخشبية فى معرض الكريسماس. ربما كون تيد عقلانيًا وعمليًا هكذا هو الذى فعل بى هذا. ربما كان جوهر هذه القصة الطويلة التى استمعت إليها بكرم يا عزيزتى إنيد، هو أننى لا يمكننى أن أكف عن العثور على جوهر أخلاقى للقصة مهما اجتهدت فى ألا أجد لها عبرة أخلاقية".

فى عقل إنيد فى تلك اللحظة رأت المطر ينهمر. رأت نفسها فى بيت بلا جدران يحميها من حالة الطقس فى الخارج، وكان معها منديل. ثم جاءت الأمطار من الشرق، ورأت شيب ووظيفته الجديدة المهمة كمراسل صحفى. ها هى صورة أخرى تأتى من الغرب، فيها كم هى تحب أولاد جارى الأذكياء الوسيمين. ثم تبدلت الرياح واتجهت إلى الجانب الشمالى للبيت وفيه دينيس، كيف تزوجت وهى بعد صغيرة للغاية لكنها أصبحت الآن أكبر وأكثر حكمة تتمتع بقدر كبير من النجاح فى عملها بالمطعم يحدوها الأمل لأن تقابل الشاب المثالى! ثم جاءت الأمطار عاصفة من الجنوب ومعها آل وكم سيصبح فى أفضل حال لو بذل الجهد لتحسين سلوكه وتناول أدويته بالشكل الصحيح، وزاد المطر وزاد وهى متعبة، ولا تريد إلا المنديل...

قالت: "سيلفيا؟"

"نعم؟"

"أريد أن أخبرك بشىء. عن زوجى".

فى لهفة ربما على أن تسدد دينها بالاستماع، أومأت سيلفيا برأسها مشجعة. لكن فجأة ذكرت إنيد بالفنانة كاثرين هيبورن. فى عينى هيبورن هناك لاوعى من الامتيازات التى تجعل سيدة كانت فقيرة يومًا مثل إنيد تريد أن تركل ذقنها النبيل بأقصى قوة. أحست أنه من الخطأ أن تطلع سيدة كهذه على أى شىء.

قالت سيلفيا لتحثها على الكلام: "نعم؟"

"لا شىء، آسفة".

"لا، تكلمى".

"لا شىء حقًا. أريد أن أنام. هناك أشياء كثيرة نعملها غدًا!"

نهضت وهى تشعر بالدوار وتركت سيلفيا توقع على شيك المشروبات. استقلتا المصعد فى صمت. الألفة المتهورة بينهما تركت فى أعقابها ارتباكًا قذرًا. لكن عندما خرجت سيلفيا من المصعد فى الطابق العلوى، خرجت إنيد وراءها. لا تحتمل أن تعرف سيلفيا أنها من نوعية الناس الذين يقيمون فى الطابق "ب".

توقفت سيلفيا عند باب جناح خاص كبير. "أين حجرتك؟"

قالت إنيد: "إلى الأمام هناك". لكن هذا التظاهر كما رأت لا يمكن أن تحافظ عليه بشكل مستدام. غدًا ستتظاهر بأنها كانت مرتبكة بالأمس.

قالت سيلفيا: "تصبحين على خير، شكرًا مرة أخرى على استماعك لى". انتظرت بابتسامة رفيقة أن تتحرك إنيد. لكن إنيد لم تتحرك. نظرت حولها فى ارتباك وقالت: "عذرًا. أى طابق هذا؟"

"إنه العلوى".

"حقًا. أنا فى الطابق الخطأ. آسفة".

"لا تتأسفى. أتريدين أن أسير معك إلى حجرتك؟"

"لا، لقد ارتبكت. هذا هو الطابق العلوى والمفترض أن أكون فى الطابق السفلى. طابق أسفل من هذا بكثير. آسفة".

التفتت لكن ما زالت لا يمكنها أن تحمل نفسها على الابتعاد. "زوجى. "هزت رأسها، "لا، ابننا فى الواقع، لم نأكل معه الغداء اليوم. هذا ما أردت إخبارك به. قابلنا فى المطار وكان المفترض أن نتناول الطعام معه وصديقته، لكنه وببساطة، غادر. لا أفهم، ولم يعد أبدًا، وما زلنا لا نعرف لماذا غادر، ما علينا".

قالت سيلفيا وهى توافقها على رأيها: "هذا غريب".

"لا أريد أن أشعرك بالملل.."

"لا لا يا إنيد، عار عليك".

"أردت أن أوضح هذا الموضوع، والآن سأذهب للنوم. سرنى مقابلتك كثيرًا! هناك الكثير من الأشياء نفعلها غدًا. أراك على الإفطار!"

قبل أن تتمكن سيلفيا من إيقافها، مضت إنيد فى الممر (تحتاج لإجراء جراحة فى فخذها لكن تتخيل أن تترك آل فى البيت وحده وهى فى المستشفى، تخيل!) وهى تؤنب نفسها على المضى فى ممر

لا تنتمى إليه وتغمغم بهراء غير مفهوم عن ابنها. مالت على مقعد وثير فى الممر فانهارت عليه وبدأت فى البكاء. الرب أعطاها خيالاً كافيًا لتبكى على التعساء الذين حجزوا الحجرات الأرخص فى الطابق "ب" وسط أجنحة فاخرة على متن سفينة رحلات بحرية فاخرة، لكن الطفولة الفقيرة الخالية من النقود تركتها غير قادرة على تحمل فكرة دفع ٣٠٠ دولار إضافية لتأخذ حجرة فى طابق أفضل، وهكذا راحت تبكى على نفسها. أحست بأنها وآل الأذكياء الوحيدين ضمن جيلها الذين تمكنوا من ألا يصبحون أثرياء.

ها هو عذاب حذفه مؤلفو المأساة الإغريقية. البطانية وخداع الذات. بطانية دافئة عذبة تغطى عذابات الروح، لكن لا تغطى كل شىء إطلاقًا. والليالى هنا باردة.

فكرت فى العودة إلى حجرة سيلفيا وأن تخفف الأعباء عن نفسها تمامًا.

لكن، وسط دموعها رأت شيئًا جميلاً تحت مقعدها، إلى جوارها.

كانت ورقة بعشرة دولارات، مطوية مرة واحدة. شىء رائع.

نظرت إلى الممر ثم مدت يدها إليها. ملمس الورقة لذيذ.

بعد أن أحست بالتعافى نزلت إلى الطابق "ب". الموسيقى الخلفية تهمس فى اللونج، آلة ما أنيقة ومعها الأكورديون. تخيلت أنها تسمع اسمها من بعيد، وهى تضع المفتاح الإلكترونى فى القفل وتدفع باب حجرتها.

لم يفتح الباب فدفعته بقوة أكبر.

"إنيد".. ألفريد يتوسل من على الجانب الآخر.

"صمتًا يا آل، ماذا حدث؟"

الحياة كما تعرفها انتهت وهى تدفع بنفسها للحجرة من وراء الباب نصف 'فتوح. وجدت ألفريد عاريًا وظهره للباب وهناك طبقة من الملاءات متناثرة فوق أوراق من جريدة سان جود الصباحية. سراويل ومعطف رياضى وربطة عنق على سريره، الذى أصبح على المرتبة دون ملاءات. هناك قدر ضخم من الملاءات كومة على السرير الآخر. استمر فى المناداة عليها بعد أن أضاءت النور وأصبحت فى مجال إبصاره. كان هدفها الفورى والأول هو أن تهدئه وأن تلبسه بيجاما، لكن هذا الموضوع استغرق بعض الوقت، فقد كان يشعر بامتعاض بالغ ويقول أنصاف جمل، ولا يمكنه حتى أن يقول عبارات مفهومة. يعتقد أن الوقت صباحًا وأن عليه الاستحمام وارتداء ثيابه، وأن الأرض إلى جوار الباب هى البانيو، وأن مقبض الباب هو الحنفية، وأن كل شىء معطل. ما زال مصرًا على أن يفعل ما يريد بطريقته، ما أدى إلى الكثير من الشد والجذب، وإلى ضربة قوية لحقت بكتفها. استشاط غضبه وراحت هى تبكى وتسىء إليه بالكلام. تمكن بيديه الخرقاء من أن يفك أزرار بيجامته بنفس سرعة عقدها للأزرار عليه. لم تسمعه مطلقًا وهو يقول "خ××اء" وقدر فصاحته فى استخدام الكلمة ومرادفاتها الآن أنارت سنوات من الاستخدام السابق لهذه الكلمة فى رأسه. قام ببعثرة ملاءات سريرها فيما كانت هى ترتب فراشه. توسلت إليه أن يجلس فى هدوء. بكى لأن الوقت تأخر للغاية وهو مرتبك للغاية. حتى الآن لا يمكنها أن تقاوم حبها له. ربما الآن تحديدًا. ربما كانت تعرف طوال الوقت، منذ خمسين عامًا، بوجود هذا الصبى الصغير داخله. ربما

كل الحب الذى منحته لشيبر وجارى وكل الحب الذى نالت مقابله قدرًا قليلا للغاية من الحب، كان مجرد تدريبًا على الحب الذى ستمنحه لطفلها الأكثر حاجة للرعاية. راحت تهدئه ولعنت فى سرها أدويته الفاسدة لساعة أو نحو الساعة، حتى نام أخيرًا فلاح لها فى الساعة مرة أن الوقت ٥,١٠ ثم رأت فى النظرة الثانية أنها ٧,٣٠ وكان يحلق ذقنه بماكينة الحلاقة الكهربية. دون أن تنام بالقدر الكافى أحست بأنها فى أفضل حال وهى تنهض وترتدى ثيابها وتمضى إلى الإفطار، ولسانها كمنفضة الغبار، ورأسها يدور.

حتى على كِبر حجم السفينة كان البحر هذا الصباح متقلبًا يصعب معه المشى بثبات. ضربات الموج التى تلوح من وراء نوافذ قاعة كيركجارد شبه منتظمة، موسيقى للصدفة، والسيدة نيجرين تفترس دون تهذيب شياطين الكافيين والقهوة، والسيد والسيدة سودربلاد وصلا مبتلّين بعد طلعة سويدية حميمية إلى الخارج عند البحر، والعجيب أن آل أثبت أنه ند لتيد روث فى الحوار. استأنفت إنيد وسيلفيا علاقتهما فى جمود، عضلات مشاعرهما مشدودة تتألم من جرعة الأمس الزائدة. تحدثتا عن الطقس. هناك منسقة للأنشطة اسمها سوزى جوش مرت ومعها أنباء عن الأنشطة واستمارات لازمة لخروجة بعد ظهر اليوم فى نيوبورت، بولاية رود أيلاند. بابتسامة مشرقة وأصوات مشتاقة وقعت إنيد على استمارة جولة بيوت البلدة التاريخية، ثم راقبت فى حسرة كيف مرر الآخرون جميعًا - باستثناء النرويجى والنرويجية المهووسان بالتواصل الاجتماعى - الاستمارة دون توقيعها إلى الآخرين. قالت بصوت مهتز: "سيلفيا، ألن تخرجى اليوم فى الجولة؟" نظرت سيلفيا إلى زوجها ذى النظارة الذى راح يومئ برأسه بحماس بالغ، وللحظة بدا

أن عينيها الزرقاوين تنظران إلى الداخل، والظاهر أن عندها قدرات غير المنتمين إلى الغرب الأوسط، الأثرياء، الخاصة بتقييم رغباتها الخاصة دون مراعاة للتوقعات الاجتماعية للآخرين أو قواعد التهذيب. قالت: "حسن، نعم، جيد. ربما سأفعل". فى العادة كانت إنيد لتستاء من لمحة العمل الخيرى الذى أحسته منها، لكن ليس اليوم، فهى اليوم تحتاج إلى أكبر قدر من التعامل الخيرى معها. وهكذا مضت فى يومها الصعب، لتستمتع بنصف جلسة المساج السويدى المجانية، ثم جلست تراقب البحر من عند تراس إبسن، ثم ابتلعت ستة أقراص إيبوبروفين وكوبًا كبيرًا من القهوة لتحضر نفسها لجولة بعد الظهر فى نيوبورت الساحرة التاريخية! قبل الجولة أعلن ألفريد أن قدميه تؤلمانه لدرجة يصعب معها أن ينزل إلى الشاطئ، فجعلته إنيد يعدها بألا ينام وإلا فلن يأتيه النوم ليلاً، ورجت تيد روث وهى تضحك (كيف تفصح أن هذه مسألة حياة أو موت؟) أن يبقيه يقظًا، فرد تيد بأن إبعاد آل نيجرين عن السفينة سيساعده فى عمله هذا.

روائح الميناء وبلح البحر التى دفأتها الشمس، روائح وقود السفينة وملاعب كرة القدم وأعشاب البحر الجافة، نوستالجيا عميقة للأشياء البحرية والأشياء الخريفية، أحاطت كلها بإنيد وهى تمضى من الممشى إلى أتوبيس الجولة. النهار جميل لدرجة خطيرة. هبات كبيرة من الريح وسحابات متفرقة وشمس مشرقة كلبدة الأسد من حولها، تنسكب على ألواح بيوت نيوبورت الخشبية البيضاء وحدائق بيوتها الخضراء، بيوت براقة لدرجة تصعب معها رؤيتها على امتداد الأفق. قالت مرشدة الجولة: "يا جماعة، استرخوا واستمتعوا بالجولة". إنيد نامت ست ساعات من بين الساعات الخمس وخمسين السابقة، وحتى مع شكر سيلفيا لها

على دعوتها للجولة اكتشفت أن لا طاقة لديها للتجول. آل أستور وآل فيندربيلت، صوامع المتعة والنقود، تشعر بضجر من هذا الكلام، تشعر بالضجر من الحسد، بالضجر من نفسها. لا تفهم فى الآثار أو المعمار، ولا يمكنها أن ترسم مثل سيلفيا، ولا تقرأ مثل تيد، وعندها اهتمامات قليلة وليس لديها خبرات. القدرة على الحب هى الشىء الحقيقى الوحيد الذى تمتعت به يومًا. وهكذا تجاهلت كلام المرشدة السياحية والتفتت إلى ملمس نهار أكتوبر الأصفر. الرياح القوية تدفع الأمواج بقوة عند شاطئ الخليج فتشم رائحة الليل المقترب. الليل يأتيها بقوة: الغموض والألم والاشتياق العجيب إلى "الممكن"، وكأن انكسار القلب شىء يستحق السعى إليه بهمة. فى الأتوبيس بين روزكليف والمنارة، عرضت سيلفيا على إنيد هاتفها المحمول حتى تتصل بشيب. رفضت إنيد، بما أن الهواتف المحمولة تأكل الدولارات أكلاً وكانت تعتقد أن الدفع يبدأ من لحظة الضغط على الأزرار، لكنها قالت: "مرت سنوات يا سيلفيا منذ كانت لنا علاقة به. لا أعتقد أنه يخبرنا بحقيقة ما يحدث فى حياته. قال مرة إنه يعمل لصالح جريدة وول ستريت جورنال. ربما أخطأت سماعه، لكن أعتقد أن هذا هو ما قاله، ولا أعتقد أن هذا هو المكان الذى يعمل فيه فعلاً. لا أعرف كيف يكسب رزقه. مؤكد أنك ترين أن ليس من حقى أن أشتكى فى هذا الموضوع، وأنت عندك مآسٍ أكبر بكثير". كلامها هذا فى حضور سيلفيا لم يكن مؤلمًا، ليس للحظة، ولمحت إنيد كيف أنها قد تعترف بسر أو اثنين آخرين، وكيف أن هذا التعرى فى العلن، بينما هو مؤلم، قد يوفر لها العزاء. لكن مثل ظواهر كثيرة جميلة من على بُعد، كالرعد وعزيف البراكين والنجوم والكواكب، فإن هذا الألم المراوغ، تبين أنه عن قرب،

لاإنسانى. من نيويورت أبحرت سفينة جانر ميردال شرقًا إلى بحر من الأبخرة الياقوتية الزرقاء. المركب خانقة لإنيد بعد خروجها بعد الظهر إلى السماوات الكبيرة وسيارات الأغنياء العملاقة فى الشوارع، ورغم أنها ربحت ستين دولارًا إضافية فى قاعة سترينج بيرد للألعاب، أحست كأنها حيوان تجارب فى قفص إلى جواره حيوانات تجارب أخرى، وجاء وقت النوم مبكرًا، وعندما بدأ ألفريد يتقلب كانت قد أفاقت من النوم، تنصت إلى جرس القلق فى عقلها يرن بقوة كبيرة لدرجة اهتز معها سريرها، وها هو ألفريد يضىء النور ويصيح، والجيران فى الحجرة المجاورة يضربون على الجدار ويصيحون ردًا عليه، وألفريد ينصت بوجهه ملويًا فى جنون ويهمس كالمتآمرين أنه رأى "خاء" يجرى بين السريرين، ثم فض وإعادة ترتيب السريرين، ووضع حفاظة، ثم حفاظة ثانية للتصدى لمشكلة الهلوسة لديه، ثم رفع قدميه مهزوزتى الأعصاب إلى سريره، ثم توسله بكلمة "إنيد" حتى كادت تفقد معناها، والمرأة ذات الاسم المذكور تنتحب فى الظلام فى قعر اليأس والقلق منذ الأبد، مثل مسافر متعب يصل إلى محطة قطار مختلفة عن المحطات السابقة فى ساعة الفجر، والمعجزات الصغيرة، معجزات استعادة الإبصار، وبركة طباشيرية فى ساحة انتظار مغمورة بالحصى، وجدول ماء يتلوى منبعثًا من ماسورة مدخنة معدنية، توصلت إلى قرار.

على خريطة السفينة أمامها، فى الجانب الخلفى من الطابق "د"، ترى على الخريطة رمز مساعدة المحتاجين للمساعدة. بعد الإفطار تركت زوجها يتحدث مع السيد والسيدة روث ومضت إلى حجرة الصليب الأحمر. الشىء الحقيقى الذى يدل الشعار عليه كان بابًا زجاجيًا عليه ثلاث كلمات مكتوبة بماء الذهب. "ألفريد" هى الكلمة

الأولى والثالثة هى "مصحة"، فقدت الإحساس بالكلمة الوسطى فى الظلال التى ألقتها كلمة "ألفريد". تفحصت المكان فى لهفة.

انحسرت الكلمات الثلاث جميعًا مع انفتاح الباب بيد شاب مفتول العضلات اسمه مكتوب على كارت أبيض: "ماثر هيبارد، طبيب". وجهه ضخم خشن نوعًا، مثل وجه ممثل إيطالى أمريكى يحبه الناس، وجه يظهر أحيانًا فى دور الملاك وأحيانًا فى دور راقص الديسكو. قال: "أهلاً، كيف حالك اليوم؟" وهو يكشف لها عن أسنان لؤلؤية. تبعته إنيد إلى المكتب، حيث أشار إلى مقعد إلى جوار مكتبه لتجلس عليه.

قالت: "أنا السيدة لامبرت. إنيد لامبرت، حجرة ب.11كنت آمل أن تساعدنى".

"أتمنى هذا بدورى. ما المشكلة؟"

"عندى بعض المشاكل".

"مشاكل عقلية؟ مشاكل عاطفية؟"

"المشكلة هى زوجى".

"عذرًا". د. هيبارد يبتسم فى مرح: "قلت إن عندك أنت مشكلة؟"

ابتسامته هى العذوبة. أسرت الابتسامة ذلك الجزء من إنيد الذى يذوب من رؤية صغار كلب البحر والقطط الصغيرة، ورفض أن يفك أسرها حتى بادلته الابتسامة فى شىء من الاستياء. قالت: "مشكلتى هى زوجى وأطفالى".

"آسف مرة أخرى يا إديث.. وقت مستقطع؟" أنزل د. هيبارد رأسه ووضع يديه فوقها، ثم نظر إليها من بين ذراعيه: "لابد أن نكون واضحين: أنت من لديك المشكلة؟"

"لا، أنا بخير. لكن هناك شخص آخر فى".

"هل تشعرين بالتوتر؟"

"نعم، لكن".

"لا تتامين؟".

"بالضبط. المشكلة أن زوجى".

"إديث؟ قلت إديث؟".

"إنيد. لامبرت، ل - ا - م - ب،".

"إنيث، ما حاصل ضرب سبعة فى أربعة ناقص ثلاثة؟"

"ماذا؟ خمس وعشرون".

"وما هو اليوم فى أيام الأسبوع؟"

"اليوم هو الإثنين".

"وما هى بلدة رود إيلاند التاريخية التى زرناها بالأمس؟"

"نيوبورت".

"هل تتعاطين حاليًا أية عقاقير لعلاج الاكتئاب أو التوتر أو الفصام أو الشيزوفرانيا أو الصرع أو باركنسن أو أى أمراض نفسية أو عصبية أخرى؟"

"لا".

أومأ د. هيبارد برأسه واعتدل في جلسته، وفتح درجًا عميقًا من الكونسول وراءه وسحب حفنة من العبوات البلاستيكية. أحصى ثماني منها ثم وضعها على مكتبه أمام إنيد. كان لها ملمس الأشياء الغالية فلم يعجبها شكلها.

"هذا دواء جديد ممتاز سوف يساعدك في مشكلتك". كلام د. هيبارد كأنه محفوظ معلب. غمز لها بعينه.

"عذرا؟"

"هل أسأنا فهم بعضنا؟ أعتقد أنك قلت: عندي مشكلة. وذكرت أنك تعانين من التوتر واضطراب النوم؟".

"نعم، لكن ما قصدته هو أن زوجي".

"الزوج، نعم، أو الزوجة. في العادة شريك الحياة الأقل هدوءًا هو الذي يأتي ليقابلني. في الواقع، الخوف الممض من طلب تعاطي أسلان هو الحالة المرضية التي يُوصف لها دواء أسلان. هذا الدواء يردع الإحساس "العميق" أو "العنيف" بالخزي". ابتسامة هيبارد كانبعاجة طازجة في ثمرة فاكهة ندية. رموشه كرموش جراء الكلاب الصغيرة، شعره فيه دعوة صريحة لمداعبته والربت عليه. قال: "ما رأيك؟ هل تسمعينني جيدًا؟".

خفضت إنيد عينيها وتساءلت إن كان الناس يموتون من قلة النوم. بعد أن اعتبر سكوتها علامة على الرضا استأنف هيبارد كلامه: "نعتقد أن عوامل تثبيط الجهاز العصبي المركزي العادية مثل الكحول تكبت إحساس الخزي. لكن الاعتراف المخزي بأن المرء تحت أثر ثلاث كؤوس مارتيني لا يفقد ما فيه من خزي عند الكشف عن هذه الحقيقة. خذي عندك مثلاً إحساس الندم العميق بعد

انتهاء أثر كؤوس المارتيني الثلاث. ما الذى يحدث على المستوى الجزيرى يا إدنا عندما تشرين ثلاثة كؤوس من المارتينى؟ يحدث أن الإيثانول يختلط بمستقبلات الفاكتور ٢٨ أ العصبى، أى عامل إحساس الخزى "العميق" أو "العنيف". لكن الفاكتور ٢٨ أ لا يتأين أو يُمتص بشكل ملائم عند موقع الاستقبال العصبى. بل يبقى بشكل مؤقت مخزنًا عند موقع الإرسال. وهكذا عندما ينتهى أثر الإيثانول، تصبح المستقبلات العصبية مغمورة بالفاكتور ٢٨ أ. الإحساس بالخوف من المهانة والسعى للمهانة مرتبطان بشدة: الإخصائيون النفسيون يعرفون هذا الموضوع، وكذلك الروائيون الروس. وهذا أمر تبين أنه "حقيقى" ببساطة، بل حقيقى حقًا. حقيقى على المستوى الجزيئى. المهم، أسلان يؤثر على كيمياء الخزى بشكل مختلف تمامًا عن تأثير المارتينى. الدواء يقضى تمامًا على جزيئات الـ ٢٨ أ. أسلان حيوان مفترس للغاية".

الواضح أن الدور الآن على إنيد أن تتكلم، لكنها لسبب ما لم تدرك أنه دورها. قالت: "يا دكتور. آسفة، لكننى لم أنم جيداً وأشعر بشىء من الارتباك".

قطب الطبيب جبينه بعذوبة: "مرتبكة؟ أم مرتبكة؟"

"عذرًا؟"

"قلت لى عندك مشكلة. بناء على ردود فعلك الإكلينكية شخصت أنك مصابة بالديسيزما دون وجود ملحوظ للديمنتيا، وأقدم لك مجانًا ثمانى علب أسلان عينة مجانية، فى كل منها ثلاثون كبسولة ٣٠ ملجرام، حتى تستمتعى بما تبقى من رحلتك وبعد ذلك تابعى برنامج ثلاثين عشرين عشرة التى نوصى بها. لكن يا إليانور، يجب

أن أحذرك، أنك إن كنت مرتبكة، ولست مجرد مرتبكة، فربما اضطر إلى تغيير تشخيصى لك، وهو ما قد يمنع عنك تعاطى الأسلان".

ها هنا رفع هيبارد حاجبه وصفر لحنًا رافقته ابتسامته الشهيرة.

قالت إنيد: "لست مرتبكة، بل زوجى هو المرتبك".

"إن كنت تقصدين بمرتبكة، مرتبكة، إذن دعينى أعبر لك عن أملى الصادق فى أنك سوف تستخدمين أسلان بنفسك، ولن تعطيه لزوجك. فى وجود الديمنتيا، يجب عدم تعاطى أسلان. ولذلك فإننى لابد أن أصر على أن تستخدمى الدواء كما هو موصوف لك فقط، وتحت إشرافى ومتابعتى الدقيقة. عمليًا، أنا لست ساذجًا. فأنا أفهم أن دواء قويًا كهذا يؤدى إلى الراحة، دواء كهذا ليس متوفرًا بعد على البر، يجد طريقه إلى أيدى الآخرين فى العادة".

صفر هيبارد بضعة ألحان أخرى، يرسم صورة شخص لا يتدخل فى شأن غيره، وهو يتفحص إنيد ليتأكد من أنه يسليها.

قالت وهى تحيد عنه بعينيها: "زوجى يصبح حاله غريبًا فى الليل. يصبح مستاءً وعصبيًا للغاية ويصعب التعامل معه، ولا يمكننى أن أنام وقتها. أنا متعبة طوال النهار وغاضبة. وهناك أشياء كثيرة أريد أن أفعلها".

طمأنها هيبارد بصوت أكثر رصانة: "سوف يساعدك أسلان. هناك مسافرون كثيرون يعتبرونه استثمار أهم من إمكانية إلغاء الحجز. بكل النقود التى أنفقتها على رحلتك هنا يا إنيث، لك الحق فى أن تشعرى بأنكِ فى أفضل حال فى كل لحظة. الشجار مع

زوجك والقلق على حيوانك الأليف الذى تركتيه فى البيت، لا يمكنك تحمل كلفة هذه المشاعر السيئة. فكرى فى الموضوع من هذه الزاوية، إذا كان أسلان سيمنعك من فقدان متعة واحدة مدفوعة الأجر هنا بسبب الديسيزما فهناك تعويض عن هذا الموضوع، وأقصد بالتعويض جلستك المجانية تمامًا معى، وفى نهاية الجلسة تأخذين ثمانى علب من أسلان ٣٠ ملجم "للرحلات"، هذا تعويض".

"ما هو أشلاند؟"

طرق أحدهم على الباب الخارجى للحجرة، وارتجف هيبارد وكأنه يرغب فى أن يصفى أفكاره: "إيدى، إيدين، إدنا، اعذرينى ثانية واحدة. بدأت أفهم أنك مرتبكة حقًا بشأن آخر ما توصل إليه العلم بمجال الطب النفسى وما يمكنه أن يقدمه لعملائه المميزين. أراك تحتاجين لمزيد من الشرح أكثر من أغلب المسافرين معنا، لو عذرتينى لحظة واحدة،".

أخذ هيبارد علب الأسلان الثمانى من الكونسول، ثم أغلقه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه، ثم تقدم من الممر الموصل إلى الباب. سمعت إنيد غمغمته وصوت خفيض لرجل عجوز يرد: "خمس وعشرون"، "الإثنين"، "نيوبورت". فى أقل من دقيقتين عاد الطبيب وهو يحمل شيكات سياحية.

سألته إنيد: "ما تفعله هذا سليم؟ أقصد من الناحية القانونية".

"سؤال جيد يا إنيد، لكن تخيلى أنه قانونى تمامًا؟" تفحص أحد الشيكات فى شرود ثم وضع الشيكات فى جيب قميصه: "سؤال ممتاز، سؤال عبقرى. أخلاقيات المهنة تمنعنى من بيع الأدوية التى

أكتبها للمرضى، وليس أمامى لهذا السبب سوى أن أقدم عينات مجانية. للأسف، بما أن أسلان لم يحصل بعد على موافقة جهاز الأدوية الأمريكية، وبما أن أغلب ركاب السفينة أمريكان، وبما أن مصمم وصانع أسلان، شركة فارماكوبيا إس أيه ليس لديها حافز لتزويدى بعينات مجانية بما يكفى للطلب الكبير على الدواء، أجدنى مضطرًا لشراء عينات مجانية بسعر الجملة. ومن هنا يأتى سعر جلساتى الذى لولا ما قلته لكان مبالغًا فيه".

سألت إنيد: "ما سعر العلب الثمانية؟"

"كونها مجانية وليست للبيع مرة أخرى، فليس لها أى ثمن فعلاً يا إرثا. إن كنت تسألين كم كلفنى تقديم هذه الخدمة لك مجانًا فالإجابة هى ثمانية وثمانون دولارًا أمريكيًا".

"القرص بأربعة دولارات!"

"صحيح. الجرعة الكاملة للمرضى العاديين هى ٢٠ ملجم يوميًا. أى قرص واحد. أربعة دولارات فى اليوم من أجل إحساس رائع: أغلب المسافرين على متن السفينة يجدونه سعرًا ممتازًا".

"قل لى إذن، ما هو هذا الأشرم؟"

"أسلان. وهو كما قيل لى اسم لمخلوق أسطورى من الأساطير القديمة. عبدة الشمس وأشياء من هذا القبيل. سأكذب عليك لو قلت أعرف. لكن أفهم أن أسلان كان أسدًا عظيمًا".

تقافز قلب إنيد بين ضلوعها. أخذت العلب من على المكتب وفحصت الأقراص من وراء الغلاف البلاستيك الصلب الذى يغلفها. كل قرص عليه علامتان بالعرض لتيسير كسره، أم هل هذه العلامة

فى الحقيقة أسد بلبدة غزيرة؟ أسلان (علامة تجارية) كروزر(اسم تجارى)، هذا هو الاسم.

قالت: "ماذا يفعل؟"

رد هيبارد: "لا شيء إطلاقًا. إن كنت فى صحة نفسية جيدة. لكن، دعينا نواجه الحقيقة، من فى صحة نفسية جيدة؟"

"وإن لم أكن فى صحة نفسية جيدة؟"

"أسلان يوفر تنظيمًا رائعًا للعوامل العصبية. أفضل الأدوية الموافق عليها الآن للاستخدام التجارى لا تُقارن به بالمرة".

"هل هو مضاد اكتئاب؟"

"هذا وصف مبسط للغاية. أفضل عبارة "محسن للأداء الشخصى"".

"وكلمة "كروزو" المكتوبة عليه؟"

قال هيبارد فى صبر: "أسلان يحسن أداء ستة عشر بعدًا من الأبعاد الكيميائية للأعصاب. لكن تحسين الأداء لشخص يستمتع برحلة بحرية ليس كتحسين الأداء لشخص فى مكان عمله. الاختلافات الكيميائية دقيقة للغاية، لكن لم لا نراعها؟ هناك أسلان "الأساسى" ومعه ثمانى وصفات أخرى تبيعها شركة فارماكوبيا: أسلان "تزلج" وأسلان "هاكر" وأسلان "أداء قوى" وأسلان "مراهقين" وأسلان "النادى" وأسلان "سنوات العمر الذهبية"، وماذا نسيت؟ آه، أسلان "كاليفورنيا". مشهور للغاية فى أوروبا. الخطة هى أن يصل عدد الوصفات إلى عشرين وصفة خلال عامين. أسلان "هزيمة الامتحانات" وأسلان "الغزل" وأسلان

"الليالى البيضاء" وأسلان "القراءة" و"التحدى"، وأسلان "حصة التذوق الفنى"، إلخ إلخ إلخ. موافقة هيئة الدواء الأمريكية ستسرع بعجلة هذه العملية، لكننى لا أتوقعها سريعًا. إن كنت تسألين ما الذى يتصف به أسلان "الكروزر"؟ هو أنه يطفئ توترك تمامًا. يطفئ ذلك المؤشر إلى درجة الصفر. أسلان "الأساسى" لا يفعل هذا، لأنه يدير معدلات القلق بشكل يومى إلى درجة مقبولة. أنا على سبيل المثال أتعاطى "الأساسى" الآن، لأننى أعمل".

"كيف".

"خلال أقل من ساعة. هذا هو الرائع فى الموضوع. تأثيره يبدأ فورًا. مقارنة بأربعة أسابيع من الأدوية الديناصورية الأخرى التى ما زالت تُستخدم فى أنحاء البلاد. ابدئى فى تعاطى زولوفت اليوم وستكونين محظوظة إن بدأ أثره بعد أسبوع من يوم الجمعة".

"لا، قصدت أن أقول، كيف أشترى المزيد من الدواء بعد أن أعود؟"

نظر هيبارد إلى ساعته: "من أى منطقة أنت يا إندى؟"

"الغرب الأوسط، سان جود".

"ستجدينه فى المكسيك. أو الأفضل إن كان لك أصدقاء يقضون إجازة فى الأرجنتين أو أوروجواى، ربما يجدونه لك. لكن وبكل وضوح، إن أعجبك الدواء وتريدين الحصول عليه بسهولة، تتمنى شركة بليجرلاينز للرحلات البحرية أن تستمعى معها برحلة أخرى".

عبست إنيد قليلاً. د هيبارد وسيم للغاية وعنده كاريزما، وهى تحب فكرة قرص الدواء الذى سيساعدها على الاستمتاع برحلتها

ويعينها على رعاية ألفريد، لكن الطبيب يبدو لها سمجًا إلى حد ما، اسمها إنيد. إ - ن - ى - د.

قالت: "هل أنت متأكد تمامًا تمامًا تمامًا أنه سيساعدنى؟ ترى بكل ثقة أن هذا هو أفضل شىء لى؟"

قال هيبارد وهو يغمز: "أضمن لك هذا".

قالت إنيد: "ما قصدك بكلمة "محسّن" إذن؟".

قال هيبارد: "ستشعرين بقوة نفسية أكبر. أكثر مرونة، وأكثر ثقة وأكثر سعادة بنفسك. سوف يختفى توترك وإحساسك الزائد بنفسك، وكذلك أى قلق شديد على آراء الآخرين بشأنك. أى شىء تشعرين بالخزى منه الآن".

قالت إنيد: "نعم، نعم".

"سوف تنتهى هذه الدورة المفرغة من الخزى، ذلك الدوار السريع بين الرغبة فى الاعتراف والإخفاء، أليست هذه شكواك؟"

"أعتقد أنك تفهمنى".

"الكيماويات فى عقلك يا إلين. الرغبة القوية فى الاعتراف، والرغبة القوية فى الإخفاء: ما الرغبة القوية؟ أليست كيماويات لا غير؟ ما هى الذاكرة؟ شحنة كيميائية! أو ربما تغير بنيوى، لكن أتعرفين؟ البُنى مصنوعة من البروتين! ومم يُصنع البروتين؟ من الأحماض الأمينية!"

خطر لإنيد من بعيد أن الكنيسة قالت لها كلامًا غير ذلك، شىء عن المسيح هو ذلك الجسد المعلق من الصليب وابن الرب أيضًا، لكن أسئلة وتساؤلات المبادئ دائمًا ما بدت لها معقدة لدرجة مستحيلة،

والمقدس أندرسن فى الكنيسة وجهه سمح وكثيرًا ما يروى فى خطبه نكات واقتباسات من كاريكاتير مجلة النيويوركر، أو أقوال لُكتاب علمانيين مثل جون أبدايك، ولم يفعل قط أى شيء مزعج مثل أن يقول لأبناء كنيسته أنهم كبشر ملعونون، وهو أمر غريب بما أن جميع من فى الكنيسة ودودون وطيبون، ثم هناك ألفريد، الذى كان يسخر من إيمانها وكان الأسهل لها أن تكف عن الإيمان (إن كانت هى قد آمنت يومًا فى الواقع) بدلاً من أن تحاول هزيمة ألفريد فى حوار فلسفى. الآن إنيد ترى أن الإنسان عندما يموت يموت نهائيًا، وتشعر أن كلام د. هيبارد عن هذه الأشياء سليم ومنطقى.

إلا أنها ولكونها ماهرة فى الفصال قالت: "أنا سيدة عجوز عادية من الغرب الأوسط، لا أرى أن تغيير الشخصية يفيدنى فى شيء". وقلبت وجهها لتُظهر بكل وضوح امتعاضها من كلامه.

قال هيبارد: "ما العيب فى التغيير؟ هل أنت سعيدة بإحساسك الآن؟"

"لا، لكننى إذا أصبحت إنسانة مختلفة بعد تعاطى هذه الأقراص، لا يمكن أن يكون هذا بالشيء الصحيح، و...".

"إدوينا، أنا متعاطف معك تمامًا. عندنا ارتباطات غير عقلانية بمنسقات كيميائية معينة لشخصيتنا وطبعنا. هذا من أشكال الخوف من الموت، أليس كذلك؟ لا أعرف ما المطلوب لتكفى عن هذا. لكن إن لم أكن أنا موجودًا لأعرف الفرق بين شخصيتى القديمة والجديدة، فما المهم؟ الموت مشكلة فقط إن كنت تعرفين أنك ميتة أثناء موتك، وهو ما لن يحدث أبدًا لأنك ستكونين ميتة!"

"لكن يبدو أن الدواء يجعل جميع الناس متشابهين فى الطباع".

"لا لا، خطأ. فكرى معى: يمكن لشخصين أن تكون لهما نفس الشخصية لكنهما ما زالا فردين مختلفين. شخصين بنفس مستوى الذكاء ولهما معارف مختلفة تمامًا وذكريات غير متشابهة. أليس كذلك؟ شخصان محبان يحبان أشياء مختلفة عن أحدهما الآخر. شخصان يحبان الابتعاد عن المخاطر ويبتعد كل منهما عن نوع مختلف من المخاطر. ربما أسلان يجعلنا متشابهين نوعًا، لكن يا إنيد، ما زال كل فرد منّا فردًا".

أماط الطبيب اللثام عن ابتسامة عذبة للغاية، ورأت إنيد التى أجرت حساباتها وتبينت أنه يتقاضى ٦٢ دولارًا فى الجلسة، رأت أنها تلقت مقابل نقودها تمامًا من وقته وانتباهه، وفعلت ما كانت تعرف أنها ستفعله منذ رأت الأقراص المشمسة الأسدية. وضعت يدها فى حقيبتها وأخرجت من مظروف شركة الخطوط البحرية حفنة من النقود من التى ربحتها وأحصت ١٥٠دولارًا.

قال هيبارد وهو يغمز ويمد إليها يده عبر المكتب بكومة علب الدواء: "استمتعى. أتريدين حقيبة لتضعيها فيها؟"

بقلب خافق تقدمت إنيد من طرف الطابق "ب" الأمامى. بعد كابوس الأمس والليالى الماضية أصبح معها شىء ملموس تتطلع إليه، وكم هو عذب تفاؤل شخص يحمل دواءً جديدًا يعرف أنه سيغير حالته، كم هو شامل ويطال الجميع ذلك الإحساس، الرغبة فى الهرب من معطيات الذات. أن تشعر أنه لا يوجد إحساس أتعب من رفع اليد إلى الفم، ولا أعنف من الابتلاع، فى غياب أى أحاسيس دينية، بلا إيمان بأى شىء غامض أو أسطورى أبعد من

الفعل ورد الفعل المطلوبين لاستكشاف نعم هذا القرص المحوّل للشخصية. لا يمكنها الانتظار حتى تتعاطاه. تسير على الهواء فى طريقها إلى الحجرة بـ ١١ حيث لن ترى أى أثر لألفريد. وكأنها تقر بالطبيعة غير المشروعة لجولتها الموفقة، أغلقت الباب بالمصراع. ثم إنها حبست نفسها داخل دورة المياه. رفعت عينيها إلى انعكاسها فى المرآة، وبطريقة احتفالية، بادلت نفسها النظر فى المرآة كما لم تفعل منذ شهور وربما سنوات. أخرجت قرص أسلان ذهبيًا من عبوته. وضعته على لسانها وابتلعته ومعه جرعة ماء.

لدقائق قليلة راحت تغسل أسنانها وتنظفها بالخيط، القليل من الرعاية الفموية لتمرير الوقت. ثم وبارتعاشة تعب مضت إلى سريرها ورقدت تنتظر.

أشعة الشمس الذهبية تصل إلى البطانية داخل حجرتها التى لا نوافذ لها.

أشعة الشمس الذهبية تداعب راحة يدها بخطمها المخملى الناعم، تلعق جفونها بلسان ناعم سميك، أنفاسها عذبة مرحة.

* * *

عندما أفاقت من النوم لم يعد ضوء الحجرة الصناعى صناعيًا. كان نور الشمس البارد من وراء سحابة مصيرها إلى العبور.

قالت لنفسها: أخذت الدواء. أخذت الدواء، أخذت الدواء. مرونتها العاطفية الجديدة تلقت تحدٍ قوى فى الصباح التالى عندما نهضت فى السابعة صباحًا لتكتشف ألفريد نائمًا مكورًا على نفسه فى حوض الاستحمام بدورة المياه.

قالت: "آل، أنت نائم فى الحمام. ليس هذا مكان النوم".

بعد أن أفاق بدأت تغسل أسنانها. فتح ألفريد عينيه واشتكى: "أوف.. جسمى تصلب، تصلب".

قالت إنيد من وراء غرغرة فمها وهى مستمرة فى تحريك فرشاة الأسنان: "ماذا تفعل هنا؟"

قال: "غيرت مكانى فى الليل. حلمت أحلامًا بشعة".

اكتشفت أنها بين ذراعى أسلان أصبح عندنا مخزون ضخم من الصبر على غسيل الأسنان المعن الدقيق الذى أوصاها به طبيب الأسنان، للأسنان والضروس. راقبت بقدر ضئيل إلى متوسط من الاهتمام، راقبت ألفريد وهو ينهض أخيرًا تمامًا بعد مراحل طويلة من الاعتدال ومحاولة النهوض والإمساك بأشياء بيده ليساعد نفسه على النهوض. كومة مجنونة من الحفاظات معلقة من مفرق ساقيه. قال وهو يهز رأسه: "انظرى إلى هذا. انظرى".

أجابته: "نمت هذه الليلة أجمل نوم فى حياتى".

***

"كيف حال مسافرينا هذا الصباح؟" منسقة الأنشطة المتحمسة سوزى جوش تسأل المائدة بصوت ممثلة فى إعلان شامبو.

قالت سيلفيا روث: "لم نغرق ليلة أمس، إن كان هذا ما تقصدينه".

سرعان ما سيطر النرويجيان على سوزى بأسئلة معقدة عن السباحة فى مسابح جانر ميردال الأكبر حجمًا.

قال السيد سودربلاد لزوجته بصوت غير خفيض: "سيجنى، هذه مفاجأة أكبر. السيد والسيدة نيجرين سألا الآنسة جوش سؤالاً مطولاً عن نفس هذا الموضوع".

"نعم يا ستيج، يبدو أن لديهما دائمًا أسئلة مطولة، أليس كذلك؟ إنهما دقيقان للغاية، هؤلاء النيجرين".

قام تيد روث بتقشير نصف ثمرة جريب فروت بمهارة.. قال: "حكاية الكربون هى حكاية كوكبنا. هل تعرفون موضوع تأثير الاحتباس الحرارى، الصوبة الزجاجية؟"

قالت إنيد: "عليها إعفاء جمركى، أليس كذلك؟"

أومأ ألفريد برأسه وقال: "أنا أعرف موضوع الاحتباس الحرارى".

قالت إنيد: "يجب أن تكون معك كوبونات الخصم، وقد نسيتها"(*).

قال د. روث: "كانت الأرض ساخنة للغاية قبل أربعة مليارات سنة. كان لا يمكن التنفس بهذا الغلاف الجوى. الميثان وثانى أوكسيد الكربون والهيدروجين والكبريت".

"بالطبع فى عمرنا الدخل أهم من النمو".

"الطبيعة لم تكن قد تعلمت بعد تكسير السليلوز. عندما تسقط شجرة، كانت تبقى على الأرض فتُدفن تحت الأرض عندما تسقط

(*) للتوضيح الحوار المُطول التالى لا ذنب للمترجم فى خلوه من التماسك المنطقى المألوف. تحضرنى هنا مسرحيات نجيب محفوظ العبثية وبعض حوارات رواية «صخب أبيض» مثلا لـ دون ديليلو. هناك نموذج على هذا الأسلوب فى الرواية، عندما كان جارى ـ ابن الفريد وإنيد ـ ينتظر المصعد فى طريقه إلى مكتبه، فى الجزء بعنوان «كلما فكر فى الموضوع.. زاد غضبه» (المترجم).

الشجرة التالية فوقها. هذه هى عملية الكربنة. ثم على مدار ملايين وملايين من السنوات من سقوط الأشجار فوق الأشجار، تم سحب كل الكربون تقريبًا من الهواء ودُفن تحت الأرض. وهو تحت الأرض منذ الأمس، بالحسابات الجيولوجية".

"السباحة يا سيجنى، أتعتقدين أنها شبيهة بالرقص؟"

قالت السيدة نيجرين: "بعض الناس مقززون".

"ماذا يحدث لجذع شجرة يسقط الآن؟ الفطريات والميكروبات تهضمه، ويعود كل ذلك الكربون إلى السماء. لا يمكن أن تحدث عملية كربنة أخرى. إطلاقًا. لأنه لا يمكن أن تأمر الطبيعة بأن تنسى ما تعلمته بشأن عملية التحلل السليولوزى".

قالت إنيد: "اسمها أورفيك ميدلاند الآن".

"الثدييات ظهرت بعد أن برد العالم. ليست أكثر من بقعة صغيرة فوق كيان كبير. أشياء عليها فراء غزير فى المغارات. لكن الآن عندنا ثدييات ماهرة للغاية أخذت كل الكربون من تحت الأرض وأعادته إلى الغلاف الجوى".

قالت سيلفيا: "أعتقد أننا نملك بعض أسهم أورفيك ميدلاند".

قال بير نيجرين: "فى واقع الأمر، نحن أيضًا نملك نصيبًا من أورفيك ميدلاند".

قالت السيدة نيجرين: "بير يعرف".

قال السيد سودربلاد: "هذا مؤكد".

قال د. روث: "عندما نحرق كل الفحم والنفط والغاز، سوف يصبح الغلاف الجوى كما كان قديمًا. غلاف جوى ساخن قذر لم

يره أحد منذ ثلاثة ملايين عام. ما إن يخرج عفريت الكربون من القمقم".

"فى النرويج خطط تقاعد رائعة، لكنى أيضًا أضيف إلى المعاش الحكومى أموالاً من استثمار خاص. بير يطلع على سعر كل سهم كل صباح. هناك عدد كبير من الأسهم الأمريكية. كم عددها يا بير؟"

قال بير نيجرين: "ست وأربعون فى الوقت الحاضر. إن لم أكن مخطئًا فإن أورفيك اختصار لصندوق استثمار أوك ريدج فيدوسيارى. السهم حافظ على قيمته بشكل جيد وله أرباح جيدة".

قال السيد سودربلاد: "مدهش. أين قهوتى؟"

قالت سيجنى سودربلاد: "لكن يا ستيج، أتعرف؟ أنا واثقة أن عندنا من هذا السهم، أورفيك ميدلاند".

"عندنا أسهم كثيرة. لا أتذكر كل أسمائها. فى الوقت نفسه كتابة أسماء الأسهم فى الجرائد صغيرة للغاية".

"العبرة من القصة أنه يجب ألا نعيد تدوير البلاستيك. أرسل البلاستيك إلى مكب نفايات محفور فى الأرض. ضع هذا الكربون تحت الأرض".

"إذا كان الموضوع رهن رأى آل، كانت لتبقى كل استثماراتنا مدخرات فى البوسطة".

"ادفنه، ادفنه. أعد العفريت إلى قمقمه".

قال السيد سودربلاد: "أنا مصاب فى عينى إصابة تصعب على القراءة".

قالت السيدة نيجرين فى سخرية: "حقًا؟ ما الاسم الطبى لهذه الحالة؟"

قال د. روث: "أحب أيام الخريف الباردة".

قالت السيدة نيجرين: "المهم، أعتقد أن لمعرفة اسم المشكلة الطبية فلابد من جلسة قراءة مؤلمة".

"هذا كوكب صغير".

"هناك عين كسولة بالطبع، لكن أن تكون عيناك كسولتين فى الوقت نفسه".

قال السيد نيجرين: "هذا غير ممكن. متلازمة العين الكسولة، أو متلازمة أمبلويبيا، هى حالة قيام عين بمهام العين الأخرى. من ثم، إذا كانت عندك عين كسولة، فالأخرى من حيث المبدأ سوف...".

قالت السيدة نيجرين: "بير، اصمت".

"إنجا!".

"أيها النادل، مزيد من القهوة".

قال د. روث: "تخيل فى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة الأوزبكية، العائلات عندنا نفس السيارة الفورد ستومبر التى عندنا. فى الواقع الاختلاف الوحيد بين الشرائح العليا من الطبقة الوسطى عندنا وعندهم، هو أنه لا يوجد عندهم أحد، ولا حتى الأكثر ثراء، عنده سباكة وصرف صحى داخل مواسير".

قال السيد سودربلاد: "أنا مدرك أننى بصفتى غير قادر على القراءة أقل درجة من جميع النرويجيين. وأقبل هذا".

"ذباب يحوم حول شيء ميت منذ أربعة أيام. دلو من التراب تنثره فى حفرة. حتى المسافة القصيرة التى تراها فى الحفرة هى مسافة أكبر مما تود أن ترى. والفورد ستومبر الفخمة متوقفة فى ممشى القصر. وهم يصورونا فيما نحن نصورهم".

"فى الوقت نفسه، ورغم إعاقتى، فأنا قادر على استبقاء متعة أو اثنتين من متع حياتى".

قالت سيجنى سودربلاد: "لكن يا ستيج كم هى فارغة متعنا تلك، مقارنة بمتع السيد والسيدة نيجرين".

"نعم، هم يبذلون بعض الجهد ليعرفوا المتع العميقة الدائمة، متع العقل. فى الوقت نفسه يا سيجنى، هذا الثوب الذى ترتدينه هذا الصباح رائع. حتى السيد نيجرين معجب بالفستان، رغم المتع العميقة والدائمة التى يجدها فى أماكن أخرى".

قالت السيدة نيجرين: "بير، هيا، نحن نتعرض لإهانات".

"ستيج، هل سمعت؟ آل نيجرين يشعرون بالإهانة وسيغادروننا".

"خسارة. من الممتع الجلوس معهم".

قالت إنيد: "أولادنا جميعًا يقيمون فى الشرق الآن، يبدو ألا أحد ما زال معجبًا بالغرب الأوسط".

قال صوت مألوف: "الباقى من الزمن قليل يا صاحبى".

"الكاشير فى قاعة طعام دوبونت فتاة أوزبكية. رأيت أوزبك ربما فى متجر أثاث فى اجتماع بمدينة بلايموث. نحن لا نتحدث عن كائنات من خارج كوكب الأرض. الأوزبك يرتدون النظارات مثلنا، ويركبون الطيارات مثلنا".

"سوف نتوقف قليلاً في فيلادلفيا في طريق العودة حتى نأكل في مطعمها الجديد. اسمه جينيريتور".

"إنيد، يا ربي، أهذا مطعمها؟ ذهبت أنا وتيد إلى هناك قبل أسبوعين".

قالت إنيد: "يا له من عالم صغير".

"كان عشاءً مدهشًا. عشاء طيب لدرجة أنني أذكره".

"وهكذا أنفقنا ستة آلاف دولار حتى نتذكر كيف هي رائحة الطرنشات".

قال ألفريد: "لا أنساها أبدًا".

"ونحن ممتنون لذلك المرحاض الأرضي! هذا من حيث مزايا السفر إلى الخارج. من حيث ما لا يمكن للتليفزيون والكتب أن توفره. من حيث ما يمكنك أن تتعرف عليه بنفسك وتخبره بنفسك. خذ المرحاض الأرضي وأخرجه من الموضوع، وستشعر أنك ضيعت ستة آلاف دولار هباءً".

"هل نذهب لنشوي رؤوسنا عند حمام السباحة؟"

"آه يا ستيج، هيا. أنا متعبة فكريا".

"الحمد لله على نعمة الفقر. الحمد لله على القيادة على الجانب الأيسر من الطريق. الحمد لله على بابل. الحمد لله على أقباس الكهرباء غريبة الأشكال".. خفض د. روث نظارته ونظر من فوقها إلى السويديين: "دعوني أقول أن كل فستان ترتديه أي امرأة مصمم خصيصًا ليسهل خلعه!"

قالت سيلفيا: "لم يسبق أن رأيت تيد متلهفًا هكذا على الذهاب للإفطار. والغداء، والعشاء".

قال روث: "مناظر طبيعية شمالية خلابة، ألسنا هنا لهذا السبب؟"

خفض ألفريد عينيه فى ضيق، وهناك شوكة سمكة صغيرة عالقة فى حلق إنيد تضايقها. تمكنت من أن تقول: "هل تعتقدين أن عنده فعلاً مشكلة فى عينيه؟"

"عينيه ممتازتان على الأقل من جانب واحد".

"تيد، توقف".

"حكاية السيدات السويديات الجميلات كأكليشيه هو أكليشيه فى حد ذاته".

"كفى أرجوك".

نائب رئيس شركة كومبلاينس المتقاعد - تيد - عدل نظارته على أنفه والتفت إلى ألفريد: "أتساءل إن كنا مكتئبين بسبب عدم وجود آفاق جديدة. لأننا لم يعد بإمكاننا أن نتظاهر بوجود مكان لم يذهب إليه أحد. أتساءل إن كان الاكتئاب التراكمى يتزايد على مستوى العالم".

"أشعر بأننى فى أفضل حال هذا الصباح. نمت جيداً".

"فئران التجارب تصبح كسولة فاترة الهمة عندما توضع فى أقفاص مزدحمة".

"تبدين مختلفة اليوم يا إنيد. قولى لى إن هذا لا علاقة له بالطبيب فى الطابق د. سمعت عنه حكايات".

"حكايات؟"

قال د. روث: "ما يُعرف بالعالم الافتراضى، لكن أين البرية فى الموضوع؟"

قالت سيلفيا: "دواء اسمه أسلان".

"أسلان؟"

"ما يُعرف بعالم الفضاء، لكننى أحب كوكب الأرض، هو كوكب جيد. يتمتع غلافه الجوى بندرة السيانيد وأحماض الكبريت والأمونيا. وهى خصائص لا يتمتع بها كل كوكب نعرفه".

"أعتقد أنهم يسمون هذا الدواء، مُساعد الجدّة الصغير".

"لكن حتى فى بيتك الكبير الهادئ تشعر بالزحام إذا كان هناك بيت كبير هادئ آخر فى الحى، وبيوت كبيرة هادئة كثيرة".

قال ألفريد: "لا أريد إلا بعض الخصوصية".

"لا توجد شواطئ بين جرينلاند وفالكلاند غير مهددة بالاستثمار. لا يوجد فدان واحد من الأرض لم تدخل عليه تعديلات".

قالت إنيد: "يا ربى، كم الساعة؟ لا نريد أن نفوت تلك المحاضرة".

"سيلفيا مختلفة. هى تحب الصخب والضجيج على الموانئ".

قالت سيلفيا: "أحب الصخب والضجيج".

"ممرات وقمرات ونوافذ. تحب صوت نفير السفينة. بالنسبة لى هذه حديقة ملاهى عائمة".

قال ألفريد: "عليك أن تتحمل قدرًا معينًا من الخيال. لا توجد خيارات".

قالت سيلفيا: "معدتى لم تحب أوزبكستان".

قال د. روث: "أحب الأرض الخراب. من الجيد أن يرى المرء أمامه امتدادًا من الأميال الشاسعة التى لا نفع منها".

"أنت تضفى على الفقر رومانسية".

"عذرًا؟"

قال ألفريد: "سافرنا إلى بلغاريا. لا أعرف شيئًا عن أوزبكستان، لكن سافرنا إلى الصين. كل شىء كنت أراه من نافذة القطار، لو كان الأمر بيدى، كنت لأمزقه وأهدمه. أهدمه وأبنيه من جديد. ليس من الضرورى أن تكون البيوت جميلة، فلتكن صلبة لا أكثر. فليدخل الصرف الصحى داخل البيوت. جدار خرسانى جيد وسقف لا يسرب المياه، هذا ما يحتاجه الناس. مجارى، انظر إلى الألمان، الجهد الذى بذلوه لإعادة الإعمار. هذا نموذج محترم لدولة".

"لكن لا أحبذ أن آكل سمكًا من نهر الراين، لو كان فيه سمكة واحدة حتى".

"هذا كلام فارغ من كلام محبى البيئة".

"ألفريد، أنت رجل ذكى لدرجة لا يمكن أن تصف معها هذا الكلام بالكلام الفارغ".

"أحتاج إلى دورة مياه".

"آل، عندما تنتهى، لم لا تأخذ معك كتابًا إلى الخارج وتقرأ قليلا؟ سأذهب مع سيلفيا إلى محاضرة الاستثمار. اجلس أنت هنا فى الشمس واسترح، استرح، استرح".

***

بعض أيامه جيدة وبعضها سيئة، الليل يمر كما يمر، فى الصباح إما يجد فى أطراف أعصابه ما يكفى مما تحتاجه أو لا يجد، وكأن صفاءه الذهنى قد يعتمد على شىء بسيط كحاله وهو راقد على جنبه فى الليلة الماضية، وكأنه راديو ترانزيستور معطل قد يعمل بعد أن تهزه كثيرًا، أو قد لا ينبعث منه أصوات غير التشويش الإستاتيكى مصحوبًا ببعض الجمل غير المفهومة، مع مسحة من الموسيقى من الحين للآخر.

لكن حتى الصباحات الأسوأ أفضل من أفضل الليالى. فى الصباح كل شىء يحدث بسرعة أكبر، فى الصباح الدم يزدحم بعناصره، بالجلوكوز، بعُمال توصيل البول إلى مساراته بشكل طبيعى، عمال توصيل الهيموجلوبين، الأنزيمات، رجال شرطة كرات الدم البيضاء، استشاريون باهظون يصلون فى سياراتهم الوردية والبيضاء والصفراء كالكناريه، جميع العمال والموظفين والمديرين يركبون المصاعد ويتفرقون فى شرايينه. قبل الظهر تكون معدلات إصابة العاملين صغيرة، العالم وكأنه طفل وليد.

عنده طاقة. من قاعة كيركجارد انتقل عبر ردهة مغطاة بسجاد أحمر سبق أن اعتقد أنها محطة للاستراحة، لكن بدت له هذا الصباح مزدحمة، يمر بصالونات وبوتيكات وسينما إنجمار برجمان. المشكلة أن نظامه العصبى لم يعد قادرًا على الاعتماد على تقييم

دقيق لمتى يحتاج للذهاب لدورة المياه. فى الليل الحل هو ارتداء الحفاظة للحماية. فى النهار الحل هو زيارة الحمام كل ساعة والتحرش بحساسيات إنيد الرومانسية دائمًا، هذه الزيارة كل ساعة تضيف قيمة لحياته. القدرة على التماسك ببساطة، القدرة على إبقاء بحار رعب الليل فى مكانها لا تخترق واقع النهار، هذا هو أقصى طموحه الآن.

أسراب من النساء تتقدم من قاعة لونج ستوكينجس للرقص. حركة السرب كالتيار دفعت ألفريد إلى ردهة مزدانة بحجرات لقاعات لمحاضرين على ظهر السفينة وعمال تسلية. فى نهاية الردهة حمام الرجال يلوح.

هناك ضابط يرتدى زيًا بحريًا يستخدم إحدى المبولتين. خوفًا من ضعف الأداء فى حال نظر إليه الرجل، دخل ألفريد مرحاضًا وأغلق المصراع ووجد نفسه وجهًا لوجه مع مرحاض عادى لحسن حظه لم يقل له شيئًا. خرج ودخل المرحاض التالى، لكن هناك شيئًا على الأرض، كومة خراء تتحرك، تبحث عن ملجأ لها. لم يجرؤ على الدخول. فى الوقت نفسه كان الضابط قد فتح المياه فى المبولة، وهو يلتفت عن مبولته تعرف ألفريد على خده الأزرق ونظارته، وشفتيه الورديتين. كان يتدلى من سحاب بنطلونه شىء بطول اثنتى عشرة بوصة أو أكثر، مرتخ. هناك ابتسامة صفراء تنفرج بين وجنتيه الزرقاوين. قال: "تركت كنزًا صغيرًا فى سريرك يا سيد لامبرت. بدلاً عن ذلك الذى أخذته".

خرج ألفريد من الحمام وراح يصعد السلم مسرعًا، أعلى وأعلى، سبعة طوابق، إلى هواء شرفة الرياضة. عثر هنا على مقعد فى

الشمس الساخنة. ومن جيب معطفه أخرج خريطة لمقاطعات كندا البحرية وحاول أن يركز انتباه على التعرف على بعض المعالم.

هناك ثلاثة رجال يرتدون سترات رياضية يقفون إلى جوار حاجز السفينة. أصواتهم غير مسموعة في لحظة ثم واضحة في اللحظة التالية. الواضح أن الرياح تؤدى عملها، جيوب صغيرة من الصمت تتخللها جملة أو جملتين مسموعة.

قال رجل: "ها هو رجل معه خريطة". تقدم من ألفريد يبدو عليه السرور كما يبدو السرور على كل رجال العالم عدا ألفريد. "عذرًا يا سيدى، فى رأيك ما هذا الذى نتظر إليه هناك إلى اليسار؟"

أجاب ألفريد فى حزم: "هذه شبه جزيرة جاسبى. وراء المنعطف القادم هناك بلدة كبيرة".

"شكرًا جزيلاً لك".

عاد الرجل إلى رفاقه. وكأن موقع السفينة مهم لهم لهذه الدرجة، وكأن هذا الاستفسار الوحيد هو ما جاء بهم إلى شرفة الرياضة العالية فى المقام الأول، فسرعان ما غادروا جميعًا متجهين إلى شرفة فى طابق أدنى، وتركوا ألفريد وحيدًا فوق قمة العالم.

السماء أقل سحبًا فى هذه المياه الشمالية. سحابات تجرى قطعانًا وكأنها تموجات حقل محروث، تتحرك سريعًا تحت قبة السماء المغلقة، وهى منخفضة بشكل ملحوظ. أشياء خضراء ذات قرنيات حمراء. في الغابات الممتدة غربًا عند أفق الرؤية، كركض السحب العدمي، لا يوجد أي شيء ذات طابع محلى.

تعرف ألفريد على رجل أزرق الخدين فى دورة المياه، تعرف فيه على الخيانة فى جسد. لكن الرجل أزرق الخدين لا يمكن أن يتحمل

ثمن الرحلة البحرية الفاخرة، وهذا أمر أقلقه. الرجل أزرق الخدين جاء من الماضى البعيد لكنه يسير ويتكلم فى الحاضر، وكومة الخراء مخلوق من مخلوقات الليل لكنه خرج نهارًا جهارًا، وهو أمر يقلقه كثيرًا.

حسب كلام تيد روث، فإن ثقوب طبقة الأوزون بدأت عند القطبين. أثناء الشتاء القطبى الطويل وهن غلاف الأرض لأول مرة، لكن ما إن تم ثقب الغلاف حتى انتشر الضرر إلى الخارج، وصل حتى إلى مناطق خط الاستواء المشمسة، حتى خط الاستواء، وقريبًا لن يبقى أى مكان آمنًا على ظهر البسيطة.

فى الوقت نفسه هناك مرصد فى مناطق بعيدة أرسل إشارة ضعيفة، رسالة غامضة.

تلقى ألفريد الإشارة وتساءل عن معناها. أحس بالخجل من دورات المياه، لكنه لا يمكنه أن يخلع بنطلونه هنا فى العراء. ربما يعود الرجال الثلاثة فى أى وقت.

وراء حاجز إلى يمينه هناك مجموعة من المسطحات والأسطوانات، ومعدات كروية لاستخدامات ملاحية، وقمع مقلوب. بما أنه لا يخشى الأماكن المرتفعة، لا شىء يمنعه من تجاهل التحذير القوى المكتوب بأربع لغات وراء الحاجز، فتقدم من الحاجز بحثًا عن ذلك الشىء المفيد كالشجرة لمن يريد التبول مستورًا. كان فوق الجميع عاليًا لا يراه أحد.

لكنه تأخر.

ساقا بنطلونه غارقان، والرجل اليسرى غارقة حتى الكاحل. بلل دافئ بارد يغمر كل شىء.

وحيث كان يجب أن تلوح بلدة على الساحل، تراجعت الأرض منحسرة إلى الوراء. موجات تتقدم تشق مياهًا غريبة، ارتعادة المحركات أصبحت أقوى يصعب أكثر تجاهلها. السفينة لا هى بلغت شبه جزيرة جاسبى ولا هى مرت بها. البيانات التى أعطاها للرجال فى السترات الرياضية خاطئة. إنه تائه.

ومن الشرفة الواقعة تحته مباشرة سمع ضحكة حملتها إليه الرياح. جاءت الضحكة مرة أخرى، طويلة مسلسلة.

ابتعد عن الأشياء الكروية والأسطوانية وتجاوز الحاجز عائدًا إلى مكانه السابق. على مسافة أمتار قليلة منطقة مخصصة للاسترخاء وأخذ حمامات شمسية، رآها من وراء منطقة معزولة بسياج، وهو واقف حيث لا يُسمح لأى ركاب بالوقوف، وكان يرى وراء السياج سيجنى سودربلاد، ذراعاها الباردان وأفخاذها وبطنها، ونهد ريان تغمره سماء الشتاء الرمادية، وفراء أحمر أشعث بين ساقيها.

عالم النهار اختلط بعالم الليل وعالم الليل حاول أن يغلب عالم النهار وراح يعمل ويناضل لحصار عالم النهار. لكن هناك خرقًا خطيرًا.

ثم جاءت سحابة أخرى، أضخم وأكثر كثافة، حولت الخليج إلى لون أسود مُخضر.

ثم العار واليأس،

أم هى الرياح تداعب ياقة معطفه؟

أم هى السفينة ترتجف؟

أم هى ارتعادة ساقيه؟

أم هى ارتعادة موازية من المحركات؟

أم هى نوبة فقدان للوعى؟

أم هى دعوة كريمة له من مرض الدوار؟

أم هو الدفء النسبى للبحر الواسع لشخص مبتل يتجمد بردًا من أثر الرياح؟

أم هو يميل متعمدًا ليلقى نظرة أخرى على التباب الحمراء؟

* * *

قال إخصائى الاستثمار الدولى جيم كروليوس: "يا له من شىء رائع، أن نتكلم عن الفلوس على متن سفينة رحلات بحرية فاخرة. يا جماعة، هذا صباح مشرق جميل، أليس كذلك؟"

كان كروليوس يتحدث من منصة إلى جوار لافتة تحمل عنوان محاضرته "كيف تنجو من التصحيحات"، مكتوبة بحبر أرجوانى. سؤاله الأخير أدى لهمسات استحسان من الصفوف الأولى أمامه، من وصلوا مبكرًا للحصول على المقاعد الجيدة. هناك من قال حتى: "فعلاً يا جيم"

أحست إنيد بأنها أفضل كثيرًا هذا الصباح، لكن بعض عوامل الإزعاج الطقسية ما زالت عالقة برأسها، على سبيل المثال سرب من الأفكار يتكون من (أ) احتقار للنساء اللاتى حضرن إلى قاعة لونج ستوكينجس مبكرًا بشكل مبالغ فيه، وكأن نصائح جيم كروليوس قد تضعف مع ابتعاد المرء منه، (ب) احتقار للنساء نيويوركيات الطابع اللاتى يتدافعن ويتقدمن عن الجميع ليصبحن

على مسافة يمكن معها التودد للمُحاضر ومناداته باسمه الأول (هى متأكدة أن جيم كروليوس يمكنه أن يفهم نواياهن هذه وإطراءهن الأجوف عليه، لكنه ربما مهذب لدرجة تجعله يتجاهلهن ويركز على السيدات الأقل جرأة والأكثر تهذيبًا من الغرب الأوسط مثل إنيد) و(ج) امتعاض بالغ من ألفريد لأنه ذهب للحمام مرتين فى طريقه إلى الإفطار، مما منعها من مغادرة قاعة كيركجارد مبكرًا والحصول على مقعد فى الصف الأمامى.

لكن ما تجمعت السحب حتى تفرقت ثانية، وأشرقت الشمس قوية مرة أخرى.

قال جيم كروليوس: "أكره أن أخبركم بهذا يا قوم، أنتم يا من فى الخلف، لكن من حيث أقف هنا أرى سحبًا فى الأفق. قد تكون سحبًا بيضاء ودودة صغيرة، أو قد تكون سحبًا مظلمة مطيرة. المظاهر قد تكون خادعة! من حيث أقف أعتقد أن المسار أمامنا آمن، لكننى لست خبيرًا. ربما بقرارى هذا أُغرق السفينة. نحن لا نريد طبعًا أن نبحر بسفينة بلا قبطان، أليس كذلك؟ القبطان بكل خرائطه ومعداته الملاحية وأجراسه وصفاراته، كل هذه الأشياء، صح؟ معه الرادار والسونار ونظام الجى بى إس". جيم كروليوس يحصى المعدات على أصابعه، "معه الأقمار الصناعية فى الفضاء يتابعها! كل هذه التكنولوجيا الرائعة. لكن لابد أن تكون هذه المعلومات مع شخص ما، وإلا أصبحنا فى مشكلة، صح؟ هذا هو المحيط المفتوح العميق. هذه هى حياتكم. الخلاصة أننى لا أريد أن أحوذ هذه الخبرات الفنية بنفسى، كل تلك الأجراس والصفارات، وكل هذه الأشياء، لكن لابد أن يكون معى قبطان ماهر يمكنه أن يُبحر فى بحار الأموال العالية المتقلبة بمهارة".

تصفيق حاد من الصفوف الأمامية.

سيلفيا روث تهمس لإنيد: "لابد أنه يعتقد أننا نبلغ من العمر ثمانى سنوات".

همست إنيد ردًا عليها: "هذه هى المقدمة لا أكثر".

مضى جيم كروليوس فى كلامه: "نحن هنا لنرى تغير الفصول، العام له إيقاعه الخاص، الشتاء الربيع الصيف الخريف. الموضوع كله دائرى. هناك ارتفاع فى الربيع وانخفاض فى الخريف. مثل السوق. موضوع دائرى، أليس كذلك؟ يمكن أن يرتفع السوق ويزدهر لمدة خمسة أو عشرة أو خمسة عشر عامًا. رأينا هذا بأنفسنا فيما سبق. لكن هناك دائمًا تصحيحات. قد أبدو لكم صغيرًا، لكننى رأيت سوقًا تنهار وخضت تلك التجربة بنفسى. شىء مخيف. مسألة دائرية متقلبة. يا جماعة عندنا نقود كثيرة فى البورصة وصناديق الاستثمار الآن. كان صيفًا طويلاً مجيدًا. فى الواقع، ارفعوا معى أيديكم، كم منكم يدفع كل أو جزء من ثمن هذه الرحلة من أرباح الاستثمارات الشخصية؟

ارتفعت غابة من الأيدى.

أومأ جيم كروليوس برأسه فى رضا: "أكره أن أقول لكم هذا الخبر، لكن أوراق الصيف بدأت تتلون بلون الخريف. مهما كانت خضراء فى أعينكم الآن، فلن تبقى حتى انتهاء الشتاء. بالطبع كل عام مختلف، كل دورة مختلفة. لا يمكن أن تعرف تحديدًا متى سيتغير لون الدولار الأخضر اليانع. لكن ها نحن هنا، كل وواحد منا هنا، لأننا نحب التخطيط وبُعد النظر. كل شخص فى هذه القاعة أثبت لى أنه مستثمر ذكى. كل شخص هنا عنده بصيرة

كافية ليعرف أن هناك شيئًا ما سيتغير على متن هذه الرحلة. والسؤال لدينا جميعًا ـ وأنا أتكلم بشكل مجاز هنا ـ السؤال هو: هل ستتحول دولاراتنا الخضراء المجيدة التى نستثمرها هذه جميعًا إلى ذهب مجيد؟ أم هل ستذوى وتجف على غصن الشتاء؟"

قاعة لونج ستوكينجس تضج بالحماس والإثارة. هناك غمغمات: "مدهش، عبقرى!"

قالت سيلفيا روث بجفاء: "الكثير من المادة والقليل من الفن".

خطر لإنيد الموت، تحسب أنه يتكلم عن الموت. كل من يصفقون مسنون للغاية.

لكن ما يرافق هذه الفكرة من ألم، أين ذهب؟ أسلان تخلص منه.

التفت جيم كروليوس إلى اللافتة المجاورة له ذات القوائم، وقلب الصفحة الأولى المطبوعة بكلمات كبيرة. الصفحة الثانية كان عنوانها: "عندما يتغير المناخ" وتحتها كلمات: صناديق الاستثمار، الأوراق المالية، سوق البورصة، إلخ، للحظة بدا لإنيد أن جيم كروليوس يؤدى تحليل سوق فنى من النوع الذى يؤديه سمسار البورصة الخاص بها فى سان جود، وقد قال لها ألا تهتم كثيرًا بهذا التحليل. تخفيف الآثار الدنيا لتأثير الرياح على السرعات المنخفضة، كلام عن انخفاض و"انحسار" (شىء "تنحسر" قيمته، يسقط "سقوطًا حرًا"). ثم إن عجلة السرعة بالنسبة للجاذبية تبلغ ٣٢ قدمًا فى الثانية، والعجلة هى الاشتقاق الثانى للسرعة، و يمكن حساب سرعة الشىء الساقط (من ارتفاع حوالى ٣٠ قدمًا) بسرعة نحو 42قدمًا فى الثانية. إن غيرت اتجاه نظرتك وأضفت فى عقلك الساعات وجمعتها حتى إعدام قاتل صغير، فالحاصل هو شىء ما

أسود يمرق سريعًا. لكن إن تصادف أن كنت تنظر مباشرة إلى النافذة المعنية وكنت تنظر جيدًا لدرجة تشعر معها بالهدوء غير المسبوق، فأربعة أعشار الثانية كافية لأن تلاحظ أن ذلك الشيء الذى يسقط يرتدى معطف مطر أسود مقرف، فقد هيئته وما كان يجب ارتداؤه فى مكان عام، وكأنك تشهد على ظاهرة من ظواهر الطبيعة ما كان لك أن تراها أبدًا، مثل ارتطام نيزك بحوتين فى فعل تزاوج، أن ترين التعبير على وجه زوجك، أن تدركى هدوءه وتصالحه مع النفس، أن تتوقعى كيف سيسقط بكل هذه الروعة ذلك الرجل الغاضب.

راح يتذكر الليالى التى قضاها فى الطابق العلوى للبيت، ومعه أحد الصبيين أو كليهما والفتاة تحت إبطه، رؤوسهم المبتلة برائحة الاستحمام على ضلوعه وهو يقرأ بصوت مسموع من قصة "الجمال الأسود" أو "نارنيا". كيف كان صوته وحده، وصداه المحسوس، يصيبهم بالنعاس. كانت تلك أمسيات، وكانت بالمئات، ربما بالآلاف، حيث لا شىء جارح بما يكفى ليترك ندبات. أمسيات من التلاصق البسيط الأبيض فى مقعده الجلدى الأسود، أمسيات عذبة من الشك بين ليال كئيبة من اليقين. ثم ها هى تحضره الآن، تلك الأمثلة المتناقضة المنسية، لأن فى النهاية، بينما أنت تسقط فى الهواء إلى الماء، فليس هنالك أى شىء صلب تمد إليه يدك غير أطفالك.



جینیریٹور

روبن باسافارو فتاة فيلادلفيّة من أسرة كثيرة المشكلات، عميقة الإيمان. جدّ روبن وأعمامها، جيمى وجونى كانوا جميعًا نقابيين، والجد، فازيو، خدم تحت رئيس نقابة فيلادلفيا فرانك فيتزسيمونس فى منصب نائب الرئيس على المستوى القومى وأدار أكبر نقابة محلية فى فيلادلفيا وأساء استخدام أموال أعضائها الـ ٢٢٠٠ لمدة عشرين عامًا. مر فازيو على حُكمين قضائيين، واعتلال الشريان التاجى، وجراحة فى الحنجرة، وتسعة شهور من العلاج الكيماوى، قبل أن يتقاعد فى مدينة "سى آيل" على شاطئ ولاية جيرسى، حيث ما زال يخرج إلى الميناء كل صباح ليملأ أفخاخ صيد الكابوريا بقطع الدجاج النيئ.

العم جونى - ابن فازيو الأكبر - تعايش ببساطة مع الإعاقة ("ألم مزمن وحاد فى أسفل الظهر")، وانشغل فى تجارة طلاء البيوت، وحظه أو موهبته كمضارب فى النهار على الإنترنت. جونى يعيش قرب استاد المحاربين القدامى مع زوجته وابنتهما الأصغر فى بيت صغير توسعوا فيه حتى ملأ قطعة الأرض الخاصة بهم كاملة، من الرصيف إلى الحد الخلفى للأرض، مع حديقة زهور ومربع نجيلة صناعية فوق سطح البيت.

العم جيمى ("بابا جيمى") أعزب ومدير الموقع فى شركة تخزين وثائق، وهو مكان عتيق بنته النقابة الدولية فى أزمان أكثر تفاؤلاً على الضفاف الصناعية لنهر ديلاوير. بابا جيمى شهير على المستوى المحلى بأنه كان يستنشق الميثادون دون حتى أن يُجرب الهيروين ولا مرة واحدة.

أما والد روبن - نيك - فهو ابن فازيو الأوسط والباسافارو الوحيد ضمن جيله الذى لم يعتنق برنامج النقابة عن حب. كان نيك هو عقل الأسرة المدبر والاشتراكى الملتزم فيها. كان النقابيون بتحالفاتهم مع نيكسون وسيناترا مارقين بالنسبة إليه. تزوج نيك فتاة أيرلندية وانتقل إلى خارج منطقة ماونت إيرى المنهارة عنصريًا وبدأ العمل فى تدريس الدراسات الاجتماعية لطلبة الثانوية فى زمام المدينة، وكان يتحدى نُظار المدارس أن يطردوه من العمل بسبب تروتسكاويته الجبارة.

قيل لنيك وزوجته كولين إنهما عقيمان لا يمكنهما الإنجاب. تبنيا صبيًا فى السنة الأولى من عمره، هو بيلى، قبل شهور من أن تحمل كولين فى روبن؛ الأولى بين ثلاث فتيات. وصلت روبن سن المراهقة قبل أن تعرف أن بيلى شقيقها بالتبنى، لكن ذكرياتها العاطفية المبكرة من الطفولة، على حد قولها لدينيس، كانت الإحساس بامتيازات لا حصر لها.

لابد أن هناك مسمى تشخيصيًا طبيًا ملائمًا لبيلى، معقد وله اختصار من ثلاثة حروف، للاعتلال الظاهر على الأشعة المقطعية التى أجراها، ومؤكد أن هناك مسميات افتراضية مثل "الإهمال الحاد" أو "الصدمة الدماغية" من مراحل الطفولة المبكرة، لكن

شقيقاته، روبن على وجه الخصوص، يلمن أنفسهن على حاله. إن أقرضته خمسة دولارات، كان يسخر منها لأنها تظن أنه سيعيد لها المبلغ. (إذا اشتكت لوالدها، يعطيها نيك خمسة أخرى). كان بيلى يطاردها بالجراد الذى يقطع سيقانه، بالضفادع التى يحميها فى الكلور، ويقول لها ـ على سبيل الدعابة " - سوف أؤذيهما بسببك". كان يضع أكوام الطين فى سراويل دمى روبن التحتية. ويقول عليها "البقرة العبيطة" و"روبن معدومة الثديين". غرس قلم رصاص فى ذراعها وكسر السن الرصاص عميقًا تحت الجلد. بعد يوم من اختفاء دراجتها الجديدة من الجراج، ظهر ومعه زلاجات سوداء جيدة قال إنه عثر عليها فى جرمان تاون آفينيو، وقد استخدمها فى التنقل فى أنحاء الحى خلال الشهور التى انتظرت فيها دراجة جديدة.

والدهم، نيك، يجيد اكتشاف أوجه الظلم فى العالمين الأول والثالث جيدًا، باستثناء الظلم الذى يكون بيلى سببه. مع دخول روبن المدرسة الثانوية، كان انحراف بيلى قد اضطرها لأن تغلق دولابها بالمفتاح، وأن تضع المناديل الورقية فى ثقب باب حجرة نومها، وأن تنام ومحفظتها تحت الوسادة، لكن كل هذه الإجراءات التى اتخذتها زادت حزنها وليس غضبها. ليس لديها الكثير لتشتكى منه، وكانت تعرف ذلك. هى وشقيقاتها فقيرات وسعيدات فى بيتهن الكبير الرث الحال فى شارع فيل ـ إلينا، وهى تذهب إلى مدرسة جيدة ثم إلى جامعة جيدة، كلاهما بمنح دراسية كاملة، وتزوجت زميلها، حبيبها، وأنجبت منه طفلتين، بينما كان بيلى ينحدر أكثر وأكثر.

نيك علم بيلى أن يحب السياسة، ورد بيلى الجميل بأن عذبه بوصفه بـ "برجوازى ليبرالى" بمناسبة ودون مناسبة بلا توقف.

عندما أخفق فى إزعاج نيك بما يكفى، صادق بيلى آخرين من آل باسافارو. بعد اعتقال بيلى فى جنحته الثانية، وبعد أن طردته كولين من البيت، أعطاه أقاربه النقابيون ترحيب الأبطال. مرت فترة قبل أن يستغل ذلك الترحيب تمام الاستغلال.

عاش لمدة عام مع عمه جيمى، الذى كان فى الخمسينيات من عمره، ويشعر بأنه الأسعد بين المراهقين أمثاله، القادر على أن يطلعهم على مجموعاته الكبيرة من الأسلحة والسكاكين، وأفلام شاسى لاين ولعبة وورلورد ٣ لكن جيمى كان يعبد إلفيس بريسلى فى محراب بأحد أركان حجرة نومه، وبيلى الذى لم يستوعب مطلقًا أن جيمى لا يمزح فيما يخص إلفيس، قام بتدنيس المحراب بشكل لا رجعة فيه، لدرجة أن جيمى رفض أن يتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد، وعاد إلى الشارع.

من هناك راح بيلى يتنقل فى العالم السفلى للراديكاليين فى فيلادلفيا - من صناع القنابل والمتشردين والبوكانينيون والأنبياء الصغار وسيدات بأسماء مثل أفريكا، ومؤرخون هواة لإنجلز وكتيبة الجيش الأحمر الممتدة من فيشتاون وكينسينجتون فى الشمال، عبر جرمان تاون وويست فيلى، وحتى بوينت بريز المبتلاة. من حقائق فيلادلفيا الغريبة أن قدرًا لا يستهان به من الجرائم فى المدينة يرتكبها أفراد لديهم وعى سياسى. بعد عمودية فرانك ريزو الأولى لم يعد بإمكان أحد أن يتظاهر بأن شرطة المدينة نظيفة أو محايدة، ومن حينها، حسب التقديرات، أصبح جميع رجال الشرطة قتلة، أو على الأقل معاونين للقتلة، وأية جريمة عنف أو إعادة توزيع ثروة قد يعترض عليها شرطى، يمكن تبريرها بصفتها عملاً مشروعًا على مسار الحرب القذرة طويلة المدى. لكن القضاة المحليين لم يفهموا

هذا المنطق على الإطلاق. بيلى باسافارو الأناركى الصغير راح على مدار السنوات يجتذب أحكامًا أشد على جرائمه مثل المراقبة، خدمة المجتمع، مخيم عقابى تجريبى، وأخيرًا سجن الولاية فى جراترفورد. كثيرًا ما تجادلت روبن ووالدها حول عدالة هذه الأحكام، وكان نيك يداعب لحيته الصغيرة الشبيهة بلحية لينين، ويؤكد أنه رغم أنه ليس رجلا عنيفًا، فهو لا يعارض العنف فى خدمة الأفكار، وتطعن روبن على كلامه بأن تطالبه بذكر الأفكار السياسية التى يدافع عنها بيلى بعد أن طعن طالبًا فى جامعة بنسلفانيا بسكين قديم.

فى السنة السابقة على مقابلة دينيس لروبن، تم الإفراج عن بيلى إفراجًا مشروطًا وحضر حفل قص الشريط لمركز الكمبيوتر المجتمعى فى حى نايس تاون الفقير القريب من المنطقة الشمالية.

خارج الخيمة البيضاء، كان حشد الأناركيين المعتاد يقف يرمقه رجال الشرطة الحذرون، الذين تبين فيما بعد أن عددهم كان قليلاً، وكان الأناركيون يرفعون بلا مواربة اللافتات، وفى السر، فى جيوبهم، يحملون قطع مغناطيس قوية كانوا يأملون، وسط مراسم أكل التورتة وشرب العصير والارتباك، أن يمسحوا بها بعض البيانات من كمبيوترات المركز الجديدة. كان على لافتاتهم كلمات "ارفضوه" "الكمبيوتر هو الثورة المضادة" و"لم تعطنى هذه السماء إلا الصداع". كان بيلى باسافارو الذى حلق ذقنه يحمل لافتة بعرض أربعة أقدام كتب عليها "مرحبًا بكم فى فيلادلفيا!!". عندما انتهت مراسم الاحتفال وأصبح الوضع جاذب أكثر للأناركيين، تقدم بيلى وسط الحشد، مبتسمًا ممسكًا بلافتته التى تنم عن حسن النية، حتى اقترب بما يكفى من الأجهزة، بحيث يمكنه أرجحة اللافتة

كأنها مضرب بيسبول، ليكسر بها جمجمة ريك فلامبورج. قضت ثلاث ضربات تالية على أنف فلامبورج وفكه وعظمة الترقوة، وأغلب أسنانه، قبل أن يتعامل حراس العمدة مع بيلى وقبل أن يتكوم فوقه نحو عشرة رجال شرطة.

من حسن حظ بيلى أن الخيمة كانت مزدحمة للغاية وهو ما حال دون إطلاق رجال الشرطة النار عليه. كما كان محظوظًا نظرًا لعمدية جريمته، بأن ريك فلامبورج لم يمت. (ليس من الواضح إن كان فلامبورج نفسه، وهو خريج دارتماوث الأعزب، الذى خلفه الهجوم مشوهًا مصابًا بعجز عن الكلام وعمى فى إحدى عينيه ونوبات صداع مزمنة، قد شعر بنفس الحظ). اتُهم بيلى بمحاولة القتل، واعتداء من الدرجة الأولى، واعتداء بسلاح مميت. رفض من حيث المبدأ أن يتفق على أى اعتراف بالذنب لتخفيف الحُكم، واختار أن يمثل نفسه فى المحكمة، واعتبر أن محاميه المعين من المحكمة والمحامى النقابى العجوز اللذين عرضا أن يتقاضيا من أسرته خمسين دولارًا فى الساعة، اعتبرهما "متكيفين".

ولدهشة الجميع عدا روبن، التى لم تشك قط فى ذكاء شقيقها، قدم بيلى دفاعًا حصيفًا عن نفسه. قال أن بيع العمدة لأطفال فيلادلفيا كعبيد للتكنولوجيا فى شركة "و..." صاحبة الأجهزة، هو "خطر واضح وقائم" ومن ثم فمن المُبرر أن يرد عليه بالعنف. عندما أظهرت روبن لدينيس بعد ذلك بكثير محاضر المحكمة، تخيلت دينيس الجمع بين بيلى وشقيقها شيب على العشاء والاستماع إليهما وهما يقارنان أفكارهما عن "النظام" لكن ذلك العشاء سينتظر حتى ينتهى بيلى من سبعين فى المائة من عقوبته بالسجن ١٢ إلى ١٨ عامًا فى جراترفورد.

استأذن نيك باسافارو من العمل وكان يحضر جلسات محاكمة ابنه بانتظام. ظهر نيك على شاشات التليفزيون وقال كل شيء متوقع من شيوعى قديم: "مرة فى اليوم يكون الضحية أسود، فيسود الصمت، ومرة فى العام يكون الضحية أبيض، فتقوم الدنيا ولا تقعد" و"سوف يدفع ابنى ثمنًا باهظًا على جريمته، لكن شركة و..." لن تدفع أبدًا ثمن جرائمها" و"الأشخاص على شاكلة ريك فلامبورج فى هذا العالم جنوا المليارات من بيع العنف المزيف لأطفال أمريكا". وافق نيك على أغلب حجج بيلى فى المحكمة، وكان فخورًا بأدائه، لكن بعد عرض صور إصابات فلامبورج فى المحكمة، بدأ يفقد تماسكه. الكسور العميقة على هيئة حرف Vفى جمجمة فلامبورج، وفى أنفه وفكه وكتفه، تتحدث عن همجية مرعبة، عن جنون، لا يتطابق كثيرًا مع الأفكار. كف نيك عن النوم مع مضى المحاكمة قدمًا. كف عن حلاقة ذقنه وفقد شهيته. بمساعدة كولين بدأ يذهب لطبيب نفسى وعاد للبيت ومعه أدوية، لكن حتى بعد ذلك كان يوقظها فى الليل وهو يصيح: "لن أعتذر! إنها الحرب!" فى النهاية زاد تعاطيه للعلاج، وفى أبريل أحالته إدارته التعليمية إلى التقاعد.

لأن ريك فلامبورج كان يعمل لصالح شركة "و..."، فقد أحست روبن بالمسئولية تجاه كل ما حدث.

أصبحت روبن هى سفيرة آل باسافارو إلى أسرة ريك فلامبورج، وكانت تزورهم فى المستشفى حتى تخلص والدا فلامبورج من غضبهما وريبتهما وأدركا أنها ليست مثل أخيها. جلست إلى جوار فلامبورج تقرأ عليه مجلة "الرياضة المصورة". كانت تسير إلى جوار

مشايته وهو ينقل قدميه ببطء فى ردهة المستشفى. فى ليلة جراحته الثانية، أخذت والديه للعشاء وراحت تتصت إلى قصصهما (المملة بصراحة) عن ابنهما. قالت لهما كم كان بيلى سريعًا فى التعلم، وكيف أنه فى الصف الرابع كان قد أتقن من مهارات النطق والكتابة ما يكفى لتزوير رسائل ولى أمر للمدرسة، وكمية النكات القبيحة والمعلومات التناسلية المهمة التى عرفها، وكيف كان إحساسها وهى فتاة ذكية، أن ترى شقيقها الذكى مثلها يزيد من غبائه بنفسه كل عام: كم هو غامض كل ما حدث وكم هى آسفة لما حدث لابنهما.

عشية محاكمة بيلى، دعت روبن أمها للذهاب للكنيسة. كانت كولين كاثوليكية، لكنها لم تذهب للصلاة منذ أربعين عامًا. تجربة روبن مع الكنيسة كانت تقتصر على حفلات العرس والجنازات. لكن خلال ثلاثة أيام أحد متعاقبة، وافقت كولين على أن تأخذها ابنتها من ماونت آيرى إلى إبراشية الطفولة، فى سانت ديمفنا فى شمال فيلادلفيا. وهى تغادر الكنيسة فى الأحد الثالث قالت كولين لروبن، بتلك اللكنة الأيرلندية الخفيفة التى حافظت عليها طيلة حياتها: "انتهيت من هذا الكلام، أشكرك" بعد ذلك كانت روبن تذهب وحدها إلى القداس فى سانت ديمفنا، وإلى الدروس الدينية أيضًا.

كان لدى روبن الوقت اللازم لهذه الأعمال الصالحة الإيمانية بسبب شركة "و...". كان زوجها براين كالاهان، ابن أحد الصناع المحليين الصغار، وقد نشأ مرتاحًا فى بالا سينويد، وكان يتوقع أن يرث شركة كيماويات والده الصغيرة المتخصصة فى أى وقت. (كان والد كالاهان فى شبابه قد طور مركبًا كيماويًا مفيدًا فى أعمال الترميم والإنشاءات). تزوج براين من أجمل فتاة فى الجامعة (فى

رأيه كانت تلك هى روبن)، وسرعان ما أصبح بعد الزواج رئيسًا لشركة هاى تيمب. كانت الشركة تشغل مبنى من الحجر الأصفر فى المنطقة الصناعية قرب كوبرى تاكونى - بالميرا، وبالصدفة كان أقرب جار تجارى لهذا المبنى هو مبنى تخزين الوثائق. ومع كون الجهد الذهنى المطلوب لتشغيل شركة هاى تيمب جهدًا خفيفًا، أمضى براين ساعات ما بعد الظهر فى التعامل مع برمجة الكمبيوتر والتحليل الإلكترونى، مشغلاً فى حجرة رئيس مجلس الإدارة خاصته موسيقى فرق كاليفورنيا المغمورة التى يحبها، ويكتب سوفتوير قام بعد ذلك بتسجيل براءة اختراعه، ثم عثر فى هدوء على منفذ للبرنامج، وذات يوم بناء على نصيحة منفذ البرنامج، باعه لشركة "و..." مقابل مبلغ ١٩ مليون وخمسمائة ألف دولار.

كان منتج براين يُدعى "أيجنميلودى"، يحول أى قطعة موسيقية إلى معادلات خطية ترشح جوهر الأغنية اللحنى والغنائى إلى إحداثيات جزئية يمكن التعامل معها. يمكن لمستخدم البرنامج أن يختار أية أغنية يحبها، وسوف يحللها البرنامج، ويبحث فى قاعدة بيانات موسيقية عن أغنيات ذات معادلات خطية شبيهة، ويخرج بقائمة من الأصوات الشبيهة ما كان المستخدم ليجدها مطلقًا مهما بحث. كان برنامج أيجنميلودى لعبة وأداة تحليل موسيقية وبرنامجًا لتحسين وتشغيل الموسيقى فى واحد. حسن براين من أداءه وتخلص من عيوب كثيرة فيه لدرجة أن شركة "و..." الكبيرة جاءت إليه تجرى ومعها أكوام وأكوام من النقود الاحتكارية تمد يدها الطويلة إليه بها.

يجدر بالذكر أن براين الذى لم يذكر الصفقة الوشيكة لروبن، لم يذكر كلمة عن الصفقة فى مساء يوم إتمام الصفقة، حتى صعدت

الفتيات إلى الفراش فى بيتهن المتوسط المتواضع بالقرب من متحف الفنون، وحتى راح هو وهى يتفرجان على برنامج تلفزيونى إعلانى ممل عن مستحضرات التجميل.

قال براين: "بالمناسبة، لن يضطر أى منّا للعمل مرة أخرى". جدير بالذكر أن روبن عندما تلقت هذه الأخبار ضحكت حتى أصابها الفواق.

عجبًا، هناك عدل فى لقب بيلى الذى نعت به روبن: البقرة العبيطة. روبن تحت الانطباع بأنها تعيش حياة جيدة بالفعل مع براين. كانت تعيش فى بيت صغير، وتزرع الخضراوات والأعشاب فى حديقتها الخلفية الصغيرة، وتُعلم "فنون لغوية" لأطفال فى العاشرة والحادية عشرة فى مدرسة تجريبية فى غرب فيلادلفيا، وترسل ابنتها سينيد إلى مدرسة ابتدائية خاصة ممتازة فى فيرمونت آفينيو وابنتها إرين إلى حضانة خاصة، وتشترى كابوريا مخلية وطماطم بلدى من سوق "ريدينج ترمينال"، وتقضى العطلات الأسبوعية وشهور أغسطس كل عام فى بيت عائلة براين فى كيب ماى، وتتواصل مع صديقاتها القدامى اللاتى أصبح لهن أبناء، وتحرق طاقة جنسية كافية مع براين (كانت عادة تحب الموضوع يوميًا، على حد قولها لدينيس) حتى تبقى نصف هادئة.

من ثم، أحست البقرة العبيطة بالصدمة من سؤال براين التالى. سألها أين تريد أن يعيشان. قال إنه يفكر فى شمال كاليفورنيا. كما أنه يفكر فى بروفينس، وفى نيويورك وفى لندن.

قالت روبن: "نحن سعداء هنا. لماذا نذهب إلى مكان لا نعرف فيه أحدًا والجميع فيه أثرياء؟"

قال براين: "الطقس الجميل، الجمال، الأمان، الثقافة، الذوق. لا يوجد أى من هذا فى فيلادلفيا. لا أقول أن علينا أن نغير بيتنا. بل أقول لك أخبرينى أين تودين أن نذهب، حتى ولو فى الصيف".

"أحب هنا".

قال: "إذن سنبقى هنا. حتى تشعرين بالرغبة فى الانتقال".

كانت ساذجة بما فيه الكفاية، على حد قولها لدينيس، لأن تعتقد أن هذه هى نهاية النقاش. كان زواجها جيدًا، مؤسس بقوة على تربية الأطفال والأكل والجنس. كان صحيحًا أنها وبراين ينتميان إلى خلفيات طبقية مختلفة، لكن شركة هاى تيمب لم تكن شركة كبيرة، وروبن التى كانت لديها شهادات من مدرستين للنخبة، لم تكن بروليتارية جدًا. اختلافاتهما الحقيقية كانت تتعلق بالذوق، تلك الاختلافات أغلبها خفية على روبن، لأن براين زوج طيب ورجل لطيف ولأنها فى براءتها البقرية، لم تتخيل أن يكون للذوق أية علاقة بالسعادة. كان ذوقها الموسيقى على شاكلة جون براين وإيتا جيمس، وهكذا كان براين يشغل فى البيت براين وجيمس ويخصص موسيقى بارتوك وديفانكت وفلامينج ليبس وميشين أوف بورما لمكتبه فى هاى تيمب. كون روبن ترتدى ثياب تلميذة، وكوتشيًا أبيض وأشياء تعود لموضة سنة ١٩٧٨ فهذا لم يحبط براين تمامًا، لأنه من بين جميع الرجال، فهو من يراها عارية. كون روبن متوترة وعصبية وصوتها حاد مزعج وضحكتها عالية، فهذا ثمن ضئيل تدفعه مقابل قلب من الذهب وقوام مذهل وقدرة جسدية عالية على التخلص من الدهون، حافظت عليها فى رشاقة الممثلات. كون روبن لم تحلق

إبطيها قط ونادرًا ما تغسل نظارتها، لا بأس، فهى أم أولاد براين، وطالما هو قادر على تشغيل موسيقاه وحده، فلا يبالى بذوقها الذى يعجب السيدات الليبراليات فى سن معينة بصفته دليلاً على هوية نسوية. هذا على كل حال هو التفكير الذى تخيلت دينيس أن براين انتهجه لحل مشكلة الذوق، إلى أن جاءت النقود من شركة "و..." تسعى.

(دينيس الأصغر من روبن بثلاث سنوات فقط، لم تتصور فكرة ارتداء سترة رياضية زرقاء ونايلون، أو ألا تحلق إبطيها. ليس لديها حتى كوتشى أبيض).

كان أول تنازل قدمته روبن لثروتها الجديدة، أن قضت الصيف تبحث عن بيت مع براين. نشأت فى بيت كبير، وتريد لبناتها أن يكبرن فى بيت كبير بدورهن. إن كان براين يريد أسقفًا بارتفاع ١٢ قدمًا وأربعة حمامات وأبواب ماهوجنى فى أرجاء البيت، فلا بأس، هذا كاف. فى السادس من سبتمبر وقعا عقدًا لبيت كبير فى شارع بنما، قرب ميدان ريتنهاوس.

بعد يومين، وبكل ما فى كتفى بيلى من قوة ربتها له السجون، رحب بنائب رئيس شركة "و..." فى فيلادلفيا.

ما كانت روبن تريد أن تعرفه ولا يمكنها أن تصل إليه، فى الأسابيع التالية على الهجوم، هو إن كان بيلى قد عرف بما حدث لبراين وإن كان يعرف ما الشركة التى تدين بها هى وبراين على ثراءهما المفاجئ. الإجابة مهمة، مهمة، مهمة. سوف تنال الإجابة التى يعتقد أنها الأكثر ألمًا لها. أوضح بيلى تمامًا لروبن أنه لن يكف أبدًا عن التحرش بها، ولن يحادثها كند له، إلى أن تثبت له أن

حياتها تعيسة ومؤسفة كحياته. وكان هذا هو الدور الطوطمى الذى تلعبه له، كونه اختارها دون غيرها لتصبح فى رأيه نموذج الإنسان السعيد الذى يعيش حياة طبيعية، نقيضه التام، كان ذلك هو ما جعلها تشعر بأن رأسها هى الرأس التى ضُربت لمّا نزل بلافتته على رأس ريك فلامبورج.

قبل المحاكمة سألت والدها إن كان قد أخبر بيلى بأن براين باع برنامجه إلى شركة "و...". لم ترغب فى سؤاله، لكن لم تتمكن من أن تمنع نفسها. كان نيك، لأنه أعطى بيلى نقودًا، هو الشخص الوحيد فى الأسرة دائم التواصل معه إلى الآن. (وعد العم جيمى بإطلاق النار على مُدنس محرابه، على ابن أخيه السافل الصغير، إن رأى يومًا وجهه التافه الكاره لإلفيس، وكان بيلى قد سرق مرة أو أكثر من الجميع، حتى أبوى نيك، فازيو وكارولينا، اللذين طالما أصرا أن ليس هناك ما يعيب بيلى، على حد قول فازيو: "إلا متلازمة نقص التركيز"، فقد منعاه أخيرًا من دخول بيتهما فى سى آيل سيتى).

للأسف أدرك نيك الدافع وراء سؤال روبن على الفور. رد عليها وهو ينتقى كلماته جيدًا، بأنه لا يذكر أنه قال أى شىء لبيلى.

قالت روبن: "الأفضل لو أخبرتنى الحقيقة يا بابا".

"أنا، أنا، لا أعتقد أن هناك صلة يا روبن".

"ربما لن أشعر بالذنب. ربما سأغضب لا أكثر".

"طيب، روبن، هذه الأحاسيس نهايتها نفس الشىء. الذنب والغضب، شىء واحد.. صح؟ لكن لا تقلقى على بيلى".

وضعت السماعة وهى تتساءل إن كان نيك يحاول أن يحميها من إحساسها بالذنب، أم يحاول أن يحمى بيلى من غضبها، أو هو ببساطة يعانى من الضغوط. شكت فى أن الموضوع مزيج من الثلاثة. شكت فى أن والدها أثناء الصيف ذكر لبيلى ما حدث مع براين، وأن الأب والابن تبادلها تعليقات ساخرة مريرة عن شركة "و..." وروبن البرجوازية وبراين ابن النخبة. اشتبهت فى ذلك، لا لشىء إلا لأن نيك وبراين لا يتفقان. لم يكن براين يومًا واضحًا فى هذا الموضوع مع زوجته قدر ما كان مع دينيس ("نيك جبان من أسفل الجبناء"، كذا قال لها مرة)، لكنه لم يخف عنها كراهيته لمقولات نيك عن استخدام العنف وحبه لذلك الشىء المدعو اشتراكية. كان براين يحب كولين ("كان حظها سيئًا فى تلك الزيجة"، كذا قال لدينيس)، لكنه كان يهز رأسه ويخرج من الحجرة كلما بدأ نيك فى كلامه الخطابى. لم تدع روبن نفسها تتخيل ما قاله والدها وبيلى عنها وعن براين. لكنها متأكدة أن هناك أشياء قيلت وأن ريك فلامبورج دفع الثمن. كان رد فعل نيك على صور فلامبورج فى المحاكمة يؤكد رأيها هذا.

أثناء المحاكمة مع انهيار والدها، كان لروبن مداخلتان إضافيتان متعلقتان بنقود براين الجديدة. فى البداية تركت وظيفتها فى المدرسة التجريبية. فهى لم تعد راغبة فى العمل لدى آباء يدفعون ٢٣ ألف دولار فى السنة لتعليم كل طفل لديهم (رغم أنها بالطبع هى وبراين يدفعان نفس المبلغ تقريبًا فى تعليم سينيد وإرين). ثم بدأت فى مشروع خيرى. فى مكان رث الحال فى بوينت بريز، على مسافة أقل من ميل جنوبى بيتهما الجديد، اشترت مربع مبانى كاملاً فيه صف بيوت صغيرة واحد على أحد النواصى. كما اشترت

خمس حمولات شاحنات من التربة السوداء الصالحة للزراعة. كانت تخطط للاستعانة بمراهقين من المنطقة مع منحهم أجرًا بسيطًا، وتعليمهم الزراعة العضوية، وأن تعطيهم نصيبًا فى أرباح الخضراوات التى يمكنهم بيعها. كرست وقتها لمشروع البستنة بهوس غريب، وكان مخيفًا حتى بمعايير روبن. وجدها براين جالسة إلى جهاز الكمبيوتر الجديد فى الرابعة صباحًا، تنقر بأصابع قدميها الأرض وتقارن بين أنواع اللفت.

مع توافد مقاول جديد كل أسبوع إلى شارع بنما لإجراء بعض التحسينات، ومع اختفاء روبن فى حالة يوتوبية من الوقت والجهد المُنفقين بغزارة، لجأ براين إلى ما تبقى من مدينة طفولته المؤسفة. قرر أن يحظى بشىء من المتعة. بدأ يتناول الغداء فى المطاعم الجيدة فى فيلادلفيا، مطعمًا وراء الآخر، ويقارن بينها وبين مطعمه الحالى المفضل، "مارى سكورو". وعندما قرر أنه يحب "مارى سكورو" أكثر من أى مطعم آخر، اتصل بالطاهية وعرض عليها عرضًا.

قال: "المطعم الأول فى فيلادلفيا عن جدارة. هو من تلك الأماكن التى يقول من يجربها: يمكننى أن أعيش فى فيلادلفيا لو اضطررت، لا يهمنى إن كان غيرى يرون نفس رأيى. أريد مكانًا يجعلنى أشعر بهذا الشعور. مهما كان ما يدفعونه لك الآن فسوف أضاعفه لك. ثم ستذهبين إلى أوروبا وتأكلين لمدة شهرين على نفقتى. ثم ستعودين وتصممين وتديرين مطعمًا رائعًا حقًا".

أجابته دينيس: "سوف تخسر مبلغًا كبيرًا إن لم يكن معك شريك خبير أو مدير ماهر للغاية".

قال براين: "أخبرينى ماذا أفعل وسوف أفعله".

"هل قلت الضعف؟"

"مطعمك هو أفضل مطعم فى المدينة".

"الضعف مسألة مغرية".

"وافقى إذن".

قالت دينيس: "قد يحدث هذا، لكنك ستخسر مبلغًا كبيرًا. أنت هكذا تمنح الشيف مرتبًا زائدًا".

* * *

لطالما كانت دينيس تعانى من عدم القدرة على الرفض كلما أحست بأنها مطلوبة. وهى صغيرة فى ضاحية سان جود، كانت على مسافة آمنة من أى شخص يرغبها بشكل مريب، لكن بعد أن أنهت الدراسة فى الثانوية عملت فى الصيف فى إدارة الإشارة بشركة ميدلاند باسيفيك للسكة الحديد، وهناك وفى حجرة مشمسة كبيرة فيها صفوف مزدوجة من المكاتب، تعرفت على رغبات دستة من الرجال الأكبر سنًا.

كان عقل ميدلاند باسيفيك - معبد روح الشركة - هو مبنى من الحجر الجيرى فيه رائحة الاكتئاب قوية. يتوسطه كرسى الإدارة العليا، الكائن فى حجرة مجلس الإدارة والرئيس التنفيذى فى الطابق السادس عشر، ومكاتب الإدارات الأكثر ابتعادًا عن المركز (العمليات، الشئون القانونية، العلاقات العامة) رؤساؤها فى الطابق الخامس عشر. فى الطوابق الأسفل من المبنى أقسام الفواتير وشئون العاملين وتخزين البيانات. فى الوسط يقع المابين، من إدارات للمهندسين، للكبارى والسكك الحديدية والمبانى والإشارة.

كانت خطوط سكة حديد ميدلاند باسيفيك تمتد ١٢ ألف ميل، ولكل إشارة ولكل سلك على امتداد السكة، لكل إشارة أحمر وأخضر، ولكل مؤشر حركة مدفون على امتداد القضبان، ولكل كتلة من أجهزة حساب الوقت وتغيير مسارات القضبان مدفونة فى حظائر ألمونيوم إلى جوار القضبان، كانت هناك رسومات هندسية حديثة مخزنة فى حجرة أرشيف التصميمات فى الطابق الثانى عشر بمقر الشركة. أقدم التصميمات والرسوم كانت مرسومة بالأقلام الرصاص على الورق المقوى، وأحدثها كانت بأقلام تصميمات هندسية على ورق أبيض.

العمال الذين يقومون بصيانة هذه الملفات ويتواصلون بشأنها مع المهندسين الميدانيين - الذين يحافظون على سلامة الجهاز العصبى للسكة الحديد ويفضون مشاكلها، كانوا من تكساس وكنساس وميسورى، هم رجال أذكياء غير متحضرين ينحدرون من وظائف لا تتطلب مهارات خاصة، حيث يقطعون الحشائش وينصبون أعمدة ويمدون الأسلاك، حتى ومن واقع عملهم واهتمامهم الطبيعى بالدوائر المغلقة والأسلاك (وكذلك كما أدركت دينيس فيما بعد، من واقع أنهم من البيض)، تم اختيارهم للعمل بالتدريب والتكوين المهنى. لم يستمر أى منهم فى الجامعة أكثر من عام أو عامين، وأغلبهم اكتفوا بالثانوية. فى الأيام الصيفية والسماء بيضاء والعشب بنى وزملاؤهم القدامى من العمال يكافحون ضربة الشمس فى العراء، كان هؤلاء قطعًا يشعرون بالسعادة وهم جلوس فى مقاعد مريحة فى هواء بارد لدرجة أن كل منهم يضع فى درج مكتبه بلوفر على سبيل الاحتياط.

قال ألفريد لدينيس والشمس تصعد إلى السماء: "سوف تجدين أن بعض الرجال يأخذون استراحة من العمل لتناول القهوة. لتعرفى إذن أنهم لا يأخذون مرتباتهم حتى يستريحوا، وأتوقع منك ألا تأخذى استراحات للقهوة. الشركة تخدمنا باستخدامك للعمل فيها، وهى تدفع لك مرتبك لتعملى ثمانى ساعات. أريدك أن تتذكرى هذا. لو تعاملت مع الوظيفة بنفس حماس المذاكرة وبنفس حماس عزفك على الترومبيت، فسوف يتذكرونك بصفتك موظفة عظيمة".

هزت دينيس رأسها. لو وصفت نفسها بالمحبة للتنافس فهى تبخس خصلتها هذه حق قدرها. فى فرقة الموسيقى بالمدرسة الثانوية كانت هناك فتاتان و١٢ صبيًا فى قسم الترومبيت. كانت تحتل الصف الأول والصبية جميعًا فى المقاعد الـ ١٢ الباقية. (فى المقعد الأخير فتاة بعض أجدادها من هنود الشيروكى، من جنوب الولاية، وكان عزفها يلقى بظلال التنافر تلك التى تميز كل فرق الموسيقى الثانوية). لم تكن دينيس تحب الموسيقى كثيرًا، لكنها تحب التفوق، وترى أمها أن الفرق الموسيقية جيدة للأطفال. كانت إنيد تحب انضباط الفرق، وما يخالطها من حس وطنى. كان جارى وهو فى المدرسة عازف ترومبيت قدير وشيب حاول عزف آلة نفخ أخرى هى الباسون. عندما حان وقت دينيس، طُلب منها أن تسير على درب جارى، لكن إنيد لم تر أن الفتيات الصغيرات والترومبيت متوافقان. الفلوت أنسب للفتيات الصغيرات. لكن دينيس لم تحب يومًا منافسة الفتيات. أصرت على الترومبيت، ودعمها ألفريد فى قرارها، وفى النهاية خطر لإنيد أنه يمكن تفادى رسوم استئجار الآلة الموسيقية لو استخدمت دينيس ترومبيت جارى القديم.

على النقيض من الموسيقى للأسف، كانت تصميمات الإشارات التى أعطيت لدينيس كى تنسخها وتؤرشفها ذلك الصيف غير مفهومة لها. بما أنها غير قادرة على منافسة الناسخين، فقد نافست الصبى الذى كان يعمل فى إدارة الإشارات الصيفين الماضيين، وهو آلان جامبوريتس، ابن مدير الشئون القانونية للشركة، وبما أنها لم تكن لديها طريقة لقياس أداء جامبوريتس، فقد عملت بقوة وهمة لا يمكن لأحد أن يحاكيها فيها.

قال لاريدو بوب، ابن تكساس غزير العرق بينما دينيس تقص ورق الرسم: "يخرب عقلك يا دينيس".

"ماذا؟"

"سوف تحرقين نفسك بعملك السريع هذا".

قالت: "أنا فى الواقع مستمتعة به".

قال لاريدو بوب: "لكن من الممكن أن تتركى بعض هذا العمل للغد".

"لا أستمتع بالعمل لهذه الدرجة".

"طيب، لكن سنأخذ استراحة للقهوة الآن. سمعت؟"

الناسخون يتثاءبون وهو يتجمعون فى الطريق إلى الردهة.

"حان وقت القهوة!"

"عربة الوجبات الخفيفة هنا!"

"وقت القهوة!"

استمرت فى العمل بلا كلل.

كان لاريدو بوب هو ذلك الموظف الذى يُكلف بالعمل الكريه فى غياب متدربين صيفيين لمساعدته. كان من الجدير بلاريدو بوب أن يشعر بالحقد على دينيس - التى وعلى مرأى من المدير - أدت فى نصف ساعة أعمالاً مكتبية كان يحب أن يخصص لها صباحات كاملة وهو يمضغ سيجارًا. لكن لاريدو بوب يرى أن الشخصية مصير حتمى. بالنسبة إليه، كانت عادات دينيس فى العمل دليل ظاهر على أنها ابنة أبيها، وأن مع الوقت سوف تصبح مديرة مثل والدها، بينما هو، لاريدو بوب، سوف يستمر فى العمل بالمهام المكتبية بالسرعة المتوقعة من شخص من المحتم عليه بموجب مصيره أو يؤديها هكذا. كما كان لاريدو بوب يرى أن المرأة ملاك والرجل مذنب مسكين. الملاك التى تزوجها كشفت عن طبيعتها العذبة الكريمة بأن غفرت له عاداته فى التدخين وبأن عكفت على تغذية وكسوة أربعة أطفال بدخل صغير، لكنه لم يندهش على الإطلاق عندما يتبين أن "الأنثى الأبدية" لديها قدرات فائقة للطبيعة فى مجال تصنيف وأرشفة ألف صندوق فى ترتيب أبجدى. بدت دينيس للاريدو بوب عجيبة من العجائب ومخلوق جميل. بعد قليل كان قد ألف أغنية على وزن اسمها يغنيها لها كلما حضرت إلى العمل فى الصباح، وكلما خرجت إلى استراحة الغداء متجهة إلى الحديقة العامة الغائبة عنها الأشجار على الجانب المقابل من الشارع.

قال سام بويرلين، مدير الناسخين لدينيس إنهم سيدفعون لها راتبها الصيف المقبل حتى لا تأتى إلى العمل، بما أنها تؤدى عمل صيفين فى هذا الصيف.

أما لامار باركر ـ ابن أركانساس المتبسم ذو النظارة السميكة صاحب البثور الدائمة على وجهه ـ فقد سألها إن كان والدها قد أخبرها بمدى سخافة وحقارة العاملين بإدارة الإشارة.

أجابت دينيس: "سخافة لا أكثر، لم يقل يومًا حقارة".

ضحك لامار وكرر ما ذكرته حرصًا على أن يسمع كلامها من هم حوله من الرجال.

ضحك دون أرمور، موظف النسخ، ضحكة ساخرة خافتة.

كان دون أرمور الرجل الوحيد فى إدارة الإشارة الذى يبدو أنه لا يحب دينيس. كان قوى البنية، قصير الساقين، من المحاربين القدامى فى فيتنام، حليق الرأس، أزرق وجلوكوزى كحبة البرقوق. سترته الفضفاضة ضيقة عند ذراعيه، ترى أدوات الرسم صغيرة كالألعاب فى يده، وكأنه فتى مراهق جالس إلى مكتب طفل فى الصف الأول الابتدائى. بدلاً من أن يريح قدميه على عارضة مقعده كالآخرين، كان يترك ساقيه يتدليان على الأرض. كان ينكب بجسده على سطح المكتب، يقرب عينيه قيد بوصات قليلة من قلم الرسم الهندسى. بعد أن يعمل لمدة ساعة على هذا النحو، يشعر بالخدر فيغرز أنفه فى ورق الرسم أو يضع وجهه بين كفيه ويتأوه. فى استراحات القهوة ووجهه لصق المكتب وكأنه ضحية جريمة قتل، جبينه على المائدة، ونظارته البلاستيكية كنظارات الطيارين فى يده.

عندما تعرفت دينيس على دون أرمور أشاح بعينيه عنها وصافحها ببرود. عندما كانت تعمل فى الطرف البعيد من حجرة الرسم، كانت تسمعه يغمغم بأشياء والرجال من حوله يضحكون، وعندما اقتربت منه التزم الصمت وكان يغمز ويلمز ومقصده

مكتبها. كان يذكرها بالبلطجية الذين يشغلون الدكك الخلفية فى فصول المدارس.

كانت فى حمام السيدات ذات صباح فى شهر يوليو عندما سمعت أرمور ولامار خارج الحمام، عند حنفية الشرب، حيث يغسل لامار فناجين قهوته. وقفت وراء الباب تتصنت.

قال لامار: "أتذكر عندما كنا نحسب آلان موظفًا مجنونًا؟"

قال دون أرمور: "حقًا، وإن كان أخف وقعًا على العين".

"هى هى".

"الشغل صعب وهناك واحدة جميلة كآلان جامبوريتس تروح وتغدو طوال النهار فى تلك الجيبة الصغيرة".

"كان آلان فتى جميلاً فعلاً".

سمعت آهة.. ثم قال دون أرمور: "وحياة ربنا يا لامار، أنا على وشك تقديم شكوى لشئون العاملين. هذه معاملة قاسية وغير عادية. هل رأيت تلك الجيبة؟"

"رأيتها، لكن اصمت الآن".

"أنا سأُجن".

"هذه مشكلة موسمية يا دونالد. وسوف تنتهى من تلقاء ذاتها بعد شهرين".

"إن لم ترفدنى إدارة روث أولاً".

"لماذا أنت متأكد أن الدمج بين الشركتين سيحدث؟"

"عرفت ثمانى سنوات فى العراء قبل أن أصل لهذا المكتب. ها قد حان الوقت لأن يجد ما يفسد علينا كل شىء".

كانت دينيس ترتدى جيبة زرقاء قصيرة وجدت من المدهش أنها تتسق مع رأى أمها وفكرتها عن اللباس الإسلامى للمرأة. بقدر قبولها لفكرة أن لامار ودون أرمور كانا يتحدثان عنها، بقدر ما أحست بالغضب من دون. أحست كأنه ينظم حفلاً فى بيتها دون أن يدعوها.

عندما عادت إلى حجرة الرسم، وجدته يلقى نظرة مرتابة فى أرجاء الحجرة، نظرة تشمل الجميع إلا هى. مع مرور نظرته إلى جوارها دون أن تصيبها، أحست باحتياج عجيب لأن تقرص حلمتيها بيدها.

كان موسم الرعد فى سان جود. الهواء مُحمل برائحة العنف المكسيكى، بالأعاصير والانقلابات. فى بعض الصباحات يأتى الرعد من سماء غاضبة، حاملاً رسائل مشئومة من بلدات جنوبية لم يذهب إليها قط أحد تعرفه. ورعد فى وقت الغداء من سحابات وحيدة فى سماء نصف جيدة. ثم رعد أكثر خطورة وقت العصر، موجات صلبة من السحاب كموج المحيط تتكوم مقتربة من الجنوب الغربى، والشمس مشرقة والحرارة عادية، وكأنها مدركة أن أوانها قصير. ثم الرعد الأعظم وقت العشاء، عواصف تحتشد على قطر خمسين ميلاً كعناكب كبيرة فى قوارير صغيرة، سحب تنفجر فى وجه بعضها البعض من أركان السماء الأربعة، موجات بعد موجات من السحب الحاملة لقطرات المطر الكبيرة تتوافد كالوباء والطاعون، المشهد وراء نافذتك يتشح بسمت أفلام الأبيض والأسود، والأشجار والبيوت تلمع فى ومضات البرق، والصبية الصغار فى ثياب السباحة والمناشف يركضون إلى البيوت فزعًا

كاللاجئين. ثم قرع الطبول فى ساعة متأخرة من الليل، مدافع الصيف الماضى إلى نهايته.

وكل يوم فى سان جود تحمل الصحافة أخباراً عن عملية دمج وشيكة. خُطاب شركة ميدلاند التوأم: هيلارد وشاونسى روث، حضرا إلى البلدة ليتحدثا مع ثلاث نقابات عمالية. الأخوة روث فى واشنطن يناوئان شهادة ميدلاند باسيفيك أمام لجنة منبثقة عن لجنة فى مجلس الشيوخ. تقارير عن مطالبة الشركة بأن تكون شركة يونيون باسيفيك هى فارسها فى الغرام. الأخوة روث يدافعان عن خطتهما لإعادة هيكلة خطوط أركنساس الجنوبية بعد الشراء. المتحدث باسم ميدلاند باسيفيك يرجو جميع أهالى سان جود المهتمين بكتابة رسائل لنوابهم فى الكونجرس أو الاتصال بهم للشكوى.

كانت دينيس فى طريقها لمغادرة المبنى وقت الغداء، تحت سماء فيها بعض السحب، عندما انفجر طرف عمود نور على مسافة بلوك منها. رأت اللون الأحمر البراق وأحست بهزيم الرعد على جلدها. هرع الموظفون يصرخون فى الحديقة العامة الصغيرة. دارت دينيس على عقبيها وأخذت كتابها والساندوتش والبرقوقة وعادت بهم إلى الطابق الثانى عشر، حيث تمتد كل يوم فى هذا الوقت مائدتان للطعام. جلست إلى جوار النوافذ، لكن أحست أنها ستبدو متكلفة وغير ودودة إذا هى بدأت فى قراءة صفحات من "الحرب والسلام". قسمت انتباهها بين السماء المجنونة فى الخارج ودور الكوتشينة الذى يُلعب إلى جوارها.

فض دون أرمور ورق ساندويتش معه فظهرت منه شريحة لانشون والمستردة الصفراء. لملم الساندوتش مرة أخرى فى ورقه الفويل ونظر إلى دينيس وكأنها آخر عذابات يومه هذا.

كان إد ألبردينج أكبر الناسخين سنًا له جسد شبيه بالقوارير التى تُسقطها كرة البولنج، شعره رمادى مجعد. كان يمضغ ثمرة موز ويفحص أوراق اللعب فى يده. الموزة المقشرة كانت راقدة أمامه على المائدة. قضم منها قضمة أخرى.

قال له دون أرمور: "كمية البوتاسيوم فى الموز كبيرة للغاية".

قال لامار من طرف الحجرة البعيد: "البوتاسيوم جيد للصحة".

وضع دون أرمور أوراق اللعب على المائدة ونظر إلى لامار فى إمعان: "هل تمزح؟ الأطباء يستخدمون البوتاسيوم فى إحداث أزمات قلبية".

قال لامار: "إيدى يأكل موزتين أو ثلاث موزات يوميًا. كيف حال قلبك يا أستاذ إد؟"

قال إد: "فلنركز فى الكوتشينة يا أولاد".

قال دون أرمور: "لكننى مهتم للغاية بصحتك".

"كفى تهجيصًا يا أستاذ".

"يوم بعد يوم تهضم بوتاسيوم مسموم. من واجبى كصديق أن أحذرك".

"دورك يا دون".

"ألعب يا دون".

قال دون أرمور بصوت كسير: "وفى المقابل لا أرى منك غير الشك والإنكار".

"دون، هل تلعب معنا أم تكتفى بتدفئة هذا المقعد؟"

"طبعًا لو مات إد بأزمة قلبية بسبب التسمم المزمن بالبوتاسيوم، سوف أصبح رابع أقدم موظف وسأضمن وظيفة آمنة ومهمة فى ليتل روك، بشركة أركنساس ساوثرن/ميدلاند باسيفيك، لماذا إذن أتكلم هذا الكلام؟ أرجوك يا إد، كل موزتى أيضًا".

قال لامار: "هى هى، حاسب على كلامك".

"أيها السادة، الدور دورى بالمناسبة".

"يا ابن اللذينَ!"

انتهى الدور، بداية دور جديد.

قال دون أرمور دون أن يلقى نظرة واحدة على دينيس: "إد، هل تعلم أن عندهم كمبيوتر فى ليتل روك؟"

قال إد: "هاه؟ كمبيوتر؟"

"لو ذهبت إلى هناك فسوف يجبرونك على تعلم هذا الشىء، أنا أحذرك".

قال لامار: "إيدى سوف يصعد للملائكة قبل أن يتعلم الكمبيوتر".

قال دون: "أخالفك الرأى. سوف يذهب إد إلى ليتل روك ويتعلم الرسم بالكمبيوتر. سوف يقرف غيرنا بموزه هناك".

"قل لى يا دون، لماذا أنت واثق هكذا من أنك لن تذهب إلى ليتل روك؟"

هز دون رأسه: "سوف ننفق ألفين أو ثلاثة آلاف دولار أقل فى العام لو عشنا فى ليتل روك، وسوف يزيد راتبى قريبًا ألفى دولار.

الحياة هناك رخيصة. ويمكن لباتى أن تعمل بنصف دوام أيضًا، وأن تعود للاهتمام بالبنات. يمكننا شراء أرض فى أوزاركس قبل أن تكبر البنات على الاستمتاع بالبيت الكبير. مكان فيه بركة ماء. أتظن أنهم سيسمحون لى بهذه النعم؟"

راح إد يرتب أوراقه فى توتر: "فيم يحتاجون الكمبيوتر؟"

قال دون ووجهه ينفرج عن ابتسامة صفراء: "لتحل محل العجائز".

"لتحل محلنا؟"

"لماذا تعتقد أن الأخوان روث يشترين الشركة وليس شركتنا هى التى تشتريهما؟"

دينيس تراقب السماء تنفرج عن ألسنة من البرق وسط الأشجار، على أفق ولاية إلينوى. فيما كانت تنظر إلى السماء انفجر الوضع عند المائدة.

قال دون أرمور: "بريك يا إد، لم لا تلعق هذا القشر أيضًا قبل أن تضعه على المائدة؟"

قال سام بويرلين، كبير الناسخين: "اهدأ يا دون".

"هل أنا وحدى الذى أشعر بالقرف من هذا الموضوع؟"

"اهدأ اهدأ".

ألقى دون أوراقه على المائدة وابتعد بكرسيه ذى العجلات بعنف لدرجة أن المصباح المثبت بمائدة الرسم تأرجح محدثًا صوت صرير. قال: "لاريدو، تعال خذ ورق لعبى. أريد هواءً بلا موز".

"اهدأ".

هز دون رأسه: "إما نقول الحقيقة ونعرفها الآن أو نُجن عندما يتم البيع".

قال بويرلين: "أنت رجل ذكى يا دون. سوف تقع واقفًا مهما حدث".

"ذكاء من؟ لست فى نصف ذكاء إيدى حتى. أليس كذلك يا إد؟"

ارتعد أنف إد. طرق على المائدة بأوراقه فى نفاد صبر.

قال دون: "صغير على حرب كوريا، وكبير على حربى. هذا هو تعريف الذكاء. ذكاء كاف للنزول من الأتوبيس وعبور شارع أوليف كل صباح لمدة خمسة وعشرين عامًا دون أن تصدمنى سيارة. ذكاء كاف لأن أعود إلى البيت كل ليلة. هذا هو الذكاء المطلوب لهذا العالم".

رفع سام بويرلين صوته قائلاً: "دون، اسمعنى. اخرج لتتمشى قليلاً، هل سمعت؟ أخرج للهواء البارد. عندما تعود، ربما تجد أنك مدين لإيدى باعتذار".

قال إد وهو يطرق بالورق على المائدة: "رهان على ١٨ العب".

وضع دون يده على ظهره ومضى مترنحًا فى الممر بين المكاتب، وهو يهز رأسه. تقدم لاريدو بوب وفى يده سلطة بيض وأخذ أوراق لعب دون.

قال إد: "لا داعى للاعتذارات. فلنلعب هذا الدور يا أولاد".

كانت دينيس فى طريقها لحمام السيدات بعد الغداء عندما خرج دون أرمور من المصعد. كان قد مشى تحت المطر. رفع عينيه إلى دينيس فى غضب عندما رآها.

قالت: "ما الأمر؟"

هز رأسه وابتعد عنها.

"ما الأمر؟ ماذا؟"

قال: "ساعة الغداء انتهت. أليس من المفترض أن تعودى للعمل؟"

كل رسم للأسلاك كان موسومًا باسم الخط ورقم العمود الذى يمر به. يقوم مهندس الإشارة برسم خطط بالتصحيحات، ويرسل الناسخون نسخًا ورقية من الرسوم إلى العاملين فى الميدان، مُعلم عليها بالقلم الأصفر الإضافات، ومعلم عليها بالقلم الأحمر ما حُذف من قطاعات من الأسلاك. ثم يقوم المهندسون الميدانيون بعملهم، بعد ارتجال إصلاحات، ثم يعيدون النسخ إلى المقر الرئيسى ممزقة عليها علامات صفراء وبصمات أصابع متسخة، وهبات من تراب أركنساس الأحمر وشذرات من عشب أركنساس وسط طيات الورق، ويقوم الناسخون بتسجيل التصحيحات بالحبر الأسود على ورق الرسم الهندسى وعلى الورق المقوى الأصلى القديم.

فى ساعات العصر الطويلة، تقوم دينيس وهى منكبة على مكتبها بطى آلاف الأوراق التى قطعتها على المقاسات المطلوبة فى الصباح، ست نسخ من كل تصميم فى الملف الموصوف لها بمجلد المهندس الميدانى. هناك إشارات عند عمود الإشارة رقم ١٦,٢ وعند ١٧,٤ وعند ٢٠,١ و٢٠,٨ و٢٢,٠ وهلم جرًا، وحتى بلدة نيو شارترس عند نقطة رقم ٧٤,٣٥ نهاية الخط.

فى طريقها إلى الضواحى تلك الليلة سألت والدها إن كان الأخوة روث سيدمجان الشركة بشركة أركنساس ساوثرن.

قال ألفريد: "لا أعرف، ولا آمل أن يحدث هذا".

"هل ستنتقل الشركة إلى ليتل روك؟"

"يبدو أن هذا هو ما يريدونه، إن بدأوا السيطرة على الإدارة".

ماذا سيحدث للعاملين بإدارة الإشارات؟

"أعتقد أن بعض كبار العاملين فى الإدارة سينتقلون لأماكن أخرى. أما الأصغر، فالأرجح أنهم سيُسرحون. لكن لا أريدك أن تتحدثى فى هذا الموضوع".

قالت دينيس: "لن أفعل".

كانت إنيد كما فى ليلة كل خميس على مدار السنوات الخمس وثلاثين الأخيرة، تجهز عشاءً فاخرًا. كانت قد أعدت محشى فلفل أخضر ويبدو عليها الحماس الظاهر بسبب عطلة نهاية الأسبوع الوشيكة.

قالت لدينيس وهم يجلسون إلى المائدة: "سوف تعودين غداً إلى البيت بالأتوبيس. سوف أذهب مع بابا إلى ليك فوند دو لاك للعقارات مع آل شومبرت".

"ما هى ليك فوند دو لاك للعقارات"؟

قال ألفريد: "موضوع تافه. كان يجب ألا أورط نفسى فيه. لكن أمك صدعتنى".

قالت إنيد: "آل، لست مضطرًا لشىء على فكرة. لم أضغط عليك للذهاب لأى من هذه الجلسات. يمكننا أن نمضى العطلة كلها فى عمل أى شىء تريده أنت".

"ضروری ستكون هناك ضغوط. صاحب المشروع لن يعطينا عطلات مجانية دون أن يحاول بيع قطع أرض".

"قالوا فى الإعلان لا ضغوط ولا نتوقع منكم شيئًا ولستم مضطرين لشىء".

قال ألفريد: "أشك فى هذا الكلام".

"تقول مارى بيث إن هناك معمل نبيذ رائع بالقرب من بوردنتاون يمكننا أن نذهب إليه فى جولة. ويمكننا أن نسبح فى بحيرة ليك فوند دو لاك! ويقول الإعلان إن هناك قوارب للنزهة ومطعم بوفيه مفتوح".

قال ألفريد: "لا أعرف ما الجميل فى معمل نبيذ فى ميسورى وسط شهر يوليو".

قالت إنيد: "يجب أن تتحمس قليلا. آل دريبليت ذهبوا فى أكتوبر الماضى واستمتعوا كثيرًا. دال قال إنه لا ضغوط هنالك بالمرة. قال إن الضغط خفيف للغاية".

"وماله".

"ماذا تقصد؟"

"الرجل يعيش على بيع الأكفان".

"دال لا يختلف عن أى إنسان آخر".

"قلت إنى أشك فى هذا الكلام، لكن سأذهب". ثم أضاف موجهًا الكلام إلى دينيس: "يمكنك العودة إلى البيت فى الأتوبيس".

قالت إنيد لدينيس: "كينى كريكماير اتصل هذا الصباح. يسأل إن كان عندك وقت ليلة السبت".

أغمضت دينيس إحدى عينيها ووسعت الأخرى: "وماذا قلت له؟"

"قلت إننى أعتقد أن عندك وقتًا".

"ماذا قلت؟"

"آسفة. لم أدرك أن عندك خططًا ليوم السبت".

ضحكت دينيس: "خطتى الوحيدة الآن هى ألا أقابل كينى كريكماير".

قالت إنيد: "كان مهذبًا للغاية. ما العيب أن تخرجى مرة واحدة مع شخص كلف نفسه أن يطلب منك الخروج؟ إن لم يعجبك الموضوع، فلا تكرريها. لكن عليك أن تبدئى فى أن تقولى "نعم" لأحدهم. سوف يعتقد الناس أنك لا يعجبك أحد".

وضعت دينيس شوكتها على المائدة: "كينى كريكماير يقلب معدتى بالمعنى الحرفى للكلمة".

قال ألفريد: "دينيس!"

قالت إنيد: "ليس هذا صحيحًا".. كان صوتها يرتجف: "لا يصح أن تقولى هذا الكلام".

"طيب، آسفة على ما قلته. لكن ليس عندى وقت له يوم السبت. ليس لكينى كريكماير. الذى كان يجب أن يسألنى أنا إن كان يريد الخروج معى".

خطر لدينيس أن إنيد سوف تستمتع بعطلة مع كينى كريكماير فى بحيرة ليك فوند دو لاك، وأن كينى قد يقضى معها وقتًا طيبًا أكثر من ألفريد.

بعد العشاء أخذت الدراجة إلى أقدم بيت فى الضاحية، مبنى مكعب عالى السقف على الجانب الآخر من الشارع، أمام محطة السكة الحديد. البيت صاحبه مدرس دراما بالمدرسة الثانوية، هو هنرى دوسينبيرى، وكان قد ترك البيت بحديقته فى عهدة تلاميذه لمدة شهر ليذهب إلى أمه فى نيوأورليانز. من بين أنتيكات حجرة معيشة البيت اثنتى عشرة كأس شامبانيا قديمة، وكان قد سمح لدينيس فقط دون غيرها من بين الشبان المهتمين بالأدب أن تشرب منها فى ليالى السبت. ("فليشرب الأوغاد الصغار من الأكواب البلاستيكية" هكذا يقول وهو يرخى أطرافه الذابلة فى مقعده الوثير. حارب السرطان مرتين لكن جلده اللامع وعيناه الجاحظتان توحى بأنه ليس على ما يرام تمامًا من وجهة نظر طب الأورام. كان يقول: "لامبرت أيتها المخلوقة العجيبة، تعالى اجلسى هنا حيث أرى بروفايلك. هل تدركين أن اليابانيين قد يعبدون رقبتك؟ يعبدونك"). فى بيت دوسينبيرى تذوقت لأول مرة المحار النيئ، وتذوقت لأول مرة بيض السمان، ولأول مرة تذوقت الجرابا الإيطالية. أشاد دوسينبيرى كثيرًا بتصميمها على ألا تذعن لإغراءات أى من "المراهقين ذوى البثور" (على حد قوله). كان يشترى الفساتين والمعاطف من محلات الأنتيكات، وإن وجدها على مقاس دينيس يسمح لها بالاحتفاظ بها. لحسن الطالع فإن إنيد التى كانت تود أن ترتدى دينيس ثيابًا مثل ثياب بنات شومبرت أو رووت، كانت تحتقر الثياب الأنيقة الكلاسيكية لدرجة أنها صدقت أن فستان الحفلات الأصفر من الساتان المطرز بأزرار بلون عين النمر قد كلف دينيس (حسب زعم الأخيرة) عشرة دولارات. ورغم اعتراض إنيد المرير ارتدت الفستان وذهبت إلى حفل التخرج فى المدرسة الثانوية مع

بيتر هيكس، وهو مُمثل تملأ البثور وجهه، لعب أمامها دور توم، وكانت هى أماندا فى مسرحية "قفص الزجاج". ليلة الحفل تمت دعوة بيتر هيكس لأن ينضم إليها ومعها دوسينبيرى للشرب من كؤوس الشامبانيا القديمة، لكن بيتر كان سيقود تلك الليلة فالتزم بكوب الكوكاكولا البلاستيكى.

بعد أن قامت برى النباتات، جلست فى مقعد دوسينبيرى الوثير تنصت إلى موسيقى كلاسيكية. كانت تتمنى لو كانت مهتمة بالخروج مع الأولاد، لكن الأولاد الذين تحترمهم، مثل بيتر هيكس، لا يحركونها رومانسيًا، والبقية على قالب كينى كريكماير، المتجه رأسًا إلى البحرية ومن بعدها للعمل فى العلوم النووية، ويرى نفسه نجمًا ويرى أن الله قد قدر له أن يعمل بمجال بناء الغواصات. كانت دينيس قلقة بعض الشىء من درجة اشمئزازها منه. لا تفهم لماذا هى حقيرة مع الأولاد من نوعه هكذا. هى حزينة لأنها حقيرة هكذا. هناك شىء ما خطأ فى طريقة تفكيرها فى نفسها والآخرين.

لكن كلما أوضحت لها أمها هذا، لا تجد أمامها إلا أن تهاجمها بكل قوة.

فى اليوم التالى أخذت الغداء إلى الحديقة، وجلست تتشمس مرتدية "توبًا" بلا أكمام، ولم تكن أمها تدرك أنها ترتديه فى العمل تحت المعطف، عندما ظهر دون أرمور فجأة وجلس على المقعد إلى جوارها.

قالت: "لست تلعب الكوتشينة اليوم".

قال: "أنا سأُجن".

أعادت عينيها إلى كتابها. أحست به ينظر إلى جسدها فى حدة. كان الهواء ساخنًا لكن ليس ساخنًا لدرجة أن يكون سبب الحرارة المنبعثة من جانبه إزاء وجهها.

خلع نظارته وفرك عينيه. "تأتين إلى هنا لتجلسى كل يوم".

"نعم".

لم يكن وسيمًا. كان رأسه كبيرًا على جسده، وشعره خفيفًا للغاية ووجهه أحمر كقطعة اللانشون، إلا أن ذقنه أضافت إلى الأحمر لونًا أزرق. غير أنها رأت فيه حالة من الدهشة والإشراق، حزن حيوانى فى تعبيرات وجهه، كما أن انحناءات شفتيه تدعوها إليه.

قرأ كعب كتابها: "الكونت ليو تولستوى". هز رأسه وضحك فى صمت.

"ما الأمر؟"

"لا شىء. أحاول فحسب أن أتخيل نفسى مكانك".

"ماذا تقصد؟"

"أعنى جميلة، ذكية، مهذبة، ثرية. تذهبين إلى الجامعة. كيف الحال هكذا؟"

طرأت عليها رغبة سخيفة فى أن تجيبه بأن تلامسه، وأن تدعه يعرف كيف الحال. فلا توجد طريقة أخرى للإجابة.

هزت رأسها وقالت لا تعرف.

قال دون أرمور: "حبيبك محظوظ جدًا".

"ليس لى حبيب".

أجفل وكأنه يسمع أخبارًا سيئة. "هذا أمر محير ومدهش".

هزت دينيس رأسها مرة أخرى.

قال دون: "كنت أشتغل فى الصيف وأنا فى السابعة عشر. كنت أعمل لدى رجل وزوجته عندهما متجر أنتيكات كبير. كنا نستخدم تلك المادة، اسمها الخليط السحرى، مخفف طلاء، كحول للخشب، أسيتون، زيت تشحيم.. كانت تنظف الأثاث دون خدشه. كنت أتنفس تلك الرائحة طوال اليوم وأعود إلى البيت خفيف الرأس. ثم فى منتصف الليل أصاب بصداع عنيف".

"أين نشأت؟"

"كاربونديال فى إلينوى. خطر لى أن الرجل وزوجته يعطياننى أجرًا زهيدًا، فبدأت اقترض شاحنتهما فى الليل. كانت لى حبيبة تحتاج للتوصيل. صدمت الشاحنة، وهكذا اكتشفا أننى استخدمها، ثم قال زوج أمى فى ذلك الوقت إننى إذا دخلت المارينز فسوف يتعامل مع الرجل وزوجته ومع شركة التأمين، وإلا فسوف يتركنى للشرطة. وهكذا دخلت المارينز فى منتصف الستينيات. بدا لى وقتها أن هذا هو المطلوب منى. وكان توقيتًا بشعًا".

"ذهبت إلى فيتنام".

أومأ دون أرمور برأسه: "إن تم الدمج، فسوف أعود إلى حيث بدأت عندما سرحونى من الجيش. ومعى إضافة إلى هذا ثلاثة أولاد ومجموعة من المهارات الإضافية التى لا يريدها أحد".

"ما عمر أولادك؟"

"عشرة وثمانية وأربعة".

"هل تعمل زوجتك؟"

"إنها ممرضة فى مدرسة. هى عند أبويها فى إنديانا. عندهم خمسة فدادين وبركة ماء. مكان مناسب للبنات".

"هل ستأخذ إجازة؟"

"أسبوعان الشهر المقبل".

نفدت أسئلة دينيس. جلس دون أرمور ويداه مستقرتان على ركبتيه. جلس هكذا مدة طويلة. من الجانب كانت ترى الابتسامة الساخرة الشهيرة التى ترسم لها طريقًا دائمًا على امتداد جموده الشعورى.. وكأنه شخص مستعد دائمًا أن يعطيك مقابلاً نقديًا لمعاملته بشكل جاد أو لإظهارك الاهتمام له. أخيرًا نهضت دينيس وقالت إنها عائدة للشركة، فأومأ برأسه وكأن هذه هى الضربة التى كان ينتظرها منها.

لم يخطر لها أن دون أرمور يبتسم حرجًا من استجدائه الظاهر لتعاطفها معه، ومن جمود وقِدم كلماته التى يبدأ بها الحوار مع الفتيات. لم يخطر لها أن أداءه على المائدة بالأمس كان لكى تراه. لم يخطر لها أنه خمن أنها تتنصت من وراء باب الحمام وأنه سمح لها بأن تسمع ما قاله عنها. لم يخطر لها أن حالة دون أرمور الوجدانية الأساسية هى الشفقة على الذات وأنه ربما فى شفقته على ذاته سبق وحاول استمالة فتيات كثيرات قبلها. لم يخطر لها أنه بدأ التخطيط بالفعل - ويخطط منذ صافحها لأول مرة - لعملية الدخول إلى داخل جيبتها. لم يخطر لها أنه يبعد عينيه عنها ليس بسبب جمالها الذى يؤلمه لكن لأن ذلك هو المذكور فى القاعدة رقم (١) ضمن الكتاب الإرشادى الذى يُعلن عنه فى مجلات الرجال

كيف تجعلها تتجنن عليك ـ كل مرة!")، وأنه بموجب القاعدة رقم واحد فلابد أن يتجاهلها. لم يخطر لها أن الاختلافات الطبقية واختلاف الظروف بينهما التى قد تؤدى لضيقها، ربما كانت مما يستفزه: أنها ربما تحولت إلى رغبة من رغباته بدافع البحث عن ترف الطبقات الأخرى، أو لأن رجلاً يعيش على رثاء الذات وعمله فى خطر ربما يشعر بالرضا عندما ينام مع ابنة رئيس رئيس رئيسه. لم يخطر أى من هذا لدينيس وقتها أو بعدها. كانت ما زالت تشعر بالمسئولية نحوه بعد عشر سنوات مما حدث.

ما كانت تعرفه ذلك اليوم هو إدراكها للمشاكل. أن دون أرمور يريد أن يضع يده عليها لكن لا يستطيع فهذه مشكلة. أنها من واقع ظروفها الاجتماعية التى لا يد لها فيها لديها كل شىء بينما الرجل الذى يريدها أقل منها بكثير، هذه مشكلة كبيرة. بما أنها من لديها كل شىء، فالمشكلة إذن وبوضوح مشكلتها وعليها حلها. لكن أى كلمة طمأنة يمكنها أن تقدمها له، أى إيماءة بالتضامن قد تتصورها، تشعر بها وكأنها تتعطف بها عليه.

أحست بالمشكلة كثيفة فى جسدها. ما لديها من نعم وفرص كثيرة، مقارنة بدون أرمور، تجسدت فى معاناة جسدية، عدم رضا قد يؤدى قرص المناطق الحساسة للرغبة فى جسدها إلى تسكينها مؤقتًا لكن لن يعالجها.

بعد الغداء ذهبت إلى حجرة الأرشيف، حيث يتم تخزين جميع أصول إشارات السكة الحديد فى ست خزانات معدنية ثقيلة، شبيهة بمقالب القمامة الكبيرة. على مدار السنوات زاد حمل الملفات فى الخزائن، وأعطيت دينيس مهمة أحبتها، هى استعادة

نظام الملفات وترتيبها. كان الناسخون الذين يزورون الحجرة يعملون من حولها بينما هى تعيد تسمية الملفات والمجلدات وتُخرج الرسومات القديمة المنسية من مكامنها. أكبر خزانة كانت عميقة لدرجة أنها تضطر للنوم على بطنها فوقها، قدماها تلامسان الأرض المعدنية الباردة بالكاد، وتغوص بذراعيها لتصل إلى قاع الخزانة بين الملفات. كانت تُخرج الملفات المُنقذة وترميها على الأرض ثم تغوص لتأتى بالمزيد. عندما خرجت لاستنشاق الهواء أدركت أن دون أرمور جاثم إلى جوار الخزانة.

كان كتفاه مفتولا العضلات كأكتاف مراكبى، قويين غليظين. لم تعرف منذ متى هو هنا أو عم يبحث. ها هو الآن يفحص مجلدًا قديمًا ممتلئًا بالملفات، فيه تصميم برج إشارة وحيد عند العمود رقم ١٠١,٣٥ على خط سكة حديد ماكوك. رسمه إد ألبيردينج فى عام ١٩٥٦.

"كان إد صبيًا صغيرًا عندما رسم هذا التصميم. إنه جميل".

خرجت دينيس من الخزانة وسوت جيبتها ونفضت عن نفسها الغبار.

قال دون: "لم يكن صعبًا على إد. عنده مواهب لن أدركها يومًا".

بدا أنه يفكر فى دينيس أقل مما تفكر فيه. أخرج درجًا آخر ووقفت هى تنظر إلى شعره الرمادى بلون القلم الرصاص، المتناثر كشعر طفل. اقتربت منه خطوة ومالت عليه أكثر، حتى حجب صدرها صورته الكاملة عنها.

قال: "أنت تحجبين الضوء عنى".

"هل تخرج للعشاء معى؟"

تنهد بعمق. تهدل كتفاه: "المفترض أن أذهب إلى إنديانا هذه العطلة".

"طيب".

"لكن دعينى أفكر".

"جيد. فكر فى الموضوع".

وكأنها تتناول الموضوع بخفة، لكن أحست برعشة فى ركبتيها وهى ذاهبة إلى حمام السيدات. أغلقت الباب على نفسها وجلست على المرحاض قلقة بينما فى الخارج رن جرس المصعد وعربة المأكولات الخفيفة تتحرك فى الردهة رائحة غادية. ليس لقلقها شكل ولا فحوى. تركز عيناها على باب الحمام وعلى رقعة من المناديل الورق على الأرض، ثم أدركت أنها تنظر إلى هذه الرقعة منذ خمس دقائق دون أن تفكر فى شىء. لا شىء. لا شىء.

.كانت تنظف حجرة الأرشيف قبل نهاية يوم العمل بخمس دقائق عندما لاح لها وجه دون أرمور العريض من وراء كتفها، وكانت فى عينيه نظرة ناعسة، من وراء النظارة. قال: "دينيس، سأعزمك على العشاء".

هزت رأسها بسرعة وقالت: "طيب".

وفى حى رث الحال، فقير وأسود، إلى شمال وسط المدينة، كان هناك مطعم طعام أمريكى يقدسه هنرى دوسينبيرى وتلاميذه المقربين. لم تكن دينيس ترغب فى شىء أكثر من شاى مثلج وبطاطس مقلية، لكن دون أرمور طلب هامبرجر وميلك تشيك.

لاحظت أنه يتخذ وضع الضفدع. وجهه يغوص بين كتفيه وهو منكب على طعامه. راح يمضغ فى بطء. راح يلقى ابتسامات خاوية فى أرجاء المكان، وكأنه يتوخى السخرية. راح يرفع كوبه إلى أنفه بأصابع لاحظت أن أظافرها قُضمت حتى توردت.

قال: "ما كنت لآتى لهذا الحى أبدًا".

"هذه المنطقة منه آمنة جدًا".

قال: "آمنة بالنسبة لك. الأماكن تشعر بإحساسك بالقلق. إن كنت لا تفهمين المكان يتركك لحالك. مشكلتى أننى أفهم المكان. إن كنت جئت إلى شارع كهذا وأنا فى سنك، كان ليحدث لى شىء فظيع".

"لا أرى لماذا".

"هكذا حال الدنيا. كنت لأرفع عينى حولى ثم فجأة سأرى ثلاثة غرباء يكرهوننى بلا سبب، وأنا أكرههم بلا سبب. هذا عالم لا ترينه إن كنت إنسانة سعيدة لها دور واضح فى الحياة. إنسانة مثلك تمر بمكان كهذا بلا مشاكل. إنه فى انتظار شخص مثلى، حتى أتعرض لضرب مبرح وأبقى بين الحياة والموت بعدها. مكان كهذا سيختارنى من على مسافة ميل".

كانت مع دون أرمور سيارة أمريكية كبيرة شبيهة بسيارة أم دينيس، لكنها أقدم. تحرك بها فى صبر حتى وصل إلى شارع رئيسى ثم مضى غربيًا فى بطء، وراح يسلى نفسه بأن يغنى بصوت خفيض ("أنا بطىء، سيارتى رديئة") بينما السائقون الآخرون يمرون إلى يساره ويمينه بسرعة.

وجّهته دينيس إلى بيت هنرى دوسينبيرى. كانت الشمس ما زالت مشرقة، تميل إلى الغرب، فوق محطة السكة الحديد، عندما ارتقيا درجات تراس بيت دوسينبيرى. نظر دون أرمور إلى الأشجار وكأن حتى الأشجار فى هذا الحى أفضل حالاً وأغلى ثمنًا. وضعت دينيس يدها على باب السلك الخارجى قبل أن تدرك أن الباب وراء السلك مفتوح.

تقدم هنرى دوسينبيرى إلى الضوء مقتربًا منهما: "لامبرت؟ أهذه أنت؟" . كان جلده أقرب لملمس الشمع أكثر من أى وقت، وعيناه أكثر جحوظًا، وأسنانه أكبر. قال: "طبيب أمى أمرنى بالعودة للبيت. يريد أن يخلص نفسه من ذنبى. أعتقد أنه رأى كفايته من الموت" .

تراجع دون أرمور باتجاه سيارته ورأسه إلى الأرض.

قال دوسينبيرى: "من هذا الرجل الأخضر؟"

قالت دينيس: "صديقى من العمل" .

"لا يمكنك أن تدخلى به، آسف. لن يدخل بيتى رجالٌ خُضر. فلتجدى مكانًا آخر" .

"هل عندك طعام؟ هل أنت بخير؟"

"نعم، هيا اذهبى. أشعر بالتحسن بعد أن عُدت إلى بيتى. ذلك الطبيب وأنا كنا نشعر بالحرج بسبب حالتى الصحية. من الواضح يا طفلتى أن كرات الدم البيضاء عندى شبه منعدمة. كان الرجل يرتعد من الخوف. إنه مقتنع بأننى سأموت فى عيادته. لامبرت، أشعر بأسف بالغ عليه!" انفرجت حفرة سوداء من البهجة فى وجه الرجل المريض. "حاولت أن أوضح له أن كرات الدم البيضاء عندى

موضوع هامشى للغاية. لكن يبدو أنه مصمم على اعتبارى من عجائب الطب. تغديت مع أمى وأخذت التاكسى إلى المطار".

"هل أنت واثق أنك بخير؟"

"نعم، اذهبى لا تقلقى. كونى حمقاء لكن ليس فى بيتى. اذهبى".

لم يكن من الحكمة أن تُرى مع دون أرمور فى بيتها قبل حلول الظلام، إذ إن آل رووت وآل دريبليت الفضوليين يتحركون كثيرًا فى أرجاء الشارع، من ثم وجهته إلى المدرسة الابتدائية ودخلت به إلى حقل العشب وراء المدرسة. جلسا وسط أصوات الحشرات الصاخبة، فى حرارة يوم لطيف من أيام يوليو. وضع دون أرمور ذراعيه حول بطنها، وأراح ذقنه على كتفها. راحا ينصتان إلى أصوات ألعاب نارية بعيدة.

فى بيتها بعد حلول الظلام، مع هواء البيت المكيف البارد، حاولت أن تحركه سريعًا نحو السلم إلى الطابق العلوى، لكنه تلكأ فى المطبخ، ثم فى حجرة الطعام. أحست بالذنب بسبب الانطباع الظالم الذى يوحى به البيت بكل وضوح. رغم أن أبويها ليسا ثريين، فإن أمها تتوق إلى نوع معين من أنواع الأناقة والترف، وبذلت كل الجهود الممكنة حتى يبدو البيت فى نظر دون أرمور كبيت من بيوت الأثرياء. بدا مترددًا فى السير على السجادة. توقف ونظر جيدًا إلى الكؤوس وأطباق الحلوى الصغيرة التى تعرضها إنيد فى حجرة الطعام. عيناه تحطان على كل شىء، على صناديق الموسيقى الصغيرة، على لوحات الشوارع الباريسية، والأثاث الجميل متوافق الألوان، وكأن نظراته تنزل على جسد دينيس.. هل حدث ما حدث اليوم؟ اليوم على الغداء؟

وضعت يدها الكبيرة فى يده الكبيرة، وضفّرت أصابعها بأصابعه، وجذبته نحو السلم.

فى حجرتها وهو على ركبتيه وضع أصابعه على عظام مؤخرتها وضغط فمه بفخذيها، ثم تسلل بفمه إلى ذلك الشىء. أحست بالعودة إلى عالم الطفولة، عالم قصص جريم وسى إس لويس، حيث اللمسة ساحرة تؤدى من حال إلى حال. يداه حولتا ظهرها إلى ظهر امرأة، فمه حول فخذيها إلى فخذى امرأة، وذلك الشىء إلى فرج امرأة. هذه مزايا أن يرغب فيك شخص أكبر ـ أن تشعرين أقل وأقل بأنك عروس لعبة منعدمة النوع، لا هى ذكر ولا أنثى، أن تحصلى على جولة سياحية فى خريطة الجسد، أن يشرح لك فوائد تلك الخريطة شخصٌ الجسد بالنسبة إليه ليس أكثر من تذكرة للجولة.

الأولاد فى سنها يريدون "شيئًا ما"، لكن لا يبدو أنهم يعرفون ما هو تمام المعرفة. الأولاد فى سنها يريدون القُرب والحميمية. كانت مهمتها ـ الدور الذى لعبته فى أكثر من خروجة مزعجة ـ هو أن تساعدهم فى معرفة المزيد عما يريدونه، أن تفك لهم أزرار قميصها وتعرض عليهم اقتراحات، أن توضح لهم أفكارهم الغائمة.

دون أرمور يريدها بشكل مدقق وتفصيلى، بوصة وراء بوصة. وكأنها فكرة مدهشة فى رأيه. مجرد أن لديها جسد فهذه مسألة لم تساعدها من قبل أبدًا، لكن أن تراه كشىء قد ترغب فيه هى نفسها -أن تتخيل نفسها وكأنها دون أرمور منكبًا على ركبتيها، أن ترغب فى مختلف أجزاء نفسها ـ فهذا جعلها تشعر بأن لديها شىء يسهل أن تغفر لنفسها أنه لديها. لديها ما يتوقع الرجل أن يجده. لا قلق من عثوره على كل جزء منها وتقديره تمام التقدير.

عندما فكت الـ "برا" أحنى دون رأسه وأغمض عينيه.

"ما الأمر؟"

"قد يموت المرء من مقدار جمالك".

أعجبها هذا الكلام.

إحساسها عندما أخذته بين يديها كان عينة على إحساسها بعد سنوات، وهى طاهية شابة، عندما أعدت أول أطباقها المعقدة بمهارة.

فى عيد ميلادها الثامن عشر أعطاها أصحابها من المسرح كتابًا مقدسًا مفرغًا من أوراقه داخله ثلاث واقيات ذكرية بلون الحلوى، وقد وجدتها مفيدة الآن.

رأس دون أرمور الضخم فوقها كرأس الأسد. عندما انتهى زأر. تداعت آهاته متلاحقة واحدة تلتهم الأخرى، أو، أو، أو، لم تسمع شيئًا كهذا من قبل.

كانت كمية الدم متناسبة مع درجة ألمها، وكان ألمها كبيرًا، ومتناسبة عكسيًا مع إحساسها بالمتعة، وكان فى رأسها بالأساس.

فى الظلام بعد أن أمسكت بمنشفة متسخة من طبق الغسيل بدولاب الصالة، هنأت نفسها إذ فضت بكارتها قبل أن تترك البيت فى طريقها للجامعة.

كان الرجل الضخم الملطخ بقدر من الدماء فى سريرها فكرة أقل جاذبية. هو فراش صغير، الفراش الذى نامت فيه طوال عمرها، وهى متعبة للغاية. لعل هذا يوضح لماذا وقفت فى وسط حجرتها والمنشفة حول جسدها، ثم بدأت فجأة تبكى بحرارة.

أحبت دون أرمور لأنه نهض ولفها بذراعيه ولم يمانع فى أنها طفلة. وضعها فى السرير وجلب لها بيجاما وساعدها على ارتدائها. وهو جالس إلى جوار السرير، أمسك بالملاءة ولفها حول كتفها ثم ربت على رأسها بالطريقة التى تخيلت أنه يربت بها على رؤوس بناته. فعل هذا حتى كاد يلفها النوم. ثم توسع مجال المسح على رأسها إلى مناطق تشك فى أنها من المسموح بها مع بناته. حاولت أن تبقى نصف نائمة، لكنه بدأ يلامسها بإصرار أكبر. كل حركة من يديه على جسدها إما تثير فيها الرغبة فى الضحك أو تثير فيها الألم، وعندما واتتها الجرأة الكافية لتشتكى، خبرت لأول مرة تجربة أن يضغط رجل بيديه على رأسها مقيدًا إياها.

لحسن الطالع عندما انتهى لم يحاول أن يقضى معها الليلة. ترك حجرتها ورقدت هى جامدة تمامًا، محاولة أن تسمع أصواته، لتعرف ماذا يفعل وإن كان سيعود. أخيرًا ـ ربما نامت قليلاً فى تلك الأثناء ـ سمعت صوت الباب الأمامى وهو يُفتح وصوت سيارته الكبيرة تدور.

نامت حتى الظُهر ثم استحمت فى الحمام الكبير بالدور السفلى، محاولة فهم ما فعلته، ثم سمعت الباب من جديد. سمعت أصواتًا.

جففت شعرها فى جنون، وخرجت مسرعة من الحمام. كان والدها راقدًا فى الصالة. وأمها تغسل أوانى النزهة الخلوية فى حوض المطبخ.

صاحت إنيد: "دينيس، أنت لم تأكلى أيًا من العشاء الذى تركته لك! يبدو كأنك لم تلمسى أى شىء منه".

"حسبتكما ستعودان غدًا".

قالت إنيد: "لم تكن ليك فوند دو لاك ما توقعناه. لا أعرف فيم كان يفكر دال وهونى. تبين أنه كلام فارغ".

عند السلم حقيبتان كبيرتان. مرت دينيس إلى جوار الحقائب إلى حجرتها، حيث الواقى الذكرى والملاءات الدامية متاحة لأن يراها كل من يمر بالباب المفتوح. أوصدت الباب وراءها.

تحطم باقى صيفها. أصبحت وحيدة تمامًا فى العمل وفى البيت. خبأت الملاءة الدامية والمنشفة الدامية فى دولابها ويأست من التعامل معهما. كانت إنيد بطبيعة الحال تتابع كل شىء وموهوبة فى أمور مثل معرفة متى جاءت لابنتها الدورة الشهرية. كانت دينيس تخطط لأن تذهب لأمها معتذرة ومعها المنشفة والملاءة الداميتان فى وقت الدورة المعهود، بعد أسبوعين. لكن إنيد لديها قوى ذهنية تؤهلها لأن تدرك بوجود ملاءات ناقصة أثناء الغسيل.

"هناك فوطة ناقصة، من أم لون واحد".

"حقًا. نسيتها عند حمام السباحة".

"دينيس، لماذا أخذت فوطة جيدة من أم لون واحد؟ بينما عندك فوط أخرى كثيرة؟ ثم تضيع منّا هذه الفوطة من بين الأخريات جميعًا! هل اتصلت بحمام السباحة؟"

"عدت إلى هناك وبحثت عنها".

"هذه فوط غالية جدًا".

لم تخطئ دينيس أبدًا أخطاء كذلك الذى تزعم أنها ارتكبته. كان الإحساس بالظلم ليمر خفيفًا لو كانت استمتعت أكثر - إن كانت قد

ذهبت إلى دون أرمور وضحكت عما حدث والتمست مواساته. لكنها لم تكن تحبه وهو لم يكن يحبها.

أصبحت صداقة أى من النساخين الآخرين فى العمل الآن مريبة ومقلقة بالنسبة لها، فكل صداقة مع أى منهم قد تؤدى إلى المضاجعة. دون أرمور خجول للغاية، أو يحاول الحفاظ على سرية الموضوع، لدرجة أن عينيه لا تلتقيان بعينيها. أمضى أيامه فى حالة من التعاسة مشتكيًا من الأخوة روث، مع معاداة كل من حوله. لا شىء تبقى لدينيس فى العمل سوى العمل، وقد أصبح باعثًا على الملل، عبء عليها، أصبحت تكرهه. بنهاية اليوم تشعر بألم بالغ فى وجهها ورقبتها بسبب مقاومتها للدموع وبسبب العمل بسرعات لا يحافظ عليها إلا شخص يعمل بسعادة لا يشعر معها بالضيق أو التعب.

قالت لنفسها إن هذا هو ما يحدث عندما يتصرف المرء بناء على نزوة. يدهشها أنها لم تفكر فى قرارها أكثر من ساعتين. كانت قد أعجبت بعينى دون أرمور وفمه، وقررت أنها مدينة له بالشىء الذى يريده، هذا هو كل ما تذكر أنها فكرت فيه. احتمال قذر ومغرى خطر لها (يمكن أن أفقد عذريتى الليلة) فقفزت لتغتنم فرصتها.

عندها من الكبرياء ما يمنعها من أن تعترف لنفسها ـ ناهيك عن دون أرمور ـ بأنه ليس من تريده. كانت قليلة الخبرة بحيث كان من الكافى أن تقول ببساطة: "آسفة، هذا خطأ كبير". أحست بالمسئولية والذنب لدرجة أن تعطيه أكثر مما كان يريد. توقعت أن العلاقة ـ إن اجتهدت حتى تبدأها –تستغرق فترة من الزمن.

عانت من ترددها. فى الأسبوع الأول تحديدًا، وهى تحاول حمل نفسها على أن تقترح على دون أرمور أن يلتقيا ثانية ليلة الجمعة التالية، كان حلقها يؤلمها لساعات أحيانًا بلا توقف. قابلته فى الجمعات الثلاث التالية، وكانت تقول لأبويها أنها تقابل كينى كريكماير. اصطحبها دون أرمور إلى العشاء فى مطعم بمول للعائلات ثم أخذها إلى بيته المتسخ الصغير فى بلدة من البلدات الخمسين الصغيرة التى تبتلعها سان جود ممددة الأطراف. بيته أحرجه لدرجة احتقار النفس. ليس فى أى بيت من بيوت حى دينيس أسقف منخفضة هكذا أو تشطيبات رخيصة كتلك، أو أبواب خفيفة هكذا أو نوافذ وجرارات للنوافذ مصنوعة من البلاستيك. لكى تهدئ من روع حبيبها ولكى تضع حدًا لهذا الموضوع (حياتك وحياتى) الذى لا تحبه، ولكى تملأ الساعات التى كانوا ليقضيانها فى توتر، أخذته إلى السرير القابل للطى فى قبو بيته المزدحم بالأشياء وحملت نفسها على تعلم عالم جديد تمامًا من المهارات.

لم يعرفها دون أرمور مطلقًا ماذا قال لزوجته بعد أن ألغى رحلاته إليها فى إنديانا. لم تحتمل دينيس أن تسأله سؤالاً واحدًا عن زوجته.

تحملت انتقادات أمها على خطأ آخر ما كانت لترتكبه مطلقًا: عدم غمر ملاءة دامية بسرعة بعد سقوط الدم فى الماء البارد.

فى الجمعة الأولى من أغسطس، بعد لحظات من بداية عطلة دون أرمور لمدة أسبوعين، عاد مع دينيس إلى الشركة وأغلقا الباب عليهما فى حجرة الأرشيف. قبلته ووضع يديه على ثدييها فحاولت أن تأخذ أصابعه إلى أنحاء جسدها، لكن يديه كانتا تريدان البقاء على كتفيها، لكى يدفعها للنزول على ركبتيها.

دخل منيه إلى أنفها.

سألها والدها بعد دقائق معدودة وهما فى السيارة: "هل أصبت بالبرد؟"

فى البيت، أبلغتها إنيد أن هنرى دوسينبيرى ("صديقك") مات فى مستشفى سان لوك ليلة الأربعاء.

كانت دينيس ستشعر بذنب أكبر إن لم تكن قد زارت دوسينبيرى فى بيته يوم الأحد. وجدته فى حالة من الامتعاض الشديد بسبب طفل جيرانه. قال: "أنا راض بغياب كرات الدم البيضاء، لكن لم لا يغلقوا نافذتهم اللعينة؟ يا ربى، هذا الرضيع صوته رهيب! أعتقد أنهم فخورون برئتيه. دليل همجى وتافه على الرجولة". رأت جمجمة دوسينبيرى وعظامه تقترب من جلده. ناقش معها تكلفة إرسال طرد بريدى وزنه ثلاثة أرطال. وروى لدينيس حكاية مهينة وغير صحيحة عن سيدة خطبها لمدة قصيرة ("دُهشت لأنها بيضاء بنسبة ٧٨ فى المائة فقط، تخيلى دهشتها عندما تعرف أننى 15فى المائة غير شاذ"). تحدث عن خبراته الحياتية مع المصابيح الخمسين وات ("الستين براق للغاية والأربعين إضاءة ضعيفة"). لسنوات عايش الموت وردعه إذ عامله باستهانة. ما زال قادرًا على رسم ابتسامات شريرة، لكن فى النهاية تبين أن خطة تسطيح الموت خطة يائسة كأية خطة أخرى. عندما قالت دينيس وداعًا وقبلته رأته يبتسم بعيون خجلة وكأنه طفل يستحق جماله الإعجاب وتستحق مأساته الشفقة.

لم تر دون أرمور بعد ذلك أيضًا.

يوم الاثنين ٦ أغسطس بعد صيف من الأخذ والرد، توصل هيلارد وشاونسى روث إلى اتفاق مع نقابات السكة الحديد

الرئيسية. تقدمت النقابات بتنازلات كبيرة مقابل وعد بإدارة أقل قسوة وأكثر ميلا للإبداع والابتكار، فابتلعوا عرض الأخوة روث بطرح أسهم شركة ميدلاند باسيفيك بسعر ٢٦ دولارًا للسهم مع احتمال وصول المدخرات قريبًا إلى ٢٠٠ مليون دولار. امتنع مديرو ميدلاند باسيفيك الكبار عن التصويت رسميًا لمدة أسبوعين إضافيين، لكن النتيجة كانت واحدة. مع الفوضى التى تلوح فى الأفق، جاءت رسالة من مكتب رئيس الشركة بقبول استقالة جميع العمال الصيفيين، ويبدأ القرار من يوم الجمعة ١٧ أغسطس.

بما أنه لم تكن هناك سيدات (غير دينيس) فى حجرة الناسخين، فإن زملاءها ذهبوا لمطالبة سكرتيرة مهندس الإشارة لتخبز لهم كعكة وداع. ظهرت الكعكة فى عصر آخر يوم عمل لها. قال لامار وهو يمضغ الكعكة: "أعتقد أن هذا نصر كبير. أن نتمكن أخيرًا من أخذ استراحة قهوة".

مسح لاريدو بوب عينيه بمنديل كبير بحجم ملاءة الوسادة.

نقل لها ألفريد كلامًا لطيفًا قيل عنها وهما فى السيارة تلك الليلة.

قال: "قال لى سام بيورلين إنك أفضل موظفة رآها فى حياته".

لم تقل دينيس أى شىء.

"تركت انطباعًا عميقًا فى هؤلاء الرجال. فتحت أعينهم على العمل الذى يمكن لفتاة أن تؤديه. لم أخبرك بذلك من قبل، لكن أشعر أن الرجال كانوا مرتابين فى تشغيل فتاة معهم هذا الصيف. أعتقد أنهم توقعوا الكثير من الثرثرة دون عمل حقيقى".

كانت مسرورة بإعجاب والدها. لكن عطفه مثل عطف الناسخين الذين ليسوا دون أرمور، زادت صعوبة وصوله إليها. بدا وكأنه يصطدم بجسدها، وجسدها رافض.

ماذا فعلت يا دينيس، ماذا فعلت؟

قال والدها: "على العموم، ها قد تذوقت طعم العالم الحقيقى".

* * *

إلى أن وصلت دينيس إلى فيلادلفيا، كانت تتطلع إلى ارتياد جامعة قريبة من جارى وكارولين. كان منزلهما الكبير فى شارع سيمينول بيتًا بلا أحزان، وكانت كارولين، التى تنبهر دينيس من جمالها وتفخر لمجرد الحديث إليها، مصدرًا دائمًا لطمأنة دينيس أن لا بأس بأن تُجن من أمها. لكن بنهاية الفصل الدراسى الأول، اكتشفت أنها تترك ثلاث رسائل من جارى على تليفونها بلا رد مقابل رسالة واحدة ترد عليها. (ذات مرة، مرة واحدة، كانت هناك رسالة من دون أرمور لم ترد عليها بدورها). اكتشفت أنها ترفض عروض جارى بأن يأتى ليأخذها من مسكنها الجامعى وأن يعيدها بعد العشاء فى بيته. زعمت أنها بحاجة للمذاكرة، ثم وبدل المذاكرة تشاهد التليفزيون مع جوليا فريس. إحساس ساخن بالذنب: تشعر بالذنب لأنها تكذب على جارى، وبذنب أكبر لأنها تؤجل مذاكرتها، والأسوأ لأنها تشتت جوليا. دينيس قادرة دائمًا على السهر طوال الليل، لكن جوليا يداهمها النعاس بعد العاشرة. لم تتمكن جوليا من تفسير لماذا كانت مواد ترم الخريف التى تأخذها مكونة من مقدمة فى الإيطالية ومقدمة فى الروسية والأديان الشرقية ونظرية الموسيقى. وقد لامت دينيس لأنها نالت مساعدة من آخرين فى

اختيار غذائها الأكاديمى المتوازن: إنجليزى وتاريخ وفلسفة وبيولوجى.

دينيس من جانبها تغير من "رجال" الجامعة فى حياة جوليا. فى البداية تعرضت هى وجوليا للحصار. عدد كبير من "الرجال" فى السنين الأولى والأخيرة فى الجامعة كانوا يقتربون منهما بصينيات الطعام فى حجرة الطعام، ينحدرون جميعًا من نيوجيرسى. وجوههم وجوه الرجال فى أواسط العمر، أصواتهم جهورية، يقارنون بها مواد الرياضيات ويتحدثون عن ذكريات الذهاب إلى شاطئ ريهوبوث وكيف ثملوا حتى فقدوا الإحساس. لديهم ثلاثة أسئلة لا أكثر لجوليا ودينيس: (١) ما اسمك؟ (٢) (فى أى سكن جامعى أنت؟ (٣) ما رأيك فى حضور حفلنا يوم الجمعة؟ أحست دينيس بالذهول من قلة الذوق المنطوى عليها هذا الامتحان القصير، وبذهول أكبر من انبهار جوليا بهؤلاء الأجلاف ذوى الساعات الكبيرة والحواجب الكثة. كانت ترتسم على وجه جوليا نظرة السنجاب المقتنع أنه أمام شخص فى جيبه كسرات خبز سيلقيها إليه. وهى تخرج من الحفلات تهز رأسها وتقول لدينيس: "معه مخدرات، سأذهب معه". بدأت دينيس فى قضاء ليالى الجمعة فى المذاكرة وحدها. اكتسبت سمعة "الباردة" وربما "السحاقية". لم تكن تتمتع بقدرة جوليا على الذوبان عند النافذة أمام فريق كرة القدم الجامعى وهم ينشدون فى جوقة جماعية اسمها فى الثالثة صباحًا من تحت النافذة. تقول جوليا فى غنج: "أنا محرجة جدًا"، صوتها مفعم بألم السعادة، وهى تطل برأسها من وراء خصاص النافذة. "الرجال" تحت النافذة لا فكرة عندهم بالمرة عن كم جعلوها سعيدة، ومن ثم - فى رأى دينيس القاطع وهى بعد فى سنتها الجامعية الأولى - فهم لا يستحقونها.

قضت دينيس الصيف التالى فى هامبتون على البحر، مع أربع من زميلاتها الجامعيات المُنحلات، وكذبت على والديها فى كل ما يخص وضعها الصيفى. نامت على أرض حجرة المعيشة وربحت بعض النقود من غسيل الأطباق فى بار، وكانت تعمل إلى جوارها فتاة جميلة من سكارسدال اسمها سوزى ستيرلنج، وأحبت حياة الطهاة. أحبت ساعات العمل الطويلة، كثافة العمل البالغة، جمال المنتج النهائى. أحبت الصمت العميق وراء الجلبة والصخب. طاقم عمل المطبخ الجيد مثل أسرة منتخبة فردًا فردًا، كل فرد فى عالم المطبخ الحار الساخن يقف على قدم المساواة بالآخرين، ولكل طاه/طاهية أوجه الغرابة والجنون المخفية فى ماضيها أو فى شخصيته، ووسط كل هذا الصخب والعرق الجماعى لكل فرد فى هذه الأسرة خصوصيته واستقلاليته. وقد أحبت هذا الإحساس.

كان والد سوزى ستيرلنج، واسمه إد، قد وصّل سوزى ودينيس عدة مرات إلى منهاتن قبل تلك الليلة فى أغسطس عندما كانت دينيس تقود دراجتها إلى البيت وكادت تصطدم به وهو واقف، إلى جوار سيارته البى إم دبليو، يدخن سيجارة دانهيل، ويأمل أن تمر به وهو واقف. إد ستيرلنج محامى مشاهير وفنانين. أعلن أنه غير قادر على الحياة بدون دينيس. خبأت دراجتها (التى استلفتها) وسط بعض الأجمة إلى جوار الطريق. سُرقت تلك الدراجة كما تبينت عندما عادت إليها فى اليوم التالى، وكان عليها بعد أن أجبرتها صاحبة الدراجة على أن تقسم على ربطها بالسلسلة إلى العمود المعهود، أن تدرك خطورة المكان. لكنها كانت متحمسة بما فعلته فى ستيرلنج، متحمسة من سخونة رغبته، وعندما عادت إلى الجامعة فى سبتمبر قررت أن كلية الفنون والآداب لا علاقة لها

بالمطبخ ولا تُقارن به. لم تر ما فائدة العمل على تحضير الدراسات والأبحاث التى لن يراها غير الدكاترة، كانت تريد لها جمهوراً. كما كانت تحتقر ما تشعر به من الجامعة من أحاسيس بالذنب لأنها متميزة مقارنة بغيرها من الناس. أحست بما يكفيها من الذنب، شكراً، هذا يكفى. كل أحد تقريبًا تأخذ قطار نيوجيرسى البروليتارى إلى نيويورك. تكيفت مع طريقة تواصلها مع إد ستيرلنج، تلك البارانويا، التى حملته على أن يتصل بها دون أن تتصل هى به، وتحملت تأجيلاته فى آخر لحظة فى بعض الأحيان وانعدام تركيزه المزمن وأدائه المتوتر وإحساسها بالخزى لأنها تذهب معه إلى مطاعم رخيصة فى وودسايد وإلمهورست وجاكسون هايتس حتى لا يراها أحد من معارف ستيرلنج (لأنه، كما أخبرها كثيراً وهو يمرر يديه بشعره الثقيل الكثيف كفراء المينك، يعرف كل أهل منهاتن). بينما حبيبها يقترب من الهلع المطبق وعدم القدرة على مقابلتها مرة بعد مرة، راحت دينيس تأكل فى المطاعم من أوروغواى، ومن كولومبيا والصين، ومن تايلاند ومن روسيا. الجمال أو التميز فى الطعام، يمكن أن يعوضا أى إحساس بالمهانة. لكنها لم تكف عن الإحساس بالذنب على الدراجة، وعلى كذبها عندما أصرت أنها ربطتها إلى العمود المعهود.

ثالث مرة تورطت مع رجل يبلغ عمره ضعف عمرها، تزوجته. كانت قد عقدت العزم على ألا تبقى فتاة متحررة سهلة المنال. تركت الدراسة وراحت تعمل لتدخر النقود لمدة عام، وأمضت ستة أشهر فى فرنسا وإيطاليا، ثم عادت إلى فيلادلفيا لتطهو فى مطعم يقدم السمك والباستا فى شارع متفرع من شارع كاثرين. ما إن تمكنت من بعض المهارات، حتى عرضت خدماتها على كافيه لوش، وكان

فى ذلك الحين من أشهر الأماكن فى المدينة. استخدمها إميل برجر فورًا، بعد أن أعجب بطريقتها فى استخدام السكين وبعد أن أعجب بشكلها. وخلال أسبوع راح يشتكى لها من انعدام موهبة كل من فى مطبخه، باستثنائه هو وهى.

متعجرف، ساخر، مخلص، أصبح إميل ملاذها. أحست بأنها إنسانة بالغة لأقصى حد وهى معه. قال إنه نال كفايته من الزواج فى زيجته الأولى، لكنه أخذ دينيس إلى أتلانتيك سيتى (وكانت مخمورة عندما عرضت عليه الزواج)، وجعل منها امرأة شريفة. عملا فى كافيه لوش كشريكين، الخبرة تتدفق من رأسه إلى رأسها. راحا يسخران من منافسهما القديم المدّع بلا موهبة حقيقية: لو بيك فين. قاما بشراء منزل من ثلاثة أدوار فى شارع فيديرال، فى حى مختلط، يسكنه سود وبيض وفيتناميون، بالقرب من السوق الإيطالية. كانا يناقشان النكهة والمذاق كما يناقش الماركسيون الثورة.

عندما علمها إميل أخيرًا كل شىء سيعلمه لها يومًا، حاولت أن تعلمه هى بعض الأشياء، مثل: دعنا نحدث المنيو قليلاً، ما رأيك لو أضفنا خضراوات وبعض الكمون، ما رأيك لو، ثم يصدمها ذلك الجدار من السخرية والآراء المعجونة بالسخرية التى تحب أن تسمعها طالما هى على الجانب السعيد منها. أحست بأنها أكثر مهارة وطموحًا وجوعًا من زوجها أشيب الشعر. أحست كأنها بينما تنام وتعمل وتنام وتعمل، كبرت سريعًا لدرجة أنها مرت على مرحلة إميل العمرية وبلغت مرحلة والديها. عالمها الملفوف المغلق من العمل على مدار الساعة فى البيت والمطبخ معه تبدو لها مماثلة لعالم والديها المكون من شخصين. تشعر بآلام العجائز فى أردافها

وركبتيها وقدميها. يداها يدا العجائز المخطوطة بالندبات، تشعر بفرجها فرجًا جافًا عجوزًا، ولديها تحيزات العجائز وآراء العجائز السياسية، وكراهية العجائز للشباب وإلكترونياتهم الاستهلاكية وأسلوبهم فى الكلام. قالت لنفسها: "أنا صغيرة على أن أكون عجوزة هكذا". إثر هذا الكلام خرج إحساسها بالذنب من كهفه محمولا على أجنحة الانتقام من الذات، لأن إميل كان مخلصًا لها كل الإخلاص، مخلصًا كإخلاصه لذاته التى لا تتغير، وكانت هى التى أصرت على الزواج منه.

بموجب اتفاق ودى بينهما تركت مطبخه ووقعت عقدًا مع مطعم منافس، هو أردينيس، وكان يحتاج إلى طاه للصوص، وهو فى رأيها مطعم أفضل من كافيه لوش فى كل الأشياء، عدا فن التميز والتفوق ببساطة دون المحاولة الظاهرة للتفوق. (كانت براعة إميل السهلة الممتنعة هى موهبته الأعظم).

أحست فى أردينيس برغبة فى خنق الشابة التى تتولى منصب مديرة المطبخ. تلك السيدة، بيكى هيمرلينج، كانت خريجة مؤسسة لتخريج الطهاة ذات شعر أشقر متموج وجسد مسطح ضئيل وجلد ناعم يتوهج من حرارة المطبخ. كل شىء فى بيكى هيمرلينج يثير اشمئزاز دينيس -تعليمها المؤسسى (كانت دينيس تعلم نفسها بنفسها بكل إخلاص)، وتعودها الزائد على كل الطهاة الأكبر (خصوصًا دينيس)، وإعجابها المُعلن بجودى فوستر، والكلمات الغبية الطفولية المكتوبة على تى شيرتاتها، وكثرة استخدامها لكلمة "فشخ" على سبيل تسخين الكلام، و"تضامنها" السحاقى الطابع مع "اللاتينيين" و"الآسيويين" فى المطبخ، وتعميمها بشأن "اليمينيين"

و"كانساس" و"بيوريا" وألفتها لعبارات مثل "الرجال والنساء الملونون"، تلك الحالة من الإعجاب بالذات التى مبعثها الاستدفاء تحت استحسان وإعجاب المعلمين الذين يتمنون لو كانوا مهمشين وضحايا ولا يشعرون بالذنب مثلها. تساءلت دينيس: "ماذا تفعل هذه فى مطبخى؟". لم يكن من المفترض فى الطهاة الاهتمام بالسياسة. الطهاة هم مُحرك البشرية، الجينيريتور، كأنهم الميتوكوندريا داخل الخلية، لهم الحمض النووى الخاص بهم، يسبحون فى الخلية ويشغلونها لكنهم ليسوا من نسيجها حقًا. تشتبه دينيس أن بيكى هيمرلينج اختارت حياة الطهاة لكى تعلن للعالم وجهة نظر سياسية معينة: أن تكون تلك الشخصية المتعلمة، أن تعلن اختلافها على الرجال. دينيس تحتقر هذه الطريقة. لـ هيمرلينج طريقة فى النظر إليها توحى لها بأنها (هيمرلينج) تعرفها أفضل مما تعرف نفسها، وهذه حالة من التملق مزعجة ويستحيل رفضها تمامًا فى الوقت نفسه. وهى راقدة فى أرق إلى جوار إميل ليلاً، تتخيل دينيس أنها تضغط على رقبة هيمرلينج حتى تجحظ عيناها الزرقاوان شديدتا الزرقة وتخرجان من محجريهما. تتخيل أنها تضغط بأصابعها على زمارة رقبة هيمرلينج حتى تتشقق وتتكسر.

ثم ذات ليلة نامت وحلمت بأنها تخنق بيكى وأن بيكى لا تمانع. عيون بيكى الزرقاء فى واقع الأمر تدعوها إلى التحرر أكثر. تراخت الأيدى الخانقة وانتقلت إلى فك بيكى ومرت إلى جوار أذنيها إلى جلد صدغيها الناعم. افترقت شفتا بيكى وأغمضت عينيها، وكأنها سعيدة، فيما قامت الخانقة بتمديد ساقيها على ساقيها وذراعيها على ذراعيها.

لا تذكر دينيس قدرًا أكبر من الإحساس بالأسف على حلم كذلك الحلم، بعد أن أفاقت من النوم.

قالت لنفسها: "إن كان بإمكانكِ أن تشعرى بهذا الشعور فى حلم، فمن الممكن أن تناليه فى اليقظة".

مع تدهور زواجها، عندما أصبحت بالنسبة إلى إميل من أولئك الساعين وراء الموضة وأحدث الصيحات فى عالم المطاعم، ككل مرتادى مطعم أردينيس، وعندما أصبح بالنسبة لها الأب الذى خانته بكل كلمة تقولها أو تخفيها، ارتاحت لفكرة أن مشكلتها مع إميل هى لأنه رجل، مشكلة جندرية. خففت هذه الفكرة من إحساسها بالذنب، مرت بها على الإعلان المؤسف والرهيب الذى أعلنته، فأخرجت به إميل من حياتها، ومرقت بها على أول خروجة مقلقة للغاية ومليئة بالتوتر مع بيكى هيمرلينج. ارتاحت لاعتقادها بأنها شاذة، واعتنقت هذه الفكرة ومن ثم أعفت نفسها من قدر كافٍ من الذنب بحيث يمكنها أن تسمح لنفسها بأن يكون إميل هو الشخص الذى سيترك البيت وليس هى، وأن تتحمل فكرة أن تدفع له نصيبه من البيت وتبقى هى فيه، وأن تسمح له بهذا التفوق الأخلاقى عليها.

لكن للأسف، ما إن رحل حتى راجعت دينيس أفكارها. استمتعت مع بيكى بشهر عسل عذب ومفيد، ثم بدأ الشجار. ثم الشجار، ثم الشجار. حياة الشجار، مثل الحياة الجنسية التى ملتها بسرعة، كانت مسألة مبدأ فى العلاقة. كانتا تتشاجران عن سبب الشجار كثيرًا، وخطأ من هو. تتشاجران فى السرير فى ساعة متأخرة من الليل، ثم تشعران بالخدر والإهلاك فى الصباح من الشجار.

تتشاجران لدرجة لا تستوعبها عقولهما الصغيرة. شجار شجار شجار. شجار على السلم، شجار فى الشارع، شجار فى السيارة. ورغم أنهما استمتعتا كثيرًا بالجنس ـ انتشاء مصحوب بحالات من الصراخ بوجوه محتقنة حمراء، صفق للأبواب، ركل للجدران، الانهيار بوجوه يكسوها العرق على السرير ـ إلا أن الرغبة فى القتال لا تختفى لمدد طويلة. غلفهما الشجار ووحدهما، ليتجاوزا به الكراهية المتبادلة. صوت الحبيبة أو شعرها أو انحناءة ردفها دائمًا ما تُطلق الحاجة لوقف كل شىء وبدء المضاجعة، وكان فى جعبة بيكى مجموعة من مسببات الإثارة الكافية لأن يبلغ معدل ضربات قلب دينيس عنان السماء. أسوأ شىء كان إحساسها (بيكى) بأن دينيس فى جوهرها مجرد إنسانة متحررة تحب التجربة، سحاقية حتى النخاع، لكنها ببساطة لا تعرف هذا عن نفسها.

قالت بيكى: "أنت مغترية لدرجة لا تصدق عن نفسك. أنت وبكل وضوح دايك. لطالما كنت كذلك".

قالت دينيس: "لست أى شىء. أنا هى أنا ببساطة".

كانت تريد قبل أى شىء أن تتمتع بخصوصية، وأن تبقى مستقلة. لا تريد أن تنتمى إلى أية جماعة، ناهيك عن جماعة ذات قصات شعر رديئة وحقد عجيب تجاه الثياب. لا تريد مسمى، لا تريد أسلوب حياة، وهكذا انتهت من حيث بدأت: أنها تريد خنق بيكى هيمرلينج.

كانت محظوظة (من منظور إدارة الذنب) لأن إجراءات طلاقها كانت قد بدأت قبل أن تخوض مع بيكى شجارهما الأخير غير المُشبع. انتقل إميل إلى واشنطن ليدير مطبخًا فى مطعم بيرلنجر

مقابل قدر خرافى من النقود. كانت عطلة نهاية أسبوع الدموع، عندما عاد إلى فيلادلفيا ومعه شاحنة وقسما أمتعتهما وممتلكاتهما فى الدنيا وحزم نصيبه ورحل، قد ولت منذ فترة عندما قررت دينيس كرد فعل على بيكى، أنها ليست سحاقية.

تركت مطعم أردينيس وأصبحت رئيسة الطهاة فى مطعم "مارى سكورو"، وهو مطعم أسماك إيطالى جديد. على مدار عام رفضت كل رجل طلب منها الخروج معها، ليس لمجرد أنها لم تكن مهتمة (كانوا عمال مطاعم وموردى طعام وجيران) لكن لأنها كانت تخشى أن يراها أحد فى العلن مع رجل. كانت تخشى يوم يكتشف إميل (أو يوم تضطر لأن تخبره حتى لا يكتشف صدفة) أنها وقعت فى رجل آخر. الأفضل أن تعمل بجهد وألا تخرج مع أحد. الحياة كما خبرتها لها بريق مخملى عجيب. إن نظرت إلى نفسك من منظور واحد فلن ترى إلا الغرابة. حرك رأسك قليلاً هنا أو هناك وسوف يبدو كل شىء طبيعيًا. تؤمن بأنها لا يمكنها أن تؤلم أحدًا طالما كل ما تفعله هو العمل.

* * *

ذات صباح مشرق فى مايو مر براين كالاهان على بيتها فى شارع فيديرال فى سيارته الفولفو القديمة الكبيرة، وكانت بلون الفستق. إن كنت تريد شراء سيارة فولفو فاللون الأخضر الباهت هو اللون الأنسب، وكان براين من النوع الذى لا يشترى أية سيارة إلا إن كانت بلونها الأنسب. ها قد أصبح ثريًا بالطبع، ويمكن أن يشترى أية سيارة يريدها ثم يغير لونها كما يشاء. لكنه مثل دينيس، كان براين ممن يعتبرون هذا الفعل خيانة.

عندما ركبت السيارة سألها إن كان بإمكانه أن يغمى عينيها. نظرت إلى العصابة السوداء فى يده. نظرت إلى خاتم زواجه.

قال: "ثقى بى. الموضوع يستحق أن تندهشى".

حتى قبل أن يبيع برنامجه الموسيقى مقابل ١٩,٥ مليون دولار، كان براين يتحرك فى العالم وكأنه كلب صيد ودود. وجهه لحيم وأقل من وسيم، لكن عيونه زرقاء وشعره أصفر وفى وجهه نمش الصبية الأبرياء. شكله يماثله: خريج هارفارد ورجل محترم بشكل عام لم يحدث له شىء بشع من قبل ومن ثم لا يريد أن يخيب أمل أحد.

تركته دينيس يلمس وجهها. تركت يديه الكبيرتين تتخللان شعرها ليربط عقدة العصابة، تركته يصيبها بالعجز.

سمعت صوت محرك السيارة يدور ليحرك كتلة المعدن الضخمة هذه على الطريق. شغل براين أغنية من ألبوم لفرقة نسائية. أحبت دينيس الموسيقى، لكن لم تندهش. بدا براين حريصًا على ألا يشغل أية موسيقى أو يقول أو يفعل أى شىء لا يعجبها. على مدار ثلاثة أسابيع كان يتصل بها ويترك لها رسائل بصوت خفيض ("مرحبًا، إنه أنا"). ترى حبه يداهمها وكأنه قطار، وأعجبها هذا الكلام، أثارها كثيرًا. لم تتخيل أن الإثارة انجذاب (هيمرلينج جعلت دينيس ترتاب فى مشاعرها)، لكنها لا يمكنها مقاومة سعى براين وراءها، ولقد ارتدت ثيابًا أنيقة هذا الصباح.

سألها براين عن رأيها فى الأغنية.

هزت رأسها وقالت: "إه، لا بأس بها"، فى اختبار لحدود حرصه على إرضائها.

قال: "أنا مندهش جدًا. كنت واثقًا أنك ستحبيها".

"فى الحقيقة أحبها".

فكرت: ما مشكلتى؟

كانا على طريق غير ممهد جيدًا. عبرا شريط السكة الحديد إلى مساحة واسعة من الحصى. أوقف براين السيارة. قال: "اشتريت حق تقديم عطاء لشراء هذا المكان بدولار واحد. إن لم يعجبك فلن أخسر غير دولار".

وضعت يدها على عصابة العينين: "سأخلع هذه".

"لا، ليس بعد، كدنا نصل".

أمسك ذراعها بطريقة مشروعة وقادها عبر الحصى الدافئ إلى منطقة ظليلة. كانت تشم رائحة النهر، وتشعر بقربه البالغ، وصوته صوت ابتلاع السوائل. سمعت مفاتيح وقفل، وصرير مفصلات باب حديدى ثقيل. هواء صناعى بارد من مستودع ما قديم يمر فوق كتفيها العاريين وبين ساقيها العاريتين. رائحة كهف بلا مكونات عضوية.

صعد بها براين أربعة طوابق على سلالم معدنية، وفتح بابًا آخر، ثم أخذها إلى مساحة أدفأ شعرت بها محطة قطار أو كاتدرائية. مذاق الهواء كفطر جاف يتغذى على فطر جاف يتغذى على فطر جاف.

عندما فض براين عصابة عينيها، عرفت على الفور أين هى. شركة كهرباء فيلادلفيا قامت فى السبعينات بوقف العمل فى منشآت توليد الكهرباء باستخدام الفحم الملوث للبيئة، مبانٍ عظيمة

مثل هذا المبنى جنوب وسط البلد، كانت دينيس تتوقف كلما مرت عليها لتأخذ وقتها فى الإعجاب بها. المكان براق وشاسع. السقف على ارتفاع ستين قدمًا، وهناك ضفاف من النوافذ العالية العريضة تتخلل الجدارين الشمالى والجنوبى. الأرض الخرسانية تتخللها أماكن من مواد أصلب من الخرسانة، وكأنها يابسة وليست أرضية. فى المنتصف بقايا غلايتين عملاقتين ووحدات توربينى وكأنها صراصير فى حجم بيوت مجردة من أطرافها وقرون استشعارها. زوائد كهربائية آلية سوداء متآكلة فقدت قدراتها. عند النهر حيث ينتهى المكان مخازن عملاقة كانوا يفرزون فيها الفحم عن الغبار. وهناك بقايا لمواسير ومضخات كانت هنا قديمًا وسلالم يلمع عندها النور وراء جدران من الدخان.

هزت دينيس رأسها: "لا يمكنك وضع مطعم هنا".

"كنت أخشى أن تقولى هذا الكلام".

"سوف تخسر نقودك قبل أن آخذ فرصتى فى تضييعها لك".

"ربما آخذ تمويلاً من البنك أيضًا".

"دعك من الملوثات والأسبيستوس الذى نستنشقه ونحن نتكلم الآن".

قال براين: "أخطأت هذه المرة. ما كان هذا المكان لتقوم له قائمة إن لم يمول بنقود كثيرة. دون بنائه حسب المقاييس البيئية كان ليتم هدمه. إنه نظيف تمامًا".

اقتربت من التوربينات وهى تشعر بحب للمكان بغض النظر عن إمكانية استخدامه من عدمها. تآكل فيلادلفيا الصناعى، سحر

تعفن ورشة العالم هذه، الأطلال العظيمة الباقية فى زمن الميكرو، تعرف هذه الحالة بما أنها وُلدت فى عائلة تحتفظ بالكراكيب والأشياء المعدنية القديمة فى صناديق عتيقة فى القبو. ذهبت إلى المدرسة فى زمن الحداثة البراق وكانت تعود كل يوم منها إلى عالم أكبر وأكثر ظلامًا.

قالت: "لا يمكنك أن تدفئه أو تبرده. فاتورة المرافق اللازمة لهذا المكان خرافية".

راح براين يراقبها فى هدوء: "مهندسى يقول إن بإمكانه تجهيز طابق كامل على امتداد نوافذ الجدار الجنوبى. بعرض خمسين قدمًا، ثم نغلق الجوانب الثلاثة الباقية بالزجاج. نضع المطبخ بالأسفل. ننظف التوربينات بالبخار، نعلق بعض الإضاءة، ثم نترك المساحة الرئيسية نفسها كما هى".

"ستغرق نقودك هنا".

قال براين: "لاحظى أنه لا يوجد أى حمام، ولا برك وحل".

"ستستغرق عامًا لأخذ التصاريح، وعامًا آخر للبناء، وعامًا ثالث لبدء التفتيش. هذه مدة طويلة، علام ستعطينى راتبى طول هذه الفترة".

رد براين قائلاً إنه ينوى افتتاح المكان فى فبراير. لديه أصدقاء مهندسون وأصدقاء مقاولون ولا يتوقع مشاكل مع إدارة التصاريح والتفتيش مرهوبة الجانب. قال: "مدير الإدارة صديق أبى، إنهما يلعبان الجولف كل خميس".

ضحكت دينيس. طموح وإقدام براين، ولتستخدم كلمة من كلمات أمها هذه المرة، أصابها بـ "الزغزغة". نظرت إلى قامات النوافذ

العالية التى تنتهى من فوق بقباب وقالت: "لا أعرف ما الطعام الذى ستقدمه هنا".

"شىء أنيق وفاخر. هذه مشكلتك وعليك حلها".

عندما عادا إلى السيارة، سألها براين باخضرار العشب النامى فى أنحاء الأرض الخلاء الممتلئة بالحصى إن كانت لديها أفكار معينة بخصوص أوروبا. قال: "عليك أن تقضى هناك شهرين على الأقل. عندى لهذا دافع خفى".

"وهو؟"

"إن ذهبت فسوف أجد دافعًا للذهاب إلى أوروبا أسبوعين. أريد أن آكل ما تأكلينه. أريد أن أسمع كيف تفكرين".

قال عبارته هذه باهتمام وبلا قلق. من لا يرغب فى السفر إلى أوروبا مع امرأة جميلة تعرف كيف تختار طعامها ونبيذها؟

ذلك الجزء من دينيس الذى قدر أنها قد تحظى بجنس أفضل مع براين من ذلك الذى نالته مع رجال آخرين، ذلك الجزء منها أقر بطموحها فيه، ووافق على ستة أسابيع فى أوروبا ومقابلته فى باريس.

أما الجزء الآخر الأكثر ارتيابًا فقد قال: "متى سأقابل أسرتك؟"

"ما رأيك فى السبت والأحد القادمين؟ تعالى زورينا فى كيب ماى".

كيب ماى، نيوجيرسى، مكان قوامه كتلة من البيوت الفيكتورية ذات الديكور المبالغ فيه وفلل صغيرة. بطبيعة الحال كان والدا براين يملكان واحدة من الفيلات الأقدم والأفضل. وراءها حمام سباحة لعطلات بداية الصيف عندما يكون المحيط ما زال باردًا. إلى هنا

وصلت دينيس فى عصرية يوم سبت، فوجدت براين وبناته جالسين مسترخين وهناك سيدة بشعر فأرى اللون مغطاة بالعرق، تحضر مائدة حديدية.

كانت دينيس تتوقع أن تكون زوجة براين ساخرة وعصرية وجميلة جمالًا أخاذًا. كانت روبن باسافارو ترتدى سروالاً أصفر، وقبعة عمال، وجهها أحمر كعادة أهل فيلادلفيا - نيوجيرسى، وترتدى نظارة مرعبة. مسحت يدها فى عرقها ثم قدمت يدها إلى دينيس. كان ترحيبها بها حادًا ورسميًا بشكل غريب: "تسعدنى مقابلتك"، ثم ذهبت فورًا إلى مكان آخر لتؤدى عملها.

قالت دينيس لنفسها، وأنا أيضًا لا أحبك.

كانت سينيد ذات العشرة أعوام، النحيلة الجميلة، جالسة على لوح الغطس ومعها كتاب على حجرها. لوحت بحذر لدينيس. أما إيرين، الفتاة الأصغر والأكثر بدانة فكانت على رأسها سماعات، منكبة على مائدة صغيرة ترتسم على وجهها نظرة تركيز شديد. صفرت صفيرًا خفيضًا.

قال براين: "إيرين تتعلم نداءات الطيور".

"لماذا؟"

"فى الحقيقة لا نعرف على الإطلاق".

أعلنت إيرين أن: "ماج كاك، كويك كويك كويك كويك؟"

قال براين: "الآن وقت مناسب لإبعاد هذا الشىء".

خلعت إيرين سماعتها وجرت إلى لوح الغطس، وحاولت أن تبعد شقيقتها عنه. كاد كتاب سينيد يسقط، لكنها لحقته بيد رشيقة وقالت: "بابا!"

"حبيبتى، هذا لوح الغطس وليس لوح القراءة".

هناك سرعة وحزم فى عمل روبن المنزلى. كانت حادة وحاقدة فى رأى دينيس، فوترتها. براين بدوره نظر إلى زوجته متأملاً: "هل كدت تنتهين من هذا العمل؟"

"هل تريد أن أتوقف؟"

"سيكون هذا جميلاً، نعم".

أسقطت روبن المقشة وتقدمت من البيت وهى تقول: "طيب. دينيس، هل أحضر لك شيئًا تشربينه؟"

"كوب ماء، أشكرك".

قالت سينيد: "اسمعينى يا إيرين. سأكون أنا ثقبًا أسود وتكونين أنت قزمًا أحمر".

قالت إيرين: "أريد أن أكون ثقبًا أسود".

"لا أنا الثقب الأسود. القزم الأحمر يدور فى دوائر ويقترب تدريجيًا من الثقب الأسود الذى يلتهمه بقوة الجاذبية الرهيبة. الثقب الأسود يجلس هنا ويقرأ".

قالت إيرين: "وهل نتصادم؟"

قال براين متدخلا فى الحوار: "نعم، لكن لا تخرج معلومات عن الظاهرة للعالم الخارجى. إنه تصادم هادئ تمامًا".

ظهرت روبن مرة أخرى وهى ترتدى ثوب استحمام أسود من قطعة واحدة. وبإيماءة قد تبدو أقل بقليل من الوقاحة، قدمت لدينيس الماء.

قالت دينيس: "شكرًا".

قالت روبن: "العفو!". خلعت نظارتها وغطست في الجانب العميق من البركة. سبحت تحت الماء فيما راحت إيرين تدور حول البركة وتصرخ صرخات تحاكي النجوم الميتة. عندما ظهرت روبن عند الجانب الضحل بدت وكأنها عارية. بدت أكثر كالزوجة التي تخيلتها دينيس، شعرها ينسكب أنهارًا على رأسها وكتفيها، وعظام وجنتها تلمع.

حالة ارتباك قديمة لا علاج لها مزمنة أمسكت بدينيس. أحست بالحاجة للابتعاد والحاجة للطهى.

قالت لبراين: "توقفت لشراء اللوازم الضرورية".

قال: "ليس عدلاً أن تعمل ضيفتنا".

"على الجانب الآخر هذا عرض أعرضه عليكم، وسوف تدفع أنت".

"هكذا إذن، نعم".

قالت سينيد وهى تنزل إلى الماء: "إيرين، أنت الآن جرثومة وأنا كرة دم بيضاء". أعدت دينيس سلطة بسيطة من الطماطم الحمراء والصفراء. أعدت طبق أرز بالزبد والزعفران، وسمك فيليه مشويًا مع بلح البحر والفلفل المقلى. كادت تنتهى من عملها قبل أن يخطر لها أن تقلب فى الأطباق المغطاة داخل الثلاجة. هنا عثرت على سلطة خضراء وفروت سلات وطبق من الذرة ومقلاة فيها (هل هذا ممكن؟) قطع لحم خنزير ملفوفة فى بطانيات؟

كان براين يشرب زجاجة بيرة وحده عند لوح الغطس.

قالت له دينيس: "هناك عشاء فى الثلاجة. هناك بالفعل عشاء".

قال براين: "يا خبر. لابد أن روبن قد... عندما كنت أنا والفتيات فى الخارج نصطاد".

"عمومًا هناك عشاء كامل فى الثلاجة، وقد أعددت عشاءً ثانيًا كاملاً". ضحكت دينيس وهى غاضبة: "ألا تتواصلان أبدًا؟"

"لا فى الواقع ليس هذا يومنا الأكثر تواصلاً. روبن عندها بعض العمل فى مشروع الحديقة تريد الانتهاء منه. وقد قمت بجرجرتها إلى هنا بعيدًا عن عملها".

"أحه".

قال براين: "انظرى، سنتناول العشاء الآن، ويمكن أن نأكل عشاءها غدًا. هذا خطأى بالكامل".

"واضح!"

وجدت روبن عند التراس الآخر، وكانت تقص أظافر قدم إيرين. قالت: "أدركت حالاً أننى أحضر عشاءً وأنك قد أعددت عشاء بالفعل. لم يخبرنى براين".

هزت روبن رأسها: "لا يهم".

"لا، أنا فعلاً آسفة لما حدث".

قالت روبن: "لا يهم. الفتيات سعيدات أنك طهيت".

"آسفة".

"لا يهم".

فى العشاء كان براين يقوم بوخز بناته الخجلات حتى يجبن على أسئلة دينيس. كل مرة ترى الفتيات يحدقن فيها يخفضن أعينهن

وتحمر وجوههن. أكلت روبن بسرعة ورأسها قريب من المائدة، وأعلنت أن الطعام "لذيذ". لم يكن واضحًا كم من رضاها موجهًا إلى براين وكم منه إلى دينيس. صعدت إلى الفراش بعد الفتيات بقليل، وفى الصباح كانت قد غادرت إلى الكنيسة لحضور القداس، وقت أن أفاقت دينيس من النوم.

قال براين وهو يصب القهوة: "سؤال سريع: ما رأيك فى أن توصلينا أنا والبنات إلى فيلادلفيا مساء اليوم؟ روبن تريد العودة إلى مشروع الحديقة سريعًا".

ترددت دينيس. أحست بأن روبن تدفعها دفعًا إلى ذراعى براين.

قال: "ليست مشكلة إن كنت لا تريدين. إنها مستعدة لأخذ الأتوبيس وأن تترك لنا السيارة".

أتوبيس؟ أتوبيس؟

ضحكت دينيس وقالت: "بالطبع لا، سوف أوصلكم". ثم أضافت بلهجة روبن: "لا يهم".

على الشاطئ والشمس تحرق سحابات الصباح المعدنية الساحلية، راحت هى وبراين يراقبان إيرين تصارع الأمواج بينما سينيد تحفر قبرًا ضحلاً فى الرمال.

قالت سينيد: "سأكون جيمى هوفا وأنتما العصابة".

اجتهدا فى إدخال الفتاة إلى الرمال، قاما بتنعيم انحناءات قبة دفنها، وضغطا الرمال على الجسد المدفون. لكن القبة نشطة جيولوجيا وتعرضت لبعض الهزات الأرضية الخفيفة، ثم بدأت تظهر تشققات أرضية كبيرة، مع صعود وهبوط بطن سينيد وهى تتنفس.

قال براين: "بدأت الآن فقط أدرك أنك كنت متزوجة من إميل برجر".

"هل تعرفه؟"

"ليس شخصيًا، لكن أعرف كافيه لوش. أكلت هناك كثيرًا".

"كنت أنا وهو".

"ذاتان متضخمتان للغاية فى مطبخ صغير".

"نعم".

"هل يوحشك؟"

"كان طلاقى مصدر تعاسة كبير فى حياتى".

قال براين: "هذه إجابة واضحة، لكن ليست على سؤالى".

كانت سينيد تعمل على تخريب قبرها ببطء من الداخل، ظهرت أصابع أقدامها من تحت الرمال، ثم برزت ركبة، وأصابع وردية تخدش الرمل الرطب. كانت إيرين ترمى بنفسها فى خليط من الرمال والماء، ثم تنهض، ثم تنزل مرة أخرى.

خطر لدينيس: يمكن أن أحمل نفسى على حب هاتين الفتاتين.

فى البيت تلك الليلة اتصلت بأمها وراحت تنصت، كما تفعل كل أحد، لشكاوى إنيد من خطايا ألفريد إزاء أسلوب الحياة الصحى، وأسلوب حياته غير الصحى، ورفضه لأوامر الأطباء، وسباحته ضد تيار مبادئ الحياة اليومية النهارية المتبعة، ضد قواعد المألوف فيما يخص السلالم، ضد كل ما هو مرح ومتفائل فى حياة إنيد. بعد خمس عشرة دقيقة متعبة ختمت إنيد كلامها قائلة: "والآن، كيف حالك؟"

منذ طلاقها عقدت دينيس العزم على أن تخبر أمها أكاذيب أقل، وهكذا أعلنت بوضوح خطط سفرها. حذفت الجزء المتعلق بأنها ستكون فى فرنسا مع شخص هو زوج لأخرى، هذه الفكرة تشع المشاكل من الآن بالفعل.

قالت إنيد: "كم أود لو أذهب معك، أحب النمسا كثيرًا".

عزمت عليها دينيس عزومة مراكبية: "لم لا تأخذى شهرًا إجازة وتقابلينى هناك؟"

"دينيس، لا يمكن أن أترك والدك وحده".

"يمكنه أن يأتى بدوره".

"تعرفين كلامه، وكيف أنه اكتفى بالرحلات البرية. لا يمكنه المشى مرتاحًا. اذهبى أنت واستمتعى بوقتك. سلمى لى على مدينتى المفضلة! وزورى سيندى مايزنر. عندها هى وكلاوس شاليه فى سان موريتز وشقة كبيرة وفخمة فى فيينا".

النمسا تعنى لإنيد "الدانوب الأزرق" وصناديق الموسيقى فى حجرة معيشتها بزينتها من زهور وخشب عتيق، كل تلك الأشياء من فيينا. كانت إنيد مغرمة بقول أن أم أمها من "فيينا" لأن هذه المدينة مترادفة فى عقلها مع "النمسا"، وبذلك تعنى "على صلة بالإمبراطورية الهنغارية"، وهى إمبراطورية كانت فى زمن ميلاد جدتها تضم أراضى شمال براج إلى جنوب سراييفو. أما دينيس التى كانت معجبة أشد الإعجاب بـ بربرا سترايسند فى فيلم "ينتل" فقد انتزعت من إنيد ذات مرة اعترافًا بأن الجدة المعنية كانت فى واقع الأمر يهودية. وهو الأمر الذى يعنى كما أوضحت فى ظفر،

أنها وهى وإنيد يهوديتان من نسب الأم. لكن إنيد تراجعت سريعًا وقالت لها إن جدتها كانت كاثوليكية.

دينيس مهتمة اهتمامًا مهنيًا ببعض مذاقات طهى جدتها، الضلوع المشوية الريفية والكرنب والتوت والسمك والسجق. بعد أن قطعت آخر صلاتها بمطعم "مارى سكورو" طارت إلى فرانكفورت بصفتها موظفة مدفوعة الأجر لصالح براين كالاهان ومعها بطاقة ائتمان أمريكان إكسبريس بلا حد أقصى للإنفاق. فى ألمانيا قادت السيارة بسرعة مائة ميل فى الساعة وراءها سيارات تقلب لها أنوارها العالية احتجاجًا. فى فيينا بحثت عن فيينا لا وجود لها. لم تأكل شيئًا لا يمكنها طهيه أفضل، ذات ليلة تناولت طبق فينر شنيتزل وقالت، نعم، هذا فينر شنيتزل رائع. فكرتها عن النمسا أكثر بريقًا من النمسا نفسها. ذهبت إلى متحف "كونستهستوريتشس" وإلى الأوبرا واستمعت لسيمفونية، أنبت نفسها لأنها سائحة سيئة. أحست بملل بالغ ووحدة حتى اتصلت أخيرًا بسيندى فون كيبل (مايزنر) وقبلت دعوة عشاء فى شقتها ذات السبع عشرة حجرة فى شارع رينجستراب.

زاد وزن سيندى عند الخصُر وبدت لدينيس أسوأ بكثير من الحال السيئة المفترض أن تكون عليها. لم يعد من الممكن تمييز شكلها من كريم الأساس والروج وأحمر الشفاه الكثير. بنطلونها الأسود الحريرى واسع عند الأرداف وضيق عند الكاحلين. وهى تقبل وجنتى سيندى وتقاوم هجوم عطرها القوى الأشبه بالغاز المسيل للدموع، أحست دينيس بالدهشة لمّا شمّت رائحة فم كريهة تنبعث من سيندى.

كان كلاوس زوجها عريض المنكبين، مكتنز الردفين ومؤخرته رائعة. حجرة معيشة آل فون كيبل طولها كنصف مربع سكنى وأثاثها عبارة عن مقاعد مذهبة فى تشكيلات قاتلة لأى إحساس بالدفء والحميمية. هناك لوحات لجان أنطوان واتّو على الجدران، وكذلك ميدالّية كلاوس البرونزية الأولمبية، المعلقة والمؤطرة، تحت أكبر ثريا فى القاعة.

قال كلاوس لدينيس: "ما ترينه هنا هو مجرد نسخة مقلدة. الميدالية الأصلية مُخزنة فى مكان آمن".

على منضدة صغيرة تعود لزمن لويس الرابع عشر كان هناك طبق فيه خبز وسمك مدخن عريض كقطع سمك التونا المعلبة، وقطعة جبن فاخر صغيرة.

أخرج كلاوس زجاجة من دلو فضى وسكب نبيذًا نمساويًا فى كأس. قال: "فى صحة طاهيتنا القادمة فى حج غذائى"، رفع الكأس وأضاف: "مرحبًا بك فى مدينة فين المقدسة".

النبيذ النمساوى لذيذ ويشبه الصودا كثيرًا.

صاحت سيندى: "رائع أنك هنا!" طرقعت أصابعها فى حماس شديد، فجاءت خادمة من باب جانبى. قالت سيندى بصوت من تخاطب طفلة: "أنيرل يا حبيبتى، هل تذكرين عندما قلت لك أن تحضرى الخبز الأسمر وليس الخبز الأبيض؟"

قالت أنيرل التى تبلغ من العمر أوسطه: "نعم يا مدام".

"تأخر الوقت، لأننى كنت أريد هذا الخبز الأبيض لمَا بعد، لكن أرجو أن تأخذى هذا الخبز وتحضرى خبزًا أسمر بدلاً منه! ثم

أرسلى من يحضر لنا المزيد من الخبز الأبيض لنأكله فيما بعد!" أوضحت سيندى لدينيس: "إنها عذبة للغاية، لكن غبية جدًا. ألست كذلك يا أنيرل؟ ألست غبية؟"

"نعم يا مدام".

قالت سيندى لدينيس وأنيرل تخرج من القاعة: "أنت تعرفين هذه المشاكل، فأنت طاهية. ربما الأمر أسوأ بالنسبة لك، غباء الناس".

قال كلاوس: "العجرفة والغباء".

قالت سيندى: "تخبرهم بما عليهم فعله سيذهبون ويفعلون شيئًا غيره، أمر محبط، محبط!"

قالت دينيس: "أمى بتسلم عليك".

"أمك رائعة. لطالما كانت لطيفة معى. كلاوس، أتعرف ذلك البيت الصغير جدًا جدًا الذى كانت أسرتى تعيش فيه (منذ زمن بعيد وأنا فتاة صغيرة صغيرة جدًا)، كان أبوى دينيس جيراننا. أمى وأمها ما زالتا صديقتين مقربتين. أعتقد أن أهلك ما زالوا فى البيت القديم الصغير، صح؟"

ضحك كلاوس ضحكة خشنة والتفت إلى دينيس وقال: "هل تعرفين ما أكرهه حقًا فى سان جود؟"

قالت دينيس: "لا. ما الذى تكرهه حقًا فى سان جود؟"

"أكره الديمقراطية المزيفة. يتظاهر أهالى سان جود بأنهم جميعًا سواء. هذا شىء رائع رائع. رائع رائع رائع. لكن الناس ليسوا جميعًا سواء. على الإطلاق. هناك اختلافات طبقية، وهناك

اختلافات عرقية، وهناك اختلافات اقتصادية هائلة ومصيرية، لكن لا أحد صادق مع نفسه فى هذا الموضوع. الجميع يتظاهرون! هل لاحظت ذلك؟"

قالت دينيس: "هل تقصد مثل الاختلافات بين أمى وأم سيندى؟"

"لا، لا أقصد أمك"؟

قالت سيندى: "كلاوس فى واقع الأمر أنت قابلتها. فى عيد الشكر منذ ثلاثة أعوام، أتذكر؟"

قال كلاوس موضحًا: "الجميع يتشابهون. هذا ما أقوله. كيف أميز بين الناس والجميع يتظاهرون بأنهم سواء؟"

عادت أنيرل ومعها الطبق البائس وعليه خبز مختلف.

قالت سيندى لدينيس: "خذى، جربى هذا السمك. أليست الشمبانيا رائعة؟ مختلفة حقًا! كنت أشربها أنا وكلاوس أقوى من هذا، ثم اكتشفنا هذا النوع وأحببناه".

قال كلاوس: "النبيذ الجاف جذاب، لكن من يعرفون النبيذ النمساوى ويخبرونه تمام الخبرة يعرفون أن هذا هو ملك النبيذ".

عقدت دينيس ساقيها وقالت: "أخبرتنى أمك أنك طبيب".

قال كلاوس: "نعم، طبيب رياضة".

قالت سيندى: "أفضل لاعبى التزلج يأتون إلى كلاوس!"

قال كلاوس: "هكذا أسدد دينى للمجتمع".

رغم أن سيندى توسلت لدينيس أن تبقى، إلا أنها هربت من بيت شارع رينستراب قبل التاسعة وهربت من فيينا كلها الصباح التالى،

متجهة شرقًا عبر وادٍ أبيض براق إلى منطقة الدانوب الأوسط. وهى مدركة لمدى إنفاقها من نقود براين، راحت تعمل لساعات طويلة، مرت على الدانوب فى أناة وصبر، وكانت تدون ملاحظات عن كل وجبة تتناولها، وتتفحص المخابز ومطاعم اللحوم. مضت شرقًا حتى روثينيا، مهد أبوى والد إنيد، وقد أصبحت الآن منطقة مهملة فى أوكرانيا. فى المناطق الشاسعة التى ارتحلت عبرها لم تجد يهودًا تكلمهم إلا فى المدن الأكبر. كل شىء هنا عذب وهادئ وهى تتصالح مع نفسها. الطعام خشن إلى حد بعيد. فى مرتفعات كرباثيا كل شىء مصاب بندوب مناجم الفحم، مكان مناسب لمدافن جماعية. رأت دينيس وجوهًا تشابه وجهها، لكنها وجوه مصمتة كبرت قبل الأوان، ولا كلمة بالإنجليزية تلوح فى أعينهم. لا جذور لها. ليس هذا بلدها.

استقلت الطائرة إلى باريس وقابلت براين فى لوبى فندق "دو إيلى". فى يونيو الماضى كان قد تحدث عن المجىء ومعه أسرته كلها، لكنه جاء وحده. كان يرتدى بنطلونًا كاكيًا أمريكيًا، وقميصًا أبيض قديمًا للغاية. كانت دينيس تشعر بوحدة بالغة، حتى إنها كادت تقفز بين ذراعيه عندما رأته.

تساءلت: أى حمقاء تلك التى تدع زوجها يذهب إلى باريس مع إنسانة مثلى؟

تناولا العشاء فى مطعم نجمتين، رأت دينيس أن طهاته يبذلون جهدًا أكثر من المطلوب. لم تكن تفكر فى الدجاج بالبابايا عندما حضرت إلى فرنسا. لكن على الجانب الآخر، فقد نالت كفايتها من الطعام الثقيل.

تركها براين تختار النبيذ وتطلب العشاء لها وله. وبعد الأكل وهما يرشفان القهوة سألته لماذا لم تحضر روبن معه إلى باريس.

قال بمرارة: "إنه أول موسم لحصاد الزوتشيني في مشروع الحديقة".

قالت دينيس: "السفر متعب لبعض الناس".

قال براين: "لم يكن متعبًا على روبن. كنا نخرج في رحلات رائعة، على امتداد الغرب كله. والآن بعد أن أصبحنا قادرين على كلفة السفر، لا تريده. وكأنها مضربة عن النقود".

"لابد أنها صدمة، أن يصبح معكما كل هذا المبلغ هكذا فجأة".

قال براين: "اسمعى، أريد الاستمتاع بالنقود لا أكثر. لا أريد أن أصبح شخصًا مختلفًا. لكننى لن أرتدى ثيابًا رديئة أيضًا".

"أهذا ما تفعله روبن؟"

"ليست سعيدة منذ بعت الشركة".

فكرت دينيس إلى متى سيدوم هذا الزواج.. ليس طويلاً.

انتظرت سدى وهما يسيران فى الشارع بعد العشاء أن يمسك براين بيدها المدلاة إلى جانبه. راح ينظر إليها فى أمل، وكأنه يريد أن يطمئن أنها لا تعترض على توقفه عند الفتارين أو التوقف للنظر إلى الجانب الآخر من الشارع. له طريقة سعيدة فى التماس الموافقة والاستحسان دون أن يبدو مفتقدًا للثقة. وصف لها خططه لمطعم جينيريتور وكأن الأمر حفل هو واثق من أنه سيعجبها. كان مقتنعًا أيضًا تمامًا بأنه يفعل الشىء الجيد الذى تريده هى، افترق عنها دون أن يلامسها عندما تركها فى لوبى فندق "دو إيلى".

تحملت عشرة أيام من دماثة خلقه. نحو النهاية لم تعد قادرة على أن تنظر إلى نفسها فى المرآة، ترى وجهها تالفًا، وحلمتيها متدليتين، وشعرها أشعث، وملابسها ملابس المسافرين المخضرمين. كانت ببساطة مصدومة من هذا الزوج غير السعيد الذى يقاومها. حتى رغم أنه كان سعيدًا بمقاومتها! كونه أبًا لهاتين الفتاتين العذبتين! وهى بعد كل شىء موظفته التى تأخذ منه راتبها! احترمت مقاومته ورأت أن هكذا يتصرف البالغون، وكانت تعيسة للغاية من هذا الموضوع.

أوكلت لنفسها مهمة ألا تشعر بأنها زائدة الوزن، وأن تجوع نفسها. لم يساعدها أنها ملت من الغداءات والعشاءات ولا تريد الآن غير الأكل فى أماكن مفتوحة، وجبات خفيفة. تريد تناول الفاكهة، الطعام الجاف، القهوة. تعبت من مشاهدة براين وهو يستمتع بالوجبات. كرهت روبن لأن لديها زوجًا يمكنها أن تثق فيه. كرهت روبن على وقاحتها فى كيب ماى. لعنت روبن وقالت عن روبن قحبة وهددتها فى سرّها بمضاجعة زوجها. فى ليال عديدة بعد العشاء فكرت فى غزو نظامها الأخلاقى الخاص وأن تتحرش ببراين (لأنه بطبيعة الحال سيختار ما تختاره هى، بالطبع إن منحته الإذن سيقفز على سريرها ويلهث ويبتسم ويلعق يدها ككلب صيد مخلص)، لكنها أخيرًا أحست بالغضب من حالة شعرها وثيابها. كانت بحاجة للعودة إلى بيتها.

قبل أن يغادرا بليلتين، طرقت على باب براين قبل العشاء وجذبها إلى حجرته وقبّلها.

لم تر منه بوادر على تغير حالته. زارت حجرة الضمير فى عقلها وقالت لضميرها: "لا شىء! لم أفعل شيئاً! طرقت على الباب لأراه يخر على ركبتيه".

على ركبتيه، ضغط يديها بوجهه. نظرت إليه وكأنها تنظر إلى دون أرمور من ذلك الزمن السحيق. رغبته جلبت نسائم استوائية لطيفة لكل ذلك الجفاف والتشقق، لمحنة الجسد، لنفسها. ذهبت وراءه إلى الفراش.

بطبيعة الحال كونه ماهرًا فى كل شىء، كان براين يعرف كيف يُقبل. له أسلوب ملتو فى التقبيل أحبته. غمغمت فى غموض: "أحب مذاقك". وضع يده على كل مكان توقعت أن يضع يده عليه. فكت قميصه كما تفعل النساء عند نقطة معينة. لعقت حلمته كأنها قطة تغتسل. وضعت يدًا خبيرة على تلك الانبعاجة فى بنطلونه. كانت جريئة مقتحمة بكل جمال وكل همة وهى تعرف. عكفت على أعمال تتلخص فى فك حزام وفض أزرار ومشاريع تركيب أوعية إلاستيكية، حتى بدأ ذلك الشىء يتضخم داخلها، لم تلحظه فى البداية ثم برز فجأة، ثم لم يعد بارزًا بل تزايد ألمه وضغطه على جلدها وعينيها وشرايينها... بالون بوجه روبن، بحجم إنسان كامل، من الخطيئة.

كان صوت براين فى أذنها. كان يسألها سؤال الحماية المعهود، عن إن كانت تأخذ حبوب منع الحمل. كان قد خمن بالخطأ أن توترها إقبال، وتملصها منه دعوة للمزيد. أوضحت موقفها بأن خرجت من السرير وجلست القرفصاء فى ركن بحجرة الفندق. قالت إنها لا تستطيع.

جلس براين على السرير ولم يرد عليها. ألقت نظرة نحوه وتأكدت أن موضوعه على مستوى المتوقع من رجل لديه كل شىء. خطر لها أنها لن تنسى مشهد قضيبه قريبًا أبدًا. سوف تراه عندما

تغمض عينيها، فى أوقات غير ملائمة، فى سياقات بعيدة كل البعد عن هذا السياق.

اعتذرت له.

قال براين وهو من حيث المبدأ يرى الصحة فى حُكمها: "لا، أنت على حق. ماذا فعلت. لم أفعل شيئًا كهذا من قبل".

قالت حتى لا يظن أنها ببساطة خجولة: "أنا فعلت، أكثر من مرة. لكن لا أريد ذلك مرة أخرى".

"لا بالطبع، أنت محقة".

"إن لم تكن متزوجًا، إن لم أكن أعمل لديك".

"اسمعى، أنا أتعامل مع هذا الموضوع. سوف أذهب إلى الحمام الآن. سوف أتعامل مع هذا الموضوع".

"شكرًا لك".

خطر لها أن: ما مشكلتى؟

وقال لها جزء آخر منها: "لمرة واحدة فى حياتى أفعل الشىء الصحيح".

أمضت أربع ليال وحدها فى ألساكى ثم ركبت طائرة العودة من فرانكفورت. أحست بالصدمة عندما ذهبت لتتفقد التقدم الذى أحرزه فريق بناء براين فى الجينيريتور وهى غائبة. المبنى داخل المبنى كان قد بدأت تظهر حدوده، وتم صب أرضياته. رأت كيف سيكون: فقاعة براقة من الحداثة مستقرة وسط مبنى صناعى أثرى من عهد الثورة الصناعية الغابر. رغم أنها واثقة من قدرتها على الطهى، فإن عظمة المكان أصابتها بالتوتر. تمنت لو كانت

أصرت على مساحة عادية بسيطة يلمع فيها طعامها وحده بلا منافسة. أحست بأنها تعرضت للتغرير والإغراء، وكأنها وهى لا تعرف قام بعمل المطعم ليكون له وليس لها.

طاردتها كما توقعت صورة قضيبه. أحست بقدر أكبر من السرور أنها لم تدعه يُدخله فيها. فى براين كل ميزة لديها بالإضافة إلى مزايا أخرى يتفرد بها. كان رجلا، وثريًا، ولا تزعجه أوجه غرابة آل لامبرت ولا آراؤها القوية: كان هاويًا ليس لديه شىء يخسره إلا النقود، ولكى ينجح فلا يحتاج إلا لفكرة جيدة وشخص آخر (هى بالأساس) ليؤدى له العمل الشاق. كم كانت محظوظة فى حجرة الفندق عندما اكتشفت فيه خصمًا لها! بعد دقيقتين كانت لتشعر بخيبة الرجاء. كانت لتصبح يومًا آخر من أيام حياته المرحة، كان سينهار جمالها على صخرة كونه رجلاً لا يُقاوم، وسوف تقتصر مواهبها على المجد الذى ستصنعه لمطعمه. كم كانت محظوظة، كم كانت محظوظة.

ترى أنها عندما سيتم افتتاح الجينيريتور، سوف يهتم الصحفيون الذين يكتبون عن الطعام أكثر بالمكان عن اهتمامهم بالطعام، وسوف تخسر وسوف يربح براين. وهكذا أجهدت نفسها فى العمل. راحت تطهو ضلوع البتلو حتى يحيل لونها إلى البنى ثم تقطعها شرائح رفيعة للغاية، حتى يبرز منها نكهات الأرض والكرنب ولحم الخنزير، ثم تضيف إلى الطبق قطعتين من البطاطس الصغيرة، وكومة من الخضرة، ثم ملعقة من الفاصوليا البيضاء المعجونة بالثوم المقلى. اخترعت وصفات سجق أبيض جديدة فاخرة. خلطت البطاطس المشوية والرابينى المُر بقطع لحم الخنزير التى اشترتها مباشرة من مزارع عضوى تعود مزرعته إلى الستينيات، كان يقطع اللحم بنفسه

ويجهزه على التسليم مباشرة. اصطحبت الرجل إلى الغداء وزارت مزرعته فى مقاطعة لانكستر وقابلت الخنازير المعنية، وفحصت طعامها (خضار مسلوق وأجنحة دجاج وذرة وكستناء) وجالت بالحجرة عازلة الصوت التى يتم ذبحها فيها. أخذت تعهدات من طاقم عملها القديم فى "مارى سكورو". أخذت زملاء سابقين لها إلى مطعم براين وتذوقت أطباق حلوى هنا وهناك لترى إن كان هناك شيف حلوى يستحق أن تسرقه من هذا المطعم أو ذاك. أعدت أطباق أرز بالخلطة فى دلاء سعة خمسة جالونات فى قبوها. أعدته بالكرنب الأحمر وبصنوص الكرنب، وبالتوت والفلفل. وكانت تستعجل تخمير الخبيز بإشعال مصابيح مائة وات.

ما زال براين يتصل بها كل يوم، لكنه لم يعد يأخذها فى جولات بسيارته الفولفو، ولا يشغل لها الموسيقى. وراء أسئلته المهذبة أحست بقدر متناقص من الاهتمام. أوصت بأن يتولى صديق قديم لها، هو روب زيتو، إدارة الجينيريتور، وعندما أخذهما براين إلى الغداء، جلس معهما نصف ساعة. كان عنده موعد فى نيويورك.

ذات ليلة اتصلت به دينيس فى البيت وبدلاً منه ردت عليها روبن باسافارو. عبارات روبن المقتضبة "نعم" "طيب" "سأخبره" "طيب"، أصابت دينيس بالاستياء لدرجة أنها تعمدت أن تطيل مدة الحديث إليها. سألتها إن كان مشروع الحديقة على ما يرام.

قالت روبن: "لا بأس. سأخبر براين أنك اتصلت".

"هل يمكن أن أزورك؟"

ردت روبن بوقاحة بلا مواربة: "لماذا؟"

قالت دينيس: "هذا شيء تحدث عنه براين (هذه كذبة، نادراً ما

ذكر الموضوع أمامها) إنه مشروع مدهش (فى الواقع يبدو يوتوبيًا ولا فائدة منه) "وكما تعرفين، أنا أحب الخضراوات".

"أه طيب".

"ربما السبت إذن بعد الظهر؟"

"وقتما تشائين".

بعد لحظة صفعت دينيس السماعة مغلقة الخط. كانت غاضبة، من بين أشياء أخرى، من كم بدت مزيفة أمام نفسها. قالت: "كان بإمكانى أن أضاجع زوجك. واخترت ألا أفعل! ما رأيك فى شىء من الصداقة؟"

ربما لو كانت أفضل كانت لتترك روبن لحالها. ربما كانت تريد أن تحمل روبن على حبها لتحرمها من متعة كراهيتها، أن تربح مسابقة التقدير هذه. ربما كانت تبدأ ببساطة فى مبارزة. لكن الرغبة فى أن تحبها كانت حقيقية. كان يطاردها إحساس أن روبن كانت فى الحجرة معها هى وبراين، ذلك الإحساس الانفجارى بأن روبن داخل جسدها.

فى السبت الأخير من موسم البيسبول طهت فى البيت لمدة ثمانى ساعات، أعدت سمكًا وستة أنواع من السلطة وعصائر وصوص كبدة سوتيه مطهية بخمور جيدة. فى ساعة متأخرة من اليوم خرجت لتتمشى فوجدت نفسها تتجه غربًا، وتعبر شارع "برود" إلى جيتو بوينت بريز، حيث مشروع روبن.

كان الطقس جيداً. بدايات الخريف فى فيلادلفيا تأتى مصحوبة برائحة ماء البحر ومياه الجزر، وانحسار الحرارة تدريجيًا، وإرخاء الرطوبة قبضتها على الهواء التى كانت تهيمن على الشاطئ طوال

الصيف. مرت دينيس بسيدة عجوز ترتدى معطفًا منزليًا تراقب رجلين مغبرين يُنزلان بقالة من صندوق سيارة. ها هنا بيوت خفيفة من الخشب ستائرها من ملاءات السرير.

لم تبال دينيس إن كانت ستقابل روبن أم لا. الأفضل أن تسجل هدفها بهدوء وخفة، أن تدع روبن تكتشف من براين أنها مرت بالمشروع.

وصلت إلى مربع سكنى فيه أكوام من الأجمة الكبيرة ومزروعات ذابلة. على الركن البعيد من البلوك، وراء البيت الوحيد المتبقى فيه، كان هناك من يعمل فى تربة صخرية بجاروف.

الباب الأمامى للبيت الوحيد مفتوح. هناك فتاة سوداء فى سن الجامعة تجلس على مائدة إلى جوارها كنبة كبيرة وسبورة بعجلات مكتوب عليها قائمة من الأسماء (لاتيشا، لاتويا، تيريل) بعدها قوائم من "الساعات إلى الآن ـ الدولارات إلى الآن".

قالت دينيس: "أبحث عن روبن".

أشارت الفتاة برأسها نحو الباب الخفى المفتوح للبيت. "إنها فى الخلف".

كان البستان هادئًا مسالمًا. لا يبدو أن أى شىء قد زُرع هنا ونمى غير البطيخ والشمام، ثم هناك خطوط طويلة من شجر العنب، وروائح التراب والطين، ونسمة البحر الخريفية.. كلها أشياء محملة ثقيلاً بذكريات الطفولة.

كانت روبن تعمل بالجاروف فى حوض صغير. لها ذراعين نحيلين سريعة الحركة، تنقل بالجاروف كميات قليلة من التربة، بسرعة، بدلاً من نقلات كبيرة بطيئة. كانت ترتدى إيشارب أسود وتى شيرت

متسخًا للغاية مكتوبًا عليه: "حضانة كواليتى: ادفع الآن أو ادفع لاحقًا". لم تبد عليها الدهشة ولا السرور عندما رأت دينيس.

قالت دينيس: "هذا مشروع كبير".

هزت روبن رأسها وأمسكت الجاروف بيديها وكأنها تؤكد لها أنها تشعر بأن هناك من قاطعها.

قالت دينيس: "أترغبين فى بعض المساعدة؟"

"لا. كان المفترض أن تساعدنى البنات، لكن هناك مباراة إلى جوار النهر. أنا أنظف المكان لا أكثر".

فى الأرض شظايا من الطوب والرخام، وبقايا من بلاط الأسطح، وفضلات قطط جافة وزجاجات باكاردى ويونجلينج مهشمة.

قالت دينيس: "ماذا تزرعين إذن؟"

هزت روبن رأسها ثانية: "شىء لن يدهشك".

"مثل ماذا؟"

"مثل الزوتشينى واليقطين".

"أنا أطهو الاثنين".

"حقًا".

"من هى تلك الفتاة؟"

"عندى مساعدتان تعملان نصف يوم أدفع لهما راتبًا. سارة فى السنة الأخيرة بجامعة تيمبل".

"ومن الفتيات المفترض أن يكنّ هنا؟"

"بنات الجيران، بين الثانية عشرة والسادسة عشرة". خلعت روبن نظارتها ومسحت العرق عن وجهها فى كُمها المتسخ. نسيت دينيس أو لم تلاحظ من البداية، كم أن فمها جميل. "يحصلون على حد أدنى من الأجر بالإضافة إلى خضراوات، بالإضافة إلى نصيب من أى نقود نجنيها".

"هل تخصمين النفقات؟"

"فى هذا إحباط لهن".

"نعم".

نظرت روبن بعيدًا، إلى الشارع، إلى صف المبانى الميتة بأسوارها المعدنية. "يقول براين أنك تحبين المنافسة للغاية".

"حقًا؟"

"قال إنه لا يجرؤ على أن يلاعبك ريست".

أجفلت دينيس.

"قال إنه لا يريد أن يتخيل نفسه الطاهى الآخر فى المطبخ معك".

قالت دينيس: "لا خطر فى ذلك".

"قال لا يريد أن يلعب معك سكرابل".

"نعم".

"قال إنه لا يريد أن يلعب معك بنك الحظ".

خطر لدينيس أن هذا يكفى.

قالت روبن وهى تزفر بقوة: "المهم".

"نعم، المهم".

قالت روبن: "لم أذهب لباريس لأننى رأيت إيرين صغيرة على الرحلة. كانت سينيد مستمتعة بوقتها فى مخيم الفن. وعندى عمل كثير هنا".

"أتفهم هذا".

"وأنتما كنتما ستتحدثان عن الطعام طوال اليوم. وقد قال براين إنها رحلة عمل. وهكذا".

رفعت دينيس عينيها عن الطين لكن لم تتمكن من النظر إلى روبن فى عينيها بوضوح: "نعم كان عملاً".

قالت روبن وشفتها ترتعد: "ما علينا!"

فى سماء الحى سحابات بلون النحاس تنسحب إلى جهة الشمال الغربى. هى لحظة تحول زرقة السماء إلى اللون الرمادى، عندما يتوازن تماماً وهج الليل وضوء النهار.

قالت دينيس: "أتعرفين، أنا غير مهتمة حقًا بالرجال".

"عفواً؟"

"قلت لم أعد أنام مع الرجال. منذ طلاقى".

قطبت روبن جبينها وكأن لا معنى لكلامها: "هل يعرف براين هذا؟"

"لا أعرف. فلم أخبره".

فكرت روبن فى كلامها للحظة ثم بدأت تضحك. قالت: "هى هى هى! ها ها ها!" كانت ضحكتها ملء حلقها، فيها إحساس بالحرج،

وفى الوقت نفسه، كما خطر لدينيس، عذبة. تردد صدى الضحكة وسط البيوت صدئة الجدران. قالت: "يالبراين المسكين، براين المسكين!"

فجأة أصبحت روبن أكثر ودًا. وضعت الجاروف على الأرض وجالت بدينيس فى البستان. وصفته بـ "مملكتى المسحورة". بعد أن اكتشفت أن دينيس مهتمة بالكلام، خاطرت بإضفاء روح من الحماس على الكلام. ها هنا منطقة زراعة الأسبرجوس، هنا خطان من الكمثرى وأشجار تفاح تتمنى أن تثمر، وهنا محاصيل عباد الشمس والبطيخ واللفت. زرعت المحاصيل المؤكد نجاحها هذا الصيف، أملاً فى أن تجتذب مجموعة من المراهقين من المنطقة وتكافئهم على العمل على تحضير التربة ومد أنابيب الرى وتعديل الصرف وتوصيل براميل المطر بسطح البيت.

قالت روبن: "هذا بالأساس مشروع أنانى. لطالما رغبت فى بستان كبير، والآن بدأ كل أهل المدينة يفكرون فى العودة إلى حياة المزرعة. لكن الأولاد الذين يحتاجون حقًا للتعلم ومعرفة مذاق الطعام الطازج هم من لا يساعدون هنا. إنهم أولاد أشقياء، يشربون المخدرات، يمارسون الجنس، أو يعلقون فى المدارس حتى السادسة مع الكمبيوتر. لكنهم أيضًا فى سن يستمتع باللعب فى الطين".

"لكن ليس طبعًا كمتعة الجنس أو المخدرات".

قالت روبن: "ربما ليس بالنسبة لتسعين فى المائة من الأولاد. أريد توفير شىء ما للعشرة فى المائة المتبقين. بديل ما ليس فيه كمبيوتر. أريد أن تكون سينيد وإيرين مع أولاد ليسوا مثلهما. أريدهما أن تتعلما العمل الشاق. أريدهما أن تعرفا أن العمل ليس مجرد نقر على الماوس".

قالت دينيس: "هذه فكرة تستحق الإعجاب".

تخيلت روبن أن فى كلامها سخرية فقالت: "ما علينا".

جلست دينيس فيما ذهبت روبن لتغتسل وتغير ثيابها. ربما السبب أن بإمكانها أن تعد على أصابع يد واحدة مساءات السبت الخريفية التى قضتها خارج المطبخ منذ كانت فى العشرين، أو ربما بسبب جزء عاطفى منها أعجبته مثل الإخاء والمساواة التى يراها كلاوس فون كيبل مزيفة، لكن الكلمة التى تريد أن تصف بها روبن باسافارو التى عاشت فى مناطق فيلادلفيا الحضرية طيلة حياتها أنها "من الغرب الأوسط". وبهذا تعنى: متفائلة وحماسية ومهتمة بالمجتمع.

لم تكن تهتم كثيرًا لمسألة أن تحبها. عندما خرجت روبن وأوصدت البيت، سألتها دينيس إن كان لديها وقت للعشاء.

قالت روبن: "براين ووالده أخذا البنات إلى مباراة البيسبول. سوف يعودون للبيت وقد تناولوا ما يكفى من طعام الاستاد. إذن، بالطبع، لنتناول العشاء".

قالت دينيس: "عندى أشياء فى مطبخى، هل تمانعين؟"

"أى شىء، لا يهم".

عادة إذا دعاك طاه إلى العشاء، تعتبر نفسك محظوظًا وتسارع بإظهار سعادتك. لكن يبدو أن روبن مصممة على ألا تُبدى التأثر.

أرخى الليل سدوله. الهواء فى شارع كاثرين رائحته رائحة آخر أسابيع دورى البيسبول. فى الطريق شرقًا حكت روبن لدينيس حكاية شقيقها بيلى. كانت دينيس قد سمعت الحكاية من براين، لكن هناك أجزاء فى رواية روبن كانت جديدة عليها.

قالت: "انتظرى، براين باع البرنامج لشركة (و...)، ثم هاجم بيلى نائب رئيس شركة (و...)، وأنت تعتقدين أن هناك صلة؟"

قالت روبن: "نعم، هذا هو المرعب فى الموضوع".

"لم يذكر براين لى ذلك الجزء".

الصخب ينساب من روبن: "لا أصدق! هذا أصل الموضوع! يا ربى، هكذا عهده، ألا يذكر جوهر هذا الموضوع. لأن ذلك الجزء قد يصعب الأمور عليه، كما ترين. قد يعترض هذا طريق استمتاعه بوقته فى باريس، أو غدائه مع هارفى كيتل، أو أى شىء. لا أصدق أنه لم يذكر لك ذلك الجزء".

"أوضحى لى المشكلة".

قالت روبن: "ريك فلامبورج أصيب بالعجز الدائم. أخى فى السجن لمدة عشرة أعوام إلى خمسة عشر عامًا، وهذه الشركة الرهيبة تدمر مدارس المدينة، وأبى يتعاطى مضادات اكتئاب، وبراين يأتى ولسان حاله: انظرى كيف ساعدتنا شركة (و...) تعالى ننتقل إلى موندوسينو!"

قالت دينيس: "لكنك لم تفعلوا أى خطأ. لستم مسئولين عن أى شىء فعله آخرون".

التفتت روبن إليها ونظرت فى عينيها: "ما فائدة الحياة؟"

"لا أعرف".

"ولا أنا. لكن لا أعتقد أن هدفها هو الفوز".

تسيران فى صمت. دينيس التى يهمها الفوز لاحظت فى استياء أن براين المحظوظ تزوج امرأة ذات مبادئ وروح عالية.

كما لاحظت أن روبن لم تبد لها مخلصة للغاية.

حجرة معيشة دينيس تحتوى على الأشياء القليلة المتبقية بعد أن أخلى إميل الشقة منذ ثلاثة أعوام. فى سباقها على إنكار الذات، فى عطلة الدموع، كانت دينيس تتفوق عليه بالإحساس بقدر أكبر من الذنب، الذى كان قد وافق بالفعل على أن تحتفظ هى بالبيت. فى النهاية نجحت فى أن تقنع إميل بأن يأخذ كل متاع مهم تحبه أو تقدره، وأشياء أخرى كثيرة لا تحبها لكن كانت نافعة.

فراغ البيت أصاب بيكى هيمرلينج بالاشمئزاز. بيت بارد، بيت كاره، وكأنه دير.

علقت روبن قائلة: "حلو وفارغ".

أجلستها روبن على نصف مائدة تنس الطاولة التى تعتبرها مائدة المطبخ، وفتحت زجاجة نبيذ ثمنها خمسون دولارًا، وبدأت تطعمها. نادرًا ما أحست دينيس بالضيق من وزنها، لكنها كانت لتصبح بدينة فى شهر إن أكلت مثل روبن. شاهدت فى إعجاب كيف راحت ضيفتها تلتهم بسرعة قطعتى كبدة كبيرتين وسجق أعدته فى البيت، وكيف تذوقت كل نوع من أنواع السلطة، وكيف نثرت الزبد على قطعة الخبز الأسمر الثالثة التى تتناولها.

أما هى فكانت متوترة، هناك فراشات فى بطنها، فلم تأكل أى شىء تقريبًا.

قالت روبن: "سان جود من قديسينى المفضلين. هل أخبرك براين أننى أذهب إلى الكنيسة؟"

"نعم، ذكر ذلك الموضوع".

"أنا واثقة أنه فعل. واثقة إنه متفهم للغاية وصبور!" صوت روبن صاخب ووجهها أحمر من النبيذ. أحست دينيس بضيق فى صدرها. "المهم، من مزايا الكاثوليكية أن يصبح لديك قديسين، مثل سان جود".

"أليس سان جود هو القديس راعى القضايا الخاسرة؟"

"بالضبط. ما فائدة الكنيسة دون رعاية القضايا الخاسرة؟"

قالت دينيس: "أشعر بالشىء نفسه تجاه الفرق الرياضية. إن الفائزين لا يحتاجون إلى مساعدتك".

أومأت روبن موافقة وقالت: "تعرفين قصدى. لكن الحياة مع براين تدفعك للاعتقاد أن هناك خطأ بالغًا فى الخاسرين. ليس لأنه كثير الانتقاد، لا، فهو دائمًا متفهم وصبور ومحب. براين رائع! ليس هناك عيب فى براين! القصة وما فيها أنه فائز بالسليقة. وأنا لست فائزة على نفس الشاكلة. ولا أريد أن أكون كذلك حقًا".

ما كانت دينيس لتتحدث عن إميل بهذه الطريقة كما تتحدث روبن عن براين. ولا تجرؤ على هذا الآن حتى.

قالت روبن: "لكنك من النوع الطيب من الفائزين. لهذا رأيت فيك بصراحة بديلة لى. رأيتك بديلتى وستحلين محلى مع براين".

"لا".

أصوات روبن السعيدة: "هى هى هى!"

قالت دينيس: "دفاعًا عن براين. لا أعتقد أنه يتطلع للثراء الفاحش. تكفيه حياة البرجوازية".

قالت روبن: "لا أتحمل الحياة البرجوازية. أريد بيتًا كهذا. يعجبنى أن مائدة مطبخك هى نصف مائدة تنس طاولة".

"أبيعها لك بعشرين دولارًا".

"براين رائع. أريد أن أمضى باقى حياتى معه، هو أبو بناتى. أنا المشكلة، أنا غير المتسقة مع البرنامج. أنا من تحتاج للمساعدة. اسمعى، هل لديك جاكيت؟ أنا بردانة".

أحضرت دينيس معطفها الجينز المفضل، من منتجات ليفايس، له حز من الصوف، ولاحظت كم هو كبير على ذراعى روبن الأصغر، وكيف أحاط بكتفيها الأنحل، وكأنه معطف لاعب كرة ترتديه حبيبته الصغيرة.

فى اليوم التالى، وهى ترتدى المعطف نفسه، وجدته أنعم وأخف مما تتذكر. شدت ياقته واحتضنت نفسها.

مهما عملت ذلك الخريف، كان عندها وقت فراغ أكبر وجدول أكثر مرونة عن سنواتها الماضية. بدأت تمر على المشروع ومعها طعام من مطبخها. ذهبت إلى بيت براين وروبن فى شارع بنما، ووجدت أن براين ليس فى البيت، وجلست معهم ذلك المساء. بعد بضع ليالى، عندما عاد براين للبيت واكتشف وجودها فى المطبخ وهى تخبز مع البنات، تصرف وكأنه رآها فى المطبخ مائة مرة من قبل.

غزوتها التالية فى شارع بنما كانت سينيد، القارئة الجادة. أخذتها دينيس للتسوق أيام السبت، واشترت لها حلى رخيصة وصندوق مجوهرات إيطالى، وألبومات ديسكو من أواسط السبعينيات ، وكتبًا قديمة مصورة عن الملابس والقطب الجنوبى

وجاكى كينيدى وبناء السفن. ساعدت سينيد على اختيار هدايا أكبر وأكثر بريقًا لإيرين. سينيد، مثل والدها، ذات ذوق معصوم من الخطأ. ترتدى بنطلون جينز أسود وجيبات قصيرة وحلى فضة وسلاسل بلاستيكية أطول من شعرها الطويل للغاية. فى مطعم دينيس، بعد التسوق، كانت تقشر البطاطس بدقة بالغة أو تساعد فى الخبيز بينما الطاهية تحضر أطباقًا للأطفال: قطع من الكمثرى، وشرائح مورتاديلا منزلية الصنع، ولحم ضآن بالريفيولى بزيت الزيتون وعليه نعناع، ومكعبات من الذرة المهروسة المقلية.

وفى مرات نادرة، مثل حفلات العرس، عندما كانت روبن وبراين تذهبان معًا إلى مكان واحد، كانت دينيس تجالس البنات فى شارع بنما. علمتهما كيف تحضران الباستا بالسبانخ وكيف ترقصان التانجو. راحت تنصت إلى إيرين وهى تتلو عليها أسماء رؤساء الولايات المتحدة بالترتيب، وانضمت إلى سينيد فى الهجوم على أدراج الملابس بحثًا عن أزياء تنكرية.

قالت سينيد: "سوف أكون أنا ودينيس علماء إثنولوجى. وأنت يا إيرين يمكن أن تكونى من جماعة الهمونج الإثنية"

وهى تراقب سينيد توضح لإيرين أسلوب حياة سيدات الهمونج، وهى تراقبها ترقص على نغمات دونا سامر رقصة هادئة فيها حد أدنى من الحركات، لا تكاد ترفع كعبيها عن الأرض، وتحرك كتفيها وتدع شعرها يتهدل على ظهرها (وإيرين طوال الوقت تؤدى حركات كالمصاب بنوبة صرع)، أحبت دينيس الفتاة وأبوى الفتاة على سحر تربية الأطفال الذى حملوها به.

كانت روبن أقل انبهارًا. قالت: "بالطبع هما تحبانك. أنت لا تحاولين تصفيف شعر سينيد، ولا تجادلينها لمدة عشرين دقيقة عن

كيفية تسوية السرير. ولم ترى من قبل درجات امتحان سينيد فى الرياضيات".

قالت راعية الأطفال المبهورة: "أليست درجات جيدة؟"

"إنها مقرفة. ربما نهددها بألا تراك بعد الآن إن لم تتحسن".

"لا تفعلى هذا".

"ما رأيك فى مساعدتها فى القسمة الطويلة".

"سوف أفعل أى شىء".

ذات أحد فى نوفمبر، والأسرة المكونة من خمسة أفراد تسير فى فيرمونت بارك، قال براين لدينيس: "روبن بدأت تحبك حقًا. لم أكن واثقًا أنها ستفعل".

قالت دينيس: "أنا أحب روبن كثيرًا".

"اعتقدت فى البداية أنها تشعر بالخوف منك".

"لديها أسباب جيدة لذلك، أليس كذلك؟"

"لم أخبرها بأى شىء يومًا".

"شكرًا لك على هذا".

كانت دينيس تدرك أن الخصال التى تؤهل براين لخيانة روبن - إحساسه بالاستحقاق وقناعاته بأن أى كان ما يفعله فهو الخير الذى نريده جميعًا - سيجعل خيانته سهلة أيضًا. تشعر دينيس بنفسها امتدادًا لـ "روبن" فى عقل براين، وبما أن "روبن" تتمتع بتقدير "عظيمة" دائمًا فى عقل براين، فليس مطلوبًا منها أو من "دينيس" أى قلق منه.

بدا أن براين يضمر قدرًا مطلقًا من الثقة فى صديق دينيس، روب زيتو، الذى سيشرف على الجينيريتور. كان براين على اطلاع دائمًا، لكن مع زيادة برودة الطقس أصبح غائبًا. تساءلت دينيس إن كان قد وقع على أنثى أخرى، لكن تبين أن الحبيبة الجديدة هى مخرج أفلام مستقل اسمه جيرى شوارتز، وكان معروفًا بذوقه الرائع فى اختيار الموسيقى التصويرية، ومهارته فى العثور على تمويل لمشروعاته الفيلمية. براين المعجب بموسيقى شوارتز التصويرية سقط كملاك بينما كان شوارتز يبدأ فى مشروع تصوير فوتوغرافى لصالح فيلم يعد له عن "الجريمة والعقاب" بنزعة حداثية، حيث يلعب جيوفانى ريبيسى دور رسكولنيكوف، ورابيسى أناركى شاب ومحب للموسيقى يعيش فى أوساط الأندرجراوند فى شمال فيلادلفيا. عندما كانت دينيس وروب زيتو يتخذان قرارات الإضاءة فى الجينيريتور، كان براين قد انضم إلى شوارتز وريبيسى وشركاهما، وراحوا يتبادلون ألبومات الموسيقى ويتناولون العشاء فى مطعم باستيس فى نيويورك، مع شوارتز وجريل ماركوس أو ستيفن مالكموس.

دون أن تدرك، تخيلت دينيس أنه لم تعد هناك حياة جنسية بين براين وروبن. وهكذا ففى ليلة العام الجديد، عندما كانت مع أربعة أزواج وأربع زوجات آخرين ومجموعة كبيرة من الأطفال متجمعين فى بيت شارع بنما، ورأت براين وروبن يتبادلان القبلات فى المطبخ بعد منتصف الليل، أخذت معطفها من قعر كومة المعاطف وهربت من البيت. ولأكثر من أسبوع كانت فى ألم لم يسمح لها بالاتصال بروبن أو رؤية البنتين. هى ضعيفة أمام السيدات السويات غير الشاذات، المتزوجات من رجال تود لو تتزوجهم. هذه قضية خاسرة. سان جود جاب، سان جود أخذ، سان جود عليه العوض.

أنهت روبن تجميد دينيس للموقف بأن اتصلت بها. راحت تصرخ فى أذنها بجنون: "هل تعرفين موضوع فيلم جيرى شوارتز؟"

"آه.. دستويفسكى فى فيلادلفيا؟"

"إذن أنت تعرفين. كيف لم أعرف أنا؟ لأنه أخفى الموضوع عنى، لأنه يعرف رأيى فى الموضوع!"

قالت دينيس: "الموضوع باختصار أن جيوفانى ريبيسى سيؤدى دور رسكولنيكوف بلحية خفيفة، شىء من هذا القبيل".

قالت روبن: "استثمر زوجى خمسين ألف دولار، وقد أخذها من شركة "و..." فى فيلم عن أناركى من شمال فيلادلفيا يشج رأس سيدتين ويدخل السجن لهذا السبب! يتحدث عن كم هو رائع أن يخرج مع جيوفانى ريبيسى وجيرى شوارتز، وآيان أبصر أيه، وستيفن ما أعرف أيه، بينما شقيقى الأناركى من شمال فيلادلفيا فتح رأس شخص آخر فعلاً".

قالت دينيس: "نعم فهمت، الموضوع يحتاج للتعامل بحساسية طبعًا".

قالت روبن: "لا أعتقد هذا حتى. أعتقد أنه غاضب منى ولا يريدنى أن أعرف".

منذ ذلك اليوم أصبحت دينيس داعية خبيثة إلى الرذائل. عرفت أنها بالدفاع عن أخطاء براين الصغيرة فهى تدفع روبن إلى اتهامه باتهامات أكبر توافقها عليها فيما بعد على استحياء. راحت تنصت وتنصت. اهتمت بفهم روبن أفضل من أى شخص آخر. راحت تمطر روبن بالأسئلة التى لا يسألها براين: عن بيلى ووالدها والكنيسة

وخططها لمشروع الحديقة، وعن المراهقين الستة الذين انشغلوا بالمشروع، وعن الحكايات الرومانسية والأكاديمية الصغيرة الخاصة بمساعداتها الصغيرات. حضرت ليلة معرض البذور فى المشروع وتعرفت على صبية روبن المفضلين وجهًا لوجه. ساعدت سينيد فى القسمة الطويلة، وناقشت روبن فى اتجاه نجوم الأفلام والموسيقى الشعبية والموضة، وهى القضايا الأسوأ فى حياة روبن الزوجية. تبدو للأذن غير المدربة وكأنها تدفع ببساطة من أجل صداقة أقوى، لكنها رأت روبن وهى تأكل، وتعرف جوع هذه السيدة.

عندما أدت مشكلة فى المجارى إلى تأخير افتتاح الجينيريتور، انتهز براين الفرصة وحضر مهرجان أفلام كالامازو مع جيرى شوارتز، وانتهزت دينيس الفرصة فى الخروج مع روبن والبنات خمس ليالٍ متعاقبة. فى الليلة الأخيرة راحت تعانى فى محل تأجير أفلام الفيديو. استقر اختيارها أخيرًا على فيلم "انتظر حتى الظلام" (ذكر مقزز يهدد أودرى هيبورن واسعة الحيلة، التى تشابه دينيس لامبرت إلى حد ما) و"شىء جامح" (ميلانى جريفيث الشقية اللعوب الجميلة تحرر جيف دانييلز من زواج ميت). العناوين فى حد ذاتها أدت لاحمرار وجه روبن من الخجل، عندما وصلت بالأفلام إلى شارع بنما.

بين الفيلمين، بعد منتصف الليل، شربتا الويسكى على كنبة حجرة المعيشة، وفى صوت حاد غير معهود فى روبن طلبت الإذن بأن تسأل دينيس سؤالاً شخصيًا. قالت: "كم مرة، فى الأسبوع مثلاً، كنت أنت وإميل تنامان مع بعض؟"

أجابت دينيس: "لست أنا من تسألينها عن أشياء عادية. لا أبدو طبيعية إلا فى المرآة".

قالت روبن وهى تحدق باهتمام فى شاشة التليفزيون الزرقاء: "أعرف أعرف. لكن ما هو المعدل الطبيعى فى رأيك؟"

قالت دينيس: "أعتقد أننى أحيانًا، يعنى، أشعر أن" قولى لها مرات كثيرة، كثيرة "ربما ثلاث مرات أسبوعيًا يعتبر طبيعيًا".

تنهدت روبن بصوت مسموع. كانت بوصة أو اثنتين من ركبتها اليسرى تستقر على ركبة دينيس اليمنى. قالت: "أخبرينى ببساطة كم مرة فى رأيك تعتبر طبيعية".

"بالنسبة لبعض الناس، مرة واحدة يوميًا تبدو طبيعية".

روبن تتحدث بصوت من تضغط على مكعب ثلج بين ضرسين: "هذا جيد، لا يبدو هذا سيئًا فى رأيى".

خدر واحتراق فى الجزء المتماس من ركبة دينيس مع ركبة روبن.

"أرى إذن أن ليس هذا هو الوضع الحالى بينكما".

قالت روبن من بين أسنانها: "مرتين شهريًا. مرتين شهريًا!"

"هل تعتقدين أن روبن يخونك؟"

"لا أعرف ماذا يفعل. لكن الموضوع يخصنى أيضًا. أشعر كأننى عجيبة من عجائب الطبيعة".

"لست كذلك، بل العكس".

"ما الفيلم الآخر؟"

"شىء جامح".

"طيب. ما علينا. دعينا نتفرج عليه".

على مدار الساعتين التاليتين، كانت دينيس منتبهة بالأساس إلى يدها، التى وضعتها على الكنبة على مسافة قريبة من يد روبن. لم تكن يداها مرتاحة هكذا، تريد أن تنسحب، لكنها لم تستسلم وتتراجع عن هذه الأرض التى ربحتها بالجهد والعرق.

عندما انتهى الفيلم شاهدتا التليفزيون، ثم حل الصمت لفترة طويلة للغاية، خمس دقائق أو سنة، وما زالت روبن لم تأخذ الطعم الدافئ خماسى الأصابع. كانت دينيس لترحب بشىء من الجنس الذكورى الخشن الآن. مثل إحساسها فى الفترة قبل أن يمسك بها براين فى الفندق.

فى الرابعة صباحًا وقد ملت من التعب والانتظار، نهضت لتغادر. ارتدت روبن حذاءها والمعطف الرياضى البنفسجى النايلون، ومضت معها إلى سيارتها. هنا أخيرًا أمسكت بيد دينيس بكلتا يديها. دعكت راحة يد دينيس بأصابعها الجافة، أصابع المرأة التى تقدمت فى العمر. قالت إنها مسرورة لأن دينيس صديقتها.

حافظى على الخط الذى رسمته، كونى كشقيقتها. دينيس سعيدة.

قالت: "أنا بدورى سعيدة".

صدر عن روبن ذلك الصوت الذى تعتبره دينيس حالة مركزة من انعدام الثقة "هى هى هى!" نظرت إلى يد دينيس وكانت قد تكورت بين يديها. "ألن تكون مفارقة مدهشة لو كنت أنا من أخون براين؟"

قالت دينيس دون وعى منها: "يا ربى".

قالت روبن وهى تحيط سبابة دينيس بأصابعها وتضغط عليها بقوة، فى نبضات: "لا تقلقى، أنا أمزح".

حدقت دينيس فيها. هل تسمعين ما تقولينه؟ هل تدركين ما تفعلينه بإصبعى؟

ضمت روبن اليد إلى فمها وعضتها بشفتيها، وكأنها تمضغها على مهل، ثم تركتها وابتعدت. كانت تقف متوترة: "طيب سلام".

فى اليوم التالى عاد براين من ميتشجن وأنهى هذا الحفل.

***

سافرت دينيس إلى سان جود فى عطلة عيد الفصح الطويلة، وراحت إنيد وكأنها بيانو لعبة ليست فيه إلا مقطوعة واحدة تتحدث كل يوم عن صديقتها القديمة نورما جرين وتورط نورما جرين المأساوى مع رجل متزوج. أشارت دينيس لكى تغير الموضوع لأن ألفريد أفضل حالاً وأكثر انتباهًا عن الصورة التى نقلتها لها إنيد عنه فى رسائلها وفى اتصالاتها أيام الأحد.

عارضتها إنيد قائلة: "إنه يتماسك وأنت هنا معنا. عندما نكون وحدنا، يصبح مستحيلا".

"عندما تكونان معًا وحدكما ربما تصبحين أكثر تركيزًا عليه وعلى هفواته".

"دينيس، إن كنت تعيشين مع رجل يعيش طوال النهار فى مقعده".

"أمى، كلما زادت شكواك زادت مقاومته".

"أنت لا تعرفين حالنا لأنك لا تقضين هنا غير أيام قليلة. لكننى أعرف عم أتحدث. ولا أعرف ماذا أفعل".

خطر لدينيس: إن كنت أعيش مع إنسانة تنتقدنى دائمًا بشكل هستيرى فسوف أنام فى مقعد.

فى فيلادلفيا بعد أن عادت كان مطبخ الجينيريتور قد أصبح جاهزًا أخيرًا. عادت حياة دينيس إلى معدلات شبه طبيعية من الجنون بعد أن بدأت فى تجميع وتدريب فريق عملها، ودعت المرشحين النهائيين لمنصب شيف المخبوزات للتنافس أمامها فى نفس الوقت، وحلت الآلاف من مشكلات توصيل الطلبات وتحضير الجداول والمنتجات والتسعير. وبالنسبة للمطعم كمكان، وجدته مدهشًا مذهلاً كما توقعت تمامًا، لكن لأول مرة فى حياتها العملية أعدت منيو ملائمة فيها عشرين طبقًا رائعًا. كان الطعام أوروبيًا، هو حوار بين طعام باريس وبولونيا وفيينا، تأكيد على تفضيلها للنكهة على الكمية. حين رأت براين مرة أخرى، وليس كما تتخيله من خلال عيون روبن، تذكرت كم يعجبها. أفاقت إلى حد ما من أحلامها عن الغزو. أعدت نفسها للعمل وأعدت السكاكين وقالت لنفسها: العقل الخامل هو معمل الشيطان. إن كانت تعمل باجتهاد كما قدر لها الله أن تعمل، ما كانت لتحظى أبدًا بالوقت الكافى لأن تطارد زوجته.

دخلت فى حالة مزاجية من الإنكار الكامل، تعمل منذ السادسة صباحًا حتى منتصف الليل. كلما زادت الأيام التى تقضيها بعيدًا عن جسد روبن وحرارتها وجوعها، زاد استعدادها للاعتراف بكم هى تكره عصبية روبن وقصة شعر روبن الرديئة وثيابها الأكثر رداءة، وصوتها الصدئ وضحكتها المصطنعة وكونها بشكل عام خرقاء. أحست دينيس الآن بما هو وراء تجاهل براين لزوجته، وكلامه عنها بطريقة "آه، روبن رائعة". روبن رائعة، لكن إن كنت

متزوجًا منها، ربما تحتاج لبعض الوقت بعيدًا عن طاقتها المتوهجة، ربما تفضل الاستمتاع ببعض الأيام وحدك فى نيويورك، أو باريس، أو ساندانس.

لكن الضرر وقع لا محالة. سعى دينيس إلى الرذيلة ودفعها إليه كان قويًا. بإصرار مزعج خصيصًا لما يصاحبه من خجل واعتذارات، راحت روبن تطاردها. ذهبت إلى الجينيريتور. اصطحبت دينيس إلى الغداء. اتصلت بدينيس فى منتصف الليل لتثرثر معها عن أشياء نصف مهمة لدينيس، تظاهرت دينيس من قبل أنها مهمة للغاية بالنسبة لها. ذهبت إلى دينيس فجأة عصر يوم أحد وشربت معها الشاى على نصف مائدة تنس الطاولة، متوردة الوجه من الخجل، تضحك ضحكتها الـ "هى هى هى"ية.

كان جزء من دينيس يفكر وقد برد الشاى: اللعنة، أصبحت مهتمة بى فعلاً الآن. ذلك الجزء منها تأمل الظرف المرهق، وكأنه تهديد حقيقى بالضرر: إنها تريد الجنس كل يوم. نفس ذلك الجزء راح يفكر: يا ربى، انظر كيف تأكل. لست "سحاقية".

فى الوقت نفسه، كان جزء منها مشتعلاً بالرغبة. لم تر يومًا بشكل موضوعى فى الجنس مرضًا، كيف أنه تجميعة من الأعراض الجسدية، لأنها لم تكن يومًا مريضة كما أمرضتها روبن.

أثناء الثرثرة، ومن تحت مائدة تنس الطاولة، أمسكت روبن بقدم دينيس الحافية بين قدميها داخل الكوتشى الرياضى البنفسجى والبرتقالى. بعد لحظة مالت إلى الأمام وأمسكت بيد دينيس. أصبحت حمرة وجهها رهيبة، وكأنها فى خطر الموت.

قالت: "المهم، كنت أفكر...".

* * *

تم افتتاح الجينيريتور فى ٢٣ مايو، بعد عام بالضبط من بداية دفع براين راتب دينيس الضخم المبالغ فيه. تأخر الافتتاح أسبوعًا حتى يتمكن براين وجيرى شوارتز من حضور مهرجان كان. كل ليلة، وهو فى المهرجان، ترد دينيس سخائه وثقته بها بأن تذهب إلى شارع بنما وتنام مع زوجته. ربما أحست بعقلها المُتعب كعقل رأس خروف معلقة عند جزار شعبى فى الشارع التاسع، لكنها لم تشعر بالتعب أبدًا كما توقعت فى البداية. قبلة واحدة، يد على الركبة، فينهض جسدها مشتعلاً بالرغبة. أحست بأنها مطاردة، لا حيلة لها أمام شبح كل لقاء جنسى خبرته يومًا فى زواجها. أغمضت عينيها فى ظهر روبن، ومرغت خدها على كتفيها، وكانت تمسك بيديها نهدى روبن، مستديرين مسطحين خفيفين للغاية، أحست كأنها قطة صغيرة. نامت ساعتين ثم خرجت من بين ملاءات السرير وفتحت الباب الذى أوصدته روبن خشية زيارات إيرين وسينيد المفاجئة، ونزلت السلم وخرجت إلى فجر فيلادلفيا الرطيب وراحت ترتجف فى عنف.

كان براين قد وضع إعلانات غامضة قوية مثيرة للفضول للجينيريتور فى الجرائد الأسبوعية والمجلات الشهرية المحلية، لكن حضور ٢٦ شخصًا للغداء فى اليوم الأول و٤٥ فى العشاء لم يشغل مطبخ دينيس تمامًا. كانت حجرة طعام المطعم التى يتوهج فيها ضوء أزرق بارد، تسع ٤٠ شخصًا، وكانت مستعدة لتقديم الطعام لثلاثمائة شخص فى الليلة. جاء براين وروبن والبنتان للعشاء يوم السبت وتوقفوا قليلاً فى المطبخ. أحسنت دينيس التظاهر بأنها غير نادمة على شىء أمام البنتين، وأحسنت روبن التظاهر بأنها زوجة براين، وكانت رائعة بأحمر الشفاه والفستان الأسود الضئيل.

تدبرت دينيس أمر أحاسيسها بالذنب قدر الإمكان: ذكرت نفسها بأن براين خر على ركبتيه أمامها فى باريس، وبأنها لم تفعل شيئًا أسوأ من التلاعب بقواعده التى رسمها، وقد انتظرت روبن حتى أقدمت هى عليها. لكن هذه الحسبة الأخلاقية لا تفسر غياب أى إحساس بالندم لديها. فى حديثها مع براين أحست بالارتباك والبلادة. كانت تفهم معنى كلامه فى اللحظة الأخيرة، وكأنه يتحدث الفرنسية. عندها سبب لأن تبدو متوترة طبعًا، فهى تنام أربع ساعات يوميًا، وبعد قليل بدأ المطبخ ينشغل تمامًا، وكان براين الذى انشغل بأفلامه سهل الخداع كما توقعت. لكن "الخداع" ليس الكلمة المناسبة" ربما "الانفصال الذهنى" هى الكلمة الأنسب. علاقتها وكأنها حياة فى حلم تدور فى تلك المساحة المغلقة المعزولة فى عقلها، التى تعلمت داخلها وهى صغيرة فى سان جود، أن تخفى الرغبات.

انهمر الصحفيون الذين يكتبون عن المطاعم على الجينيريتور فى أواخر يونيو وكانوا يفارقون المطعم سعداء. تحدثت صحيفة الإنكويرر عن مجاز زواجى: "زفاف" المكان "الفريد تمام التفرد" إلى "طعام جاد ولذيذ بكل جدية" من دينيس لامبرت "الطامحة إلى الكمال". كان براين فى غاية السعادة، لكن ليس دينيس. خطر لها أن أسلوب الكتابة هذا يوحى بأن المكان مقرف متوسط الإمكانيات. أحصت فى المقال أربع فقرات عن المعمار والديكور، وثلاث فقرات عن لا شىء، وفقرتين عن الخدمة، وفقرة عن النبيذ، وفقرتين عن الحلوى، وسبع فقرات لا أكثر عن طعامها.

قالت فى غضب وقد أوشكت على البكاء: "لم يذكروا الكرنب الذى أحضره".

الحجوزات بأحجام كبيرة ليلاً نهارًا. تحتاج إلى العمل والعمل، لكن روبن تتصل بها فى النهار أو فى العصر على خط الشيف الخاص، صوتها متوتر خجول: كنت أتساءل، هل يمكن أن أراك اليوم دقيقة واحدة؟" وبدلاً من أن تقول لا، تقول دينيس نعم دائمًا. راحت ترجئ وتفوض غيرها فى التعامل فى أعمال حساسة، مثل أعمال الشىّ الصعبة، والمكالمات الهاتفية للموردين، كى تخرج لتقابل روبن فى أقرب حديقة. أحيانًا تجلسان على مقعد فى الحديقة بأيدى متشابكة فى الخفاء، ورغم أن المحادثات غير المتعلقة بالعمل أثناء ساعات العمل تصيب دينيس بنفاد الصبر الشديد، فإنها ناقشت إحساس روبن بالذنب وعدم إحساسها بأى ذنب، وما معنى أن يفعلن ما يفعلنه، وكيف حدث تحديدًا. لكن سرعان ما انحسرت هذه المحادثات. كان صوت روبن على خط الشيف الخاص لا يعنى لدينيس غير "لسان". لا تقول أكثر من كلمة أو اثنتين ثم تنفصل دينيس عن الوعى. لسان وشفتا روبن تستمر فى تشكيل الكلمات والتوجيهات ومطالب اليوم، لكن فى أذن دينيس لا تسمع إلا تلك اللغة الأخرى من الكلام والثرثرة واللف والدوران التى يفهمها جسدها ويطيعها بشكل تلقائى، أحيانًا تذوب من صوتها فتضطرب بطنها وتنحنى منكبة إلى الأمام، وعلى مدار الساعة التالية أو أكثر يختفى كل شىء من الوجود إلا اللسان والشفتان، لا جرد ولا موردين ولا متأخرات. تغادر الجينيريتور فى حالة من التنويم المغناطيسى والبلادة، صوت ضجيج العالم منخفض قريب من الصفر، ومن حسن الحظ أن سائقى السيارات الآخرين حولها يطيعون بشكل غريزى قوانين المرور الأساسية. كانت سيارتها كلسان ينزلق على أسفلت الشوارع الذائب، أقدامها كلسانين يلعقان

الرصيف، الباب الأمامى للبيت فى شارع بنما كفم يبتلعها، والسجادة فى الحجرة أمام حجرة النوم لسان يدعوها للداخل، والسرير بوساداته لسان كبير ناعم، ثم.

هذا موضوع جديد تمامًا بالنسبة إليها. لم ترغب دينيس يومًا فى أى شىء، ولا الجنس قطعًا، كما ترغب فى هذا الموضوع الآن. كان وصولها للنشوة وهى متزوجة وكأنه عمل من أعمال المطبخ المتعبة والضرورية من الحين للآخر. كانت تطهو أربع عشرة ساعة يوميًا وتسقط نائمة كثيرًا وهى فى ثياب العمل. آخر شىء تريده فى ساعة متأخرة من الليل هو اتباع وصفة معقدة تستهلك الوقت لتحضير طبق الجنس الذى تشعر بتعب يحول دون تمتعها به على كل حال. الحد الأدنى للتحضير بالنسبة لها للاستمتاع بهذا الطبق هو خمس عشرة دقيقة. حتى بعد ذلك، كان الطهى نادرًا ما تجده سهلاً ومباشرًا. المقلاة ساخنة زيادة عن اللزوم، الحرارة عالية، الحرارة قليلة، البصل يرفض أن يذوب أو يحترق فور وضعه فى المقلاة ويلتصق بقعرها، لابد من إبعاد المقلاة عن النار لتبرد قليلاً، وأن تبدأ من جديد بعد مناقشة مؤلمة مع شيف الصوص الذى اعتراه الغضب والإحساس بالألم، ثم تجمد قطع اللحم، ويفقد الصوص مذاقه بعد عمليات التسخين والتبريد العديدة، والوقت تأخر كثيرًا، وعيناك تحترقان، ولا بأس، مع الوقت والجهد الكافيين يمكن إتمام العمل، لكنه طبق تتردد فى تقديمه لأحد، تكفّى به نفسك فحسب ("طيب، خلاص، أنا انتشيت")، وتسقطين نائمة يعتريك الألم. الموضوع لا يستحق كل هذا الجهد إذن. لكنها كانت تبذل الجهد كل أسبوع أو اثنين لأن وصولها للنشوى مهم لإميل وهى تشعر بالذنب. يمكنها أن ترضيه دائمًا فى كل مرة بكل سهولة،

وبالفخرها وسعادتها بمهاراتها وخبراتها معها! لكن إميل يبدو أنه يرى أن الزواج بدون الارتعاشات القليلة والتنهدات الحارة من جانبها، هو زواج يعانى من مشكلة، ورغم أن ما حدث بعد ذلك أثبت له أنه صحيح مائة بالمائة، فلم يكن بوسعها إلا أن تشعر فى السنوات السابقة على بيكى هيمرلينج بقدر كبير من الذنب والضغط والكراهية لموضوع الفرج.

أما روبن فهى أكلة سلسة يسيرة التحضير. لا تحتاج لوصفة، لا تحتاج لتحضيرات معقدة، حتى تأكل برقوقة. ها هى البرقوقة، ها هى اللذة السهلة. أحست دينيس أحيانًا بهذا القدر من سهولة المتعة مع هيمرلينج، لكن الآن فقط، بعد أن بلغت الثانية والثلاثين من العمر، أدركت أسباب الجلبة التى تحيط بهذا الموضوع. ها هى وقد تذوقته أصبحت فى مشكلة. فى أغسطس ذهبت البنتان إلى مخيم صيفى وكان براين فى لندن، وكانت الشيف رئيسة مطبخ أهم مطعم جديد فى المنطقة تخرج من السرير لتجد نفسها على الأرض على السجادة، ترتدى ثيابها ثم تجد نفسها عارية، توشك على الفرار وهى فى الصالة ثم تجد نفسها تعود وظهرها لباب الخروج. تجرجر نفسها عائدة إلى مطبخها الذى وعدت بالعودة إليه خلال خمس وأربعين دقيقة، ساقاها كالجيلى لا تكاد تقدر على فتح عينيها. ليس هذا حسن. المطبخ يعانى. الطعام يتأخر فى الوصول للزبائن. قامت مرتين بإلغاء طبقين من المنيو لأن المطبخ من دونها عجز عن الوفاء بوقت تحضير الطعام اللازم. وما زالت تغادر المطبخ فى أوقات الذروة. تمر بالشوارع فى سيارتها إلى مشروع الحديقة، حيث مع روبن بطانية. وجدت أغلب الحديقة وقد أصبحت مروية على أكمل وجه وبدأت تظهر فيها المزروعات. الطماطم تنمو فى أحواض

قاعدتها من إطارات السيارات، أحواض صغيرة مجهزة للزراعة، وأضواء المدينة تنعكس بتنويعاتها على جلد ثمرات الباذنجان الوليدة، والفلفل اليانع والذرة، والكنتالوب. دينيس العارية وسط المدينة، تتمرغ مبتعدة عن البطانية إلى طين الليل البارد. تريح خدها على الأرض والتراب، تدفع أصابع روبن إلى الأرض.

قالت روبن محتجة: "لا، توقفى، توقفى، فهنا زرعنا الخس".

ثم عاد براين إلى البيت وبدأت المخاطرات الغبية. قالت روبن لإيرين إن دينيس مريضة وتحتاج للنوم فى السرير. ثم يبدأ حفل محموم فى حجرة خزين بيت شارع بنما بينما براين يقرأ للبنات قصة أطفال بصوت مسموع على أقل من مسافة عشرين قدمًا. وأخيرًا، فى الأسبوع السابق على عيد العمال، كانتا فى حجرة المديرة بموقع مشروع الحديقة، عندما تسبب ثِقل الجسدين المرتكز على مقعد مكتب روبن القديم فى كسر ظهره. كانتا تضحكان عندما سمعتا صوت براين.

قفزت روبن إلى قدميها وفضت قفل الباب ثم فتحته فى حركة واحدة، لتخفى أنه كان موصدًا. كان براين يحمل سلة من المزروعات الخضراء الصغيرة. كان مندهشًا لكن مسرورًا كعادته كلما رأى دينيس: "ماذا تفعلون هنا؟"

مالت دينيس على مكتب روبن، وكان قميصها خارج البنطلون. قالت: "مقعد روبن انكسر، وأنا أحاول إصلاحه".

قالت روبن متوترة: "سألت دينيس إن كان بإمكانها إصلاحه!"

سأل براين دينيس بفضول بالغ: "ماذا تفعلون هنا؟"

قالت: "فكرت فى نفس فكرتك: الزوتشينى".

"قالت سارة أن لا أحد هنا".

راحت روبن تبتعد: "سوف أذهب لأكلمها. يجب أن تعرف أننى هنا عندما أكون هنا".

سأل براين دينيس: "كيف كسرت روبن هذا المقعد؟"

قالت: "لا أعرف". كانت تشعر برغبة فى البكاء كالأطفال كلما أمسكها أحدهم فى وضع المذنبة.

أمسك براين بالنصف العلوى من المقعد. لم يكن يذكر دينيس بأى صورة بوالدها، لكن أحست الآن أنه يشبه ألفريد فى تعاطفه الذكى مع الأشياء المكسورة. قال: "هذا خشب بلوط جيد. غريب أنه انكسر فجأة".

نهضت من على ركبتيها وخرجت من الحجرة، أمسكت بقميصها ووضعته داخل البنطلون وهى تخرج. ظلت تمشى حتى وجدت نفسها خارج المشروع، فدخلت سيارتها. مضت إلى شارع برينبريدج وإلى النهر. توقفت بالسيارة إلى جوار النهر، ثم تركت العنان وبكت على الكرسى المكسور.

كانت الصورة فى رأسها أوضح عندما عادت إلى الجينيريتور. رأت أنها متورطة على كل الجبهات. هناك رسائل هاتفية لم ترد عليها من صحفى يكتب عن الطعام فى التايمز، ورسالة من محرر مجلة جورميت، ومن صاحب مطعم آخر عنده أمل فى سرقة طاهية براين. وما قيمته ألف دولار من صدور البط وقطع اللحم التى فسدت أمام مدخل المطبخ الخلفى. شيف المخبوزات يزعم أنه ترك

لدينيس رسالتين بخط يده، على صلة بالراتب، ولا تذكر دينيس رؤية الرسالتين.

سألت دينيس روب زيتو: "لم لا يطلب أحد طبق الضلوع الريفية؟ لماذا لا يدافع الجارسونات عن طبقى اللذيذ الرائع هذا؟"

قال زيتو: "الأمريكان لا يحبون الكرنب".

"نعم لا يفعلون. أرى صورتى كالمرآة فى الأطباق النظيفة بعد أن تعود، نظيفة، لعقوها لعقًا، أحصيت فيها رموشى".

قال زيتو: "ربما عندنا ألمان هنا. الألمان يحبون تنظيف أطباقهم".

"ربما أنت لا تحب الكرنب الذى أطبخه مع طبق الضلوع الريفية؟"

قال زيتو: "إنه طبق مهم".

لم تتصل بها روبن ولم تتصل هى بروبن. أجرت حوارًا مع التايمز وتركتهم يصورونها، وداعبت "أنا" شيف المخبوزات المتضخمة، وسهرت فى المطبخ وعبأت اللحم الفاسد على انفراد، ورفدت غسال الأطباق الذى كان يمضى أوقاتًا طويلة فى الحمام، وفى كل غداء وكل عشاء تمر على الطهاة تحل المشكلات لحظة بلحظة.

فى عيد العمال: موات. حملت نفسها على الخروج من محل عملها إلى فراغ المدينة الحارّة، بخطوات منحنية، فى وحدة، متجهة إلى شارع بنما. سال لعابها دون وعى منها عندما رأت البيت. واجهة البيت ما زالت وجهًا، الباب ما زال لسانًا. سيارة روبن فى الشارع لكن ليس سيارة براين. ذهبوا إلى كيب ماى. رنت دينيس

على الجرس، رغم أنها ترى بالفعل من التراب المحيط بالباب ألا أحد فى البيت. دخلت بالمفتاح الذى معها. تقدمت وصعدت طابقين إلى حجرة الأب والأم. نظام التكييف المركزى الباهظ للبيت يؤدى عمله، الهواء المُعلب يتداخل مع أشعة شمس عيد العمال المتسللة من النهار. وهى راقدة على سرير الأب والأم غير المرتب، تذكرت الرائحة والهدوء فى عصارى سان جود الصيفية عندما كانت تُترك وحدها فى البيت، ويمكنها لساعتين من الزمن، أن تكون عجيبة قدر ما تشاء. خلّصت نفسها بيدها. راقدة على الملاءات غير المرتبة، وشريحة رفيعة من ضوء الشمس ترقد على صدرها. خلصت نفسها بيدها مرة ثانية ثم رقدت مباعدة ما بين ذراعيها وساقيها. أدخلت ذراعها تحت وسادة الأب والأم فلامست بأصابعها شيئًا وكأنه طرف مدبب لكيس واقٍ ذكرى من الفويل.

كان بالفعل كيسًا واقيًا ذكريًا. ممزقًا وفارغًا. أنّت وهى تتخيل فعل الإيلاج الشاهد عليه هذا الواقى الذكرى، بل وأمسكت رأسها بيديها.

خرجت من السرير وسوت فستانها على أردافها. مسحت الملاءات بعينيها بحثًا عن مفاجآت أخرى مقززة. ما علينا، بالطبع يمارس المتزوجون الجنس. بالطبع. لكن روبن قالت لها إنها لا تتعاطى حبوب منع الحمل، وأنها وبراين لا يمارسان الجنس بما يكفى لأنها تخشى الحمل، وطيلة الصيف لم تر دينيس أو تتذوق أو تشم آثار زوج على جسد حبيبتها، وهكذا تناست هذا الأمر الواضح.

مالت على سلة المهملات إلى جوار دولاب براين. قلّبت فيها فرأت مناديل ورقية وتذاكر سفر وخيط تنظيف أسنان ثم عثرت

على ورقة واقى ذكرى أخرى. الكراهية لروبن، الكراهية والغيرة، تداهمها كالصداع النصفى. ذهبت إلى حمام حجرة النوم وعثرت على ورقتين أخريين لواقٍ ذكرى وكومة مطاط معقودة فى سلة المهملات تحت الحوض.

ضربت صدغيها بيديها. سمعت أنفاسها تخرج من بين أسنانها وهى تهبط السلم مسرعة وتخرج إلى ساعة العصر المتأخرة. الحرارة تبلغ 32درجة وهى ترتجف. غرابة وعجب. سارت إلى الجينيريتور وجلست عند منصة تحميل الطعام. عملت جردًا على الزيوت والجبن والدقيق والتوابل، وأعدت قوائم طلبات دقيقة، وتركت عشرين رسالة صوتية بصوت مهذب ومتحضر وواضح، وانتهت من واجباتها "الإيميلية" وقلت لنفسها قطعة كبدة وشربت بعدها كأسًا من الجرابا الإيطالية، ثم اتصلت بتاكسى فى منتصف الليل ليأخذها إلى بيتها.

جاءت روبن إلى المطبخ دون سابق إنذار فى الصباح التالى. كانت ترتدى قميصًا أبيض كبيرًا يبدو أنه كان قميص براين. تلوت بطن دينيس عندما رأتها. لجأت إلى مكتب الشيف وأوصدت الباب وراءها.

قالت روبن: "لا يمكننى الاستمرار".

"حلو، ولا أنا".

وجه روبن ملطخ ببقع حمراء. حكت رأسها ورفعت أنفها وعدلت وضع نظارتها وقالت: "لم أذهب إلى الكنيسة منذ شهر يونيو. سينيد اكتشفت كذبى عشر مرات على الأقل. تريد أن تعرف لماذا لا تقضين وقتًا معها. لم أعد أعرف نصف الصبية الذين يعملون فى

المشروع فى الآونة الأخيرة. الفوضى تعم كل شىء، لا يمكننى الاستمرار".

قالت دينيس بصوت متحشرج: "كيف حال براين؟"

أحمّر وجه روبن: "لا يعرف أى شىء. إنه كحاله دائمًا. هو يحبك ويحبنى".

"مؤكد".

"الوضع أصبح غريبًا".

"وأنا عندى شغل كثير هنا أيضًا".

"لم يؤذنى براين يومًا. لا يستحق ما يحدث".

رن هاتف دينيس فتركته يرن. رأسها على وشك أن ينشق إلى نصفين. لا يمكنها تحمل روبن وهى تنطق اسم براين.

رفعت روبن وجهها إلى السقف، لآلئ الدموع كالخرز على رموشها: "لا أعرف فيم جئت. لا أعرف ماذا أقول. أحسست بأننى حقيرة للغاية وأعانى من وحدة متزايدة".

قالت دينيس: "تجاوزى الموضوع. فهذا ما سأفعله".

"لماذا أنت باردة هكذا؟"

"لأننى إنسانة باردة".

"لو تتصلين بى، أو تقولى إنك تحبيننى..."

"انتهينا، خلاص! وحياة الغاليين انتهينا! انتهينا!"

روبن تنظر إليها نظرة توسل، لكن حتى لو تم توضيح موضوع الواقى الذكرى وتم تجاوزه، فما المطلوب من دينيس؟ أن تترك العمل

فى المطعم الذى يجعل منها نجمة؟ أن تذهب لتعيش فى جيتو وتصبح أمًا من أمىّ سينيد وإيرين؟ أن تبدأ فى ارتداء أحذية رياضية كبيرة وتطهو طعامًا نباتيًا؟

كانت تعرف أنها تخبر نفسها بالأكاذيب، لكنها لا تعرف ماذا فى رأسها أكاذيب وما هو الحقيقة. حدقت فى مكتبها حتى فتحت روبن الباب وخرجت مسرعة.

فى الصباح التالى كان الجينيريتور على الصفحة الأولى من ملحق الطعام فى صحيفة نيويورك تايمز. تحت المانشيت "الجينيريتور حالة جميلة" صورة لدينيس، مع تتمة للموضوع فى صفحة ٦ فيها صورتين للمطعم من الخارج والداخل، وصور أيضًا لطبق الضلوع والكرنب. هذا أفضل. هكذا كله تمام. بحلول وقت الظهر كان قد عُرض عليها أن تظهر فى حلقة فى قناة الطعام وأن تكتب عمودًا شهريًا فى صحيفة فيلادلفيا. تجاهلت روب زيتو وأمرت فتاة الحجوزات أن تبدأ فى قبول أربعين حجزًا إضافيًا فى الليلة، فوق قدرة استيعاب المطعم. اتصل جارى واتصلت كارولين للتهنئة، كل فى مكالمة منفصلة. وبخت زيتو لأنه رفض قبول حجز لمذيعة أخبار قناة إن بى سى المحلية، وتركت نفسها تبهدله قليلاً، وأحست بانتعاش.

الأثرياء من كل حدب وصوب فى فيلادلفيا كانوا يصطفون ثلاثة صفوف وراء بعضهم عند البار داخل المطعم، عندما جاء براين ومعه دستة زهور. احتضن دينيس وتركت نفسها قليلاً بين ذراعيه. منحته القليل مما يحبه الرجال.

قالت: "نحتاج إلى موائد إضافية. ثلاثة صفوف فى أربعة موائد على الأقل. نحتاج لموظف حجوزات بدوام كامل، ونحتاج لساحة

انتظار أكبر. نحتاج شيف مخبوزات عنده قدر أكبر من الخيال وقدر أقل من العناد. كما يجب أن تفكر فى استبدال روب بشخص من نيويورك يمكنه التعامل مع الزبائن المهمين الذين سيأتوننا".

براين يشعر بالدهشة: "هل ستفعلين هذا فى روب؟"

قالت دينيس: "لا يريد تسويق طبق الضلوع والكرنب. التايمز يحبون ضلوعى وكرنبى. طظ فيه إن كان غير قادر على أداء الوظيفة".

الجفاء فى صوتها أثار وهجًا فى عينى براين. يبدو أنها يحبها أكثر هكذا.

قال: "كما تحبين".

فى ساعة متأخرة من ليلة السبت انضمت إلى براين وجيرى شوارتز وشقراوتين ومطرب وعازف جيتار إحدى الفرق الموسيقية التى تحبها للشرب فى مكان صغير أعده براين فوق سطوح الجينيريتور. الليلة دافئة والحشرات على امتداد النهر صاخبة كقطار الأرياف. الشقراوتان تتحدثان فى الهواتف المحمولة. قبلت دينيس سيجارة من عازف الجيتار، وتركته يتفحص ندباتها.

"ما هذا، يداك أسوأ من يداى".

قالت: "الوظيفة قوامها تحمل الألم".

"الطهاة يسيئون لأنفسهم".

قالت: "أحب الشرب فى منتصف الليل، وقرصى إسبرين عندما أصحو فى السادسة صباحًا".

قال براين متباهيًا من وراء كتفى الشقراوتين: "لا أعرف أحدًا أغلظ من دينيس".

رد عازف الجيتار بأن أخرج لسانه، وأمسك بالسيجارة بيد، وبالأخرى وضع قطعة فحم على لسانه. كان صوت انطفاء الفحم على اللسان عاليًا لدرجة تشتيت انتباه الشقراوتين عن التليفونات. راحت الأطول تصرخ ورددت اسم العازف وقالت إنه مجنون.

قالت دينيس: "أتساءل ماذا أكلت".

وضع العازف مباشرة فودكا باردة على الحرق. الشقراء الأطول التى لم يعجبها أداؤه قالت: "ويسكى وفودكا وهذا الهباب الذى يبتلعه الآن".

قالت دينيس وهى تطفئ سيجارتها فى الجلد الطرى وراء أذنيها: "كما أن اللسان مبتل". أحست كأنها ضُربت رصاصة فى الرأس، لكنها ألقت عقب السيجارة المنطفئ فى النهر ببال راقئ.

هدأ عازف الجيتار تمامًا. غرابتها تظهر الآن كما لم تدعها تظهر من قبل. إلا أنها أطلقت صرخة مختنقة، صوت مزيف، لتطمئن جمهورها لأنها تألمت.

سألها براين فيما بعد وهما فى ساحة انتظار السيارات: "هل أنت بخير؟"

"أحرقت نفسى حرقات أسوأ فى حوادث".

"لا بل قصدى، هل أنت بخير؟ ما فعلته كان مخيفًا".

"أنت من تباهيت بغلظتى، أشكرك".

"أحاول أن أقول أننى مستاء مما قلته".

جافاها النوم طوال الليل، من الألم.

بعد أسبوع استعانت هى وبراين بمدير كافيه "يونيون سكوير" وتم رفد روب زيتو.

بعد أسبوع ذهب إلى المطعم كل من عمدة فيلادلفيا وسيناتور نيوجيرسى، ورئيس مجلس إدارة شركة "و..." وجودى فوستر.

بعد أسبوع، قام براين بتوصيل دينيس لبيتها فدعته للدخول. وعلى نفس النبيذ ذو الخمسين دولارًا الذى قدمته يومًا لزوجته، سألها إن كانت قد تشاجرت مع روبن.

زمت دينيس شفتيها وهزت رأسها: "لا بل أصبحت مشغولة للغاية".

"هذا ما حسبته. قلت لنفسى مؤكد أن لا علاقة لك بالموضوع، فروبن غاضبة من كل شىء فى الفترة الأخيرة، خصوصًا أى شىء له علاقة بى".

قالت دينيس: "أفتقد الخروج مع الفتيات".

قال براين: "أؤكد لك أنهما تفتقدانك أكثر". ثم أضاف متلعثمًا: "آ.. أفكر فى ترك البيت".

قالت دينيس إن هذا كلام مُحزن.

قال وهو يصب المزيد من النبيذ: "موضوع الدروشة خرج عن السيطرة. تذهب إلى القداسات الليلية منذ ثلاثة أسابيع. لم أكن أعرف حتى أن هناك شيئًا اسمه قداس مسائى. فى الوقت نفسه

تتحدث عن تعليم البنات من البيت، دون الذهاب للمدرسة. قررت أن بيتنا كبير للغاية، تريد الانتقال إلى بيت المشروع وأن تعلم البنات فى البيت وربما بعض الأولاد من المشروع أيضًا. مع رشيد؟ ماريلو؟ أن تتعلم سينيد وإيرين فى بوينت بريز. نحن نقترب من حافة الجنون قليلاً. أقصد أن روبن رائعة، فهى تؤمن بأشياء أفضل من التى أؤمن بها. لكننى لست واثقًا من أننى ما زلت أحبها. أشعر وكأننى أناقش نيكى باسافارو. إنها الطبعة الثانية من "الحقد الطبقى"، الحلقة الثانية من أبيها".

قالت دينيس: "روبن ممتلئة بالإحساس بالذنب".

"إنها تقترب من كونها أم غير مسئولة".

وجدت دينيس الجرأة لأن تسأل: "هل تريد أن تأخذ البنات لو وصل الأمر لهذا الحد؟"

هز براين رأسه: "لست واثقًا، إن وصلنا لهذا الحد، فلن ترغب روبن فى الوصاية. أراها مقبلة على التخلى عن كل شىء".

"لا تراهن على هذا".

فكرت دينيس فى روبن وهى تصفف شعر سينيد وفجأة وبكل قوة أحست بأنها تتوق إليها بجنون، إلى إسرافها وجنونها، إلى براءتها. تغير عقل دينيس من حال إلى حال فجأة، متحولاً إلى شاشة بيضاء تُعرض عليها مشاهد من الإنسانة الممتازة التى أُبعدت عنها. مرة أخرى أصبحت تقدر أقل القليل من عادات وحركات روبن، تفضيلها للبن خالى الدسم فى القهوة، وسنتها الملونة التى كسرها لها شقيقها بحجر، وكيف تميل رأسها كالعنزة وتغمر دينيس بالمحبة.

دينيس التى تعللت بالإرهاق حملت براين على أن يغادر. فى الصباح التالى اضطربت حالة الطقس وحلت رطوبة أشبه برطوبة الأعاصير، فراحت الأشجار تترنح بفعل الهواء القوى والمياه تضرب أسوار المحيط. تركت دينيس الجينيريتور فى أيدى طاهى الصوص وأخذت القطار إلى نيويورك لكى تنقذ شقيقها العقيم وتسلى أبويها. أثناء ضغطة الغداء، بينما كانت إنيد تتلو عليها كلمة بكلمة حكاية نورما جرين، لم تلاحظ دينيس أى تغير فى نفسها. ما زالت كعهدها بنفسها، النسخة ٢,٢ أو النسخة ٤,٠ من نفسها التى راحت تجتر المُجتّر فى إنيد وتحب ما تحبه فى ألفريد. ساعة أن وقفت على المرفأ تقبل أمها فرأت دينيس مختلفة، النسخة ٥,٠ مثلاً، كادت تضع لسانها فى فم العجوز الجميلة، كادت تربت بيديها على ردفى إنيد وفخذيها، كادت تنهار وتعد بالمجىء فى الكريسماس كل عام طالما إنيد تريد ذلك، وقتها فقط أحست بمقدار التصحيحات التى عرضت لها نفسها.

وهى فى القطار المتجه جنوبًا رأت أرصفة محطات القطار المغمورة بالمطر تمرق إلى جوارها بسرعات متباينة. رأت والدها على مائدة الغداء مجنونًا. وكأنه يفقد عقله، وربما صحيح أن إنيد لا تبالغ فى مشاكلها معه، وربما ألفريد فى حالة يُرثى لها حقًا وكان يحاول بذل قصارى جهده ليبدو سليمًا معافى أمام أولاده، وربما إنيد ليست سيدة متوترة طوال الوقت ومثيرة للإزعاج كما رأتها دينيس طوال عشرين عامًا، ربما مشاكل ألفريد أعمق من مجرد كونه تعرض لحياة صعبة، ربما مشاكل إنيد ليست أعمق من أن زوجها مضطرب، وربما دينيس أقرب لإنيد مما تخيلت يومًا. راحت تنصت لدوران عجلات القطار المعدنية على القضبان وتراقب سماء

أكتوبر تقترب من الليل. ربما هناك أمل فيها إن هى تمكنت من البقاء على متن القطار، لكنها رحلة قصيرة إلى فيلادلفيا، ثم ستعود إلى العمل ولن تجد وقتًا للتفكير فى أى شىء حتى تذهب إلى عرض شركة أكسون مع جارى وتدهش نفسها بالدفاع عن ألفريد وإنيد أيضًا فى المناقشات التالية معه.

لا تذكر يومًا أحست فيه بأنها تحب أمها.

كانت مغمورة بالماء والصابون فى البانيو فى التاسعة تلك الليلة عندما اتصل بها براين ودعاها للعشاء معه ومع جيرى شوارتز وميرا سورفينو وستانلى توكى، المخرج الأمريكى الشهير، والكاتب البريطانى الشهير، وشخصيات أخرى لامعة. كان المخرج الشهير قد انتهى للتو من إخراج فيلم فى كامدين، وتحدث معه براين وشارتز عن إخراج فيلم "الجريمة والعقاب والروك آند رول".

قالت دينيس: "هذه ليلة إجازتى".

قال براين: "يقول مارتن إنه سيرسل سائقه. يسعدنى لو جئت. انتهى زواجى".

ارتدت فستان كاشمير أسود، وأكلت موزة لتتفادى مظهر الجائعة على العشاء واستقلت سيارة المخرج التى أخذتها إلى تاكونيلى، مطعم البيتزا الشهير فى كينسينجتون. دستة من المشاهير وأنصاف المشاهير، بالإضافة إلى براين وقرده، جيرى شوارتز مستدير الكتفين.. كانوا قد أخذوا ثلاث موائد فى الجزء الخلفى من المطعم. قبّلت دينيس براين فى فمه وجلست بينه وبين الكاتب البريطانى الشهير، الذى بدا محملاً بليلة من الملاحظات الطريفة اللطيفة الذكية وأحسته راغبًا فى إبهار ميرا سورفينو. قال المخرج

الشهير لدينيس إنه تناول طبق الضلوع والكرنب الذى تعده وأنه أعجبهم كثيرًا، لكنها غيرت الموضوع بأسرع ما أمكنها. كان من الواضح أنها هنا بصفتها فتاة براين هذه الليلة، وكان العاملون بالسينما معهم غير مهتمين بأى منهما. وضعت يدها على ركبة براين وكأنها تعزيه.

"راسكولنيكوف ظهر مرتديًا سماعات، يستمع إلى أغانى ترينت ريزنور وهو يضرب العجوز على رأسها، مشهد نموذجى". كان ذلك أقل المشاهير على المائدة، وهى متدرب فى سن الجامعة يعمل مع المخرج، يتكلم مع جيرى شوارتز.

صحح له شوارتز فكرته بصلف زائد: "لا، يستمع إلى نومايدكس".

"ألبوم ناين إنش نايلز؟"

أغمض شوارتز عينيه وهز رأسه هزة خفيفة: "نوماتيكس، ١٩٨٠ ألبوم هيلد إن تراست. ثم تحول الاسم فيما بعد إلى ذلك الذى ذكرته للتو".

قال براين: "الجميع يسرقون من نومايدكس".

قال شوارتز: "عُلقّوا على صليب قلة الشهرة حتى يستمتع الآخرون بشهرة خالدة".

"ما هى أغنيتهم الأفضل؟"

قال براين: "أعطنى عنوانك وسوف أعد لك أسطوانة". وقال شوارتز: "كل أغانيهم مذهلة، حتى أغنية ثورازين سان شاين. بعد هذه الأغنية تركهم توم باكيت، لكن الفرقة لم تدرك أنها ميتة حتى

بعد انتهائها من ألبومين آخرين. هناك من اضطر لأن ينبئهم بهذا الخبر".

قال الكاتب البريطانى الشهير معلقًا وموجهًا كلامه إلى ميرا سورفينو: "أفترض أن بلدًا يدرس نظرية الخلق فى مادة العلوم بمدارسه قد نغفر له الاعتقاد بأن البيسبول ليس مشتقًا من الكريكيت".

خطر لدينيس أن ستانلى توكى أخرج وشارك فى بطولة فيلمها المفضل عن المطاعم. تحدثت معه بسعادة عن أمور عامة، وكانت تحقد على سورفينو الجميلة حقدًا خفيفًا.

أخذها براين إلى البيت، من تاكونيلى، فى سيارته الفولفو. أحست باستحقاق وجاذبية وانتعاش. لكن براين كان غاضبًا.

قال: "كان المفترض أن تحضر روبن. أعتقد أن غيابها تهديد. لكنها وافقت على أن تذهب إلى العشاء معنا. كانت ستبدى اهتمامًا قليلاً بما أفعله بحياتى، حتى وأنا أعلم أنها ستتعمد أن ترتدى ثياب فتاة جامعية لتثير اضطرابى ولتثبت وجهة نظرها. ثم ستمضى السبت التالى فى المشروع. كان هذا هو اتفاقنا. ثم هذا الصباح قررت أنها ستذهب لمظاهرة ضد عقوبة الإعدام بدلاً من العشاء. لست من المعجبين بعقوبة الإعدام، لكن كيلى ويزرس ليس صورتى المفضلة عن الشخص المستحق لتخفيف الحُكم. والوعد وعد. قلت إنها يمكنها أن تفوت مظاهرة واحدة من أجلى. قلت لم لا نحرر شيكًا لاتحاد الحريات المدنية الأمريكى، أى مبلغ تشائين".

قالت دينيس: "كتابة الشيكات. لا، لا تنفع".

"هذا ما أدركته. لكن هناك أشياء قيلت يصعب التراجع عنها

واعتبارها لم تُذكر. أنا بصراحة لست مهتمًا بسحب ما قيل من كلمات".

قالت دينيس: "لم تكن هكذا يومًا".

كان واشنطن أفينيو بين النهر وشارع برود وحيدًا فى الحادية عشرة من ليلة الإثنين. يبدو أن براين يعانى من إحباطه الأول الحقيقى فى الحياة، ولا يمكنه الكف عن الحديث. "أتذكرين عندما قلت إننى لو لم أكن متزوجًا ولو لم تكونى تعملين عندى؟"

"أذكر".

"هل ما زلت عند رأيك؟"

قالت دينيس: "لنذهب ونشرب".

وهكذا أصبح براين نائمًا فى سريرها، فى التاسعة والنصف فى الصباح التالى، عندما رن الجرس.

كانت ما زالت تشعر بالخمر فى رأسها فأكمل لها ذلك الإحساس بصورة الغرابة والفوضى الأخلاقية التى تبدو حياتها عليها حاليًا. لكن تحت القتامة هناك إحساس طيب بالانتعاش من الليلة الماضية بكل مشاهيرها. كان إحساسًا أقوى من أى شىء تشعر به تجاه براين.

رن جرس الباب ثانية. نهضت وارتدت الروب الحريرى البنى وطلت من النافذة. كانت روبن باسافارو واقفة أمام الباب. سيارة براين الفولفو متوقفة على الجانب الآخر من الطريق.

فكرت دينيس فى ألا تفتح الباب، لكن ما كانت روبن لتبحث عنها هنا دون أن تذهب إليها فى الجينيريتور أولاً.

قالت: "إنها روبن. امكث هنا والتزم الصمت".

ما زال براين على ضوء النهار يرتسم على وجهه تعبير الغضب من ليلة الأمس. "لا يهمنى إن عرفت أننى هنا".

"نعم، لكن أنا يهمنى".

"سيارتى فى الشارع أمام البيت".

"أعرف هذا".

هى بدورها أحست بالغضب من روبن. طوال الصيف وهى تخون براين لم تشعر بشىء كهذا، مثل هذا الاستياء تجاه زوجته، وهى تهبط درجات السلم الآن. روبن المزعجة، روبن العنيدة، روبن اللحوحة، روبن عديمة الذوق، روبن العبيطة.

لكن لحظة أن فتحت الباب تعرف جسدها على ما يريده. جسدها يريد براين فى الشارع وروبن على سريرها.

كانت أسنان روبن تصطك ببعضها، رغم أن الصباح ليس باردًا: "هل يمكن أن أدخل؟"

قالت دينيس: "أنا على وشك الذهاب إلى العمل".

قالت روبن: "خمس دقائق".

بدا من المستحيل أنها لم تر السيارة الخضراء على الجانب الآخر من الطريق. تركتها دينيس تدخل إلى الصالة وأغلقت الباب.

قالت روبن: "انتهى زواجى. لم يأت ليلة الأمس إلى البيت حتى".

"آسفة".

"كنت أصلى من أجل زواجى، لكن كلما تذكرتك أشتت عن الصلاة. أركع فى الكنيسة أصلى ثم أبدأ فى التفكير فى جسدك".

حل الرعب على دينيس. لا تشعر بالذنب تحديدًا، فذلك الزواج

المريض على وشك الانهيار على كل حال، كل كما فعلته فى أسوأ تقدير هو أن سرعت وتيرة الانهيار، لكنها تشعر بالأسفة لأنها أساءت لهذه الإنسانة، تشعر بالأسف لأنها نافستها. أخذت بيدى روبن وقالت: "أريد أن أقابلك وأريد أن أتكلم معك. لا يعجبنى ما يحدث. لكن يجب أن أذهب للعمل الآن".

رن الهاتف فى حجرة المعيشة. عضت روبن شفتها وأومأت برأسها وقالت: "طيب".

قالت دينيس: "هل تقابليننى الساعة الثانية؟"

"طيب".

"سأتصل بك من الشغل".

أومأت روبن برأسها ثانية. تركتها دينيس تخرج وأوصدت الباب وراءها وأطلقت من صدرها تنهيدة كبيرة.

"دينيس، أنا جارى، لا أعلم أين أنت، لكن اتصلى بى عندما تصلك هذه الرسالة. وقع حادث، سقط بابا من على السفينة، سقط من الطابق الثامن فى السفينة، تحدثت لتوى إلى ماما".

ركضت إلى الهاتف والتقطت السماعة: "جارى؟"

"حاولت الوصول إليك فى الشغل".

"هل هو حى؟"

قال جارى: "يجب ألا يكون حيًا، لكنه حى".

كان جارى فى أفضل أحواله فى حالات الطوارئ. الخصال التى

أغضبتها بالأمس أصبحت مبعث راحة لها الآن. تريده أن يعرف كل شيء. تريده أن يبدو مسرورًا بهدوئه.

"يبدو أنهم سحبوه وراءهم بالحبل في مياه درجة حرارتها تقارب الصفر مسافة ميل، قبل أن تتمكن السفينة أخيرًا من التوقف تمامًا". أضاف جاري: "هناك هليكوبتر قادمة لتأخذه إلى نيو برونسفيك. لكن ظهره لم ينكسر. قلبه ما زال يدق. وهو قادر على الكلام. إنه عجوز صلب. يمكن أن يصبح بخير".

"كيف حال ماما؟"

"إنها قلقة من تأخر السفينة حتى تصل الهليكوبتر، لأن ركاب السفينة مضطرون للتأخر إلى ذلك الحين".

ضحكت دينيس في ارتياح: "أمي المسكينة، كانت راغبة في هذه الرحلة كثيرًا".

"أخشى أن أيام رحلاتها البحرية مع بابا قد ولّت".

رن الجرس مرة أخرى. وكان هناك طرق شديد وركل أيضًا على الباب.

"جاري، انتظر لحظة".

"ماذا يحدث؟"

"سأتصل بك بعد دقيقة".

رن الجرس طويلاً وبقوة لدرجة أن صوته تغير، من صوت مسطح إلى صوت أجش قليلاً. فتحت الباب لترى فم يرتعد وعينين تلمعان بالكراهية.

قالت روبن: "ابتعدي عن طريقي، لأنني لا أريد أن ألمس شعرة منك".

"أخطأت خطأ كبيرًا ليلة أمس".

"ابتعدى عن طريقى!"

ابتعدت دينيس، واتجهت روبن إلى السلم. جلست دينيس على المقعد الوحيد فى حجرة معيشتها وراحت تنصت للصياح والصراخ. أدهشها كم كان صياح والديها وهى فى سن الطفولة - وهما الزوج والزوجة الوحيدان فى حياتها، ذلك الزوج والزوجة غير المتفقين الآخرين - أدهشها كم كان صياحهما قليلاً. انعقد بينهما سلام وتركا حريًا بالوكالة تدور رحاها فى رأس ابنتهما.

كلما كانت مع براين تتوق إلى جسد روبن وصراحتها وطيبتها وتتعب من برود براين، وكلما كانت مع روبن تتوق إلى ذوق براين الرفيع وتشابهه الذهنى معها وتتمنى لو تلاحظ روبن كم هى جميلة فى الكاشمير الأسود.

خطر لها أن: هدوءً أنتما الاثنان، يمكن أن تنشطرا إلى نصفين.

توقف الصياح. عادت روبن إليها تهبط درجات السلم، وخرجت من الباب الأمامى دون أن تبطئ خطوها.

خرج براين بعدها، بعد دقائق. توقعت دينيس أن ترى غضب روبن، ويمكنها أن تتعامل معه، لكنها كانت تأمل فى كلمة تعاطف من براين.

قال لها: "أنت مرفودة".

ROM:☐Denise3@cheapnet.com

TO:☐exprof@gaddisfly.com

SUBJECT:☐ لنحاول أكثر فى المرة القادمة(*)

لطيف جداً أننى رأيتك يوم السبت. أقدر لك كيف أسرعت بالعودة وساعدتنى. منذ ذلك الحين، سقط بابا من على السفينة وأخرجوه من مياه باردة قريبة من درجة التجمد، وقد كسر ذراعه وانخلع كتفه، وأصيب بتمزق فى قرنية العين وفقد الذاكرة مؤقتًا، وربما أصيب بجلطة صغيرة، ونقلوه مع ماما بالهليكوبتر إلى نيو برونسفيك، وأنا فُصلت من عملى فى أفضل وظيفة قد أشغلها فى حياتى، وعرفت أنا وجارى بتقنية علاجية طبية جديدة أنا على تمام الثقة أنك ستجدها مرعبة وغير يوتوبية على الإطلاق وسيئة لولا أنها مفيدة لمرضى باركنسن وربما تساعد بابا.

بخلاف هذا، ليس عندى الكثير لأقوله.

أتمنى أن يكون كل شىء بخير فى أى مخروبة أنت فيها الآن، جوليا تقول إنك فى ليتوانيا وتتوقع منى أن أصدقها.

FROM:☐exprof@gaddisfly.com

TO:☐Denise3@cheapnet.com

SUBJECT:☐Re: لنحاول أكثر فى المرة القادمة

(*) التالى مجموعة مراسلات إلكترونية (إيميل) بين دينيس وشيب. عنوانها هو: Denise3@cheapnet.com (دينيس3@ إنترنت رخيص) وعنوان شيب هو exprof@gaddisfly.com (بروفسير سابق @ ذبابة القمص) اسم الذبابة هو caddisfly بينما كُتبت gaddisfly فى عنوان شيب الإلكترونى. ربما كانت هذه إشارة من جوناثان فرانزن حسب تقديران بعض القراء إلى ويليام جاديس (١٩٢٢ - ١٩٩٨) وهو من رواد وأهم كتاب الرواية ما بعد الحادثة الأمريكية، وقد اشتملت روايته الأولى «الإدراكات - Recpgnitions» (نُشرت فى ١٩٥٥) على رغبة بعض أو أحد شخصياتها في إجراء بعض التصحيحات. أترك تأويلات هذا الموضوع كاملة للقارئ. يذكر أن رواية الإدراكات المذكورة. والتي أبدى جوناثان فرانزن تأثره البالغ بها، قد صُنفت ضمن قائمة مجلة تايم لأفضل مائة رواية بين عامى ١٩٢٣و ٢٠٠٥. (المترجم).

فرصة بيزنس جيدة فى ليتوانيا. جيتاناس زوج جوليا يدفع لى راتب كى أعد له موقع إنترنت لجنى النقود. الموضوع غير متعب والراتب جيد بصراحة.

كل فرقك الموسيقية التى كنت تحبينها وأنت فى المدرسة الثانوية أسمعها هنا على الراديو: سميثس، نيو أوردر، بيلى آيدول.. نفحة من الماضى. رأيت رجلاً عجوزًا يقتل حصانًا بالرصاص فى الشارع قرب المطار. كنت قد قضيت لحظتها على أرض البلطيق هذه ربع ساعة لا أكثر. مرحبًا بك فى ليتوانيا!

تحدثت إلى توم هذا الصباح، وعرفت الموضوع بالكامل، واعتذرت، فلا تقلقى إذن.

آسف بخصوص شغلك. بصراحة أنا مذهول. لا أصدق أن هناك من يمكنه أن يفصلك من العمل.

أين تعملين الآن؟

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT :□مسئوليات عيد الميلاد

ماما تقول إنك لا تريد أن تعد بالمجىء فى الكريسماس، وتتوقع منى أن أصدق. لكن طبعا لا يمكن أن تعامل هذه المرأة هكذا، تلك التى انهارت أجمل لحظات عامها بحادث، والتى عاشت حياة حقيرة مع رجل نصف عاجز، ولم تقض الكريسماس فى بيتها منذ كان دان كويل نائبًا للرئيس، والتى "تحيا" على التطلع للأشياء، وتحب الكريسماس كما يحب الناس الجنس، والتى رأتك خمسًا وأربعين

دقيقة على مدار السنوات الثلاث الماضية. أقول لا يمكن أن تكون قد قلت هذا الكلام لهذه السيدة، لا، آسفة، لا أصدق أنك ستبقى فى فيلنيوس

(فيلنيوس!)

لابد أن أمى أساءت فهمك. برجاء التوضيح.

بما أنك سألت، لم أعد أعمل. أعمل من الباطن قليلاً فى مارى سكورو لكن بخلاف ذلك أنام حتى الثانية ظهرًا. إن استمر الحال على هذا المنوال فقد اضطر للالتزام بسلوك علاجى قويم من النوع الذى يرعبك. لابد أن أستعيد شهيتى للتسوق ومتع المستهلكين غير المجانية الأخرى.

أخر ما سمعت عن جيتاناس ميسيفيكيوس أنه لكم جوليا فى عينيها فأحاطهما بهالات سوداء. لكن لا يهم.

FROM:□exprof@gaddisfly.com

TO:□Denise3@cheapnet.com

SUBJECT:□Re: مسؤوليات عيد الميلاد

أنوى الذهاب إلى سان جود ما إن أجنى بعض النقود. ربما حتى على عيد ميلاد بابا. لكن الكريسماس صعب، أنت تعرفين هذا. ليس هناك توقيت أسوأ منه. يمكنك أن تقولى لماما أننى سآتى فى بدايات العام الجديد.

ماما تقول إن كارولين والأولاد سيكونون فى سان جود على الكريسماس. هل هذا صحيح؟

لا تبدئى فى العلاج النفسى تيمنًا بى.

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT:□"الشئ الوحيد الذى آذيته هو كرامتى"

لا.. حدق يا واد! لكن آسفة، أنا مصممة على مجيئك على الكريسماس.

أنا على اتصال بشركة أكسون، ونخطط لإعطاء بابا ستة شهور من الكوريكتول بداية من بعد ليلة العام الجديد مباشرة، وأن يقيم مع أمى عندى أثناء العلاج. (من حسن الحظ أن حياتى تحطمت لذا فمن السهل أن أرعاهما). السبيل الوحيد لعدم تحقيق هذا السيناريو أن يقرر الطاقم الطبى فى أكسون أن حالة أبى لا يمكن علاجها بالأدوية. بدا مرتبكًا للغاية وهو فى نيويورك، لكنه بدا على ما يرام على التليفون. قال مثلا "الشئ الوحيد الذى آذيته عندما سقطت هو كرامتى"، إلخ. خلعوا الجبيرة عن ذراعه الأسبوع الماضى.

المهم، الأرجح أنه سيكون عندى فى فيلادلفيا وقت عيد ميلاده، وباقى الشتاء والربيع أيضًا، إذن فالكريسماس هو الوقت المناسب لأن تأتى إلى سان جود، ورجاء ألا تجادلنى. تعال!

أنتظر بكل لهفة (وبثقة أيضًا) تأكيدك على الحضور.

ملحوظة: كارولين وآرون وكاليب لن يحضروا. سوف يحضر جارى ومعه جوناه وسوف يعودان إلى فيلادلفيا ظهر يوم ٢٥ ديسمبر.

ملحوظة ٢: لا تقلق، شعارى هو لا للمخدرات.

FROM:□exprof@gaddisfly.com

TO:□Denise3@cheapnet.com

SUBJECT:□Re "الشيء الوحيد الذى آذيته هو كرامتى"

رأيت رجلاً يصاب بست رصاصات فى بطنه ليلة أمس. قاتل محترف فى نادى اسمه موسميريت. لا علاقة لهذا الموضوع بنا، لكن لم يسرنى ما رأيته.

لست أرى بوضوح لماذا مطلوب منى التواجد فى سان جود فى تاريخ محدد. إن كانت ماما وبابا أبنائى الذين خلقتهم من العدم دون طلب إذنهم، كنت لأفهم مسئوليتى عنهما. الآباء لهم مصلحة داروينية مباشرة فى رفاهية أبنائهم. لكن الأبناء كما يبدو لى لا يدينون بدين مماثل لآبائهم.

أنا عمومًا عندى أقل الكلام لأقوله لهؤلاء الناس. ولا أعتقد أنهم يريدون سماع ما عندى.

لم لا أخطط إذن لمقابلتهما وهما فى فيلادلفيا؟ هذا أفضل على كل حال. هكذا يمكن أن نجتمع نحن التسعة جميعًا مرة أخرى، لا ستة فقط.

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT غضب أختك "المتغاظة" العارم

□يا ربى على كمية رثائك للذات!

قلت لك تعال من أجلى. "عشان" خاطرى، و"عشان" خاطرك أيضًا، فأنا متأكدة أنه شعور "كول" وجامد أن تشاهد شخصًا

يُضرب بالرصاص فى بطنه، لكن عندك أبوين لا أكثر، ولو فوّت فرصة قضاء وقت معهما الآن فلن تحظى بفرصة ثانية.

أعترف: أنا فى حالة يرثى لها.

سأخبرك ـ لأننى يجب أن أخبر أى أحد ـ رغم أنك لم تخبرنى لماذا طردوك من الشغل.. طردونى لأننى نمت مع زوجة مديرى.

ماذا عندى فى رأيك لأقوله لـ "هؤلاء الناس"؟ أتعرف كيف هى مكالماتى مع ماما أيام الأحد هذه الأيام؟

أنت مدين لى بعشرين ألف وخمسمائة دولار. ما رأيك فى هذا الدين؟

اشتر يا عم التذكرة وسوف أدفع لك ثمنها.

أحبك وأفتقدك. لا تسألنى عن السبب.

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT ندم

أسفة لأننى ضايقتك. السطر الأخير من وسالتى هو الوحيد الذى قصدت قوله. لم أُخلق للإيميلات. رد علىّ لو سمحت. وأرجوك تعال على الكريسماس.

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT قلق □

لو سمحت لو سمحت لو سمحت، لا تتحدث عن إطلاق النار على الناس ثم تختفى هكذا.

FROM:□Denise3@cheapnet.com

TO:□exprof@gaddisfly.com

SUBJECT □باقى ستة أيام على الكريسماس!

شيب؟ أين أنت؟ أرجوك رد علىّ أو اتصل بىْ.

* * *

الاحتباس الحرارى يحسّن فرص الاستثمار

فى شركة ليتوانيا وشركاها

فيلنيوس، ٣٠ أكتوبر - مع ارتفاع مستوى البحار فى العالم أكثر من بوصة سنويًا ومع تآكل الملايين من الأمتار المكعبة من شطآن البحر سنويًا، حذر المجلس الأوروبى للموارد الطبيعية هذا الأسبوع من أن أوروبا ستواجه قصورًا "كارثيًا" فى الرمل والحصى بنهاية العقد.

وقال رئيس مجلس إدارة المجلس الأوروبى للموارد الطبيعية جاك دورماند: "على مدار التاريخ كانت البشرية ترى الرمل والحصى موردًا لا ينضب، لكن للأسف وبسبب الانبعاثات الغازية وتدمير البيئة سوف تصبح الكثير من دول وسط أوروبا، ومنها ألمانيا، تحت رحمة الدول المحتكرة للرمل والحصى، خصوصًا ليتوانيا الغنية بالرمل، إن كانت ترغب هذه الدول فى رصف الطرق والاستمرار بأعمال الإنشاءات".

كان جيتاناس ر. ميسيفيكيوس المدير التنفيذى لشركة حزب السوق الحرة الليتوانى، قد قارن أزمة الرمل والحصى الأوروبية الوشيكة بأزمة الوقود عام ١٩٧٣ قال ميسيفيكيوس: "وقتها، أصبحت الدول الغنية بالنفط مثل البحرين وبروناى كفئران تزأر. غدًا الدور على ليتوانيا".

وصف رئيس مجلس الإدارة دورماند شركة حزب السوق الحرة المهتمة بالبيزنس والأعمال والموالية للغرب بأنها: "الحركة السياسية الوحيدة حاليًا فى ليتوانيا المستعدة للتعامل بنزاهة ومسئولية مع أسواق رأس المال الغربية".

وأكد دورماند أن: "من سوء حظنا أن أغلب احتياطى أوروبا من الرمل والحصى يقع فى أيدى قوميين من البلطيق، يبدو معمر القذافى إلى جانبهم وكأنه شارل ديجول. إننى لا أبالغ بالمرة عندما أقول أن مستقبل الاستقرار الاقتصادى للاتحاد الأوروبى يقع فى أيدى قلة من الرأسماليين الغربيين الشجعان مثل السيد ميسيفيكيوس.."

أجمل ما فى الإنترنت أن بإمكان شيب أن ينشر أخبارًا ملفقة بالكامل دون أن ينشغل حتى بمراجعة قواعد الإملاء. جمال و"جمودية" مظهر موقعك الإلكترونى تمثل ثمانية وتسعين بالمائة من مقدار القراء فيه. رغم أن شيب نفسه لم يكن يجيد الإنترنت تمام الإجادة، إلا أنه أمريكى تحت الأربعين، والأمريكان تحت الأربعين لهم الكلمة العليا فى تقدير مدى "جمودية" وجمال أى شىء. ذهب مع جيتاناس إلى بار اسمه "برى يونيفيرستيتو" واستعانا بخمسة شبان ليتوانيين يرتدون تى شيرتات، ليعملوا معهم مقابل ثلاثين دولارًا يوميًا بالإضافة إلى الملايين من الأسهم التى لن تربح أبدًا، وعلى مدار شهر راح شيب يشغل هؤلاء الشبان بلا رحمة. أمرهم بدراسة مواقع أمريكية مثل nbci.com و .oracle.com قال لهم أن يصمموا الموقع هكذا، أن يبدو هكذا.

بدأ عمل موقع ليتوانيا.كوم رسميًا يوم ٤ نوفمبر. تم وضع إعلان مكتوب فيه "الديمقراطية تدر أرباح أسهم جيدة" على الصفحة

الرئيسية للموقع، إلى جوار مساحة جرافيكية زرقاء غنية التصميم تحت الإعلان، كانت هناك صور أبيض وأسود لـ "فيلنيوس الاشتراكية" سابقًا، فيها واجهات بيوت محطمة عتيقة، إلى جوارها صور ملونة جميلة لـ "فيلنيوس السوق الحرة"، وفى الصور بوتيكات ومطاعم أنيقة. على مدار أسبوع كان شيب وجيتاناس يشربان البيرة حتى ساعة متأخرة من الليل ويكتبان محتوى الصفحات الأخرى، وفيها وعود للمستثمرين باستثمارات وأرباح رائعة، كل حسب التزامه المالى تجاه الشركة:

- تايم شير فى فيلات الوزراء فى بالانجا!
- حقوق تعدين وحقوق قطع أشجار الغابات فى جميع الحدائق الوطنية الحكومية!
- تعيين قضاة ووكلاء نيابة محليين حسب الاختيار!
- حق انتظار بالسيارة لمدة ٢٤ ساعة للعملاء المتميزين فى مدينة فيلنيوس القديمة!
- خصم خمسين فى المائة على إيجار القوات المسلحة الليتوانية والأسلحة الليتوانية بعد توقيع عقود، إلا خلال زمن الحرب!
- تبنى رضيعات ليتوانيات بلا شروط!
- حق المشاركة فى الاستثمار فى الطوابع البريدية التذكارية والعملات التى يجمعها الهواة، والعلامات التجارية للبيرة الوطنية، والفطائر الليتوانية المحلية، وورق لف هدايا فى المناسبات، إلخ!
- دكتوراه فخرية فى الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة فيلنيوس، المؤسسة عام ١٥٧٨.

● حق استخدام جميع أدوات ومعدات التصنت والتسجيلات الخاصة بأجهزة أمن الدولة بكل حرية!

● الحق القانونى وأنت على الأراضى الليتوانية فى الألقاب الفخرية من قبيل "سيدى اللورد" و"سيدتى الدوقة" و"سموكم" وفى حال عدم استخدام هذه الألقاب الملحقة باسمك يتعرض المُخالف للعقاب بالجلد العلنى والحبس ستين يومًا!

● الحق فى ركوب الطائرات والقطارات دون أى حجوزات، وحجز مقاعد دائمة فى الفعاليات الثقافية، وحجوزات فى مطاعم الخمس نجوم والنوادى الليلية!

● أولوية الحجز للحصول على الأكباد والقلوب والقرنيات الليتوانية فى عمليات الزرع المختلفة بمستشفى أنتاكالنيس الشهيرة!

● تراخيص صيد برى وبحرى بدون حد أقصى، وامتيازات أخرى فى حجوزات المباريات الوطنية!

● وضع اسمك بحروف كبيرة على السفن الليتوانية الكبرى!

● إلخ، إلخ!

الدرس الذى تعلمه جيتاناس والذى يتعلمه شيب الآن هو أنه كلما زادت السخرية فى الوعد المُقدم، زاد تدفق رأس المال الأمريكى عليه. يوم بعد يوم يُلفق شيب البيانات الصحفية والقوائم المالية القابلة للتصديق والمقالات المعقدة التى تفيد بأنها الحتمية الهيجيلية للسياسات التجارية الصريحة مفيدة، مع تأليف شهادات شهود على اقتصاد ليتوانيا المزدهر والصاعد، وأسئلة لاصطياد الزبائن فى حجرات الدردشة (شات) الخاصة بالاستثمار، وإجابات

واضحة وقاطعة. إن أحسست بالغضب من أكاذيبه أو جهله، ينتقل ببساطة إلى حجرة دردشة أخرى. يكتب شهادات الأسهم والكتيبات الملحقة بها ("تهانينا ـ أنت الآن من أبناء ليتوانيا السوق الحرة الوطنيين") ويتم طبعها طبعات أنيقة. أحس أنه أخيرًا فى أرض التلفيق الخالص، أخيرًا وجد حقل اختصاصه. وكما قالت له ميليسا باكيت منذ زمن طويل، كان بدء شركة أمرًا سهلاً، وتدفق النقود أمرًا سهلاً.

أرسل إليه مراسل من صحيفة "أمريكا اليوم" رسالة يسأله: "هل كلامكم هذا جاد؟"

رد عليه شيب: "كلام جاد. الدولة الهادفة للربح وتوزيع المواطنة على حملة الأسهم، هذه هى المرحلة الجديدة من تطور الاقتصاد السياسى. منهج الإقطاعية التقنية الحداثية المستنيرة يزدهر وينمو فى ليتوانيا. تعال لترى بنفسك. أضمن لك أن تقابل ج. ميسيفيكيوس وجهًا لوجه ساعة ونصف".

لم يصله رد من صحيفة "أمريكا اليوم". أحس شيب بالقلق أنه ربما تمادى فى كلامه، لكن إيصالات الأرباح الأسبوعية تجاوزت أربعين ألف دولار. النقود تتدفق على هيئة تحويلات بنكية وأرقام بطاقات ائتمان وأرقام تشفير خاصة ببطاقات إلكترونية، وتحويلات من كريدى سويس، وبنكنوت فئة مائة دولار فى أظرف مرسلة بالبريد الجوى. أنفق جيتاناس الكثير من النقود على شركته، لكن وبحسب الاتفاق ضاعف راتب شيب مع زيادة الأرباح.

كان شيب يعيش فى فيلا صغيرة دون إيجار، حيث كان قائد الثكنات العسكرية السوفيتية يأكل يومًا الطيور ويشرب ويثرثر مع

موسكو على الهاتف الآمن. تمت مداهمة الفيلا وسرقتها ونهبها ورُسم عليها جرافيتى الثوار المنتصرين فى خريف ١٩٩٠ وظلت خالية هكذا حتى صوت الناخبون على خروج الحزب الحاكم من السلطة واستعادها جيتاناس من الأمم المتحدة. انجذب جيتاناس إلى الفيلا المحطمة بسبب سعرها الذى لا يُقارن (وكأنها مجانية) وبسبب تجهيزاتها الأمنية (وتشمل برج حراسة مدرع وسوراً يحاكى كفاءة أسوار السفارة الأمريكية)، ولأنه سيحظى بفرصة النوم فى سرير القائد الذى عذبه لستة شهور فى الثكنات السوفيتية القديمة المجاورة للفيلا. راح جيتاناس وأعضاء الحزب الآخرون يعملون فى أيام العطلات الأسبوعية لتجديد الفيلا، لكن الحزب انحل قبل انتهاء التجديدات. الآن نصف الحجرات خالية تمامًا وعلى أرضياتها زجاج مهشم. وكما هو الحال فى المدينة القديمة، كانت المياه الساخنة والتدفئة تأتى من غلاية مركزية عملاقة تنبعث منها مواسير طويلة مدفونة تحت الأرض، إلى الحمامات والدفايات فى الفيلا. أعد جيتاناس مقر شركة حزب السوق الحرة فى قاعة الحفلات الكبيرة بالفيلا، وأخذ حجرة النوم الرئيسية لنفسه، وأعد لشيب جناح المساعد الشخصى فى الطابق الثالث، وترك الشباب مصممى الموقع ينامون أينما شاءوا.

رغم أن شيب كان ما زال يدفع إيجار شقته فى نيويورك والحد الأدنى لتغطية بطاقته الائتمانية كل شهر، إلا أنه أحس بالثراء البالغ فى فيلنيوس. كان يطلب أغلى ما فى المنيو، ويعزم بسجائره وخمره على الأقل حظًا منه، ولا ينظر أبدًا إلى الأسعار فى متاجر الطعام الوطنية بالقرب من الجامعة حيث يشترى بقالته.

وقد صدقت كلمة جيتاناس، إذ رأى الكثير من الفتيات تحت السن القانونية يضعن مكياجًا ثقيلاً فى البارات ومحلات البيتزا،

لكن شيب الذى ترك نيويورك وهرب من نص "الأكاديمية البنفسجية" بدا وكأنه فقد احتياجه لأن يعيش قصة حب مع أجنبيات فى سن المراهقة. كان يزور مع جيتاناس كلوب ميتروبول مرتين أسبوعيًا، وبعد مساج وساونا، يتم إشباع احتياجهما على وسائد ميتروبول الوثيرة النظيفة. أغلب العاملات فى ميتروبول فى الثلاثينيات من العمر ويعشن حياة نهارية تدور حول رعاية الأطفال أو الآباء أو برنامج دراسة الصحافة الدولية فى الجامعة، أو تصميم أعمال فنية مُسيسة لا يشتريها أحد. أحس شيب بالدهشة من مدى استعداد هؤلاء النساء وهن فى كامل ثيابهن وبشعر مُثبت جيدًا، للكلام معه كإنسان. أدهشه المتعة التى استشعر أنهن يشعرن بها فى حياتهن النهارية، وكم أن حياتهن الليلية مملة لا معنى لها بالمرة، وبما أنه قد بدأ هو نفسه يستمتع بعمله النهارى، فقد أصبح مع كل فعل علاجى على سجادة المساج أكثر حرصًا على وضع جسده فى مكانه والجنس فى مكانه، وفهم ما هو الحب وما ليس هو الحب. مع كل قذف مدفوع الأجر يتخلص من كومة إضافية من إحساس الخزى الموروث الذى قاومه لمدة خمسة عشر عامًا من العمل التنظيرى العنيف. ما تبقى هو امتنان يعبر عنه ببقشيش بنسبة مائتين فى المائة. فى الثانية أو الثالثة صباحًا، والمدينة نائمة غارقة فى الظلام وكأنها سقطت وانهارت قبل أسابيع، يعود مع جيتاناس إلى الفيلا وسط ضباب كبريتى وثلج أو أمطار.

جيتاناس هو حُب شيب الحقيقى فى فيلنيوس. أحب شيب تحديدًا مدى حب جيتاناس له. أينما ذهب الرجلان، يسأل الناس إن كانا أشقاء، لكن الحقيقة أن شيب يشعر وكأنه حبيبة جيتاناس وليس أخيه. شعر وكأنه جوليا: فى ترف دائم، يتعرض لمعاملة

سخية، ودائمًا يعتمد على جيتاناس كمرشد ودليل ويعتمد عليه فى ضرورات الحياة الأساسية. غنى له على عشائه، مثل جوليا. وكان موظفًا قيمًا، أمريكى مستضعف باعث على السرور، شىء مدهش ومثير بل وغامض، وكم هو رائع أن يشعر هكذا على سبيل التغيير، أن يكون هو المُطارد، وأن تكون لديه خصال وصفات يرغبها آخرون كثيرًا.

بشكل عام وجد فيلنيوس عالمًا عذبًا من اللحم الجيد والكرنب وفطائر البطاطس والبيرة والفودكا والسجائر والرفقة الحلوة والعمل الهدام وأفراج البنات. أحب الطقس والارتفاع عن سطح البحر وعدم الاكتراث للعمل النهارى. يمكنه أن ينام حتى ساعة متأخرة للغاية وبعد الفطور بقليل يشرب القهوة المسائية والسجائر. هو بشكل جزئى يعيش حياة طالب (لطالما أحب حياة الطلبة) وجزء آخر من الموضوع أنه يعيش حياة الدوت كوم الجديدة على العالم. على مسافة أربعة آلاف ميل، كان يبدو له كل ما تركه فى الولايات المتحدة صغيرًا للغاية: أبويه وديونه وإخفاقاته وخسارته لجوليا. أحس بأن أدائه فى العمل والجنس والصداقة أفضل لدرجة أنه نسى لفترة طعم التعاسة. عقد العزم على البقاء فى فيلنيوس حتى يربح ما يكفى من النقود ليسدد ديونه لدينيس وليحل مشاكل بطاقة الائتمان. كان يعتقد أن ستة شهور كافية لهذا الموضوع.

لكن وكحال حظه دائمًا كما يعرفه، قبل أن يتمتع بشهرين جيدين فى فيلنيوس، انهار والده وانهارت ليتوانيا.

راحت دينيس فى إيميلاتها تدعو شيب بقوة لأن يراعى صحة ألفريد وأصرت على أن يحضر شيب إلى سان جود على

الكريسماس، لكن الرحلة إلى الوطن فى ديسمبر ليست مغرية. خطر له أنه لو تخلى عن الفيلا لمدة أسبوع واحد فسوف تحدث أشياء غبية تمنعه من العودة. سوف تنكسر تعويذة ما، وسوف يخسر السحر. لكن دينيس التى كانت عنيدة كما يعرفها، أرسلت له أخيرًا إيميلاً بدت فيه مكتئبة تمامًا. فحص شيب الرسالة بسرعة قبل أن يدرك أنه ما كان يجب أن يقرأها بالمرة، لأنها ذكرت فيها المبلغ الذى يدين لها به. التعاسة التى تخيل أنه نسى مذاقها، المشاكل التى بدت له قريبة عن بُعد، ملأت رأسه ثانية.

مسح الإيميل وندم على ذلك على الفور. يتذكر بشكل ضبابى جملة "طردونى لأننى نمت مع زوجة المدير". لكنها جملة غير محتملة تأتى من دينيس، وقد مرت عيناه عليها سريعًا فلا يمكنه أن يثق بذاكرته إذن. إن كانت شقيقته فى طريقها لأن تصبح سحاقية (وهو أمر منطقى لو فكرت فيه بسبب الأشياء التى تحيره فى دينيس دائمًا)، فلابد أنها الآن بحاجة إلى دعم شقيقها الأكبر "الفوكو – ى"، لكن شيب ليس مستعداً للعودة بعد، وقد افترض أن ذاكرته خدعته وأن جملتها كانت تشير إلى شىء آخر.

دخن ثلاث سجائر، وحل مشكلة توتره بأن عقلن الموضوع وخرج باتهامات مضادة وعقد العزم مرة أخرى على البقاء فى ليتوانيا حتى يتمكن من رد مبلغ العشرين ألف وخمسمائة دولار لشقيقته الذى يدين لها به. إن أقام ألفريد مع دينيس حتى يونيو، فهذا يعنى أن بإمكان شيب أن يمكث فى ليتوانيا ستة شهور أخرى ويفى بوعده بحضور لم شمل الأسرة فى فيلادلفيا فى الوقت نفسه.

لكن ليتوانيا للأسف كانت فى طريقها إلى حالة من الفوضى العارمة.

فى أكتوبر ونوفمبر ورغم الأزمة المالية العالمية، كانت الحالة فى فيلنيوس طبيعية لا بأس بها. ما زال المزارعون يجلبون الدواجن والماشية إلى السوق ومقابل ثمنها يشترون البنزين الروسى والبيرة المحلية والفودكا والبناطيل الجينز المستوردة وتى شيرتات سبايس جيرلز وأفلام فيديو "إكس فايلز" مسروقة مستوردة من دول اقتصادها أضعف حالاً من اقتصاد ليتوانيا. سائقو الشاحنات الذين يوزعون البنزين والعمال الذين يقطرون الفودكا والعجائز اللاتى يبعن تى شيرتات سبايس جيرلز فى عربات خشبية تُجر باليد اشتروا جميعًا بيرة ودواجن المزارعين. الأرض تنتج والعملة المحلية (الليتاى) تدور على الأيادى وفى فيلنيوس على الأقل، كانت البارات والنوادى الليلية تفتح حتى ساعة متأخرة من الليل.

لكن الاقتصاد لم يكن محليًا بهذه البساطة. يمكنك أن تدفع بالعملة المحلية لمصدر البنزين الروسى الذى يمد بلدك بالبنزين، لكن هذا المُصدر من حقه أن يسأل ما هى الخدمات والسلع الليتوانية التى يمكنه شرائها مقابل العملة المحلية. كان من السهل شراء العملة المحلية (الليتاى) بالسعر الرسمى مقابل ربع دولار. لكن الصعب شراء الدولار بأربعة ليتاى ليتوانى! فى هذه الأزمة العتيدة من أزمات الكساد، تصبح السلع نادرة لأنه لا يوجد مشترين لها. كلما زادت صعوبة العثور على ورق الألمونيوم واللحم أو زيت المحركات، زاد إغراء اختطاف شاحنات ممتلئة بهذه السلع أو توزيعها بشكل استغلالى. فى الوقت نفسه فإن الموظفين العموميين (الشرطة على وجه الخصوص) استمروا فى الحصول على رواتب ثابتة من الليتاى الذى أصبح بلا معنى. سرعان ما أدرك اقتصاد

السوق السوداء أن بإمكانه تسعير رائد الشرطة فى القسم المحلى كما يُسعر علبة من المصابيح الكهربائية.

اندهش شيب من أوجه الشبه بين السوق السوداء فى ليتوانيا والاقتصاد الحر فى أمريكا. فى البلدين، يتركز الثراء فى أيدى القلة، وأى تمييز واضح بين القطاعين العام والخاص اختفى تمامًا. أباطرة التجارة يعيشون فى توتر لا ينتهى دفعهم إلى التوسع فى إمبراطورياتهم بلا رحمة، والمواطن العادى يعيش فى خوف لا ينتهى من أن يُفصل من العمل وفى ارتباك لا ينتهى متعلق بتحديد أطراف القطاع الخاص الذين أصبحوا يملكون مؤسسات القطاع العام هذا اليوم أو ذاك، وأصبح الاقتصاد يتغذى بالأساس على طلب النخبة الذى لا يشبع على الكماليات. (فى فيلنيوس بحلول أكتوبر، ذلك الخريف المشئوم، كان خمسة من النخبة المجرمة مسئولين عن توظيف آلاف النجارين وعمال البناء والطهاة وفتيات الليل وعمال البارات والميكانيكية والبودى جارد). الاختلاف الأساسى بين أمريكا وليتوانيا كما يرى شيب هو أن فى أمريكا تُخضع القلة الثرية غير الأثرياء الكثيرين بواسطة تخدير العقل وأساليب التسلية والترفيه القاتلة للروح والعقاقير الطبية، بينما فى ليتوانيا يُخضع الأثرياء الفقراء الكثيرين بالتهديد بالعنف.

استدفأ قلبه الفوكو-ى (نسبة إلى ميشيل فوكو) إذ أصبح يعيش على أرض يحدد الملكية والسيطرة على الخطابات والمقولات فيها من يملكون السلاح.

الليتوانى صاحب الأسلحة الأكثر هو رجل روسى الأصل اسمه فيكتور ليشنكيف، غسل أمواله التى ربحها من تجارة الهيروين وأقراص الهلوسة بأن تحول إلى احتكار شبه كامل على بنك ليتوانيا

بعد أن أساء المالك السابق للبنك (صندوق استثمار فليندلاى أطلانطا) بشكل كارثى تقدير أذواق المستهلكين فى موضوع ماستر كارد ديلبيرت. الاحتياطى النقدى المتوفر لفيكتور ليشنكيف مكّنه من تسليح خمسمائة رجل "أمن" خاص قاموا فى أكتوبر بكل جرأة بحصار المفاعل النووى المبنى على طراز شيرنوبل فى إجنالينا، على مسافة ١٢٠ كيلومترًا شمال شرقىّ فيلنيوس، وكانت تلك المنشأة توفر ثلاثة أرباع كهرباء ليتوانيا. منح الحصار ليشنكيف قدرة ممتازة على التفاوض على شراء أكبر منشأة عامة فى البلاد من غريمه الأوليجاركى الآخر الذى اشتراها رخيصة أثناء عملية الخصخصة الكبرى. وبين ليلة وضحاها أصبح ليشنكيف يسيطر على كل ليتاى يتدفق من كل متر كهرباء يتم ضخه فى ليتوانيا، لكن خوفًا من أن يؤدى أصله الروسى إلى عداء من الشعب له، راعى ألا يسىء استخدام سلطته الجديدة. وعلى سبيل تقديم بادرة حسن نية، أنزل أسعار الكهرباء بنسبة 15فى المائة، وكانت تلك هى نسبة رفع السعر التى قررها الأوليجاركى السابق عليه. وعلى أمواج موجة الشعبية التى نالها، قام بتأسيس حزب سياسى جديد (حزب الكهرباء الرخيصة للشعب) وتقدم بمرشحين برلمانيين فى انتخابات أواسط ديسمبر الوطنية.

وما زالت الأرض تنتج والنقود تدور على الأيدى. بدأ عرض فيلم كوميدى اسمه "مودى فروت" فى السينما الليتوانية. ودار على لسان جينفر أنيستون نكات عن ليتوانيا فى مسلسل "فريندس". راح العمال يفرغون خلاطات الأسمنت على النصب التذكارى أمام كنيسة سان كاثرين فى الميدان المسمى باسمها. لكن كل يوم يمر أعتم وأقصر من الذى سبقه.

بدأ دور ليتوانيا الدولى كقوة عالمية ينحسر منذ وفاة فيتاوتاس الأعظم عام ١٤٣٠ على مدار ستمائة عام راحت ليتوانيا تتنقل بين بولندا وبروسيا وروسيا وكأنها هدية عُرس يُعاد تدويرها. نجت من النسيان لغة ليتوانيا وذكريات أزمان أسعد، لكن الحقيقة الأساسية عن ليتوانيا أنها ليست كبيرة للغاية. فى القرن العشرين تمكن الجستابو من تصفية مائتى ألف يهودى ليتوانى، وتمكن السوفييت من ترحيل ثلاثة أرباع مليون مواطن ليتوانى إلى سيبيريا دون جذب اهتمام دولى لا لزوم له.

ينحدر جيتاناس ميسيفيكيوس من أسرة من القساوسة والجنود والموظفين، قريبة من الحدود مع بيلاروسيا. جده لأبيه، وكان قاضيًا، سقط فى اختبار مع الإدارة الشيوعية الجديدة فى عام ١٩٤٠ وأرسل إلى معتقل سيبيريا فى الجولاج مع زوجته ولم يسمع أحد عنهما ثانية. كان والد جيتاناس يملك بارًا فى فيدسكيس وساعد جبهة المقاومة الشعبية (إخوان الغابة كما كانوا يسمون) حتى توقفت أعمال القتال عام ١٩٥٣.

بعد مولد جيتاناس بعام، أخلت الحكومة التى نصبها السوفييت فيديسكيس وثمانية بلدات أخرى مجاورة لإخلاء الطريق أمام أول منشأة من منشأتين نوويتين. تم ترحيل خمسة عشر ألفًا ("لتأمينهم") وعُرض عليهم السكن فى مدينة صغيرة، فى مساكن جديدة تمامًا، هى مدينة كروشيفاى، وكان قد تم إنشاؤها سريعًا إلى جوار بحيرة فى منطقة إجنالينا الغربية.

قال جيتاناس لشيب: "كانت كئيبة المظهر نوعًا، كلها بيوت من الطوب والخرسانة بلا أشجار. كان بار والدى الجديد فى مبنى من

الخرسانة، فيه مقاعد من الخرسانة وأرفف من الخرسانة. تخطيط الاقتصاد الاشتراكى فى بيلاروسيا أسفر عن الكثير من الخرسانة وكانوا يقدمونه لنا بلا مقابل تقريبًا. أو هذا هو ما قيل لنا. المهم، انتقلنا جميعًا للمكان الجديد. حصلنا على أسرتنا الخرسانية وعلى الملاعب الخرسانية وعلى مقاعد الحديقة الخرسانية. مرت الأعوام، وأصبحت فى العاشرة، وفجأة أصيب آباء وأمهات الجميع بسرطان الرئة. الجميع بلا استثناء. وأصيبت أمى بورم فى الرئتين، وأخيرًا جاءت السلطات وفحصت الوضع فى كروشيفاى، وتأمل يا مؤمن: تبين أن عندنا مشكلة تسرب إشعاعى. مشكلة تسرب إشعاعى كبرى. مشكلة تسرب إشعاعى بنت وسخة فى واقع الأمر. لأنه تبين أن كل هذا الطوب الخرسانى الذى صُنع منه كل شىء ملوث بالإشعاع! الإشعاع يتجمع فى كل حجرة مغلقة فى كروشيفاى. خصوصًا الحجرات من قبيل البلاوات، التى ليس فيها الكثير من الهواء، حيث يجلس أصحاب المكان طوال النهار يدخنون السجائر. مثلما كان يفعل أبى مثلاً. المهم قالت لك بيلاروسيا، وهى الجمهورية الاشتراكية الشقيقة (والتى كانت ليتوانيا تملكها بالمناسبة)، قالت بيلاروسيا إنها حقًا آسفة. حدث خطأ كبير، آسفين، آسفين، آسفين. وهكذا أخرجونا جميعًا من كروشيفاى، ومات أبى ميتة بشعة، بعد منتصف الليل بعشر دقائق، فى اليوم التالى على عيد زواجه، لأنه لم يرغب فى أن تتذكر أمى أنه توفى فى ذكرى زواجهما، ثم مرت ثلاثون عامًا، وتنحى جورباتشوف، وأخيرًا أتيح لنا الاطلاع على تلك الأرشيفات القديمة، فماذا وجدنا؟ لم يكن تلوث الخرسانة بسبب التخطيط السيئ، لم تكن تلك مشكلة صغيرة فى الخطة الخمسية. كانت هناك خطة

متعمدة لإعادة تدوير النفايات النووية الرخيصة فى مواد البناء. وتم ذلك بناء على نظرية مفادها أن الأسمنت الذى تخلط به كتل الخرسانة تؤدى إلى تحييد ضرر النظائر المشعة! لكن كان مع البيلاروسيين عدادات جايجر لقياس الإشعاع، وكانت تلك نهاية حلم "تحييد الضرر" السعيد، وهكذا جاءنا ألف قطار محملاً بالخرسانة، نحن من لم نشك فى أى شىء".

قال شيب: "أوف".

قال جيتاناس: "الموضوع يتجاوز الأوف. فقد قتل بابا وأنا فى الحادية عشرة. ووالد أقرب صديق لى، والمئات غيرهما، على مدار السنوات. وكان كل شىء منطقيًا، فدائمًا ما يجدون لنا عدوًا يوجه لظهرنا السلاح. هناك ذلك الأخ الكبير، الاتحاد السوفيتى، الذى يمكننا جميعًا كراهيته، حتى التسعينيات".

كان برنامج الحزب الذى ساعد جيتاناس فى تأسيسه بعد الاستقلال يحتوى على مادة ثقيلة وعامة للغاية: على السوفييت أن يدفعوا ثمن اغتصاب ليتوانيا. لوهلة، أثناء التسعينيات، كان من الممكن إدارة البلاد على الكراهية الخالصة. لكن سرعان ما ظهرت أحزاب أخرى ببرامج قومية متعصبة بما يكفى، وسعت إلى ما هو أكثر من ذلك. بنهاية التسعينيات، بعد فقدان الحزب لمقعده الأخير فى البرلمان، كان ما تبقى من الحزب هو فيلا تم تجديد نصفها.

حاول جيتاناس أن يعقلن العالم من حوله سياسيًا ولم يتمكن. العالم عقلانى عندما يحتجزه الجيش الأحمر بصفة غير قانونية، ويستجوبه ويرفض الإجابة على الأسئلة، ويغطى النصف الأيسر من جسده بحروق من الدرجة الثالثة. لكن بعد الاستقلال فقدت

السياسة تماسكها. حتى موضوع تعويض السوفييت لليتوانيا، وهو موضوع مهم وبسيط، أربكه أن الليتوانيين أنفسهم أثناء الحرب العالمية الثانية ساعدوا فى اضطهاد اليهود، ولأن من يديرون الكريملين الآن هم أنفسهم من خصوم الاتحاد السوفيتى ويستحقون التعويض بقدر استحقاق الليتوانيين له.

سأل جيتاناس شيب: "ماذا أفعل الآن بينما الغازى الوحيد هو أسلوب حياة وثقافة، وليس جيشًا؟ أفضل مستقبل آمل فيه الآن لبلادى هو أن تبدو ذات يوم كدولة درجة ثانية من دول الغرب. مثلنا مثل الآخرين بمعنى آخر".

قال شيب: "أقرب إلى الدنمارك، بمطاعمها الأنيقة على الميناء والبوتيكات".

قال جيتاناس: "كم أحسسنا بليتوانيتنا عندما وجهنا أصابعنا نحو السوفييت بقوة وقلنا: لا، لن نقبل. لكن أن نقول: لا لسنا سوق حرة ولا لسنا دولة عولمة، هذا لا يُشعرنى بأننى ليتوانى. يجعلنى أشعر بأننى غبى من العصر الحجرى. كيف أكون وطنيًا الآن؟ ما هو الشىء الإيجابى الذى أحتاج للدفاع عنه؟ ما هو التعريف الإيجابى لبلدى؟"

استمر جيتاناس فى الإقامة فى الفيلا نصف المجددة. عرض جناح المساعد على أمه لكنه، فضلت الإقامة فى شقتها على مشارف إجنالينا. وكحال المسئولين الليتوانيين من ذلك العهد، لا سيما القوميين المتعصبين أمثاله، حصل على قطعة من الممتلكات الشيوعية السابقة، عشرين فى المائة من أسهم سوكروساس، معمل تكرير السكر الذى يعتبر ثانى أكبر مؤسسة لتشغيل العمال فى ليتوانيا، وعاش فى راحة نسبية كوطنى متقاعد على أرباح الأسهم.

ولفترة، مثل شيب، رأى جيتاناس الخلاص فى شخص جوليا فريس: فى جمالها وسعيها الأمريكى الواثق إلى المتعة. ثم فارقته جوليا على متن طائرة متجهة إلى برلين. ها هى الأقل خيانة فى حياة أصبحت وكأنها موكب واثق الخطى من الخيانات. خانه السوفييت وخانه الناخبون الليتوانيون، وخانته جوليا. أخيرًا، خانه صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وحوّل مرارة أربعين عامًا إلى مزحة شركة ليتوانيا وشركاها.

كانت الاستعانة بشيب لإدارة شركة حزب السوق الحرة أول قرار جيد يتخذه منذ فترة طويلة. ذهب جيتاناس إلى نيويورك ليبحث عن محامى طلاق وربما ليستعين بممثل أمريكى رخيص، شخص فى أواسط العمر، فاشل، يمكنه أن يضعه فى فيلنيوس ليطمئن المتصلين والزوار القادرة شركة ليتوانيا وشركاها على جذبهم. لا يكاد يصدق أن رجلاً شابًا وموهوبًا مثل شيب مستعد للعمل لديه. أحس بحسرة لفترة قصيرة لأن شيب كان ينام مع زوجته. حسب تجربة جيتاناس، فإن الجميع يخونوه فى نهاية المطاف. يقدر أن شيب أنجز خيانته قبل أن يقابله حتى.

بالنسبة لشيب، فإن الدونية التى أحسها فى فيلنيوس بصفته "أمريكى خائب" لا يتحدث الليتوانية ولا الروسية، لم يمت والده بسرطان الرئة فى شبابه، ولم يختف جده وجدته فى سيبيريا، ولم يُعذب على أفكاره الكبرى فى زنزانة سجن العسكر الباردة، كانت تلك الدونية تعوضها قدراته كموظف وذكرى بعض التناقضات الضخمة التى كانت تذكرها جوليا، تناقضت بينه وبين جيتاناس. فى البارات والنوادى، حيث لم يخطر للرجلين أن يذكرا أنهما ليسا شقيقين، كان شيب يشعر بأنه أكثر نجاحًا من جيتاناس.

قال جيتاناس فى عبوس: "كنت نائب رئيس وزراء ممتاز. لا أتمتع بنفس القدرات كأمير حرب ورئيس عصابة".

مصطلح "أمير حرب" مصطلح ضخم نوعًا على ما يفعله جيتاناس. ظهرت عليه أعراض الفشل التى يعرفها شيب جيدًا. كان يقضى ساعة فى حالة من القلق مقابل كل دقيقة عمل. المستثمرون من جميع أنحاء العالم يرسلون إليه مبالغ يودعها فى حسابه ببنك كريدى سويس كل خميس، لكن لا يمكنه أن يقرر هل يستخدم النقود "بشكل شريف" (أى أن يشترى مقاعد لشركة حزب السوق الحرة فى البرلمان) أو أن يرتكب أعمال النصب تلك بلا مواربة وينفق عملته الصعبة التى ربحها بالكذب والتزوير على أعمال أقل مشروعية. لوهلة كان يفعل الشيئين ولا يفعل أى منهما. وأخيرًا أقنعته بحوثه التسويقية (التى أجراها على أجانب مخمورين فى البارات) أقنعته بأنه فى هذا المناخ الاقتصادى الحالى، فإن حتى البلاشفة فرصهم أفضل من حزب اسمه "السوق الحرة" فى جذب الأصوات.

بعد أن تخلى عن كل أفكار البقاء فى الأعمال المشروعة، استخدم جيتاناس حراسًا. سرعان ما سأل فيكتور ليشنكيف جواسيسه: لماذا حرص ميسيفيكيوس ذلك الوطنى السابق على الحماية؟ كان جيتاناس أكثر أمانًا وهو وطنى سابق بلا حماية، عن كونه قائدًا لفرقة من عشرة شبان يحملون الكلاشينكوف. أصبح ملتزمًا بالاحتفاظ بعدد أكبر من الحراس، وكف شيب عن الخروج من الفيلا دون مرافق خوفًا من أن يطلق أحدهم النار عليه.

طمأنه جيتاناس قائلاً: "أنت لست فى خطر. قد يرغب ليشنكيف فى قتلى والاستيلاء على الشركة لنفسه، لكنك الإوزة التى تبيض ذهبًا".

أصبح شيب يشعر بالقلق والخوف عندما يخرج إلى أماكن عامة. ليلة عيد الشكر فى أمريكا شاهد اثنين من رجال ليشنكيف فى نادٍ ليلى مزدحم بأرضية لزجة اسمه موسميريت ويمران إلى جواره ثم يطلقان النار على بطن "مورد نبيذ وخمور" أحمر الشعر. كون رجال ليشنكيف مروا إلى جوار شيب دون أذيته فهذا لم يثبت وجهة نظر جيتاناس. لكن جسد "مورد النبيذ والخمور" بدا ناعمًا للغاية مقارنة بالرصاصات، كعهد شيب دائمًا بأجساد البشر الناعمة. غمرت الرجل المحتضر تيارات كهربية تحملها أعصابه. أصيب بارتعاشات عنيفة، انبعثت من مخازن مخبوءة من الطاقة الكهربية البشرية، نتائج إلكتروكيميائية مزعجة للغاية، لابد أنها ظلت خاملة طيلة حياته.

جاء جيتاناس إلى موسميريت بعد نصف ساعة. قال فى دهشة وهو ينظر إلى بقع الدم: "مشكلتى أنه من الأسهل إطلاق النار علىّ، أسهل من أن أطلق أنا النار".

قال شيب: "ها أنت عدت لنفس الكلام، تهرى فى نفسك".

"عندى قدرة جيدة على تحمل الألم، وصعب علىّ أن أتسبب فى الألم".

"كفى، لا تكن قاسيًا على نفسك هكذا".

"أن أَقتل أو أُقتل. ليس مفهومًا يسيرا".

حاول جيتاناس أن يكون عدوانيًا. بصفته أمير حرب ورئيس عصابة عنده مورد مهم: النقود المولدة من شركة حزب السوق الحرة. بعد أن حاصرت قوات ليشنكيف مفاعل إجنالينا النووى وأجبرت ليتوانيا إليكتريك على البيع، باع جيتاناس حصته الجيدة

من أسهم شركة السكر، وأخذ نقود شركة حزب السوق الحرة واشترى نصيبًا كبيرًا يؤهله للإدارة، فى شركة التليفون المحمول الأساسية فى ليتوانيا. كانت شركة ترانس ـ بلطيق هى الشركة الخدمية الوحيدة فى متناول ما لديه من نقود. أعطى لكل من حراسه ١٠٠٠ دقيقة محلية فى الشهر، بالإضافة إلى بريد صوتى مجانى وخدمة معرفة رقم المتصل، وحملهم على العمل فى مراقبة هواتف ليشنكيف الكثيرة فى شركة ترانس ـ بلطيق. عندما عرف بأن ليشنكيف على وشك التخلص من نصيبه فى الشركة الوطنية للجلود والمنتجات الحيوانية ومشتقاتها، تمكن جيتاناس من بيع أسهمه. ذلك الإجراء كفل له مكسبًا مهمًا لكن ثبت أنه قاتل على المدى البعيد. كان ليشنكيف الذى أخبره أحدهم بأن تليفوناته مُراقبة، قد غير الخدمة إلى شركة محمول إقليمية. ثم التفت إلى جيتاناس وهاجمه.

عشية انتخابات ٢٠ ديسمبر، تم تعطيل محطة كهرباء محلية منتقاة مما أدى لتعطيل مركز تحويلات شركة ترانس ـ بلطيق وستة من أبراج تقوية الإشارة. حاولت عصابة من شبان فيلنيوس من مستخدمى المحمول الغاضبين ـ برؤوس محلوقة ولحى قصيرة كلحى المعيز ـ مداهمة مقر ترانس-بلطيق. اتصلت ترانس ـ بلطيق تطلب المساعدة على الهواتف الأرضية. ردت "الشرطة" على الاتصال بأن انضمت إلى العصابة فى نهب المقر وحصار خزانته حتى وصول ثلاث شاحنات محملة برجال "شرطة" من القسم الوحيد الذى تمكن جيتاناس من رشوته. بعد معركة سوداء، تراجعت مجموعة رجال الشرطة الأولى، وفرق باقى رجال "الشرطة" العصابة.

راح طاقم الشركة الفنى فى ليلة الجمعة وصباح السبت يعملون بكل جهد على إصلاح مولد الطوارئ الذى يعود إلى عهد بريزنيف الذى يوفر الطاقة البديلة لمركز التحويلات المُعطل. كانت هناك قطعة غيار مهمة وأساسية فى المولد معطلة، متآكلة بشكل لا ينفع معه إصلاح، وعندما حاول مشرف الطاقم الفنى أن يحركها لاختبار تماسكها انخلعت تمامًا. ثم وبينما المُشرف يعمل على ضوء الشموع والكشافات على الإصلاح، أحرق قطعة من ملف التوصيل الرئيسى بالمشعل الذى يحمله فى يده، ثم ونظرًا لحالة الاضطرابات السياسية المحيطة بأجواء الانتخابات لم يعثروا على محركات كهربية أخرى تعمل بالمازوت بأى سعر فى أى مكان فى فيلنيوس، وفى الوقت نفسه تردد موردى قطع غيار المعدات الكهربائية فى بولندا وفنلندا فى توفير القطعة المطلوبة، نظرًا للاضطرابات السياسية، التى صعبت من شحن أى شىء إلى ليتوانيا دون الحصول أولاً على المقابل بالعملة الغربية الصعبة، وهكذا فإن ذلك البلد ـ مثل الكثير من نظرائه من دول الغرب ـ الذى قام مواطنوه ببساطة بالتخلص من الهواتف الأرضية عندما أصبح المحمول رخيصًا ومنتشرًا، دخل فى صمت اتصالى كصمت القرن التاسع عشر.

فى صباح الأحد شديد العتمة، حصل ليشنكيف ومن معه من المهربين والقتلة فى حزب كهرباء رخيصة للشعب، على ٣٨ مقعداً من 141مقعداً فى البرلمان. لكن الرئيس الليتوانى، أودريوس فيتكوناس ـ القومى الكاريزمى المصاب بالبارانويا الذى يكره روسيا والغرب بنفس الحماس ـرفض التصديق على نتائج الانتخابات.

صاح فيتكوناس فى برنامج تليفزيونى تم بثه مساء الأحد: "لن يخيفنى ليشنكيف الجبان وكلابه الغاضبة! انقطاع الكهرباء يوميًا والانهيار شبه الكامل لشبكة الاتصالات فى العاصمة وما حولها، وذلك الجيش المسلح بأسلحة ثقيلة من رجال لشينكيف البلطجية الكلاب لا يلهمنا الكثير من الثقة فى أن نتائج تصويت الأمس تعكس الإرادة العنيدة والتقدير السليم للشعب الليتوانى العظيم المجيد الخالد! إننى لم ولن أقدم على ولا أجرؤ على أن أصدق على هذه الانتخابات المزيفة الحقيرة التى تم إخضاع الشعب العظيم عليها إخضاعًا!".

شاهد جيتاناس وشيب هذا الكلام على التليفزيون فى قاعة حفلات الفيلا. كان هناك اثنان من الحراس يلعبان الكوتشينة فى ركن من الحجرة بينما جيتاناس يترجم خطاب فيتكوناس الملتهب. تلاشى ضوء أقصر نهار فى العام من وراء النوافذ.

قال جيتاناس: "هذا الكلام لن يؤدى إلى أى خير. أشعر أن ليشنكيف يريد تصفية فيتكوناس وأن يخاطر بأن يحل محله".

كان شيب - الذى يبذل قصارى جهده لنسيان أن الكريسماس بعد أربعة أيام - يأمل ألا يكون قد اتخذ قرار البقاء فى فيلنيوس ثم يُطرد منها بعد أسبوع من العيد. سأل جيتاناس إن كان قد فكر فى سحب نقوده من حساب كريدى سويس ومغادرة ليتوانيا.

قال جيتاناس الذى كان يرتدى سترته الحمراء ويحتضن نفسه: "آه، طبعًا. أفكر فى التسوق من بلومينجدال كل يوم. أفكر فى أشجار مركز روكفيلر الكبيرة".

"إذن ما الذى يمنعك؟"

حك جيتاناس رأسه وشم أظافره، رائحة فروة رأسه والعرق، راح يشم فى استمتاع، قال: "إن غادرت وانتهت المشكلة على لا شيء، أين أصبح؟ أنا "مفشوخ" على كل حال. لن أجد عملاً فى أمريكا. وبداية من الشهر القادم فأنا لست متزوجًا من أمريكية. وأمى فى إجناليناـ ماذا سأجد فى نيويورك؟"

"يمكننا إدارة عملنا هذا من نيويورك".

"عندهم هناك قوانين. سوف يُغلقون لنا المكان فى ظرف أسبوع. أنا مفشوخ بالثلث".

نحو منتصف الليل صعد شيب للطابق العلوى ووضع نفسه بين ملاءاته الباردة، ملاءات الكتلة الشرقية. كانت رائحة حجرته رطبة، رائحة سجائر وشامبو قوى من النوع الذى يسر الأنف البلطيقية. شغله التفكير، ولم ينم رغم أنه حاول. أخطأ ضوء الشارع الذى يراه من النافذة فظنه نور النهار. نزل للطابق السفلى فأدرك أن الوقت بعد الظهر فى يوم الكريسماس. أحس فى ذعر أنه نام كثيرًا وتخلف عن الآخرين، أن عنده نقص فى المعلومات. كانت أمه تحضر عشاء الكريسماس فى المطبخ، وأبوه الشاب يرتدى جاكيتًا من الجلد، يجلس فى قاعة الحفلات فى ضوء آخر النهار الخابى يشاهد أخبار سى بى إس المسائية مع دان راذر. وعلى سبيل تحرى الدماثة، سأله شيب ماذا تقول الأخبار.

قال ألفريد لشيب، دون أن يعرف أنه هو: "قل لشيب إن هناك مشاكل فى الشرق".

جاء نور النهار الحقيقى فى الثامنة صباحًا. أفاق من نومه على جلبة وضوضاء فى الشارع. كانت حجرته باردة لكن لا تقارب درجة

التجمد، وفيها رائحة تراب دافئ يتسرب من الدفاية، ما زالت غلاية المدينة المركزية تعمل، النظام الاجتماعى ما زال متماسكًا.

رأى من وراء أوراق الشجر خارج نافذته حشدًا من عشرات الرجال والنساء يرتدون معاطف ثقيلة، يسيرون ويقفون خارج السور. نزل فى الليل الثلج. كان اثنان من رجال أمن جيتاناس، الشقيقان جوناس وإيداريس - رجلان شقراوان ضخما الجثة معهما أسلحة نصف أوتوماتيكية يربطانها بحزام - يتفاوضان من وراء قضبان البوابة الأمامية مع سيدتين فى أواسط العمر بشعر نحاسى ووجوه حمراء، وهو ما أعطى شيب الإحساس - كما فعلت دفاية شيب - بأن الحياة العادية مستمرة على منوالها.

فى الطابق السفلى ردت قاعة الحفلات صدى الإعلانات الليتوانية المتلفزة الحماسية. كان جيتاناس جالسًا حيث تركه شيب ليلة الأمس، وملابسه مختلفة الآن، ويبدو أنه نام.

نور الصباح الرمادى والثلج على الأشجار والإحساس الهامشى بالارتباك والقطيعة، تذكر نهاية فصل الخريف الأكاديمى، آخر يوم فى الامتحانات قبل عطلة الكريسماس. ذهب شيب إلى المطبخ وصب لنفسه كوب لبن فول صويا فى طبق شوفان أمريكى. شرب عصيرًا ألمانيًا عضويًا كان قد أحبه مؤخرًا. أعد كوبين من القهوة فورية التحضير وأخذهما إلى قاعة الحفلات، حيث كان جيتاناس قد أطفأ التليفزيون وراح يقرض أظافره.

سأله شيب ما الأخبار.

قال جيتاناس: "هرب جميع حراسى عدا جوناس وأيداريس. أخذوا السيارة الفولكس والسيارة اللادا. لا أظن أنهم سيعودون".

قال شيب: "مع حُماة كهؤلاء، من يحتاج معتدين؟"

"تركوا لنا السيارة الستومبر، التى تجذب إليها المجرمين كالمغناطيس".

"متى حدث هذا؟"

"لابد أنه حدث بعد أن أمر الرئيس فيتكوناس بأن يستعد الجيش".

ضحك شيب: "ومتى حدث هذا؟"

"فى ساعة مبكرة من الصباح. ما زال كل شىء فى المدينة على حاله، باستثناء شركة ترانس - بلطيق طبعًا".

تضخم التجمهر فى الشارع. ربما يوجد الآن مائة شخص، يرفعون هواتف محمولة يصدر عنها مجتمعة صوتًا ملائكيًا مخيفًا. كانت تلك رنات دالة على "انقطاع الخدمة".

قال جيتاناس: "أريدك أن تعود إلى نيويورك. سنرى ماذا سيحدث هنا. ربما سآتى بدورى، وربما لن أفعل. لابد أن أذهب لأمى على الكريسماس. وها هى مكافأة نهاية خدمتك".

ألقى لشيب مظروفًا بنيًا سميكًا فى نفس التوقيت الذى انبعثت فيه أصوات خبطات على جدران الفيلا الخارجية. ألقى شيب المظروف من يده. مرق حجر من النافذة فهشمها ومر إلى جوار التليفزيون. كان الحجر مربعًا، قطعة من الرصيف الجرانيتى. كانت مغلفة بعدوانية طازجة يبدو عليها القليل من الحرج.

اتصل جيتاناس بـ "الشرطة" على التليفون الأرضى وتحدث معهم فى إرهاق. جاء إليهما الأخوان جوناس وأيداريس، وأصابعهما على

الزناد، من الباب الأمامى، وراءهما الهواء البارد. الشقيقان من أبناء عم جيتاناس، ربما لهذا لم يتركاه مع الآخرين. وضع جيتاناس السماعة وتحدث معهما بالليتوانية.

المظروف البنى يحتوى على كومة لحيمة من البنكنوت فئة الخمسين والمائة دولار.

إحساس شيب من حلمه، إدراكه المتأخر بأن العطلة قد جاءت، استمر معه ولازمه فى النهار. لم يأت أى من شباب الإنترنت للعمل اليوم، وها هو جيتاناس يعطيه هديته، والثلج عالق بأوراق الشجر، ومرددو أناشيد عيد الميلاد فى معاطفهم الثقيلة على الأبواب.

قال جيتاناس: "جهز حقائبك. سوف يأخذك جوناس إلى المطار".

صعد شيب للطابق العلوى برأس وقلب فارغين. سمع طلقات الرصاص عند التراس الأمامى للفيلا، رنين فوارغ الرصاص وهى ترتطم بالأرض، جوناس وإيداريس يطلقان النار (كما يأمل) على السماء. جينجل بيلز جينجل بيلز.

ارتدى بنطلونه الجلدى ومعطفه الجلدى. حزم حقيبته أعاده إلى لحظة إخراج أمتعته من الحقيبة فى مطلع أكتوبر، فاكتملت دائرة من الزمان اختفت معها فترة اثنى عشر أسبوعًا. ها هو مرة أخرى يحضر حقيبته.

كان جيتاناس يشم أصابعه، وعيناه على الأخبار، عندما عاد شيب إلى قاعة الحفلات. شوارب فيكتور ليشنكيف تتراقص على الشاشة.

"ماذا يقول؟"

هز جيتاناس رأسه: "أن فيتكوناس فاقد الأهلية ومجنون، إلى آخره. وأن فيتكوناس يحضر لانقلاب لضرب إرادة الشعب الليتوانى، إلى آخره".

قال شيب: "لابد أن تأتى معى".

قال جيتاناس: "سأذهب لأزور أمى. سوف أتصل بك الأسبوع القادم".

لف شيب صديقه بذراعيه واحتضنه بقوة. شم رائحة زيوت فروة رأسه التى يشمها جيتاناس فى توتره. أحس وكأنه يحتضن نفسه، وكأن كآبة صديقه وغيابه عن الواقع وانغلاقه التام، تنقل إليه عدوى الإحساس بالتيه.

أطلق جوناس نفير السيارة أمام باب الفيلا الأمامى.

قال شيب: "لنلتق إذن فى نيويورك".

قال جيتاناس وهو يبتعد عنه ويتراجع إلى التليفزيون: "طيب، ربما".

لم يعد هناك إلا قلة من المتظاهرين، يرمون الحجارة على الستومبر بينما جوناس وشيب يمرقان بسرعة من البوابة المفتوحة. مضوا جنوبيًا إلى خارج وسط البلد، إلى شارع تصفه محطات البنزين المُحرم والبنايات البنية التى يبدو أنها شهدت أيامًا أسعد من هذا اليوم، حيث الطقس كئيب والضوء ضعيف. كان جوناس يتحدث القليل من الإنجليزية لكنه تمكن من ضرب شىء من الألفة بينه وبين شيب، وعيناه على مرآة السيارة. حركة السيارات قليلة

للغاية هذا الصباح، والسيارات الباهظة التى تملكها طبقة أمراء الحرب تجذب انتباهًا غير محبب فى فترة الاضطرابات هذه.

كان المطار الصغير ممتلئًا بشباب يتحدثون كل لغات الغرب. منذ صفى صندوق كواد سيتيز للاستثمار أصوله فى شركة الخطوط الجوية الليتوانية، استولت شركات طيران أخرى على أجزاء من الشركة، لكن جدول الطيران الضئيل (١٤ رحلة سفر من عاصمة فى أوروبا) لم يكن مؤهلاً للتعامل مع أحمال مسافرى يوم كهذا اليوم. المئات من الطلاب ورجال الأعمال البريطانيين والألمان والأمريكان، والكثير منهم وجوههم مألوفة لشيب منذ أيام ارتياد البارات مع جيتاناس، يتكالبون على كاونترات الحجز على خطوط الطيران الفنلندية وعلى لوفتهانزا، وإيروفلوت وخطوط الطيران البولندية.

كانت أتوبيسات المدينة تفد ومعها أحمال إضافية من الرعايا الأجانب. على قدر ما يرى شيب، لم تكن الطوابير عند أى كاونتر تتحرك بالمرة. نظر إلى جدول الرحلات المتجهة خارج ليتوانيا واختار خطوط فنلندا الجوية، صاحبة أكبر قدر من الرحلات اليوم.

وهو يقف فى نهاية طابور طويل للغاية عند كاونتر الخطوط الفنلندية رأى فتاتين أمريكيتين جامعيتين ترتديان جينزًا وثيابًا أخرى تعود للستينيات. أسماهما مكتوبات على الحقائب: تيفانى وشيريل.

سألهما شيب: "هل معكما تذاكر؟"

قالت تيفانى: "للغد، لكن الوضع يبدو صعبًا".

"هل يتحرك هذا الطابور؟"

"لا أعرف. نحن هنا منذ عشر دقائق".

"لم يتحرك منذ عشر دقائق؟"

قالت تيفانى: "هناك شخص واحد عند الكاونتر. لكن يبدو أنه لا يوجد كاونتر أفضل للشركة الفنلندية فى أى مكان آخر بالمطار".

أحس شيب بالارتباك واضطر لأن يبذل جهدًا كى لا يخرج فينادى على تاكسى ويعود لجيتاناس.

قالت شيريل لتيفانى: "وكان كلام أبى، يعنى، أننى يجب أن أؤجر شقتى من الباطن لو ذهبت لأوروبا، وأنا، يعنى، وعدت أنا بأن بإمكانها الإقامة فى شقتى فى العطلات حتى تنام مع جاسون، أنت معى؟ لا يمكننى أن أسحب وعدى، صح؟ لكن أبى نفد صبره وكده، وأنا يعنى، مالك، هذه شقتى، صح؟ اشتريتها لى، صح؟ لا أريد أن يقيم فيها شخص غريب، يعنى، يقلى أشياء على البوتاجاز، وينام فى سريرى. هه؟"

قالت تيفانى: "حاجة تقرف فعلاً".

قالت شيريل: "ويستخدم وساداتى".

انضم إلى الطابور وراء شيب شخصان آخران غير ليتوانيين، من بلجيكا. ألا تكون آخر شخص فى الطابور مسألة مريحة نوعًا. طلب شيب من البلجيكيين بالفرنسية أن يراعيا حقيبته ويحجزا له مكانه. ذهب إلى الحمام، وحبس نفسه فى المرحاض، وراح يحصى النقود التى أعطاها له جيتاناس.

٢٩٢٥٠ دولارًا.

أزعجه هذا نوعًا. أصابه الخوف.

أعلن صوت فى مكبر الصوت بالحمام باالليتوانية ثم بالروسية ثم بالإنجليزية أن رحلة الخطوط الجوية البولندية رقم ٣٢١ القادمة من وارسو قد ألغيت.

وضع شيب عشرين ورقة من فئة المائة فى جيب التى شيرت، ووضع ألفين فى فردة حذائه اليسرى، ثم أعاد باقى النقود إلى المظروف، ثم وضع المظروف داخل التى شيرت، على بطنه. تمنى لو كان جيتاناس لم يعطه النقود. بدون النقود لديه سبب قوى للبقاء فى فيلنيوس. لم تعد لديه الآن أسباب جيدة، وهى حقيقة بسيطة أخفتها الأسابيع الاثنى عشر الماضية. حقيقة بسيطة، أنه يخشى العودة إلى بلده.

لا يوجد رجل يحب رؤية جُبنه بهذا الوضوح كما يراه شيب الآن. كان غاضبًا من النقود وغاضب من جيتاناس الذى أعطاه النقود وغاضب من ليتوانيا على انهيارها، لكن الحقيقة الباقية أنه يخشى العودة، وليس هذا خطأ أحد إلا هو.

رجع إلى دوره فى خطوط فنلندا الجوية التى لم تتحرك بالمرة. مكبرات الصوت فى المطار تعلن عن إلغاء الرحلة ١٠٤٨ القادمة من هيلسنكى. سمع آهة جماعية، وتدافعت الأجساد إلى الأمام، وانفرط الجزء الأمامى من الطابور على الكاونتر كأنه دلتا نهر.

ركلت شيريل وتيفانى حقائبهما إلى الأمام. ركل شيب حقيبته إلى الأمام. أحس بأنه عاد إلى العالم ولم يعجبه ما يحدث. يرى ضوء مستشفيات، ضوء من الجدية والحتمية ينسدل على الفتيات والأمتعة وموظفى الخطوط الفنلندية فى زيهم الرسمى. لا يوجد مكان يختبئ فيه شيب. كل من حوله يقرأون روايات. لم يقرأ رواية

منذ عام على الأقل. هذه الفكرة تخيفه بقدر ما يخشى الكريسماس فى سان جود. يريد أن يخرج ويوقف تاكسيًا لكن يشك أن جيتاناس قد هرب من المدينة.

وقف فى الطابور الذى لا يتحرك نصف ساعة، حتى أصبحت الساعة الثانية والنصف ـ الصباح الباكر فى سان جود. بينما وقف البلجيكيان يحرسان حقيبته مرة أخرى، وقف ينتظر فى طابور مختلف حتى رفع السماعة وتكلم.

صوت إنيد بعيد وضئيل: "آلو؟"

"أهلاً يا ماما، إنه أنا".

ارتفع صوتها فجأة وأصبح قويًا: "شيب؟ شيب! آل، إنه شيب! إنه شيب، شيب! أين أنت؟"

"أنا فى المطار فى فيلنيوس، قادم إلى البيت".

"رائع! رائع! رائع! قل لى، متى تصل إلى هنا؟"

قال: "ليست معى تذكرة بعد. الحالة منهارة هنا. لكن بعد ظهر الغد، ربما، أو الأربعاء على أبعد تقدير".

"رائع!"

لم يكن مستعدًا للسعادة فى صوت أمه. إن كان يعرف يومًا أنه قادر على جلب السعادة لغيره من الناس، فقد نسى ذلك تمامًا. اهتم بضبط صوته وتقليل كلماته. قال إنه سيتصل مرة أخرى ما إن يصل إلى مطار أفضل.

قالت إنيد: "هذه أخبار رائعة! أنا سعيدة جدًا!"

"طيب، أراك قريبًا".

شتاء البلطيق العظيم يقترب من الشمال. المحاربون القدامى فى مقدمة طابور الخطوط الفنلندية أفادوا بأن جميع تذاكر رحلات اليوم قد بيعت وأن هناك رحلة واحدة على الأقل من هذه الرحلات قد تُلغى، لكن شيب يأمل فى أن يدفع رشوة مائتى دولار للحصول على "امتيازات خاصة" من النوع الذى روج له على موقع ليتوانيا دوت كوم. وإن فشل فسوف يشترى تذكرة أحدهم بالكثير من النقود.

قالت شيريل: "يا ربى يا تيفانى. مشاية جيمانيزيوم الـ ستير ماستر تبنى عضلات المؤخرة بسرعة رهيبة".

قالت تيفانى: "لكن الأهم، يعنى، أنها تبرز للخارج قليلاً".

قالت شيريل: "المؤخرات تبرز للخارج قليلاً. هذا ما يحدث دائمًا، بسبب التعب فى عضلات الساقين".

قالت تيفانى: "يا ناصحة! إنها ستيرماستر! المفترض أن تتعب ساقاك منها".

نظرت شيريل إلى النافذة ثم سألت فى استياء الطلبة الجامعيين فى مرحلة البكالوريوس: "أوف، لماذا أرى دبابة وسط مدرج إقلاع وهبوط الطائرات؟"

بعد دقيقة أطفئت الأنوار وماتت التليفونات.

كريسماس أخير

فى القبو، عند الطرف الشرقى من مائدة تنس الطاولة، جلس ألفريد يفك كرتونة الويسكى الممتلئة بمصابيح شجرة الكريسماس. كانت أدويته ومعدات الحقنة الشرجية على المائدة. وهناك كعكة سكر صغيرة طازجة خبزتها إنيد على هيئة توحى بأنها كلب صيد لكن القصد من وراءها حيوان الرنّة. أمامه كرتونة عصير قديمة فيها أنوار ملونة كبيرة كان يعلقها أمام باب البيت. أمامه أيضًا بندقية "شوت جان" فى حقيبة قماشية، وصندوق من الرصاصات. أحس بصفاء ذهنى نادر وإرادة كافية لأن يقول لنفسه إن عليه استخدامها بينما هى سليمة لم تتعطل بعد.

نور ساعة العصارى الظليل أسير المناطق المجاورة للنافذة. فرن التدفئة ساخن والبيت يسرب حرارته. سويتر ألفريد الأحمر متهدل عليه، كله طيات هنا وهناك، وكأنه مقعد معلق عليه الرداء. البلوفر الصوف الرمادى مبتلٍ ببقع لا خيار له إلا أن يحتملها.

فوق كرتونة الويسكى القديمة سلسلة طويلة للغاية من أضواء الكريسماس الملتفة حول نفسها. السلسلة عليها رائحة العفن بسبب التخزين تحت التراس، فى القبو، وعندما وضع مقبسها فى

الكهرباء رأى على الفور أن مصابيحها ليست على ما يرام. أغلب المصابيح تتوهج بقوة زائدة، لكن قرب وسط الخيط مجموعة من المصابيح غير المضاءة. فض السلسلة بأيدٍ مرتجفة مبعدًا إياها عن مائدة تنس الطاولة. هناك عند الطرف مجموعة من المصابيح الميتة.

يفهم ما تتوقعه منه الحداثة حاليًا. الحداثة تتوقع منه أن يخرج بسيارته إلى متجر أوكازيونات كبير ويستبدل السلسلة المتضررة بأخرى تعمل. لكن المتاجر ذات الأوكازيونات نفد مخزونها فى هذا الوقت من العام، وسوف ينتظر فى طابور المشترين عشرين دقيقة. لا يزعجه الانتظار لكن إنيد لن تدعه يقود السيارة، وإنيد تكره الانتظار. إنها فى الطابق الأعلى تقتل نفسها قتلاً كى تحضر البيت للكريسماس.

قال ألفريد لنفسه إن الأفضل أن يبقى بعيدًا عن الأنظار فى القبو، وأن يدبر نفسه بما لديه. أزعجته فكرة أن يرمى سلسلة مصابيح يعمل تسعين فى المائة منها. أزعجته الفكرة لأنه شخص من عصر قوامه أفراد، وسلسلة المصابيح مثله، شىء فردى. بغض النظر عن ثمن ذلك الشىء، فأن يرميه معناه أن ينكر قيمته، وبالتالى قيمة الأفراد بشكل عام، معناه أن يعتبر عمدًا أن ذلك الشىء جدير بالقمامة بينما يعرف أنه ليس نفايات.

الحداثة تتوقع هذه الخطة وألفريد يقاومها.

لسوء الحظ، لم يكن يعرف كيف يصلح المصابيح. لا يفهم كيف يمكن أن تموت سلسلة من ١٥ مصباحًا. فحص وحدة التحويل التى تنير وتطفئ المصابيح ولم ير تغييرًا فى نمط التوصيل بين آخر لمبة

مضيئة وأول لمبة ميتة. لا يمكنه أن يتابع الأسلاك الثلاثة المجدولة الملفوفة حول بعضها بعينيه. الدائرة الكهربائية موضوعة بالتوازى بطريقة معقدة لا يرى الفائدة أو الغرض منها.

فى الأيام الخوالى كانت مصابيح الكريسماس مكونة من سلاسل قصيرة يتم توصيلها بالتوالى. إذا احترقت لمبة أو حتى انخلعت من مكانها، تنهار الدائرة الكهربية وتنطفئ السلسلة بالكامل. من طقوس الكريسماس عند جارى وشيب وهم صغار أن يقوما بإحكام ربط كل من المصابيح فى مكانه، ثم إذا لم تعمل، يقوما باستبدال كل لمبة بأخرى جديدة حتى يتم اكتشاف المصباح الميت. (ياالاستمتاع الأولاد وسعادتهم ببث الحياة من جديد فى سلسلة المصابيح!). عندما كبرت دينيس بما يكفى لتساعد فى مشكلة المصابيح، كانت التكنولوجيا قد تقدمت. أصبح التوصيل بالتوازى، والمصابيح توضع فى قواعد بلاستيكية. المصباح الواحد المعطل لا يؤثر على باقى المجتمع، بل يتم التعرف عليه فورًا ويُستبدل بآخر بسرعة.

يدا ألفريد تدوران على محور معصميه وكأنهما رأسا توأم لمضرب بيض كهربائى. مد أصابعه قدر إمكانه على امتداد السلسلة، وراح يضغط هنا ويلف الأسلاك هناك، حتى دبت الحياة فى المنطقة الميتة من السلسلة! أصبح خيط المصابيح بأكمله يعمل!

ماذا فعل؟

فض السلسلة على امتدادها على مائدة تنس الطاولة. على الفور تقريبًا أظلمت المنطقة الميتة مرة أخرى. حاول أن يبث فيها الحياة مرة أخرى بأن يضغط هنا ويربت هناك، لكن هذه المرة لم يحالفه الحظ.

(وضعت ماسورة البندقية فى فمك ومددت يدك إلى الزناد).

عاود فحص الأسلاك المجدولة كأغصان الزيتون. الآن، رغم مصابه الأليم، يعتقد أنه يمكنه أن يجلس وفى يده قلم رصاص وورقة وأن يعيد اختراع مبادئ الدوائر الكهربائية الأساسية. كان واثقًا للحظة من قدرته على هذا، لكن مهمة فهم الدائرة المرتبة بالتوازى أتعب من القيادة مثلاً إلى المتجر والوقوف فى الطابور. المهمة الذهنية تتطلب إعادة اكتشاف مدركات أساسية، تتطلب إعادة توصيل أسلاك دوائر مخه. من المدهش حقًا أنه يمكن حتى التفكير فى أمر كهذا، إن يجلس رجل وحيد فى قبوه وبندقيته وكعكته الصغيرة معه فى مقعده الأزرق ويتمكن من أن يعيد توصيل دوائر عضوية مخية بالقدر الكافى لفهم دائرة الكهرباء، لكن الطاقة المفقودة هنا يمكنها أن تتجاوز كثيرًا الطاقة المتوفرة له على هيئة كعكة السكر. ربما إن أكل صندوقًا كاملاً من الكعك مرة واحدة، يمكنه أن يعاود تعلم الدوائر الكهربية بالتوازى وأن يفهم مسألة الأسلاك الثلاثة المجدولة لهذه الأضواء الجهنمية. لكن، يا ربى، كم يتعب الإنسان منا.

هز السلسلة فعادت الأضواء الميتة إلى الحياة مرة أخرى. هز السلسلة فلم تمت مرة أخرى. بعد أن عاود لف السلسلة مرة أخرى، أصبح قلب السلسلة الأوسط ميت مرة أخرى. مائتا لمبة مضيئة وتعمل بكفاءة، لكن الحداثة تقتضى منه أن يرمى هذا الشىء كاملاً.

خطر له أن ثمة شيئًا فى هذه التكنولوجيا الجديدة غبى أو كسول. مهندس شاب ما قام بعمل توصيلة مختصرة ولم يتوقع تبعات ما يعانى هو منه الآن. لكن لأنه لا يفهم هذه التكنولوجيا،

فليس أمامه سبيل لأن يعرف طبيعة العطل أو أن يتخذ الخطوات اللازمة لإصلاحه.

وهكذا حولته الأضواء اللعينة إلى ضحية، ولا يوجد أى شىء بيده إلا أن يخرج و"ينفق".

وأنت صبى كنت مجهزًا بإرادة إصلاح الأشياء بنفسك واحترام الأشياء المادية شيئًا شيئًا فرادى، لكن مع الوقت تصاب بعض معداتك الداخلية بالعطب، ومنها معدات ذهنية كتلك الإرادة وذلك الاحترام، وهكذا ورغم أن هناك أجزاء عديدة منك ما زالت تعمل جيدًا، فمن الممكن أن نخرج بحجج دامغة لصالح التخلص من الماكينة البشرية كلها.

أى باختصار: هو مُتعب.

وضع الكعكة فى فمه. راح يمضغ فى حذر ويبتلع. الكبر فى السن جحيم.

لحسن الحظ هناك آلاف المصابيح الأخرى فى كرتونة الويسكى القديمة. راح ألفريد يجرب كل سلسلة مصابيح بثبات. وجد ثلاث سلاسل مصابيح أقصر تعمل جيدًا، وباقى السلاسل إما ميتة موتًا لا مفر منه أو قديمة لدرجة أن الأضواء أصبحت خافتة وصفراء، والسلاسل الثلاث الأقصر لن تغطى الشجرة كاملة.

عثر فى قعر الكرتونة على عبوات من اللمبات الجديدة. عثر على سلاسل كان قد غير توصيلاتها قديمًا بعد قص الأجزاء السقيمة منها. عثر على سلاسل قديمة بتوصيل تتابعى بدوايات مصابيح مكسورة كان قد عالجها باللصق. أحس بالانبهار أنه قد أتيح له الوقت لإجراء هذه التصليحات وسط مسئولياته الأخرى جميعًا.

آه، يا الأساطير، التفاؤل الطفولى الدافع لإجراء الإصلاحات! الأمل ألا يعطب الشىء أبدًا. الإيمان البليد بأن هناك دائمًا مستقبلاً لن يكون فيه ألفريد حيًا فحسب، بل عنده أيضًا من الطاقة أن يقوم بإصلاحات. القناعة الهادئة بأن هناك فائدة فيما بعد لحماسته وحرصه على الإصلاح والحفاظ، أنه سيفيق من النوم ذات يوم متحولاً إلى شخص آخر جديد لديه طاقة لا تنضب ووقت أبدى لرعاية كل الأشياء التى أنقذها من الهلاك، وأنه سيبقيها دائمًا تعمل، وستبقى دائمًا مع بعضها لن تفترق.

قال بصوت مسموع: "الأفضل أن أتخلص من كل هذا القرف".

اهتزت يداه. دائمًا ما تهتز.

أخذ البندقية إلى ورشته ومال عليها بعد أن وضع كعبها على مائدة المعمل.

لا حل للمشكلة. كان هناك فى مياه مالحة باردة لدرجة لا تحتمل، رئتاه نصف ممتلئتين بالماء وساقاه الثقيلتان مصابتان بشد عضلى وكتفه انخلع من مكانه، وما كان عليه سوى ألا يفعل أى شىء. أن يستسلم ويغرق. لكنه ركل الماء بقدمه على سبيل رد الفعل اللاإرادى. لم تعجبه الأعماق وهكذا ركل، ثم انهمرت عليه من فوق أشياء برتقالية طافية لأغراض الإنقاذ. وضع يده التى ما زالت تعمل فى واحدة منها فى اللحظة التى أرسلته موجة مبعثها سفينة جانر ميردال مسافة بعيدة عنها. ما كان عليه سوى أن يستسلم. لكن كان من الواضح وهو يكاد يغرق هناك فى شمال الأطلنطى أن المكان الآخر لن يجد فيه أى أشياء.. إن الشىء البرتقالى التعيس الطافى على وجه الماء الذى علق ذراعه فيه، تلك الكومة الضنينة

من المواد الصناعية، ستكون ربًا فى عالم الموت العدمى الذى يتجه إليه، ستكون "أقول للشىء كن فيكون" فى كون العدم. لدقائق قليلة كان ذلك الشىء البرتقالى الطافى هو كل ما لديه فى العالم. كان شيئه الأخير، وهكذا وبشكل غريزى أحبه واقترب منه.

ثم إنهم رفعوه خارج الماء وجففوه ولفوه بالثياب. عاملوه كطفل، فأعاد النظر فى الحكمة وراء البقاء حيًا. لا يوجد فيه ما يعيب سوى العمى فى عين من عينيه وكتفه المخلوع وبعض الأشياء الأخرى الصغيرة، لكنهم تحدثوا إليه وكأنه معتوه، وكأنه شخص مخبول. فى تضامنهم المزيف معه، وازدرائهم له الذى يصعب إخفاؤه، رأى المستقبل الذى اختاره لنفسه وهو فى الماء. كان المستقبل عبارة عن بيت مسنين، فبكى وانتحب. كان عليه أن يغرق.

أغلق باب المعمل وأوصده بالمزلاج، لأن الموضوع الآن موضوع خصوصية، أليس كذلك؟ دون خصوصية ما فائدة أن تكون فردًا. وهم لن يمنحوه خصوصية فى دار المسنين. سوف يكونوا كالناس على متن الهليكوبتر، لن يتركوه لشأنه.

فك بنطلونه وأخرج خرقة الثياب التى يضعها داخل كلوته، وتبول فى عبوة اليوبان.

كان قد اشترى البندقية قبل عام من خروجه على المعاش. تخيل أن التقاعد سيأتيه بتغير راديكالى فى حياته. تخيل نفسه يصطاد برًا وبحرًا، تخيل نفسه وقد عاد إلى كانساس ونبراسكا على متن قارب صغير ساعة الفجر، وتخيل حياة سخيفة غير ملائمة من الاستجمام والراحة الفردية.

البندقية مغرية مخملية الإغراء، لكن بعد أن اشتراها بقليل انكسرت ماسورتها وهى على نافذة المطبخ وهو يأكل غداءه. لم يتمكن من إكمال الطعام، ولم يطلق منها رصاصة واحدة.

أعطى الجنس البشرى فرصة الهيمنة على الأرض وانتهز الفرصة فأهلك أجناسًا أخرى ودفّأ الغلاف الجوى وراح بشكل عام يحطم ويدمر الأشياء كما عن له، لكنه دفع ثمن هذه الامتيازات، والثمن هو: أن يحتوى جسد هذا الحيوان المحدود والمحدد على عقل قادر على إقناع اللامحدود بأن يكون لا محدودًا فى حد ذاته وأن يتمنى أن يصبح بدوره غير محدود.

لكن مرت على الإنسان فترة عندما كف الموت عن أن يكون يد المحدودية، وبدأ يبدو بصفته فرصة أخيرة للتحول الراديكالى فى الحياة، أن يصبح البوابة الوحيدة الممكنة إلى اللامحدودية، إلى الخلود.

لكن أن يرى نفسه جثة محدودة فى بحر من الدماء والعظام وخلايا المخ الرمادية - أن ينفذ هذه الرؤية على نفسه والآخرين - فهذا خرق للخصوصية، عميق لدرجة أنه سيعمر ويعيش أطول منه.

كان يخشى أن يكون ذلك الأمر مؤلمًا.

وهناك سؤال فى غاية الأهمية يريد أن يجيب عليه. أولاده قادمون، جارى ودينيس وربما شيب حتى، ابنه المثقف. ربما شيب إن جاء سيجيب على هذا السؤال بالغ الأهمية.

والسؤال هو:

السؤال هو:

***

لم تشعر إنيد بالخزى بالمرة، ولا حتى ذرة من الخجل، عندما دقت أبواق التحذير وراحت الجانر ميردال ترتجف على إثر توقف محركاتها، بينما سيلفيا روث تجذبها من يدها وسط حشد قاعة بيبى لونجستوكينج المزدحمة، وهى تصيح: "ها هى زوجته، دعونا نمر!" لم يحرج إنيد أن ترى د. هيبارد مرة أخرى وهو يميل على سياج السفينة ويقطع الثياب المبتلة من على جسد زوجها بمقصات جراحية. ولا حتى عندما راح مساعد مدير الرحلة السياحية يساعدها فى حزم أمتعة ألفريد ثم رأى الحفاظات المصفرة فى دلو، ولا حتى عندما شتم ألفريد الممرضات ورجال الإسعاف عندما وصلا للبر، ولا حتى عندما ذكرها وجه كيلى ويزرس فى تليفزيون حجرة ألفريد فى المستشفى أنها لم تقل كلمة تطييب خاطر واحدة لسيلفيا عشية إعدام ويزرس.

عادت إلى سان جود فى حالة معنوية جيدة لدرجة أنها تمكنت من الاتصال بجارى وأن تعترف له بأنها بدلاً من إرسال عقد موافقة ألفريد الموثق على تسجيل الاختراع لشركة أكسون، قامت بإخفاء العقد فى حجرة الغسيل. بعد أن أخبرها جارى بالأخبار المحبطة بأن خمسة آلاف دولار مبلغ تسجيل جيد على كل حال، ذهبت إلى القبو لإخراج العقد المسجل ولم تعثر عليه فى مخبئه. دون أن تشعر بأى خجل، وهو أمر غريب، اتصلت بشوينكسفيل وطلبت من أكسون أن يرسلوا لها نسخة أخرى من العقود. أحس ألفريد بالحيرة عندما عرضت عليه النسخ الجديدة، لكنها لوحت بيدها وقالت إن بعض الأشياء تُفقد فى البوسطة. قام ديف شومبرت مرة أخرى بدور الموثق، وكانت تشعر بأنها فى أفضل حال حتى انتهى مخزونها من أقراص أسلان، فكادت تموت من إحساس الخزى.

إحساسها بالخزى أثيم يشل الحركة. أصبح من المهم لها الآن، كما لم تشعر منذ أسبوع، أن ألفًا من مسافرى جانر ميردال السعداء شهدوا كم كان حالها هى وألفريد غريبًا. كل من على متن السفينة فهموا أن التأخير فى النزول عند موقع جاسبى التاريخى وإلغاء الرحلة الجانبية إلى جزيرة بونافينتور ذات المشاهد الطبيعية الخلابة سببه أن زوجته استمتعت بكل أنانية بمحاضرة الاستثمار، لأنها أخذت دواء رديئًا لدرجة أنه لا يوجد طبيب فى أمريكا يمكنه أن يصفه لمريض، لأنها لم تؤمن بالله ولم تحترم القانون، لأنها بشعة، مختلفة بشكل لا علاج له عن باقى الناس.

تجلس تعانى من الأرق ليلة بعد ليلة، تعانى من الخزى، وتتصور الأقراص الذهبية. تشعر بالخزى من رغبتها العارمة فى هذه الأقراص، لكنها أيضًا مقتنعة بأنها الشىء الوحيد الذى سيريحها.

أخذت ألفريد فى مطلع نوفمبر إلى مجمع وودز الطبى لإجراء الفحوصات العصبية نصف السنوية المقررة له. راحت دينيس التى وقعت أوراق إخضاع ألفريد للمرحلة الثانية من اختبارات كوريكتول تسأل إنيد إن كان يبدو عليه "العته" التام. عرضت إنيد السؤال على د. هيدجبث أثناء مقابلته لها على انفراد، ورد هيدجبث بأن ارتباك ألفريد الدورى يدل قطعًا على حالة مبكرة من حالات الزهايمر أو الديمنتيا، وقد فسرت إنيد هذا الكلام وقتها بأن سألته إن كانت حالة ألفريد تلك تصيبه "بالهلاوس". لم يتمكن هيدجبث من إنكار إمكانية حدوث الهلاوس. قال إن الطريقة الوحيدة المؤكدة لاستبعاد إصابته بالديمنتيا هى وضع ألفريد فى مستشفى عشرة أيام فى "عطلة أدوية".

لم تذكر إنيد لـ هيدجبث مع إحساسها بالخزى أنها ملت المستشفيات. لم تذكر أنه قد حدث بعض الشجار والشتائم فى المستشفى الكندى، إلى أن خضع ألفريد لمفعول المخدر. لم تذكر أن ألفريد طلب أن تضربه بالرصاص قبل أن تضعه فى مكان كهذا مرة أخرى.

ولم تذكر مشكلة عقار أسلان عندما سألها هيدجبث عن حالها. ولم تسأله حتى عن بديل لـ "أقراص النوم" خشية أن يعرف هيدجبث أنها إنسانة ضعيفة تسعى للمواد المُساعدة. إلا أنها ذكرت أنها لا تنام جيدًا. شددت على هذه النقطة: لا أنام جيدًا بالمرة. لكن هيدجبث اقترح عليها ببساطة أن تحاول سريرًا آخر. اقترح أقراص الإسبرين المسائية.

ليس من العدل فى رأى إنيد -وهى نائمة فى الظلام إلى جوار زوجها المُشخّر - أن يتيح القانون شراء دواء ما فى دول ولا يتوفر لها فى أمريكا. بدا لها من غير العدل أن الكثير من صديقاتها يستخدمن "أقراصًا مهدئة" للنوم من النوع الذى لم يعرضه عليها هيدجبث. كم كان هيدجبث قاسيًا! كان بإمكانها الذهاب لطبيب مختلف طبعًا وأن تطلب "أقراصًا مهدئة للنوم" لكن الطبيب الآخر سيتساءل لا مفر عن سبب عدم إعطاء أطبائها هذه الأدوية لها.

كانت على هذه الحال عندما سافرت بيا وتشاك مايزنر فى رحلة عائلية شتوية قدرها ستة أسابيع إلى النمسا. قبل مغادرة آل مايزنر بيوم، تناولت إنيد الغداء مع بيا فى ديب - ماير وطلبت منها خدمة فى فيينا. وضعت فى يد بيا ورقة كانت قد نسخت فيها معلومات من تركيبة أسلان (رادامانثين سيترات ٨٨٪، ٢ ميثيل-

رادامانثين الكلوريد ١٢٪ مع ملحوظة: غير متوفر مؤقتًا فى أمريكا، أحتاج لمخزون ٦ شهور.

قالت لـ بيا: "لا تقلقى نفسك إن كان الموضوع صعبًا. لكن إن كان بإمكان كلاوس أن يكتب لك روشتة فسوف يسهل على طبيبى أن يحاول أن يشترى لى شيئًا بهذه التركيبة من بلد آخر، والمهم، أتمنى أن تقضى وقتًا طيبًا فى بلدك المفضل!"

لم يكن بإمكان إنيد أن تطلب خدمة مخجلة كهذه من أحد غير بيا. حتى بيا لم تجرؤ على أن تطلب منها إلا لأن (أ) بيا مخبولة قليلاً (ب) زوج بيا سبق أن اشترى أسهم إيرى بيلت قديمًا وهو موضوع مخجل لهم (ج) أحست إنيد أن تشاك لم يشكر ألفريد أو يعوضه أبدًا على النحو الواجب على ما قدم له من معلومات غير متاحة لأحد.

لكن ما إن سافر آل مايزنر، حتى هدأ إحساس إنيد بالخزى لسبب غامض. وكأن تعويذة شريرة انكسرت، بدأت تنام أفضل وتفكر أقل فى الدواء. استعانت بقدراتها الخاصة على نسيان بعض الأشياء بمحض إرادتها لتتعامل مع كونها طلبت ما طلبته من بيا. بدأت تشعر بأنها عادت إلى حالها المعهود، وهو: التفاؤل.

اشترت تذكرتين على متن طائرة إلى فيلادلفيا بتاريخ ١٥ يناير. قالت لصديقاتها إن شركة أكسون تختبر علاجًا جديدًا للمخ اسمه كوريكتول وأن ألفريد - لأنه باع براءة اختراعه لأكسون - يستحق إجراء الاختبارات عليه. قالت إن دينيس طيبة وبنت حلال لأنها عرضت عليها وألفريد الإقامة معها فى فيلادلفيا قدر ما تدوم الاختبارات. قالت إن لا، كوريكتول ليس دواءً مليئًا، بل هو علاج

ثورى جديد لمرض باركنسن. قالت إن نعم، الاسم مريك، لكنه ليس دواء مليئًا.

قالت لدينيس: "قولى للناس فى أكسون أن لدى بابا أعراض خفيفة لهلاوس يقول أطبائه إنها ربما كانت على صلة بالأدوية. ثم لنرى إن كان كوريكتول سيساعده، وقتها يمكننا أن نوقف أدويته، والأرجح أن الهلاوس ستتوقف".

قالت للجميع وليس لصديقاتها فحسب، قالت لكل من تعرفهم فى سان جود، بما فى ذلك جزارها وسمسار أسهمها فى البورصة والبوسطجى إن حفيدها جوناه قادم فى عيد الميلاد. بطبيعة الحال أحست بالإحباط لأن جارى وجوناه سيمكثان ثلاثة أيام لا أكثر وسيغادران ظهر يوم الكريسماس، لكن يمكن ضغط الكثير من اللهو والمتعة فى ثلاثة أيام. اشترت تذاكر عرض الصوت والضوء الخاص بالكريسماس، وباليه كسارة البندق، وغير ذلك من لوازم تزيين الأشجار والتزلج على الثلج والغناء فى الكورال، وزيارة الكنيسة ليلة الكريسماس. أخرجت وصفات لكعك لم تستخدمها منذ عشرين عامًا.

يوم الأحد السابق على الكريسماس أفاقت من النوم الساعة٣,٠٥ صباحًا وخطر لها أن: "ستًا وثلاثين ساعة". بعد أربع ساعات نهضت وهى تفكر: اثنان وثلاثين ساعة. فى وقت متأخر من النهار أخذت ألفريد إلى حفل كريسماس اتحاد ملاك الشارع عند دال وهونى دريبليت، وأجلسته فى أمان مع كيربى رووت، وراحت تذكر جميع الجيران بحفيدها المقرب، الذى يتطلع طوال العام إلى قضاء الكريسماس فى سان جود، وأنه سيصل بعد ظهر

غد. وضعت ألفريد فى حمام آل دريبلبيت الواقع فى الطابق الأرضى من بيتهم وراحت تجادله وتخالفه الرأى بخصوص الإمساك الذى يعانى منه. أخذته إلى البيت ووضعته فى الفراش، ومسحت الجدل الخاص بالإمساك من ذاكرتها، وجلست فى حجرة الطعام لتجهز دستة أخرى من بطاقات معايدة الكريسماس.

كانت السلة المخصصة لكروت المعايدة الواردة قد امتلأت بسمك أربع بوصات بالكروت من صديقات قديمات مثل نورما جرين وصديقات جديدات مثل سيلفيا روث. هناك عدد متزايد من المعيدين أرسلوا معايدات الكريسماس على ورق تصوير وفى أوراق مطبوعة من الكمبيوتر، لكن إنيد لن تقبل على كلام كهذا. حتى ولو تأخرت فى إرسال المعايدات إليهم، فقد عقدت عزمها على كتابة مائة كارت معايدة بخط يدها، وكتابة العناوين على الأظرف بيدها. إلى جانب معايدتها المكونة من فقرتين المألوفة ورسائل المعايدة الأطول المكونة من أربع فقرات، أضافت هذه الملحوظة القصيرة:

كم أحببت الرحلة عندما رأينا ألوان الخريف فى نيوإنجلاند ورأينا سواحل كندا. أخذ آل "غطسًا" مفاجئًا فى خليج سان لورانس لكنه يتعافى مرة أخرى! كتبوا عن مطعم دينيس السوبر ديلوكس فى نيويورك تايمز. شيب مستمر فى عمله فى مكتب محاماة مدينة نيويورك ويقوم باستثمارات فى شرق أوروبا. ننتظر زيارة جميلة من جارى وحفيدى الأصغر "الغالى" جوناه. نأمل أن يجتمع شمل الأسرة كاملة فى سان جود على الكريسماس، يالها من نعمة. محبتى لكم جميعًا.

أصبحت الساعة العاشرة وهى تدلك يدها التى راحت تكتب بها لتفك التشنج العضلى الذى أصابعها، ثم اتصل جارى من فيلادلفيا.

قالت إنيد بصوت كالغناء فى التليفون: "لا أطيق انتظار رؤيتكما بعد سبع عشرة ساعة!".

قال جارى: "عندى بعض الأخبار السيئة. جوناه مصاب بحمى وقيئ لا يتوقف. لا أعتقد أننى قادر على اصطحابه على متن الطائرة".

هذا الجمل من الإحباط يقف مترددًا أمام ثقب إبرة عدم استعداد إنيد لأن تستوعب ما قيل.

قالت: "لننتظر كيف يصبح عليه الصباح. الأولاد يتعافون بسرعة، أراهنك أنه سيصبح بخير. يمكنه أن يرتاح على الطائرة إن احتاج. ويمكنه أن ينام مبكرًا وأن ينام حتى ساعة متأخرة ليلة الثلاثاء!"

"أمى".

"لو كان مريضًا جدًا يا جارى فأنا أفهم، لا يمكنه أن يحضر. لكن إن تجاوز الحمّى".

"صدقينى، نحن جميعًا مصابون بالإحباط، خصوصًا جوناه".

"لا حاجة لاتخاذ أى قرارات الآن. غدًا يوم جديد".

"أحذرك أن الأرجح أنه لن يحضر غيرى".

"طيب، لكن يا جارى قد يختلف الحال كثيرًا فى الصباح. لم لا تنتظر وتتخذ قرارك وقتها وتدهشنى؟ أراهنك أنه سيصبح بخيرا"

هذا موسم الفرحة والمعجزات، وقد مضت إنيد إلى سريرها مفعمة بالأمل.

في ساعة مبكرة من صباح الغد أفاقت من النوم على رنة الهاتف. إنه صوت شيب، يقول إنه قادم للبيت من ليتوانيا فى ظرف ثمانى وأربعين ساعة وسوف تصبح الأسرة مكتملة عشية الكريسماس. راحت تردد أغانى الكريسماس وهى ماضية للطابق السفلى، ثم خرجت لتضع قطعة زينة جديدة إلى جانب الزينة الأخرى المعلقة على باب البيت الأمامى.

على قدر ما يتذكر الجميع، ومنذ القدم، دأبت مجموعة سيدات الثلاثاء فى الكنيسة على جمع النقود لتصنيع تقويم الكريسماس الخاص. لم يكن هذه التقويم - كما قد تتسرع إنيد وتخبرك - مثل التقويم الرخيص الذى تشتريه بخمسة دولارات ملفوفًا فى السيلوفان، بل كان تقويمًا جميلاً مصنوع يدويًا يمكن استخدامه لأكثر من عام. عليه شجرة كريسماس خضراء من القطيفة تم تخييطها إلى مربع من الكانفاه المنشى، فيه اثنى عشر جيبًا على كل جيب رقم، من القمة، واثنى عشر جيبًا مثلها من الطرف السفلى. فى كل صباح يأخذ أطفالك قطعة زينة من أحد الجيوب - حصان صغير مصنوع من القطن أو حمامة صفراء لعبة أو جندى مغلف بالقطيفة - ويلصقها فى الشجرة. الآن، رغم أن الأطفال جميعًا كبروا وأصبحوا بالغين، تستمر إنيد فى توزيع لعب الزينة الصغيرة فى الجيوب بدءًا من ٣٠ نوفمبر كل عام. قطعة الزينة الموضوعة فى الجيب الرابع والعشرين هى نفس اللعبة كل عام: يسوع الطفل من البلاستيك صغير الحجم مغلف بطلاء ذهبى. رغم أن إنيد بشكل عام تراجعت عن الإيمان بمعتقداتها الدينية الخاصة بالكريسماس، فهى مخلصة تمام الإخلاص لهذا التقويم. بالنسبة لها هذه أيقونة لا تقتصر على الرب، بل على أطفالها الثلاثة وكل الأطفال ذوى

الرائحة الذكية فى جميع أنحاء العالم. كانت تدب يدها فى الجيب الرابع والعشرين كل عام على مدار ثلاثين عامًا وهى تعرف جيدًا ما بداخل الجيب، وما زالت تتحمس لفتح الجيب لدرجة أنها تحبس أنفاسها.

سألت ألفريد على الإفطار: "خبر مجىء شيب مدهش، رائع، أليس كذلك؟"

كان ألفريد يأكل حبوب الإفطار بالملعقة ويشرب الحليب الصباحى الساخن المخلوط بالماء من الطبق. تعبير وجهه وكأنه فى طريق حتمى إلى نقطة لا عودة منها من التعاسة.

كررت إنيد: "سيصبح شيب هنا غدًا. أليست هذه أخبارًا مدهشة؟ ألست سعيدًا؟"

شاور ألفريد ملعقته المارقة فى يده وقال: "طيب، إن جاء".

قالت إنيد: "قال إنه سيكون هنا بعد ظهر الغد. ربما إن لم يكن متعبًا للغاية، يمكنه أن يحضر كسارة البندق معنا. ما زالت معى ست تذاكر".

قال ألفريد: "أشك فى هذا".

كون تعليقاته متعلقة بأسئلتها، أنه رغم اللانهائية البادية فى عينيه يشارك فى حوار محدد الهيئة، فهذا يعوض المرار الظاهر على وجهه.

علقت إنيد آمالها - كما تعلق يسوع الطفل إلى الشجرة - بالكوريكتول. إذا ثبت أن ألفريد مرتبك لدرجة لا ينفع معها أن يشارك فى الاختبارات، فلا تعرف ماذا ستفعل. هكذا أصبحت

حياتها شبيهة للغاية بحياة أصدقاء آخرين، تشاك مايزنر وجو بيرسون تحديدًا، اللذان كانا "يدمنان" مراقبة استثماراتهما. طبقًا لبيا فإن قلق تشاك حمله إلى فحص أخر أخبار الأسهم على الكمبيوتر مرتين وثلاث مرات فى الساعة، وآخر مرة خرجت إنيد مع ألفريد وآل بيرسون إلى مطعم، أحست إنيد بالتوتر-البالغ من جو الذى اتصل بثلاثة سماسرة أسهم مختلفين من تليفونه المحمول أثناء العشاء. لكنها هكذا مع ألفريد: منتبهة تمام الانتباه لكل صعود ينطوى على الأمل فى الأحداث، تخشى دائمًا سقوط الأسهم.

ساعتها الأكثر فراغًا من النهار جاءت بعد الإفطار. كل صباح ما إن ينتهى ألفريد من كوب الحليب الصباحى المخلوط بالكثير من الماء، يمضى إلى القبو. ليس مرحبًا بإنيد أن تكلمه أثناء ساعته هذه بالأسفل، ولها أن تدعه لشأنه. انشغالاته الكثيرة جنون لكن ليس من الجنون الذى يؤدى لعدم إجراء اختبارات الكوريكتول عليه.

خارج نافذة المطبخ راحت ندف الثلج تنساب من السماء ذات السحب الزرقاء وتستقر على أغصان الشجرة التى زرعها تشاك مايزنر. أعدت إنيد رغيف لحم لتخبزه فيما بعد وحضرت سلطة موز وعنب أخضر وأناناس معلب ومارشمالو وجيلى ليمون. هذه الأطعمة بالإضافة إلى بطاطس طهتها مرتين، هى الأكل المفضل لجوناه فى سان جود وهى مجهزة لمنيو عشاء الليلة.

راحت على مدار شهور تتخيل جوناه وهو يغرس يسوع الطفل إلى شجرة التقويم صباح اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر.

بعد أن شربت فنجان القهوة الثانى صعدت للطابق العلوى وجلست إلى جوار دولاب جارى القديم حيث تحتفظ بالهدايا

والأغراض المخصصة للحفلات. كانت قد انتهت من شراء حاجيات الكريسماس قبل أسابيع، لكن كل ما اشترته لشيب هو روب استحمام مقلم بنى وأحمر، اشترته بسعر مخفض. كان شيب قد تخلى بنفسه عن معاملتها الطيبة له على الكريسماس فيما يخص الهدايا، عندما أرسل لها قبل عدة أعوام على الكريسماس كتاب طهى مستعملا عنوانه "طعام مغربى" ملفوفًا فى ورق فويل ومزينًا بصور لاصقة عليها إعلانات شماعات. لكن بما أنه قادم من ليتوانيا فهى تريد أن تكافئه بكامل ما لديها من ميزانية الهدايا، وهى:

ألفريد: لا يوجد مبلغ محدد

شيب، دينيس: ١٠٠ دولار لكل منهما بالإضافة إلى مبلغ صغير لو لزم الأمر

جارى، كارولين: ٦٠ دولارًا لكل منهما كحد أقصى بالإضافة إلى مبلغ صغير لو لزم الأمر.

آرون كاليب: ٣٠ دولارًا لكل منهما كحد أقصى

جوناه (هذا العام فقط): لا يوجد مبلغ محدد

بعد أن دفعت ٥٥ دولارًا ثمن روب الاستحمام، فهى بحاجة إلى ما قيمته ٤٥ دولارًا من الهدايا الإضافية فيما يخص شيب. راحت تبحث فى الأدراج. رفضت الزهريات التى كانت ما زالت فى كرتوناتها القديمة، من هونج كونج، والكوتشينة الجديدة بعلبتها والفوط الصغيرة متعددة الألوان، ومقالم الأقلام الرصاص والجاف الأنيقة للغاية التى لا فائدة منها فى حقيقة الأمر، والكثير من

منبهات وساعات السفر الرخيصة، وسكاكين اللحم الكورية الباردة للغاية، وإطار الصور السيراميك مقاس ٥ فى ٧ المنقوشة عليه كلمة "ذكريات" بخط مذهب، وتمثال السلحفاة الأثرية من المكسيك، وعدة لف الهدايا التى تحتوى على أشرطة وورق لف هدايا والمكتوب عليها "هدية الإهداء". حاولت تقدير مدى ملاءمة صندوق الشمع المعطر وطحانة الفلفل. وهى تتذكر بيت شيب بأشيائه القليلة، قررت أن طحانة الفلفل مناسبة.

فى موسم الفرحة والمعجزات، وهى تلف الهدايا، نست المعمل الذى تنبعث منه رائحة البول والصراصير المتوترة. تمكنت من ألا تهتم بوضع ألفريد شجرة الكريسماس فى مكانها المعهود وهى مائلة بزاوية عشرين درجة. صدقت أن جوناه سيتحسن ويصبح فى أفضل حال فى الصباح كحالها تماماً.

عندما انتهت من لف الهدايا كان ضوء نهار الشتاء يشير إلى انتصاف النهار. نزلت إلى القبو حيث وجدت مائدة تنس الطاولة مدفونة تحت لفائف من سلاسل المصابيح، وكان ألفريد جالساً على الأرض ومعه شريطه الكهربائى اللاصق العازل ووصلات من الأسلاك.

قال: "كانت ساعتها سوداء، هذه اللمبات!"

"آل، ماذا تفعل على الأرض؟"

"هذه اللمبات الجديدة الرخيصة بنت الكلب!"

"لا تقلق. اتركها كما هى. سوف يجهزها جارى وجوناه. اصعد لنتغدى".

موعد الطائرة من فيلادلفيا الواحدة والنصف. سوف يستأجر جارى سيارة ويصبح فى البيت على الثالثة عصرًا، وتعتزم إنيد ترك ألفريد ينام هذه الفترة لأن الليلة ستكون معها تعزيزات. الليلة إن نهض من سريره ليتجول فى البيت، فلن تكون الوحيدة المنتبهة له.

هدوء البيت بعد الغداء كثيف لدرجة تتوقف معها عقارب الساعات. هذه الساعات النهائية الأخيرة من الانتظار وقت مناسب للغاية لكتابة بعض كروت معايدة الكريسماس، مناسبة جيدة ستمر الدقائق على كل حال وأمامها عمل كثير تنجزه، لكن الوقت خادع. وهى تبدأ فى تدوين الكروت بكلمة قصيرة أحست وكأنها تضع سن قلمها فى العجين. أحست بانعدام التركيز وكتبت كلمات خاطئة، واضطرت لرمى الكارت. نهضت لتنظر إلى ساعة المطبخ ووجدت أن خمس دقائق مرت منذ نظرت للساعة آخر مرة. رتبت مجموعة من الكعكات على طبق خشبى تحجزه خصيصًا للمناسبات والأعياد. وضعت سكينًا وثمرة كمثرى كبيرة على لوح التقطيع. رجت كرتونة من شراب البيض الخاص بالكريسماس. جهزت ماكينة تحضير القهوة بالبن المطحون فربما يطلب جارى القهوة. جلست لتكتب رسالة معايدة قصيرة فرأت البياض الشاهق للورقة ينعكس على عقلها. مضت إلى النافذة ونظرت للخارج إلى الحديقة الصغيرة المنشاة بالثلج. البوسطجى يحمل أثقالاً من كروت المعايدة يقترب من الباب ومعه حزمة ضخمة للغاية، دفعها من وراء فتحة البريد الصغيرة فى الباب على ثلاث دفعات. انقضت على الرسائل وراحت تفرزها، هذا الغث وهذا الثمين، لكن أحست بتوتر لم تتمكن معه من فتح كروت المعايدة. نزلت إلى المقعد الأزرق فى القبو.

صاحت: "آل، أعتقد أن الأفضل أن تصعد".

اعتدل فى جلسته، شعره ككومة قش منثور، عيناه خاليتان من أى تعبير: "هل وصلا؟"

"فى أى دقيقة الآن. ربما الأفضل أن تصعد لتغسل وجهك".

"من سيحضر؟"

"جارى وجوناه، ما لم يكن جوناه مريضًا للغاية".

قال ألفريد: "جارى.. وجوناه".

"لم لا تأخذ دُش؟"

هز رأسه: "دُش لا".

"إن كنت تريد أن تبقى عالقًا فى البانيو عندما يحضران".

"أعتقد أن من حقى الاستحمام فى البانيو، بعد كل العمل الذى أديته".

هناك دُش لطيف فى حمام الطابق السفلى، لكن ألفريد لم يحب يومًا أن يستحم وهو واقف. بما أن إنيد ترفض الآن مساعدته فى الصعود لبانيو الطابق العلوى، فهو يجلس أحيانًا فى البانيو بالساعة، والماء البارد الرمادى المخلوط بالصابون يحيط بأردافه، قبل أن يتمكن أخيرًا من انتزاع نفسه من البانيو؛ لأنه عنيد للغاية.

كانت المياه تجرى فى بانيو الطابق العلوى عندما رن جرس الباب الذى طال انتظاره.

هرعت إنيد للباب وفتحته لترى ابنها الكبير الوسيم وحده على العتبة. كان يرتدى جاكيتًا وفى يده حقيبة سفر صغيرة وكيس ورقى

من أكياس المشتريات. ضوء الشمس الضنين وجد لنفسه مسارًا من وراء السحب، كما يفعل أحيانًا قرب انتهاء نهار الشتاء. ضوء أصفر ذهبى خفيف كأنوار البيوت يغمر الشارع، كذلك الضوء الذى قد يضىء به رسام مغمور لوحة توراتية لواقعة موسى وشق البحر الأحمر. طوب بيت آل بيرسون، سحب الشتاء الزرقاء والبنفسجية، الشجرات الصغيرة القزمة الخضراء براقة تلمع كلها لدرجة تحول دون اعتبارها جميلة، لدرجة كونها أجنبية تمامًا غريبة عن هنا.

صاحت إنيد: "أين جوناه؟"

دخل جارى ووضع حقائبه على الأرض: "ما زال يعانى من الحمى".

قبلت إنيد قبلة منه. تحتاج للحظة لتجمع شتات نفسها، وقالت لجارى أن يُدخل حقيبته الأخرى من على العتبة.

قال لها بصوت كصوت المحامى فى قاعة المحكمة: "هذه حقيبتى الوحيدة".

حدقت فى الحقيبة الضئيلة: "أهذا كل ما جلبته؟".

"انظرى، أعرف أنك محبطة لأن جوناه لم يحضر".

"كيف حال الحمى؟"

"٣٧,٧ درجة هذا الصباح".

"٣٧,٧ ليست حمى قوية!"

تنهد جارى وأبعد عنها عينيه، وأمال رأسه بحيث أصبحت موازية لدرجة ميل شجرة الكريسماس. قال: "اسمعى، جوناه محبط وأنا محبط وأنت محبطة. هل نقفل الموضوع؟ كلنا محبطون".

قالت إنيد: "الموضوع وما فيه أننى كنت فى انتظاره، حضرت له عشاءه الذى يحبه".

"حذرتك من قبل".

"واشتريت تذاكر لعرض الصوت والضوء فى ويندل بارك الليلة!"

هز جارى رأسه ومضى إلى المطبخ. قال: "إذن سنذهب إلى الحديقة، ثم غداً ستكون دينيس هنا".

"شيب أيضاً!"

ضحك جارى: "ماذا؟ من ليتوانيا؟"

"اتصل هذا الصباح".

قال جارى: "لن أصدق إلا عندما أراه".

العالم من النوافذ يبدو أقل اتصالاً بالواقع لدرجة لا تحبها إنيد. ضوء الشمس الضئيل القادم من تحت طبقات السحب كضوء من حلم غير مألوف فى أى ساعة من ساعات النهار. خطر لها أن الأسرة التى حاولت لم شملها لم تعد هى الأسرة التى تتذكرها، وأن هذا الكريسماس لن يكون بالمرة مثل كريسماس الماضى. لكنها تبذل قصارى جهدها لتتكيف مع الواقع الجديد. فجأة تشعر بالحماس لأن شيب قادم. وبما أن هدايا جوناه الملفوفة ستذهب إلى فيلادلفيا مع جارى، فهى تحتاج إلى لف بعض المنبهات والمقالم لكاليب وآرون كى تقلل التمييز فى هداياها للأحفاد. يمكنها أن تؤدى هذه المهمة فيما تنتظر دينيس وشيب.

قالت لجارى: "عندى كعك كثير للغاية"، وكان يغسل يديه عند حوض المطبخ.. "عندى ثمرة كمثرى يمكن أن أقطعها لك، وبعض القهوة التى تحبونها يا أولاد".

شم جارى فوطة الأطباق قبل أن يجفف يديه فيها.

بدأ ألفريد يهتف باسمها من الطابق العلوى.

قالت: "جارى، إنه عالق فى البانيو مرة أخرى. اصعد وساعده، لم أعد قادرة".

جفف جارى يديه ببطء شديد: "لماذا لا يستخدم الدُش كما قلنا؟"

"يقول إنه يفضل الجلوس أثناء الاستحمام".

قال جارى: "ما علينا. هذا الرجل شغله الشاغل هو أن يرعى كل إنسان نفسه بنفسه".

ألفريد يصرخ باسمها مرة أخرى.

قالت: "اذهب يا جارى وساعده".

قام جارى فى هدوء مريب بطى الفوطة ووضعها فى مكانها. قال بصوت المحامى فى قاعة المحكمة: "القواعد الأساسية يا ماما، هل تسمعينى؟ القواعد الأساسية أننى سأفعل أى شىء تريدينه منى خلال الأيام الثلاثة القادمة، إلا أن أتعامل مع بابا فى مواقف ما كان يجب أن يرمى بنفسه فيها. إن كان يريد أن يصعد سلم ويسقط عنه، فسوف أتركه على الأرض. إن نزف حتى الموت، فلينزف حتى الموت. إن كان لا يمكنه الخروج من البانيو دون مساعدتى، فليمض الكريسماس فى البانيو إذن. هل أنا واضح؟ باستثناء هذا الموضوع سأفعل أى شىء تطلبينه منى. ثم وفى صباح الكريسماس، سنجلس أنا وأنت هنا ونتحدث".

"إنيد"، صوت ألفريد جهورى لدرجة مزعجة للغاية، "هناك من يطرق على الباب".

تنهدت إنيد تنهيدة عميقة ومضت إلى السلم: "إنه جارى يا آل".

"هلا ساعدتينى؟" صوت كالصراخ.

"جارى، اذهب لترى ماذا يريد".

وقف جارى فى حجرة الطعام عاقدًا ذراعيه. "ألم أوضح القواعد الأساسية؟"

راحت إنيد تتذكر أشياء عن ابنها الأكبر تود لو تنساها وهو ليس هنا. صعدت السلم فى بطء، وهى تحاول أن تتناسى آلام فخذيها.

قالت وهى تدخل الحمام: "آل، لا يمكننى إخراجك من البانيو، فكر فى طريقة للخروج بنفسك".

كان يجلس فى مياه بعمق بوصتين، وذراعه ممتدة وأصابعه ترتجف. قال: "هاتى".

"ماذا أحضر؟"

"هذه الزجاجة".

زجاجة الشامبو سقطت على الأرض وراءه. مالت إنيد فى حرص على بساط الحمام خوفًا على فخذها، ووضعت الزجاجة فى متناول يديه. راح يربت على الزجاجة فى حماس، وكأنه يسعى لشرائها أو يحاول تذكر كيف يفتحها. لا شعر فى ساقيه، يداه مبقعتان، لكن كتفاه مازلتا قويتين.

قال وهو يبتسم للزجاجة: "تمام تمام".

بغض النظر عن درجة حرارة المياه وهو ينزل من الصنبور فى ديسمبر، فقد انخفضت حرارته إلى درجة حرارة ديسمبر مع

الوقت. هناك رائحة صابون، ومن وراءها رائحة المسنين. مالت إنيد بركبتيها على هذه البقعة من الأرض آلاف المرات لتحمم أطفالها وتغسل شعرهم بالماء الساخن بكسرولة سعة نصف جالون تجلبها من المطبخ لهذا الغرض خصيصًا. راحت تراقب زوجها وهو يقلب زجاجة الشامبو في يديه.

قالت: "ماذا ستفعل يا آل؟"

"ساعديني، تعالى".

"طيب سأساعدك".

رن جرس الباب.

"ها هو يرن ثانية".

هتفت إنيد: "جاري، انظر من جاء". ضغطت بيدها ليخرج الشامبو إلى راحة يدها الأخرى: "يجب أن تبدأ في الاستحمام تحت الدُش".

"لا أقدر على الوقوف بثبات".

وضعت يدًا في الماء الفاتر كأنها تشرح له ماذا يفعل: "هيا، بلل شعرك". رش بعض الماء على شعره. تسمع جاري يتحدث مع إحدى صديقاتها، سيدة ما، حادة الصوت، لها طباع أهل سان جود. ربما كانت إستر رووت.

قالت وهي تراغي شعر ألفريد بالصابون: "يمكننا أن نضع مقعدًا تحت الدُش. يمكن أن نركب عمودًا أقوى في الحمام لتمسك به وأنت تستحم، كما نصحنا دكتور هيدجبث. ربما يمكن أن يفعل جاري هذا غدًا".

صوت ألفريد يصلها ذبذبات عبر جمجمته الممسكة بها أصابعها: "هل وصل جارى وجوناه بخير؟"

قالت إنيد: "لا، جارى فقط. جوناه مصاب بحمى فظيعة، ويتقيأ باستمرار. ولد مسكين.. لا يمكن أن يركب الطائرة".

تنهد ألفريد فى تعاطف.

"مل إلى هنا، هكذا، وسوف أحممك".

إذا كان ألفريد يحاول أن يميل للأمام، فلم يظهر جهده هذا إلا بسبب ارتعاش ساقيه، فلم يتغير وضعه إطلاقًا.

قالت إنيد: "يجب أن تقوم بتمارين رياضية أكثر. هل نظرت إلى ورقة تعليمات التمارين الرياضية التى أعطاها لنا دكتور هيدجبث؟"

هز ألفريد رأسه: "إنها لا تساعد".

"ربما تعلمك دينيس كيف تؤدى بعض هذه التمارين. قد يعجبك هذا".

مدت يدها وراءها لتأخذ كوب الماء من الحوض. ملأتها مرة وأخرى من صنبور البانيو، وسكبت الماء الساخن على رأس زوجها. رأت فيه طفلاً بعينيه المغمضتين تحت الماء.

قالت: "يجب أن تُخرج نفسك. لن أساعدك".

قال: "عندى طريقتى الخاصة".

فى حجرة المعيشة كان جارى يحاول عدل وضع الشجرة المائلة.

قالت إنيد: "من كان على الباب؟"

قال دون أن ينظر إليها: "بيا مايزنر. جلبت هدية، هناك".

"بيا مايزنر؟" إحساس متأخر بالخزى اعترى إنيد. "حسبت أنهم سيمكثون فى النمسا على الكريسماس".

"لا، إنهم هنا اليوم ثم سيذهبون إلى لا جولا".

"هناك تعيش كاتى وستيف. هل جلبت أى شىء؟"

قال جارى: "هناك".

كانت هدية بيا زجاجة من شىء ما ملفوفة فى ورق هدايا متكلف، يبدو أنها شىء من النمسا.

قالت إنيد: "هل جلبت أى شىء آخر؟"

قال جارى وهو ينفض إبر ورق الشجرة الصناعى من يديه وهو ينظر إليها نظرة مرتابة: "هل كنت تتوقعين شيئًا آخر؟"

قالت: "لا لا، هناك شىء سخيف طلبت منها أن تجلبه من فيينا، لكن مؤكد أنها نسيت".

ضاقت عينا جارى: "ما هو ذلك الشىء السخيف؟"

قالت إنيد وهى تفحص الزجاجة لترى إن كان ملحقًا بها أى شىء: "لا شىء. لا شىء". مرت بفترة الافتتان بأسلان، وبذلت الجهد اللازم لتنساه، وليست واثقة على الإطلاق إن كانت تود رؤية هذا الدواء ثانية. لكن الدواء له سطوة عليها. يواتيها إحساس من على بعد، التوق للحبيب العائد. دفعها هذا الإحساس لأن تتوق لإحساسها بافتقاد ألفريد قديمًا.

قالت فى ابتهاج: "لماذا لم تدعوها للدخول؟"

قال جارى: "كان تشاك ينتظرها فى سيارتهما الجاجوار. تخيلت أنهما يمران على الجيران لتوزيع الهدايا".

قالت إنيد وهى تفض الهدية: "طيب". كانت زجاجة شمبانيا نمساوية، وليست معها هدية مخبأة.

قال جارى: "يبدو نبيذًا ممتلئًا بالسُكَّر".

طلبت منه أن يعد نارًا. وقفت تنظر بإعجاب إلى ابنها رمادى الشعر الأنيق وهو يسير فى ثبات إلى كومة الحطب، ويعود ببعض الأعواد فى إحدى يديه، ويرتبها فى المدفأة ثم يشعل عود ثقاب من المحاولة الأولى. استغرقت العملية كاملة خمس دقائق. لا يفعل جارى شيئًا أكثر من المتوقع من الرجل أن يؤديه، لكن فى تناقض مع الرجل الذى تعيش معه إنيد، تبدو قدراته كأنها قدرات رب. كان عمله الأخير هذا مدهشًا للغاية.

بالإضافة إلى إحساسها بالفرحة لوجوده فى البيت، أدركت كم سيغادر سريعًا مرة أخرى.

توقف ألفريد الذى ارتدى سترة رياضية فى حجرة المعيشة وراح يحادث جارى لدقيقة قبل أن يلجأ إلى عرينه ليتلقى جرعة ثقيلة من نشرة الأخبار المحلية. كبره فى السن وانحناء ظهره خصما من طوله ثلاث بوصات، وكان منذ فترة قريبة فى نفس طول جارى.

بينما راح جارى بقدرة فائقة على التحكم فى حركة أطرافه يعلق الأنوار على الشجرة، جلست إنيد إلى جوار المدفأة تفض كراتين الخمور التى تخزن فيها زينة الكريسماس. أينما سافرت كانت تنفق أغلب ما فى جيبها على الزينة. فى عقلها، وبينما جارى يعلقها، عادت إلى السويد الممتلئة بالرنة المصنوعة من القش والجياد الحمراء الصغيرة، ومنها إلى النرويج حيث يرتدى المواطنون أحذية من جلد الرنة، وإلى فينيسيا حيث كانت كل الحيوانات مصنوعة من

الزجاج، وإلى ألمانيا ذات سانتا كلوز الخشبى والملائكة، ثم النمسا ذات الجنود الخشبية والكنائس اللعبة الصغيرة. وفى بلجيكا حمامات السلام المصنوعة من الشيكولاتة الملفوفة فى ورق الفويل، وفى فرنسا دمى عساكر الدرك والدمى الفنية، وفى سويسرا أجراس برونزية، ومن إسبانيا طيور مبهرجة الزينة، ومن المكسيك دمى من الصفيح المطلى، ومن هضاب الصين العالية قطيع صامت من الخيول الحريرية، ومن اليابان، صمت الدمى التجريدية المطلية بالورنيش.

علّق جارى كل قطعة زينة كما وجهته إنيد. يبدو فى عينيها مختلفًا: أكثر هدوءً ودقة فى حركته، حتى طلبت منه أن يؤدى لها مهمة صغيرة غدًا.

كان رده عليها: "تركيب عمود تحت الدُش ليس مهمة صغيرة. كان منطقيًا أداء هذه المهمة قبل عام، لكن ليس الآن. يمكن لبابا استخدام البانيو عدة أيام حتى نشوف صرفة فى هذا البيت".

قالت إنيد: "ما زال أمامنا أربعة أسابيع على الذهاب إلى فيلادلفيا. أريده أن يتعود على استخدام الدُش. أريدك أن تشترى مقعد حمام وتركب العمود غدًا حتى ننتهى".

تنهد جارى وقال: "هل تفكرين أن بإمكانك أنت وبابا أن تقيما فى هذا البيت حقًا؟".

"إذا ساعده كوريكتول".

"أمى، إنه يخضع لاختبارات الديمنتيا. هل تعتقدين حقًا".

"الديمنتيا التى لا تحتاج لتدخل دوائى".

"اسمعى، لا أريد أن أصدمك لكن".

"جهزت دينيس كل شىء. سوف نجرب".

قال جارى: "وماذا بعد؟ يُعالج بمعجزة ثم تعيشان هنا فى تبات ونبات إلى الأبد؟"

مات الضوء القادم من النوافذ تمامًا. لم تفهم إنيد كيف أصبح ابنها الأكبر، العذب الملتزم بالمسئوليات الذى تشعر برباط قوى به منذ ولدته، كيف أصبح غاضبًا هكذا الآن، عندما جاءته فى ساعة حاجتها. فضت كرة لعبة من ورقها، كان قد طرزها بالقماش والترتر وهو فى التاسعة أو العاشرة: "هل تتذكر هذه؟"

نظر جارى إلى الكرة: "صنعنا هذه فى حصة ميسز أوستريكر".

"أعطيتها لى".

"حقًا؟"

قالت إنيد: "قلت إنك ستفعل أى شىء أطلبه غدًا. هذا ما أطلبه منك".

لوح جارى بيديه فى الهواء: "طيب! طيب! سوف أشترى المقعد، وسوف أركب العمود".

بعد العشاء أخذ السيارة الأولدزموبل من الجراج وذهب ثلاثتهم إلى كريسماس لاند.

من المقعد الخلفى ترى إنيد السحب المنعقدة فى السماء الجاذبة لأضواء المدينة، وبقع السماء الصافية أكثر دكنة منها مرصعة بالنجوم. قاد جارى السيارة عبر طرق الضواحى الضيقة إلى بوابات

ويندل بارك، حيث يصطف طابور طويل من السيارات والشاحنات تنتظر الدخول.

قال ألفريد وليس فى صوته أدنى شبهة من نفاد صبره القديم: "انظرا إلى كل هذه السيارات".

بفرضها رسومًا على دخول كريسماس لاند، ساعدت إدارة المقاطعة نفسها بتخفيف عبء التكلفة السنوية الباهظة لهذا العرض المبالغ فيه. أخذ أحد حراس الحديقة تذكرة آل لامبرت وقال لجارى أن يطفئ جميع الأنوار عدا أنوار الباركينج. زحفت الأولدزموبل إلى الأمام لتقف وسط صف من السيارات المظلمة تبدو الآن أقرب للحيوانات عن أى وقت مضى، جماعة، فى هذه الصفوف المتواضعة على امتداد الحديقة.

على مدار أغلب العام، تعتبر ويندل بارك منطقة عشب محترق مرهقة، فيها برك بنية. أما فى ديسمبر فهى تبدو نهارًا فى أسوأ حال. مروج العشب تتخللها كابلات كهرباء. وهناك سلالم وثقالات هنا وهناك، ومئات الأشجار والشجيرات مكللة بالمصابيح، ثقيلة وأقرب للأرض تحت عبء أمطار الزجاج والبلاستيك.

أما فى الليل فالحديقة هى كريسماس لاند. تنهدت إنيد فى حدة والسيارة تزحف أعلى تل من الأضواء وعبر منطقة لاندسكيب مضيئة بأنوار صناعية. وكما قيل عن أن الحيوانات تتكلم عشية الكريسماس، فالترتيب الطبيعى للأمور يقتضى أن ينقلب حال الضواحى هنا، أن يتحول الظلام الطبيعى للأرض إلى أضواء، والطريق المظلم العادى الخالى من السيارات إلى صخب مرورى زاحف.

كانت مكونات منحدرات ومرتفعات ويندل بارك وحميمية خلوها من الحواف المدببة وألفتها مع السماء من خصال الغرب الأوسط. وكذلك كان من خصال الغرب الأوسط بالنسبة لإنيد صمت وصبر السائقين، المعزولين فى مجتمعات سكانية حميمية من خشب البلوط والقيقب. أمضت أعياد الكريسماس الثمانية الأخيرة منفية فى الشرق الأجنبى عليها، والآن، أخيرًا، تشعر بأنها فى بيتها. تتخيل نفسها مدفونة تحت هذه الأرض. هى سعيدة لفكرة أن عظامها ستستقر عند سفح تل كهذه التلال.

ثم جاءت تماثيل الرنة المضيئة ووجوه سانتا كلوز المشبعة بالكهرباء، وأكواز الحلوى الملونة العالية البراقة.

علق ألفريد قائلاً: "بذلوا جهدًا كبيرًا هنا".

قال جارى وكأنه حتى الآن لم يكن آسفًا: "يؤسفنى أن جوناه لم يتمكن من الحضور".

ليس المشهد بأكثر من أضواء فى الظلام. لكن إنيد تشعر بالانبهار التام. هناك من بذل الجهد ليُفرح كل القادمين، وإنيد فرحانة. وغدًا سيأتى دينيس وشيب، وغدًا باليه كسارة البندق، ويوم الأربعاء ستُخرج يسوع الطفل من الجيب وتضعه على الشجرة. إنها تتطلع للكثير والكثير.

***

فى الصباح اتجه جارى إلى المدينة الطبية، وهى ضاحية قريبة حيث تتركز المؤسسات الطبية لسان جود، وحبس أنفاسه وسط أسراب الرجال فى المقاعد المتحركة والسيدات البدينات فى الفساتين كالخيام فى ممرات المستشفى العام. كره جارى أمه لأنها

أرسلته إلى هنا، لكنه أقر بكم هو محظوظ مقارنة بها، وكم هو حر ويتمتع بالامتيازات، وهكذا حاول أن ينأى بنفسه قدر الإمكان عن أجساد هؤلاء الناس المحليين الذين يتعاطون الحقن ويتعامل معهم الأطباء بالقفازات المطاطية.

مشكلة جارى مع المرض بشكل عام، إلى جانب أنها تنطوى على رؤية كميات كبيرة من الأجساد البشرية وهو لا يحب الأجساد البشرية فى كميات كبيرة، هى أن المرض يبدو له تابعًا للطبقات الفقيرة. الفقراء يدخنون ويأكلون الدوناتس بالدستة. الفقراء يحملون من أقارب مقربين لهم. الفقراء لا يراعون النظافة ويعيشون فى أحياء مسممة. الفقراء بعللهم يعتبرون جنسًا فرعيًا من الجنس البشرى يبقى لحسن الحظ خفيًا على جارى اللهم إلا فى المستشفيات وفى أماكن مثل المستشفى العام. إنهم جنس أكثر بلادة وحزنًا وبدانة ومعاناة. طبقة سفلية مريضة يود بكل جوارحه أن يبقى بعيدًا عنها.

إلا أنه وصل إلى سان جود يشغله الإحساس بالذنب على عدة أمور أخفاها عن إنيد، وقد عقد عزمه على أن يكون ابنًا صالحًا لمدة ثلاثة أيام، وهكذا وعلى الرغم من إحساسه بالإحراج مضى فى طريقه وسط حشود الكسيحين والمقعدين، ودخل معرض المستشفى العام الذى يبيع الأغراض الطبية المدعومة، وبحث عن مقعد حمام لأبيه ليجلس عليه وهو يستحم تحت الدُش.

تتسلل إلى مسامعه من سماعات مخفية فى المعرض نسخة سيمفونية كاملة من أكثر أغنية كريسماس باعثة على الملل "ليتل درامر بوى". الصباح خارج نوافذ المعرض الزجاجية براقًا شتويًا باردًا.

كانت المقاعد الطبية المتنوعة بمختلف المقاسات والخصائص لتزعج جارى لولا حرصه على أن يقيمها جماليًا.

تساءل على سبيل المثال: لماذا اللون البيج. البلاستيك الطبى عادة لونه بيج، وعلى أفضل تقدير، لون رمادى مقزز. لم لا يختارون الأحمر؟ لم لا يختارون الأسود؟

ربما الغرض من البلاستيك البيج هو ضمان استخدام الأثاث المعروض هنا لأغراض طبية فقط. ربما يخشى المنتج أنه إذا كانت المقاعد أنيقة للغاية، فقد يشترى منها الناس لأغراض غير طبية.

هناك مشكلة يجب تفاديها: ناس كثيرة تريد شراء منتجك!

هز جارى رأسه. يالبلاهة هؤلاء المنتجين.

اختار مقعدًا قويًا قريب من الأرض من الألومنيوم له قاعدة بيج عريضة. اختار عمود أمان ليسمك به المستحم تحت الدش ثقيل وقوى (وبيج!). وهو مندهش من الأسعار المبالغ فيها لهذه الأشياء، أخذها إلى الكاونتر، حيث عرضت فتاة غرب أوسطية، ربما كانت متدينة، كود السعر على شعاع الليزر وقالت لجارى فى صوت خفيض إن هذه المقاعد الألومنيوم منتج مدهش حقًا. قالت: "خفيفة للغاية ولا يمكن كسرها. أهى لوالدك أم لوالدتك؟"

جارى يكره غزوات خصوصيته، ورفض أن يرضى الفتاة بإجابة. إلا أنه أومأ برأسه.

الفيلسوفة الصغيرة تمرر بطاقة ائتمان جارى فى الجهاز: "أهلنا الكبار فى السن يصعب عليهم الاستحمام دون مساعدة مع الوقت. كلنا سنمر بهذه المرحلة فى نهاية المطاف. هل عدت للبيت فى الإجازة لتساعد الأهل قليلاً؟".

قال جارى: "أتعرفين ما الفائدة الحقيقية لهذه المقاعد؟ أن تشنقى نفسك عليها، أليس كذلك؟"

انسحبت الحياة من ابتسامة الفتاة: "لا أعرف".

"جميلة وخفيفة، يسهل ركلها".

"وقع هنا من فضلك يا سيدى".

بذل جهداً ليقاوم الرياح أثناء دفع باب الخروج. للرياح أسنان اليوم، وهى تعضه من وراء ياقة الجاكيت الثقيل. إنها رياح قادمة مباشرة من المحيط القطبى إلى سان جاد، لا تفصلها عنه أية تضاريس.

مضى شمالاً نحو المطار والشمس المنخفضة وراءه لحسن الحظ، تساءل جارى إن كان تعامل مع الفتاة بقسوة. ربما فعل. لكنه متوتر يعانى من ضغوط، والشخص المعرض للضغوط فى رأيه له الحق فى أن يضع الحدود الصارمة، أن يلتزم الصرامة فى محاسبة نفسه أخلاقياً، والصرامة فيما يفعل وما لا يفعل، والصرامة فيما يخص من هو ومن لا يكونه ومن يكلم ولا يكلم. إن أصرت فتاة مرحة متدينة من أولاد المنطقة على الكلام، فله الحق فى اختيار موضوع الكلام.

لكنه مدرك أن الفتاة لو كانت أكثر جاذبية، فربما كان ليتعامل معها بقدر أقل من القسوة.

كل شىء فى سان جود يسعى لقلب حالته المزاجية. لكن فى الشهور التى استسلم فيها لكارولين (والتى تعافت خلالها يده تماماً دون أدنى ندبة)، تصالح مع نفسه كونه شخصية الشرير فى سان

جود. عندما تعرف مسبقًا أن أمك ستنظر إليك كشخص يمثل دور الشرير مهما فعلت، تخسر حافز اللعب بقواعدها. تؤكد قواعدك أنت. تفعل ما تراه يحفظ ذاتك. تتظاهر إن لزم الأمر بأن طفلاً فى حالة صحية ممتازة، وهو ابنك، تتظاهر بأنه مريض.

حقيقة موضوع جوناه، أنه اختار بإرادته الحرة ألا يحضر إلى سان جود. يتفق هذا مع شروط استسلام جارى لكارولين فى أكتوبر الماضى. وهو يحمل خمس تذاكر لا يمكن رد ثمنها إلى سان جود، قال جارى لأسرته أنه يريد أن يذهب معه الجميع إلى هناك على الكريسماس، لكن لن يجبر أحدًا. قال كل من كارولين وكاليب وآرون على الفور وبكل صخب أن لا شكرا لك لن نذهب، أما جوناه الذى كان ما زال تحت أثر تعويذة حماسة جدته، فقد أعلن أنه "من المرجح جدًا" أن يذهب. لم يعد جارى إنيد يومًا بأن جوناه قادم، لكنه لم يحذرها أيضًا من أنه قد لا يأتى.

فى نوفمبر اشترت كارولين أربع تذاكر لعرض الساحر آلين جريجاريوس يوم 22ديسمبر وأربع تذاكر أخرى لعرض "لوين كينج" المسرحى فى مدينة نيويورك يوم ٢٣ ديسمبر. قالت موضحة: "يمكن لجوناه أن يأتى معنا إن لم يسافر، وإلا يمكن لآرون أو كاليب أن يصطحبا صديقًا". أراد جارى أن يسألها لماذا لم تشتر تذاكر للأسبوع التالى على الكريسماس، مما كان ليعفى جوناه من اختيار صعب. لكن منذ استسلام أكتوبر، بدأ يستمتع مع كارولين بشهر عسل ثانى، ورغم أنه كان من المفهوم أن جارى الابن صاحب الواجب سيذهب إلى سان جود ثلاثة أيام، كان ظلاً ثقيلاً يسقط على سعادته الزواجية كلما فتح موضوع الرحلة. كلما انقضت أيام

دون ذكر إنيد أو الكريسماس، زادت رغبة كارولين فيه، وزاد ضمه إلى مزاحها مع آرون وكاليب، وقل إحساسه بالاكتئاب. ولم يطف موضوع اكتئابه إلى السطح مرة واحدة منذ صباح سقوط ألفريد. يبدو أن الصمت المحيط بموضوع الكريسماس ثمن زهيد مقابل التناغم البيتى.

ولفترة بينما كانت الأشياء الجميلة التى وعدت بها إنيد جوناه فى سان جود وإغراءات اهتمامها به أثقل من كفة إغراءات عرض آلين جريجاريوس وليون كينج، راح جوناه يفكر بصوت مسموع على مائدة العشاء فى كريسماس لاند وتقويم الكريسماس الذى تحدثت عنه الجدة كثيرًا، وتجاهل أو لم ير الغمزات والابتسامات التى راح كاليب وآرون يتبادلانها. لكن كارولين زاد تشجيعها بشكل مباشر للولدين الأكبر على الضحك على الأجداد وحكى الحكايات عن عته ألفريد ("قال على الأتارى إنتيندو!") وعفاف إنيد ("سألت إن كانت المسرحية للكبار فقط!") وبُخل إنيد ("كان هناك حبتا فاصوليا خضراء، قامت بلفها فى ورقة فويل!") وجارى، منذ استسلامه بدأ ينضم إلى الضحك ("جدتى غريبة، صح؟") وأخيرًا أصبح جوناه متوترًا من نواياه بخصوص الكريسماس. فى عمر الثامنة كان يخضع لطغيان ما هو "جامد". فى البداية كف عن الحديث عن الكريسماس على العشاء، ثم عندما سأله كاليب بنصف سخريته العتيدة إن كان يتطلع إلى زيارة كريسماس لاند، كان رد جوناه فى صوت بذل الجهد ليخرجه شريرًا: "الأرجح أنه عرض غبى فعلاً".

قال آرون: "ناس بدناء كثيرون فى سيارات كبيرة يسيرون فى الظلام".

قالت كارولين: "يقولون لبعضهم البعض: حاجة جميلة، حاجة "حوّة" خالص".

قال كاليب: "حوة، حوة خالص".

قال جارى: "لا تسخروا من جدتكم".

قالت كارولين: "إنهم لا يسخرون منها".

قال كاليب: "فعلاً، نحن لا نسخر منها. المسألة أن الناس فى سان جود مضحكون، أليس كذلك يا جوناه؟"

قال جوناه: "الناس هناك ضخام للغاية فعلاً".

ليلة السبت، منذ ثلاثة أيام تقيأ جوناه بعد العشاء وصعد للفراش مصابًا بارتفاع بسيط فى درجة الحرارة. مع حلول مساء الأحد، كان قد عاد لطبيعته، وألقت كارولين ورقتها الأخيرة: فى عيد ميلاد آرون فى وقت مبكر من الشهر نفسه، كانت قد اشترت كمبيوتر ألعاب ثمين: "مشروع الرب ٢" وفيه يصمم اللاعبون ويشغلون كائنات تتنافس فى نظام بيئى. لم تسمح لآرون وكاليب ببدء اللعب إلا بعد انتهاء الفصل الدراسى، والآن بعد أن بدأوا اللعب، أصرت على أن يكون جوناه هو الميكروبات، لأن الميكروبات فى أى نظام بيئى تحظى بأكبر قدر من المتعة ولا تخسر أبدًا.

بحلول ساعة النوم يوم الأحد، كان جوناه مفتتنًا بفريقه من البكتيريا القاتلة ويتطلع إلى دخولهم المعركة غدًا. عندما نهض جارى من النوم صباح الاثنين وسأله إن كان سيذهب إلى سان جود، قال جوناه إنه يفضل البقاء فى البيت.

قال جارى: "إنه اختيارك. لكن تيتة ستفرح كثيرًا لو جئت".

"ماذا لو كانت إجازة مملة؟"

قال جارى: "لا ضمانة هناك أن أى شىء لن يكون مملاً. لكنك ستسعد تيتة. هذا شىء أضمنه لك".

تغير لون جوناه: "هل يمكن أن أفكر لمدة ساعة؟"

"طيب، ساعة واحدة. وبعدها علينا أن نحزم الحقائب ونذهب".

بنهاية الساعة كان جوناه منغمسًا بكل جوارحه فى "مشروع الرب ٢"هناك سلالة بكتيريا أصابت ثمانين بالمائة من ثدييات آرون الصغيرة ذات الحوافر بالعمى.

طمأنت كارولين جوناه قائلة: "عادى لو كنت لا تريد الذهاب. اختيارك الشخصى هو المهم. هذه إجازتك".

لن يُجبر أحد على الذهاب.

قال جارى: "سأقولها مرة أخرى: جدتك تتوق كثيرًا لأن تراك".

ارتسم الأسى والدمار على وجه كارولين، نظرة ألم عميق، شكلها كشكل مشاكل سبتمبر. نهضت دون كلمة واحدة وغادرت حجرة اللعب.

جاءت إجابة جوناه همسًا: "أظن أننى أفضل البقاء هنا".

لو كانوا ما زالوا فى سبتمبر، ربما كان جارى ليرى فى قرار جوناه أزمة فى الواجبات الأخلاقية فى ثقافة الاختيارات الاستهلاكية. ربما كان ليشعر بقدر أكبر من الاكتئاب. لكنه انتهى من هذه المرحلة ويعرف أن لا فائدة من هذا الكلام فى نهاية المطاف.

أخذ حقيبته وقبّل كارولين التى قالت: "سأفرح عندما تعود".

كان جارى من واقع إحساس أخلاقى صارم يعرف أنه لم يفعل أى خطأ. لم يعد إنيد يومًا بحضور جوناه. المسألة ببساطة أنه كذب بخصوص مرض جوناه حتى يعفى نفسه من حوار طويل.

وبالمثل، كى لا يجرح مشاعر إنيد، لم يذكر أنه خلال ستة أيام عمل ارتفعت أسهمه الخمسة آلاف فى شركة أكسون التى دفع مقابلها ٦٠ ألف دولار إلى ١١٨ ألف دولار. هنا مرة أخرى لم يرتكب أى خطأ، لكن نظرًا لنصيب ألفريد الضئيل من براءة اختراعه لأكسون، فالتزام الصمت هنا أحكم شىء.

نفس المنطق ينسحب على ذلك الشىء الصغير الذى احتفظ به جارى داخل جيب الجاكيت الداخلى السرى.

* * *

الطائرات تتهافت على الأرض من السماء البراقة، سعيدة فى جلدها المعدنى، بينما هو يتسلى بالنظر إلى المسنين الوافدين من كل حدب وصوب من أنحاء المطار. الأيام السابقة على الكريسماس هى أهم ساعات مطار سان جود، هى سر وجوده تقريبًا. كل ساحات انتظار المطار ممتلئة بالسيارات وكل أرصفته ممتلئة بالناس.

لكن دينيس وصلت فى موعدها. حتى الخطوط الجوية تآمرت لحمايتها من إحراج ساعة الوصول المتأخرة أو من شقيقها المنزعج من قضاء وقت طويل فى انتظارها. كانت تقف عند بوابة صغيرة من بوابات الخروج. معطفها الثقيل الخارجى شىء ياقوتى أحمر مجنون من الصوف، مشغول بياقة وردية قطيفة، وهناك شىء

مختلف فى رأسها فى نظر جارى، ربما مكياج أثقل من المعتاد. أحمر شفاه أثقل. كل مرة يرى دينيس فى ذلك العام الأخير (آخر مرة يوم عيد الشكر)، تبدو أبعد وأبعد عن الإنسانة التى يتخيلها من سنوات الصغر.

شم رائحة سجائر عندما قبلها.

قال: "أصبحت مدخنة"، وأفسح المجال فى صندوق السيارة لحقيبة سفرها وحقيبة التسوق.

ابتسمت دينيس: "افتح الباب أنا أتجمد من البرد".

ارتدى جارى نظارته الشمسية، فهو ماضٍ جنوبًا والشمس فى عينيه، وكاد يتصادم مع سيارة أخرى عندما التقى طريق المطار بالطريق السريع. العدوانية فى القيادة مسألة تقارب الحرمانية فى سان جود، وحركة السيارات خفيفة لدرجة أن أى سائق من الشرق يجد متعة بالغة فى تجاوز السيارات هنا.

قالت دينيس: "أراهن أن ماما سعيدة بوجود جوناه هنا".

"فى الحقيقة لم يأت جوناه".

أدارت رأسها إليه فى حدة: "لم تجلبه معك؟"

"إنه مريض".

"لا أصدق، لم تجلبه!"

يبدو أنها لم تتوقف للحظة وتفكر أنه ربما كان يقول الحقيقة.

قال جارى: "هناك خمسة أشخاص فى بيتى. على قدر علمى، هناك شخص واحد فى بيتك. الأمور تصبح معقدة عندما تكثر المسئوليات".

"كل الموضوع أننى أشعر بالأسف لأنك طمّعت ماما فى حضوره".

"ليس خطأى أنها تختار أن تحيا فى المستقبل وتوقعاته".

قالت دينيس: "أنت محق. ليس خطأك. كنت فقط أتمنى ألا يحدث هذا".

قال جارى: "بمناسبة ماما. أريد أن أخبرك بشىء غريب جداً. لكن عدينى ألا تخبريها".

"ما هو؟"

"عدينى ألا تخبريها".

وعدته دينيس ففتح جارى جيب الجاكيت الداخلى وعرض عليها العبوة التى جلبتها بيا مايزنر بالأمس. كانت لحظة عجيبة: سيارة جاجوار تشاك مايزنر فى الشارع، متوقفة فى هدوء تنفس عادم الشتاء الأبيض، وبيا مايزنر واقفة أمام الباب فى معطفها الأخضر المطرز تُخرج من حقيبتها عبوة صغيرة للغاية، فوضع جارى زجاجة الشمبانيا واستلم منها العبوة. قالت بيا: "هذه لأمك. لكن يجب أن تخبرها أن كلاوس يقول إن عليها التزام الحذر البالغ فى تعاطيها. لم يرغب فى إعطائى إياها من الأساس. يقول إنها تؤدى إلى الإدمان ولهذا أحضرت كمية صغيرة منها. كانت تريد ما يكفيها ستة أشهر، لكن كلاوس أعطانى ما يكفيها لشهر واحد؛ لذا فلتخبرها أن عليها أن تتكلم مع طبيبها. ربما يا جارى عليك أن تحتفظ بالأقراص معك حتى تذهب للطبيب. المهم، عيد ميلاد سعيد" - دق نفير الجاجوا - وأبلغ الجميع سلامى وحبى".

روى جارى لدينيس ما حدث وهى تفتح العبوة. كانت بيا قد طوت ورقة من مجلة ألمانية لتخفى بها المحتويات. على جانب من

الصفحة بقرة ألمانية فى إعلان للحليب. وداخل الورقة المطوية ثلاثين قرصًا ذهبيًا.

ضحكت دينيس: "يا نهار أسود! الواحد المكسيكى!"

قال جارى: "لم أسمع عنه قط".

"من مخدرات الملاهى الليلية. للشباب الصغار للغاية".

"وبيا مايزنر توصله لأمى حتى باب بيتنا".

"هل تعرف ماما أنك أخذته؟"

"ليس بعد. لا أعرف حتى ما تأثير هذا الشىء".

مالت دينيس على أصابعها ذات رائحة السجائر ووضعت قرصًا قرب فمه: "جرب واحدة".

أبعد جارى رأسه. يبدو أن أخته تتعاطى مخدرات، شىء أقوى من النيكوتين. كانت سعيدة للغاية أو تعيسة للغاية أو مزيج خطير من الحالتين. كانت ترتدى خواتم فضية فى ثلاثة أصابع وفى السبابة.

قال: "هل سبق وجربت هذا المخدر؟"

"لا، أنا ملتزمة بالكحول".

طوت العبوة فأخذها جارى مرة أخرى. قال: "أريد أن أتأكد أنك معى فى موقفى من هذا الموضوع. هل توافقينى على أنه يجب ألا تتعاطى ماما مخدرات تحضرها لها بيا مايزنر؟"

قالت دينيس: "كلا، لا أوافقك. إنها إنسانة بالغة ولها أن تفعل ما تشاء. ولا أرى أنه من العدل أن تصادر أقراصها دون أن تخبرها. إن لم تخبرها فسأفعل أنا".

قال جارى: "عفوًا، أعتقد أنك وعدت بألا تفعلى".

فكرت دينيس قليلاً. ضفاف الطريق المنثور عليها ملح تذويب الثلج تمرق إلى جوارها.

قالت: "طيب، ربما وعدتك، لكن لماذا تحاول أن تدير لها حياتها؟"

قال: "أعتقد أنك ترين أن الموضوع خرج عن السيطرة. أعتقد أنك ترين أنه حان الوقت ليتدخل أحدهم ليدير لها حياتها".

لم تجادله دينيس. ارتدت نظارة الشمس ونظرت إلى أبراج المدينة الطبية عند الأفق الجنوبى. كان جارى يأمل أن تعاونه أكثر. عنده بالفعل أخ "غير تقليدى" وليس بحاجة لأخت غير تقليدية. يحبطه أن الناس يغادرون عالم التوقعات المتعارف عليها بسعادة، يقلل ذلك من إحساسه بالسعادة فى البيت والعمل والأسرة، يشعر بأن ما يحدث هو تغيير أحادى الجانب لقواعد الحياة. يزعجه تحديدًا أن أحدث منشق إلى جانب "غير التقليدى" ليس شخصًا آخر من أسرة من الآخرين أو طبقة أخرى، لكن أخته الموهوبة الأنيقة، التى وحتى شهر سبتمبر الماضى كانت متفوقة فى أمور تقليدية يمكن لأصدقائه أن يقرأوا عنها فى نيويورك تايمز. ها هى قد تركت عملها وترتدى أربعة خواتم ومعطف متوهج وتفوح منها رائحة التبغ.

تبعها وهو يحمل المقعد الألومنيوم إلى البيت. قارن استقبال إنيد لها باستقبالها له بالأمس. لاحظ مدة العناق وعدم انتقادها لها فورًا والابتسامات المتطايرة هنا وهناك.

هتفت إنيد: "حسبتك ستقابلين شيب فى المطار وستعودون أنتم الثلاثة معًا إلى البيت!"

قال جارى: "هذا السيناريو مستحيل على ثمانية أصعدة".

قالت دينيس: "هل قال لك أنه سيكون هنا اليوم؟"

قالت إنيد: "هذا العصر. غدًا على أبعد تقدير".

قال جارى: "اليوم غدًا أبريل القادم، ما علينا".

قالت إنيد: "قال إن هناك بعض المشاكل فى ليتوانيا".

بينما ذهبت دينيس تبحث عن ألفريد، أخذ جارى الجريدة الصباحية. فى مربع فى صفحة الأخبار الدولية وجد خبرًا عن ليتوانيا: اضطرابات بعد انتخابات البرلمان المتنازع على نتائجها ومحاولة اغتيال الرئيس فيتكوناس، ثلاثة أرباع ليتوانيا بدون كهرباء، ميليشيات مسلحة متنافسة تتصادم فى شوارع فيلنيوس، والمطار.

قرأ جارى بصوت مرتفع، بإحساس تام بالرضا: "المطار مغلق. أمى؟ هل سمعتنى؟"

قالت إنيد: "كان فى المطار بالأمس، أنا واثقة أنه سيخرج من هناك".

"لماذا لم يتصل إذن؟"

"ربما كان فى طريقه ليلحق الطائرة".

عند نقطة معينة، تصبح قدرة إنيد على التخييل مؤلمة بدنيًا لجارى. فتح محفظته وأعطاها إيصال مقعد الحمام وعمود الأمان.

قالت: "سأكتب لك شيكًا فيما بعد".

"ما رأيك فى الآن، قبل أن تنسى".

وهى تغمغم وتتنهد فى احتجاج، التزمت إنيد بكلامه.

فحص جارى الشيك: "لماذا تاريخه ٢٦ ديسمبر؟"

"لأنك لن تكون فى فيلادلفيا قبل هذا الموعد".

استمرت المناوشات بينهما حتى الغداء. شرب جارى البيرة فى بطء وشرب زجاجة بيرة ثانية ممتعة فشعر بالتوتر الذى يسببه لإنيد وهى تخبره للمرة الثالثة ثم الرابعة أن عليه البدء فى مشروع الدُش. عندما نهض أخيرًا من المائدة خطر له أن إدارة حياة إنيد رد فعل طبيعى على إصرارها على إدارة حياته.

عمود أمان الدُش طوله خمس عشرة بوصة، ماسورة إينامل بيج بأطراف بارزة للتركيب. كانت المسامير القصيرة كافية لربط العمود بالخشب، لكنها غير مفيدة إطلاقًا فى ربطه بالسيراميك. ليثبت العمود، عليه أن يمرر مسامير بطول ست بوصات عبر الحائط لتستقر داخل الدولاب الصغير وراء الدُش.

فى ورشة ألفريد تمكن من العثور على مثاقب الشنيور بمقاسات مختلفة، لكن صناديق السيجار التى يذكر أنها كانت مستخدمة لتخزين الأدوات تحتوى على مسامير معوجة يتيمة. لا توجد هنا مسامير صلب ست بوصات.

وهو فى طريقه إلى متجر الخردوات وعلى وجهه ابتسامة "أنا حمار"، لاحظ أن إنيد تقف عند نوافذ حجرة الطعام، تنظر من وراء الستار الثقيل.

قال: "ماما، أرجو ألا تتوقعى الكثير بخصوص موضوع مجىء شيب".

"حسبت أننى سمعت باب سيارة فى الشارع".

خطر لجارى أن: طيب، على راحتك، ركزى انتباهك على من ليس هنا وأقمعى من هنا.

عند الرصيف مر بدينيس العائدة من السوبرماركت ومعها بقالة. قال: "أرجو أن تدعى ماما تدفع ثمن هذه الأشياء".

ضحكت أخته فى وجهه: "ما الفارق بالنسبة لك؟"

"إنها تحاول دائمًا ألا تدفع ثمن الأشياء. هذا الموضوع يضايقنى".

قالت دينيس وهى ماضية إلى البيت: "إذن ضاعف انتباهك".

لماذا تحديدًا يشعر بالذنب؟ لم يعدها بأن يجلب جوناه معه، ورغم أنه ربح حتى الآن ٥٨ ألف دولار من أسهم أكسون، فقد عمل بجد للحصول على هذه الأسهم وخاطر، وبيا مايزنر نفسها رجته ألا يعطى إنيد المخدر المؤدى للإدمان. لماذا يشعر بالذنب؟

وهو فى السيارة يقود تخيل إبرة مؤشر توتره العقلى تتحرك فى اتجاه عقارب الساعة. يشعر بالأسف لأنه عرض خدماته على إنيد. نظرًا لقصر فترة زيارته، من الغباء أن يقضى المساء فى مهمة كان يمكن أن تدفع لعامل كى يؤديها.

فى متجر الخردوات وقف عند الكاونتر وراء الأشخاص الأكثر بدانة وبطئًا فى الولايات البعيدة عن الساحل. جاءوا لشراء سانتا كلوز من المارشمالو، وأوانى مطبخ، وستائر أوروبية، ومجففات شعر

ثمن الواحدة منها ثمانية دولارات، وقفازات مطبخ عازلة للحرارة عليها رسوم وزينة عيد الميلاد. بأصابعهم البدينة يخرجون النقود على قدر الثمن تمامًا من أكياس نقود ضئيلة. هناك سحب بيضاء كرتونية الطابع من الدخان تنبعث من أذنى جارى. كل الأشياء المبهجة التى كان يمكنه أن يؤديها بدلا من الانتظار نصف ساعة لشراء ست مسامير صلب ستة بوصة تمر فى عقله. كان يمكنه زيارة متجر هدايا متحف المواصلات، أو أن يرتب رسومات الكبارى والسكة الحديد القديمة منذ بداية عمل والده فى ميدلاند باسيفيك، أو يبحث فى حجرة الخزين تحت التراس عن نموذج معدات السكة الحديد القديم الذى لا يعرف أين هو. مع ارتفاع معدلات اكتئابه تطور عنده اهتمام جديد، يشبه الهوايات فى كثافته، اهتمام بجمع لعب القطارات القديمة، ويمكنه أن يمضى يومًا كاملاً فى سعادة ـ الأسبوع كله! ـ فى مسعاه هذا.

أمام البيت وهو يقترب من الباب على الرصيف، رأى أمه تحدق من وراء الستائر فى الشارع. فى الداخل كان الهواء ساخنًا وكثيفًا برائحة الطعام الذى تخبزه وتقليه وتشويه دينيس. أعطى جارى فاتورة المسامير لإنيد، فتبينت فيها العدوانية الحقيقية اللصيقة بفعل إعطاءه الفاتورة لها.

"ألا يمكنك تحمل أربعة دولارات وست وتسعين سنتا؟"

قال: "أمى. أنا أؤدى العمل كما وعدتك. لكن ليس هذا حمامى. وليس هذا عمود الأمان الخاص بى".

"سأعطيك النقود لاحقًا".

"قد تنسين".

"جارى، سأعطيك النقود فيما بعد".

تابعت دينيس التى كانت ترتدى مريلة المطبخ هذا الحوار من عند باب المطبخ بعيون ضاحكة.

عندما زار جارى القبو للمرة الثانية كان ألفريد يشخر فى مقعده الأزرق الكبير. تقدم جارى من الورشة، وهناك توقف عندما اكتشف اكتشافًا جديدًا. بندقية "شوت جان" فى حقيبة قماش بسوستة على كاونتر المعمل. لا يذكر أنه رآها هنا من قبل. هل فشل فى أن يلاحظ وجودها؟ فى العادة تكون البندقية فى حجرة الخزين تحت التراس. يؤسفه حقًا أن يراها تحركت.

هل أدعه يطلق النار على نفسه؟

تردد السؤال بوضوح فى ذهنه لدرجة أنه كاد يسمعه بأذنيه. وفكر فى الموضوع، إنه شىء أن يتدخل لصالح سلامة إنيد ويصادر مخدراتها، فالحياة والأمل والمتعة ممكنة لإنيد وعليها تستحق الإنقاذ، أما العجوز فهو حطام.

فى الوقت نفسه لا يريد جارى أن يسمع صوت رصاصة فينزل ويخوض فى بركة دم. لا يريد أن تمر أمه بهذا الموضوع بدورها.

لكن رغم بشاعة الفوضى التى ستحدث، فسوف يتبعها تحسن كبير فى جودة حياة أمه.

فتح جارى صندوق الرصاصات على المائدة ورأى أن كل الرصاصات فى أماكنها السليمة. تمنى لو لاحظ شخص آخر وليس هو أن ألفريد حرك البندقية. لكن قراره عندما توصل إليه كان واضحًا فى ذهنه لدرجة أنه ردده على نفسه. وسط الصمت الترابى

البولى المكتوم فى المعمل، قال: "إن كان هذا ما تريده، فتفضل على الرحب والسعة، لن أعترضك".

قبل أن يتمكن من عمل الثقوب اللازمة للمسامير فى الحمام، اضطر لإخلاء أرفف خزانة الحمام الصغيرة. هذا فى حد ذاته عمل يعتد به. وضعت إنيد فى صندوق حذاء كل كرة قطن أخرجتها يومًا من زجاجة إسبرين أو علبة دواء. هناك خمسمائة أو خمسة آلاف كرة قطن. هناك عبوات معجون أسنان وزيوت شعر نصف فارغة من أزمان غابرة. هناك أوانٍ بلاستيكية كثيرة (بألوان أسوأ ـ لو كان هذا ممكنًا ـ من البيج) من أيام زيارة إنيد للمستشفيات لإجراء جراحة على قدمها، وجراحة على الركبة وغيرها. وهناك زجاجات صغيرة لطيفة الشكل من الميكروكروم والمطهرات جفت فى الستينيات. وهناك كيس ورقى أعاده جارى سريعًا دون أن ينظر لمحتوياته إلى رف عالٍ بالخزانة، ويبدو أنه يحتوى على فوط صحية عفى عليها الزمن.

كان ضوء النهار يتلاشى عندما أفرغ الخزانة وأصبح مستعدًا لعمل الثقوب الستة. وقتها اكتشف أن مثاقب الشنيور باردة تمامًا لا تصلح للثقب. مال على الشنيور بكل وزنه، وطرف المثقاب الذى استحال لونه للأزرق والأسود الفاقد لقدراته لا يخترق الحائط، ثم بدأ الدخان يتصاعد من الشنيور. تصبب الورق على وجهه وصدره.

اختار ألفريد هذه اللحظة كى يدخل الحمام ويقول: "ياللمهارة".

قال جارى وهو يلتقط أنفاسه: "مثاقب الشنيور هذه باردة للغاية. كان يجب أن أشترى أخرى جديدة وأنا فى المتجر".

قال ألفريد: "دعنى أرى".

لم يكن جارى ينتوى جذب العجوز إليه أو أن يشغله بما يفعل. ابتعد عن يديه المقتربتين الطماعتين، لكن عينى ألفريد أصبحتا ثابتتين على الشنيور، وجهه يلمع من احتمالات حله لمشكلة. تخلى جارى عن الشنيور. تساءل إن كان والده يرى ما يحمله بين يديه. ارتج الشنيور بعنف بالغ. زحفت أصابع العجوز حول سطحه المصقول، ممسكًا به هنا وهناك وكأن أصابعه ديدان عمياء.

قال ألفريد: "أنت تشغله على الوضع العكسى".

وبطرف ظفره المصفر، دفع ألفريد مفتاح الاتجاه إلى "الأمام" وناوله مرة أخرى إلى جارى، وللمرة الأولى منذ وصوله، التقت أعينهما. كانت الارتعاشة التى اعترت جسد جارى ليست أكثر من كون جسده يبرد بعد أن تصبب منه العرق. خطر له أن العجوز ما زالت عنده بقايا من القدرة على التفكير، لدرجة أنه أثبت أنه الأكثر ذكاءً فى هذه المناسبة الصغيرة، من ابنه.

قال جارى: "واضح إذن سبب أننى لست مهندسًا".

"ما هو مشروعك؟"

"أركب عمود الأمان هذا. هل ستستخدم الدُش لو وضعنا هنا كرسى وعمود أمان؟"

قال ألفريد وهو يخرج: "لا أعرف ماذا خططتم لى".

كانت تلك هدية الكريسماس الخاصة بك. كذا فكر جارى فى صمت. رفعك لذلك المفتاح فى الشنيور كان هديتك منى.

بعد ساعة كان قد أعاد ترتيب الحمام وكانت حالته المزاجية مشتعلة مرة أخرى. ألفريد الذى دعاه جارى ليجرب الكرسى الجديد، أعلن أنه يفضل البانيو.

قال جارى فى المطبخ وهو يصب لنفسه كأس خمر: "أديت ما علىّ وانتهيت. غدًا عندى أشياء قليلة أريد عملها".

قالت إنيد: "تحسن حال الحمام كثيرًا".

صب جارى لنفسه كمية كبيرة. راح يصب ويصب.

قالت: "آه يا جارى، لم لا نفتح زجاجة الشمبانيا التى جلبتها بيا لنا".

قالت دينيس التى خبزت كعكة قهوة ورغيفين من الخبز بالجبن وتعكف على تحضير عشاء من البولينتا والأرانب بالشوربة على حد تقدير جارى كما يرى منها: "لا، دعينا لا نفعل". من السهل تقدير أن هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها هذا المطبخ أرنبًا.

عادت إنيد للوقوف عند نوافذ حجرة الطعام. قالت: "أنا قلقة لأنه لم يتصل".

انضم جارى إليها عند النافذة، وخلاياه تتشرب نشوة أول كأس. سألها إن كانت تعرف بنظرية شفرة أوكام.

قال بفصاحة وبلاغة حفلات الكوكتيل: "نظرية شفرة أوكام هى ببساطة اختيار التفسير الأبسط بين تفسيرين لظاهرة واحدة".

قالت إنيد: "ماذا تقصد؟"

قال: "قصدى أنه من الممكن أن شيب لم يتصل بك لأن شيئًا معقدًا لا نعرف عنه أى شىء قد وقع. أو ربما بسبب شىء بالغ البساطة نعرفه كلنا، هو انعدام إحساسه بالمسئولية لدرجة مفزعة".

قالت إنيد ببرود: "قال إنه قادم وقال إنه سيتصل. قال أنا عائد إلى البيت".

"طيب، كما تشائين. قفى فى النافذة إذن، هو اختيارك".

لأنه كان يتوقع أنه سيقود السيارة إلى باليه كسارة البندق، لم يتمكن جارى من الشرب كما أراد قبل العشاء. ولهذا شرب الكثير بعد أن عادت الأسرة من الباليه واتجه ألفريد للطابق العلوى، بخطوة سريعة، ونامت إنيد فى الطابق السفلى وهى تنوى أن يتعامل ابنها وابنتها مع أية مشكلات ليلية قد تحدث. شرب جارى سكوتش واتصل بكارولين. شرب سكوتش وفتش البيت بحثًا عن دينيس فلم يجد لها أثرًا. أخرج من حجرته هدايا الكريسماس ورتبها تحت الشجرة. كان سيعطى الجميع نفس الهدية: نسخة مؤطرة بالجلد من ألبوم آل لامبرت المكون من مائتى صورة. ضغط على نفسه كثيرًا حتى ينتهى من أعمال الطباعة قبل الكريسماس، وها هو الألبوم قد اكتمل، فقرر أن يفكك حجرة التحميض، وينفق المزيد من أرباح أسهم أكسون فى بناء نموذج كبير لسكة حديد وقطارات سكة حديد فى الطابق الثانى للجراج. كانت هواية اختارها لنفسه، ولم يخترها أحد له، وبينما يضع رأسه المغلف بسحابات السكوتش على الوسادة الباردة ويطفئ نور حجرة نومه السان ـ جودية، أحس بحماس قديم من فكرة تسيير القطارات وسط جبال من ماكيتات ورقية وكرتونية، ودرابزين قضبان السكة الحديد مصنوع من عصى المصاصات.

حلم بعشر أعياد كريسماس فى البيت. حلم بحجرات وناس، حجرات وناس. حلم بأن دينيس ليست أخته وأنها ستقتله. أمله

الوحيد هو البندقية فى القبو. تفحص البندقية ليتأكد أنها محملة بالذخيرة، ثم أحس بكيان شرير وراءه فى الورشة. التفت ولم يتعرف فى ذلك الكيان على دينيس. كانت المرأة التى رآها امرأة أخرى ستقتله أو يقتلها. ولا توجد مقاومة من زناد البندقية، كان رخوًا سهل القياد. البندقية تعمل على الاتجاه العكسى، وعندما جهزها بحيث تطلق الرصاصة للأمام وجد أن المرأة تقترب لتقتله.

أفاق من النوم وهو يشعر بحاجة للتبول.

ظلام حجرته لا يسعفه، مع ضوء غير وهج المنبه الديجيتال، الذى لم ينظر إليه لأنه لا يريد أن يعرف كم هى ساعة مبكرة. يمكنه أن يرى من بعيد جزءًا من سرير شيب القديم عند الجدار المقابل لناحيته. صمت البيت وكأنه مؤقت غير مسالم.

احترامًا لهذا الصمت خرج جارى من السرير فى هدوء وتسلل فى صمت نحو الباب، وهنا اعتراه الرعب.

أحس بالخوف من فتح الباب.

جاهد ليسمع ماذا يحدث فى الخارج. يسمع أصواتًا بعيدة مكتومة لحركات ضئيلة زاحفة.

كان يخشى الذهاب للحمام لأنه لا يعرف ماذا سيجد فى الخارج. خائف لأنه إن ترك حجرته فربما يعثر فى شخص خطأ، ربما أمه، أو أخته أو أبيه، فى فراشه عندما يعود من الحمام.

كان على أتم يقين من أن هناك أشخاصًا يتحركون فى الصالة. فى يقظته الغائمة غير الكاملة ربط بين اختفاء دينيس قبل ذهابه

إلى الفراش، والشبح الشبيه بدينيس الذى كان يحاول قتله فى الحلم.

احتمال أن هذا الشبح القاتل يسكن الصالة الآن تبدو فكرة خيالية بنسبة تسعين فى المائة.

خطر له أن المكان آمن هنا، أن يبقى فى حجرته ويتبول فى واحدة من أباريق الخزف النمساوية الموضوعة على الكومودينو.

لكن ماذا لو جذب صوت الطرطرة انتباه من هم خارج الباب؟

وهو يتحرك على أطراف أصابعه، أخذ إبريق خزف إلى الدولاب الذى كان يشارك شيب فيه منذ حصلت دينيس على حجرة النوم الصغيرة وأصبح الولدان معًا فى حجرة الواحدة. أغلق باب الدولاب وراءه، ووقف وسط الملابس النظيفة وحقائب السفر التى تخزنها إنيد هنا، وتبول فى الإبريق النمساوى. وضع طرف إصبعه عند حافة الإبريق ليرى إن كان البول سيتجاوز حافة الإبريق أم لا، وأفرغ ما بداخله أخيرًا. وضع الإبريق على أرضية الدولاب، وأخذ ظرفًا من إحدى حقائب السفر، وغطى به الإبريق.

بسرعة بسرعة بعدها غادر الدولاب وعاد إلى سريره. بينما كان يرفع قدميه عن الأرض سمع صوت دينيس. كان بعيدًا وحواريًا وكأنها تتكلم فى الحجرة معه. قالت: "جارى؟"

حاول ألا يتحرك لكن سمع صوت صرير من السرير.

"جارى؟ آسفة لإزعاجك. هل أنت صاحى؟"

لم يعد أمامه خيار سوى أن ينهض ويفتح الباب. كانت دينيس أمامه، ترتدى بيجاما بيضاء وتقف تحت الضوء المتسرب من حجرة نومها. قالت: "آسفة. بابا ينادى عليك".

"جارى!" صوت ألفريد قادم من الحمام المجاور لحجرتها.

سألها جارى وقلبه يرتجف كم الساعة.

قالت: "لا أعرف. أيقظنى من النوم وهو ينادى على شيب. ثم بدأ ينادى عليك. لكنه لم يناد علىّ أنا. أعتقد أنه مرتاح لك أكثر".

رائحة سجائر فى أنفاسها مرة أخرى.

"جارى! جارى!" الصوت جهورى ينبعث من الحمام.

قال جارى: "ما هذا القرف".

"ربما يريدك لتعطيه الدواء".

"يا للقرف".

من الحمام: "جارى!"

"حاضر يا بابا، أنا قادم".

صوت إنيد الخالى من الحياة ينبعث من الطابق السفلى: "جارى، ساعد أباك".

"حاضر يا ماما، أنا ذاهب. عودى أنت للنوم".

قالت إنيد: "ماذا يريد؟"

"عودى لسريرك".

فى الصالة يشم رائحة شجرة الكريسماس والمدفأة. طرق على باب الحمام وفتحه. كان والده يقف فى البانيو عاريًا من الخصر حتى أصابع قدميه، لا شىء فيه إلا الجنون المرتسم على وجهه. حتى الآن كان جارى لا يرى مثل هذه الوجوه إلا فى محطات الأتوبيسات وفى دورات مياه برجر كينج فى وسط مدينة فيلادلفيا.

قال ألفريد: "جارى. إنها فى كل مكان". العجوز يشير إلى الأرض بإصبع مرتجف. "هل تراها؟"

"بابا، أنت تهلوس".

"أمسكه، أمسكه!"

"أنت تهلوس وحان وقت خروجك من البانيو والعودة إلى سريرك".

"هل تراهم؟"

"أنت تهلوس، عد إلى سريرك".

استمر الوضع على هذا المنوال لوهلة، نحو عشر أو خمس عشرة دقيقة، قبل أن يتمكن جارى من إخراج ألفريد من الحمام. كان النور مضاءً فى حجرة النوم الرئيسية، وهناك عدة حفاظات غير مستعملة منثورة على الأرض. يبدو لجارى أن والده كان يحلم بلا نوم، حلمًا براقًا ساطعًا كحلم جارى عن دينيس، وأن الثانية الواحدة التى استغرقها جارى بين النوم واليقظة استطالت بالنسبة لوالده واستغرقت نصف ساعة.

قال ألفريد أخيرًا: "ما هى "تهلوس"؟"

"أن تحلم وأنت لست نائمًا".

أجفل ألفريد: "أنا قلق من هذا الموضوع".

"لك حق".

"ساعدنى فى تغيير الحفاظة".

قال جارى: "طيب، حاضر".

"أنا قلق من أن أكون مصابًا بمشكلة فى عقلى".

"بابا".

"أشعر أن رأسى لا يعمل جيدًا".

"أعرف أعرف".

لكن جارى نفسه أصابته العدوى، فى منتصف الليل، بمرض والده. وهما يتعاونان على حل مشكلة الحفاظة، التى رأى فيها والده خصمًا يحادثه ويجادله وليس قطعة ثياب يرتديها ببساطة. جارى بدوره أحس بأن الأشياء تذوب من حوله، أحس بالليل عبارة عن تحولات وتغيرات عجائبية. يشعر بأن هناك أكثر بكثير من شخصين فى البيت وراء باب الحجرة، بأن كوكبة كبيرة من الأشباح تحوم حوله لا يمكنه أن يراها إلا إذا دقق النظر.

شعر ألفريد القطبى يتهدل على وجهه بعد أن رقد. رفع جارى البطانية على كتفيه. يصعب تصديق أنه كان يتشاجر مع هذا الرجل، ويعامله بجدية وكأنه ندًا له، قبل ثلاثة شهور.

الساعة فى المنبه إلى جوار سريره كانت 2:55عندما عاد إلى حجرته. البيت هادئ مرة أخرى. باب دينيس موصد. الصوت الوحيد الذى يسمعه هو صوت شاحنة ضخمة على الطريق السريع على مسافة نصف ميل. يتساءل جارى لماذا رائحة حجرته قريبة لدرجة خفيفة من رائحة أنفاس المدخنين.

ربما ليست أنفاس المدخنين. ربما هى رائحة الإبريق الخزفى النمساوى المطرز الممتلئ بالبول الذى تركه فى الدولاب!

غدًا، غدًا يومى. غدًا يوم استجمام جارى. ثم صباح الخميس سأفجر هذا البيت تفجيرًا. سوف ننهى هذا المهرجان.

* * *

بعد أن فصل براين كالاهان دينيس من العمل، قطعت نفسها قطعًا ووضعت القطع أمامها على المائدة. روت لنفسها حكاية ابنة فى أسرة مشتاقة لابنة لدرجة أنها كانت لتأكلها حية لو لم تهرب. روت لنفسها حكاية ابنة، فى سعيها المحموم للهرب، لجأت إلى أى ملاجئ مؤقتة تجدها: العمل فى الطهى والمطاعم، الزواج من إميل برجر، وحياة الكبار الطاعنين فى السن فى فيلادلفيا، وعلاقة مع روبن باسافارو. لكن بطبيعة الحال فإن هذه الملاجئ المختارة على عجل، ثبت عدم جدواها على المدى البعيد. بمحاولة حماية نفسها من جوع أسرتها، أنجزت الابنة عكس ما أرادته تمامًا. ضمنت أنه عندما يصل جوع الأسرة لمنتهاه فسوف تنهار حياتها وتصبح بلا زوج ولا أبناء ولا وظيفة ولا مسؤوليات ولا دفاعات من أى نوع. وكأنها طوال الوقت كانت تتآمر حتى يصبح عندما وقت لرعاية أبويها.

فى تلك الأثناء تآمر شقيقاها حتى ينشغلان عنها. فر شيب إلى شرق أوروبا ووضع جارى نفسه خاتمًا فى إصبع كارولين. جارى حقًا "مسئول" عن أبويه، لكن فكرته عن المسئولية هى البلطجة وإعطاء الأوامر. عبء الاستماع لإنيد وألفريد والصبر عليهما وفهمهما يقع بالكامل على عاتق الابنة. ترى دينيس بالفعل أنها ستصبح الابنة الوحيدة على عشاء الكريسماس فى سان جود، والابنة الوحيدة المتوفرة خلال الأسابيع والشهور والسنوات القادمة لأبويها. أخلاق أبواها لا تسمح لهما بأن يطلبا منها المجىء والعيش معهما، لكنها تعرف أن هذا ما يريدانه. ما إن ألحقت والدها فى المرحلة ٢ من اختبارات الكوريكتول وعرضت استضافته، حتى كفت إنيد عن هجماتها العدوانية عليها من نفسها. لم تذكر إنيد مرة واحدة من بعدها صديقتها الخليعة نورما جرين. لم تسأل دينيس

مرة واحدة عن سبب "تركها" لعملها فى الجينيريتور. كانت إنيد فى مشكلة، وابنتها تعرض المساعدة، وهكذا ليس عندها رفاهية البحث عن الأخطاء. حان الوقت الآن، طبقًا للحكاية التى ترويها دينيس لنفسها عن نفسها، لأن تقطع الشيف نفسها وتطعم القطع لأبويها الجائعين.

ولأنها ليس عندها حكاية أفضل، فقد اقتنعت بهذه الحكاية وصدقتها. المشكلة الوحيدة أنها لا تتصور لنفسها دور فيها.

عندما ارتدت بلوزة بيضاء وسترة رمادية قديمة ووضعت أحمر شفاه واعتمرت قبعة سوداء بستار أسود صغير، وقتها تعرفت على نفسها. عندما ارتدت تى شيرت أبيض وجينز أولاد وربطت شعرها فى عقدة أعلى رأسها لدرجة أن رأسها آلمها، عرفت نفسها. عندما ارتدت مجوهرات من الفضة وآى شادو تركواز وطلاء أظافر بلون الجثث، وفستان بمبى باهت وحذاء برتقالى، عرفت نفسها إنسانة حية تتنفس سعادة الحياة.

ذهبت إلى نيويورك لتظهر فى برنامج على قناة الطعام وزارت أحد الأندية المخصصة للناس أمثالها الذين بدأوا "يفهمون" ويحتاجون للممارسة. أقامت مع جوليا فريس فى شقة جوليا الرائعة فى شارع هدسون. أفادت جوليا أنها فى أثناء مرحلة اكتشاف الذات أثناء طلاقها عرفت أن جيتاناس ميسيفيكوس دفع ثمن هذه الشقة من أموال مسروقة من الحكومة الليتوانية.

قالت جوليا لدينيس: "يزعم محامى جيتاناس أن ما حدث كان خطأ غير مقصود، لكن يصعب علىّ أن أصدق".

"هل هذا يعنى أنك ستفقدين هذه الشقة؟"

قالت جوليا: "لا، فى الواقع الأرجح أننى سأحتفظ بها دون أن أدفع أى شىء. لكن أشعر بإحساس حقير! شقتى تخص الشعب الليتوانى!"

درجة الحرارة فى حجرة نوم جوليا الإضافية تبلغ ٣٠ درجة تقريبًا. أعطت دينيس مرتبة للنوم وسألتها إن كانت تحتاج بطانية.

قالت دينيس: "شكرًا، ما هنا يكفينى".

أعطتها جوليا أربع ملاءات صوفية وأربعة أغطية لوسادات. سألتها كيف حال شيب فى فيلنيوس.

"يبدو أنه وجيتاناس أصدقاء مقربين".

قالت جوليا فى سعادة: "لا أريد أن أتخيل ما يقوله الاثنان عنى".

قالت دينيس إنه لن يدهشها لو تفادى جيتاناس وشيب الكلام عنها بالمرة.

قطبت جوليا جبينها وقالت: "لماذا لن يتحدثا عنى؟"

"لأنك تخلصت من كل منهما بشكل مؤلم".

"لكن يمكنهما الكلام عن كم هما يكرهاننى!".

"لا أعتقد أن هناك إنسانًا يمكنه أن يكرهك".

قالت جوليا: "فى الواقع أخشى أنك ربما كرهتنى لأننى انفصلت عن شيب".

"لا، لا علاقة لى بالمرة بهذا الموضوع".

بعد أن أحست بالارتياح لسماعها هذا الكلام، أسرت جوليا لدينيس أنها تخرج الآن مع محام، وسيم لكنه أصلع، كانت إدين

بروكورو قد عرفتها به. قالت: "أشعر معه بالأمان. إنه واثق من نفسه جدًا فى المطاعم. وعنده عمل كثير للغاية، ولا يطاردنى دائمًا ليطلب منى خدمات".

قالت دينيس: "كلما قل ما أخبرتنى به عن علاقتك بشيب زاد سرورى".

عندما سألت جوليا إن كانت دينيس تخرج مع أحد، ما كان يجب أن يكون صعبًا عليها أن تخبرها بموضوع روبن باسافارو، لكن تبين أنه موضوع صعب للغاية. لا تريد دينيس أن تقلق صديقتها منها، ولا تريد أن تسمع منها التعاطف والحنان. تريد أن تمضى فى علاقتها بجوليا فى طريقها البرىء العادى، ولهذا قالت: "لا أقابل أحداً".

لا أحد باستثناء أنها فى الليلة التالية قابلت على مسافة مائتى خطوة من شقة جوليا فتاة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا نزلت لتوها من الأتوبيس القادم من بلدة بلاتسبرج، نيويورك، بتسريحة شعر عنيفة وشهادة نتائج اختبارات القبول فى الجامعة، ثم فى الليلة التالية تعرفت على طالبة بالسنة النهائية تدرس دراسات دينية فى جامعة كولومبيا، والدها (على حد قولها) يدير أكبر بنك حيوانات منوية فى جنوب كاليفورنيا.

وهكذا ذهبت دينيس إلى استوديو فى منطقة ميد تاون فى نيويورك، لتظهر كضيفة فى حلقة من برنامج "طعام الناس المعاصرين"، فأعدت لحم ضأن بالريفيولى وأطباقًا أخرى أنيقة. قابلت بعض النيويوركيين الذين سبق وحاولوا أخذها من براين - اثنان من تريليونيرات شارع سنترال بارك ويست حاولا عقد

علاقات إقطاعية معها، ومدير بنك من ميونخ يرى أنها المهدى المنتظر القادر على بعث الطعام الألمانى من الموت ليعود إلى سابق مجده فى منهاتن، وصاحب مطعم شاب، اسمه نيك رازا، أدهشها أنه يتذكر كل طبق وكل قضمة أكلها في مطعم مارى سكورو وفى جينيريتور. رازا من أسرة من متعهدى طعام الحفلات فى نيوجيرسى ويملك مطعم سى فود متوسط الحال فى حى آبر إيست سايد. يريد الآن أن ينتقل إلى مطعم فى شارع سميث فى بروكلين نجمته - إن أمكن - هى دينيس. طلبت منه أن يعطيها أسبوعًا لتفكر.

فى عصر يوم أحد خريفى مشمس أخذت المترو إلى بروكلين. تبدو المنطقة فى عينيها فيلادلفيا أخرى أنقذها أنها تجاور منهاتن. فى نصف ساعة رأت سيدات أكثر جمالاً وأهمية ممن رأت خلال نصف عام فى جنوب فيلادلفيا. رأت بيوتهن العتيقة وأحذيتهن الأنيقة.

وهى عائدة إلى بيتها بالقطار، ندمت لأنها أخبأت نفسها طويلاً فى فيلادلفيا. محطة المترو الصغيرة تحت مجلس المدينة خالية ترد الصدى، كل طابق وكل جدار وكل عمود باللون الرمادى. مشهد مؤلم هو مشهد القطار الصغير الذى توقف أخيرًا فى المحطة، بعد انتظار خمسة عشر دقيقة، وفيه ركاب فى صبرهم وعزلتهم وكأنهم أقارب ينتظرون فى قسم الطوارئ بالمستشفى وليسوا ركابًا مسرعين. خرجت دينيس عند محطة شارع فيدرال ستريت وسط أوراق شجر الجميز وأوراق سندوتشات البرجر على الأرض، فى سباق تحركه الرياح على رصيف شارع برود ستريت، تصعد فى دوامات هوائية أمام واجهات المبانى والنوافذ وتتبعثر وسط

السيارات المركونة. فراغ فيلادلفيا الحضرى، تناسق الرياح والسماء هنا، أمر ساحر، كونها من محبى ملحمة نارنيا. تحب فيلادلفيا كما أحبت روبن باسافارو. قلبها عامر بالحب والمشاعر حادة، لكن عقلها يكاد ينفجر من خواء عزلتها.

فتحت باب بيتها والتقطت البريد من على الأرض. بين العشرين شخصًا الذين تركوا رسائل على الأنسر ماشين كانت روبن باسافارو، كسرت صمتها لتسأل دينيس إن كان من الممكن أن "نتحدث قليلاً"، ومن إميل برجر، الذى أخبرها بتهذيب أنه قبل عرض براين كالاهان بأن يكون الشيف المدير فى الجينيريتور وأنه عائد إلى فيلادلفيا.

عندما سمعت هذه الأخبار من إميل، ركلت دينيس جدار مطبخها حتى خشت أن تكسر إصبع قدمها. قالت: "يجب أن أبتعد عن هنا!"

لكن الابتعاد ليس سهلاً. استغرقت روبن شهرًا حتى هدأت واستنتجت أنه إن كان النوم مع براين خطيئة فهى مذنبة بدورها. استأجر براين لنفسه شقة على السطح فى منطقة أولدى سيتى، وكانت روبن كما تخيلت دينيس مصممة على الاحتفاظ بحق رعاية سينيد وإيرين. لتؤكد حقها مكثت فى البيت الكبير بشارع بنما وعادت لتكرس كل وقتها للأمومة. لكنها كانت تشعر بالفراغ أثناء ساعات المدرسة وطوال يوم السبت عندما يأخذ براين البنتين ويخرج معهما، وبعد أن فكرت فى الموضوع أدركت أن الأفضل قضاء ساعات الفراغ هذه على سرير دينيس.

ما زالت دينيس غير قادرة على أن تقول "لا" لمخدر روبن. ما زالت تريد يدا روبن على جسدها وحولها وداخلها. لكن هناك شيئًا

ما فى روبن، ربما نزوعها للوم نفسها على الأضرار التى ألحقها بها آخرون، هو شىء يدعو الآخرون لأن يسيئوا إليها ويخونوها. تجاوزت دينيس فأصبحت تدخن فى السرير لأن دخان السجائر يحرق عينى روبن. ارتدت أفضل ثيابها على الغداء مع روبن، وبذلت قصارى جهدها لتوضح لروبن رثاثة حال ثيابها، وكانت تجذب أنظار جميع من ينظرون تجاهها، رجال أو نساء. أجفلت من ارتفاع صوت روبن. تصرفت وكأنها مراهقة ترافق أمها تتأفف بطبيعتها، وكان ازدراؤها لروبن عمديًا ومحسوبًا، شكل من أشكال القسوة المتعمدة. قالت لروبن بغضب أن تصمت عندما أصبحتا فى السرير وبدأت روبن تصرخ دون قصد. قالت: "اخفضى صوتك لو سمحت، لو سمحت". أحست بالاستمتاع لحرصها على القسوة، فحدقت فى ثياب روبن حتى استفزت روبن لتسألها لماذا. قالت دينيس: "أنا أتساءل فحسب: هل شعرت يومًا برغبة فى أن تكونى أقل أناقة من هذا". أجابت روبن بأنها لن تكون أنيقة أبدًا وأنها تفضل الراحة على الأناقة. سمحت دينيس لشفتيها بالانقلاب على سبيل الامتعاض من الكلام.

روبن متلهفة على أن تعود حبيبتها للتواصل مع سينيد وإيرين، لكن دينيس لأسباب لا تفهمها هى نفسها تمام الفهم، رفضت مقابلة البنتين. لا يمكنها أن تتخيل النظر إلى تلك العيون. ما يصاحب فكرة البنتين من رتابة أسرية منزلية أصابتها بالاشمئزاز.

قالت روبن: "إنها تحبانك كثيرًا".

"لا أقدر".

"لم لا؟"

"لأننى لا أريد. هذا هو السبب".

"طيب، لا يهم".

"إلى متى ستصبح كلمتك الأساسية هى لا يهم؟ هل ستكفين عن استخدامها يومًا؟ أم أن هذه الكلمة هى سر حياتك؟"

قالت روبن: "إنهما تحبانك كثيرًا. تشتاقان لك، وأنت كنت تحبين رؤيتهما".

"لست فى مزاج يسمح لى بالجلوس مع الأطفال. لا أعرف إن كنت سأعود لفكرة تقبل الأطفال بصراحة أبدًا. لذا أرجوك كفى عن مطالبتى".

فى تلك المرحلة كان أغلب الناس لتصلهم الرسالة، أغلب الناس كانوا ليبتعدوا عنها ولا يعودوا إليها أبدًا. لكن روبن وإن فهمت فهى من محبى المعاملة القاسية. قالت روبن - وصدقتها دينيس - أنها ما كانت لتترك براين إن لم يتركها هو. روبن تحب اللعق والمداعبة حتى تصبح على وشك الانتشاء، ثم تُترك وتضطر للاستجداء والتوسل. ودينيس تحب فعل هذا بها. تحب دينيس الخروج من الفراش وارتداء ثيابها والنزول للطابق السفلى بينما روبن تنتظر الانعتاق الجنسى، لأنها لن تغش وتلمس نفسها. جلست دينيس فى المطبخ تقرأ كتابًا وتدخن حتى نزلت روبن المُهانة المرتعدة إليها تترجاها. كان ازدراء دينيس لها وقتها خالصًا صافيًا وقويًا للغاية، إحساس يكاد يكون أفضل من الجنس.

وهكذا استمر الموضوع على هذا المنوال. كلما وافقت روبن على أن تتعرض للإهانة، زاد استمتاع دينيس بإهانتها. تجاهلت رسائل نيك رازا الهاتفية. مكثت فى السرير حتى الثانية بعد الظهر. تحول

تدخينها القليل فى المناسبات الاجتماعية إلى عادة. راحت تستمتع برغبة الكسل المتراكمة عندها منذ خمسة عشر عامًا. أصبحت تعيش على مدخراتها. كل يوم تفكر فى الجهد الذى ستبذله لتحضر البيت لحضور والديها - تركيب عمود أمان تحت الدُش ووضع سجاد على درجات السلم وشراء أثاث لحجرة المعيشة والعثور على مائدة مطبخ أفضل ونقل سريرها للأسفل من الطابق الثالث ونصبه فى حجرة الضيوف - فتنتهى لأنها ليس لديها الطاقة اللازمة. حياتها تتكون من انتظار سقوط الفأس. إن كان والداها قادمين لمدة ستة أشهر، فلا فائدة من بدء شىء آخر. عليها أن تستمتع بكل مخزونها من الكسل الآن.

من الصعب معرفة رأى والدها فى الكوريكتول. ذات مرة سألته سؤالاً مباشرًا على الهاتف، فلم يجبها.

قاطعتها إنيد: "آل؟ دينيس تريد أن تعرف رأيك فى الكوريكتول".

كان صوت ألفريد مخلوطًا بالمرار: "رأيى لماذا لم يجدوا للدواء اسمًا أفضل من هذا".

قالت إنيد: "إنه اسم مختلف تمامًا عن الدواء الملين. دينيس تريد أن تعرف إن كنت متحمسًا لهذا العلاج".

صمت.

"آل، أخبرها أنك متحمس للعلاج".

"أرى حالتى تتدهور أكثر كل أسبوع. لا أتخيل أن هناك علاجًا سيفيد كثيرًا".

"آل، إنه ليس دواء، إنه علاج جديد مختلف تمامًا يستخدمون فيه براءة اختراعك!"

"تعلمت أن أتحمل قدرًا معينًا من التفاؤل. ولهذا فسوف ألتزم بالخطة المرسومة".

قالت إنيد: "دينيس، يمكننى فعل الكثير لأساعد. يمكننى تحضير كل الوجبات وغسيل الثياب. ستكون مغامرة عظيمة! رائع أنك عرضت علينا".

لا تتخيل دينيس ستة أشهر مع أبويها فى بيت وفى مدينة انتهى أمرها معهما، ستة أشهر من الخفاء بصفتها ابنة مضيافة مسئولة وهى لا تكاد تقدر على التظاهر بأنها كذلك. لكنها قطعت وعدًا، ومن ثم أخرجت غضبها على روبن.

ليلة السبت قبل الكريسماس جلست فى مطبخها وراحت تنفخ الدخان فى وجه روبن بينما أثارت روبن غضبها وهى تحاول أن تبهجها.

قالت روبن: "أنت تعطيهما هدية عظيمة، بعد أن دعوتيهما إلى هنا ليقيما معك".

قالت دينيس: "كانت لتصبح هدية لو لم يكن حالى هكذا. لكن ليس على المرء أن يعرض أكثر مما يمكنه أن يوفره".

قالت روبن: "يمكنك توفير ما عرضت. سوف أساعدك. يمكننى قضاء فترات الصباح هنا مع والدك، وأن أريح أمك منه قليلاً، ويمكنك أن تخرجى وحدك، وتفعلين ما تشائين. سوف آتى ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع".

بالنسبة لدينيس لم يزد عرض روبن إلا من عتامة صورة تلك الصباحات وتوقعها للاختناق.

قالت: "ألا تفهمين؟ أنا أكره هذا البيت وهذه المدينة وأكره حياتى هنا. أكره الأسرة وأكره البيت. أنا على استعداد للمغادرة، ولست إنسانية طيبة. الحكاية تزداد سوءًا كلما تظاهرت بأننى كذلك".

قالت روبن: "أعتقد أنك إنسانة طيبة".

"أنا أعاملك معاملة زبالة! ألم تلاحظين؟"

"هذا لأنك تعيسة للغاية".

دارت روبن حول المائدة وحاولت أن تضع يدها على يد دينيس. دفعتها دينيس بمرفقها بعيدًا عنها. حاولت روبن مرة أخرى، وهذه المرة ضربتها دينيس بمرفقها على راحة يدها المبسوطة إليها.

تراجعت روبن وقد احمرّ وجهها وكأنها تنزف من الداخل. قالت: "أنت ضربتنى".

"أعرف".

"ضربتنى بقوة. لماذا فعلت ذلك؟"

"لأننى لا أريدك هنا. لا أريدك فى حياتى. لا أريد أن أكون جزءًا من حياة أحد. قرفت من مراقبة نفسى وأنا قاسية معك هكذا".

مشاعر الكبرياء والحب تتصارع فى عينى روبن. مرت فترة قبل أن تقول: "طيب. سوف أتركك وحدك".

لم تفعل دينيس شيئًا لتمنعها من المغادرة، لكن عندما سمعت الباب يُصفق فهمت أنها فقدت الإنسانة الوحيدة التى يمكنها أن تساعدها مع حضور أبويها. فقدت رفقة روبن، فقدت سلواها. كل شىء ألقته عنها قبل دقيقة تريده الآن.

ركبت الطائرة إلى سان جود.

فى يومها الأول، كما فى اليوم الأول من أية زيارة، استدفأت بدفء أبويها وفعلت كل ما طلبته منها أمها. رفضت النقود التى حاولت أن تعطيها لها إنيد بعد أن اشترت البقالة لها. امتنعت عن التعليق على زجاجة الصمغ الأصفر الزنخ التى كانت زجاجة زيت الزيتون الوحيدة فى المطبخ. ارتدت "بلوفر" من الصوف الصناعى بلون وردى وسلسلة ذهب قشرة هى هدايا أمها الأخيرة لها. هللت بشكل عفوى لراقصات الباليه المراهقات فى كسارة البندق وأمسكت بيد والدها وهم يعبرون ساحة انتظار السيارات أمام المسرح الإقليمى. أحبت أبويها أكثر مما تحب أى شىء، ولحظة أصبحا فى السرير وقت النوم غيرت ثيابها وغادرت البيت.

وقفت فى الشارع والسيجارة على شفتيها، ومعها علبة كبريت ترتعد بين أصابعها. سارت إلى الحقل وراء المدرسة الثانوية حيث جلست ذات يوم مع دين أرمور يشمان العشب والزهور. تعثرت، حكت يديها، راقبت السحب وتفحصت النجوم، والتقطت أنفاسًا عميقة حصنت بها ذاتها.

فى ساعة متأخرة من تلك الليلة، قامت بعملية سرية لصالح والدتها، فدخلت حجرة نوم جارى وهو مشغول مع ألفريد، وفتحت جيب الجاكيت الجلد الداخلى، واستبدلت حبوب "الواحد المكسيكى" بحبوب مسكن ألم، وأخذت مخدرات إنيد إلى مكان آمن قبل أن تلجأ كبنت طيبة صالحة إلى النوم أخيرًا.

مع يومها الثانى فى سان جود، اليوم الثانى من كل زيارة، أفاقت من نومها غاضبة. الغضب فعالية عصبية كيميائية مستقلة عنها، لا

سبيل لإيقافها. على الإفطار أحست بكل كلمة تقولها أمها تعذبها. وهى تحمر الضلوع وتعد الكرنب على طريقة الأجداد القديمة وليس الطريقة المعاصرة التى طورتها فى الجينيريتور، أحست بالغضب. (الكثير من الدهن والكثير من التضحية بالطعم الأصلى). تراخى موقد إنيد الكهربائى الذى لم يزعجها بالأمس أشعرها بالغضب. مغناطيسات الثلاجة المائة وواحد اللطيفة كلطف الجراء الصغيرة والضعيفة فى إمساكها بمعدن باب الثلاجة حتى إنه من الصعب فتح الباب دون سقوط مجموعة من صور جوناه وبطاقات فيينا البريدية على الأرض، أشعرها ذلك بالغضب. ذهبت إلى القبو لتعود بفرن هولندى سعة عشرة كوارت، فأحست بالغيظ الشديد من فوضى دولاب حجرة الغسيل. أفرغت صفيحة قمامة من القمامة وبدأت تملأها بخردة أمها. يمكن اعتبار ما تفعله مساعدة لأمها، فعكفت على عملها هذا بإخلاص شديد. ألقت هدايا كورية رخيصة وخمسين زهرية بلاستيكية لا قيمة لها ومجموعة من التذكارات وباقة من الزهور البلاستيكية المطرزة بدولارات فضية سقطت عنها الدولارات الفضية البلاستيكية. رمت أقماع الصنوبر المرشوشة بالإسبراى التى مزقها أحدهم. ألقت معجون قرع عسل تحول لونه إلى الرمادى الأخضر. ألقت صفائح من القلوب الصغيرة والجمبرى الصغير والذرة الصينية الصغيرة، ولترًا من النبيذ الرومانى معكرًا تعفنت سدادته، وزجاجة ماى تاى ميكس ذات قشرة صدئة حول عنقها تعود إلى عهد الرئيس نيكسون، ومجموعة من أباريق طراز بول ماسون شابليس عليها شباك عنكبوت وأجنحة فراشات مترسبة فى القاع. ألقت زجاجة فيس دايت كولا تحولت للون البلازما، ودورق زينة قديم متعفن وترموستات ذات رائحة

كريهة انكسر زجاجه الداخلى عندما هزته، وسلة نصف ممتلئة بكراتين الزبادى كريهة الرائحة وقناديل طوارئ لاستخدامها وقت الإعصار لزجة من الأكسدة ممتلئة بأجنحة الفراشات الميتة.

فى الجزء الخلفى من الدولاب، وسط أعشاش العنكبوت وراء الرف الخلفى، عثرت على مظروف سميك، لا يبدو قديمًا، ولا توجد عليه طوابع بريد. المظروف موجه إلى شركة أكسون، ٢٢٤ إيست إندستريال سيربنتاين، شوينكسفيل، بنسلفانيا. عنوان الراسل هو ألفريد لامبرت. ورأت على المظروف أيضًا كلمات "مصحوب بعلم الوصول".

صوت ماء فى نصف دورة المياه فى معمل والدها، تسمع السيفون يمتلئ، وتشم روائح كبريتية خفيفة فى الهواء، باب المعمل مفتوح، طرقت عليه دينيس.

قال ألفريد: "نعم".

كان يقف إلى جوار أرفف من المعادن والفلزات العجيبة، الجاليوم والبيسموث، وكان يداعب توكة حزامه. أطلعته على المظروف وقالت له إنها عثرت عليه.

قلب ألفريد الظرف بين يديه المرتعشتين، وكأن هناك تفسيرًا سحريًا ما قد يطرأ على ذهنه فجأة. قال: "حاجة عجيبة".

"هل يمكن أن أفتحه؟"

"افعلى ما تشائين".

الظرف يحتوى على ثلاث نسخ من اتفاق ترخيص بتاريخ ١٢ سبتمبر، من توقيع ألفريد والموثق هو ديفيد شومبرت".

قالت دينيس: "ماذا يفعل هذا الخطاب فى دولاب حجرة الغسيل؟"

هز ألفريد رأسه: "اسألى أمك".

ذهبت إلى بئر السلم ورفعت صوتها: "ماما؟ هل يمكن أن تنزلى إلينا هنا دقيقة؟"

لاحت إنيد عند السلم من فوق، وكانت تمسح بيديها منشفة الأطباق: "ما الموضوع؟ ألا تجدين الحلة؟"

"وجدت الحلة، لكن تعالى لحظة".

كان ألفريد فى معمله يمسك بوثائق أكسون فى إهمال دون أن يقرأها. ظهرت إنيد عند مدخل الباب والذنب يلوح على وجهها. "ما الحكاية؟"

"بابا يريد أن يعرف ماذا يفعل هذا الظرف فى دولاب حجرة الغسيل".

قالت إنيد: "هاته". اختطفت الوثائق من ألفريد وكومتها فى يدها كأنها سترميها. "انتهينا من هذا الموضوع. بابا وقع على اتفاقات أخرى وقد أرسلوا لنا الشيك على الفور. لا تقلقوا من هذه".

ضيقت دينيس عينيها وقالت: "حسبتك قلت إنك أرسلتها. عندما كنا فى نيويورك، فى مطلع أكتوبر، قلت إنك أرسلتها".

"ظننت أننى فعلت. لكننى فقدتها فى البوسطة".

"فى البوسطة؟"

لوحت إنيد بيديها فى غموض: "حسبت أنها أرسلت مع البوسطة. لكن يبدو أنها كانت هنا فى الدولاب. لابد أننى كنت أحتفظ هنا بمجموعة رسائل، على أن أخذها معى لمكتب البريد، ثم نسيت. لا يمكننى متابعة كل شىء هنا. أحيانًا أفقد أشياءً يا دينيس. إنه بيت كبير يحتاج لرعاية وتعب، وأحيانًا أفقد بعض الأشياء".

أخذت دينيس الظرف من على مائدة عمل ألفريد. "مكتوب عليه: بعلم الوصول.. إن كنت قد ذهبت إلى مكتب البريد بعدها، كيف لم تلاحظى أن هناك رسالة علمت عليها بعلم الوصول ليست معك؟ كيف لم تلاحظى وأنت فى المكتب أنك لم تملئى استمارة البريد المسجل؟"

صوت ألفريد تداخله مسحة من الغضب: "كفى يا دينيس".

قالت إنيد: "لا أعرف ما الذى حدث. كنت مشغولة طوال الوقت. الموضوع ملتبس علىّ تمامًا، لا أعرف. لكن لا يهم، لأن بابا حصل على الخمسمائة دولار، لا يهم".

راحت تضغط بيديها على الرسالة، ثم غادرت المعمل.

خطر لدينيس: "أنا أعانى من متلازمة جارى".

قال ألفريد: "لا تكونى صعبة هكذا مع أمك".

"أعرف، آسفة".

لكن إنيد راحت تصرخ فى دهشة فى حجرة الغسيل، فى حجرة مائدة تنس الطاولة، عادت إلى المعمل: "دينيس. لقد قلبت الدولاب رأسًا على عقب! ماذا فعلت؟"

"أنا أرمى الطعام القديم. الطعام وكراكيب أخرى لا نفع منها".

"طيب، لكن لماذا الآن؟ أمامنا عطلة نهاية الأسبوع بالكامل إن كنت تريدين مساعدتى فى تنظيف بعض الدواليب. رائع أنك تريدين مساعدتى، لكن ليس اليوم. دعينا لا نبدأ فى هذا الموضوع اليوم".

"إنه طعام فاسد يا أمى. لو تركناه طويلاً فسوف يتحول إلى سم. سوف تقتلك البكتيريا".

"طيب لننظفه الآن ولنكمل الباقى فى العطلة. ليس لدينا وقت لهذا الموضوع اليوم. أريدك أن تنشغلى بالعشاء حتى يجهز ثم أريدك أن تساعدى بابا فى تمارينه، كما قلت إنك ستفعلين!"

"سأفعل".

صاحت إنيد وهى تمرق من جوارها: "آل. دينيس تريد أن تساعدك فى تمارينك بعد الغداء!"

هز رأسه وكأنما فى قرف: "كما تشائين".

هناك مقاعد وموائد صغيرة مكومة فوق مشمع قديم فى مراحل الطلاء المبكرة. هناك صفائح قهوة ثقيلة على ورق جرائد أصفر، وبندقية فى كيس قماش إلى جوار مائدة المعمل.

قالت دينيس: "ماذا تفعل بالبندقية يا بابا؟"

قالت إنيد: "إنه يريد بيعها منذ سنوات. آل، ألن تبيع هذه البندقية؟"

يبدو أن الكلام هرب من مخ ألفريد عدة مرات قبل أن يهز رأسه ويقول فى بطء شديد: "نعم، سوف أبيع البندقية".

قالت إنيد وهى تلتفت لتغادر: "أكره وجودها فى البيت. إنه لم يستخدمها يومًا، ولا مرة واحدة. لا أعتقد أنه عمّرها مرة واحدة".

ابتسم ألفريد فى وجه دينيس فتراجعت الأخيرة نحو الباب: "سوف أنتهى من عملى هنا وأصعد".

فى الطابق العلوى كانت أمسية الكريسماس. الهدايا متكومة تحت الشجرة. فى الحديقة الأمامية فروع البلوط الأبيض العارية من الأوراق تتمايل مع النسيم، والعشب الميت تذروه الأوراق الميتة.

كانت إنيد تطل من وراء الستائر مرة أخرى. "هل أقلق على شيب؟"

قالت دينيس: "قد أقلق لأنه لن يأتى لكن ليس لأنه فى مشكلة".

"الجرائد تقول إن الفصائل المتنافسة تتقاتل للسيطرة على وسط مدينة فيلنيوس".

"يمكن لشيب أن يرعى نفسه".

قالت إنيد وهى تأخذ دينيس إلى باب البيت: "أريدك أن تعلقى الزينة الأخيرة على تقويم عيد الميلاد".

"ماما، لم لا تعلقيها أنت؟"

"لا، أريد أن أراك وأنت تعلقيها".

قطعة الزينة الأخيرة كانت يسوع الطفل. كان لصق القطعة بالشجرة مهمة لطفل، لشخص لطيف صغير مفعم بالأمل، ودينيس ترى بوضوح أنها دأبت دائمًا على التخلص من مشاعرها وهى فى هذا البيت، فى موقف من التشبع بذكريات الطفولة. لا يمكنها أن تكون الطفلة التى ستؤدى هذه المهمة.

قالت: "إنه تقويمك أنت. عليك أنت أن تعلقى الزينة".

الحسرة على وجه إنيد كبيرة بشكل مبالغ فيه. هى حسرة قديمة أزلية مرتبطة برفض للعالم بشكل عام ورفض أطفالها المشاركة فى أعمالها الاحتفالية الأقرب إلى قلبها. قالت عابسة: "سوف أطلب ذلك من جارى إذن".

قالت دينيس: "آسفة".

"أذكر أنك كنت تحبين تعليق الزينة بالشجرة وأنت بنت صغيرة. كنت تحبين ذلك. لكن إن كنت لا تريدين فلست مضطرة إذن".

صوت دينيس مضطرب غير ثابت: "ماما. أرجوك لا تجبرينى".

قالت إنيد: "لو كنت أعرف أنك ترين فى هذا الموضوع مهمة ثقيلة ما كنت لطلبت منك أصلاً".

قالت دينيس متوسلة: "دعينى أشاهدك وأنت تعلقيها!"

هزت إنيد رأسها وابتعدت عنها: "سوف أطلب من جارى عندما يعود".

"أنا آسفة".

خرجت خارج البيت وجلست على درجات السلم تدخن. الهواء له مذاق جنوبى ثلجى مضطرب. فى الشارع كان كيربى رووت يلف مصباح بيته بحبل على سبيل الزينة. لوح لها فلوحت له.

سألتها إنيد عندما دخلت: "متى بدأت التدخين؟"

"قبل خمسة عشر عامًا".

قالت إنيد: "لا أقصد انتقادك، لكنها عادة سيئة جدًا على صحتك. سيئة على جلدك، وبصراحة ليست هذه رائحة طيبة للآخرين".

غسلت دينيس يديها وهى تتنهد وبدأت فى إعداد الدقيق اللازم للكرنب. قالت: "لو كنت ستأتين لتعيشى معى فترة، فلابد من توضيح بعض الأمور".

"قلت إننى لا أنتقدك".

"من الأمور لازمة التوضيح أننى أمر بفترة صعبة. فأنا مثلاً طُردت من عملى فى الجينيريتور. طردونى".

"طردوك؟"

"نعم، للأسف. أتريدين أن تعرفى السبب؟"

"لا!"

"أنت متأكدة؟"

"نعم!"

راحت دينيس وهى تبتسم تقلب الدهن فى قعر الحلة الهولندية.

قالت أمها: "دينيس أعدك بأننى لن أتدخل فى حياتك أبدًا. ليس عليك إلا أن تعرفينى أين السوبرماركت وكيف أستخدم غسالتك ثم اخرجى وادخلى كما تشائين. أعرف أنها حياتك أنت. لا أريد أن أغير أى شىء. لو كانت هناك أية طريقة أخرى لإدخال باب هذا البرنامج ـ صدقينى ـ كنت لألجأ إليها. لكن جارى لم يدعونا للإقامة عنده، ولا أعتقد أن كارولين سترحب بنا على كل حال".

الدهن والضلوع المحمرة والكرنب المغلى، رائحة طيبة. الطبق كما تحضره فى هذا المطبخ، ليست له علاقة قوية بالنسخة الفنية الحديثة التى حضرتها لآلاف الغرباء. ضلوع الجينيريتور وسمك الجينيريتور بينهما صلة أقوى من الصلة بين ضلوع الجينيريتور وهذه الضلوع المنزلية. يحسب المرء أنه يعرف ما هو الطعام، وكأنه شىء عادى مبدئى. ينسى كم فى أكل المطاعم من روح المطاعم، وما فى أكل البيوت من روح البيوت.

قالت لأمها: "لم لا تخبرينى بحكاية نورما جرين؟"

قالت إنيد: "أنت غضبت منى أخر مرة حكيتها".

"كنت غاضبة من جارى بالأساس".

"همى الأول هو ألا تشعرى بالأذى كما حدث لنورما. أريدك سعيدة ومستقرة".

"ماما، لن أتزوج مرة أخرى أبدًا".

"الله أعلم".

"بل فى الواقع أنا أعلم".

"الحياة ممتلئة بالمفاجآت. أنت ما زلت شابة وجميلة جدًا".

وضعت دينيس المزيد من الدهن فى الحلة. لا سبب هنالك لكبح جماح نفسها الآن. قالت: "هل تسمعين؟ أنا واثقة تمامًا من أننى لن أتزوج ثانية".

لكن سمعتا صوت باب سيارة تصفق فى الشارع وهرعت إنيد إلى حجرة الطعام لتنظر من وراء الستارة.

قالت فى حسرة: "إنه جارى، ليس غير جارى".

دخل جارى مسرعًا إلى المطبخ ومعه القطارات اللعبة التى جلبها من متحف المواصلات. كان يبدو سعيدًا والسبب طبعًا خروجه صباحًا وحده، لدرجة أنه أبدى استعداده لوضع يسوع الطفل فى تقويم عيد الميلاد، وما إن فعل حتى انتقل تعاطف إنيد من ابنتها إلى ابنها مرة أخرى. راحت تتكلم عن العمل الجميل الذى أداه جارى فى الدُش وكيف أن المقعد جعل الدنيا أجمل بكثير. انتهت دينيس فى تعاسة من تحضيرات العشاء، وأعدت غداءً خفيفًا، ثم غسلت أكوامًا من الأطباق بينما السماء من وراء النوافذ تتحول إلى لون رمادى تمامًا.

بعد الغداء ذهبت إلى حجرتها حيث كانت إنيد قد غيرت معالمها فأصبحت وكأنها ليست حجرة لأحد بعينه، وقامت بلف الهدايا. (جلبت ثيابًا للجميع، كانت تعرف ما يحب الناس ارتداءه). فضت ورقة الكلينكس التى تحتوى على ثلاثين قرصًا مشمسًا من الواحد المكسيكى وفكرت فى لفها كهدية لإنيد، لكن عليها احترام حدود وعدها لجارى. أعادت الأقراص إلى الكلينكس وخرجت من حجرتها ونزلت السلم، ثم وضعت المخدر فى الجيب الرابع والعشرين للتقويم. كانوا جميعًا فى القبو. تمكنت من العودة للطابق العلوى وأغلقت بابها على نفسها وكأنها لم تغادر حجرتها قط.

وهى صغيرة عندما كانت أم إنيد تحمر الضلوع فى المطبخ وأحضر كل من جارى وشيب صديقته رائعة الجمال وكانت فكرة الجميع عن تمضية وقت طيب هى أن يشتروا لدينيس الكثير من الهدايا، كان ذلك هو أطول يوم فى السنة. هناك قانون طبيعى غامض يحرم تجمع الأسرة قبل حلول الليل. يتبعثر الناس انتظارًا

فى حجرات منفصلة طوال النهار. أحيانًا وهو فى سن المراهقة، كان شيب يحن على آخر طفلة فى البيت ويلعب الشطرنج أو بنك الحظ معها. عندما كبرت قليلاً أخذها إلى المول مع صديقته. لا نعمة أكبر وهى فى سن العاشرة أو الثانية عشرة من أن تشعر بأنها جزء من كل: أن يعرفها شيب بشرور الرأسمالية، أن تجمع بيانات شكلية عن صديقته، أن تدرس طولها وارتفاع كعب حذائها، أن تُترك وحدها لساعة فى المكتبة ثم يأتى من يأخذها للبيت، المكتبة فوق التل، فوق المول، فوق حركة المرور البطيئة ساعة انحسار النهار.

والآن ما زال يومًا طويلاً. الثلج أدكن لونًا قليلاً من السماء الملونة بالثلج بدأ يتساقط فى كميات كبيرة. وجد الثلج لبرده القارس طريقًا إلى البيت، لف ودار حول الهواء المُدفأ، ليصل إلى رقبتك مباشرة. دينيس التى كانت تخشى أن تمرض، رقدت فى السرير ورفعت البطانية فوق رأسها.

نامت بقوة وعنف، دون أحلام وأفاقت - أين؟ متى؟ ما اليوم؟ - على أصوات غاضبة. كان الثلج قد حاصر أركان النوافذ وتجمد على شجر البلوط الأبيض. هناك ضوء فى السماء لكن لم يدم طويلاً.

آل، جارى بذل جهدًا كبيرًا.

لم أطلب منه شيئًا!

ألا تحاول مرة واحدة طيب؟ بعد كل ما بذل من جهد بالأمس؟

أنا أستحق الاستحمام فى البانيو إن كنت أريد البانيو.

بابا، المسألة مسألة وقت قبل أن تسقط على السلم وتكسر عنقك!

لم أطلب مساعدة من أحد.

أنت محق! فعلاً! لأننى منعت ماما - منعتها تماماً - من أن تقترب من ذلك البانيو.

آل! أرجوك جرب الدُش مرة.

ماما، انسى، دعيه يكسر عنقه، سنكون أفضل حالاً.

جارى.

الأصوات تقترب صاعدة درجات السلم. سمعت دينيس مرور والدها الثقيل إلى جوار بابها. ارتدت نظارتها وفتحت الباب فيما كانت إنيد - البطيئة بسبب ألم ردفها - تمد يدها ممسكة بسور السلم عند درجته الأخيرة. "ماذا تفعلين يا دينيس؟"

"نمت قليلاً".

"اذهبى وكلمى أباك. قولى له إن من المهم أن يجرب الدُش الذى عمل جارى عليه كثيراً. سوف يسمع كلامك".

عمق نومها وطريقة استيقاظها من النوم أخرج دينيس من إطار العالم الخارجى: المشهد فى الصالة والمشهد من وراء نوافذ الصالة تحيطه ظلال غائمة، الأصوات صاخبة ثم تكاد لا تسمعها بعد لحظة. قالت: "لماذا، لماذا تكبرون هذا الموضوع اليوم؟"

"لأن جارى سيغادر غداً وأريد أن أرى إن كان الدُش سينفع بابا".

"وما عيب البانيو؟"

"إنه يعلق فيه مدداً طويلة. كما أنه لا يجيد صعود ونزول السلم جيداً".

أغمضت دينيس عينيها، لكن إغماض العينين أدى لتدهور مشكلة الانفصال عن العالم. فتحت عينيها مرة أخرى.

قالت إنيد: "ومن فضلك يا دينيس، أنت لم تساعديه بعد فى تمارينه كما وعدت!"

"طيب، سأساعده".

"الآن قبل أن ينسى. سأجلب لك أوراق التمارين التى أخذناها من دكتور هيدجبث".

عادت إنيد تنزل السلم، لكن دينيس رفعت صوتها: "بابا؟"

لا مجيب.

عادت إنيد، وصلت إلى منتصف السلم، فى يدها أوراق بنفسجية عنوانها "الحركة من ذهب" مرسوم عليها رسوم توضيحية لسبعة تمارين رياضية. قالت: "هيا علميه. إنه قليل الصبر معى، لكنه سيسمع منك. دكتور هيدجبث يسألنا دائمًا إن كان بابا يؤدى التمارين. من المهم للغاية أن يتعلمها جيدًا. لم أكن أعرف أنك ستنامين كل هذا الوقت".

أخذت دينيس ورقة التعليمات ودخلت حجرة النوم الكبيرة لتجد ألفريد عند باب دولابه، عارٍ من خصره لأصابع قدميه.

قالت وهى تتراجع: "آسفة يا بابا".

"ما الأمر؟"

"لابد أن نتعلم تمارينك".

"أنا خلعت ثيابى بالفعل".

ارتد بيجاما. الملابس الواسعة أفضل على كل حال".

استغرقت خمس دقائق لكى تهدئه وتفرده على ظهره على السرير فى قميصه الصوف وبنطلون البيجاما، وهنا أدركت الحقيقة أخيرًا.

التمرين الأول يحتاج من ألفريد أن يمسك ركبته اليمنى بيديه ويسحبها نحو صدره، ثم يفعل المثل بركبته اليسرى. أرشدت دينيس يديه المارقتين إلى ركبته اليمنى، ورغم أنها أحست بالحسرة من درجة جمود وصلابة أطرافه، فقد تمكن بمساعدتها من ثنى مفصل ردفه لأكثر من تسعين درجة.

قالت: "والآن ركبتك اليسرى".

وضع ألفريد يديه على ركبته اليمنى مرة أخرى وراح يجذبها نحو صدره.

قالت: "هذا رائع، لكن لنجرب ركبتك اليسرى".

رقد وهو يتنفس أنفاسًا ثقيلة، لا يفعل شيئًا. على وجهه ترتسم صورة رجل تذكر فجأة وجود ظروف كارثية حوله.

"بابا؟ حاول بركبتك اليسرى".

لامست ركبته اليسرى بلا فائدة. رأت فى عينيه رغبة يائسة فى صفاء الذهن وفى المزيد من التعليمات. حركت يديه إلى ركبته اليسرى، وسرعان ما سقطت اليدان عنها. ربما جموده وصعوبة حركته أسوأ على الجانب الأيسر؟ أعادت يديه إلى ركبته وساعدته فى رفعها.

كان أكثر مرونة فى الجانب الأيسر.

قالت: "والآن جرب أنت".

ابتسم لها، وكان يتنفس كشخص خائف للغاية: "ماذا أجرب؟"

"ضع يديك على ركبتك اليسرى وارفعها".

"دينيس، اكتفيت من التمارين".

"ستشعر بتحسن إن أديت تمارين قليلة. أفعل ما فعلته الآن منذ لحظة. ضع يديك على ركبتك اليسرى وأرفعها".

انعكست الابتسامة التى منحتها له فى صورة ارتباك ارتسم على وجهه. قابلت عيناه عينيها فى صمت.

قال: "أيهما اليسرى؟"

لامست ركبته اليسرى: "هذه".

"ماذا أفعل بها؟"

"ضع يديك عليها واجذبها نحو صدرك".

جالت عيناه فى قلق حوله، تقرأ رسائل ما فى السقف.

"بابا، ركز".

"لا فائدة".

تنهدت وقالت: "طيب. طيب، دعنا نتجاوز هذا التمرين ونجرب التمرين الثانى، اتفقنا؟"

نظر إليها وكأنها - أمله الوحيد - قد برزت منها مخالب وقرون.

قالت وهى تحاول تجاهل نظرته: "فى هذا التمرين سوف تضع ساقك اليمنى فوق ساقك اليسرى ثم تدع الساقين تنزلان إلى

الجانب الأيمن قدر الإمكان. أحب هذا التمرين. إنه التمرين الخاص بتقوية عضلة المؤخرة. سوف تشعر بتحسن بالغ".

شرحت له التمرين مرتين أخريين ثم طلبت منه أن يرفع ساقه اليمنى.

رفع الساقين بضع بوصات عن المرتبة.

قالت فى رفق: "اليمنى فقط. واثن ركبتيك".

كان صوته مرتفعًا ممتلئًا بالتوتر: "دينيس! لا فائدة!"

قالت: "هكذا، هكذا"، دفعت ساقه بيدها لتثنى ركبته. رفعت ساقه اليمنى وقد أمسكتها من السمانة والفخذ، ووضعتها فوق الركبة اليسرى. فى البداية لم تجد منه مقاومة، ثم وفجأة بدأ كأنه أصيب بتشنج عضلى عنيف.

"دينيس".

"بابا، اهدأ".

كانت تعرف بالفعل أنه لن يأت إلى فيلادلفيا مطلقًا. لكن الآن ترى رطوبة استوائية تنبعث منه، هناك رائحة استسلام نفاذة. قماش البيجاما على فخذه ساخن ومبتل فى يديها، وجسده كله يرتجف.

قالت وهى تطلق ساقه: "يا خبر!".

الثلج يتحرك فى دوامات وراء النوافذ، ظهرت الأنوار فى بيوت الجيران. مسحت دينيس يدها على بنطلونها الجينز وخفضت عينيها إلى حجرها وراحت تنصت، قلبها يدق بقوة على أنغام أنفاس والدها المتعبة وحركة أطرافه المتوترة على السرير. هناك

بقعة مبتلة على المرتبة قرب مفرق ساقيه وبلل مستطيل يصل إلى طرف إحدى قدمى البيجاما. رائحة البول الطازج تتصاعد، وتبرد فى الحجرة الباردة، متحولة إلى رائحة محددة واضحة تكاد تكون لطيفة.

قالت: "آسفة يا بابا. سأحضر لك فوطة".

ابتسم ألفريد محدقًا فى السقف وتحدث فى صوت ممتعض: "أنا راقد هنا وأرى ما حدث. هل ترين؟"

"ماذا أرى؟"

أشار فى غموض إلى السماء بإصبعه: "القاع على القاع. القاع على قاع المقعد. مكتوب هناك، هل ترين؟"

أصابها الارتباك وهو ليس مرتبكًا. رفع حاجبًا ورماها بنظرة ماكرة: "تعرفين من كتب هذا الكلام، أليس كذلك؟ الفوه الفوه. صديق من تعرفينه".

وهو ما زال ينظر إليها، أومأ برأسه فى تآمر.

قالت دينيس: "لا أفهم عم تتحدث".

"صديقك. الرجل ذو الخد الأزرق".

أول واحد فى المائة من الفهم نزل عليها أصاب قفاها وبدأ ينمو شمالاً وجنوبًا.

قالت وهو لا تتحرك: "سأحضر لك فوطة".

ارتقت عينا والدها إلى السقف مرة أخرى: "كتب ذلك الكلام على قعر المقعد. قعه-مقعا. قعرالمقعد. وأنا راقد هنا أراه".

"عم تتكلم؟"

"صديقك من إدارة الإشارة. الرجل ذو الخد الأزرق".

"أنت مرتبك يا بابا. أنت تحلم. سأذهب لأحضر فوطة".

"أترين؟ ما كان هناك لزوم من البداية لقول أى شىء".

قالت: "سأحضر فوطة".

عبرت حجرة النوم إلى الحمام. رأسها ما زال فى حالة النوم الذى أفاقت منه، والمشكلة تتدهور. بدأت تبتعد أكثر وأكثر عن الواقع المتمثل فى نعومة الفوطة وظلام السماء وجمود الأرض وصفاء الهواء. لماذا يتكلم عن دون أرمور؟ لماذا الآن؟

أنزل والدها ساقيه عن السرير وخلع بنطلون البيجاما. مد يده إلى الفوطة التى أحضرتها. قال: "سوف أنظف ما حدث، أنت اذهبى ساعدى أمك".

قالت: "لا، سأنظفها أنا. اذهب أنت لتستحم".

"أعطينى الخرقة فحسب. ليس هذا عملك".

"بابا، استحم".

"لا أنوى توريطك فى هذا الموضوع إطلاقًا".

يده التى ما زالت ممتدة ترتعش فى الهواء. حولت دينيس عينيها عن قضيبه المهين الرطب. قالت: "قف. سأخلع ملاءة السرير".

غطى ألفريد قضيبه بالفوطة. قال: "أتركى هذا الكلام لأمك. قلت لها إن موضوع فيلادلفيا كلام فارغ. لم أنتو يومًا أن أورطك فى أى شىء. لك حياتك الخاصة. استمتعى بها والزمى الحذر".

ظل جالسًا على طرف السرير، رأسه منحنى، يداه كملاعق كبيرة خاوية من اللحم على حجره.

قالت دينيس: "هل تود أن أحضر لك البانيو؟"

قال: "أنا.. تننا... تننتنا.. قلت للرجل أنه يقول كلام فارغ، لكن ماذا أفعل؟" أشار ألفريد بيده فى حركة توحى بقدرية الموضوع: "رغم أنه كان ذاهبًا إلا ليتل روك. قلت اذهب! لابد أن تحصل على درجة المدير. كلام فارغ. قلت له أن يبتعد عنا". رمى دينيس بنظرة اعتذارية وهز رأسه: "ماذا أفعل غير ذلك؟"

سبق أن شعرت دينيس أنها خفية، لكن ليس لهذه الدرجة. قالت: "لا أعرف عم تتحدث".

قال ألفريد محاولاً الشرح: "المهم.. قال لى أن أنظر تحت المقعد. بهذه البساطة. انظر تحت المقعد إن كنت لا أصدقه".

"أى مقعد؟"

قال: "كلام فارغ. المسألة أبسط بكثير على الجميع لو أنا استقلت. كما ترين، هو لم يفكر فى هذا الموضوع مطلقًا".

"هل تتكلم عن السكة الحديد؟"

هز ألفريد رأسه وقال: "موضوع لا يهمك. لم أنتو يومًا أن أورطك فى أى من هذا الكلام. أريدك أن تذهبى وتستمتعى بحياتك. وأنت كونى حذرة. قولى لأمك أن تأتى ومعها خرقة".

وهكذا مضى إلى الحمام وأوصد الباب وراءه. قامت دينيس لكى تشعر بأنها تفعل شيئًا بتجريد السرير من الملاءة وكومت كل شىء فى ركن، بما فى ذلك بنطلون بيجاما والدها المبتل، ونزلت بحملها للطابق السفلى.

سألتها إنيد من موقعها الكريسماسى فى حجرة الطعام: "كيف الحال عندكم!"

قالت دينيس: "بلل السرير".

"يا خبر".

"لا يعرف ساقه اليسرى من اليمنى".

أسودّ وجه إنيد: "قلت ربما يسمع منك أكثر منى".

"ماما، إنه لا يعرف ساقه اليسرى من اليمنى".

"أحيانًا ما يكون الدواء".

صوت دينيس مدوٍ: "نعم! نعم! الدواء!"

بعد أن أسكتت أمها مضت إلى حجرة الغسيل لتشطف الملاءة. وجدت جارى ووجهه عبارة عن ابتسامة عريضة فى يديه نموذج مصغر قديم لقطار.

قال: "عثرت عليه".

"عثرت على ماذا".

يبدو أن جارى تألم لأن دينيس لم تنتبه لرغباته وأنشطته. أوضح لها أن نصف نموذج السكة الحديد الذى شغله فى طفولته.. "النصف المهم، قوامه العربات والمحوّل"، مفقود منذ عشرات السنين وافترض أنه مفقود بشكل نهائى. "عثرت عليه كاملاً. وأين وجدته؟"

"أين؟"

"خمنى".

"فى قعر صندوق الحبال المجدولة".

اتسعت عينا جارى: "كيف عرفت؟ أنا أبحث عنه منذ عشرات السنين".

"كان عليك أن تسألنى. هناك صندوق أصغر فيه أشياء القطار والسكة الحديد داخل الصندوق الكبير".

هز جارى كتفيه ليحول انتباهه عنها إليه وقال: "ما علينا. أنا سعيد لأننى وجدته، وإن كنت أتمنى لو أنك أخبرتنى بمكانه".

"أتمنى لو أنك سألتنى!"

"أنا مستمتع بوقتى كثيرًا بموضوع القطارات هذا. هناك أشياء جميلة حقًا مرتبطة بالقطارات اللعبة يمكن شراؤها".

"حلو! أنا سعيدة لأنك سعيد!"

راح جارى ينظر لعربة القطار فى يده: "لم أتخيل أننى سأراه مرة أخرى أبدًا".

عندما مضى وأصبحت وحدها فى القبو، ذهبت إلى معمل ألفريد ومعها مصباح يدوى، ومالت إلى جوار علب اليوبان، وراحت تفحص الجانب السفلى للمقعد. هنا بقلق رصاص مرتعش، رأت قلبًا بحجم قلب بشرى:

ترنحت على عقبيها، لترتكز ركبتاها على الأرض الباردة. ليتل روك. درجة المدير. الأبسط لو تركت العمل.

رفعت طرف علبة اليوبان فى شرود. كانت ممتلئة حتى الحافة ببول برتقالى متخمر.

قالت للبندقية: "يا للقرف".

وهى تجرى صاعدة إلى حجرة نومها وترتدى معطفها وقفازيها، أحست بأبلغ الأسف على أمها، لأنه مهما اشتكت لها إنيد بكثرة وبكل مرار، ما كانت لتتخيل أبدًا حقيقة حياتها فى سان جود وكيف تحولت إلى كابوس هكذا. وكيف تسمحين لنفسك بالتنفس، ناهيك عن الضحك أو النوم أو الأكل، إن كنت غير قادرة على تخيل صعوبة حياة إنسانة غيرك؟

كانت إنيد فى حجرة الطعام، عند الستارة مرة أخرى تبحث عن شيب.

قالت دينيس وهى تغلق الباب وراءها: "سأخرج لأتمشى!"

بوصتان من الثلج فوق العشب فى الحديقة. إلى الغرب ترى السحب تتفكك، هناك ظلال عنيفة من الأرجوانى والأزرق عند حواف السماء. مضت دينيس تسير وسط شوارع ساعة المغرب تدخن حتى خفف النيكوتين من إحساسها بالتوتر وأصبحت قادرة على التفكير بوضوح.

أدركت أن دون أرمور وبعد أن اشترى الأخوان روث ميدلاند باسيفيك وبدأا فى عملية تسريح العمال، أخفق فى الانتقال إلى ليتل روك فذهب إلى ألفريد واشتكى إليه. ربما هدده بالتباهى بغزواته مع ابنة ألفريد وربما أكد له حقوقه لكونه نصف عضو فى عائلة لامبرت. سواء فعل هذا أو ذاك، قال له ألفريد أن يذهب إلى الجحيم. ثم عاد ألفريد إلى البيت وفحص الجانب السفلى لمقعده فى المعمل.

تخيلت دينيس ما حدث بين دون أرمور وأبيها، لكنها كرهت تخيله. لابد أن دون أرمور احتقر نفسه لأنه ذهب إلى مدير مدير مديره وحاول أن يتوسل أو يبتز لإصدار أمر بنقله إلى ليتل روك. لابد أن ألفريد أحس بخيانة بالغة من ابنته التى نالت قدرًا كبيرًا من الثناء على مهارتها ومثابرتها على العمل. لابد أن المشهد كان مؤسفًا بعد أن دخل قضيب دين أرمور فى الموضوع ودخلت فى الموضوع تجاويفها المذنبة. كرهت التفكير فى حال أبيها وهو يرقد تحت المقعد ليبحث عن القلب المرسوم بالقلم الرصاص، وكرهت فكرة دخول كلام دون أرمور التلميحى إلى أذنى والدها، وكرهت تخيل صورة والدها الجالس على الأرض برأس مائل يبحث تحت المقعد وقد عرف أن دون أرمور صال وجال فى أرجاء بيته على راحته.

لم أنتو يومًا أن أورطك.

وبالطبع استقال والدها من عمله فى السكة الحديد. حافظ على خصوصيتها. لم ينطق بكلمة من هذا الكلام أمام دينيس يومًا، ولم تصدر منه أدنى بادرة على أنه يحتقرها أو يراها أقل مما رآها دائمًا. على مدار خمسة عشر عامًا حاولت أن تبدو أمامه بصورة الابنة المسئولة الحريصة، وكان يعرف طوال الوقت أنها ليست كذلك.

تخيلت أنها قد تجد السلوى فى هذه الفكرة إن تمكنت من إبقائها داخل رأسها.

وهى تغادر حى أبويها، رأت البيوت جديدة وأكبر وأقرب إلى صورة الصناديق. من وراء النوافذ التى لم تُعلق فيها الزينة، أو

المعلقة فيها زينة بلاستيكية مزيفة، ترى شاشات مضيئة، بعضها عملاقة، بعضها صغيرة. يبدو أن كل ساعة من ساعات العام، ومنها هذه الساعة، وقت طيب ومناسب للفرجة على الشاشات. فكت دينيس أزرار معطفها ودارت على عقبيها، لتعود إلى البيت عبر طريق مختصرة تمر بالحقل وراء مدرستها الثانوية القديمة.

لم تعرف والدها يومًا، وربما لم يعرفه أحد. بخجله وطابعه الرسمى وثورات غضبه الاستبدادية كان يحمى ما بداخله فى شراسة فتدرك إن كنت تحبه - كما تحبه هى - أن أكبر صنيعة وخدمة تؤديها له هى احترام خصوصيته.

كما أظهر ألفريد إيمانه بها بأن صدقها كما عرضت نفسها على العالم: رفض أن يبحث وراء الواجهة التى عرضتها عليه. كانت تشعر بقمة سعادتها معه لحظة أن تؤكد علنًا إيمانه بها: عندما تحصل على أعلى الدرجات فى المدرسة، وعندما نجحت مطاعمها، وعندما أحبها صحفيو المطاعم.

تفهم تمام الفهم حجم الكارثة بالنسبة له عندما بلل السرير أمامها. راقد وسط بقعة من البول البارد، ليست هذه الحال التى يفضل أن يكون عليها معها. هناك حال واحدة لأن يكونا معًا، ولم تعد تجدى.

الحقيقة الغريبة عن ألفريد أن الحب بالنسبة له مسألة ليست متعلقة بالقرب والاقتراب، بل بالحفاظ على المسافة. تفهم هذا أفضل من شيب وجارى، وتشعر لهذا السبب بمسئولية خاصة تجاهه.

بالنسبة لشيب للأسف يبدو أن ألفريد لم يهتم بأولاده إلا بدرجة نجاحهم. كان شيب مشغولاً بالإحساس بأنه يُساء فهمه لدرجة أنه

لم يلحظ يومًا كم هو يسيء فهم والده. بالنسبة لشيب فإن عدم قدرة ألفريد على إظهار المحبة والعطف دليل على أن ألفريد لا يعرف أو لا يهمه من يكون. لا يرى شيب ما يراه كل من هم حوله: إنه إن كان فى العالم شخصًا يحبه ألفريد حبًا خالصًا بلا سبب، فهو شيب. دينيس تعرف أنها لا تسر ألفريد بهذه الطريقة، هناك أمور مشتركة قليلة بينهما باستثناء الرسميات والإنجازات التى أنجزتها كابنة. أما شيب فهو الذى ينادى ألفريد عليه فى منتصف الليل، رغم أنه يعرف أن شيب ليس موجودًا.

قالت لشقيقها الأبله فى رأسها: أوضحت الأمر لك قدر الإمكان. لا يمكننى أن أوضحه أكثر. اجتازت الحقل المغمور بالثلج.

كان البيت الذى عادت إليه عامرًا بالنور. كان جارى أو إنيد قد مسح/مسحت الثلج من أمام باب البيت. راحت دينيس تنقل قدميها على السجادة الرطبة ثم انفتح الباب.

قالت إنيد: "إنها أنت. حسبتك شيب".

"لا، هذه أنا".

دخلت وخلعت حذاءها. كان جارى قد أعد نارًا فى المدفأة وجلس فى المقعد الوثير الأقرب للنار، وعند قدميه كومة من ألبومات الصور القديمة.

قال لإنيد: "خذى بنصيحتى وانسى شيب".

قالت إنيد: "لابد أنه فى مشكلة ما، وإلا كان اتصل".

"ماما، إنه سيكوباتى. افهمى".

قالت دينيس لجارى: "أنت لا تعرف أى شىء عن شيب".

"أعرف متى يتنصل أحدهم من المسئولية".

"أنا أريد أن نكون هنا معًا ليس أكثر!" كذا قالت إنيد.

تنهد جارى فى تعاطف وقال: "آه يا دينيسى. آهِ آه. تعالى وانظرى لهذه الفتاة الصغيرة".

"فرصة أخرى".

لكن جارى اجتاز حجرة المعيشة ومعه ألبوم الصور ووضعه أمامها، مشيرًا إلى صورة للأسرة فى الكريسماس. هناك فتاة صغيرة بدينة قليلاً لطيفة تبدو فى الصورة، هى دينيس وعمرها ثمانية عشر شهرًا. لا يوجد ما يشوب ابتسامتها تحديدًا أو ابتسامات شيب وجارى. كانت تجلس بينهما على كنبة حجرة المعيشة قبل تنجيدها وتجديدها. كل منهما يلفها بذراع من ذراعيه، وجوههم الصبيانية النظيفة تكاد تلامس وجهها، من فوق.

قال جارى: "أليست فتاة صغيرة لطيفة؟"

قالت إنيد وهى تقترب منهما: "يا سلام، قمر!".

سقط من وسط صفحات الألبوم ظرف عليه ملصق "بريد مسجل". خطفته إنيد وأخذته إلى المدفأة وألقت به وسط ألسنة اللهب مباشرة.

قال جارى: "ما هذا؟"

"موضوع أكسون، وقد انتهينا منه".

"هل أرسل بابا نصف النقود إلى أورفيك ميدلاند فعلاً؟"

"طلب منى هذا لكن لم أفعل بعد. أنا غارقة فى ملء استمارات التأمين".

ضحك جارى وهو يصعد الطابق العلوى: "لا تدعى الألفين وخمسمائة دولار هذه تحرق جيوبك من الذنب".

هزت دينيس رأسها فى اشمئزاز وذهبت لتقشر البطاطس فى المطبخ.

قالت إنيد وهى تنضم إليها: "حضرى كمية تكفى شيب أيضًا فربما يأتى. قال إنه سيحضر عصر اليوم على الأكثر".

قالت دينيس: "أعتقد أننا أصبحنا رسميًا فى المساء".

"ما علينا، أريد بطاطس كثيرة".

كل سكاكين مطبخ أمها غير حادة بالمرة. لجأت دينيس إلى قشارة الجزر: "هل قال لك أبى يومًا لماذا لم يذهب إلى ليتل روك مع أورفيك ميدلاند؟"

قالت إنيد ببطء: "لا، لماذا؟"

"سؤال عابر لا أكثر".

"قال لهم إنه سيذهب. وكان حالنا ليختلف كثيرًا يا دينيس، ماليًا. كانوا ليضاعفوا له معاشه، على هذين العامين الإضافيين. كنا لنصبح فى حال أفضل بكثير. قال لى إنه سينتقل إلى هناك، وافقنى على أن هذا هو الاختيار السليم، ثم جاء للبيت بعد ثلاثة أيام وقال إنه غير رأيه واستقال".

نظرت دينيس إلى عينيها المنعكستين فى زجاج النافذة فوق الحوض: "ولم يخبرك يومًا بالسبب".

"كان لا يحتمل هذين الأخوين روث. افترض أنه دخل فى صدام شخصى معهما. لكن لم يتكلم عن الموضوع معى مطلقًا. لم يخبرنى

بأى شىء. اتخذ قراره ببساطة. حتى رغم أنه كان يعنى كارثة مالية، لكنه قراره وكان نهائيًا".

ها هى الدموع. تركت دينيس البطاطس والقشارة فى الحوض. خطر لها أن المخدرات المخبأة فى تقويم عيد الميلاد ستكفى لوقف دموعها حتى تخرج من هنا، لكنها بعيدة عن ذلك المخبأ. ها هى تتلقى الضربات بلا دفاعات ممكنة فى المطبخ.

قالت إنيد: "ما الأمر يا حبيبتى؟"

لوهلة لم تكن هنالك دينيس فى المطبخ، ليس إلا الدموع والندم. وجدت نفسها تميل على البساط إلى جوار الحوض. هناك كرات صغيرة من الكلينكس المشبع بالماء تحيط بها. ترددت فى النهوض ومواجهة عينى أمها، وكانت جالسة إلى جوارها على مقعد تغذيها بمناديل ورقية جافة جديدة.

قالت إنيد فى رصانة جديدة عليها: "يتخيل الإنسان أن أمورًا كثيرة مهمة ثم يدرك أنها غير مهمة".

قالت دينيس: "بعض الأشياء تبقى مهمة".

نظرت إنيد إلى البطاطس غير المقشرة فى الحوض فى جمود: "لن يتحسن حاله، صح؟"

أسعد دينيس أن أمها تفكر فى أنها تبكى على صحة ألفريد. قالت: "لا أظن".

"الأرجح أن السبب ليس الدواء، صح؟"

"صح".

قالت إنيد: "وهناك احتمال ألا تكون هنالك فائدة من الذهاب إلى فيلادلفيا، إن كان لن يتبع التعليمات".

"أنت محقة. ربما لا فائدة".

"دينيس، ماذا سنفعل؟"

"لا أعرف".

قالت إنيد: "كنت أعرف أن هناك مشكلة هذا الصباح. لو كنت وجدت تلك الرسالة قبل ثلاثة شهور، كان لينفجر فى وجهى. لكنك رأيته اليوم، لم يفعل أى شىء".

"آسفة أننى أحرجتك هكذا".

"لا يهم. إنه لا يعرف حتى".

"أنا آسفة على كل حال".

بدأ غطاء حلة الفاصوليا البيضاء على النار يهتز. نهضت إنيد وخفضت الحرارة. قالت دينيس وهى ما زالت على الأرض: "أعتقد أن هناك شيئًا لك فى تقويم عيد الميلاد".

"لا، جارى وضع قطعة الزينة الأخيرة".

"فى الجيب الرابع والعشرين. قد تجدين شيئًا".

"طيب، ما هو؟"

"لا أعرف. لم لا تفحصيه".

سمعت أمها تمضى فى اتجاه باب البيت ثم تعود. رغم أن رسومات السجادة معقدة، لكن خطر لها أنها ستحفظها قريبًا إن استمرت فى النظر إليها هكذا.

قالت إنيد: "من أين جاءت؟"

"لا أعرف".

"هل وضعتها هناك؟"

"إنه لغز".

"لابد أنك وضعتها فى الجيب".

"لا".

وضعت إنيد الأقراص على الكاونتر وابتعدت عنها مسافة خطوتين ثم قطبت جبينها وهى تنظر إليها فى اهتمام. قالت: "أنا واثقة أن من وضع هذه الأقراص كان حسن النية. لكن لا أريدها فى بيتى".

"هذه فكرة جيدة".

"أريد الشىء الحقيقى أو لا شىء بالمرة".

وضعت إنيد الأقراص فى يدها اليسرى، وألقتها فى جهاز طحن القمامة ثم قامت بطحنها.

قالت إنيد عندما هدأت الضوضاء: "ما الشىء الحقيقى؟"

"أريد أن نجتمع جميعًا على كريسماس أخير".

كان جارى الذى استحم وحلق ذقنه وارتدى ثيابه الارستقراطية قد دخل المطبخ تلك اللحظة ليسمع تلك العبارة الأخيرة.

قال وهو يفتح دولاب الخمور: "الأفضل أن ترضى بأربعة من خمسة. ماذا حصل لدينيس؟"

"إنها حزينة على بابا".

قال جارى: "أخيراً؟ هناك أمور كثيرة تخصه محزنة".

جمعت دينيس كرات الكلينكس من على الأرض: "صب لى مما تصب لنفسك".

قالت إنيد: "حسبت أننا سنشرب شامبانيا بيا الليلة!"

قالت دينيس: "لا".

قال جارى: "لا".

قالت إنيد: "سوف ندخرها فربما يحضر شيب. والآن، لماذا قضى بابا كل هذا الوقت بالأعلى؟"

قال جارى: "إنه ليس بالأعلى".

"أنت متأكد؟"

"نعم، متأكد".

صاحت إنيد: "آل، آل؟"

صوت النار فى مدفأة حجرة المعيشة. الفاصوليا البيضاء تغلى على النار. فى الشارع هناك عجلات سيارة تدور على الثلج.

قالت إنيد: "دينيس، اذهبى لترى إن كان فى القبو".

لم تسأل دينيس: "لماذا أنا؟" رغم أنها تريد أن تسأل. ذهبت إلى بداية سلم القبو ونادت على أبيها. أضواء القبو مضاءة، وتسمع حركة واهنة فى المعمل.

نادت مرة أخرى: "بابا؟"

لا مجيب.

كان خوفها وهى تهبط السلم كالخوف من سنة تعيسة من أيام طفولتها عندما راحت تتوسل إليهم أن يجلبوا لها حيوانًا أليفًا فحصلت على قفص فيه اثنين من حيوان الهامستر. كان الكلب أو القط ليضر بسجاد إنيد والملاءات، لكن هذين الهامستر الصغيرين، أخ وأخت من قفص فيه الكثير من الهامستر من عند آل دريبلت، مسموح بوجودهما فى البيت. كل صباح عندما تنزل دينيس إلى القبو لتضع لهما الطعام أو تغير الماء، تخشى اكتشاف مفاجأة مفجعة ربما حدثت فى الليل، ربما وليد صغير أعمى جاء نتيجة زنا المحارم يرتجف إلى جواره الأب والأم إلى جانب سلك القفص، يبدو عليهما الانتفاخ بعد أن أكلا جميع أطفالهما.

كان باب معمل ألفريد مغلقًا. طرقت على الباب: "بابا؟"

جاء رد ألفريد فوريًا على هيئة نباح متوتر مخنوق: "لا تدخلى!"

وراء الباب شىء صلب يتحرك على الأرض.

"بابا؟ ماذا تفعل؟"

"قلت لا تدخلى!"

رأت البندقية وخطر لها: بالطبع ها أنا ذا ولا أعرف إطلاقًا ماذا أفعل.

"بابا، لابد أن أدخل".

"دينيس".

قالت: "أنا داخلة".

فتحت الباب على ضوء ساطع. فى نظرة واحدة رأت الملاءة القديمة المبقعة بالطلاء على الأرض والرجل العجوز على ظهره

ومؤخرته بعيدة عن الأرض وركبتاه ترتعشان، وعيناه واسعتان ثابتتان على الطرف السفلى لمقعد المعمل بينما يكافح للإمساك بحقنة شرجية بلاستيكية كبيرة أدخلها فى فتحة شرجه.

قالت وهى تلتفت وقد رفعت يديها: "يا خبر، آسفة!".

ألفريد تنفس وكأنه يشخر ولم يقل شيئًا.

أوصدت الباب قليلاً وعبأت رئتيها بالهواء. فى الطابق العلوى كان جرس الباب يرن. سمعت من تحت الجدران والسقف وقع أقدام تقترب من البيت.

صاحت إنيد: "إنه هو، إنه هو!"

تخيلت فجأة مقطعًا من أغنية: "بدأ الأمر يبدو وكأننا فى الكريسماس".

انضمت دينيس إلى أمها وشقيقها عند الباب الأمامى. كانت هناك وجوه مألوفة محتشدة حول المدخل المغمور بالثلج: دال دريبلت وهونى دريبلت وستيف وآشلى دريبلت وكيربى رووت مع بنات كثيرات من بناته وأزواج بنات، قبيلة بيرسون كاملة. راحت إنيد تغنى أغنية الكريسماس وتدعو دينيس وجارى للغناء معها ثم احتضنتهما. راحت ترقص على أطراف أصابعها بعد أن دخلت فى روح اللحظة. قالت: "اجرى هاتى بابا. إنه يحب أغنية الكورال".

قالت دينيس: "بابا مشغول".

لأن الرجل الذى صان خصوصيتها والذى لم يطلب أكثر من احترام خصوصيته بدوره، يفضل أن يعانى وحده ولا يفاقم من معاناته بالإحساس بالخزى لمشاهدة الآخرين لعنائه؟ ألم يربح الحق

بكل سؤال لم يجبها عليه الحق فى تفادى السؤال الذى تريد أن تسأله له الآن: ما حكاية الحقنة الشرجية يا بابا؟

بدا كأن الكورال يغنى فى وجهها مباشرة. راحت إنيد تتمايل مع اللحن، وكانت دموع جارى قريبة فى عينيه، لكن دينيس أحست بأنها المقصودة بالغناء، هى الجمهور. كانت لتود البقاء هناك مع النصف الأسعد من أسرتها. لا تعرف ما صعوبة الالتزام بهذا الجزء من الأسرة. لكن مع تحول الغناء على يد كيربى رووت الذى يقود الكورال فى كنيسة شيلتسفيل إلى أغنية "اسمع، الملائكة تغنى" بدأت تتساءل إن كان احترام خصوصية ألفريد مسألة سهلة. أيريد أن يتركوه وحده؟ يمكنها أن تعود إلى فيلادلفيا وتعيش حياتها وأن تفعل ما يريده هو تمامًا. أيشعر بالحرج لأنه شوهد وهناك حقنة بلاستيكية تبرز من مؤخرته؟ طيب هى بدورها تعانى من حرج بالغ لنفس المشهد!

خلصت نفسها من يد أمها، ولوحت بيدها للجيران وعادت إلى القبو.

كان باب المعمل مفتوحًا كما تركته: "بابا؟"

"لا تدخلى!"

قالت: "آسفة لكن يجب أن أدخل".

"لم أنتو أن أورطك فى هذا الموضوع. ليس عليك أن تقلقى بسببه".

"أعرف. لكننى سأدخل على كل حال".

وجدته فى نفس الوضع تقريبًا، والمنشفة الكبيرة القديمة بين ساقيه. وهى تميل عليه وسط رائحة الخراء والبول، وضعت يدًا على كتفه المرتعش. قالت: "أنا آسفة".

وجهه غارق فى العرق. عيناه تبرقان فى جنون. قال: "ابحثى عن تليفون واتصلى بمدير المنطقة".

* * *

نزل الإلهام على شيب حوالى السادسة صباح الثلاثاء، وهو يسير فى عتمة شبه تامة فى طريق مغطى بالحصى الليتوانى، بين قريتى نيرافاى وميسكينياى الصغيرتين، على مسافة كيلومترات قليلة من الحدود مع بولندا.

قبل خمس عشرة ساعة كان قد خرج من المطار وكاد جوناس وأيداريس وجيتاناس يصدمونه بالسيارة الستومبر قرب الرصيف. كان الثلاثة فى طريقهم إلى خارج فيلنيوس عندما سمعوا بإغلاق المطار. مرقوا إلى جوار الأمريكى التعيس ثم داروا بالسيارة ليعودوا إليه وينقذوه. كان صندوق السيارة الواسع ممتلئًا بالأمتعة والحواسب ومعدات التليفون، لكن بعد أن ربطوا حقيبتين بحبل إلى سطح السيارة أفسحوا مكانًا لشيب وحقيبته.

قال جيتاناس: "سوف نأخذك إلى نقطة تفتيش صغيرة. إنهم يضعون المتاريس على الطرق الرئيسية. يسيل لعابهم عندما يرون ستومبر".

ثم تقدم جوناس بسرعات غير آمنة على طرق غرب فيلنيوس غير الممهدة، والتف حول بلدتى جيزناس وأليتوس. مرت الساعات فى ظلام وارتطامات بسبب الطرق غير الممهدة. لم يروا إطلاقًا عمود نور واحدًا أو سيارة خاصة بأجهزة الأمن. استمع جوناس وأيداريس لأغانى ميتاليكا فى المقعد الأمامى، فيما راح جيتاناس يضغط أزرار تليفونه المحمول فى أمل بائس أن تتمكن شركة ترانس

بلطيق للمحمول التى ما زال نظريًا يديرها، من إعادة الكهرباء لمحطتها وسط انقطاع الكهرباء على مستوى ليتوانيا ومع نزول القوات المسلحة الليتوانية إلى الشوارع.

قال جيتاناس: "هذا عمل بائس من فيتكوناس. تحريك الجيش يجعله فى صورة سوفيتية أكثر. القوات فى الشوارع مع انقطاع الكهرباء، ليس هذا بالأسلوب السليم لتحبيب الشعب الليتوانى فى حكومتك".

سأل شيب: "هل هناك من يطلقون النار على الناس فعلاً؟"

"لا، أغلب الموضوع التمركز فى نقاط معينة. مأساة تُعاد كتابتها كملهاة".

نحو منتصف الليل مرت الستومبر بمنحنى حاد قرب لازديجاى، أخر بلدة يعتد بحجمها قبل الحدود البولندية، ومرت بقافلة من ثلاث سيارات جيب تتجه فى الاتجاه المعاكس. زاد جوناس من سرعته على الطريق وتشاور مع جيتاناس بالليتوانية. كتل الثلج فى هذه المنطقة فى طريقها إلى الذوبان. تبين أن سيارتين من السيارات الجيب دارت على الطريق وبدآت تطارد الستومبر. وكان من الممكن أيضًا إن كنت داخل الجيب، فسوف ترى جوناس ينعطف إلى اليسار بحدة نحو طريق مفروش بالحصى ويسرع على امتداد بياض البحيرة المتجمدة.

طمأن جيتاناس شيب قائلاً: "سوف نسبقهم" وذلك قبل ثانيتين من أن يقلب جوناس السيارة على جانبها بعد أن رأى أمامه فجأة انعطافة صعبة.

قال شيب لنفسه: نحن نتعرض لحادث، وقت أن كانت السيارة تطير فى الهواء. تعرض لحالة مؤقتة من انعدام الإحساس بالجاذبية، والتحرك فى حركات غير خطية. مرت فترة من التأمل الصامت واصطكاك الأسنان ثم اختفى الزمن، لم يعد هنالك إلا ضربة وراء ضربة، ضوضاء وصخب. حاولت الستومبر عدة زوايا للاعتدال، بزاوية تسعين درجة، ثم مائتين وسبعين، ثم ثلاثمائة وستين، ثم مائة وثمانين، وأخيرًا استقرت على جانبها الأيسر وانطفأ محركها، وكانت أنوارها ما زالت مضاءة.

أحس شيب بألم شديد فى ردفيه وصدره بسبب حزام الأمان المربوط حول حجره وكتفيه. باستثناء هذا بدا فى قطعة واحدة، سليمًا، وكذلك كان كل من جوناس وأيداريس.

كانت الحقائب قد تطايرت وراحت تضرب جيتاناس. رآه ينزف من جروح فى ذقنه وجبينه. تكلم إلى جوناس فى سرعة، يبدو أنه يخبره أن يطفئ الأنوار، لكنه تأخر. سمع صوت فرملة سيارة قوى وراءهم. سيارات الجيب المطاردة توقفت عند انعطاف الطريق، وخرج منها رجال فى زى رسمى يرتدون أقنعة التزلج على الجليد.

قال شيب: "شرطة فى أقنعة تزلج. أجاهد للخروج بنتيجة منطقية من هذه العبارة".

ارتطمت السيارة الستومبر فى منطقة مستنقعات متجمدة. على ضوء سيارات الجيب العالى حاصر ثمانية أو عشرة "ضباط" مقنعين السيارة وأمروهم بالخروج. فتح شيب الباب من فوقه وأحس وكأنه عفريت يخرج من علبته.

تم أخذ الأسلحة من جوناس وأيداريس. تمت بعثرة محتويات السيارة على الثلج والعشب اليابس. قام "ضابط" بوضع فوهة بندقية لصق صدغ شيب، وتلقى شيب أمرًا من كلمة واحدة ترجمها له جيتاناس: "إنه يدعوك لخلع ثيابك".

الموت، تلك العلاقة المُعاشة عن بُعد، تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من الرجل خلفه، فجأة ظهر واضحًا أمامه. كان شيب خائفًا من البندقية. اهتزت يداه وفقد الإحساس. استجمع إرادته كلها كى يخلع ثيابه بنفسه. من الواضح أنه اختير لهذه الإهانة بسبب جودة الثياب الجلدية التى يرتديها. لم يبد أن هناك من يهتم بجاكيت جيتاناس الأحمر أو جاكيت جوناس الجينز. رآهم يفحصون مدى جودة فردة حذائه اليسرى.

سمع صيحة عندما سقطت حزمة من الدولارات الأمريكية من الحذاء. مرة أخرى، التصقت فوهة البندقية بصدغ شيب. هناك أصابع باردة تفتش مظروف النقود الكبير تحت التى شيرت. "الشرطة" تفحص محفظته أيضًا لكن لم يسرقوا النقود بالعملة المحلية أو بطاقات ائتمانه. لا يريدون سوى الدولارات.

احتج جيتاناس الذى تجلط الدم على عدة مواضع فى رأسه متحدثًا إلى قائد "الشرطة". النقاش الذى دار بعد ذلك والذى شهد إشارة جيتاناس وقائد الرجال إلى شيب عدة مرات وتكرار كلمات "دولارات" و"أمريكى" انتهت بأن أشار القائد بالمسدس إلى جبين جيتاناس الدامى ورفع جيتاناس يديه مصدقًا على أن القائد عنده حق فيما ساق من حجج.

فى هذه الأثناء تراخت عضلة التحكم فى البراز عند شيب لدرجة أنها كانت تستسلم. لكن بدا له من المهم للغاية أن يسيطر

على نفسه، وهكذا وقف مرتديًا جواربه وثيابه الداخلية وضغط جانبى مؤخرته ببعضهما قدر إمكانه رغم رعشة ساقيه. راح يضغط ويضغط ويقاوم التشنجات العضلية فى هذه المنطقة بقوة. لا يهمه كم يبدو سخيفًا أمام الآخرين.

كانت "الشرطة" تستكشف الأغراض الكثيرة التى يمكن سرقتها وسط الأمتعة. تم إفراغ حقيبة شيب على الثلج وتم تفتيش محتوياتها. راح هو وجيتاناس ينظران إلى "الشرطة" وهى تقطع تنجيد مقاعد الستومبر، ويمزقون أرضيتها، ليجدوا احتياطى جيتاناس من النقود والسجائر.

قال شيب وهو ما زال يرتعش فى عنف ويقترب من الفوز فى معركته المهمة مع التشنجات: "ما حجتهم فيما يفعلون؟"

قال جيتاناس: "نحن متهمون بتهريب العملة والدخان".

"ومن يتهمنا؟"

قال جيتاناس: "أخشى أنهم حقًا كما يبدو. بمعنى آخر، الشرطة الوطنية التى ترتدى أقنعة التزلج. الروح فى البلد اليوم هى روح أعمل ما بدا لك".

كانت الساعة الواحدة صباحًا عندما ابتعدت سيارات جيب "الشرطة" أخيرًا عنهم. تركوا شيب وجيتاناس وجوناس وأيداريس بأقدام مجمدة، وستومبر محطمة، وثياب مبللة، وأمتعة مبعثرة.

خطر لشيب أن الإيجابى فى الموضوع أنه لم يعملها على نفسه.

ما زال معه جواز السفر ومبلغ الألفين دولار الذى لم تعثر عليه "الشرطة" فى جيب التى شيرت. كما أن معه حذاء رياضيًا وبعض

بناطيل الجينز الواسعة والمعطف الرياضى الجيد والسويتر الذى يحبه، وهكذا سارع بجمع هذه الأغراض.

قال جيتاناس معلقًا: "هكذا انتهى عملى بصفتى أمير حرب مجرم. لم تعد عندى طموحات فى ذلك الاتجاه".

باستخدام القداحات راح جوناس وأيداريس يفتشان الستومبر من الأسفل. أطلق أيداريس حكمه بالإنجليزية كى يفهمه شيب: "السيارة اتفشخت".

عرض جيتاناس أن يسير مع شيب حتى المعبر الحدودى، على الطريق إلى سيجنى، على مسافة خمسة عشر كيلومترًا إلى الغرب، لكن شيب كان مدركًا فى ألم أنه إن لم يدور أصدقائه على أعقابهم ليعودوا إليه ويتركوا المطار، كانوا ليصبحوا فى أمان الآن مع أقاربهم فى إيجنالينا، ومعهم سيارتهم ونقودهم آمنة.

قال جيتاناس وهو يهز كتفيه: "ما علينا. كان يمكن أن يُطلق علينا الرصاص فى الطريق إلى إيجنالينا. ربما أنقذت حياتنا".

كرر أيداريس ما قاله وهو مزيج من الغيظ والبهجة: "السيارة اتفشخت".

قال شيب: "أراك فى نيويورك".

جلس جيتاناس على شاشة كمبيوتر ١٧ بوصة. تحسس فى حرص جبينه الدامى: "طيب، نيويورك".

"يمكنك الإقامة فى شقتى".

"سوف أفكر فى هذا الموضوع".

قال شيب فى مسحة من اليأس: "أفعل ما أقوله لك".

قال جيتاناس: "أنا ليتوانى".

أحس شيب بمزيد من الألم، ومزيد من اليأس والوحدة، بدرجة أكبر مما يستدعى الموقف. لكنه احتوى نفسه، وقبل منهم خريطة الطريق وقداحة السجائر وتفاحة وأطيب الأمانى الليتوانية وانطلق فى الظلام.

ما إن أصبح وحيداً حتى تحسن إحساسه. كلما سار زاد تقديره لراحة البنطلون الجينز والحذاء الرياضى كمعدات مهمة للمشى، مقارنة بالحذاء طويل الرقبة والبنطلون الجلدى. حركته هكذا أخف، وخطوته حرة، وأحس بإغراء الجرى على الطريق. كم هو شىء رائع أن يسير المرء بحذاء رياضى!

لكن لم يكن هذا هو الإلهام الذى نزل عليه. الإلهام جاءه بعد أن أصبح على مسافة كيلومترات قليلة من الحدود البولندية. كان يجاهد ليسمع من حوله نباح كلاب المزارع القاتلة فى العتمة المحيطة، وكان يمد يديه أمامه، ويشعر بشىء من السخافة، ثم تذكر كلمات جيتاناس: "مأساة تُعاد كتابتها كملهاة". فجأة فهم أن لا أحد، بما فى ذلك نفسه، أحب نصه، كتب قصة إثارة وتشويق بينما كان يجب أن يكتب ملهاة.

ضوء النهار الخفيف بدأ يداهمه. فى نيويورك عكف على مراجعة وتهذيب أول ثلاثين صفحة من "الأكاديمية البنفسجية" حتى أصبح يحفظها عن ظهر قلب، والآن مع زيادة الضياء فى السماء البلطيقية، راح يكتب بقلم أحمر ذهنى التعديلات على هذه الصفحات، تعديل صغير هنا، كلمة إضافية هناك، ورأسه يدور

بالمشاهد كما كانت تريد المشاهد أن تكون من البداية: سخيفة بائسة. تحول بطل النص بيل كوينتنس المأساوى الجاد إلى أحمق يستدر الضحكات.

زاد شيب من سرعته وكأنه يهم إلى مكتب يجلس إليه ليراجع النص على الفور. صعد تلا ورأى بلدة إيسيسكيس الليتوانية المعتمة المقطوع عنها النور، وعلى بُعد، وراء الحدود، أنوار بولندا. هناك جوادان يطلان برأسيهما من وراء سياج من السلك الشائك، رآهما يصهلان فى وجهه بتفاؤل.

قال بصوت جهورى: "اجعلها سخيفة، اجعلها بائسة".

كان عند نقطة الحدود موظفان اثنان من موظفى الجمارك الليتوانيين و"رجلا شرطة". أعادوا جواز سفر شيب إليه بعد أن صادروا حزمة الليتاى الليتوانية التى كان قد خبأها فى جواز السفر. ودون سبب واضح سوى القسوة الغاشمة، جعلوه يجلس فى حجرة تعانى من التدفئة الزائدة لساعات فيما راحت خلاطات الأسمنت وشاحنات نقل الدواجن والدراجات تروح وتجىء فى الخارج. كان الوقت قد اقترب من الظهر عندما تركوه يعبر سيرًا إلى بولندا.

بعد عدة كيلومترات على الطريق، فى سيجنى، اشترى عملة الزلوتى البولندية، واستخدم الزلوتى لشراء الغداء. كانت المتاجر ممتلئة بالبضائع، فهو الكريسماس. رجال القرية عجائز يشبهون بابا الفاتيكان كثيرًا.

ركب ثلاث شاحنات وتاكسى حتى وصل إلى مطار وارسو ظهر الأربعاء. بدا السرور على موظفى كاونتر خطوط بولندا الجوية

عندما رآوه. أضافت الخطوط الجوية البولندية رحلات إضافية أثناء الكريسماس إلى جدولها الأصلى لاستيعاب عشرات الآلاف من العمال البولنديين العائدين إلى أسرهم من الغرب، والكثير من الرحلات إلى الغرب كانت تعانى من ندرة الركاب. جميع الفتيات ذوات الوجنات الحمراء المكورة عند الكاونتر يرتدين قبعات صغيرة سخيفة. أخذن النقود من شيب، وأعطينه تذكرة، وقلن له أن يجرى.

ركض إلى البوابة وركب طائرة ٧٠٧ مكثت على الممر أربع ساعات أثناء فحص معدات فيها مشاكل فى كابينة الطيار وأخيراً تم استبدالها بعد الكثير من التردد.

مسار الرحلة إلى مدينة شيكاغو الممتلئة بالبولنديين رأساً بلا محطات. حرص شيب على النوم طوال الرحلة حتى ينسى أنه مدين لدينيس بعشرين ألف وخمسمائة دولار، وأنه ليس عنده الآن وظيفة ولا يعرف كيف سيجد وظيفة.

الأخبار الجيدة فى شيكاغو بعد أن خرج من الجمارك، أن هناك شركتى تأجير سيارات ما زالتا تعملان. الأخبار السيئة أنه عرف بعد أن وقف فى الطابور نصف ساعة أن من معهم بطاقات ائتمان انتهت صلاحيتها لا يمكنهم استئجار سيارات.

مضى إلى قائمة بالخطوط الجوية فى دليل التليفونات حتى عثر على واحدة: برير هوير، لم يسمع بها من قبل، واكتشف أن على متن رحلتها المحلية إلى سان جود مقعداً، بتوقيت السابعة صباح الغد.

كان الوقت قد تأخر على الاتصال بسان جود. اختار بقعة منعزلة من المطار ورقد فيها ونام. لا يفهم ماذا حدث له. أحس وكأنه ورقة عليها كتابة مفهومة لكن دخلت الغسالة وخرجت. أحس

بإحساس الخروج من الغسالة. حلم بعيون مجردة من الوجوه وأفواه تطير فى الهواء داخل أقنعة التزلج. فقد الإحساس بما يريده، وبما أن الإنسان هو فى جوهره ما يريده هذا الإنسان، فيمكنه القول أنه فقد الإحساس بنفسه.

كم هو غريب إذن أن الرجل العجوز الذى فتح باب البيت فى التاسعة والنصف فى سان جود فى الصباح التالى كان يبدو أنه يعرف من هو.

كان هناك إكليل زهور مقدس على الباب. الممشى الأمامى للبيت يحفه الثلج تظهر عليه آثار الكنس بالمقشة. الشارع الغرب أوسطى شعر فيه المسافر وكأنه فى أرض العجائب، أرض الثراء وأشجار البلوط والمساحات المهدرة بلا طائل. لا يتخيل المسافر كيف يمكن لمكان كهذا أن يتواجد فى عالم ليتوانيا وبولندا. إنه شهادة على كفاءة الحدود السياسية فى العزل، تلك السلطة لا تقتصر على إحداث تباين فى الاقتصاد. الشارع القديم بدخانه البلوطى وشجيراته النظيفة وقطع الثلج يبدو له غير ثابت أو نهائى. وكأنه حالة زواج. وكأنه ذكرى لامعة بشكل استثنائى على شىء محبوب وميت.

قال ألفريد ووجهه يشرق فى بهجة وهو يأخذ يدى شيب بين يديه: "هاه! انظروا من جاء يا ولاد!"

حاولت إنيد أن تدخل الصورة وهى تزاحم ألفريد بمنكبيها، ورددت اسم شيب، لكن ألفريد لم يدع يديه. قال مرتين: "انظروا من جاء يا ولاد! انظروا من جاء يا ولاد!"

قالت إنيد: "دعه يدخل يا آل ولنغلق الباب".

وقف شيب مترددًا عند مدخل الباب. العالم فى الخارج أبيض وأوسط ورمادى يذروه الهواء الطازج النظيف، والداخل الساحر كثيف بالأشياء والروائح والألوان، الرطوبة، الشخصيات المتضخمة. يخشى الدخول.

قالت إنيد فى سرسعة: "ادخل ادخل. وأغلق الباب".

ليحمى نفسه من التعاويذ السحرية، نطق سرًا تعويذة مضادة: سأمكث هنا ثلاثة أيام ثم سأعود إلى نيويورك، سأجد وظيفة، وسأدخر خمسمائة دولار فى الشهر على الأقل، حتى أسدد الدين، وسأعمل كل ليلة على تعديل النص.

مستعينًا بهذه التعويذة ـ وليس لديه غيرها، فهى جوهر وجوده ـ تقدم من الباب.

قالت إنيد وهى تقبله: "يا خبر، أنت لم تحلق ذقنك من مدة ورائحتك كريهة. أين حقيبتك؟"

"إلى جانب طريق مفروش بالحصى فى غرب ليتوانيا".

"يسعدنى أنك عدت إلى البيت بأمان".

لم ير فى أى مكان فى الأمة الليتوانية حجرة كحجرة معيشة آل لامبرت. فى هذا النصف من الكرة الأرضية فقط يمكن أن يكون السجاد صوفى الملمس بهذا الثراء والأثاث كبير هكذا وجيد الصناعة والتنجيد، فى حجرة ذات تصميم بسيط وعادى هكذا. الضوء فى النوافذ المؤطرة بالخشب، رغم أنه رمادى، فيه تفاؤل البرارى، هناك بحر على مسافة ستمائة ميل وليس أقرب، مما يعنى استحالة اضطراب هذا الطقس على حاله الآن. وقفة أشجار

البلوط العجوز، مشرعة أطرافها العلوية إلى السماء، إنها البرية، سابقة على الاستيطان البشرى الدائم، ذكريات عالم غير محاط بالأسوار مكتوبة على فروعها.

فهم شيب كل هذا فى خفقة قلب. القارة، وطنه. رأى أعشاش الهدايا المفتوحة مبعثرة حوله فى حجرة المعيشة، وشرائط لف الهدايا المفكوكة، وأوراقها. أمام كرسى المدفأة الذى كان ألفريد يعلن دومًا أنه يخصه، كانت دينيس تميل إلى جوار أكبر عش من الهدايا.

قالت إنيد: "انظرى من جاء يا دينيس".

وكأنها مدفوعة بالتزام ما، بعيون تنظر إلى الأرض، نهضت دينيس وعبرت الحجرة. لكن عندما لفت ذراعيها حول شيب وضغط عليها فى عناق (وزنها كعهده بها أدهشه)، لم تتركه. تعلقت به، قبلت رقبته وبادلته النظر وشكرته.

جاء جارى وعانق شيب فى ارتباك، دون أن ينظر إليه. قال: "لم أتخيل أنك ستأتى".

قال شيب: "ولا أنا".

قال ألفريد وهو ينظر إليه فى عجب: "تمام تمام".

قالت إنيد: "يجب أن يغادر جارى فى الحادية عشرة، لكن يمكن أن نتناول الإفطار معًا. اذهب أنت واستحم، وسوف أعد أنا ودينيس الإفطار. كان هذا هو كل ما أريده". ثم أضافت وهى تهرع إلى المطبخ: "هذه أفضل هدية كريسماس فى حياتى!"

التفت جارى إلى شيب ورسم على وجهه تعبير البلاهة: "تفضل.. يا أفضل هدية كريسماس فى حياتها".

قالت دينيس: "أظن أنها تقصد اجتماعنا نحن الخمسة".

قال جارى: "الأفضل أن تستمتع بها بسرعة إذن، لأنها مدينة لى بمناقشة ومبلغ ستدفعه".

شيب المنفصل عن جسده مضى وراءه يتساءل أين يذهب الجسد. أبعد المقعد الألمونيوم من تحت الدُش فى حمام الطابق السفلى. كان تدفق الماء قويًا وساخنًا. أحس انطباعاته طازجة بطريقة لا يتذكرها فى حياته. يمكن للعقل أن يستوعب الانطباعات قبل أن يفقد القدرة على تفسيرها، أن يضعها فى هيئة متماسكة ونظام واضح. ليلته التى حُرم فيها من النوم تمامًا تقريبًا على أرض المطار، على سبيل المثال، كانت ما زالت ترافقه، وتتوسل إليه أن يفسرها. ها هو الآن فى دُش ساخن صباح الكريسماس. ها هى بلاطات الحمام المألوفة. البلاطات مثل كل شىء مادى فى هذا البيت، تعانى من حقيقة أنها ملك إنيد وألفريد، مشبعة بهالة الانتماء لهذه الأسرة. البيت وكأنه جسد، شىء أنعم وأكثر عضوية من كونه بناء.

شامبو دينيس تنبعث منه الروائح اللطيفة السارة لنموذج الرأسمالية الغربية. فى الثوانى التى استغرقها شيب ليغسل شعره، نسى أين هو. نسى القارة والسنة والوقت من النهار، ونسى الظروف. مخه تحت الدُش كائن برمائى، يسجل انطباعات، يتفاعل مع اللحظة. لم يكن بعيدًا عن الرعب. فى الوقت نفسه يشعر بأنه بخير. هو جائع يحتاج للإفطار وعطشان، يتوق للقهوة تحديدًا.

توقف فى حجرة المعيشة والفوطة حول خصره، حيث هب ألفريد من مقعده. عندما رأى وجه ألفريد العجوز فجأة، فى حالة التحلل

والتراخى، فى احمراره وعدم تماثل نصفيه، أحس شيب بسوط يجلده.

قال ألفريد: "دُش سريع".

"هل يمكن أن أستلف بعض ثيابك؟"

"أترك هذا الموضوع لتقديرك".

فى الطابق العلوى، فى دولاب والده رأى عدة حلاقة الذقن القديمة، الشفرات والأحذية ورف ربطات العنق، فى أماكنها المعهودة. كانت على أهبة الاستعداد لأداء واجبها على مدار كل ساعة من الأيام الألف وخمسمائة منذ وضع شيب قدميه فى هذا البيت لآخر مرة. أحس للحظة بالغضب (كيف لا يغضب؟) أن أبويه لم يغيرا البيت أبدًا. كانا هنا ينتظران ببساطة.

أخذ كيلوتًا وشرابًا وقميصًا أبيض وبلوفر رماديًا إلى الحجرة التى كان يشارك جارى فيها فى السنوات بين وصول دينيس إلى الأسرة وفراق جارى الأسرة متجهًا إلى الجامعة. كانت حقيبة جارى مفتوحة على سريره "سرير شيب" وكان جارى يضع فيها أمتعته.

قال: "لا أعرف إن كنت قد لاحظت، لكن بابا فى حالة صعبة".

"نعم لاحظت".

وضع جارى صندوقًا صغيرًا على الكومودينو المجاور لشيب. إنه صندوق ذخيرة -عشرون خرطوش بندقية.

قال جارى: "أخرجت هذه ومعها البندقية من المعمل. نزلت هذا الصباح وقلت لنفسى من خاف سلم".

نظر شيب إلى الصندوق وتكلم بشكل تلقائى كلمات متناثرة: "ألم يكن هذا قرار بابا؟"

قال جارى: "هذا ما فكرت فيه بالأمس. لكن إن كان يريد الانتحار فعنده خيارات أخرى. درجة الحرارة الآن ستصل إلى الصفر. يمكنه أن يخرج من البيت وفى يده زجاجة ويسكى، لكن لا أريد أن تجده ماما برأس منفجرة من رصاص البندقية".

لا يعرف شيب ماذا يقول. ارتدى ثياب العجوز فى صمت. القميص والبنطلون نظيفين كالمعجزة يناسبان مقاسه أكثر مما تخيل. كان مندهشًا عندما ارتدى البلوفر أن يديه لم تبدأ فى الاهتزاز، اندهش لأنه رأى وجهًا شابًا فى المرآة.

قال جارى: "إذن، فيم انشغلت؟"

"كنت أساعد صديقًا ليتوانيًا فى الاحتيال على مستثمرين غربيين".

"يا ربى يا شيب. هذا كلام خطير".

أى شىء فى العالم قد يكون غريبًا، لكن كلام جارى أثار سخط شيب كشأنه دائمًا.

قال شيب: "من وجهة نظر أخلاقية بحتة.. أنا متعاطف مع ليتوانيا أكثر من تعاطفى مع المستثمرين الأمريكيين".

قال جارى وهو يرفع سوسته حقيبته: "تريد أن تكون بلشفيًا؟ لا بأس، كن بلشفيًا. لكن لا تتصل بى عندما يقبضوا عليك".

قال شيب: "لن يخطر على بالى أبدًا أن أتصل بك".

قالت إنيد فى صوت كالغناء من الطابق الأعلى: "هل أنتم جاهزون للإفطار يا جماعة؟"

كانت مائدة حجرة الطعام مجهزة بمفرش عيد الميلاد المطرز. فى وسط المائدة بعض أقماع الصنوبر، وشموع حمراء وأجراس فضية. راحت دينيس ترص الطعام، جريب فروت على طريقة تكساس، بيض مقلى، لحم باكون، وخبز خبزته بنفسها.

غطاء الثلج يزيد من ضياء البرارى القوى.

حسب العادة، جلس جارى وحده على أحد جانبى المائدة. وعلى الجانب الآخر جلست دينيس إلى جانب إنيد وشيب إلى جوار ألفريد.

قالت إنيد وهى تنظر إلى كل من أطفالها فى عينيه كل فى دوره: "عيد ميلاد مجيد مجيد مجيد!"

كان ألفريد الذى أحنى رأسه قد بدأ يأكل بالفعل.

بدأ جارى يأكل بدوره، بسرعة، وهو ينظر من الحين للآخر إلى ساعته.

لا يذكر شيب أن القهوة كانت لذيذة هكذا فى هذه المنطقة.

سألته دينيس كيف وصل. روى لها القصة وحذف منها حكاية السطو المسلح.

كانت إنيد تتابع أكل جارى فى دقة، تتابع كل حركة: "كل ببطء، لن تغادر حتى الحادية عشرة".

قال جارى: "فى الواقع قلت الحادية عشرة إلا ربعًا. أصبحنا بعد العاشرة والنصف بقليل، وعندى أمور أريد مناقشتها".

قالت إنيد: "أصبحنا معًا أخيرًا، اهدأ واستمتع".

نحى جارى شوكته جانبًا: "أنا هنا منذ يوم الاثنين يا أمى، فى انتظار أن نجتمع جميعًا. دينيس هنا منذ صباح الثلاثاء. ليس خطأى إن كان شيب مشغولاً بالنصب على المستثمرين الأمريكيين فلم يصل فى موعده".

قال شيب: "لقد شرحت منذ قليل لماذا تأخرت، إن كنت تتابع الكلام".

"ربما كان عليك أن تغادر قبل ذلك بقليل".

قالت إنيد: "ماذا تقصد بالنصب؟ حسبتك تؤدى عملاً متعلقًا بالكمبيوتر".

"سأشرح لك لاحقًا يا ماما".

قال جارى: "لا، اشرح لها الآن".

قالت دينيس: "جارى".

قال جارى وهو يلقى فوطته فى عصبية: "لا، آسف. نلت كفايتى من هذه الأسرة! كفانى انتظار! أريد إجابات الآن".

قال شيب: "كنت أؤدى عملاً متعلقًا بالكمبيوتر. لكن جارى محق، بالمعنى الحرفى للكلمة، كان الهدف هو النصب على مستثمرين أمريكيين".

قالت إنيد: "أنا لا أوافق على هذا الكلام بالمرة".

قال شيب: "أعرف ذلك. رغم أن الموضوع معقد أكثر مما قد".

"ما المعقد فى مخالفة القانون؟"

قالت دينيس وهى تتنهد: "جارى، أرجوك. إنه الكريسماس".

قال جارى وهو يلتفت إليها: "وأنت لصة".

"ماذا؟"

"تعرفين عم أتحدث. تدخلين الحجرة وتأخذين شيئًا لا يخصـ..."

قالت دينيس فى غضب: "نعم؟ استعدت شيئًا سرقته أنت من صاحبه الـ..."

"خراء، خراء، خراء!"

قالت إنيد منتحبة: "لن أجلس هنا وأسمع هذا الكلام، ليس صباح الكريسماس!"

قال جارى: "لا يا أمى، آسف، لن تذهبى لأى مكان. سوف نجلس هنا ونتكلم الآن".

ابتسم ألفريد ابتسامة متآمرة فى وجه شيب وأومأ برأسه للآخرين وقال: "أرأيتم العبء الذى أتحمله؟"

رسم شيب على وجهه نظرة تفهم واتفاق فى الرأى.

قال جارى: "شيب، إلى متى ستمكث هنا؟"

"ثلاثة أيام".

"وأنت يا دينيس ستغادرين فى..."

"يوم الأحد يا جارى، سأغادر الأحد".

"إذن ماذا سيحدث يوم الاثنين يا أمى؟ كيف ستديرين هذا البيت يوم الاثنين؟"

"سأفكر فى هذا عندما يأتى يوم الاثنين".

ألفريد الذى كان ما زال مبتسمًا سأل شيب عم يتحدث جارى.

"لا أعرف يا بابا".

قال جارى: "تعتقدين حقًا أنك ذاهبة غلى فيلادلفيا؟ تظنين أن الكوريكتول سيعالج كل هذا؟"

قالت إنيد: "لا يا جارى، لا أظن هذا".

يبدو أن جارى لم يسمع إجابتها: "بابا، ساعدنى من فضلك. ضع يدك اليمنى على كتفك الأيسر".

قالت دينيس: "جارى، كفاك".

مال ألفريد مقتربًا من شيب وقال فى ثقة: "ماذا يطلب؟"

"يريدك أن تضع يدك اليمنى على كتفك الأيسر".

"هذا كلام فارغ".

قال جارى: "بابا؟ هيا، يدك اليمنى وكتفك اليسرى".

قالت دينيس: "كفاك".

"هيا يا بابا. اليد اليمنى، على الكتف اليسرى. هل تقدر على هذا؟ تريد أن تُظهر لنا كيف تنفذ التعليمات البسيطة؟ هيا! اليد اليمنى.. الكتف اليسرى".

هز ألفريد رأسه: "لا نحتاج لأكثر من حجرة نوم واحدة ومطبخ".

قالت إنيد: "آل، أنا لا أريد حجرة نوم ومطبخ".

دفع العجوز مقعده بعيدًا عن المائدة والتفت مرة أخرى إلى شيب وقال: "كما ترى الموضوع مشحون بالمصاعب".

وهو ينهض تهاوت ساقاه وسقط على الأرض، وقد جر معه إلى الأرض طبقه وفوطته وفنجان القهوة وطبق فنجان القهوة. وكأن صوت السقوط وتهشم الأشياء على الأرض النغمة الأخيرة فى سيمفونية. رقد على جانبه وسط الحطام وكأنه مصارع رومانى جريح، جواد فى كبوة.

مال شيب عليه وساعده فى الجلوس على الأرض فيما هرعت دينيس إلى المطبخ.

قال جارى وكأن لم يحدث أى شىء مخالف للمألوف: "الساعة الحادية عشرة إلا الربع. قبل أن أغادر، إليكم ملخص بكلامى: بابا مصاب بالعته وعاجز. لا يمكن لماما أن تعتنى به فى هذا البيت دون الكثير من المساعدة، وتقول إنها لا تريدها وإن كانت قادرة على دفع ثمنها. من الواضح أن الكوريكتول خارج المعادلة، وهكذا فإننى أريد أن أعرف ماذا ستفعلون. الآن يا ماما، أريد أن أعرف الآن".

وضع ألفريد يديه المرتعشتين على كتفى شيب وراح ينظر فى عجب إلى أثاث الحجرة. رغم امتعاضه كان يبتسم.

قال: "سؤالى هو: من يملك هذا البيت؟ من المسئول عنه؟"

"أنت تملكه يا بابا".

هز ألفريد رأسه وكأن هذا الكلام لا يتسق مع الحقائق كما يفهمها.

جارى يريد إجابة.

قالت إنيد: "أعتقد أننا سنجرب استراحات دورية من تعاطى الدواء".

قال جارى: "حلو، جريى هذا. ضعيه فى مستشفى لنرى إن كانوا سيسمحون له حتى بالخروج. وبينما أنتم هناك خذى أنت بدورك استراحة من الدواء".

قالت دينيس وهى على الأرض وفى يدها إسفنجة المطبخ: "جارى، لقد تخلصت منها. وضعتها فى القمامة، كفاك".

"أتمنى لو تكونى قد تعلمت الدرس إذن يا أمى".

شيب الذى كان يرتدى ثياب العجوز، وجد نفسه غير قادر على متابعة هذه المحادثة. يدا والده ثقيلتان على كتفه. للمرة الثانية خلال ساعة هناك شخص يتعلق به، وكأنه كيانًا ماديًا ثقيلاً. فى الواقع يسهل عليه أن يؤكد أن والده وشقيقته مخطئان بشأنه. يشعر وكأن وجوده الواعى تمزق إلى شظايا، متحولًا إلى جسد "الابن الثابت" و"الشقيق الموثوق".

جلس جارى على الكنبة إلى جوار ألفريد. قال: "بابا، أنا آسف أننى مضطر لإنهاء الموضوع هكذا. أنا أحبك وسوف أزورك قريبًا".

رد ألفريد: "طيب. مررررح، مرحبًا بهك". خفض رأسه ونظر حوله فى بارانويا بائسة.

فرد جارى أصابعه فوق رأسه جارى فيما يبدو أنه ود لو كان بادرة حب: "وأنت يا شقيقى العقيم. سأعتمد عليك فى أن تساعدهم هنا".

قال شيب بسخرية أقل مما كان يعتزم: "سوف أبذل قصارى جهدى".

نهض جارى: آسف أننى أفسدت عليكم الإفطار يا ماما. لكننى أحسن الآن، بعد أن أزحت هذا الكلام عن صدرى".

غمغمت إنيد: "لم لا تنتظر حتى تنتهى الإجازة".

قبلها جارى على خدها: "اتصلى بهيدجبث صباح غد. ثم اتصلى بى وأخبرينى ما هى خطتك. سوف أراقب هذا الوضع عن قرب".

شيب لا يصدق أن جارى سيخرج من البيت ببساطة هكذا بينما ألفريد على الأرض وإفطار إنيد قد تحطم، لكن جارى فى حالته العقلانية القصوى، وكلماته عبارة عن كلام فارغ مصطف بشكل رسمى، وعيناه مراوغتان وهو يرتدى معطفه ويأخذ حقيبته ومعها حقيبة هدايا إنيد للأولاد فى فيلادلفيا، لأنه خائف. يرى شيب بوضوح أنه خائف، وراء هذه الواجهة الباردة، واجهة فراق جارى الصامت، يرى شقيقه خائفًا.

ما إن أغلق باب البيت حتى تقدم ألفريد إلى الحمام.

قالت دينيس: "لنفرح جميعًا أن جارى خفف حمله وأصبح يشعر بأنه أفضل حالاً".

قالت إنيد وعيناها مستقرتان على زينة المائدة: "لا إنه محق. هناك شىء ما يجب أن يتغير".

مرت الساعات بعد الإفطار فى حالة مزعجة وفى غير محلها من الانتظار، حالة الانتظار المرتبطة بمرور ساعات العيد. شيب على إرهاقه البالغ عانى من صعوبة الحصول على الدفء، لكن وجهه كان متوهجًا من حرارة المطبخ ورائحة الديك الرومى التى غمرت المنزل. كلما دخل مجال رؤية والده، ترتسم ابتسامة تمييز وابتهاج على وجه ألفريد. هذا التمييز ربما كان ليعتبره مخلوطًا بتمييزه كشخص آخر، لولا أن ألفريد كان يرفق نظرة التمييز بنطق

اسم شيب. يبدو شيب محبوبًا للعجوز. كان يجادل مع ألفريد ويهين ألفريد ويشعر بلذعة حسرة ألفريد منه أغلب حياته، وإخفاقاته الشخصية ورؤاه السياسية كانت فى أقصى تطرفها الآن، لكن جارى هو من كان يحارب العجوز، وشيب هو من يرسم الابتسامة على وجه العجوز.

على العشاء تكبد عناء وصف بعض أنشطته فى ليتوانيا، وكأنه يقرأ عليهم قانون الضرائب مثلاً. كانت دينيس التى تحسن دائمًا الاستماع منهمكة فى مساعدة ألفريد على تناول طعامه، وكانت إنيد تركز اهتمامها على عيوب زوجها الظاهرة. كانت تجفل وتهز رأسها بحدة كلما سقطت منه قضمة. وكان ألفريد وبكل وضوح قد حول حياتها إلى جحيم.

خطر لشيب أن: أنا أقل البشر تعاسة على هذه المائدة.

ساعد دينيس فى غسيل الأطباق فيما راحت إنيد تكلم أحفادها على التليفون، ولجأ ألفريد إلى فراشه.

سأل دينيس: "منذ متى وبابا هكذا؟"

"هكذا؟ منذ الأمس فقط. لكنه لم يكن أحسن حالاً قبل ذلك".

ارتدى شيب معطف ألفريد الثقيل وخرج ليشرب سيجارة. كان البرد أعمق من برد فيلنيوس. الرياح تهز الغصون البنية التى ما زالت مرتبطة بجذوع البلوط، هذه الأشجار الأكثر محافظة بين الأشجار، والثلج يهبط خفيفًا عند قدميه. درجة الحرارة الليلة صفر، كذا قال جارى، يمكنه أن يخرج وفى يده زجاجة ويسكى. شيب يريد إجابة على ذلك السؤال الهام، سؤال الانتحار، وفى يده سيجارة لتحسن أداءه الذهنى، لكن تجاويفه الأنفية تعانى من البرد

لدرجة أنه لا يكاد يشعر بالدخان، وأوجاع أصابعه وأذنيه أصبحت لا تحتمل من البرد. استسلم وسارع بالدخول بينما كانت دينيس تستعد للمغادرة.

سألها شيب: "إلى أين تذهبين؟"

"سأعود".

كانت إنيد الجالسة إلى جوار النار فى حجرة المعيشة تعض على شفتيها فى حسرة واضحة. قالت: "لم تفتح هداياك".

قال شيب: "ربما فى الصباح".

"أنا متأكدة أن هديتى لك لن تعجبك".

"يكفى أنك هاديتنى من الأساس".

هزت إنيد رأسها: "ليس هذا هو الكريسماس الذى كنت أتطلع إليه. فجأة أصبح بابا لا يقدر على عمل أى شىء، ولا شىء واحد".

"لنعطيه إجازة من الدواء ولنر إن كان هذا سيساعده".

ربما كانت إنيد تقرأ طالعًا مشئومًا فى النار: "هل تمكث معنا أسبوعًا وتساعدنى فى أخذه للمستشفى؟"

مضت يد شيب إلى حلمة أذنه وكأنه يطلب المدد. أحس كطفل يخرج من صفحات قصص جريم، إلى بيت مسحور فيه الدفء والطعام، وها هى الساحرة الآن ستحبسه فى قفص، وتسمنه، قبل أن تأكله.

كرر التعويذة التى استعان بها أمام الباب: "لا أقدر على البقاء هنا غير ثلاثة أيام. يجب أن أبدأ العمل على الفور. أنا مدين لدينيس ببعض الفلوس وأريد أن أردّها إليها".

قالت الساحرة: "أسبوع واحد. أسبوع، حتى نرى كيف ستسير الأمور فى المستشفى".

"لا أعتقد يا ماما. يجب أن أعود".

تعمق أسى إنيد، لكنها لم تبد مندهشة من رفضه: "أعتقد أنه مسئوليتى الآن إذن. لطالما عرفت أن هذا ما سيحدث".

عادت إلى صمتها، ووضع شيب المزيد من الحطب فى النار. هناك تيارات باردة تتسلل من النوافذ فتحرك الستائر خفيفًا. تدفئة البيت مستقرة بلا اضطراب تقريبًا، لكن العالم أبرد وأكثر خواء مما ظن شيب، فقد رحل الكبار جميعًا.

نحو الحادية عشرة عادت دينيس معبأة برائحة السجائر يبدو عليها البرد الشديد. لوحت لشيب وحاولت أن تصعد للطابق العلوى مباشرة، لكنه أصر على أن تجلس معه إلى جوار المدفأة. مالت على النار برأسها ووضعت يديها قرب الجمرات. أبقت عينيها على النار وكأنما لتضمن أنها لن تنظر إليه. تمخطت فى ورقة كلينكس مبتلة.

سألها: "أين ذهبت؟"

"للتمشية".

"تمشية طويلة".

"آه".

"كنت قد أرسلت لى بعض الإيميلات ومسحتها قبل أن أقرأها جيدًا".

"أه".

سألها: "إذن كيف حالك؟"

هزت رأسها: "عادى".

"كان معى نحو ثلاثين ألف دولار نقداً يوم الإثنين. كنت سأعطيك أربعة وعشرين ألفاً منها. لكن تعرضت للسرقة، سرقنى رجال أمن يرتدون أقنعة تزلج على الجليد. شىء لا يصدقه عقل، أعرف".

قالت دينيس: "أريد أن أنسى هذا الدين".

مضت يد شيب إلى حلمة أذنه ثانية: "سأبدأ فى تسديد أربعمائة دولار لك شهرياً، كحد أدنى، حتى أسدد المبلغ الأساسى وفوائده. هذه أهم أولوية عندى. أعلى أولوية".

التفتت إليه شقيقته تنظر إليه. عيناها بلون الدم، وجبينها أحمر كجبين الأطفال الرضع: "قلت إننى أسامحك على الدين. أنت لا تدين لى بأى شىء".

قال بسرعة وهو ينظر بعيداً عنها: "أقدر لك هذا لكن سأسدد لك على كل حال".

قالت: "لا، لن آخذ منك أى فلوس. انس الدين. هل تعرف معنى المسامحة؟"

بمزاجها الغريب وكلماتها غير المتوقعة أثارت توتر شيب. شد حلمة أذنه وقال: "دينيس، ما الموضوع؟ أرجوك. على الأقل أظهرى بعض الاحترام بأن تسمحى لى بتسديد ما علىّ. أعرف أننى كنت زفت معك. لكن لا أريد أن أبقى هكذا طوال حياتى".

قالت: "أريد أن أسامحك على الدين".

"لا، بجد".. ابتسم شيب فى يأس: "يجب أن تسمحى لى برد المبلغ".

"ألا تحتمل فكرة أن يسامحك أحد؟"

قال: "لا، بصراحة لا. الأفضل للجميع أن أرد لك فلوسك".

وهى ما زالت تميل على المدفأة، عقدت ذراعيها متحولة إلى زيتونة، بيضة، بصلة. من داخل هذا الكيان الكروى جاء صوت خفيض: "هل تفهم الخدمة الكبيرة التى تسديها لى إذا سمحت لى بمسامحتك على عدم رد الدين؟ هل تفهم أنه من الصعب علىّ أن أطلب منك هذه الخدمة؟ هل تفهم أن مجيئك هنا على الكريسماس هو الخدمة الأخرى الوحيدة التى طلبتها منك يومًا؟ هل تفهم أننى لا أحاول إهانتك؟ هل تفهم أننى لم أشك يومًا فى رغبتك فى رد المبلغ وأننى أعرف أننى أطلب منك شيئًا صعبًا؟ هل تفهم أننى ما كنت لأطلب منك شيئًا صعبًا كهذا إلا لو كنت بحاجة إليه فعلا فعلا فعلا؟"

نظر شيب إلى الهيئة الإنسانية المتكورة عند قدميه: "اخبرينى، ماذا حدث؟"

قالت: "أنا عندى مشاكل على عدة أصعدة".

"ليس هذا بالوقت المناسب للكلام عن الفلوس إذن. لننسى هذا الموضوع الآن. أريد أن أعرف ما الذى يتعبك".

وهى ما زالت متكورة هزت دينيس رأسها مرة واحدة فى قوة: "أريدك أن تعلن موافقتك الآن وهنا. قل نعم، أشكرك".

ندت عن شيب إيماءة حيرة وتعجب تام. اقترب منتصف الليل ووالده بدأ يتحرك فى الطابق العلوى وأخته متكورة كبيضة ترجوه

أن يقبل منها إزاحة الشىء الأساسى الذى يعذبه فى حياته عن كاهله.

قال: "لنتكلم فى هذا الموضوع غدًا".

"هل يساعدك فى القبول أن أطلب منك شيئًا آخر؟"

"غدًا، اتفقنا؟"

قالت دينيس: "ماما تريد من يمكث معها هنا الأسبوع القادم. يمكنك أن تقيم معها الأسبوع القادم وتساعدها. هذا سيريحنى كثيرًا. سأموت لو مكثت هنا بعد يوم الأحد. سوف أختفى من الوجود بالمعنى الحرفى للكلمة".

كان شيب يتنفس بصعوبة. باب القفص يُوصد عليه بسرعة. الإحساس الذى واتاه فى حمام الرجال فى مطار فيلنيوس، إحساس الاستدانة لدينيس بعيدًا عن كونه عبئًا ثقيلاً، فهو خط دفاعه الأخير، عاد إليه فى هيئة خوف من احتمال أن يُغفر له. تعايش مع مشكلة الدين حتى اعتبرها سمة من السمات المرتبطة بشكل أصيل بهندسته الذهنية، حتى إنه شك فى قدرته على الحياة من دون هذه المشكلة.

تساءل إن كانت الرحلات الأخيرة إلى الشرق قد غادرت المطار أم أن بإمكانه أن يهرب الليلة.

قال: "ماذا لو قسمناها نصفين؟ أصبح مدينًا لك بعشرة آلاف. ما رأيك أن نقيم معًا هنا حتى يوم الأربعاء".

"لا".

قال: "إن وافقت، فهل تكفين عن هذا الأسلوب وتبتهجى قليلاً؟"

"وافق أولاً".

ألفريد ينادى على شيب من الطابق العلوى: "شيب، تعال ساعدنى".

قالت دينيس: "إنه ينادى عليك حتى وأنت لست هنا".

النوافذ تهتز بسبب الرياح. متى أصبح والداه أطفالاً يذهبان للنوم مبكرًا وينادون من فوق طلبًا للمساعدة؟ متى حدث هذا؟

ألفريد ينادي: "شيب. لا أفهم هذه البطانية. هلا ساعدتنى؟"

البيت يهتز والعواصف ماضية فى طريقها وتيار الهواء القادم من النافذة الأقرب لشيب زاد. تذكر فجأة الستائر من الذاكرة. تذكر عندما غادر سان جود إلى الجامعة. تذكر حزم أمتعته ومعها شطرنج يدوى الصنع من النمسا كان والداه قد منحاه إياه بعد أن تخرج فى الثانوية، وكتاب السيرة الذاتية للينكولن الصادر فى ستة مجلدات الذى أخذه فى عيد ميلاده الثامن عشر، والقميص الأزرق الجديد من محل بروكس بروذرز (قالت إنيد عنه: "يجعلك تبدو طبيبًا وسيمًا!") وصفوف عالية من التى شيرتات البيضاء والشورتات البيضاء والبناطيل البيضاء الطويلة وصورة مدرسة لدينيس فى الصف الخامس، والبطانية التى أخذها ألفريد معه إلى جامعة كانساس قبل أربعين عامًا، وقفاز جلد على صوف يعود إلى ماضى ألفريد الكانساسى السحيق، وستائر حرارية جلبها ألفريد لابنه من محل سيرس. ألفريد الذى جلس يقرأ كتالوجات وأوراق دخول شيب الجامعة توقف أمام جملة "شتاءات نيو إنجلاند قد تكون قارسة البرودة". الستائر التى جلبها من سيرس من قماش بنى وردى صناعى وأحد جانبيها من المطاط. هى ثقيلة وجامدة. قال

لشيب: "ستعرف قيمتها فى الليل البارد. ستندهش إلى أى درجة تمنع عنك تيار الهواء البارد". لكن زميل شيب فى الحجرة فى السنة الأولى كان فتى وكأنه صعد توًا للجامعة من المدرسة الإعدادية، شىء اسمه روان مكوركل، سرعان ما ترك بصمات أصابعه الملطخة بالفازلين على صورة دينيس وهى فى الصف الخامس الابتدائى. ضحك روان على الستائر وضحك شيب بدوره. أعادها إلى الصندوق وألقى الصندوق فى قبو السكن الطلابى وترك الطحالب تنمو عليها هناك أربع سنوات. لا يعارض الستائر لأى سبب شخصى. إنها ستائر بسيطة ولا تريد أكثر مما تريد أى ستائر فى الدنيا: أن يتم تعليقها جيداً، أن تبعد الشمس قدر الإمكان، ألا تكون صغيرة للغاية أو كبيرة للغاية على النافذة التى تشغل حياتها بتغطيتها، أن تُجذب هكذا فى المساء وتُجذب هكذا فى الصباح، أن تتقلب خفيفًا مع النسيم القادم قبل المطر فى ليالى الصيف، أن تستخدم كثيراً وتلاحظ قليلاً. هناك عدد لا حصر له من المستشفيات وبيوت المسنين والموتيلات الرخيصة، ليس فقط فى الغرب الأوسط بل فى الشرق أيضًا، حيث يمكن أن تعيش هذه الستارة البنية المدعومة بالمطاط حياة مديدة مفيدة. ليس خطأها أنها لا تنتمى لحياة بيوت الطلاب. إنها لم تبد أية رغبة فى تجاوز دورها، وليس فى مادتها أو رسوماتها أى بادرة على طموح فى غير محله. إنها ما هى عليه. أخيراً عندما أخرها عشية التخرج، رأى أن طياتها الوردية العذرية التى لم تفض بكارتها أقل بلاستيكية وسخفًا مما يتذكر. لا تستدعى الخجل منها كما يتذكر.

قال ألفريد: "أنا لا أفهم هذه البطانية".

قال شيب لدينيس وهو يصعد السلم: "طيب، إن كان حالك سيتحسن، فلن أسدد لك الدين".

***

السؤال هو: كيف الخروج من هذا السجن؟

السيدة السوداء الضخمة، الحقيرة بنت الحرام هى التى يجب أن يحذرها ويحتاط منها. تريد أن تحول حياته إلى جحيم. ها هى واقفة عند الطرف البعيد لفناء السجن تحدجه بنظرات محملة بالمعانى، تذكره أنها لم تنسه، وأنها ما زالت وراء ثأرها. إنها بنت حرام كسولة سوداء وقال لها هذا وهو يصيح. لعن ولاد الحرام، السود والبيض على السواء، كل من حوله من ولاد الحرام. ولاد الحرام الحرامية بقوانينهم البلهاء. بيروقراطيو وكالة حماية البيئة، هيئة السلامة والصحة المهنية، ولاد الكلب. إنهم يعيدون عنه الآن طبعًا لأنهم يعرفون أنه لن يرحمهم، لندعه ينام دقيقة، لندعه يتخلى عن حذره، ثم انظر ماذا سيفعلون به. لا يطيقون انتظار أن يقولوا له أنت لا شىء. لا يطيقون انتظار إظهار قلة الأدب. بنت الحرام السوداء البدينة، تلك الشرموطة السوداء الوسخة هناك، تنظر إليه وتومئ برأسها من وراء رؤوس السجناء البيض الآخرين: سأنال منك. هذا ما تقوله إيماءتها له. ولا أحد يرى ما تفعله معه. البقية غرباء خجولون لا نفع منهم يتكلمون كلامًا فارغًا. قال يا أهلاً لأحد الزملاء، سأله سؤالاً بسيطًا. الجدع لا يفهم الإنجليزية حتى. سؤال بسيط، اسأل سؤالاً بسيطًا تحصل على إجابة بسيطة، لكن لا. لا أحد يسانده الآن، ها هو فى ركن قصى وحده وبنت الحرام وراءه تريد الانتقام.

لا يفهم أين شيب. شيب ذكى وله أساليبه فى تعقيل هؤلاء الناس. أبلى شيب بلاءً حسنًا بالأمس، أفضل مما أبلى هو نفسه. سأل سؤالاً بسيطًا وحصل على إجابة بسيطة، ثم فسر الموضوع بطريقة رجل يفهم. لكن لا أثر لشيب الآن. نزلاء السجن حوله يفسحون الطريق لبعضهم البعض، يلوحون بأيديهم كرجال المرور. حاول أن تعطى أمرًا بسيطًا لهؤلاء الناس، حاول فحسب. يتظاهرون بأن لا وجود لك. تلك السوداء البدينة بنت الحرام يخافونها، يشخون على روحهم منها. إذا فهمت أن هؤلاء السجناء يقفون إلى جانبه يساندونه، إذا فهمت أنهم يساعدونه بأية طريقة فسوف يدفعون الثمن. آه، تلك النظرة فى عينيها. نظرة "سوف أؤذيك وأؤلمك"، وهو فى هذه النقطة من حياته نال كفايته من النسوان السود الوقحات، لكن ماذا يفعل؟ إنه سجن. إنه مصلحة حكومية. يرمون هنا أى شخص يشاءون. نساء بيضاوات الشعر. جنيات صلعاوات تلامس أصابع أقدامهن الأرض. لكن لماذا هو يا رب؟ لماذا هو؟ أن يرموه فى مكان كهذا شىء يدفع إلى البكاء بالدموع. التقدم فى العمر جحيم دون اضطهاد هذه السوداء التى صفتها ونعتها كذا وكذا.

ها هى تقترب مرة أخرى.

وقحة.. متغطرسة: "ألفريد؟ ستدعنى أمدد لك ساقيك الآن؟"

قال لها: "يا بنت الحرام، يا وسخة".

"دعك منى يا ألفريد. فأنا أعرف من هما أبوىّ. لم لا تضع قدميك على السرير بهدوء ورفق وتدعنى أمددهما لك وأساعدك حتى يتحسن حالك".

حاول أن ينهض وهى تقترب منه، لكن حزامه علق بالمقعد علق بالمقعد لا يعرف كيف علق بالمقعد. علق بالمقعد ولا يمكنه أن يتحرك.

قالت الحقيرة: "استمر يا ألفريد وسوف نعيدك إلى حجرتك".

"بنت حرام! بنت حرام! بنت حرام!"

ارتسم التكبر على وجهها وابتعدت عنه، لكنه يعرف أنها ستعود. دائمًا ما يعودون. أمله الوحيد هو أن يحرر حزامه من المقعد بأية طريقة. أن يحرر نفسه ويجرى وينهى كل هذه المعاناة. تصميم فناء السجن هكذا على طوابق كثيرة تصميم سيئ. يمكن للمرء أن يرى بوضوح حتى إلينويز. هناك نافذة كبيرة هناك. تصميم ردىء إن كنت تنوى وضع السجناء هنا. من منظر الزجاج يبدو حراريًا من طبقتين، إذا ضربه برأسه وحاول عبوره فقد ينجح. لكن عليه أولاً أن يحرر حزامه العالق.

راح يناضل محاولاً تحرير الحزام، متحركًا هنا وهناك. كان قد تعود على مواجهة المعوقات بشكل فلسفى لكن هذا الزمن قد ولّى. أصابعه ضعيفة كالعشب عندما يحاول تحريكها تحت الحزام كى يخلعه. تتلوى كأصابع الموز الطرية. يحاول أن يحركها وراء الحزام، محاولة يائسة بكل وضوح، الحزام له ميزة الصلابة والجمود. سرعان ما تبين عدم جدوى جهوده بكل ما فيها من حسرة وغضب وعقم. علّق أظافره بالحزام ثم أبعد ذراعيه عن بعضهما، ترك يداه ترتطمان بظهر المقعد وترتد بشكل مؤلم هنا وهناك، لأنه غاضب غاضب.

قال له الصوت: "بابا بابا، اهدأ يا بابا".

"هات بنت الوسخة! هاتها!"

"بابا، اهدأ هذا أنا شيب".

الصوت مألوف قطعًا. رفع بصره إلى شيب فى حذر ليتأكد أن الصوت هو صوت ابنه الأوسط، لأن أولاد الحرام قد يحاولون التلاعب به بأية طريقة ممكنة. بالفعل لم يكن المتحدث غير شيب، لا يمكن أن يثق به إلا لو كان شيب. موضوع خطير. لكن ثمة شيئًا فى شيب لا يمكن لأولاد الحرام تقليده. تنظر إلى شيب وتعرف أنه لا يمكن أن يكذب عليك أبدًا. هناك عذوبة فى شيب ليست فى غيره من البشر لا يمكن أن يقلدها أحد.

مع تحول تعرفه على شيب إلى اليقين، هدأت أنفاسه وبدأ شىء كالابتسامة يهيمن على القوى الأخرى المتصارعة على صفحة وجهه.

قال أخيرًا: "تمام!"

جذب شيب مقعدًا آخر وأعطاه كوبًا من الماء البارد فأدرك أنه ظمآن. جذب الماء طويلاً من الشفاطة ثم أعاد الكوب إلى شيب.

"أين أمك؟"

وضع شيب الكوب على الأرض: "أفاقت من النوم مصابة بالبرد. قلت لها أن تبقى فى الفراش".

"أين تعيش الآن؟"

"إنها فى البيت. حيث تركتها منذ يومين بالضبط".

سبق وشرح له شيب سبب وجوده هنا، وكان التفسير واضحًا ومعقولاً طالما هو قادر على رؤية وجه شيب وسماع صوته، لكن ما إن يرحل شيب حتى ينهار التفسير تمامًا.

بنت الحرام السوداء الضخمة تحوم حولهما بعينيها الشريرتين.

قال شيب: "هذه حجرة العلاج الطبيعى. نحن فى الطابق الثامن من مستشفى سان لوك. أجرت ماما عملية قدمها هنا، إن كنت تتذكر".

قال مشيرًا فى أحد الاتجاهات: "مَرَة بنت حرام".

قال شيب: "لا إنها إخصائية العلاج الطبيعى، وهى تحاول مساعدتك".

"لا، انظر إليها. ألا تراها؟ ألا ترى كيف هى؟"

"إنها إخصائية علاج طبيعى يا بابا".

"أخص.. إيه؟ ماذا؟"

على جانب هو يثق فى ذكاء وطمأنة ابنه المثقف له. على الجانب الآخر، بنت الحرام السوداء تزجره بعينها لتحذره من الضرر الذى ستلحقه به فى أقرب فرصة ممكنة، هناك غل عجيب وكبير فى طريقتها معه، واضح كالنهار. لا يمكنه التعامل مع هذا التناقض والتوفيق بين شقيه: إيمانه بأن شيب محق تمامًا وإيمانه بأن بنت الحرام ليست إخصائية أى شىء.

التناقض ينفتح على هوة سحيقة. نظر إلى قرارها غير المنظور، فمه مفتوح. هناك شىء دافئ ينساب على ذقنه.

ثم امتدت إليه يد بنت الحرام. حاول أن يتخلص من بنت الحرام وأدرك فى الوقت المناسب أن هذه هى يد شيب.

"اهدأ يا بابا، أنا أمسح لك ذقنك".

"يا ربى".

"أتريد أن تجلس هنا قليلا؟ أم تريد أن تعود إلى حجرتك؟"

"سأترك لك القرار".

هذه جملة حلوة تسعفه دائمًا عندما يتكلم، جملة أنيقة حلوة.

مد شيب يده وراء المقعد وبدأ يحركه: "دعنا نعود إذن". من الواضح أن فى المقعد روافع وآلات وهو معقد للغاية.

قال: "كيف أفك هذا الحزام؟"

"سوف نعود إلى الحجرة ثم يمكننا أن نتمشى قليلاً".

أخرجه شيب من الفناء ثم أغلق عليه باب زنزانته. لا يمكنه أن يرى كمية الترف المتوفر فى هذا المكان. وكأنه حجرة فندق خمس نجوم لكن هناك قضبانًا على السرير وأصفادًا ولاسلكيًا، معدات السيطرة على السجين.

أوقفه شيب قريبًا من النافذة، ثم غادر الحجرة ومعه الدورق وعاد بعد دقائق ومعه فتاة جميلة ترتدى معطفًا أبيض.

قالت: "سيد لامبرت؟" كانت جميلة مثل دينيس، شعرها أسود مجعد وترتدى نظارة رفيعة، لكن أصغر من نظارة دينيس: "أنا دكتورة شولمان. ربما تذكرنى من لقائنا أمس".

قال: "تمام!" ابتسامته تتسع. يذكر عالمًا فيه فتيات كهذه الفتاة، فتيات صغيرات جميلات وعيون براقة وجباه ذكية، عالم من الأمل.

وضعت يدًا على رأسه ومالت إلى الأمام كأنها ستقبله. أخافته كثيرًا. كاد يضربها.

قالت: "لم أقصد أن أخيفك. أريد فقط أن أنظر فى عينيك. هل توافق؟"

التفت إلى شيب ليستعين برأيه، لكن شيب كان يحدق فى الفتاة.

قال: "شيب!"

نزع شيب عينيه عنها: "نعم يا بابا؟"

بعد أن جذب انتباه شيب، عليه أن يقول شيئًا، وما قاله كان كالتالى: "قل لأمك ألا تقلق على الدنيا الخربانة فى الأسفل، سوف أصلح كل شىء".

"حاضر سأقول لها".

أصابع الفتاة الماهرة ووجهها الناعم حول رأسه تحيط به. طلبت منه أن يكور يده، وقرصته ووخزته. كانت تتحدث كأنها تليفزيون فى حجرة أخرى.

قال شيب: "بابا؟"

"لا أسمع".

"دكتورة شولمان تريد أن تعرف إن كنت تفضل أن تقول لك ألفريد أم مستر لامبرت. ماذا تفضل؟"

ابتسم فى ألم: "لا أفهم".

قال شيب: "أظنه يفضل مستر لامبرت".

قالت الفتاة الصغيرة: "مستر لامبرت. هل يمكن أن تخبرنى أين نحن؟"

التفت مرة أخرى إلى شيب وكانت ترتسم على وجهه نظرة من ينتظر إجابة، لم يساعده هذا. أشار إلى النافذة وقال لابنه وللفتاة:

"إلينويز فى هذا الاتجاه". كانا ينصتان له باهتمام كبير، فأحس أن عليه قول المزيد: "هذه نافذة، وإذا فتحناها، فهذا شئ أحبه. لا يمكننى فك الحزام. ثم أن".

لم ينجح فى الإجابة وهو يعرف.

نظرت الفتاة الصغيرة إليه فى عطف: "هل تخبرنى من هو الرئيس؟"

ابتسم، هذا سؤال سهل.

أجاب: "تمام. عندها كراكيب كثيرة تحت. لن تلاحظ حتى لو تخلصنا من كل شئ".

أومأت الفتاة الصغيرة برأسها وكأنها إجابة معقولة. ثم رفعت يديها. كانت جميلة مثل إنيد، لكن إنيد معها خاتم الزواج، إنيد لا ترتدى نظارة، إنيد طعنت فى السن مؤخراً وكان ليتعرف على إنيد لو رآها، فرغم كونها مألوفة له أكثر بكثير من شيب نفسه، فمن الأصعب عليه أن يعرفها.

سألته الفتاة: "كم أصبع؟"

نظر إلى أصابعها. على قدر ما يعرف، الرسالة التى ترسلها له هى أن استرخ، اهدأ، على مهلك.

تبول مبتسماً.

الأصابع أمامه: "مستر لامبرت؟ كم أصبعاً ترى؟" كم هو شئ جميل. الراحة اللصيقة بانعدام المسئولية. كلما قل ما يعرفه زادت سعادته. الجنة هى ألا يعرف أى شئ.

"بابا؟"

"هذا سؤال سهل. أتصدقين أننى قد أنسى شيئًا كهذا؟"

تبادلت الفتاة الصغيرة وشيب نظرة ثم خرجا إلى الردهة أمام الحجرة.

استمتع بإطلاق بوله، لكن بعد دقيقة أو اثنتين أحس بالرطوبة والعطن. يحتاج لتغيير ثيابه الآن ولا يمكنه هذا. جلس وسط قرفه حتى برد.

قال: "شيب؟"

نزل الصمت على الزنزانة. لا يمكنه الاعتماد على شيب، فهو يختفى دائمًا. لا يمكنه الاعتماد على أحد إلا نفسه. بدون خطة فى رأسه بالمرة ولا طاقة فى يديه حاول أن يخفف الحزام حتى يخلع بنطلونه ويجفف نفسه. لكن الحزام مربوط بقوة كعهده. مرر يديه عشرين مرة على امتداده وفشل عشرين مرة فى العثور على توكة الحزام. كشخص فى بُعدين يسعى للحرية فى البعد الثالث. يبحث على امتداد الأبد ولا يجد أبدًا التوكة اللعينة.

نادى بصوت غير مرتفع لأن بنت الحرام السوداء هناك على الجانب الآخر وسوف تعاقبه بقسوة إن سمعته: "شيب! شيب، تعال وساعدنى".

كان ليفضل التخلص من ساقيه تمامًا. إنها ضعيفة ولا تهدأ ومبتلة ومحاصرة. ركل قليلاً وراح يرتج فى المقعد. يداه ترتعشان. كلما قلت قدرته على تحريك ساقيه زادت حركة ذراعيه. أولاد الحرام حاصروه، تعرض لخيانة، بدأ يبكى. لو كان يعرف فقط! لو

كان يعرف، كان ليأخذ خطوات، كانت معه بندقية، وكان ليرتاح فى المحيط البارد بلا قرار، لو كان يعرف!

ضرب الحائط بدورق مياه، وأخيرًا جاء شخص ما يركض.

"بابا بابا بابا، ماذا حصل؟"

نظر ألفريد إلى ابنه، إلى عينيه. فتح فمه، لكن الكلمة الوحيدة التى تفوه بها كانت: أنا.

أنا.

أنا ارتكبت أخطاء.

أنا وحيد.

أنا مبتل.

أنا أريد الموت.

أنا آسف.

أنا بذلت قصارى جهدى.

أنا أحب أولادى.

أنا أحتاج مساعدتك.

أنا أريد أن أموت.

قال: "أنا لا يمكن أن أبقى هنا".

قرفص شيب على الأرض بجوار المقعد. قال: "اسمع. يجب أن تبقى هنا أسبوعًا آخر حتى يراقبوا صحتك. يجب أن نصل إلى التشخيص".

هز رأسه: "لا! يجب أن تخرجنى من هنا!"

قال شيب: "بابا، أنا آسف، لكن لا يمكننى أن آخذك إلى البيت. يجب أن تبقى هنا أسبوعًا آخر على الأقل".

يا ساتر، كم يختبر ابنه صبره! لابد أن شيب يعرف الآن ما عليه عمله دون أن يخبره به مرة أخرى، فقد طلبه كثيرًا.

"أقول لننتهى من هذا القرف!" ضرب ذراعيه بمقعده المأسور فيه: "يجب أن تساعدنى فى التخلص من هذا القرف!"

نظر إلى النافذة التى أصبح على أهبة الاستعداد أخيرًا لأن يرمى نفسه منها. أو أعطنى بندقية، أعطنى فأسًا، أعطنى أى شىء، لكن دعنى أخرج من هنا. يجب أن يفهم شيب هذا الكلام.

غطّى شيب يديه المرتعشتين بيديه.

قال: "سأمكث هنا معك يا بابا. لكن لا يمكننى أن أعينك على هذا الكلام. لا يمكننى أن أنهى الموضوع هكذا. أنا آسف".

كزوجة ماتت أو كبيت احترق، كان صفاء التفكير والقدرة على الحركة براقة ما زالت فى ذهنه ذكراها. من وراء نافذة يطل على العالم التالى، ما زال قادرًا على أن يرى بوضوح تلك القوة، على حواف متناول يديه، وراء زجاج النافذة الحرارى. يرى النتائج المرجوة، الغرق فى البحر، رصاصة البندقية.. السقوط من عل، نتائج قريبة منه لدرجة أنه رفض تصديق أنه خسر فرصة الاستفادة منها كل مرة.

بكى على الظلم المحملة به كلمته: "لأجل ربنا يا شيب".. يتكلم بصوت جهورى، لأنه يشعر أن هذه قد تكون فرصته الأخيرة ليحرر

نفسه قبل أن يخسر كل اتصال ممكن بالصفاء والقوة ومن ثم فمن الضرورى أن يفهم شيب تمامًا ما يريده: "أطلب مساعدتك! يجب أن تخرجنى من هنا! يجب أن تنهى هذا القرف!".

رغم أنه شيب كان أحمر العينين مغرورقة عينيه بالدموع، فقد كان الصفاء والقوة واضحين فى ملامحه. ها هو ابن يمكنه أن يثق فى أنه يفهمه كما يفهم نفسه. وهكذا كانت إجابة شيب عندما جاءت نهائية. قالت له إجابة شيب إن هنا تنتهى هذه الحكاية. تنتهى بشيب يهز رأسه، وختامها أن قال: "لا يمكننى يا بابا، لا يمكننى".

التصحيحات

التصحيحات عندما جاءت أخيراً، لم تكن انفجار فقاعة بين ليلة وضحاها، بل انهياراً أنعم بكثير، تسرب استغرق عامًا للقيمة من الأسواق المالية المهمة، تناقضات تدريجية للغاية لدرجة أنها أدت لظهور عناوين ومانشيتات كثيرة فى الصحف وكان يسهل التنبؤ بالانفجار لدرجة أنه لا يمكن أن يؤلم أحداً غير الحمقى والشغيلة الفقراء.

بدا لإنيد أن الأحداث الجارية بشكل عام أكثر خرسًا وميوعة هذه الأيام من حالها أيام شبابها. عندها ذكريات من الثلاثينيات، وقد شهدت بنفسها ما يمكن أن يحدث لبلد عندما يسلم الاقتصاد العالمى نِمرُه، ساعدت أمها فى توزيع بقايا الطعام على المشردين فى الحارة وراء فندقهما المتواضع، لكن يبدو أن الكوارث بهذا الحجم لم تعد مما يصيب الولايات المتحدة. تم وضع ضوابط للأمان، مثل مربعات الترتان التى تُفرش بها ملاعب العالم المعاصر، لتخفيف الوقعات.

إلا أن الأسواق انهارت وإنيد التى لم تحلم بأن تسر يومًا لأن ألفريد حاصر مدخراتهم فى أصول ثقيلة بفوائد قليلة، تحملت

الانهيار بقدر أقل من القلق عن حال صديقاتها المستثمرات الضاريات فى العالى. أنهت أورفيك ميدلاند كما هددت تأمينها الصحى التقليدى وأجبرتها على الدخول فى عقد اتفاق رعاية صحية جديد، لكن جارها دين دريبلت بجرة قلم - حماه الله - حسن عقدها هى وألفريد مع الشركة إلى عقد رعاية صحية شامل، يسمح لها بالاحتفاظ بأطبائها المفضلين. ما زالت تعانى من نفقات التمريض المنزلى الباهظة كل شهر، لكن تمكنت بالتقطير على نفسها وزوجها من دفع الفواتير بمعاش ألفريد، وبفوائد مكافأة معاشه، وفى الوقت نفسه فإن بيتها الذى تملكه استمرت فى حبه. الحقيقة البسيطة أنه رغم أنها ليست ثرية فهى ليست فقيرة أيضًا. إنها الحقيقة التى راوغتها على مدار سنوات بسبب قلقها وتوترها إزاء ألفريد، لكن ما إن خرج من البيت حتى بدأت تعوض ما فاتها من نوم، فأدركت الحقيقة بوضوح.

أصبحت الآن ترى كل شىء بقدر أكبر من الوضوح، فيما يخص أولادها تحديدًا. عندما عاد جارى إلى سان جود ومعه جوناه بعد شهور قليلة من الكريسماس الكارثى لم تنل معهما غير البهجة والسرور. ما زال جارى يريد منها بيع البيت، لكن لم يعد بإمكانه أن يجادل بأن ألفريد سيقع من على السلم ويكسر رقبته، ثم إن وقتها كان شيب قد أدى الكثير من أعمال الصيانة (طلاء وعزل لمنع تسرب الماء وتنظيف البلاعات وسد الشقوق) التى طالما تم تجاهلها، وهكذا دحضت حجة جارى الأخرى الجيدة التى يبديها من أجل بيع البيت. راح هو وإنيد يتناقران على الفلوس، لكن هذا الجدل استجمامى الطابع لطيف. طاردها جارى مطالبًا بمبلغ ٤,٩٦ دولار الذى "تدين" له به على المسامير الست بوصات، وردت عليه بأن

سألته: "أهذه ساعة جديدة؟" وقال لها أن نعم، أعطته كارولين ساعة روليكس جديدة على الكريسماس، لكن مؤخرًا تعرض لأزمة لأن عنده أسهمًا لشركة أدوية انهارت، ولا يمكنه بيعها قبل 15يونيو، وعلى كل، المسألة مسألة مبدأ يا ماما. لكن إنيد رفضت من حيث المبدأ أن تعطيه الـ ٤,٩٦ دولار. كانت مستمتعة بفكرة أنها قد تدخل قبرها وقد رفضت دفع ثمن هذه المسامير. سألت جارى أسهم أى شركة دواء تحديدًا التى خُدِع فيها تلك. قال لها جارى لا عليك.

بعد الكريسماس، انتقلت دينيس إلى بروكلين فى نيويورك، ومضت للعمل فى مطعم جديد، وفى أبريل أرسلت لإنيد تذكرة طائرة لتذهب إليها فى عيد ميلادها. شكرتها إنيد وقالت إنها لا يمكنها أن تذهب فى تلك الرحلة، فلا يمكنها أبدًا أن تترك ألفريد، فهذا عمل غير سليم. ثم إنها ذهبت واستمتعت بأربعة أيام رائعة فى مدينة نيويورك، ورأت دينيس أكثر سعادة من حالها فى الكريسماس واختارت إنيد ألا تهتم إن كان ما زال هناك رجل فى حياتها أو إن كانت لديها أية رغبة فى أن يكون لها رجل من الأساس.

وفى سان جود، كانت إنيد تلعب البريدج مع مارى بيث شومبرت ذات عصر أحد الأيام، عندما بدأت بيا مايزنر تعلن عن عدم رضاها كمسيحية مخلصة عن ممثلة "شاذة" شهيرة.

قالت بيا: "إنها نموذج سيئ للغاية للشباب. أعتقد أن المرء إذا اختار اختيارًا شريرًا فى حياته، فأقل ما يفعله هو ألا يتباهى به. خصوصًا مع وجود كل هذه البرامج العلاجية القادرة على علاج الناس من هذا النوع".

إنيد التى كانت شريكة بيا فى اللعب وبدأت تنزعج لأن بيا لا تجاريها فى الرهان الذى تريده، علقت بخفة أنها لا تعتقد أن "الشواذ" ليس بوسعهم إلا أن يكونوا "شواذًا".

قالت بيا: "لا يا حبيبتى، هناك طبعًا خيار. إنه ضعف ويبدأ فى المراهقة. لا شك فى هذا. كل الخبراء يعرفون هذا الكلام".

قالت مارى بيث شومبرت: "أعجبنى جدًا ذلك الفيلم الذى مثلته صاحبتها مع هاريسون فورد. ماذا كان اسمه؟"

أصرت إنيد على موقفها فى هدوء: "لا أعتقد أن فى الموضوع اختيارًا. قال شيب شيئًا مهمًا لى مرة فى هذا الموضوع. قال إنه مع كراهية ناس كثيرين للشواذ ومع عدم موافقتهم على طريقتهم فى الحياة، فلماذا يختار الناس أن يكونوا شواذًا إن كان بإمكانهم الامتناع عن هذا الموضوع؟ هذا رأى مهم جدًا".

قالت بيا: "لا، السبب أنهم يريدون حقوقًا خاصة بهم. لأنهم يريدون حقهم فى الزواج. لهذا السبب لا يحبهم الكثير من الناس، بغض النظر عن لاأخلاقية ما يفعلونه. لا يكفيهم اختيار هذا الشىء الشرير، بل يتباهون به أيضًا".

قالت مارى بيث: "لا أذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيلمًا جميلاً".

لم تكن إنيد من المدافعين عن طرق العيش "البديلة"، والأمور التى لا تحبها فى بيا مايزنر لم تكن تحبها منذ أربعين عامًا. لا تعرف لماذا حملها هذا الحوار على مائدة الكوتشينة تحديدًا على أن تقرر أنها لا تريد أن تبقى بيا مايزنر صديقتها. ولا تعرف لماذا

أصبحت مادية جارى وإخفاقات شيب وعدم وجود أبناء لدينيس ـ وهى أمور أصابتها بالأرق الليالى الطويلة ـ لا تعرف لماذا أصبحت هذه الأمور تقلقها أقل بكثير مع خلو البيت من ألفريد.

هناك اختلاف قطعًا فى أحوالها مع مساعدة أولادها الثلاثة لها. شيب تحديداً تغير تغيرًا كالمعجزة. بعد الكريسماس أقام مع إنيد ستة أسابيع، وكان يزور ألفريد يوميًا، قبل أن يعود إلى نيويورك. بعد شهر عاد إلى سان جود وقد تخلص من حلقه البشع. عرض أن يمدد زيارته لمدة سرت وأدهشت إنيد، حتى تبين لها أنه تورط مع طبيبة أعصاب فى مستشفى سان لوك.

طبيبة الأعصاب، أليسون شولمان، كانت فتاة يهودية شقية مشعرة غير جميلة من شيكاغو. أحبتها إنيد بما فيه الكفاية، لكن تعجبت ما حاجة طبيبة شابة ناجحة إلى ابنها الذى يعمل نصف عمل. ازداد تشابك اللغز فى يونيو عندما أعلن شيب أنه سينتقل إلى شيكاغو للبدء فى العيش مع أليسون بصفة لاأخلاقية، وكانت قد انضمت إلى عيادة علاج جماعى فى سكوكى. لم يؤكد شيب أو ينفى أن عنده وظيفة حقيقية ولم يؤكد أو ينفى أنه سيدفع نصيبه من نفقات البيت. زعم أنه يعمل على نص. قال إن منتجه فى نيويورك "أحب" النسخة "الجديدة" للنص وطلب إعادة كتابتها. إلا أنه على حد علم إنيد فهو يعمل مدرسًا بديلاً بدوام جزئى. قدرت إنيد أنه يأخذ سيارته من شيكاغو ويأتى إلى سان جود مرة فى الشهر ويقضى ساعات طويلة مع ألفريد، وأحبت أن يعود أحد أبنائها إلى الغرب الأوسط. لكن عندما أخبرها شيب أنه سيصبح أبًا لتوأم من امرأة لم يتزوجها، وعندما دعا إنيد إلى حفل زفاف كانت العروس فيه حبلى فى سبعة شهور و"وظيفة" العريس الحالية

قوامها إعادة كتابة نص للمرة الرابعة أو الخامسة وأغلب الصـ...
(يهوديين) للغاية ويبدو عليهم السرور بالعريس والعروس السعيدين.
تبين أن إنيد لديها الكثير من الأمور لتحكم عليها بأنها خطأ
وتدينها وتستنكرها! ولم يُشعرها هذا بالفخر، لم تشعر بأن زواجها
الذى دام خمسين عامًا تقريبًا كان جيدًا لدرجة أنه لو كان ألفريد
معها فى العرس فكانت لتتكلم معه عن الخطأ والإدانة. لو كانت
تجلس إلى جوار ألفريد كان الناس الذين يتكالبون عليها فى العرس
ليروا التوتر في عينيها وكانوا ليبتعدوا عنها. ما كانوا ليرفعوها
بكرسيها عن الأرض ويرقصون بها فى أرجاء القاعة على موسيقى
الكليزمر، ما كانت لتحب العرس لو كان معها.

الحقيقة المؤسفة هى أن الحياة فى البيت كانت أفضل للجميع
من دون ألفريد.

احتفظ دكتور هيدجبث والأطباء الآخرون ومنهم أليسون شولمان
بالرجل فى سان لوك حتى يناير ثم فبراير، وراحوا يغرمون شركة
أورفيك ميدلاند التى أوشكت على التنصل من تكاليف علاجهما
المبالغ الكبيرة، فيما راحوا يبحثون عن سبل أخرى أكثر معقولية
للعلاج. أخيرًا صدر أمر خروج ألفريد من المستشفى بعد أن شُخص
بأنه يعانى من مرض باركنسن والديمنتيا والاكتئاب واضطراب
أعصاب الساقين ومجرى البول. أحست إنيد بأنها مُلزمة أخلاقيًا
برعايته فى البيت، لكن أبناءها حمدًا لله لم يقبلوا هذا الكلام. تم
وضع ألفريد فى بيت ديبماير للمسنين، وهو منشأة رعاية طويلة
الأجل قريبة من النادى، وراحت إنيد تزوره كل يوم، تحافظ على
هندامه وتجلب له الطعام المنزلى الجميل.

إنها مسرورة ولو حتى لأنها استعادت جسده وحده. لطالما أحبت حجمه وهيئته ورائحته، وهو الآن أكثر توفرًا لها بعد أن تم ربطه فى مقعد متحرك غير قادر على النطق باعتراضات مفهومة كلما لامسه أحد. يترك نفسه للقبلات ولا يتوتر إذا استبقت شفتيها على شفتيه قليلاً، ولا يجفل منها إذا ربتت على شعره.

كان جسده هو الذى تريده دائمًا. بقيته هى المشكلة. لم تكن سعيدة قبل زيارته، وكانت تعيسة وهى إلى جواره، وتعيسة فى الساعات التالية على زيارته. دخل مرحلة من العشوائية العميقة. كانت إنيد تصل لتجده غارقًا فى حالة من الذعر، ذقنه على صدره ولعابه المتكوم فى حجم كعكة على بنطلون البيجاما. أو ربما تجده يثرثر فى ود مع أحد ضحايا جلطة المخ، أو مع نبتة على الشرفة. ربما تجده يقشر ثمرة خفية تشغل انتباهه ساعة وراء الساعة. قد تجده نائمًا. لكن أيا كان ما يفعله فهو لا يفعل أى شىء معقول.

لا تعرف كيف صبر شيب ودينيس على الجلوس والحديث معه فى أى سيناريو يخترعه، سواء عن حادث قطار أو كونه سجينًا أو كونه على متن رحلة فى سفينة سياحية، لكن إنيد لا يمكنها احتمال أقل خطأ. إذا أخطأ وظن أنها أمه، تصحح له فى غضب: "آل، هذه أنا إنيد، زوجتك منذ ثمانية وأربعين عامًا"، وإذا ظنها دينيس تستخدم معه نفس الكلمات. أحست بأنها مدانة بالخطأ طوال حياتها وها قد واتتها فرصة أن تخبره بأنه هو المخطئ. حتى بعد أن تخففت وأصبحت أقل انتقادًا للناس فى مناحى الحياة الأخرى، فهى يقظة ومنتبهة تمامًا فى بيت ديبماير للمسنين. اضطرت لأن تذهب وتخبر ألفريد أنه مخطئ فى ترك الآيس كريم ينسال على بنطلونه النظيف المكوى. هو مخطئ لأنه لم يتعرف على جو بيرسون

اللطيف الذى تكرم بزيارته. كان مخطئًا عندما لم ينظر إلى صور آرون وكاليب وجوناه. وهو مخطئ عندما لم يتحمس لأن أليسون ولدت بنتين أقل من الوزن المثالى بقليل لكن فى حالة صحية رائعة. هو مخطئ لأنه لم يبد السعادة أو الامتنان أو حتى أقل القليل من الصفاء عندما أتعبت زوجته وابنته نفسيهما ونقلاه إلى البيت فى عشاء عيد الشكر. كان مخطئًا لأنه قال بعد العشاء، وبعد أن أعادوه إلى ديبماير: "الأفضل ألا أخرج من هنا أبدًا، عن أن أخرج وتعيدونى". كان مخطئًا لأنه أفاق بالقدر الكافى لينطق بجملة كهذه، وألا ينتبه باقى الوقت. كان مخطئًا عندما حاول أن يشنق نفسه بملاءة السرير فى الليل. وأخطأ عندما رمى نفسه على النافذة وأصيب. وأخطأ عندما حاول أن يقطع شرايين يده بشوكة العشاء. بشكل عام هو مخطئ فى أشياء كثيرة لكنها، باستثناء زيارتها لنيويورك لأربعة أيام وقضائها عيدى كريسماس فى فيلادلفيا وثلاثة أسابيع كى تتعافى من جراحة ردفها، كانت تزوره دائمًا. عليها أن تقول له بينما الفرصة سانحة أمامها هو مخطئ وكم أنها على حق. كم هو مخطئ لأنه لم يحبها أكثر، وكم هو مخطئ لأنه لم يدللها وينام معها فى كل فرصة ممكنة، وكم هو مخطئ لأنه لم يثق فى حدسها الاستثمارى، وكم هو مخطئ لأنه قضى وقتًا طويلاً فى الشغل ووقتًا قليلاً مع الأطفال، وكم هو مخطئ لأنه كان سلبيًا هكذا دائمًا، وكم أخطأ بكآبته وهربه من الحياة وقوله لا مرة وراء المرة بدلاً من أن يقول نعم وحاضر. عليها أن تخبره بكل هذا، كل يوم. حتى لو كان لا يريد أن يسمع، عليها أن تخبره.

كان قد قضى فى بيت ديبماير للمسنين عامين قبل أن يكف عن قبول الطعام. اقتطع شيب وقتًا من واجباته الأبوية ووظيفته

الجديدة فى التدريس بمدرسة ثانوية خاصة ومن مراجعته الثامنة لنصه حتى يزوره من شيكاغو ويودعه. عاش ألفريد أطول بكثير مما توقع الجميع بعد هذا. ظل أسدًا حتى النهاية. كان ضغط دمه منخفضًا للغاية وقت أن جاءت دينيس وجارى إليه بالطائرة، لكنه عاش بعد ذلك أسبوعًا آخر. رقد متكومًا فى السرير لا يكاد يتنفس. لا يتحرك لأى سبب ولا يرد على أى شىء. لم يزد عن هز رأسه مرة واحدة بقوة إذا حاولت إنيد أن تضع رقيقة ثلج فى فمه. الشىء الوحيد الذى لم ينسه هو فعل الرفض. كل تصحيحاتها له ضاعت هباءً. إنه عنيد كيوم قابلته. لكن عندما مات ووضعت شفتيها على جبينه وخرجت مع دينيس وجارى إلى ليل الربيع الدافئ، أحست أن لا شيئًا يقدر على قتل أملها الآن، لا شىء. إنها فى الخامسة والسبعين من عمرها، ولسوف تُدخل بعض التغييرات على حياتها.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ «العاشقات».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ «نوّة الكرم».. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- «القلعة البيضاء».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - «أين تذهب طيور المحيط».. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ «قرية ظالمة».. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ «الرجل البطىء».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ «طحالب».. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ «شوشا».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - «شارع ميجل».. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ «الحياة الجديدة».. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ «عشر مسرحيات مختارة».. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ «الآخر مثلى».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ «المستبعدون».. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٣ ـ «الأنثى كنوع».. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ «ثلاثة أيام عند أمى».. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ «إسطنبول.. الذكريات والمدينة».. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ «الطوف الحجرى».. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ «نار وريبة».. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور».. مختارات. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ «الذكريات الصغيرة».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ «إليزابيث كُستّلّو».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ «السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود».. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ «حين تقطعت الأوصال».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٣٢- «مارتش».. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس».. رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - «اغتنم الفرصة».. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - «البصيرة».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - «بريك لين».. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- «بريد بغداد».. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - «عن الجمال».. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - «العار».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - «قبلات سينمائية».. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ «هكذا كانت الوحدة».. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ «الشلالات».. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ «العشب يغنى».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ «العالم».. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ «ميراث الخسارة».. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ «الطفل الخامس».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ «بن يجوب العالم».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ «ثورة الأرض».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ «ملك أفغانستان لم يزوجنا».. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ «الكهف».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ «يوميات عام سيئ».. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ «كازانوفا».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ «انقطاعات الموت».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ «العم الصغير».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب المنفى.

٥٤ ـ «اللعب مع النمر».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ «فى أرضٍ على الحدود».. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ «الإرهابية الطيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ «المسرحيات الكبرى» جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ «المسرحيات الكبرى» جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ «نصف شمس صفراء».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى .. رواية..جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ «الحوت».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٣ ـ «رقة الذئاب».. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ «رحلة العم مآ».. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ «مسيرة الفيل».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ «كرسى النسر».. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ «داى».. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ «الحب المدمر».. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ «أين نذهب يابابا»؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ «نداء دينيتى».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ «صخب الميراث».. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧٢ ـ «المؤتمر الأخير».. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ «كتاب الرسم والخط».. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ «كلُّ رجل».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ «نُريد أن نتحدث عن كيڤين».. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ «ألم فذ».. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ «أناقة القنفذ».. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ «حزن مدرسى».. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ «غداً».. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ «الكلمة المكسورة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ «أن نُصبح أغرابًا».. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ «المرأة المسكونة».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ «بيتر كامينتسند».. للكاتب الألمانى «هرمن هيسه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ «بيت السيد بيسواس».. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ «مدريد الأصيلة».. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ «لاڤينيا».. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية.. جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ «أشجار متحجرة».. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ «سنوات الهروب».. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

٨٩ ـ «الباحث عن الذهب».. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٠ ـ «جائزة أو. هنرى».. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ «الحيوان المُحتضر».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ «أنشودة ألاباما».. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ «إنجيل الابن».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ «الوصمة البشرية».. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ «ليتنى لم أقابل نفسى اليوم».. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ «حكاية أوزوالد جـ١».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ «حكاية أوزوالد جـ٢».. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨ـ «وبنى لها معبداً».. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير».. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ ـ «جنون المتاهة».. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر».. رواية..جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ ـ «الملك ينحنى ليقتل».. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٠١ ـ «العبد».. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ ـ «الفراشة والدبابة».. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ ـ «التجمع».. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

١٠٤ ـ «موندو».. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

١٠٥ ـ «الكون فى راحة اليد».. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

١٠٦ ـ «جزيرة صغيرة».. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورانج .

١٠٧ ـ «حياتى».. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى .

١٠٨ ـ «تيو».. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية.. وجائزة مونتانا للرواية.

١٠٩ ـ «الجولة وحوادث مؤثرة أخرى».. للكاتب الفرنسى «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

١١٠ ـ «ذهول ورعدة».. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

١١١ ـ «أوليف كيتريدج».. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

١١٢ ـ «زهرة الكركديه الأرجوانية».. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

١١٣ ـ «ثمة شيءٌ أقول لكم».. للكاتب البريطانى من أصول باكستانية «حنيف قريشى».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

١١٤ ـ «قلبٌ ناصعُ البياض».. للكاتب الإسبانى «خابير ماریاس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب (تشيلى).

١١٥ ـ «كتاب الزنوج».. للكاتب الكندى «لورانس هيل».. رواية.. جائزة الكومنولث للكتاب.

١١٦ ـ «ملك كاهل».. للكاتب الفرنسى «تيرنو مونينمبو».. رواية.. جائزة رينودو.

١١٧ ـ «البينيلوبية».. للكاتبة الكندية «مارجريت أتوود».. رواية.. وسام الفنون والآداب الفرنسى ١٩٩٤.

١١٨ ـ «فوس».. للكاتب الأسترالى «باتريك وايت».. رواية.. جائزة نوبل.

١١٩ ـ «هناك حيث النمور فى أوطانها» جـ١ .. للكاتب الفرنسى «جان ـ مارى بلاس دو روبليس».. رواية.. جائزة ميديسيس.

١٢٠ ـ «هناك حيث النمور فى أوطانها» جـ٢ .. للكاتب الفرنسى «جان ـ مارى بلاس دو روبليس».. رواية .. جائزة ميديسيس.

١٢١ ـ «الناقوس الزجاجى».. للكاتبة الأمريكية «سيلڤيا بلاث».. رواية.. جائزة البوليتزر.

١٢٢ ـ «لاحواء ولا آدم» .. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة دى فلور.

١٢٣ ـ «ذكريات ترانى».. للكاتب السويدى «توماس ترانسترومر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ أعداء "قصة حب".. إسحق باشيفيس سنجر.. جائزة نوبل ١٩٧٨.

٢ـ زجاج مكسور.. آلان مابانكو.. الجائزة الدولية الفرنكفونية ٢٠٠٦.

٣ـ الإحساس بالنهاية.. جوليان بارنز.. جائزة البوكر الدولية ٢٠١١.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة الجوائز
124

وُضعت هذه الرواية على قائمة أفضل مائة رواية صدرت باللغة الإنجليزية بين عاميّ 1923 و 2005 التي أعدتها مجلة تايم الأمريكية. وفي عام 2006 قال عنها الكاتب الأمريكي بريت إيستون إليس إنها "واحدة من أعظم ثلاث روايات كتبها جيلي". وفي عام 2009 كلفت مجلة أدبية أمريكية مجموعة نقاد وكُتاب وصحفيين بالتصويت على أفضل رواية صدرت في العقد الأول من الألفية، فاستقر قرارهم على "التصحيحات" بفارق كبير عن باقي الأعمال.

هذه الرواية – أو هي خمس روايات متشابكة – تمثل ما يُسمى أحيانًا في الولايات المتحدة: "الرواية الأمريكية الكبرى"، أي الرواية التي تعبر لحظة كتابتها عن "روح العصر" في الولايات المتحدة بقدر كافٍ من التفصيل، فتقدم صورة واضحة عن أحوال المجتمع ولغته واهتماماته وثقافته ورؤية المواطن الأمريكي العادي للحياة بشكل عام، كما توصف بهذا المصطلح كل رواية معبرة أفضل التعبير عن حالة الأدب الأمريكي في أي عصر من العصور. ما أقرب هذه الحالة الأدبية إذن إلى ثلاثية نجيب محفوظ مثلاً في تعبيرها عن أحوال المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين.

تنبع أهمية الرواية من أنها نجحت إلى حد بعيد في التوفيق بين المقولات الما بعد حداثية للأدب والرواية الواقعية كما اتُفق عليها. هناك جملة في متن الرواية تعبر عن الحالة الأدبية التي تقدمها، في وصف لمكان محوري، هو مطعم جديد ومختلف تعمل فيه واحدة من شخصيات الرواية المركزية: "فقاعة برّاقة من الحداثة مستقرة وسط مبنى صناعي أثري من عهد الثورة الصناعية الغابر". من ثم فقد يرى القارئ في كتابة جوناثان فرانزن أصداءً من "تشا... و"ديستويفسكي" و"دون ديليلو" و"فيليب روث" و"بورخيس"، بل... لأديبنا الكبير "فتحي غانم". وأخيرًا "جوناثان فرانزن" كاتبٌ مختلف... تقديم أعمال تستوعب تمامًا خصوصية عصره وإيقاعه، دون التعالي ع... الإبداعي السابق عليه.

الروائي: جوناثان فرانزن، كاتب أمريكي.
الجائزة: جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية عام 2001.


الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774488474


40 جنيهًا

تصميم الغلاف: هند سمير